يَسْأَلُونَكَ

فِي الدِّينِ وَالحَيَاةِ

تأليف

الدكتور أحمد الشرباصي

الأستاذ بجامعة الأزهر

المجلد السابع

دار الجيل

بيروت ـ لبنان

يَسِأَلُونَكَ

في الدين والحياة

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلي وأسلم على جميع أنبيائه ورسله . وعلى خاتمهم سيدنا محمد . وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه . ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين .

وأستفتح بالذي هو خير : (ربَّنا عليك توكَّلنا . وإليك أنبنا . وإليك المصير) .

قبس من كتاب الله

"إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون. نزلاً من غفور رحيم. ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين" "سورة فصلت"

الطَهارة

الخارج من السبيلين

السؤال :

هل يعد ما يخرج من أحد السبيلين كالبول والغائط والمنى نجساً ؟

الجواب :

اتفق العلماء على أن البول والغائط نجسان . وقد ورد عن أبى هريرة أن أعرابياً قام فى المسجد فبال فيه فتناوله الناس — أى صاحوا به . فقال لهم النبى ﷺ : دعوه وهريقوا [أى صبوا] على بوله سجلا [أى دلواً] من ماء أو ذنوباً [أى دلوا] من ماء فإنما بعثم ميسرين ولم تبعثوا معسرين . وروى أن النبى ﷺ أتى الغائط [مكان التبرز والتبول] فأمر بعض الصحابة أن يأتيه بثلاثة أحجار ليستجمر بها أى يتطهر .

وأما المنى فقد اختلفوا فى حكم نجاسته . فقال بعض الفقهاء . إنه نجس واستشهدوا لذلك بما روته عائشة قالت كنت أغسل الجنابة [أى أثرها وهو المنى] من ثوب النبى ﷺ فيخرج إلى الصلاة وإن نقع الماء فى ثوبه . أى فى الثوب رطوبة لم يجف . وظاهر الحديث أن المنى نجس . وإلا لما غسلته السيدة عائشة كما جاء فى الحديث . وبهذا قال الإمام مالك والإمام أبو حنيفة . إلا أن مالكاً قال إنه يغسل بالماء كسائر النجاسات . وقال أبو حنيفة يغسل رطبه ويفرك يابسه . وقد روى عن عائشة قالت لقد رأتنى أفرك المنى من ثوب رسول الله ﷺ فركاً فيصلى فيه . أى أنها كانت تفركه بيدها حتى تزول عينه أو جرمه . وكونه ﷺ صلى فى الثوب بعد فرك المنى منه . أى من غير غسل ظاهره أن منى الآدمى طاهر وعليه الإمام الشافعى والإمام أحمد رضى الله عنهما . وإذا كان قد جاء ذكر الغسل فى بعض الأحاديث فذلك لزيادة النظافة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

الوضوء والإصبع المبتورة

السؤال :

ما موقف الإسلام من الوضوء إذا كانت هناك أصبع فى اليد مبتورة ؟

الجواب :

الوضوء فريضة لازمة لأن القرآن الكريم يقول : (ياأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين) .

وحديث رسول الله ﷺ يقول :

« لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ » .

وإذا كانت هناك فى الكف أصبع مبتورة فإن الإنسان لا حيلة له فى ذلك . فيسقط حكم الوضوء عن هذه الأصبع المبتورة لأنه لا وجود له فهو فى حكم المعدوم .

والحكم كذلك إذا كان هناك أكثر من أصبع مقطوعة . والحكم كذلك أيضاً إذا كان هناك عضو مقطوع أكبر من ذلك . كما إذا كان الإنسان مقطوع الكف أو الذراع أو القدم . فإن فريضة الوضوء هنا تتعلق بالموجود من أعضاء الوضوء . لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الصَّلاة

عورة المرأة

السؤال :

سمعت أن الإمام الطبرى له مذهب فى عورة المرأة فما هو ؟

الجواب :

عندما تعرض ابن جرير الطبرى لتفسير قوله تعالى فى سورة النور : (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن) .

روى عن قتادة : (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) قال المسكتانى والخاتم والكحل . [والمسكتة السوار] . قال قتادة : وبلغنى أن النبى ﷺ قال : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تخرج يدها إلا إلى هنا ، وقبض نصف الذراع » .

وروى الطبرى قول عائشة : دخلت على ابنة أخى لأمى عبد الله بن الطفيل مزينة ، فدخل النبى ﷺ فأعرض ، فقالت عائشة يارسول الله إنها ابنة أخى وجارية ، فقال : إذا عركت المرأة [حاضت] لم يحل لها أن تظهر إلا وجهها ، وإلا ما دون هذا ، وقبض على ذراع نفسه فترك بين قبضته وبين الكف مثل قبضة أخرى .

قال ابن جرير بعد إيراد الأقوال : « وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : عنى بذلك الوجه والكفان ، يدخل فى ذلك إذا كان كذلك الكحل والخاتم والسوار والخضاب .

وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال فى ذلك بالتأويل لإجماع الجميع على أن كل مصل أن يستر عورته فى صلاته وأن للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها فى

صلاتها . وأن عليها أن تستر ما عدا ذلك من بدنها ، إلا ما روى عن النبي ﷺ أنه أباح لها أن تبديه من ذراعيها إلا قدر النصف ؛ فإذا كان ذلك من جميعهم إجماعاً ، كان معلوماً بذلك أن لها أن تبدى من بدنها ما لم يكن عورة كما ذلك للرجال ، لأنه مالم يكن عورة فغير حرام إظهاره ، وإذا كان لها إظهار ذلك كان معلوماً أنه مما استثناه الله تعالى ذكره بقوله : (إلا ما ظهر منها) لأن كل ذلك ظاهر منها » .

وأغلب الفقهاء على أنه لا يجوز للمرأة أن تكشف من جسمها إلا وجهها وكفيها وقدميها ، وذلك عند أمن الفتنة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

حول التيمم

السؤال :

هل تصح صلاة الزوجة التي تيممت الصلاة ولكنها قبل أن تصلى جهزت الطعام لزوجها فهل يفسد التيمم ؟ .

الجواب :

التيمم يقوم مقام الوضوء إذا توافرت شروطه . وينقضه ما ينقض الوضوء . ومجرد إعداد الزوجة الطعام لزوجها لا يفسد الوضوء إذا كانت متوضئة . وكذلك لا ينقض التيمم إذا كانت متيممة . ولكن قد يقال إن المرأه إذا لمست زوجها وهى تعد له الطعام . فإذا كان الأمر كذلك . وكان مذهب الزوجة يرى نقض الوضوء باللمس فإن تيممها ينقض فى هذه الحالة لأن وضوءها ينقض كذلك .

والله تبارك وتعالى أعلم .

كراهية المأموم للإمام

السؤال :

هناك شخص يكره الإمام الذى يأتم به ، فهل تمنعه هذه الكراهية من صلاة الجمعة ؟ .

الجواب :

يجب على الذى يؤم الناس أن يكون قدوة صالحة فى مظهره ومخبره ، وأعماله وأقواله وسلوكه وتصرفاته ، لأنه يتقدم العابدين فى محراب الصلاة ، وهذه الإمامة تقع فى أشرف الأعمال وهى الصلاة .

ويقرر الفقهاء أنه يقدم للإمامة أقرأ القوم ثم أعلمهم ثم أورعهم وأتقاهم ، وقرر الفقهاء كراهية الصلاة خلف الإمام الفاسق ولكن الصلاة تصح وراءه مع الكراهية . ومن واجب الإمام فيما بينه وبين ربه إذا ما أحسّ كراهية الناس له وضيقهم به أن يعتزل إمامتهم .

وعلى ولى الأمر أن يحسن اختيار الإمام الصالح ليؤم الناس .

وقد يكون من حقنا أن نتساءل : ما سبب الغضب من الإمام ؟ أهو شخصى أم دينى ؟ ثم من حقنا كذلك أن نتساءل هل حاول المأموم نصح ذلك الإمام ، ودعوته إلى الخير ، بحكمة وموعظة حسنة .

ثم ما علاقة شخص الخطيب بصلاة الجمعة ؟ إن الصلاة لله تعالى وهذا المأموم يستطيع أن يصلى فى مسجد آخر ، والمساجد كثيرة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

إمامة العاصى

السؤال :

الذى لا يذهب إلى المسجد فى أحد الأيام بلا سبب هل ينبغى اتخاذه إماماً ؟ وإذا مات هل يصلى عليه ؟

الجواب :

التردد على المساجد لأداء الصلوات أو لتعميرها بالتلاوة والذكر ونحو ذلك فضيلة من فضائل الإسلام . ويكفينا أن نتذكر أن الرسول ﷺ ذكر سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله . ومنهم شاب معلق قلبه بالمساجد . أى كثير التردد عليها للعبادة فيها . والقرآن الكريم يقول : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) . فالذى يستقيم فى خلقه وأعماله وطاعته يكون أحق بالإمامة من غيره ولكن إمامة العاصى جائزة وإن كان غيره أولى .

وإذا مات الشخص العاصى بهجره المساجد يصلى عليه مادام قد مات على الإسلام وإن كان عاصياً . وأمره إلى الله عز وجل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

من يستحق الإمامة

السؤال :

هل يتخذ إماماً من يتخذون أولياء من دون الله أو يؤمنون بالشيوخ ؟ وإذا مات الإنسان الذى يفعل هذا هل يصلى عليه ؟

الجواب :

الأصل فى الإسلام أن يختار المسلمون لإمامتهم وقيادتهم وتوجيههم خير الصالحين للإمامة والقيادة ، بأن يكون الإمام قدوة فى علمه وعمله واستقامته ، وألا يكون منحرف السلوك أو مجاهراً بكبيرة من الكبائر ، أو مصراً على عمل لا يليق بالمسلم أن يرتكبه أو يعتاده . ومن الواضح أنه لا يجوز شرعاً ولا عقلا . أن يتخذ أحد أرباباً من دون الله فذلك شرك وكفر بالله الواحد الأحد ، وما من إله إلا إله واحد ، فمثل هذا لا يجوز أن يتخذه الناس إماماً متى عرفوا عنه هذا الانحراف .

والذين يؤمنون بالشيوخ إذا كان المراد بإيمانهم بهم أنهم يعتقدون أنهم يملكون من دون الله نفعاً أو ضراً فذلك أيضاً انحراف عن طريق الإسلام وضلال كبير عن صراطه المستقيم ، والله يقول : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير) .

وأما فيما يتعلق بالصلاة على الميت إذا صدر منه هذا الانحراف، فالقاعدة أن المشرك أو الكافر لا يصلى عليه فى الإسلام لقول الله تعالى : (ولا تصل على على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) . وأما إذا كان الإنسان مسلماً موحداً ومع ذلك يرتكب المعاصى والذنوب فإنه يصلى عليه وأمره إلى الله عز وجل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

الدوام على الصلاة والمحافظة عليها

السؤال :

نجد القرآن الكريم يقول : (الذين هم على صلاتهم دائمون) ، ويقول : (والذين هم على صلاتهم يحافظون) فما معنى الدوام على الصلاة ، ومعنى المحافظة عليها ؟ وما الفرق بين الكلمتين ؟

الجواب :

جاء فى « المفردات » : أصل الدوام السكون ، يقال : دام الماء ، أى سكن ، ونهى أن يبول الإنسان فى الماء الدائم ، وأدمت القدر ودومتها : سكنت غليانها بالماء ، ومنه : دام الشيء ، إذا امتد عليه الزمان . قال تعالى : (وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم) . وقال : (إلا مادمت عليه قائماً) ، وقال : (لن ندخلها أبداً ما داموا فيها) .

و « الحفظ » يقال تارة لهيئة النفس التى بها يثبت ما يؤدى إليه الفهم . وتارة لضبط فى النفس . ويضاده النسيان . وتارة لاستعمال تلك القوة . فيقال : حفظت كذا حفظاً . ثم يستعمل فى كل تفقد وتعهد ورعاية . قال الله تعالى : (وإنا له لحافظون) وقال : (حافظوا على الصلوات) .

ويقول الله تبارك وتعالى فى سورة المعارج : (الذين هم على صلاتهم دائمون) .

ويقول فى السورة نفسها : (والذين هم على صلاتهم يحافظون) .

ويبسر لنا ابن كثير معنى الآية الأولى بأن الدائمين على الصلاة هم الذين يحافظون على أوقاتها وواجباتها . والمراد بالدوام ها هنا السكون والخشوع .

وقيل : المراد بذلك الذين إذا عملوا عملا داموا عليه وأثبتوه ، كما قال ﷺ : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » ، وكان رسول الله ﷺ إذا عمل عملا دام عليه .

وقال قتادة فى قوله تعالى : (الذين هم على صلاتهم دائمون) : ذكر لنا أن دانيال عليه السلام وصف أمة محمد ﷺ فقال : يصلون صلاة لو صلاها قوم نوح ما غرقوا ، أو قوم عاد ما أرسلت عليهم الريح العقيم ، أو ثمود ما أخذتهم الصيحة ، فعليكم بالصلاة فإنها خلق للمؤمنين حسن .

وأما قوله : (والذين هم على صلاتهم يحافظون) أى : على مواقيتها وأركانها ، وواجباتها ومستحباتها ، فافتتح الكلام بذكر الصلاة ، واختتمه بذكرها ، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها ، كما فعل فى أول سورة المؤمنون ، فقال : (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) ، ثم قال فى السورة نفسها : (والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون) .

ويبرع الإمام محمد الرازى فى التفرقة بين معنى الدوام على الصلاة ، ومعنى المحافظة عليها فيقول : فإن قيل : قال : (على صلاتهم دائمون) ثم (على صلاتهم يحافظون) قلنا : معنى دوامهم عليها ألا يتركوها فى شيء من الأوقات . ومحافظتهم عليها ترجع إلى الاهتمام بحالها ، حتى يؤتى بها على أكمل الوجوه . وهذا الاهتمام إنما يحصل تارة بأمور سابقة على الصلاة ، وتارة بأمور لاحقة بها ، وتارة بأمور متراخية عنها ، أما الأمور السابقة فهو أن يكون قبل دخول وقتها متعلق القلب بدخول أوقاتها ، ومتعلق القلب بالوضوء ، وستر العورة ، وطلب القبلة ، ووجدان الثوب والمكان الطاهرين ، والإتيان

بالصلاة فى الجماعة وفى المساجد المباركة ، وأن يجتهد قبل الدخول فى الصلاة فى تفريغ القلب عن الوساوس والالتفات إلى ماسوى الله تعالى ، وأن يبالغ فى الاحتراس من الرياء والسمعة .

وأما الأمور المقارنة فهو ألا يلتفت يميناً ولا شمالا ، وأن يكون حاضر القلب عند القراءة ، فاهماً للأذكار مطلعاً على حكم الصلاة .

وأما الأمور المتراخية فهى ألا يشتغل بعد إقامة الصلاة باللغو واللهو واللعب ، وأن يحترز كل الاحتراز عن الإتيان بعدها بشىء من المعاصى .

وأما محمد بن أبى بكر عبد القادر الرازى فيقول فى التفرقة بين الدوام على الصلاة والمحافظة عليها : المراد بالمداومة المواظبة والملازمة أبداً . وقيل : المراد بها سكونهم فيها بحيث لا يلتفتون يميناً ولا شمالا ، واختار الزجاج وقال : اشتقاقه من الدائم بمعنى الساكن ، كما جاء فى الحديث : أنه ﷺ نهى عن البول فى الماء الدائم .

قلت : وقوله (على) ينفى هذا المعنى ، فإنه لا يقال : هو على صلاته ساكن ، بل يقال ، هو فى صلاته ساكن .

والمراد بالمحافظة عليها أداؤها على أكمل وجوهها ، جامعة لجملة سننها وآدابها ، فالدوام يرجع إلى نفس الصلاة . والمحافظة إلى أحوالها .

والله تبارك وتعالى أعلم .

أسباب النصر

السؤال :

قرأت أن الصلاة من أقوى أسباب النصر ، أريد بيان ذلك ؟

الجوب :

الصلاة لها أكبر مكانة فى الإسلام ولذلك يقول الكريم : (وأقم الصلاة لذكرى) .

ويقول أيضاً أكثر من مرة : (وأقيموا الصلاة) ويقول : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) ويقول : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ويقول : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) .

ولقد جاء فى حديث رسول الله ﷺ : « رأس الأمر الإسلام . وعموده الصلاة . وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله » . والحديث يقول أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة . وقد قررت السنة أن الصلاة عماد الدين . وأن فرق ما بين المسلم والكافر الصلاة .

وارتباط الصلاة بالجهاد والنصر ارتباط وثيق . فالصلاة تلزمها الطهارة ونظافة الجسم والثوب والمكان . والنظافة صحة وقوة ونشاط . والصلاة نظام وترتيب . فكان خمس فرائض كل يوم . لها مواعيدها المضبوطة . والجهاد يقوم على النظام والصلاة رياضة تتحرك فيها كل أعضاء الجسم . والصلاة مناجاة لله تبارك وتعالى وهذه المناجاة تقوى الإيمان . والنصر قرين الإيمان .

والجندى المجاهد يصلى الصلاة العادية إذا كان فى حالة إيمان واطمئنان ، ويصلى صلاة الحرب المقسومة فى حالة الخوف ، مع أخذ الأسلحة والحذر ، ويصلى بالتيمم إذ لم يتيسر له الماء . ويصلى بالإيماء إذا عجز عن أداء الحركات بسبب الجهاد

والمحافظة على الصلاة عند الجنود تقتضى التقوى والحذر من المعاصى ، ولقد كتب عمر بن الخطاب إلى قائد جيش الإسلام فى زمنه سعد بن أبى وقاص فقال له : « أما بعد ، فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو . وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك من الجنود أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصى منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله . ولولا ذلك لم تكن لهم بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم . ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا . فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله . يعلمون ما تفعلون . فاستحيوا منهم ولا تعلموا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله . ولا تقولوا إن عدونا شر منا . فلن يسلطه الله علينا . فرب قوم سلط الله عليهم شراً منهم . كما سلط على بنى إسرائيل — لما عملوا بمساخط الله — كفار المجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا . واسألوا الله العون على أنفسكم . كما تسألونه النصر على عدوكم . أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الزّكَاة

حول زكاة التجارة

السؤال :

إننى عربى مقيم فى البرازيل ، وأتاجر فى الثياب المخيطة ، وأريد أن أخرج الزكاة فكيف يكون ذلك ، لأن هنا فى البرازيل لا يوجد مسلمون غير أولاد العرب ، والجميع هنا غير محتاجين ، فأرجوكم أن تفيدونى عن كيفية إخراج الزكاة ؟

الجواب :

أوجب الإسلام الزكاة فى مال التجارة . إذا بلغ النصاب الأدنى لمال التجارة ، ومر عليه العام . والنسبة فى الزكاة هى ربع العشر . أى بنسبة ٢.٥٪ وذلك لقول الله تبارك وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم) يقول الطبرى فى تفسير هذه الآية : يعنى بذلك جل ثناؤه : زكوا من طيبات ما كسبتم بتصرفكم إما بتجارة أو بصناعة ، من الذهب والفضة . وروى من عدة طرق فى قوله : (من طيبات ما كسبتم) ، قال من التجارة وقد جاء فى السنة ما رواه أبو داود بإسناده عن سمرة بن جندب قال : كان رسول الله ﷺ يأمرنا أن نخرج الصدقة مما نعد للبيع .

وروى الدارقطنى عن أبى ذر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : فى الإبل صدقتها . وفى الغنم صدقتها . وفى البز صدقته ، والبز — كما فى القاموس — الثياب أو متاع البيت من الثياب ونحوها . فهو يشمل الأقمشة والمفروشات . والأوانى والخردوات ونحوها . ولا خلاف فى أن الصدقة لا تجب فى عين هذه الأشياء . إذا كانت للاستمتاع والانتفاع الشخصى . فلم يبق إلا أن تجب فى قيمتها إذا كانت للاستغلال والتجارة .

هذا غير الأحاديث العامة الأخرى التى تطالب بالزكاة فى سائر الأموال ، مثل : « أدوا زكاة أموالكم » كما روى الترمذى — من غير فصل بين مال ومال . على أن مال التجارة هو أعم الأموال ، لأنه يشمل كل مال يتجر فيه من حيوان وحبوب وثمار وسلاح ومتاع وغير ذلك ، فكان أولى بالدخول فى عموم هذه النصوص .

وأما فيما يتعلق بما يذكره السائل من أن الموجودين معه ليس فيهم محتاج يستحق الزكاة فإنه يستطيع أن ينقل هذه الزكاة إلى مكان آخر ، قريب أو بعيد لمن تستحق هذه الزكاة من المسلمين ، ويستطيع أن ينفق هذه الزكاة فى سبيل الله ، بأن يقدمها إلى هيئة تعمل لنصرة الإسلام ، أو العمل بأحكامه ، فقد نص الفقهاء على أن مثل هذا يعد من مصرف « سبيل الله » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

إهداء الذبائح إلى أرواح الأجداد

السؤال :

هل يجوز أكل اللحوم المذبوحة لإهدائها إلى أرواح الأجداد ، علماً بأن هذه اللحوم قد ذبحت على شريعة الله تعالى ؟

الجواب :

شرع الإسلام إذا ذبح الإنسان المسلم ذبيحة أن يذكر عليها اسم الله ونهى أن يأكل من الذبيحة إذا تعمد ذابحها ألا يذكر اسم الله عليها . أو يذكر عند ذبحها اسماً سواه . فقال تبارك وتعالى : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله

عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) .

وهذا الإهداء إلى أرواح الأجداد ، قد يكون المراد منه فيما نفهم جعل هذه الذبيحة صدقة من الذابح يرجو أن يكون ثوابها لأجداده ، فإذا كان هذا هو المراد فإن الثواب نرجو أن يجعله الله بمشيئته وفضله واصلا إلى المهدى إليهم ، وإذا نوى الذابح أن تكون هذه الذبيحة وقفاً على الفقراء والمساكين فإنه فى هذه الحالة يجب عليه أن يجعلها كلها خالصة لهم ، ولا يجوز له أن يأكل منها أو يهدى إلى أصدقائه منها .

ولكن إذا لم يخصص الذابح ذبيحته لجهة معينة كالفقراء مثلا بل جعلها شبه وليمة عامة بلا تحديد ، فإنه يجوز له أن يأكل منها أو يهدى منها إلى من يحب .

وفى كل الأحوال يراعى ما جاء فى السؤال وهو ذبح الذبيحة على الطريقة الشرعية . كما يراعى أنه لا يجوز التقرب بالذبح إلى غير الله تعالى من أجداد أو غيرهم . فإذا نوى الذابح معنى التقرب إلى روح الأجداد بأعيانهم أو لغيرهم كان ذلك مقرباً إلى غير الله جل جلاله وهذا ما يحرمه الإسلام .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الصَوم

بدء رمضان

السؤال :

متى يبدأ الإنسان صوم رمضان؟ ومتى يفطر ؟ وهل لا بد من انتظار الحاكم حتى يعلن الصوم؟

الجواب :

يقول الله تعالى : (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه) ، فمن حضر دخول الشهر ولم يكن مسافراً بل شهده مقيماً فى أهله وبلده فالواجب عليه أن يصوم ذلك الشهر ما دام مكلفاً قادراً على الصوم ولا يوجد عنده عذر من الأعذار الشرعية التى تبيح له الإفطار . وشهود الشهر يكون برؤية هلاله الذى يبدأ بظهوره شهر رمضان ، فعلى كل من رأى هلال شهر رمضان وهو قادر على الصوم أن يصوم وكذلك إذا ثبتت عنده رؤية هذا الهلال بشهادة الشهود ، أو بإكمال شهر شعبان السابق له ثلاثين يوماً ويفطر المسلم إذا انتهى الشهر بأن ثبتت له رؤية هلال شوال . وذلك لقول الرسول ﷺ : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

السحور فى رمضان

السؤال :

تناول السحور فى رمضان أهو واجب أم سنة ؟

الجواب :

السحور سنة من سنن الصيام ويسن تأخيره ، فقد قال رسول الله ﷺ : « لا تزال أمتى بخير ما أخروا السحور وعجلوا الفطر » وفى الحديث : « استعينوا بطعام السحر على صيام النهار » وأخرج ابن حيان نعم سحور المؤمن التمر وفى الحديث تسحروا ولو بجرعة ماء . وعن أنس أن النبى ﷺ قال : « تسحروا فإن فى السحور بركة » وقد نقل ابن المنذر الإجماع على أن السحور مندوب ، وهو ليس بواجب لما ثبت عنه ﷺ وعن أصحابه أنهم واصلوا صوم اليومين بلا سحور ، وأقل ما يحصل به السحور ما يتناوله المؤمن من مأكول أو مشروب ولو جرعة من ماء .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

رمضان والصوم

السؤال :

لماذا اختار الله تعالى شهر رمضان ليكون شهر الصوم ؟

الجواب :

قد تكون أسهل إجابة يسارع بها الإنسان ليريح نفسه أن يقول : إن هذه هى إرادة الله ، والله يعلم ونحن لا نعلم ، ويكفى أن يكون الله قد قضى بذلك وهو الحكيم الخبير :

(لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) .

وقد يقول الإنسان فى الجواب : إن الله تبارك وتعالى قد فضل بعض الأيام على بعض ، كما فضل بعض الشهور على بعض ، كما فضل بعض الأماكن على بعض .

ويمتاز رمضان أول ما يمتاز ، ويزدان أعلى ازديان ، بأنه الشهر الذى اختاره رب العالمين ، بعلمه وحكمته ، أن ينزل فيه كتابه الحكيم وقرآنه العظيم : (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) .

وشهر رمضان هو الذى شهد أول معركة فى الإسلام كانت بين الإيمان والكفران ، أو بين عباد الرحمن وحزب الشيطان ، وهى غزوة بدر : الغزوة التى وصف القرآن المجيد يومها بأنه (يوم الفرقان) .

وشهر رمضان هو الذى كان من أيامه يوم النصر أو يوم الفتح ، وهو يوم فتح مكة ، الذى قال فى شأنه الحق جل جلاله : (إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) .

وشهر رمضان هو الذى ازدانت لياليه بليلة القدر ، التى رفع الإسلام شأنها ، ونوه بمكانتها ، وهى الليلة التى يقول فيها التنزيل المجيد : (إنا أنزلناه فى ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر * تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر * سلام هى حتى مطلع الفجر) .

وشهر رمضان هو الذى شهد على مر الأيام وكر الأعوام أحداثاً ضخاماً ، ومواقف مشهودة فى مناسبات السلام والحرب ، وفى حياة الشعوب والجماعات

والأفراد، ولقد دفعنى هذا يوماً إلى أن أنشر على الناس (حدث فى رمضان)[1] جمعت فيه مختارات من الأحداث والمناسبات التى شهدها شهر رمضان فى تاريخ الإسلام ، ولا تزال النية معقودة على أن يكون هذا الكتاب بداية ، لها توابع ولواحق ، فإن فيض الوقائع والمناسبات التى كانت فى هذا الشهر كثيرة غزيرة .

ألا تكفى هذه الأسباب مقنعاً للعقل والقلب بأن رمضان شهر الصوم شهر له مكانته ومنزلته ، عند الله وعند عباد الله .

* * *

وهناك سؤال لا يسأم الإنسان أو اللسان من ترداده وتكراره وهو : ما فائدة هذا الصوم الذى نصومه ، ويفرض علينا الدين القيام به ؟ . . ويطيل العلماء الحديث عنه والكتابة فيه ؟

والجواب حاضر كلما حضر السؤال ، وأقام السائل .

إن أسرع هذه الفوائد حضوراً إلى الذهن واللسان هى فائدة الصوم الصحية .

ولم يعد الحديث عن هذه الفائدة مقصوراً على رجال الدين وأهل الإرشاد الدينى ، بل أخذ الأطباء والعلماء والمتخصصون فى العلاج الطبيعى والبدنى ، يوسعون القول فى الفوائد التى تنشأ من الصوم صحياً وبدنياً حتى إن الأطباء ينصحون بالصوم فى طائفة كبيرة من حالات المرض والخلل الصحى. وهم يستوحون فى ذلك القول المأثور : « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء » .

---

(١) انظر الجزء السادس من « يسألونك فى الدين والحياة » .

وإذا كانت هناك مجموعة من الأحاديث فى فضل الجوع . منها الثابت وغير الثابت ، فمن المؤكد أن تخفيف العبء فى الغذاء على المعدة والأمعاء ، أمر يكاد يكون ضرورياً فى أكثر الحالات المرضية ، التى تتطلب العناية والوقاية .

ومن فوائد الصوم فى رمضان أنه تقوية للإرادة والعزيمة ، وتعود على التمرد فى وجه استعباد العادة للإنسان ، حتى كأنه رقيق مملوك لها لا يستطيع فكاكاً منها ، ولا يملك استقلالا عنها ، فإذا جاء الصوم بفرضيته ووجوبه على المؤمن ، أعطاه حصانة ومتانة وقوة فى وجه العادات المذلة الآسرة .

ومن فوائد الصوم — إذا اعتدل واستقام — إحساس الإنسان الصائم بآلام الآخرين ، والجوع الاضطرارى عند الفقراء الجائعين ، فإن جبار السموات والأرض يفرض على عبده الطائع أن يمتنع عن الطعام والشراب من طلوع الفجر حتى غروب الشمس ، وكلما امتد به الوقت وهو صائم ؛ وخلا جوفه من الطعام والشراب ، وأحس بلذعة الجوع ، تذكر أن هناك إخوة له فى الإنسانية والدين ، تضطرهم ظروفهم إلى التعرض للذعات الجوع قهراً واضطراراً . فيثير ذلك فيه معنى المشاركة الوجدانية مع غيره ، ويتذكر أن الله الذى أعطاه وقواه ووقاه يدعوه إلى أن يكون عطوفاً على إخوته بالعون والمساعدة . ولعل هذا هو بعض السر فى أن الإسلام شرع نظام زكاة الفطر عند نهاية رمضان . ليكون ذلك تعبيراً عملياً سريعاً . واستجابة فعلية مواتية . يظهر فيها التأثر النافع بالصوم وبشهر رمضان العظيم .

ومن فائدة الصوم تعود الصائمين النظام لمدة ثلاثين يوماً ، يبدءون صومهم فى ساعة معينة . ويختتمون صيامهم فى ساعة معينة . ويظلون كذلك ثلاثين يوماً . هى أشبه بدورة تدريبية تسير على نظام رتيب .

وقد أجمل القرآن الحكيم فائدة الصوم فى « تقوى الله » فقال فى إيجاز :

(يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) .

وجاء فى تفسير « المنار » فى بيان إعداد الصوم نفوس المؤمنين لتقوى الله هذه العبارة : « إعداد الصيام نفوس الصائمين لتقوى الله تعالى يظهر من وجوه كثيرة ، أعظمها شأناً ، وأنصعها برهاناً ، وأظهرها أثراً وأعلاها خطراً [شرفاً] أنه أمر موكول إلى نفس الصائم لا رقيب عليه فيه إلا الله تعالى ، وسر بين العبد وربه ، لا يشرف عليه أحد غيره سبحانه ، فإذا ترك الإنسان شهواته ولذاته التى تعرض له فى عامة الأوقات ، لمجرد الامتثال لأمر ربه ، والخضوع لإرشاد دينه مدة شهر كامل فى السنة ، ملاحظاً عند عروض كل رغبة له — من أكل نفيس ، وشراب عذب ، وفاكهة يانعة ، وغير ذلك كزينة زوجة ، أو جمالها الداعى إلى ملابستها — أنه لولا اطلاع الله تعالى عليه ، ومراقبته له ، لما صبر عن تناولها وهو فى أشد التوق لها ، لا جرم أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة المصاحبة للعمل ملكة المراقبة لله تعالى ، والحياء منه سبحانه أن يراه حيث نهاه ، وفى هذه المراقبة من كمال الإيمان بالله تعالى ، والاستغراق فى تعظيمه وتقديسه أكبر معد للنفوس ، ومؤهل لها لضبط النفس ونزاهتها فى الدنيا ، ولسعادتها فى الآخرة ، كما تؤهل هذه المراقبة النفوس المتحلية بها لسعادة الآخرة تؤهلها لسعادة الدنيا أيضاً ، انظر هل يقدم من تلابس هذه المراقبة قلبه على غش الناس ومخادعتهم؟ هل يسهل عليه أن يراه الله آكلا لأموالهم بالباطل ؟ هل يحتال على الله تعالى فى منع الزكاة وهدم هذا الركن الركين من أركان دينه ؟ هل يحتال على أكل الربا ؟ هل يقترف المنكرات جهاراً ؟ هل يجترح السيئات ويسدل بينه وبين الله ستاراً ؟ . . . كلا . إن صاحب هذه المراقبة لا يسترسل فى المعاصى ،

إذ لا يطول أمد غفلته عن الله تعالى ، وإذا نسى وألم بشىء منها يكون سريع التذكر ، قريب الفىء والرجوع بالتوبة الصحيحة : (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) فالصيام أعظم مرب للإرادة ، وكابح لجماح الأهواء ، فأجدر بالصائم أن يكون حراً لعمل ما يعتقد أنه خير لا عبداً للشهوات .

إنما روح الصوم وسره فى هذا القصد والملاحظة التى تحدث هذه المراقبة ، وهذا هو معنى كون العمل لوجه الله تعالى » .

• • •

ورمضان شهر الصيام له مميزات ينفرد بها بين الشهور ، منها أن رمضان صوم يشعر الإنسان بأنه قد استجاب لأمر الله ، فامتنع عما كان مباحاً له من طعام وشراب ونحوه ، فإذا ما أدبر النهار وأقبل الغروب كانت هناك فرحة بالتوفيق فى أداء جزء من الصوم ، تجتمع عنده الأسرة أو المجموعة من المعارف والأصدقاء ، يشتركون فى تناول طعام الإفطار ، حامدين ربهم ، شاكرين له توفيقه إياهم ، داعين له أن يتم عليهم النعمة ، وأن يتقبل منهم العبادة .

وفى الشطر الأول من الليل ، أو بين المغرب والعشاء ، أو بعد صلاة العشاء ، تكون هناك دروس الدين والتوجيه الروحى ، وقد تمتد هذه الاجتماعات إلى وقت غير قصير .

ومن مميزات رمضان صلاة القيام [التراويح] التى تؤدى انفراداً أو فى جماعات ، فتكون لوناً من التهجد ، وبجوار ذلك تكون لوناً من الرياضة البدنية ، التى تتحرك فيها أغلب أعضاء الجسم وأطرافه . وهذه الحركة الواسعة ميزة ظاهرة فى الصلاة الإسلامية ، وهى ميزة تستحق أن تنفرد ببحث خاص .

ومن مميزات رمضان أن لياليه تكون عند العباد البصراء مجالا لتلاوة القرآن وتدبر آياته . ورمضان هو الشهر الوحيد فى العام الذى تعرف فيه بيوت المسلمين نظام [المساهر] ، حيث يحضر المسلم القادر فى بيته قارئاً مجوداً للقرآن ، ويحرص على أن يكون حسن الصوت قدر الطاقة ، ويفتح بابه لكل من يرغب فى الاستماع إلى القرآن ، ويستمر [المسهر] إلى ما بعد منتصف الليل ، وكانت هذه العادة ذائعة شائعة فى بلاد المسلمين ، وخصوصاً فى الريف ، ولكن الأيام تحيفتها بعض الشىء ، والمرجو من الله أن يعيد المسلمين إلى سابق عاداتهم الإسلامية القويمة .

ومن مميزات رمضان تعود البر وصنع الخير والاستجابة للإحسان ، ولقد تكون اليد شحيحة ، أو تعودت القبض فى أغلب الأيام ، فإذا جاء رمضان أخذ صاحبها يبذل هنا وهناك على قدر طاقته ، وعلى مدى استعداده للخير . وما أكثر ما نسمع الناس يقولون : « رمضان شهر الإحسان » وهم يقصدون بكلمة الإحسان هنا معنى العطاء والبر والكرم .

ومن مميزات رمضان عند الأتقياء البصراء أنهم يعطون فيه أمثلة رائعة للتأبى على كلمة السوء ومنطق الفحش ، وهم فى هذا يهتدون بهدى إمامهم وزعيمهم وقدوتهم : رسول الله ﷺ الذى قال لهم :

« إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق ، وإن امرؤ شاتمه فليقل : إنى صائم إنى صائم » .

ولله در شوقى حين يتحدث عن الصوم ذلك الحديث الوجيز الرامز فيقول :

« الصوم حرمان مشروع ، وتأديب بالجوع ، وخشوع لله وخضوع ، لكل فريضة حكمة ، وهذا الحكم ظاهره العذاب وباطنه الرحمة ، يستثير الشفقة ، ويحض على الصدقة ، يكسر الكبر ، ويعلم الصبر ، ويسن خلال

البر ، حتى إذا جاع من ألف الشبع ، وحرم المترف أسباب المتع ، عرف الحرمان كيف يقع ، والجوع كيف ألمه إذا لذع » .

ولهذا كله استحق الصوم كما جاء فى الحديث القدسى أن يبقى سراً بين العبد وربه ، وهو سبحانه الذى يتولى إفاضة الثواب على الصائم الذى يرعى هذا السر بينه وبين خالقه تبارك وتعالى .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

صلاة التراويح

السؤال :

ما حكم صلاة التراويح فى رمضان ؟

الجواب :

صلاة التراويح هى صلاة قيام رمضان بالليل ، والتراويح سنة أو نافلة تصلى ليلا فى رمضان بعد العشاء ، وهى سنة مؤكدة للرجال والنساء ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال كان النبى ﷺ يرغب فى قيام رمضان من غير أن يأمرهم فيه بعزيمة — أى أمر ندب وترغيب — « فيقول من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » فتوفى رسول الله ﷺ والأمر على ذلك ، ثم كان الأمر على ذلك فى خلافة أبى بكر وصدراً من خلافة عمر ثم أمرهم عمر بالجماعة فى القيام . وعن عائشة قالت خرج رسول الله ﷺ ليلة فى جوف الليل من رمضان فصلى فى المسجد وصلى رجال مؤتمين به ، فأصبح الناس فتحدثوا فاجتمع أكثر منهم فصلوا معه فى الليلة الثانية ، فأصبح الناس فتحدثوا فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثه ، فخرج رسول الله ﷺ فصلوا

مؤتمين معه ، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله من كثرة المجتمعين لصلاة التراويح ، ولكن النبي لم يخرج لهم فى الليلة الرابعة حتى خرج لصلاة الصبح فقال لهم بعد صلاة الصبح إنه لم يخف على اجتماعكم الليلة لصلاة القيام ولكنى لم أخرج لأصليها معكم خوفاً من فرضها عليكم فتعجزوا .

فتوفى رسول الله ﷺ والأمر على ذلك .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

صوم التطوع

السؤال :

أى الأيام أفضل لصوم التطوع ؟

الجواب :

صوم التطوع هو الصوم المسنون أو المندوب الذى يثاب عليه الصائم إذا فعله ، ولا يعاقب إذا تركه ، ومنه صوم ستة أيام من شوال لقول النبي ﷺ : « من صام رمضان وستة أيام بعد الفطر كان تمام السنة ، من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » ومن صوم التطوع صوم عشر ذى الحجة وعن حفصة قالت : « أربع لم يكن يدعهن رسول الله ﷺ ، صيام عاشوراء والعشر من ذى الحجة ، وثلاثة أيام من كل شهر ، والركعتين قبل الغداة » أى قبل الصبح . ومن صوم التطوع المسنون يوم عاشوراء وهو اليوم العاشر من المحرم ، وأفضل أيام التطوع فى الصوم صوم يومى الاثنين والخميس لأن النبي ﷺ قال : تعرض الأعمال كل اثنين وخميس فأحب أن يعرض عملى وأنا صائم وكان النبي يتحرى صيام يومي الاثنين والخميس .

والله تبارك وتعالى أعلم .

الزنى مع الصيام

السؤال :

ما حكم الشخص الذى يزنى مع صديقته بعد الإفطار فى رمضان هل يبطل صومه؟

الجواب :

هذا السؤال يدل على نوع من الاستخفاف بالدين والاستهزاء بأحكامه أو يدل على الجهل المطبق بتعاليمه ، والإحساس بروحه العامة ، فإن الدين كل لا يتجزأ ، ومجموعة أحكام وفروض متعاونة متماسكة إذا اختل منها عضو كان إخلالا بالدين وانتقاصاً له ، والرجل الذى يزنى مع صديقته يكون قد ارتكب فاحشة من أكبر الفواحش ، سواء كان صائماً أو مفطراً ، وسواء أكان فى رمضان أم فى أى شهر من شهور العام ، وإن كانت جريمة بالزنى فى رمضان أبشع وأشنع ، لأن رمضان هو شهر الصيام والقيام وشهر الإيمان والإحسان ، فكان ينبغى لذلك الشخص أن يتقى الله ويردع نفسه عن جريمة الزنى مع أى امرأة كانت وفى أى وقت كان ، وإذا كانت جريمة الزنى قد وقعت منه بعد الإفطار وانتهاء صوم اليوم فلا قيمة لصومه ولا جدوى له وإن صح شكلا وصورة لأن الذى يتبجح فى ارتكاب الزنى فى رمضان دون مبالاة بحرمة الشهر أو أدب الصيام لا يستحق تقديراً ولا تكريماً ولا يقبل الله منه صومه بعد أن بلغت به الجرأة أن يرتكب هذه الفاحشة بعد الإفطار فى رمضان .

والله تبارك وتعالى أعلم .

صوم عاشوراء

السؤال :

ما حكم الصوم فى يوم عاشوراء؟

الجواب :

عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر المحرم ،وتاسوعاء هو التاسع ، وقيل : عاشوراء هو التاسع ، وفى الحديث : « لئن بقيت إلى قابل لأصومن تاسوعاء » ليخالف المسلمون بذلك اليهود ، لأنهم كانوا يصومون عاشوراء .

وجمهور الأئمة على أن عاشوراء هو العاشر ، وهو سنة مؤكدة ، وفى الحديث المتفق عليه أن النبي لما قدم المدينة وجد اليهود يصومون عاشوراء ، لأن الله نجى فيه موسى فقال النبي أنا أحق الناس بموسى ، ثم صامه ودعا إلى صيامه ، وكان الرسول يشدد فى المطالبة بصومه قبل فرض الصوم فى رمضان فلما فرض صوم رمضان صار عاشوراء سنة .

وروى أن العرب فى الجاهلية كانوا يصومون يوم عاشوراء ، وكانوا يكسون الكعبة فى ذلك اليوم .

وجاء فى كتاب « المجموع » للنووى من أئمة الشافعية هذا النص التفصيلى عن صوم عاشوراء . قال : « اختلف أصحابنا فى صوم عاشوراء هل كان واجباً فى أول الإسلام ثم نسخ أو لم يجب فى وقت . وصريح كلام الشافعى أنه لم يكن واجباً قط ، وقيل إنه كان واجباً وهو مذهب أبى حنيفة ، وأجمع المسلمون على أنه اليوم ليس بواجب ، وأنه سنة . فالوجوب أولا لما ورد أن النبي ﷺ بعث رجلا يوم عاشوراء إلى قومه يأمرهم فليصوموا هذا اليوم . ومن طعم منهم فليصم بقية يومه » . وعن عائشة قالت : « كان رسول الله

صلى الله عليه وسلم أمر بصيام يوم عاشوراء قبل أن يفرض رمضان ، فلما فرض رمضان كان من شاء صام عاشوراء ، ومن شاء أفطر » . .

وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صام يوم عاشوراء والمسلمون قبل أن يفرض رمضان ، فلما افترض رمضان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من شاء صام ومن شاء ترك » ، وعن ابن مسعود فى يوم عاشوراء قال : « إنما كان يوماً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه قبل أن ينزل رمضان ، فلما نزل رمضان ترك » رواه مسلم ، وعن جابر بن سمرة قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا بصيام عاشوراء ويحثنا عليه ويتعاهدنا عنده ، فلما فرض رمضان لم يأمرنا ولم ينهنا ولم يتعاهدنا عنده » وعن أبى موسى : « أن النبي أمر بصيامه » قال أصحاب أبى حنيفة والأمر للوجوب . وقوله من شاء صام ومن شاء أفطر . دليل على تخييره مع أنه سنة اليوم ، فلو لم يكن قبل ذلك واجباً لم يصح التخيير . واحتج أصحابنا على أنه لم يكن واجباً بل كان سنة بأحاديث صحيحة . فعن معاوية بن أبى سفيان أنه يوم عاشوراء قال وهو على المنبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن هذا اليوم يوم عاشوراء ، ولم يكتب عليكم صيامه ، فمن شاء فليصم ، ومن شاء فليفطر » وهذا يدل على عدم الوجوب لأن لم لنفى الماضى ، وعن ابن عمر أن النبي قال : «يوم عاشوراء يوم كان يصومه أهل الجاهلية ، فمن أحب منكم أن يصومه فليصمه ومن كرهه فليدعه » وعن عائشة قالت : : « كان يوم عاشوراء يوماً تصومه قريش فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من شاء صامه ومن شاء تركه » رواه مسلم .

وأما الجواب عن الأحاديث فهو أنها محمولة على تأكد الاستحباب جمعاً بين الأحاديث ، وقوله « فلما فرض رمضان ترك » أى ترك تأكد الاستحباب وكذا قوله فمن شاء صام ومن شاء أفطر .

والله تبارك وتعالى أعلم .


الحَجّ

حديث الغزالى عن الحج

السؤال :

كيف تحدث الغزالى عن الحج ؟

الجواب :

من المعروف عند العلماء أن أعظم كتب الغزالى هو كتاب « إحياء علوم الدين » ، وقد قسم الغزالى كتابه إلى أبواب جعل كل باب منها تحت عنوان « كتاب » ، ولقد كتب حجة الإسلام عن فريضة الحج حديثاً عميقاً دقيقاً تحت عنوان « كتاب أسرار الحج » ، وقد بدأ هذا الباب كعادته بعبارة افتتاح مسجوعة وهى أشبه بمقدمة الخطبة المنبرية قال فيها : « الحمد لله الذى جعل كلمة التوحيد لعباده حرزاً وحصناً ، وجعل البيت العتيق مثابة للناس وأمناً ، وأكرمه بالنسبة إلى نفسه تشريفاً وتحصيناً ومناً ، وجعل زيارته والطواف به حجاباً بين العبد وبين العذاب ومجناً ، والصلاة على محمد نبى الرحمة وسيد الأمة ، وعلى آله وصحبه قادة الحق ، وسادة الخلق ، وسلم تسليماً كثيراً » .

وأنت تلاحظ معى أنه قد ضمن هذه المقدمة إشارات إلى موضوع الباب ومجال الحديث ، فهو قد ذكر البيت العتيق ، وأنه مثابة للناس ، وذكر الزيارة والطواف ، وذلك مما يرمز إلى الموضوع الذى سيتحدث فيه وهو الحج .

وحجة الإسلام يعبر عن فريضة الحج بأنه « عبادة العمر ، وختام الأمر ، وتمام الإسلام ، وكمال الدين » . ولأنه صاحب منهج واضح فى ذهنه ، قد رسمه وخططه من أول الأمر ، نراه يقسم حديثه عن موضوع الحج إلى ثلاثة فصول :

الأول فى فضائل مكة والمدينة والكعبة والحج ، والفصل الثانى عن أعمال الحج الظاهرة ، والفصل الثالث عن آدابه الخفية وأسراره الباطنة ، وهو حين يتحدث عن الأعمال الظاهرة فى العبادات والمعاملات المختلفة يوجز الأحكام الفقهية فى موضوعه على ضوء مذهبه ، والغزالى شافعى المذهب ، ولكنه حين ينتقل إلى الآداب والأسرار الباطنة يصول ويجول ، فتظهر نزعته الصوفية وتتجلى منه صبغة التعمق لدقائق أسرار العبادات والمعاملات ونحوها .

إنه يستشهد أولا بقول الله تعالى فى سورة الحج : (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) .

ويورد فى قول الرسول ﷺ : « حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها ، وحجة مبرورة ليس لها جزاء إلا الجنة » . ويشير إلى أن مكة هى بلد الله الحرام ، ومبعث نبيه ﷺ ، وما من بلد يؤاخذ فيه العبد بالنية قبل العمل إلا مكة ، لأن الله تعالى يقول فى سورة الحج : (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) .

فهو يعاقب هنا على مجرد الإرادة . والرسول صلوات الله ﷺ يقول مخاطباً مكة : « إنك لخير أرض الله عز وجل ، وأحب بلاد الله تعالى إلى » . وتأتى المدينة المنورة عقب مكة المكرمة ، والرسول يقول عن مسجده فيها . « صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام »

ويتحدث حجة الإسلام عن شروط وجوب الحج ، وهى البلوغ والإسلام والعقل والحرية والاستطاعة ، والحج فرض مرة واحدة فى العمر . ومع أن الغزالى يرى جواز تأخير الحج زمناً إلا أنه يقول : « ومن استطاع لزمه الحج وله التأخير . ولكنه فيه على خطر ، فإن تيسر له ولو فى آخر عمره سقط عنه ، وإن مات قبل الحج لقى الله عز وجل عاصياً بترك الحج .

وكان الحج فى تركته يحج عنه وإن لم يوص ، كسائر ديونه . وإن استطاع فى سنة فلم يخرج مع الناس وهلك ماله فى تلك السنة قبل حج الناس ثم مات لقى الله عز وجل ولا حج عليه . ومن مات ولم يحج مع اليسار فأمره شديد عند الله تعالى ، قال عمر رضى الله عنه : لقد هممت أن أكتب فى الأمصار بضرب الجزية على من لم يحج ممن يستطيع إليه سبيلا . وعن سعيد ابن جبير وإبراهيم النخعى ومجاهد وطاووس : لو علمت رجلا غنياً وجب عليه الحج ثم مات قبل أن يحج ما صليت عليه . وبعضهم كان له جار موسر فمات ولم يحج فلم يصل عليه. وكان ابن عباس يقول : من مات ولم يزك ولم يحج سأل الرجعة إلى الدنيا ، وقرأ قوله عز وجل : (رب أرجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت) قال الحج .

وأركان الحج خمسة هى الإحرام والطواف والسعى بعد الوقوف بعرفة والحلق بعده على قول . ويحرم فى الحج : لبس الثياب المخيطة واستعمال الطيب وحلق الشعر أو قصه والمعاشرة الجنسية ومقدماتها ، وقتل صيد البر الذى يؤكل .

وأعمال الحج الظاهرة كما يراها حجة الإسلام تسير على الوضع التالى :

١ — يبدأ قاصد الحج بالتوبة وقضاء الديون ورد المظالم إلى أهلها ، ورد الودائع والأمانات إلى أصحابها ، وإعداد النفقة لمن تلزمهم نفقتهم فى أثناء رحلته إلى حين رجوعه إليهم .

٢ — يتخذ له فى الرحلة رفيقاً صالحاً ، معيناً على الخير ، ومذكراً بما يرضى الله جل جلاله .

٣ — إذا هم بالخروج من داره دعا الله مخلصاً بمثل قوله « اللهم أنت الصاحب فى السفر وأنت الخليفة فى الأهل والمال والولد والأصحاب ، احفظنا وإياهم من كل آفة وعاهة ، اللهم إنا نسألك فى مسيرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى . اللهم نسألك أن تطوى لنا الأرض ، وتهون علينا السفر وأن ترزقنا فى سفرنا سلامة البدن والدين والمال ، وتبلغنا حج بيتك ، وزيارة قبر نبيك محمد ﷺ ، اللهم إنا نعوذ بك من وعناء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد والأصحاب . اللهم اجعلنا وإياهم فى جوارك ، ولا تسلبنا وإياهم نعمتك ولا تغير ما بنا وبهم من عافيتك » .

أو بمثل قوله : « اللهم بك انتشرت . وعليك توكلت . وبك اعتصمت ، وإليك توجهت . اللهم أنت ثقتى ، وأنت رجائى ، فاكفنى ما أهمنى ، وما لا أهتم به ، وما أنت أعلم به منى ، عز جارك ، وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك ، اللهم زودنى التقوى ، واغفر لى ذنبى ، ووجهنى للخير أينما كنت » .

٤ — ينوى الإحرام ، ويأخذ فى التلبية : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك . وإن أراد الزيارة قال : لبيك وسعديك . والخير كله بيديك ، والرغباء إليك ، لبيك بحجة حقاً . تعبداً ورقاً .

ويفلسف الغزالى هدف الإحرام ومعنى التلبية فيقول : « وأما الإحرام والتلبية من الميقات : فليعلم أن معناه إجابة نداء الله عز وجل ، فارج أن تكون مقبولا ، واخش أن يقال لك : لا لبيك ولا سعديك . فكن بين الرجاء والخوف متردداً ، وعن حولك وقوتك متبرئاً ، وعلى فضل الله عز وجل وكرمه متكلا ، فإن وقت التلبية هو بداية الأمر وهى محل الخطر . قال سفيان ابن عيينة . حج على بن الحسين رضى الله عنهما فلما أحرم واستوت به راحلته

اصفر لونه وانتفض ووقعت عليه الرعدة ولم يستطع أن يلبي ، فقيل له : لم لا تلبي ؟ فقال : أخشى أن يقال لى لا لبيك ولا سعديك ، فلما لبى غشى عليه ووقع عن راحلته ، فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه .

وقال أحمد بن أبي الحوارى : كنت مع أبي سليمان الدارنى رضى الله عنه حين أراد الإحرام فلم يلب حتى سرنا ميلا فأخذته الغشية ثم أفاق وقال . يا أحمد إن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام : مر ظلمة بنى إسرائيل أن يقلوا من ذكرى فإنى أذكر من ذكرنى منهم باللعنة ، ويحك يا أحمد : بلغنى أن من حج من غير حله ثم لبى قال الله عز وجل لا لبيك ولا سعديك حتى ترد ما فى يديك ، فما نأمن أن يقال لنا ذلك . وليتذكر الملبى عند رفع الصوت بالتلبية فى الميقات إجابته لنداء الله عز وجل ، إذ قال : (وأذن فى الناس بالحج) ونداء الخلق بنفخ الصور ، وحشرهم فى القبور . وازدحامهم فى عرصات القيامة مجيبين لنداء الله سبحانه وتعالى ، ومنقسمين إلى مقربين وممقوتين ، ومقبولين ومردودين ، ومترددين فى أول الأمر بين الخوف والرجاء تردد الحاج فى الميقات حيث لا يدرون أيتيسر لهم إتمام الحج وقبوله أم لا » .

٥ — الطواف حول الكعبة . والطواف بالكعبة كالصلاة ، ولكن الله أباح فيه الكلام ، ويكون الطواف سبعة أشواط مبتدأ من الحجر الأسود ومنتهياً إليه .

٦ — السعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط .

٧ — الوقوف بعرفة . وهو ركن الحج الأكبر . والحج عرفة . وهو يوم ينبغى فيه كثرة الدعاء .

٨ — المبيت بالمزدلفة ليلة النحر .

٩ — رمى الجمرات بمنى .

١٠ — طواف الإفاضة ، ويسمى طواف الزيارة ، وهو ركن .

١١ — يستطيع أن يقوم بالعمرة بعد الحج أو قبله .

١٢ — زيارة مدينة الرسول ﷺ ، والحديث يقول : « من جاءنى زائراً لا يهمه إلا زيارتى ، كان حقاً على الله سبحانه وتعالى أن أكون له شفيعاً » .

ويتمتع بالصلاة فى الروضة المطهرة التى يقول عنها الرسول : « ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة ، ومنبرى على حوضى » ويرى حجة الإسلام أن من أهم الآداب الدقيقة فى هذه الرحلة أن يتجرد الإنسان للحج ، ويقطع العلائق بالدنيا ، وذلك بالتوبة الخالصة لله تعالى ، عن جملة المعاصى والمظالم ، فكل مظلمة علاقة ، وكل علاقة مثل خصم غريم ، يتعلق بتلابيب الإنسان ويقول له منادياً عليه : إلى أين تتوجه يا فلان ؟ أتقصد بيت الله ملك الملوك وأنت مضيع أمره فى منزلك هذا ومهمل له ؟ ألا تستحى أن تقدم عليه قدوم العبد العاصى ، فيردك ولا يقبلك ؟ فإن كنت راغباً فى قبول زيارتك ، فنفذ أوامره أولا ، ورد المظالم وتب إليه من جميع المعاصى ، واقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى غيره ، لتكون متوجهاً إليه بوجه قلبك ، كما أنت متوجه إلى بيته بوجه ظاهرك ، فإن لم تفعل ذلك لم يكن لك من سفرك إلا التعب والشقاء ، ثم الطرد والحرمان .

وإذا اشترى الحاج ثوبى الإحرام فليتذكر عند ذلك الكفن ولفه فيه ، فإنه سيرتدى ثوبى الإحرام عند القرب من بيت الله عز شأنه وربما لا يتم سفره إليه ، وأنه سيلقى الله عز وجل ملفوفاً فى ثياب الكفن لا محالة . فكما لا يلقى بيت الله عز وجل إلا مخالفاً عادته فى الزى والهيئة فلا يلقى الله عز وجل بعد الموت إلا فى زى مخالف لزى الدنيا ، وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب إذ ليس فيه مخيط كما فى الكفن .

ومن دقائق الحج أنه ينبغى للإنسان عند خروجه من بلده أنه فارق الأهل والوطن متوجهاً إلى الله تبارك وتعالى ، فى سفر لا يشبه أسفار الدنيا ، فليحضر فى قلبه ما يريد : إلى أين يتوجه ومن يقصده بزيارته ، وليستحضر أنه متوجه إلى رب الأرباب فى زمرة الذين نودوا فأجابوا ، وقطعوا العلائق ، وفارقوا الخلائق وأقبلوا على بيت الله عز وجل الذى عظم شأنه ورفع قدره . وفخم أمره ، تسلياً بلقاء البيت عن لقاء رب البيت ، إلى أن يرزقهم منتهى مناهم ، ويسعدوا بالنظر إلى مولاهم . وليحضر فى قلبه رجاء الوصول والقبول . لا اغتراراً بأعماله ، ولا اعتزازاً بارتحاله ، ولا مباهاة بترك أهله وماله ، ولكن ثقة بفضل الله سبحانه ، ورجاء لتحقيقه وعده لمن زار بيته ، وليرج أنه لم يصل إلى البيت ، وأدركه الموت فى الطريق ، لقى الله جل جلاله وافداً إليه كما قال سبحانه فى سورة النساء : (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً) .

ويفلسف الغزالى دخول الحاج مكة المكرمة ، ويغلب هنا نزعة الرجاء فى نفس الإنسان على نزعة الخوف ، فينبغى للإنسان عندما يدخل مكة حاجاً أن يتذكر أنه قد انتهى إلى حرم الله تعالى آمناً ، وليرج عند ذلك أن يأمن بدخوله من عقاب الله عز وجل . وليخش ألا يكون أهلا للقرب فيكون بدخوله الحرم خائباً ومستحقاً للمقت . وليكن رجاؤه فى جميع الأوقات . غالباً . فالكرم عميم ، والرب رحيم . وشرف البيت عظيم . وحق الزائر مرعى ، وزمام المستجير اللائذ غير مضيع .

فإذا وقع بصر الإنسان على الكعبة أحضر عنده عظمة البيت فى القلب . ويقول الغزالى للانسان : ارج أن يرزقك الله تعالى النظر إلى وجهه الكريم كما رزقك النظر إلى بيته العظيم . واشكره سبحانه على تبليغه إياك هذه الرتبة وإلحاقه إياك بزمرة الوافدين عليه . واذكر عند ذلك انصباب الناس فى

القيامة إلى جهة الجنة آمنين بدخولها كافة ، ثم انقسامهم إلى مأذونين فى الدخول ومصروفين ، كما انقسم الحجاج إلى مقبولين ومردودين ولا تغفل عن تذكر أمور الآخرة فى شىء مما تراه ، فإن كل أحوال الحاج دليل على أحوال الآخرة .

ويواصل حجة الإسلام فلسفته الروحية العميقة فى تصوير أعمال الحج الظاهرة ، ليجعل لها دقائق وأسراراً باطنة كما نرى ذلك فى حديثه عن رمى الجمرات ، فإنه يقول : « وأما رمى الجمار : فاقصد به الانقياد للأمر إظهاراً للرق والعبودية ، وانتهاجنا لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه ، ثم اقصد به التشبيه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس لعنه الله تعالى فى ذلك الموضع ليدخل على حجه شبهة أو يفتنه بمعصية فأمره الله عز وجل أن يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأمله ، فإن خطر لك أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه وأما أنا فليس يعرض لى الشيطان ، فأعلم أن هذا الخاطر من الشيطان وأنه الذى ألقاه فى قلبك ليفتر عزمك فى الرمى ويخيل إليك أنه فعل لا فائدة فيه ، وأنه يضاهى اللعب فلم تشتغل به ، فاطرده عن نفسك بالجد والتشمير فى الرمى فيه برغم أنف الشيطان ، وعلم أنك فى الظاهر ترمى الحصى إلى العقبة ، وفى الحقيقة ترمى به وجه الشيطان وتقصم به ظهره إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيماً له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه » .

وإذا زار الحاج مدينة الرسول ﷺ فليتذكر عند رؤيتها أنها البلدة التى اختارها الله سبحانه لنبيه ﷺ ، وجعل إليها هجرته ، وفيها جاهد عدوه وأظهر بها دينه ، إلى أن توفاه الله سبحانه ، ثم جعل تربته فيها وتربة وزيريه القائمين بالحق بعده أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وليمثل الحاج فى نفسه مواقع أقدام رسول الله ﷺ عند سيره فيها ، وأنه ما من موضع قدم إلا وهو

موضع أقدامه الشريفة ، فلا يضع الحاج قدمه إلا بسكينة ووجل . ويتذكر مشى الرسول وسكينته فى المشى ، وما استودع الله سبحانه قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره ، مع ذكره تعالى حتى قرنه بذكر نفسه . ومعاقبته من هتك حرمته ولو برفع صوته فوق صوته . وليتذكر الحاج ما أسعد الله به الذين أدركوا صحبته وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامه . وليتأسف الحاج على ما فاته من صحبة الرسول وصحبة أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين وليتذكر أنه إذا كان قد فاتته رؤيته فى الدنيا فإنه من رؤيته فى الآخرة على خطر . فقد تحول دون لقائه سوء عمله كما قال ﷺ : « يرفع الله إلى أقواماً فيقولون يا محمد يا محمد .

فأقول : يا رب أصحابى .

فيقول : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك .

فأقول : بعداً وسحقاً » .

فإن تركت حرمة شريعته ولو فى دقيقة من الدقائق . فلا تأمن أن يحال بينك وبينه بعدولك عن طريقته . وليعظم مع ذلك رجاؤك ألا يحول الله تعالى بينك وبينه . بعد أن رزقك الإيمان . وأشخصك من وطنك لأجل زيارته . من غير تجارة ولا حظ فى دنيا . بل لمحض حبك له . وشوقك إلى أن تنظر إلى آثاره . وإلى حائط قبره . إذ سمحت نفسك بالسفر لمجرد ذلك ؛ فما أجدرك بأن ينظر الله إليك بعين الرحمة . . .

لقد شغل حجة الإسلام عشرات الصفحات من كتابه « الإحياء » وهو يتكلم عن الحج ذلك الحديث المسهب الذى عمره بالتحليل والتفصيل ، ونستطيع فى يسر أن نقول : إن الغزالى قد جعل حديثه قسمين . القسم الأول وهو عن أعمال الحج الظاهرة وقد قام بتوجيه الحديث فيه إلى عامة

المسلمين الذين لا تتطاول أعناقهم إلى مشارف الأسرار العميقة والدقائق اللطيفة والقسم الثانى تحدث فيه عن أسرار الحج وأهدافه ومقاصده ، فغاص لنا فى أعماق هذه المعانى التى استنبطها من أعمال الحج ، وكأنه يقصد بهذا الحديث الخاصة الذين يتمكنون بطاقاتهم وأرواحهم أن يغوصوا فى الأعماق ، وأن يرتفعوا إلى فسيح الأجواء والآفاق ، ليرتشفوا من رحيق العبر والعظات ، حتى يزدادوا صلة بربهم ، ومعرفته بحقه عليهم وإحكاماً لارتباط أسبابهم بأسبابه جل جلاله .

وفى ظنى أن هذا الحديث الوجيز الذى سقته إليه مصوراً لطريقة حجة الإسلام فى الحديث عن فريضة الحج لن يغنيك تماماً عن الرجوع إلى ما كتبه بنفسه ففيه مزيد من الغذاء والدواء .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الحج بمال اللقطه

السؤال :

التقطت فى أثناء سيرى فى الطريق مبلغاً كبيراً من المال يكفينى لتأدية فريضة الحج فهل يجوز أن أحج به ؟

الجواب :

الواجب على الإنسان إذا التقط مثل هذا المبلغ أن يقوم بالتبليغ عنه وتعريفه ونشر ذلك التعريف فى المكان الذى التقط فيه وما حوله من الأماكن وأن يبذل الإنسان جهده فى هذا التعريف ، حتى يتأكد أن صاحبه غير موجود . أو يغلب على ظنه أن هذا المال لن يظهر له صاحب . « قال الفقهاء

إنه يصبر على هذا التعريف لمدة عام كامل ، مع عدم تقصيره فى اتباع أى وسيلة مؤدية إلى معرفة صاحب المال ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وإذا يئس هذا الرجل من العثور على صاحب المال بعد استنفاد كل الوسائل فى ذلك جاز له أن يؤدى به فريضة الحج ، لأنه أصبح مالا له ، على أن بعض الفقهاء قال إذا ظهر صاحب المال بعد ذلك وأقام الدليل الصحيح على ملكيته له كان على الرجل الملتقط أن يرد المال إلى صاحبه إذا قدر عليه ، أو يكون فى ذمته .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الحج بمال مسروق دون علم

السؤال :

لى صديق سرق مبلغاً من المال وأعطاه لى دون أن أعرف أنه مسروق ، وصرفته فى الحج دون علمى بأنه مال مسروق فما رأى الدين فى حجتى ؟

الجواب :

إذا كان آخذ هذا المال لم يعلم تصريحاً ولا تلميحاً أن هذا المال مسروق وتقبله من صديقه على أنه هدية أو عطية ، ثم صرفه على الحج دون أن يعلم من قريب أو بعيد أن هذا المال مسروق كان حجة صحيحاً ، ولا ذنب عليه ، وإنما الذنب والتبعة على الصديق الذى سرق ، ولو عرف هذا الحاج بعد حجه أن المال الذى أخذه وصرفه مال مسروق كان عليه أن يرد مثله إلى مصدره حتى يتخلص من تبعة السرقة والحج بمال غير طيب .

والله تبارك وتعالى أعلم .

حديث القرآن عن الحج

السؤال :

كيف تحدث القرآن الكريم عن الحج ، والحج هو ختام قواعد الإسلام الخمس التى ذكرها الحديث الشريف المتفق عليه ، والقرآن المجيد هو أصدق الحديث ، لأنه كلام الله تبارك وتعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد؟

الجواب :

تقول لغة العرب – وهى لغة القرآن – : الحج القصد مطلقاً ، يقال : حجّ فلان البلد قصدها ، ورجل محجوج أى مقصود . وبعض أهل اللغة يقولون إن الحج هو القصد إلى معظم ، أو كثرة القصد لمعظم ، والحج كثرة الاختلاف إلى الشىء ، والتردد عليه مرة بعد مرة ، ومنه حج بيت الله ، لأن الناس يأتونه كل سنة ، أى يقصدونه ويزورونه . ولذلك قال الفقهاء : الحج قصد بيت الله الحرام لإقامة نسك ، وذو الحجة : شهر الحج ، سمى بذلك للحج فيه . ويوم الحج الأكبر الذى قال عنه القرآن : (وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر) أريد به يوم النحر ، أو يوم عرفة ، والراجح أنه يوم النحر الذى ينتهى فيه فرائض الحج وأركانه ، ويجتمع الحجيج فيه لإتمام واجبات المناسك وسننها فى منى ، وسمى يوم الحج الأكبر تمييزاً له عن الحج الأصغر ، وهو العمرة .

والراجح أن فرضية الحج جاءت فى السنة التاسعة من الهجرة .

وقد ورد ذكر الحج فى مواطن من القرآن الحكيم ، وأكثر السور حديثاً من الحج سورة البقرة وسورة الحج . ونرى فى سورة البقرة أولا قول الله عز شأنه : (وإذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع

السجود) فكان هذا النص الكريم طليعة الحديث القرآنى فى سور المصحف عن الحج وأعماله . وبعد قليل من السورة نفسها نجد قوله سبحانه : (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) فكان هذا إيذاناً بأن قبلة المسلمين هى الكعبة ، وهى قبلة إبراهيم ، ورسول الله محمد قد جاء بإحياء ملة إبراهيم، وتجديد دعوته ، وكأن هذا توجيه ينطوى على رجاء العودة إلى مكة ، لأنها مستقر الكعبة ، وازداد هذا الرجاء حينما نزل بعد ذلك قول الله سبحانه مشيراً إلى شعيرتين من شعائر الحج ، وهما الصفا والمروة : (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم) .

وقد عبر القرآن الحكيم عن مناسك الحج ومشاعره بلفظة (شعائر الله) ، والشعيرة تطلق على المكان أو الشىء الذى يشعر بأمر له شأن .

وتعود السورة نفسها إلى ذكر الحج ، فتقول : (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج) . وقد شاءت إرادة الله تبارك وتعالى أن يجعل ميقات الناس فى الحج ونحوه بالأهلة ، لأن التوقيت بها أمر طبيعى معتاد ، يسهل على العالم بالحساب الجاهل به ، ويسهل على أهل البدو والحضر ، وهو ميقات يرتبط بناموس الكون ونظام الليل والنهار ، وهما متجددان يتواليان .

ومن دقيق صنع الله بفريضة الحج العظيمة أن ربطها بأول بقعة أسست على التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده ، فقال القرآن فى سورة آل عمران : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) .

فقد وضع الله جل جلاله هذا البيت لعبادة الله وحده لا شريك له ، وقد بناه إبراهيم وولده إسماعيل ، وحفيدهما هو محمد ، وهو على ملتهما ، ووجهته فى العبادة ينبغى أن تكون كوجهتهما ، والمتبادر فى الأولية هنا هى أولية الزمان المستلزمة للأولية فى الشرف ، بالنسبة إلى بيوت العبادة الصحيحة التى بناها الأنبياء ، فليس فى الأرض موضع بناه الأنبياء أقدم منه فيما نعرف من تاريخهم وما يؤثر عنهم ، وقد سئل رسول الله ﷺ — فيما أخرجه الشيخان — عن أول بيت وضع للناس ، فقال : « المسجد الحرام ، ثم بيت المقدس » فقيل : كم بينهما ؟ . فقال : « أربعون سنة » .

وقد جعل الله هذا البيت مباركاً بحاله الحسنة الحسية ، وحاله الشريفة المعنوية ، أفاض الله عليه من بركات الأرض ، وثمرات كل شىء ، مع كونه بواد غير ذى زرع ، وجعل أفئدة الناس تهوى إليه ، يأتونه للحج والعمرة ، مشاة وركباناً من كل فج عميق ، ويولون وجوههم إليه فى الصلاة حيث لا تمر ساعة من ليل أو نهار ليس فيها أناس متوجهون إلى ذلك البيت الحرام ، وتلك دعوة إبراهيم : (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) .

وقد أودع الله هذا البيت العتيق دلائل ظاهرة لا تخفى على أحد . ومنها مقام إبراهيم خليل الرحمن ، أى موضع قيامه فى الصلاة والعبادة . ومن آياته أيضاً أن من دخله كان آمناً ، فقد اتفقت قبائل العرب كلها على احترام هذا البيت وتعظيمه لنسبته إلى الله ، فمن دخله أمن على نفسه من الأذى والاعتداء .

ومن آيات هذا البيت الكريم على الله وعلى الناس أن الله رفع من شأنه حين فرض وأوجب على كل مستطيع أن يحج إليه ويطوف به ، وما زال الناس على اختلاف العصور يحجون من عهد إبراهيم إلى عهد محمد عليهما الصلاة والسلام .

ولأن فريضة الحج فريضة إسلامية لازمة لكل قادر مستطيع ، ولأنها فريضة إلهية إنسانية قديمة العهد منذ أذان إبراهيم ودعوته ، جعل الله البيت الحرام مفتوحاً للناس ، وقال عنه القرآن المجيد فيما قال : (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس) ، وجعل الصد عنه من شأن الكافرين المجرمين ، فقال فى سورة الحج : (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) .

فينكر الله عز وجل على الكفار صدهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام ، وقضاء مناسكهم فيه ، وقد جعله الله ، للناس سواء لا فرق فيه بين المقيم عنده والنائى عنه ، البعيد الدار منه ، بل يسوى الناس فى منازل مكة وسكناها حتى حرم بعض الفقهاء تأجير دور مكة أو امتلاكها أو وراثتها ، بل من احتاج سكن ، ومن استغنى أسكن ، وقال بعض الصحابة : يا أهل مكة ، لا تتخذوا لدوركم أبواباً ، لينزل البادى حيث شاء .

ومن يهم فيه بأمر فظيع من المعاصى ، عامداً متعمداً ، أذاقه الله العذاب الأليم ، حتى نسبوا إلى سيدنا رسول الله أنه قال : « احتكار الطعام بمكة إلحاد » .

ومن خصائص الحرم أن البادى فيه بالشر يعاقب عليه إذا كان عازماً عليه ، وإن لم يوقعه . وهذا ابن كثير فى تفسيره يتعرض لمعنى قوله تعالى :

ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) . فيذكر فيه آثاراً تقول إن الإلحاد هنا قد يكون الغيبة أو الحلف أو بيع الطعام أو الاحتكار أو تجارة الأمير فيه ، ثم يقول :

« وهذه الآثار وإن دلت على أن هذه الاشياء من الإلحاد . ولكن هو أعم من ذلك ، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها . ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول ، أى دمرهم وجعلهم عبرة ونكالا لكل من أراده بسوء ، ولذلك ثبت فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « يغزو هذا البيت جيش ، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم » .

والقرآن الكريم حين يحدثنا حديث الحج يشعرنا بأنه أكبر مظهر للعالمية فى الفريضة . فهو يجتمع له ، ويشترك فيه ، ويستجيب لندائه عدد من الناس لا يجتمع فى أى فريضة من الفرائض ، أو ركن من الأركان . ونقطة الالتقاء فى هذا الركن هو بيت الله الحرام : أول بيت وضع للناس . والبيت صاحب البركات والآيات ، والدعوة إلى هذه الفريضة فيها صفة الأذان الشامل والنداء العام . كما يعبر القرآن نفسه : (وأذن فى الناس بالحج) ، والمؤذن المنادى هنا ليس فرداً عادياً ، ولا شخصاً مهضوم المكانة ، أو رقيق المنزلة ، إنه خليل الرحمن وأبو الأنبياء : إبراهيم عليه وعليهم الصلاة والسلام ، والأذان أو النداء يستجاب له من مكان بعيد ، من مشارق الأرض ومغاربها ، يقبلون على اختلاف أوطانهم وأجناسهم وأحوالهم ، لأن هناك ما وحدهم وجدهم وأيدهم ، وهو الإيمان بقيوم السموات والأرض ، ورحمن الدنيا والآخرة ، وخالق الخلق ، ومجرى الرزق ، ورب البيت العتيق .

وهذه الجموع الحاشدة تسعى بأمر ربها : (ليشهدوا منافع لهم) والمنافع كثيرة ، والمنافع متنوعة ، ومنها المادى والمعنوى ، ومنها العاجل والآجل .

إن القرآن المجيد يشير إلى هذا فى سورة الحج حيث يقول سبحانه : (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئاً وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود * وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق * ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير * ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق) .

يأمر الله خليله إبراهيم بأن يبنى البيت الحرام على اسم الله وحده ، وأن يطهره من الشرك ومن كل مالا يليق بطهارته ونظافته ووقاره ، ويجعله خالصاً نقياً لمن يسعون إليه ، ويطوفون به ، ويقومون ذاكرين الله عابدين له ، يركعون له ويسجدون ، وأمره أن ينادى فى الناس ، فى سحيق الزمان ، وقديم العصر والأوان ، داعياً إلى الحج وقصد هذا البيت فى خشوع ووقار ، ينادى على مدى صوته ووسع طاقته ، وعلى الله القادر على كل شيء أن يكتب لندائه البلوغ والانتشار ، وعن طريق هذا الدعاء المؤيد بتوفيق الله وعونه سيحيط الناس علماً بدعوة إبراهيم ، ويسعون إليها راحلين أو راكبين من كل مكان بعيد ، أو واد سحيق ، ليشهدوا منافع لهم ، وهى منافع فى الدين والدنيا ، وفى الأولى والآخرة ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، وهى الغنم والإبل والبقر ، والأيام المعلومات هى العشر من شهر ذى الحجة ، وهى أيام التهليل والتكبير والتحميد ، وهى أفضل أيام السنة ، فكلوا من لحوم هذه الأنعام ، وأطعموا منها المحتاج والفقير ، وأزيلوا من أجسامكم ما علق بها فى أثناء الإحرام من

آثار العرق وطويل السفر ، ويوفوا بما نذروه لله ، إن كانوا قد نذروا شيئاً ، وليطوفوا بأقدم بيت بني لعبادة الله تعالى فى الأرض .

ويشير القرآن عقب ذلك إلى التعبير عن مناسك الحج بأنها « شعائر الله » ، ويدعو إلى تعظيمها ، فذلك التعظيم أثر من آثار تقوى القلوب المؤمنة ، وعلامة من علامات الإخلاص ، ولكم فى هذه الهدايا منافع دنيوية ، فتركبونها وتشربون لبنها إلى وقت ذبحها ، ثم لكم منافعها الدينية كذلك حينما تذبحونها عند البيت الحرام تقربا إلى الله . يقول القرآن فى سورة الحج : (ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ، لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق) . ثم ذكر الحق تبارك وتعالى أنه جعل ذبح هذه الهدايا من أعلام هذا الدين ومظاهره ، وأكد التعبير عنها بأنها من شعائر الله ، للمضحين بها أجر وثواب ، وهم يأكلون منها ويطعمون الفقير القانع المتعفف عن السؤال . والذى دفعته حاجته إلى ذل السؤال ، والله لا ينظر إلى صور الناس ومظاهرهم ، ولكنه ينظر إلى قلوبهم ونواياهم ، فهو يريد أن يتحقق التقوى والإخلاص لهؤلاء العابدين المتقربين إلى خالقهم يقول النص الكريم فى سورة الحج أيضاً : (والبدن جعلناهم لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ، لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين) .

ونلاحظ فى حديث القرآن عن الحج أنه قد عنى ببيان كثير من أمور الحج وأحكامه التفصيلية ، وهذا يدل على عنايته بأمر الحج وبيان أهميته ، فقد تحدث القرآن عن الدعوة إلى الحج ، وفريضته ، وذكر شهوره المحددة ، كما ذكر الأيام المعلومات ، والطواف بالبيت العتيق ، والسعى بين الصفا

والمروة ، والتهليل والتكبير ، وذكر عرفات ، والإفاضة منها ، كما ذكر المشعر الحرام وأمر بذكر الله عنده ، كما ذكر الهدى والأضحية والأكل منها ، والنحر والإطعام ، والعمرة والإحصار فى الحج وأحكامه ، والإحلال من الإحرام والحلق والتقصير .

فنحن نجد القرآن فى سورة البقرة يقول عن الحج والعمرة هذه الآيات : (وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب • الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون ياأولى الألباب • ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين • ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) .

لقد كان الحج معروفاً فى الجاهلية ، لأنه فرض على عهد إبراهيم وإسماعيل ، فأقره الإسلام فى الجملة ، ولكنه أبطل ما أحدثوه من الشرك والمنكرات ، وزاد فيه بعض المناسك والعبادات ، والمراد بإتمام الحج والعمرة هنا الإتيان بهما تامين فى الظاهر ، بأداء أعمال الحج على وجهها ، والإتيان بها فى إخلاص لله تعالى دون رياء أو سمعه ، ويفهم أن أركان الحج خمسة هى : الإحرام من الميقات ، والوقوف بعرفة ، والطواف حول الكعبة ،

والسعى بين الصفا والمروة ، والحلق أو التقصير للشعر ، وإن كان هناك خلاف فى عدد هذه الأركان ، تكفلت كتب الفقه ببيان ذلك الخلاف .

وقد فهمنا من القرآن أنه إذا شرع الإنسان فى الحج كان عليه أن يلتزم بفضائل الإسلام وآدابه (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج) ، والرفث هو الجماع ، والفسوق هو الخروج عن حد الشرع بفعل المحظور ، والجدال هو المراء بالقول ، وإنما منع القرآن ارتكاب هذه الأمور تعظيماً لشأن الحرم وتغليظاً لأمر الإثم فيه ، لأن الأعمال تختلف باختلاف الزمان والمكان ، فللملأ آداب غير آداب الخلوة مع الأهل ، وقد يقال فى مجلس الإخوان مالا يقال فى مجلس السلطان ، ويجب أن يكون المرء فى أوقات العبادة والحضور مع الله تعالى على أكمل الآداب وأفضل الأحوال . يقول بعض بصراء المفسرين فى هذا الموطن : « فمن فرض الحج فى هذه الأشهر المعلومات أى أوجب على نفسه إتمامه بالإحرام — فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج . والرفث هنا ذكر الجماع ودواعيه إما إطلاقاً وإما فى حضرة النساء . والجدال : المناقشة والمشادة حتى ليغضب الرجل صاحبه . والفسوق : إتيان المعاصى كبرت أم صغرت والنهى عنها ينتهى إلى ترك كل ما ينافى حالة التحرج والتجرد لله فى هذه الفترة والارتفاع على دواعى الأرض ، والرياضة الروحية على التعلق بالله دون سواه ، والتأدب الواجب فى بيته الحرام لمن قصد إليه متجرداً حتى من مخيط الثياب . وبعد النهى عن فعل القبيح يحبب إليهم فعل الجميل : وما تفعلوا من خير يعلمه الله . ويكفى فى حس المؤمن أن يتذكر أن الله يعلم ما يفعله من خير ويطلع عليه . ليكون هذا حافزاً على فعل الخير ، ليراه الله منه ويعلمه .. وهذا وحده جزاء قبل الجزاء .

ثم يدعوهم إلى التزود فى رحلة الحج . . زاد الجسد وزاد الروح . . فقد ورد أن جماعة من أهل اليمن كانوا يخرجون من ديارهم للحج ليس معهم زاد ، يقولون : نحج بيت الله ولا يطعمنا . وهذا القول — فوق مخالفته لطبيعة الإسلام التى تأمر باتخاذ العدة الواقعية فى الوقت الذى يتوجه فيه القلب إلى الله ويعتمد عليه كل الاعتماد — يحمل كذلك رائحة عدم التحرج فى جانب الحديث عن الله ، ورائحة الامتنان على الله بأنهم يحجون بيته فعليه أن يطعمهم . ومن ثم جاء التوجيه إلى الزاد بنوعيه ، مع الإيحاء بالتقوى فى تعبير عام دائم الإيحاء : وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون ياأولى الألباب . والتقوى زاد القلوب والأرواح ، منه تقتات . وبه تتقوى وترف وتشرق . وعليه تستند فى الوصول والنجاة . وأولو الألباب هم أول من يدرك التوجيه إلى التقوى ، وخير من ينتفع بهذا الزاد .

وجاءت السنة من وراء القرآن تعطى التقوى المنزلة الأولى عند الله فقد روى أحمد أن رسول الله ﷺ خطب فى أوسط أيام التشريق بعد إتمام الحج فقال : « يأيها الناس ، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى » .

ولما أراد القرآن أن يكمل الحديث عن الحج فى سورة البقرة أكد الحث على ذكر الله وإيثار ما عنده على ما عند الناس ولذلك قال : (فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً . فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . أولئك لهم نصيب

مما كسبوا والله سريع الحساب . واذكروا الله فى أيام معدودات فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون) .

وهذا التأكيد والتوجيه والدعوة إلى التقوى يبين لنا أن أساس الأمر كله هو التقوى ولذلك أرشدهم إلى أن خير الزاد التقوى ، فبعدما أمرهم بأخذ الزاد للسفر فى الدنيا أرشدهم إلى زاد الأخرة ، وهو استصحاب التقوى إليها ، كما قال فى آية أخرى : (وريشاً ولباس التقوى ذلك خير) فبعد أن ذكر اللباس الحسى نبه مرشداً إلى اللباس المعنوى وهو الخشوع والطاعة والتقوى .

جعلنا الله ممن يتقبلهم ربهم بقبوله الحسن يوم لقائه .

* * *

الحج والجنة

السؤال :

هل يمكن للحاج أن يدخل الجنة ؟وكيف ذلك ؟

الجواب :

القطع بدخول الجنة لا يستطيع أن يجزم به مسلم . لأن أمر الجنة موكول إلى علم الله وحكمه جل جلاله ، وقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله : « لا يدخل أحدكم عمله الجنة . قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » .

ومع هذا نفهم من الإسلام ، ومن سنة الرسول ﷺ أن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ، فلو أدى المسلم هذا الحج المبرور ، ولم يذنب بعده ، ومضى إلى الله على استقامة وصراط دخل الجنة بفضل الله وكرمه وقد يؤيد هذا قول الرسول ﷺ : « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » .

فهو إذاً يعود من الحج نقياً طاهراً مغفور الذنوب مسلماً من العيوب .

وقد وردت فى السنة آثار تدل على أن الحج المبرور هو أفضل الأعمال ، والحج المبرور هو الحج الذى لا يخالطه إثم . وقال الحسن ، هو أن يرجع زاهداً الدنيا راغباً فى الآخرة .

وروى أنه إطعام الطعام ، ولين الكلام .

وروى أن عائشة قالت : يارسول الله ، ألا نغزو ونجاهد معكم ؟ قال : لكن أحسن الجهاد وأجمله الحج حج مبرور .

وعن عمرو بن العاص قال : لما جعل الله الإسلام فى قلبى ، أتيت رسول الله ﷺ ، فقلت ، ابسط يدك ، فلأبايعك ، قال ، فبسط ، فقبضت يدى . فقال : مالك ياعمرو ؟ قلت : أشترط ، قال : تشترط ماذا ؟ قلت أن يغفر الله لى ، قال : أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله ، وأن الهجرة تهدم ما قبلها . وأن الحج يهدم ما قبله .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه . أن الرسول ﷺ قال : « تابعوا بين الحج والعمرة . فإنهما ينفيان الفقر والذنب كما ينفى الكير خبث [وسخ] الحديد والذهب والفضة . وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة » .

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » .

وقال رسول الله ﷺ : « هذا البيت دعامة الإسلام ، فمن خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر ، كان مضموناً على الله ، إن قبضه أن يدخله الجنة ، وإن رده رده بأجر وغنيمة » .

والله تبارك وتعالى أعلم ،

• • •

الأسرة والزواج والمرأة

حول حمل الزوجة

السؤال :

طلقت زوجتى ، ثم عاشت مدة عامين بلا زواج ، وبعد ذلك حملت ثم ولدت طفلا بلا أب ، فهل يجوز أن يكون المولود ابنى ، مع أنى طلقت زوجتى منذ عامين قبل حملها ؟

الجواب :

المفهوم من السؤال أن الرجل طلق زوجته وليس عندها حمل ؛ ولو كان عندها حمل منه لكان الواجب أن ينسب الولد إلى هذا الزوج ، إذا كان الحمل فى حدود سنتين وهذه المدة هى أقصى مدة حددها الفقهاء لمدة الحمل ، ولكنه جاء فى السؤال أن المرأة ظلت بعد طلاقها بلا زواج مدة عامين ، وهذا إذا صح ينفى نسبة الولد الذى جاء بعد ذلك إلى الزوج صاحب السؤال ، وبعد المدة المذكورة حملت المرأة ولم يذكر السائل كيف حملت هل حملت سفاحاً أو زواجاً ، وقال إنها ولدت طفلا بلا أب ، وهذه العبارة تشعر بأن الولد جاء سفاحاً. ولم يكن هناك للمرأة زوج ، فلا يجوز أن يكون هذا المولود ابناً للزوج لأنه كما قال قد طلّق هذه الزوجة قبل حملها بسنتين . فلا يجوز أن ينسب إلى الزوج السائل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

حول الطلاق

السؤال :

إذا طلقت زوجتى ثلاثاً فهل يعتبر عدد الطلاق ثلاث طلقات أو واحدة فى حكم الشرع ؟

الجواب :

الذى عليه الآن فى قانون الأحوال الشخصية أن الرجل إذا طلق زوجته بالثلاث فى مجلس واحد وفى عبارة واحدة ، يعد الطلاق طلقة واحدة ، وهذا الحكم مستمد من أقوال بعض الفقهاء ، ولكن الذى كان يجرى عليه العمل فى صدر الإسلام أنه إذا ذكر الرجل أنه طلق امرأته ثلاث تطليقات اعتبرت ثلاثاً ، وقد روى أن سيدنا عمر قد حمل الناس على هذا تأديباً للمطلق ونهياً له عن التلاعب بألفاظ الطلاق والاستهزاء بشرع الله تعالى .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

المعاملات والاقتصاد

إساءة حفظ الشخص لما يملك

السؤال :

هناك رجل يملك مالا فى بيته ، وعند خروجه أحاط البيت بتيار كهربائى ، وعندما جاء اللص للسرقة صعق بالتيار فمات فمن المذنب من الشخصين ؟

الجواب :

من الممكن أن نقول إن صاحب البيت قد أخطأ ، وإن اللص قد أخطأ أيضاً ، فصاحب البيت قد تسبب فى موت إنسان عندما أحاط البيت بذلك التيار الكهربائى ، وهو لا يعلم بحقيقة من سيجىء إلى البيت ويقترب منه ، فربما اقترب من التيار من جاء لزيارة صاحب البيت ، أو جاء ليطلب منه حقاً عنده ، أو كان ماراً ولمس التيار بالمصادفة دون علم منه ، أو جاء صبى يلعب فاصطدم بالتيار فمات ، أو لم يكن فى نية اللص أن يسرق بل جاء لغرض آخر مشروع فلمس التيار فصعق .

واللص الذى جاء لسرقة المال قد أذنب وأخطأ خطأ فاحشاً فظيعاً حين شرع فى مقدمات السرقة . والسرقة كبيرة من الكبائر التى حذر منها الإسلام ، ولكن من يدرى ؟ لعل هذا الشخص كان جائعاً محروماً مضطراً إلى ما يدفع عنه الهلاك وشدة الجوع .

وقد ذكر بعض الفقهاء أن المالك يسىء استخدام ملكه إذا وضع فيه ما يسبب الضرر أو الموت للغير . وقرروا أنه يكون ضامناً لما يحدث للغير من أضرار أو موت .

وكان اللازم الذى ينبغى لصاحب البيت أن يفعله هو أن يضع تحذيراً واضحاً للناس حتى لا يقترب من التيار جاهل بأمره ، أو بعيد عن نية السوء كالسرقة وغيرها ، والأولى بصاحب البيت أن يقوم بحراسته وحراسة ما فيه بالطرق المألوفة التى لا تسبب مثل هذا الضرر البليغ .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

القرآن الكريم والتفسير

جمع القرآن

السؤال :

فى أى عصر من العصور تم جمع القرآن وتدوينه ؟ وفى عهد من من الخلفاء الراشدين ؟

الجواب :

ثبت فى السنة أن جمع القرآن كان فى عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وذلك لما اتسع القتل فى الصحابة ، واستشهد منهم مئات فى معركة اليمامة ، فجاء عمر عقب ذلك إلى أبى بكر فقال له : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، وأخشى أن يتكرر ويزيد فى المواطن من بعد ، فيذهب كثير من القرآن ، وإنى أرى أن نأمر بجمع القرآن . وجرت محاورة بينهما ، حتى شرح الله صدر أبى بكر لذلك ، فبعث إلى زيد ابن ثابت رضى الله عنه ، وقال له ، إنك رجل شاب عامل ، لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن واجمعه ، قال زيد : فوالله لو كلفتمونى نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن . وأخذ زيد يجمع القرآن من جريد النخيل والحجارة البيض التى كتب عليها ، ومن صدور الرجال .

وقد شاع بين الناس أن عثمان رضى الله عنه هو أول من جمع المصحف ، وهذا ليس صحيحاً ، فإن أول من جمع الآيات فى مصحف واحد هو أبو بكر الصديق ، ثم أمر عثمان حين خاف الاختلاف فى القراءة أن يكتبوا عدة مصاحف ، ولم يقصد جمع القرآن فى مصحف ، وإنما قصد جمع الناس على القراءات الثابتة المعروفة عن النبى ﷺ وإلغاء ما عدا ذلك ، ومعنى ذلك أن جمع الصديق كان الأول ، وأما الجمع الذى وقع فى عهد عثمان ، فقد كان فيه ترتيب السور .

وقد نسخ عثمان من المصحف أربع نسخ ، وبعث إلى كل ناحية واحداً منها ، فبعث مصحفاً إلى الكوفة ، وثانياً إلى البصرة ، وثالثاً إلى الشام ، وترك واحداً عنده . وقيل : إنه جعله سبع نسخ ، وزاد نسخاً إلى مكة واليمن والبحرين ، والأول أرجح وعليه الأئمة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

ثمرات التقوى

السؤال :

كيف نفهم قول الله تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره) ؟ وكيف يتفق هذا مع أننا نرى كثيراً من الأتقياء فقراء ، ورأينا كثيراً ممن يتوكلون على الله لا يكفيهم الله تعالى هموم الحياة ؟

الجواب :

تعرض المفسر ابن أبي بكر بن عبد القادر الرازى لمحاولة الإجابة عن هذا السؤال الذى يتعلق بقول الله تعالى فى سورة الطلاق : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً) .

وقد قال ابن أبي بكر الرازى : إن الذى يتقى الله يجعل الله له مخلصاً من هموم الدنيا والآخرة ، وعن النبى ﷺ أنه قال : مخرجاً من شبهات الدنيا ، ومن غمرات الموت ، ومن شدائد يوم القيامة . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ينجيه من كل كرب فى الدنيا والآخرة والصحيح أن هذه الآية

عامة ، وأن الله يجعل لكل متق مخرجاً من كل ما يضيق على من لا يتقى . ولهذا قال النبي ﷺ : « إنى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم (ومن يتق الله) . وجعل يقرؤها ويعيدها » .

وأما تضييق رزق الأتقياء فهو مع ضيقه وقلته يأتيهم من حيث لا يأملون ولا يرجون . وتقليله لطف بهم ورحمة ، ليتوافر حظهم فى الآخرة ويخف حسابهم ، ولتقل عوائقهم عن الاشتغال بمولاهم ولا يشغلهم الرخاء والسعة عما خلقوا له من الطاعة والعبادة ، ولهذا اختار الأنبياء والأولياء والصديقون الفقر على الغنى .

وأما قوله تعالى : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أى من يثق به فيما نابه كفاه الله شر ما أهم ، ومحال أن يتوكل على الله إنسان حق التوكل ولا يكفيه همه ، بل ربما قلق وضجر ، واستبطأ قضاء حاجته بقلبه أو بلسانه أيضاً ، ففسد توكله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : (إن الله بالغ أمره) أى نافذ حكمه ، يبلغ ما يريده ولا يفوته مراد ولا يعجزه مطلوب ، وبقوله تعالى : (قد جعل الله لكل شيء قدراً) أى جعل لكل شيء من الفقر والغنى ، والمرض والصحة ، والشدة والرخاء ، ونحو ذلك ، أجلا ومنتهى ينتهى إليه لا يتقدم عنه ولا يتأخر .

وقد تعرض ابن كثير لتفسير قوله تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) أى ومن يتق الله فيما أمره به ، وترك ما نهاه عنه يجعل له من أمره مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب أى من جهة لا تخطر بباله .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : جعل رسول الله ﷺ يتلو على هذه الآية : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) حتى

فرغ من الآية ثم قال : يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتهم . قال فجعل يتلوها و يرددها على حتى نعست ، ثم قال يا أبا ذر كيف تصنع إن أخرجت من المدينة؟ قلت : إلى السعة والدعة أنطلق فأكون حمامة ، من حمام مكة .

قال النبي : كيف تصنع إن أخرجت من مكة ؟

قلت : إلى السعة والدعة ، إلى الشام والأرض المقدسة .

قال : وكيف تصنع إن أخرجت من الشام ؟

قلت : إذاً — والذى بعثك بالحق أضع طيفى على عاتقى .

قال : أو خير من ذلك ؟

قلت : أو خير من ذلك ؟

قال : تسمع وتطيع وإن كان عبداً حبشياً .

وعن ابن عباس قال : من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب .

وقال مسروق : ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . يعلم أن الله إن شاء منع ، وإن شاء أعطى من حيث لا يحتسب ، أى من حيث لا يدرى .

وجاء مالك الأشجعى إلى رسول الله ﷺ فقال له : أسر ابنى عوف ، فقال له النبي : أرسل إليه أن رسول الله ﷺ يأمرك أن تكثر من قول « لا حول ولا قوة إلا بالله » . وكانوا قد شدوه بوتر القوس فسقط عنه ، فخرج فإذا هو بناقة لهم فركبها ، وأقبل فإذا بماشية القوم الذين كانوا شدوه فصاح بهم ، فاتبع أولها آخرها ، فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادى بالباب فقال أبوه : عوف ورب الكعبة ، واستبعدت امرأته ذلك ، فاستبق الباب

والخادم . فإذا عوف قد ملأ الفناء إبلا فقص على أبيه أمره وأمر الإبل ، فقال أبوه : قف حتى آتى رسول الله ﷺ فأسأله عنها ، فأتى النبي ﷺ فأخبره بخبر عوف وخبر الإبل فقال له رسول الله ﷺ : اصنع بها ما أحببت وما كنت صانعاً بمالك ونزل قوله تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) .

وعن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : « من انقطع إلى الله كفاه كل مئونة ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها » .

وركب عبد الله بن عباس خلف النبي يوماً فقال له : « يا غلام إنى معلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الشكوى لا تنافى الصبر

السؤال :

كيف نوفق بين قول الله تعالى فى أيوب عليه السلام : (إنا وجدناه صابراً) مع أن الصبر هو ترك الشكوى من ألم البلوى كما قالوا ، وأيوب قد شكا ؟

الجواب :

جاء هذا السؤال ضمن مسائل الرازى وأجوبتها من غرائب آى التنزيل فقال : الشكوى إلى الله لا تنافى الصبر ولا تسمى جزعاً لما فيه من إظهار

الخضوع والعبودية إلى الله تعالى ، والافتقار إليه ، ويؤيده قول يعقوب عليه السلام كما فى سورة يوسف : (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون) مع قوله : (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) .

وقولهم : الصبر ترك الشكوى ، يقصدون الشكوى إلى العباد .

وأيوب إنما طلب الشفاء من الله تعالى بعد أن لم يبق منه إلا قلبه ولسانه ، خيفة على قومه أن يفتنهم الشيطان بما كان يوسوس إليهم به ، ويقول : إنه لو كان أيوب نبياً لما ابتلى بما هو فيه ، ولدعا الله تعالى بكشف الضر عنه .

وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال فى مناجاته : إلهى قد علمت أنه لم يخالف لسانى قلبى ولم يتبع قلبى بصرى ، ولم يلهنى ما ملكت يمينى ، ولم آكل إلا ومعى يتيم ، ولم أبت شبعان ولا كاسياً ومعى جائع أو عريان . فكشف الله تعالى عنه الضر .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

إعادة الخلق

السؤال :

ما سر قول القرآن عن إعادة الخلق : (وهو أهون عليه) والأفعال كلها بالنسبة إلى قدرته سواء ؟ وإنما تتفاوت بالنسبة إلى قدرتنا .

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة الروم : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) .

يقول الفخر الرازى : أى فى نظركم الإعادة أهون من الإبداء ، لأن من يفعل فعلا أولا يصعب عليه ، ثم إذا فعل بعد ذلك مثله يكون أهون ؛ وقيل المراد هو هين عليه ، كما قيل فى قول القائل : الله أكبر أى كبير . وقيل المراد هو أهون عليه أى الإعادة أهون على الخالق من الإبداء ، لأن فى البدء يكون علقة ثم مضغة ثم لحماً ثم عظماً ، يخلق بشراً ، ثم يخرج طفلا يترعرع إلى غير ذلك ، فيصعب عليه ذلك كله ، وأما فى الإعادة فيخرج بشراً سوياً بكن ، فيكون أهون عليه .

والوجه الأول أصح وعليه نتكلم فنقول : هو أهون يحتمل أن يكون ذلك لأن فى البدء خلق الأجزاء وتأليفها ، والإعادة تأليف ، ولا شك أن الأمر الواحد أهون من أمرين ، ولا يلزم من هذا أن يكون غيره فيه صعوبة.

ولنبين هذا فنقول : الهين هو ما لا يتعب فيه الفاعل ، والأهون ما لا يتعب فيه الفاعل بالطريق الأولى . فإذا قال قائل : إن الرجل القوى لا يتعب من نقل شعيرة من موضع إلى موضع ، وسلم السامع له ذلك ، فإذا قال : فكونه لا يتعب من نقل خردلة يكون أولى ، يكون ذلك كلاماً معقولا متبعاً على حقيقته .

وجاء فى تفسير ابن كثير فى تفسير الآية قال : مجاهد : الإعادة أهون عليه من البراءة والبداءة عليه هين . وفى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ قال : قال الله : كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك . وشتمنى ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى . وليس أول الخلق بأهون على من إعادته . وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد .

وقال المفسرون : كل عليه هين . فكلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء.

وقد تعرض ابن أبي بكر بن عبد القادر الرازى لمعنى (وهو أهون عليه) فقال : معناه : وهو هين عليه ، وقد جاء فى كلام العرب أفعل بمعنى اسم الفاعل من غير تفضيل ، منه قولهم فى الآذان الله أكبر ، أى الله كبير فى قول بعضهم . وقال الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

أى عزيزة طويلة . وقال معن بن أوس المزنى :

لعمرك ما أدرى وإنى لأوجل على أينا تعدو المنية أول

أى وإنى لوجل .

وقال آخر :

أصبحت أمنحك الصدود وإننى قسماً إليك مع الصدود لأميل

أى لمائل . وقال آخر :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أى بواحد .

الثانى : أن معناه وهو أهون عليه فى تقديركم وحكمكم ، لأنكم تزعمون وتعتقدون فيما بينكم أن الإعادة أهون من الابتداء ، كيف وأن الابتداء من ماء ، والإعادة من تراب ، وتركيب الصورة من التراب أهون عندكم .

الثالث : أن الضمير فى قوله تعالى : (وهو أهون عليه) راجع إلى المخلوق لا إلى الله تعالى ، معناه : أنه لا صعوبة على المخلوق فيه ولا إبطاء . لأنه يعاد دفعة واحدة بقوله تعالى : (كن فيكون) ، وفى الابتداء خلق نطفة ، ثم نقل إلى مضغة ، ثم إلى عظام ، ثم إلى كسوة اللحم .

الرابع : أن الابتداء من قبيل التفضل الذى لا تقتضى بوجوبه ، والإعادة من قبيل الواجب لأنها لا بد منها لجزاء الأعمال ، وجزاؤها واجب بحكم وعده سبحانه وتعالى .

والله تبارك وتعالى أعلم .

لا يموت فيها ولا يحيا

السؤال :

كيف يقول القرآن الكريم : (لا يموت فيها ولا يحيا) ، مع أن الحيوان لا يخلو عن الاتصاف بأحد هذين الوصفين ؟

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة الأعلى عن أهل النار : (الذى يصلى النار الكبرى • ثم لا يموت فيها ولا يحيا) .

ويقول الإمام ابن كثير : « قوله : (سيذكر من يخشى) أى سيتعظ بما تبلغه يا محمد من قلبه يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه (ويتجنبها الأشقى • الذى يصلى النار الكبرى • ثم لا يموت فيها ولا يحيا) أى : لا يموت فيستريح ، ولا يحيا حياة تنفعه ، بل هى مضرة عليه ، لأن طبها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب وأنواع النكال .

ويرى الفخر الرازى أن قوله : (ثم لا يموت فيها ولا يحيا) فيه مسألتان : المسألة الأولى : أن المفسرين لهم فى الآية وجهان : أحدهما لا يموت فيستريح ، ولا يحيا حياة تنفعه ، كما قال تعالى : (لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها) . وهذا على مذهب العرب ، تقول للمبتلى بالبلاء الشديد : لا هو حى ولا هو ميت .

ثانيهما : معناه أن نفس أحدهم فى النار تصير فى حلقه . فلا تخرج فيموت ، ولا ترجع إلى موضعها من الجسم فيحيا .

المسألة الثانية : إنما قيل « ثم » لأن هذه الحالة أفظع وأعظم من الصلى ، فهو متراخ عنه فى مراتب الشدة .

ويرى محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى فى مسائله وأجوبتها أن معنى الآية : لا يموت موتاً يستريح به ، ولا يحيا حياة ينتفع بها . وقال بن جرير : تصعد نفسه إلى حلقومه ، ثم لا تفارقه فيموت ، ولا ترجع إلى موضعها فى الجسم فيحيا .

والله تبارك وتعالى أعلم :

• • •

القول الثقيل

السؤال :

ما معنى قوله تعالى : (إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) ؟

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة المزمل : (إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) . المراد بالقول الثقيل هنا هو القرآن المجيد . قال الحسن وقتادة : أى العمل به . وقيل : ثقيل وقت نزوله من عظمته . وعن عبد الله بن عمرو قال : سألت النبى ﷺ فقلت : يا رسول الله ، هل تحس بالوحى ؟ . فقال رسول الله ﷺ : أسمع صلاصل ، ثم أسكت عند ذلك ، فما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تفيض [أى تخرج] .

وعن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ : كيف يأتيك الوحى ؟ فقال : أحياناً يأتينى فى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على ، فيفصم عنى [يقلع وينكشف] وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول .

قالت عائشة : والله لقد رأيته ينزل عليه الوحى ﷺ فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً .

وقالت عائشة : إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ، وهو على راحلته فتضرب بجرانها . [والجران باطن العنق] والمعنى : أنها تثبت فى مكانها ، فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه .

واختار ابن جرير أنه ثقيل من الوجهين معاً ، كما قال عبد الرحمن ابن زيد : كما ثقل فى الدنيا ثقل يوم القيامة فى الموازين .

وقد أورد الإمام فخر الدين محمد بن ضياء الدين عمر الرازى المشهور بخطيب الرى وجوهاً بلغت عشرة فى تفسير هذه الآية .

أولها : وهو المختار عنده أن المراد من كونه ثقيلا عظم قدره وجلالة خطره ، وكل شىء نفس وعظم خطره فهو ثقيل ، وهذا معنى قول ابن عباس فى رواية عطاء : قولا ثقيلا يعنى كلاماً عظيماً ، ووجه النظم أنه تعالى لما أمره بصلاة الليل فكأنه قال : إنما أمرتك بصلاة الليل لأنا سنلقى عليك قولا عظيماً ، فلا بد أن تسعى فى صيرورة نفسك مستعدة لذلك القول العظيم ، ولا يحصل ذلك الاستعداد إلا بصلاة الليل ، فإن الإنسان فى الليلة الظلماء إذا اشتغل بعبادة الله تعالى ، وأقبل على ذكره والثناء عليه ، والتضرع بين يديه ، ولم يكن هناك شىء من الشواغل الحسية والعوائق الجسمانية استعدت النفس هنالك لإشراق جلال الله فيها ، وتهيأت للتجرد التام والانكشاف الأعظم بحسب الطاقة البشرية ، فلما كان لصلاة الليل أثر فى صورة النفس مستعدة لهذا المعنى ، لا جرم قال : إنى إنما أمرتك بصلاة الليل لأنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ، فصير نفسك مستعدة لقبول ذلك المعنى . وتمام هذا المعنى

ما قاله عليه الصلاة والسلام : « إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها » .

ثانيهما : قالوا المراد بالقول الثقيل القرآن وما فيه من الأوامر والنواهى التى هى تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين عامة ، وعلى رسول الله خاصة ، لأنه يتحملها بنفسه ، ويبلغها إلى أمته . وحاصله أن ثقله راجع إلى ثقل العمل به ، فإنه لا معنى للتكليف إلا إلزام ما فى فعله كلفة ومشقة .

ثالثها : روى أنه ثقيل فى الميزان يوم القيامة ، وهو إشارة إلى كثرة منافعه ، وكثرة الثواب فى العمل به .

رابعها : المراد أنه عليه الصلاة والسلام كان يثقل عند نزول الوحى إليه . روى أن الوحى نزل عليه وهو على ناقته فثقل عليها حتى وضعت جرانها [بطن عنقها] فلم تستطع أن تتحرك .

وعن ابن عباس : كان إذا نزل عليه الوحى ثقل عليه ، وتربد وجهه .

وعن عائشة رضى الله عنها : رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإن جبينه ليرفض عرقاً .

خامسها : قال الفراء : قولا ثقيلا ، أى ليس بالخفيف ولا بالسفاف ، لأنه كلام الله ربنا تبارك وتعالى .

سادسها : قال الزجاج : معناه أنه قول متين فى صحته وبيانه ونفعه ، كما تقول : هذا كلام رزين . وهذا قول له وزن ، إذا كنت تستجيده ، وتعلم أنه قد وقع موقع الحكمة والبيان .

سابعها : قال أبو على الفارسى إنه ثقيل على المنافقين ، من حيث إنه يهتك أسرارهم ، ومن حيث إنه يبطل أديانهم وأقوالهم .

ثامنها : الثقيل من شأنه أن يبقى فى مكانه ولا يزول ، فجعل الثقيل كناية عن بقاء القرآن على وجه الدهر ، كما قال : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

تاسعها : أنه ثقيل بمعنى أن العقل الواحد لا يفى بإدراك فوائده ومعانيه بالكلية ، فالمتكلمون غاصوا فى بحار معقولاته ، والفقهاء أقبلوا على البحث عن أحكامه ، وكذا أهل اللغة والنحو وأرباب المعانى ، ثم لا يزال كل متأخر يفوز منه بفوائد ما وصل إليها المتقدمون ، فعلمنا أن الإنسان الواحد لا يقوى على الاستقلال بحمله ، فصار كالحمل الثقيل الذى يعجز الخلق عن حمله .

عاشرها : أنه ثقيل لكونه مشتملا على المحكم والمتشابه ، والناسخ والمنسوخ ، والفرق بين هذه الأقسام مما لا يقدر عليه إلا العلماء الراسخون المحيطون بجميع العلوم العقلية والنقلية والحكمية ، فلما كان كذلك لا جرم كانت الإحاطة به ثقيلة على أكثر الخلق .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

تناسب آيات فى سورة الغاشية

السؤال :

تحدث القرآن الكريم عن خلق الإبل ، ورفع السماء ، ونصب الجبال ، وبسط الأرض وذلك فى سورة الغاشية ، فما هو التناسب الملحوظ بين هذه الأشياء؟

الجواب :

يقول الله تعالى فى سورة الغاشية : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت • وإلى السماء كيف رفعت • وإلى الجبال كيف نصبت • وإلى الأرض كيف سطحت) .

ويحاول ابن كثير تيسير الآيات فى تناسقها فيقول : يقول تعالى آمراً عباده بالنظر فى مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) ؟ فإنها خلق عجيب ، وتركيبها غريب ، فإنها فى غاية القوة والشدة ، وهى مع ذلك تلين للحمل الثقيل ، وتنقاد للقائد الضعيف ، وتؤكل وينتفع بوبرها ، ويشرب لبنها ، ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل ، وكان شريح القاضى يقول : اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، أى كيف رفعها الله عز وجل من الأرض هذا الرفع العظيم ، كما قال تعالى : (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) .

(وإلى الجبال كيف نصبت) أى جعلت منصوبة قائمة ثابتة راسية ، لئلا تميد الأرض بأهلها ، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن .

(وإلى الأرض كيف سطحت) أى : كيف بسطت ومدت ومهدت ، فنبه البدوى على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذى هو راكب عليه والسماء التى فوق رأسه ، والجبل الذى تجاهه ، والأرض التى تحته ، على قدرة خالق ذلك وصانعه ، وأنه الرب العظيم الخالق المتصرف المالك ، وأنه الإله الذى لا يستحق العبادة سواه .

وقد قال المفسرون : لما ذكر الله عز وجل أمر أهل الدارين ، تعجب الكفار من ذلك ، فكذبوا وأنكروا ، فذكرهم الله صنعته وقدرته ، وأنه قادر على كل شىء ، كما خلق الحيوانات والسماء والأرض ، ثم ذكر الإبل أولا لأنها كثيرة فى العرب ، وهم لم يروا الفيلة ، فنبههم جل ثناؤه على عظيم من خلقه ، قد ذلله الصغير يقوده وينيخه وينهضه . ويحمل عليه الثقيل من الحمل وهو بارك ، فينهض بثقيل حمله . وليس ذلك فى شىء من الحيوان

غيره ، فأراهم عظيماً من خلقه مسخراً لصغير من خلقه ، يدلهم بذلك على توحيده وعظيم قدرته .

(وإلى السماء كيف رفعت) أى رفعت عن الأرض بلا عمد : وقيل : رفعت فلا ينالها شيء . (وإلى الجبال كيف نصبت) أى كيف نصبت على الأرض بحيث لا تزول ، وذلك أن الأرض لما دحيت مادت فأرساها بالجبال ، (وإلى الأرض كيف سطحت) أى بسطت ومدت .

وقدم الإبل فى الذكر لكثرة عددها عند العرب ، وهم من أعرف الناس بها ، وهى نافعة فى أمور كثيرة ، فهى مأكولة ولبنها مشروب ، وتصلح للحمل والركوب ، وقطع المسافات البعيدة عليها ، والصبر على العطش ، وقلة العلف وكثرة الحمل ، وهى من معظم أموال العرب ، وكانوا يسيرون على الإبل منفردين مستوحشين من الناس ، ومن هذا حالة تفكر فيما يحضره ، فقد ينظر فى مركوبه ، ثم يمد بصره إلى السماء ثم إلى الأرض . فأمروا بالنظر فى هذه الأشياء ، فإنها أدل دليل على الصانع المختار القادر .

وكذلك يتحدث ابن أبى بكر الرازى عن التناسب الملاحظ بين السماء والإبل والجبال والأرض فيذكر أنه لما وصف الله تعالى الجنة بما وصف ، عجب من ذلك الكفار ، فذكرهم عجائب صنعه . وقال قتادة : لما ذكر ارتفاع سرر الجنة قالوا : كيف نصعدها ؟ فنزلت هذه الآية : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) للنهوض بالأثقال وحملها إلى البلاد البعيدة ، وجعلت تبرك حتى تحمل . وتركب عن قرب ويسر ، ثم تنهض بما حملت ، فليس فى الدواب ما يحمل عليه وهو بارك ويطيق النهوض إلا هى وسخرت لكل من قادها حتى الصبى الصغير ، ولما جعلت سفائن البر أعطيت الصبر على احتمال العطش عشرة أيام فصاعداً ، وجعلت ترعى كل نبات فى البرارى والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم . وإنما لم يذكر الفيل والزرافة والكركدن

وغيرها مما هو أعظم من الجمل ، لأن العرب لم يروا شيئاً من ذلك ولا كانوا يعرفونه ، ولأن الإبل كانت أنفس أموالهم وأكثرها ، لا تفارقهم ولا يفارقونها ، وإنما جمع بينها وبين ما بعدها لأن نظر العرب قد انتظم هذه الأشياء في أوديتهم وبواديهم ، فانتظمها الذكر على حسب ما انتظمها نظرهم ، وكثرة ملابستهم ومخالتهم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

ثم لتسألن يومئذ عن النعيم

السؤال :

ما النعيم المذكور في قوله تعالى في سورة التكاثر : (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) ؟

الجواب :

يقول الله تعالى في سورة التكاثر : (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) .

وقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة : قال : خرج رسول الله ذات يوم أو ليلة ، فإذا هو بأبي بكر وعمر ، فقال : ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ .

قالا : الجوع يا رسول الله .

قال : وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما . ثم قال لهما : قوما . فقاما معه ، فأتى رجلا من الأنصار ، فإذا هو ليس في بيته ، فلما رأته المرأة قالت : مرحباً وأهلا .

فقال لها رسول الله ﷺ : أين فلان ؟ .

قالت : يستعذب لنا من الماء .

إذا جاء الأنصارى ، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ، ثم قال : الحمد لله ، ما أحد اليوم أكرم أضيافاً منى .

فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر رطب ، فقال : كلوا من هذه .

وأخذ المدية فقال له رسول الله ﷺ : إياك والحلوب .

فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق ، وشربوا ، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر : والذى نفسى بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم يوم القيامة ، أخرجكم من بيوتكم الجوع ، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم .

وروى الترمذى أن الرسول ﷺ قال: « هذا والذى نفسى بيده من النعيم الذى تسألون عنه يوم القيامة : ظل بارد ، ورطب طيب ، وماء بارد » .

وقد ذكر أهل التأويل أقوالا فى هذا النعيم : فقيل : هو الأمن والصحة .

وقيل : الصحة والفراغ . وقيل : الإدراك بحواس السمع والبصر . وقيل : ملاذ المأكول والمشروب ، وقيل : الغداء والعشاء . وقيل : شبع البطون ، وبارد الشرب ، وظلال المساكن ، واعتدال الخلق ، ولذة النوم .

وقيل : كل شىء من لذة الدنيا .

وقال مالك رحمه الله : إنه صحة البدن وطيب النفس . وقيل : النوم مع الأمن والعافية . وقال محمد بن كعب : النعيم هو ما أنعم الله علينا بمحمد ﷺ .

وقال الحسن : هو تخفيف الشرائع وتيسير القرآن .

قال القرطبى : وكل هذه نعم . فيسأل العبد عنها ، هل شكر ذلك أو كفر . والأقوال المتقدمة أظهر .

والله تبارك وتعالى أعلم .

استجابة الدعاء

السؤال :

يقول الله تعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) ، وهذا يدل على أن الله يجيب دعاء الداعين ، ولكنا نرى كثيراً من الداعين لا يستجاب دعاؤهم ، فكيف نفهم ذلك ؟

السؤال :

يقول ابن أبى بكر الرازى : روى عن النبى ﷺ أنه قال : « ما من مسلم دعا الله بدعوة ليس فيها قطيعة رحم ولا إثم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يعجل دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها » .

ولأن قبول الدعاء شرطه الطاعة لله تعالى ، وأكل الحلال ، وحضور اسلب وقت الدعاء ، فمتى اجتمعت هذه الشروط حصلت الإجابة .

ولأن الداعى قد يعتقد مصلحته فى الإجابة ، والله تعالى يعلم أن مصلحته فى تأخير ما سأل ، أو فى منعه ، فيجيبه إلى مقصوده الأصلى ، وهو طلب المصلحة ، فيكون قد أجيب ، وهو يعتقد أنه منع عنه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

ما فائدة المتشابهات ؟

السؤال :

إذا كانت المتشابهات هى الآيات التى فى معناها غموض ودقة ، فما الفائدة من إنزالها فى القرآن الكريم ؟

الجواب :

فى كتاب « مسائل الرازى وأجوبتها » جواب عن هذا السؤال ، وهو

يتعلق بقول الله تعالى فى سورة آل عمران : (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب) .

وقد جاء فى الجواب : لما كان كلام العرب ينقسم إلى ما يفهم معناه سريعاً ، ولا يحتمل غير ظاهره ، وإلى ما هو مجاز وكناية وإشارة وتلويح ، والمعانى فيه متعارضة متزاحمة ، وهذا القسم هو المستحسن عندهم ، والمبتدع فى كلامهم نزل القرآن بالنوعين تحقيقاً لمعنى الإعجاز ، كأنه قال : عارضوه بأى النوعين شئتم فإنه جامع لهما ، وأنزله الله عز وجل محكماً ومتشابهاً ليختبر من يؤمن بكله ، ويرد علم ما تشابه منه إلى الله فيثيبه ، ومن يرتاب فيه ويشك وهو المنافق فيعاقبه ، كما ابتلى عباده بنهر طالوت وغيره .

أو أراد أن يشغل العلماء برد المتشابه إلى المحكم ، بالنظر والاستدلال والبحث والاجتهاد ، فيثابون على هذه العبادة : ولو كان كله ظاهراً جلياً لاستوى فيه العلماء والجهال ، ولماتت الخواطر بعدم البحث والاستنباط . فإن نار الفكر إنما تقدح بزناد المشكلات ، ولهذا قال بعض الحكماء : عيب الغنى أنه يورث البلادة ويميت الخاطر ، وفضيلة الفقر أنه يبعث على أعمال الفكر واستنباط الحيل فى الكسب .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

بين ظفر المؤمنين وظفر الكافرين

السؤال :

يقول الله تعالى فى سورة النساء : (الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم ، وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) . فلماذا سمى الله تعالى ظفر المؤمنين « فتحاً » ، وسمى ظفر الكافرين نصيباً ؟

الجواب :

جاء فى تفسير هذه الآية الكريمة قول ابن كثير : يخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء ، بمعنى ينتظرون زوال دولتهم ، وظهور الكفر عليهم ، وذهاب ملتهم ، (فإن كان لكم فتح من الله (أى نصر وتأييد ، وظفر وغنيمة (قالوا ألم نكن معكم) ؟ أى يتوددون إلى المؤمنين بهذه المقالة) وإن كان للكافرين نصيب) أى : إدالة على المؤمنين فى بعض الأحيان كما وقع يوم أحد ، فإن الرسل تبتلى ثم يكون لها العاقبة ، (قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين) ؟ أى ساعدناكم فى الباطن ، وما ألوناهم خبالا وتخذيلا ، حتى انتصرتم عليهم .

وقال ابن أبى بكر الرازى إنه قال ذلك تعظيماً لشأن المؤمنين ، وتحقيراً لحظ الكافرين ، لأن ظفر المسلمين أمر عظيم ، لأنه متضمن نصرة دين الله وعزة أهله ، تفتح له أبواب السماء ، حتى ينزل على أولياء الله ؛ وظفر الكافرين ليس إلا حظاً دنيئاً وعرضاً من متاع الدنيا ويصيبونه ، وليس يتضمن شيئاً مما ذكرنا .

والله تبارك وتعالى أعلم .

كيد الشيطان وكيد النساء

السؤال :

لماذا قال القرآن الكريم : (إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) ، مع أنه قال عن كيد النساء : (إن كيدكن عظيم) ، والمعروف أن كيد الشيطان أعظم من كيد النساء؟

الجواب :

نتعرف أولا إلى معنى « الكيد » . فنجد صاحب « المفردات يقول : الكيد ضرب من الاحتيال ، وقد يكون مذموماً ، وممدوحاً ، وإن كان يستعمل فى المذموم أكثر ، وكذلك الاستدراج والمكر ؛ ويكون بعض ذلك محموداً ، قال تعالى : (وكذلك كدنا ليوسف) . وقال : (وأملى لهم إن كيدى متين) . قال بعضهم : أراد بالكيد العذاب ، والصحيح أنه هو الإملاء والإمهال المؤدى إلى العقاب ، كقوله : (إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً) . وقوله :(إن الله لا يهدى كيد الخائنين) فخص الخائنين تنبيهاً أنه قد يهدى كيد من لم يقصد بكيده خيانة ككيد يوسف بأخيه . وقوله : (لأكيدن أصنامكم) أى لاريدن بها سوءاً .

وقد قال الله جل جلاله فى سورة النساء : (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) .

وكيد الشيطان مهما كان قوياً — ضعيف فى جنب نصرة الله القوى القادر . وحفظه لأوليائه المخلصين من عباده . والله جل جلاله يواجه الشيطان المريد بأنه لا يستطيع التمكن من عباد الله الأخيار . فيقول له : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) .

والشيطان عليه اللعنة يقر بضعف إغوائه أمام المخلصين ، فيقول فى خطاب الله صاحب العزة والجبروت : (قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين) .

ويعلق « تفسير المنار » على آية النساء السابقة ، بعبارة ميسرة مفسرة جاء فيها :

(الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت) والطاغوت من المبالغة فى الطغيان ، وهو مجاوزة حدود الحق والعدل والخير . إلى الباطل والظلم والشر ، فلو ترك المؤمنون القتال — والكافرون لا يتركونه — لغلب الطاغوت وعم (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) ؛ فغلبت الوثنية المفسدة للعقول والأخلاق ؛ وعم الظلم بعموم الاستبداد .

(فقاتلوا أولياء الشيطان) فأنتم أيها المؤمنون أولياء الرحمن (إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) لأنه يزين لأصحابه الباطل والظلم والشر ، وإهلاك الحرث والنسل ، فيوهمهم بوسوسته أنها خير لهم ، وفيها عزهم وشرفهم . وهذا هو الكيد والخداع .

ومن سنن الله فى تعارض الحق والباطل . أن الحق يعلو . والباطل يسفل ؛ وفى مصارعة المصالح والمفاسد بقاء الأصلح ورجحان الأمثل

فالذين يقاتلون فى سبيل الله يطلبون شيئاً ثابتاً صالحاً تقتضيه طبيعة العمران . فسنن الوجود مؤيدة لهم . والذين يقاتلون فى سبيل الشيطان يطلبون الانتقام والاستعلاء فى الأرض بغير الحق . وتسخير الناس لشهواتهم ولذاتهم وهى أمور تأباها فطرة البشر السليمة . وسنن العمران القويمة . فلا قوة ولا بقاء لها إلا بتركها وشأنها . وإرخاء العنان لأهلها . وإنما بقاء الباطل فى نومة الحق عنه .

ثم معنى آخر : قال الأستاذ الإمام : هذه الآية جواب عما عساه يطوف بخواطر أولئك الضعفاء ، وهو أننا لا نقاتل لأننا ضعفاء ، والأعداء أكثر منا عدداً ، وأقوى منا عدداً ، فدلهم الله تعالى على قوة المؤمنين التي لا تعادلها قوة ، وضعف الأعداء الذى لا يفيد معه كيد ولا حيلة ، وهو أن المؤمنين يقاتلون فى سبيل الله ، وهو تأييد الحق الذى يوقن به صاحبه ، وصاحب اليقين والمقاصد الصحيحة الفاضلة تتوجه نفسه بكل قواها إلى إتمام الاستعداد ويكون أجدرنا بالصبر والثبات ، وفى ذلك من القوة ما ليس فى كثرة العدد والعدد .

ويقول الله تعالى فى سورة يوسف : (فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) .

جاء فى تفسير الفخر الرازى : (قال إنه من كيدكن) أى إن قولك : (ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً) من كيدكن ، إن كيدكن عظيم . فإن قيل : إنه لما خلق الإنسان ضعيفاً ، فكيف وصف كيد المرأة بالعظم ؟ وأيضاً فكيد الرجال قد يزيد على كيد النساء ؟

والجواب : عن الأول إن خلقه الإنسان بالنسبة إلى خلقة الملائكة والسموات والكواكب خلقة ضعيفة ، وكيد النسوان بالنسبة إلى كيد البشر عظيم ، ولا منافاة بين القولين .

وأيضاً فالنساء لهن فى هذا الباب من المكر والحيل ما لا يكون للرجال ، ولأن كيدهن فى هذا الباب يورث من العار ما لا يورثه كيد الرجال .

وقيل : إن القائل : إن كيدكن عظيم هو عزيز مصر وهو زوج المرأة التى راودت يوسف عن نفسه ، فلا تناقض بين الآيتين ولا تعارض .

والله تبارك وتعالى أعلم .

الحكمة فى القرآن

السؤال :

ما معنى الحكمة التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ؟

الجواب :

لقد وردت كلمة « الحكمة » فى آيات كثيرة من القرآن المجيد ، وقد ورد فى معناها أكثر من تفسير ، وقبل أن نستعرض أقوال المفسرين فى هذا المجال نتعرف أولا إلى ما ذكره الراغب الأصفهانى فى كتابه « مفردات القرآن » عن كلمة الحكمة :

الحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل ، فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الأحكام . ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات . وهذا هو الذى وصف به لقمان فى قوله عز وجل : (ولقد آتينا لقمان الحكمة) ونبه على جملتها بما وصفه بها ، فإذا فى حق الله : هو حكيم ، فمعناه بخلاف معناه إذا وصف به غيره . ومن هذا الوجه قال الله تعالى : (أليس الله بأحكم الحاكمين) . وإذا وصف به القرآن فلتضمنه الحكمة نحو : (آلر تلك آيات الكتاب الحكيم) . وعلى ذلك قال : (ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة) .

وقيل : معنى الحكيم المحكم ، نحو : (أحكمت آياته) ، وكلاهما صحيح ، فإنه محكم ، ومفيد للحكم ، ففيه المعنيان جميعاً .

والحكم أعم من الحكمة ، فكل حكمة حكم ، وليس كل حكم حكمة ، فإن الحكم أن يقضى بشىء على شىء ، فيقول هو كذا ، أو ليس بكذا . قال ﷺ : إن من الشعر لحكمة . أى قضية صادقة . وذلك نحو قول لبيد : إن تقوى ربنا خير نفل .

قال تعالى : (وآتيناه الحكم صبياً) وقال ﷺ : «الصمت حكم وقليل فاعله» . أى حكمة . (ويعلمهم الكتاب والحكمة) . وقال تعالى :(واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) . قيل : تفسير القرآن ، ويعنى ما نبه عليه القرآن من ذلك . (إن الله يحكم ما يريد) . يريد : أى ما يريده يجعله حكمة ، وذلك حث للعباد على الرضا بما يقتضيه. قال ابن عباس رضى الله عنه فى قوله : (من آيات الله والحكمة) هى علم القرآن ناسخه ومنسوخه ، محكمه ومتشابهه . وقال ابن زيد : هى علم آياته وحكمه . وقال السدى : هى النبوة . وقيل فهم حقائق القرآن ، وذلك إشارة إلى أبعاضها التى تختص بأولى العزم من الرسل ، ويكون سائر الأنبياء تبعاً لهم فى ذلك .

ولو رجعنا إلى تفسير ابن كثير لوجدناه يفسر الحكمة بالسنة أو الفهم فى الدين ، فى أكثر المواطن ، فهو فى تفسير قوله تعالى فى سورة البقرة : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) يذكر أن الحكمة هى السنة .

وفى تفسيره لقوله تعالى فى سورة البقرة : (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) يقول هذه العبارة : يذكر الله عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم ، يتلو عليهم آيات الله مبينات ويزكيهم ، أى يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويعلمهم الكتاب وهو القرآن ، والحكمة وهى السنة ، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون .

وفسر ابن كثير الحكمة بالنبوة حينما جاء ذكرها مع الملك فى قوله تعالى فى سورة البقرة : (فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) .

وفى قوله تعالى فى سورة البقرة : (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الألباب) أورد ابن كثير جملة أقوال للمفسرين عن الحكمة . فعن ابن عباس . هى المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله .

وعن ابن عباس مرفوعاً : الحكمة القرآن ، يعنى تفسيره .

وعن مجاهد : يعنى بالحكمة الإصابة فى القول .

وعنه : يؤتى الحكمة من يشاء ، ليست بالنبوة ، ولكنه العلم والفقه والقرآن .

وعن ابن مسعود . مرفوعاً : رأس الحكمة مخافة الله .

وقال أبو العالية : الحكمة الكتاب والفهم .

وقال مالك : إنه ليقع فى قلبى أن الحكمة هو الفقه فى دين الله ، وأمر يدخله الله فى القلوب ، من رحمته وفضله ، ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلا فى أمر الدنيا ، ذا نظر فيها ، وتجد آخر ضعيفاً فى أمر دنياه ، عالماً بأمر دينه ، بصيراً به ، يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا ، فالحكمة : الفقه فى دين الله .

قال ابن كثير : والصحيح أن الحكمة — كما قاله الجمهور — لا تختص بالنبوة ، بل هى أعم منها ، وأعلاها النبوة ، والرسالة أخص ، ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع ، كما جاء فى بعض الأحاديث : « من حفظ القرآن فقد أدرجت [طويت] النبوة بين كتفيه . غير أنه لا يوحى إليه » .

ومن هذا نفهم أن الحكمة قد فسروها بوجوه شتى . وكلها صحيحة ، والأولى أن يراد بها ما هو أعم فيقال إن الحكمة هى الفهم السليم : يصلح الفرد والجماعة فى شئون الدين والدنيا .

والله تبارك وتعالى أعلم .

البسملة وسورة التوبة

السؤال :

لماذا لم تذكر البسملة فى أول سورة التوبة ؟

الجواب :

لقد تحدث المفسرون عن السبب فى كون سورة التوبة لم تبدأ بجملة (بسم الله الرحمن الرحيم) ، ونستطيع أن نبين آراء المشهورين منهم .

ففى تفسير ابن كثير : إنما لم يبسمل فى أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة فى أولها فى المصحف الإمام ، والاقتداء فى ذلك بأمير المؤمنين عثمان ابن عفان رضى الله عنه وأرضاه .

ونلاحظ أنه لم يذكر سبباً ولا حكمة لهذا التصرف ولذلك روى عن ابن عباس أنه قال لعثمان بن عفان : ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى ، وإلى براءة وهى من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » ، ووضعتموها فى السبع الطوال ؟ — والمثانى كل سورة أقل من المئين ، وسورة الأنفال عدد آياتها خمس وسبعون آية ، وسورة التوبة مائة وتسع وعشرون آية . فأجاب عثمان بقوله : كان رسول الله ﷺ مما يأتى عليه الزمان الطويل ، وهو ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب . فيقول : ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، فإذا نزلت عليه الآية فيقول : ضعوا هذه فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن وكانت قصتها شبيهة لقصتها ، وحسبت أنها منها ، وقبض رسول الله ﷺ ، ولم يبين لنا أنها منها . فمن أجل

ذلك قرنت بينهما . ولم أكتب بينهما سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فوضعتها فى السبع الطوال . وأما الإمام فخر الدين محمد الرازى فقد ذكر وجوهاً كثيرة لعدم ذكر البسملة فى أول سورة التوبة ، منها :

الأول : أنه روى عن ابن عباس قال : قلت لعثمان بن عفان ما حملكم على أن عمدتم إلى سورة براءة وهى من المئين [أكثر من مائة آية] وإلى سورة الأنفال وهى من المثانى [أى أقل من مائة] فقرنتم بينهما وما فصلتم ببسم الله الرحمن الرحيم ؟ فقال : كان النبى ﷺ كلما نزلت عليه سورة يقول : ضعوها فى موضع كذا . وكانت « براءة » من آخر القرآن نزولا ، فتوفى ﷺ ولم يبين موضعها ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فقرن بينهما .

قال بعض المحققين : يبعد أن يقال إنه عليه الصلاة والسلام لم يبين كون هذه السورة تالية لسورة الأنفال . لأن القرآن مرتب من قبل الله تعالى ومن قبل رسوله ، على الوجه الذى يقل . ولو جوزنا فى بعض السور ألا تكون ترتيبها من الله على سبيل الوحى . لجوزنا مثل ذلك فى سائر السور ، وفى آيات السورة الواحدة . وتجوز ذلك يفتح الباب من تجويز الزيادة والنقصان فى القرآن . وذلك يخرجه عن كونه حجة بل الصحيح أنه ﷺ أمر بوضع سورة التوبة بعد سورة الأنفال وحياً . وأنه عليه الصلاة والسلام حذف « بسم الله الرحمن الرحيم » من أول سورة التوبة وحياً .

الثانى : يروى عن أبى بن كعب أنه قال : إنما وهموا ذلك لأن فى الأنفال ذكر العهود . وفى التوبة نبذ العهود . فوضعت إحداهما بجنب الأخرى .

الثالث : اختلف الصحابة فى أن سورة الأنفال وسورة التوبة سورة واحدة أم سورتان . فقال بعضهم هما سورة واحدة لأن كلتيهما ، نزلت فى

القتال ، ومجموعهما هذه السورة السابعة من الطوال وهى سبع ، وما بعدها المثون، وهذا قول ظاهر لأنهما مائتان وست آيات فهما بمنزلة سورة واحدة، ومنهم من قال هما سورتان فلما ظهر الاختلاف بين الصحابة فى هذا الباب تركوا بينهما فرجة تنبيهاً على قول من يقول هما سورة واحدة .

الرابع : ختم الله تعالى سورة الأنفال بإيجاب أن الوالى المؤمنون بعضهم بعضاً ، وأن يكونوا منقطعين عن الكفار بالكلية ، ثم إنه تعالى صرح بهذا المعنى فى قوله تعالى (براءة من الله ورسوله) ، فلما كان ذلك عين ذلك الكلام وتأكيداً له لزم وقوع الفاصل بينهما ، فكان إيقاع الفعيل بينهما تنبيهاً على كونهما سورتين متغايرتين ، وترك كتابة « بسم الله الرحمن الرحيم » بينهما تنبيهاً على أن هذا المعنى هو عين ذلك المعنى .

الخامس : سأل ابن عباس علياً رضى الله عنه : لم لم يكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » بين السورتين ؟ قال لأن « بسم الله الرحمن الرحيم » أمان ، وسورة التوبة نزلت بالسيف ونبذ العهد، وليس فيها أمان . يروى أن سفيان ابن عيينة ذكر هذا المعنى وأكده لقوله تعالى : (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً) . فقيل له : أليس أن النبى ﷺ كتب إلى أهل الحرب : « بسم الله الرحمن الرحيم » ؟ . فأجاب بأن ذلك ابتداء منه بدعوتهم إلى الله ، ولم ينبذ إليهم عهدهم . ألا تراه قال فى آخر كتابه « والسلام على من اتبع الهدى ». وأما هذه السورة فقد اشتملت على المقاتلة ونبذ العهود فظهر الفرق.

السادس : وقيل لعل الله تعالى لما علم من بعض الناس أنهم يتنازعون فى كون « بسم الله الرحمن الرحيم » من القرآن أمر ألا يكتب ههنا ، تنبيهاً على كونها آية من أول كل سورة ، وأنها لما لم تكن آية من هذه السورة لا جرم لم تكتب ، وذلك يدل على أنها لما كتبت فى أول سائر السور وجب كونها آية من كل سورة .

ويقول القشيرى فى « لطائف الإشارات » فى أول سورة التوبة : جرد الله سبحانه هذه السورة عن ذكر بسم الله الرحمن الرحيم ليعلم أنه يخص من يشاء وما يشاء بما يشاء ، ويفرد من يشاء وما يشاء بما يشاء ، ليس لضعفه سبب وليس له فى أفعاله غرض ولا أرب ، واتضح للكافة أن هذه الآية أثبتت فى الكتاب لأنها منزعة وبالأمر هنالك محصلة .

ومن قال : إنه لم يذكر التسمية فى هذه السورة لأنها مفتتحة بالبراءة من الكفار ، فهو وإن كان وجهاً فى الإشارة فضعيف ، وفى التحقيق كالبعيد ، لأنه افتتح سوراً من القرآن بذكر الكفار مثل : (لم يكن الذين كفروا) وقوله : (ويل لكل همزة لمزة) وقوله : (تبت يدا أبى لهب وتب) وقوله : (قل يأيها الكافرون) .

هذه كلها مفاتح للسور ، وبسم الله الرحمن الرحيم مثبتة فى أوائلها — وإن كانت متضمنة ذكر الكفار — على أنه يحتمل أن يقال إنها وإن كانت فى ذكر الكفار فليس ذكر البراءة فيها صريحاً ، وإن تضمنته تلويحاً ، وهذه السورة أولها ذكر البراءة منهم قطعاً ، فلم تصدر بذكر الرحمة .

ويقال إذا كان تجرد السورة عن هذه الآية يشير إلى أنها لذكر الفراق ، فبالحرى أن يخشى أن تجرد الصلاة عنها يمنع عن كمال الوصلة والاستحقاق ،

وفى تفسير المنار : لم يكتب الصحابة ولا من بعدهم البسملة فى أول سورة التوبة لأنها لم تنزل معها كما نزلت مع غيرها من السور . هذا هو المعتمد المختار فى تعليله .

وقيل رعاية لمن كان يقول إنها مع الأنفال سورة واحدة ، والمشهور أنه لنزولها بالسيف ونبذ العهود ، وقيل غير ذلك مما فى جعله سبباً وعلة نظر . وقد يقال إنه حكمة لا علة ، ومما قاله بعض العلماء فى هذه الحكمة أنها تدل على أن

البسملة آية من كل سورة ، لأن الاستثناء بالفعل كالاستثناء بالقول معيار العموم .

وأما التناسب بينها وبين ما قبلها فإنه أظهر من التناسب بين سائر السور بعضها مع بعض ، فهي كالمتممة لسورة الأنفال فى معظم ما فيهما من أصول الدين وفروعه والسنن الإلهية والتشريع ، وجعله فى أحكام القتال ، وما يتعلق به من الاستعداد له وأسباب النصر فيه ، وغير ذلك من الأمور الروحية والمالية، وأحكام المعاهدات والمواثيق من حفظها ونبذها عند وجود المقتضى له ، وأحكام الولاية فى الحرب وغيرها بين المؤمنين بعضهم مع بعض والكافرين بعضهم مع بعض ، وكذا أحوال المؤمنين الصادقين وكذا أحوال المؤمنين الصادقين والكفار والمذنبين من المنافقين ومرضى القلوب ، مما بدئ به فى الأول أتم فى الثانية . ولولا أن أمر القرآن فى سوره ومقاديرها موقف على النص لمكان هذا الذى ذكرناه مؤيداً من جهة المعانى لمن قال إنهما سورة واحدة ، كما نؤيده من ناحية ترتيب السور بحسب طولها وقصرها ، وتوالى السبع الطوال منها ويليها المثون ، والأفعال دونها .

مثال ذلك :

١ ـ أن العهود ذكرت فى سورة الأنفال وافتتحت سورة التوبة بتفصيل الكلام فيها ، ولا سيما نبذها الذى قيد فى الأولى بخوف خيانة الأعداء .

٢ ـ تفصيل الكلام فى قتال المشركين وأهل الكتاب فى كل منهما .

٣ ـ ذكر فى الأولى صد المشركين عن المسجد الحرام وأنهم ليسوا بأوليائه (إن أولياؤه إلا المتقون) أى من المؤمنين ، وجاء فى الثانية (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله) إلى آخر الآيات .

٤ ــ ذكر فى أول الأولى صفات المؤمنين الكاملين ، وذكر بعد ذلك بعض صفات الكافرين ، ثم ذكر فى آخرها حكم الولاية بين كل من الفريقين ، وجاء فى الثانية مثل هذا فى مواضع أيضاً .

٥ ــ ذكر فى الأولى الترغيب فى إنفاق المال فى سبيل الله ، وجاء مثل هذا الترغيب بأبلغ من ذلك وأوسع فى الثانية . وذكرت فى الأولى مصارف الغنائم من هذه الأموال ، وفى الثانية مصارف الصدقات .

٦ ــ ورد ذكر المنافقين والذين فى قلوبهم مرض فى آية واحدة ، وفصل فى الثانية أوسع تفصيل حتى كانت أجدر بأن تسمى سورة المنافقين من سورة (إذا جاءك المنافقون) لو كانت تسمية السور بالرأى .

وقد تحدث الإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى فى مسائله عن السبب فى ترك كتابة البسملة فى أول سورة التوبة بخلاف سائر السور فقال :

لما تشابهت سورة التوبة وسورة الأنفال ، واختلف الصحابة فى كونهما سورتين أو سورة واحدة ، تركت بينهما فرجة عملا بقول من قال إنهما سورتان ، وتركت البسملة بينهما عملا بقول من قال هما سورة واحدة ، وممن قال بذلك قتادة رحمه الله . وقيل : إن اسم الله تعالى سلام وأمان ، وسورة براءة فيها قتل المشركين ومحاربتهم فلا يناسب كتابتها .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

« قل » فى أوائل السورة

السؤال :

ما السورة التى بدأت بكلمة « قل » ؟ وما معناها ؟

الجواب :

ذكر القرآن الكريم كلمة (قل) أكثر من ثلثمائة مرة ، وتكررت كلمة (قل) فى سورة الزمر سبع عشرة مرة ، وقد تكررت فى هذه السورة فى آيات متوالية ، كالآيات الثامنة والتاسعة والعاشرة والحادية عشرة . فهذه أربع آيات متتابعة جاء فيها :

(وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ، ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار * أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب * قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) .

وفى القرآن المجيد خمس سور بدأ كل منها بكلمة (قل) ، فبدأت سورة الجن بقوله تعالى : (قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً) .

وبدأت سورة الكافرون ، بقوله تعالى : (قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) .

وبدأت سورة (الإخلاص) بقوله تعالى : (قل هو الله أحد) .

وبدأت سورة (الفلق) بقوله تعالى : (قل أعوذ برب الفلق) .

وبدأت سورة (الناس) بقوله تعالى : (قل أعوذ برب الناس) .

و (قل) أمر من الله تبارك وتعالى ، فهو يأمر نبيه محمداً ﷺ بأن يقول للناس ويبلغهم ويخبر قومه، والقرآن يقول فى سورة المائدة :(يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين) .

وعن عقبة بن عامر كنت أمشى مع رسول الله ﷺ فقال : يا عقبة قل . قلت ماذا أقول ؟ فسكت عنى ثم قال : قل . قلت : ماذا أقول يا رسول الله ، فسكت عنى ، فقلت : اللهم اردده على . فقال يا عقبة ، قل . قلت : ماذا أقول يا رسول الله . فقال : قل أعوذ برب الفلق ، فقرأتها حتى أتيت على آخرها . ثم قال : قلت : ماذا أقول يا رسول الله ؟ قال : قل أعوذ برب الناس فقرأتها حتى أتيت على آخرها . ثم قال رسول الله ﷺ : ما سأل سائل بمثلها ، ولا استعاذ مستعيذ بمثلها .

وقال النبى ﷺ : « ألا أعلمك ثلاث سور لم ينزل فى التوراة ، ولا فى الإنجيل ، ولا فى الزبور ، ولا فى الفرقان مثلهن ؟ قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

حكمة الليل والنهار

السؤال :

لماذا خلق الله الليل والنهار ؟

الجواب :

لقد تحدث القرآن عن حكمة الليل والنهار فى أكثر من آية فنى سورة البقرة يقول تعالى : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) .

وفى سورة آل عمران يقول تعالى : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) .

وأشار القرآن إلى أن النهار بضوئه للحركة والليل سكناً للناس من آيات الله ، فقال فى سورة الأنعام : (فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً) .

وأشار فى سورة يونس إلى هذه الحكمة فقال : (هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً).

ويشير القرآن إلى أن الليل كلباس للإنسان ، تأتيه الراحة فيه عن طريق النوم فيقول : (وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً) .

وفى سورة القصص يقول : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله) .

وفى سورة النبأ يقول القرآن : (وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً) .

وإن الناظر فى الآيات الكريمة التى ورد فيها ذكر الليل والنهار ، والراجع إلى معانى هذه الآيات يدرك أن حكمة الله فى خلق الليل والنهار حكمة بالغة ساطعة هى من صميم النفع من الله تعالى لعباده وهو ذو الفضل العظيم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

معنى المسارعة

السؤال :

كيف يقول القرآن : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم) والمسارعة عجلة ، والعجلة من الشيطان ؟

الجواب :

لقد وردت مادة المسارعة إلى الخير فى مواطن من القرآن الكريم ، فقال تعالى فى سورة آل عمران : (يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين) .

ويقول فى السورة نفسها : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) .

ويقول فى سورة الأنبياء : (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) .

ويقول فى سورة المؤمنون : (أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) .

والمسارعة المبادرة ، والسرعة خلاف البطء ، والسريع خلاف البطىء ، ويبقى بعد ذلك متعلق السرعة ، فهو إما أن يكون خيراً ، فتكون السرعة محمودة ، وإما أن يكون شراً فتكون السرعة مذمومة .

والله تعالى يقول فى سورة البقرة : (ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات ، أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شىء قدير) .

أى بادروا ما أمركم الله به ، ويتضمن الحث على المبادرة والاستعجال إلى جميع الطاعات بالعموم .

ويفسر القشيرى :(وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) بقوله : معناه سارعوا إلى عمل يوجب لكم المغفرة، فتقسمت القلوب وتوهمت أن ذلك أمر شديد فقال ﷺ : « الندم توبة » ، وإنما توجب المغفرة المغفرة لأن العاصى هو الذى يحتاج إلى الغفران .

والناس فى المسارعة على أقسام : فالعابدون يسارعون بقدمهم فى الطاعات ، والعارفون يسارعون بهممهم فى القربات ، والعاصون يسارعون بندمهم بتجرع الحسرات ، فمن سارع بقدمه وجد مثوبته . ومن سارع بهممه وجد قربته ، ومن سارع بندمه وجد رحمته .

والعجلة : طلب الشىء وتحريه قبل أوانه . وهو من مقتضى الشهوة ، ولذلك صارت مذمومة فى عامة القرآن ، حتى قيل : العجلة من الشيطان .

وقد أورد ابن أبى بكر الرازى سؤالا . وهو كيف قال : (وسارعوا) والنبى على أفضل التحية يقول : « العجلة من الشيطان والتأنى من الرحمن » ؟

وأجاب عنه بقوله : قلنا : قد استثنى النبي ﷺ خمسة مواضع فقال : إلا فى التوبة من الذنب ، وقضاء الدين الحال ، وتزويج البكر البالغ ، ودفن الميت ، وإكرام الضيف إذا نزل .

والمسارعة المأمور بها فى الآية هى المسارعة إلى التوبة وما فى معناها من أسباب المغفرة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

يولج الليل فى النهار

السؤال :

يقول القرآن الكريم : (يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل) وإيلاج الشىء فى الشىء يقتضى اجتماع حقيقتهما بعد الإيلاج ، كايلاج الخيط فى الإبرة ، والإصبع فى الخاتم ونحوهما ، وحقيقة الليل والنهار لا يجتمعان ، فكيف يكون هذا الإيلاج ؟

الجواب :

يقول الله تعالى فى سورة آل عمران : (تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب) .

ويقول فى سورة الحج : ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وأن الله سميع بصير) .

ويقول فى سورة لقمان : (ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير) .

ويقول فى سورة فاطر : (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) .

ويقول فى سورة الحديد : (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وهو عليم بذات الصدور) .

والولوج هو الدخول فى مضيق .

ويذكر الأصفهانى أن قوله تعالى : (يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل) فتنبيه على ما ركب الله عز وجل عليه العالم من زيادة الليل فى النهار ، وزيادة النهار فى الليل ، وذلك بحسب مطالع الشمس ومغاربها .

ويذكر ابن كثير فى تفسير آية الحج ما يلى : يقول تعالى منبهاً على أنه الخالق المتصرف فى خلقه بما يشاء ، كما قال : (قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير • تولج الليل بالنهار) الآية . . . ومعنى إيلاجه الليل فى النهار ،والنهار فى الليل، إدخاله من هذا فى هذا ، ومن هذا فى هذا ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار ، كما فى الشتاء ، وتارة يطول النهار ويقصر الليل ، كما فى الصيف .

ويرى ابن أبى بكر الرازى أن الإيلاج يقتضى اجتماع حقيقة الشيئين ، وقد يكون مع تبدل صفة أحدهما بغلبة صفة الآخر عليه مع بقاء ذاته فيه ، كإيلاج يسير من الخبز فى لبن كثير أو بالعكس ، فإن الحقيقتين مجتمعتان ذاتاً . وصفة إحداهما غالبة على الأخرى ، كذلك الليل والنهار ، إذا كان الليل أربع عشرة ساعة بالنسبة إلى زمن الاعتدال ، ففيه من النهار ساعتان قطعاً . وكذا على العكس .

أو معناه يولج زمن الليل فى زمن النهار وبالعكس ، أو يولج الليل فى النهار وبالعكس ، باعتبار أن ليل قوم هو نهار آخرين وبالعكس . أو معناه أنه خلق ليلا صرفاً خالصاً ، وخلق ما هو ممتزج منهما ، وهو ما قبيل طلوع الشمس وقبيل غروبها .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

أموال السفهاء

السؤال :

ما معنى قول الله تعالى : (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) ؟

الجواب :

يقول الله تعالى فى الآية الخامسة من سورة النساء : (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً، وارزقوهم فيها واكسوهم، وقولوا لهم قولا معروفاً) .

والمراد بالسفهاء هنا اليتامى والنساء، وقد أمرنا الله جل جلاله ألا نعطى المال إلى أى سفيه ، وهو المضطرب فى الرأى والفكر والأخلاق ، لأنه لن يحسن التصرف فى ماله ، لأن المال مهم فى الحياة ، وبه تثبت أمور الحياة وتستقر أحوالهم ، وإنما عبر القرآن بكلمة (أموالكم) ولم يقل (أموالهم) لأنه يخاطب الأولياء المشرفين على هؤلاء السفهاء ، وإذا ضاعت أموال هؤلاء السفهاء ، كان الأولياء مسئولين عن هذه الأموال ، وكان من واجبهم أن ينفقوا على هؤلاء السفهاء المفلسين ، كان المال الذى ضيعه السفيه هو مال

الولى فهو المسئول عنه ، والتكافل بين أبناء الأمة المسلمة أمر واجب ، فيجب أن يتعاونوا على البر والتقوى والإصلاح .

وارزقوهم فيها ، أى اجعلوها مكاناً لرزقهم ، بأن تتجروا فيها وتنموها ، حتى تكسب وتزيد ، فينفقوا من هذه الزيادة والأرباح ، لا من صلب المال حتى لا ينفد المال بالإنفاق دون أن يزيد ، والرزق هنا يشمل الأكل والمبيت والزواج والكسوة ، وإنما نص على الكسوة بقوله (واكسوهم) لأن الناس يتساهلون فيها أحياناً .

(وقولوا لهم قولا معروفاً) : والمعروف هو ما تعرفه النفوس الكريمة وتألفه ، فالمعروف هنا يشمل تطبيب القلوب وإفهام العقول ما هو الخير والصلاح ، ويشمل النصح والإرشاد ، وتعليم ما ينبغى أن يعلمه السفيه ، فهذا القول الطيب المصلح المعروف ، يدخل فى واجب ولى السفيه ، فوق حفظ الأموال وتثميرها والإنفاق منها على اليتامى حتى يكبروا ويعقلوا .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

أضغاث الأحلام

السؤال :

ما معنى أضغاث الأحلام فى القرآن الكريم ؟

الجواب :

وردت مادة (أضغاث) فى سورة يوسف فى قوله تعالى : (قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) . وفى سورة الأنبياء : (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) .

ووردت كلمة « ضغث » فى سورة « ص » فى قوله تعالى : (وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث) .

ونتعرف أولا إلى معنى «الضغث».فنجد فى «مفردات القرآن» للأصفهانى الضغث قبضة ريحان أو حشيش أو قضبان ، وجمعه أضغاث ، قال تعالى : (وخذ بيدك ضغثاً) وبه شبه الأحلام المختلفة التى لا يتبين حقائقها : (قالوا أضغاث أحلام) حزم أخلاط من الأحلام .

ويقول أهل اللغة : ضغث الحديث خلطه . والضغث : التباس الشىء بعضه ببعض . وضربه بضغث : أى قبضة من حشيش أو مقدارها ، مختلطة الرطب باليابس ، وفى سورة ص : (خذ بيدك ضغثاً فاضرب به) . وضغث النبات جعله أضغاثاً . وكلام ضغث : لا خير فيه ، وفى التنزيل : (أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) : أى رؤيا لا يصلح تأويلها لاختلاطها والتباسها ، وأضغاث الرؤيا أهاويلها ؛ سميت أضغاث أحلام لأنها مختلطة ، فدخل بعضها فى بعض ، ولم تتميز مخارجها ، ولم يستقم تأويلها .

والضغث من الخبر والأمر ما كان مختلطاً لا حقيقة له .

ولقد دعا الإمام على رضى الله عنه وأرضاه فقال : « اللهم إن كتبت على إثماً أو ضغثاً فامحه عنى ، فإنك تمحو ما تشاء » . أراد به عملا مختلطاً غير خالص ، من قلوبهم . ضغث الحديث إذا خلطه .

وقد جاءت كلمة « أضغاث » عند قول الله فى سورة يوسف عليه السلام : (وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف . وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) .

ويذكر ابن كثير أن هذه الرؤيا من ملك مصر ، مما قدر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف عليه السلام من السجن معززاً مكرماً . وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا ، فهالته وتعجب من أمرها ، وما يكون تفسيرها ؟

فجمع الكهنة والحزاة [جمع حاز ، وهو المتكهن يحزر الأشياء ويقدرها بظنه] وكبراء دولته وأمراءه ، وقص عليهم ما رأى ، وسألهم عن تأويلها ، فلم يعرفوا ذلك ، واعتذروا إليه بأن هذه (أضغاث أحلام) ، أى أخلاط اقتضت رؤياك هذه (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) . أى : ولو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط لما كان لنا معرفة بتأويلها .

وفى تفسير « المنار » :

(قالوا أضغاث أحلام) أى هى أو هذه الرؤيا من جنس أضغاث الأحلام ، أى الأحلام المختلطة من الخواطر والأخيلة التى يتصورها الدماغ فى النوم ، فلا ترمى إلى معنى مقصود . وأصل الأضغاث جمع ضغث بالكسر ، وهو الحزمة من النبات أو العيدان .

والأحلام جمع حلم – بضمتين ، ويسكن للتخفيف – وهو ما يرى فى النوم . يقال : حلم كنصر ، واحتلم ، ومنه : بلوغ الحلم .

والحلم قد يكون ظاهر المعنى كالأفكار التى تكون فى اليقظة ، وقد يكون – وهو الأكثر – مشوشاً مضطرباً ، لا يفهم له معنى ، وهو الذى يشبه بالتضاغيث ، كأنه مؤلف من حزم مختلفة من العيدان والحشائش التى لا تناسب بينها ، وهو ما تبادر إلى أفهامهم من نوع البقر والسنابل .

(وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) يحتمل قولهم هذا أنهم ليسوا بأولى علم بتأويل هذه الأحلام المختلفة المضطربة ، وإنما يعلمون تأويل غيرها من المنامات المعقولة المفهومة ، ويحتمل نفى العلم بجنس الأحلام لأنها مما لا يعلم ، أو مما

لا يكون له معنى بعيد تدل عليه الصورة المتخيلة فى النوم وتنهى إليه ، كما ينكر أهل العالم المادى الآن أن يكون لشىء من هذه الرؤى والأحلام تأويل صحيح ، ولكن قدماء المصريين كانوا يعنون بها .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

سورة الحاقة

السؤال :

ما سبب نزول سورة الحاقة ؟ وما معنى كلمة الحاقة ؟

الجواب :

سورة الحاقة سورة مكية باتفاق ، وهى إحدى وخمسون آية وليس من الضرورى أن يكون مذكوراً فى التفسير سبب نزول للسورة ، ونحن نجد فى تفسير القرطبى أنه روى عن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ إحدى عشرة آية من سورة الحاقة أجير من فتنة الدجال ، ومن قرأها كانت له نوراً يوم القيامة من فوق رأسه إلى قدمه » .

والمراد بالحاقة يوم القيامة ، سميت بذلك لأن الأمور تحق فيها . وقيل سميت حاقة لأنها تكون من غير شك . وقيل سميت بذلك لأنها أحقت لأقوام الجنة ، وأحقت لأقوام النار . وقيل سميت بذلك لأن فيها يصير كل إنسان حقيقياً بجزاء عمله ، وقال الكسائى : الحاقة يوم الحق .

والله تبارك وتعالى أعلم .

الحاقة والقارعة والطاغية

السؤال :

ما معنى الحاقة والقارعة والطاغية فى القرآن الكريم ؟

الجواب :

يقول الله جل جلاله فى مفتتح سورة الحاقة : (الحاقة * ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة * كذبت ثمود وعاد بالقارعة * فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية) .

وقد جاء فى تفسير ابن الجوزى : « زاد المسير فى علم التفسير » فى معنى الحاقة : قال الفراء : هى القيامة ، وإنما قيل لها الحاقة لأن فيها حواق الأمور . وقال الزجاج : إنما سميت الحاقة لأنها تحق كل إنسان بعمله ، من خير وشر .

وقال ابن عباس : القارعة اسم من أسماء يوم القيامة . قال مقاتل : وإنما سميت بالقارعة لأن الله تعالى يقرع أعداءه بالعذاب . وقال ابن قتيبة : القارعة القيامة لأنها تقرع ، يقال : أصابتهم قوارع الدهر . وقال الزجاج : لأنها تقرع بالأهوال ؛ وقال غيرهم : لأنها تقرع القلوب بالفزع .

وأما « الطاغية » ففيها ثلاثة أقوال : أحدها : أنها طغيانهم وكفرهم ، قاله ابن عباس ومجاهد ومقاتل وأبو عبيدة ، وابن قتيبة . قال الزجاج : ومعنى الطاغية عند أهل اللغة : طغيانهم ، وفاعلة قد تأتى بمعنى المصادر ، نحو عاقبة وعافية .

والثانى : بالصيحة الطاغية ، قاله قتادة ، وذلك أنها جاوزت مقدار الصياح فأهلكتهم .

والثالث : آن الطاغية هو عاقر الناقة ، قاله ابن زيد .

وفى كتاب : « غرائب القران ورغائب الفرقان »لنظام الدين النيسابورى . الحاقة هى القيامة بالاتفاق ، إلا أنهم اختلفوا فى سبب التسمية . فقال أبومسلم : هى الفاعلة من (حقت كلمة ربك) . أى الساعة واجبة الوقوع لا ريب فى مجيئها ، وقريب منه قول الليث : إنها النازلة التى حققت فلا كاذبة لها . وقيل إنها التى تحق فيها الأمور ، أى تعرف على الحقيقة ، من قولك : لا أحق هذا أى لا أعرف حقيقته . جعل الفعل لها وهو لأهلها . وقيل : هى التى يوجد فيها حواق الأمور ، وهى الواجبة الحصول من الثواب والعقاب وغيرهما من أحوال القيامة ؛ وهذا الوجه والذى تقدمه يشتركان فى الإسناد المجازى ، إلا أن الفاعل فى الأول بمعنى المفعول ، والثانى على أصله . وقريب منه قول الزجاج : إنها تحق أى يكون فيها جميع آثار أعمال المكلفين ، ويخرج عن حد الانتظار . قال الأزهرى : سميت بذلك لأنها تحق كل محاق فى دين الله بالباطل ، أى تخاصم كل مخاصم وتغلبه .

وذكر أن الوجوه بلغت عشرة كما ذكروها ، ولكنها فى التحقيق مكررة .

وأما « القارعة » فالأصل فى المراد بها : الحاقة إلا أن التنزيل المجيد وضع القارعة موضع ضمير الحاقة ليدل بذلك على معنى الروع فى الحاقة ، زيادة فى وصف شدتها .

ولا ريب أنها تفزع الناس بالأفزاع والأهوال ، والسماء بالانشقاق ، والأرض بالدك ، والنجوم بالطمس . إلى غير ذلك .

والطاغية : هى الواقعة المجاوزة للحد ، وهى الرجفة ، أو الصاعقة ، أو الصيحة . وقيل : الطاغية مصدر ، أى بسبب طغيانهم . ويجوز أن يراد بالطاغية عاقر الناقة وحده ، والتاء للمبالغة .

وجاء فى تفسير « الجامع لأحكام القرآن » لأبى عبد الله القرطبى :

قوله تعالى : (الحاقة * ما الحاقة) يريد القيامة ، سميت بذلك لأن الأمور تحق فيها ، قاله الطبرى ، كأنه جعلها من باب : ليل قائم . وقيل : سميت حاقة لأنها تكون من غير شك . وقيل : سميت بذلك لأنها أحقت لأقوام الجنة ، وأحقت لأقوام النار . وقيل : سميت بذلك لأن فيها يصير كلّ إنسان حقيقاً بعمله .

وقال الأزهرى : يقال حاققته فحققته ، فأنا أحقه . أى غالبته فغلبته . فالقيامة حاقة لأنها تحق كل محاق فى دين الله بالباطل ، أى كل مخاصم .

وفى الصحاح : وحاقه أى خاصمه ، وادعى كل واحد منهما بالحق . فإذا غلبه قيل : حقه . ويقال للرجل ، إذا خاصم فى صغار الأشياء : إنه لنزق الحقاق . ويقال : ماله فيه حق ولا حقاق ، أى خصومة . والتحاق : التخاصم والاحتقاق : الاختصام . والحاقة والحقة والحق : ثلاث لغات بمعنى .

وقال الكسائى والمؤرج : الحاقة يوم الحق . وتقول العرب : لما عرف الحقة منى هرب .

و « القارعة » : القيامة ، سميت بذلك لأنها تقرع الناس بأهوالها . يقال أصابتهم قوارع الدهر ، أى أهواله وشدائده . ونعوذ بالله من قوارع فلان ولواذعه وقوارص لسانه . جمع قارصة وهى الكلمة المؤذية . وقوارع

القرآن : الآيات التى يقرؤها الإنسان إذا فزع من الجن أو الإنس ، نحو آية الكرسى ، كأنها تقرع الشيطان.

وقيل القارعة مأخوذة من القرعة فى رفع قوم وحط آخرين. قال المبرد.

وقيل : عنى بالقارعة العذاب الذى نزل بهم فى الدنيا ، وكان نبيهم يخوفهم بذلك فيكذبونه.

و « الطاغية » : الفعلة الطاغية ، وقال قتادة : أى بالصيحة الطاغية ، أى المجاوزة للحد ، أى لحد الصيحات من الهول ، كما قال : (إناء أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر).

والطغيان : مجاوزة الحد ، ومنه : (إنا لما طغى الماء) أى جاوز الحد. وقال الكلبى : بالطاغية بالصاعقة. وقال مجاهد : بالذنوب. وقال الحسن : بالطغيان ، فهى مصدر كالكاذبة والعاقبة والعافية. أى أهلكوا بطغيانهم وكفرهم. وقيل : إن الطاغية : عاقر الناقة. أى أهلكوا بما أقدم عليه طاغيتهم من عقر الناقة وكان واحداً ، وإنما هلك الجميع لأنهم رضوا بفعله ومالئوه ، وقيل له طاغية كما يقال : فلان راوية للشعر وداهية وعلامة ونسابة.

والله تبارك وتعالى أعلم.

• • •

النَبي وَحَديثه الشَريف

الفكاهة عند الرسول والصحابة

السؤال :

ما حديث الفكاهة عن الرسول والصحابة ؟

الجواب :

إن كانت فى الحياة سعادة ففيها شقاء ، وإن كان فيها راحة ففيها متاعب. ولا يمكن للحياة أن تكون سلسلة من الجد الدائب والعمل الموصول ، بل لا بد لها من بشاشة وفكاهة ، ولا بد من تخفيف قسوتها وصرامتها بجانب من اللهو البرىء ، وقسط من الدعابة الخفيفة والفكاهة الميسورة ، وقد قيل إن الضحك نزعة عميقة الجذور فى نفس الإنسان ، حتى وصفوا الإنسان بأنه حيوان ضاحك ، بجوار وصفهم له بأنه حيوان ناطق .

والكثير من الناس يتوهمون أو يزعمون أن الدين يقف حائلا منيعاً دون الفكاهة والدعابة ، لأنهم يتصورونه دائماً أو غالباً — مجموعة من القيود والحدود والسدود ، لا مجال فيها للهو أو تخفيف ، مع أن دين الله يسر لا عسر ، ورحمة لا نقمة ، وسماحة بلا حرج ، وتخفيف بلا عنت ؛ ومن مظاهر هذه السماحة أنه لم ينكر على الإنسان أن يأخذ حظه المعقول المقبول من المتعة السليمة ، والزينة القويمة ، والطيبات من الرزق ، والفكاهة التى تشرح ولا تجرح ، والدعابة البريئة غير الجريئة .

وإذا كان الرسول ﷺ قد نهى عن تعود المجادلة والممازجة فقال — فيما يروى الترمذى — : « لا تمار أخاك ولا تمازجه » . وروى أنه كان — فيما يروى الإمام أحمد — طويل الصمت قليل الضحك ، وروى عنه : « لا تكثر الضحك ، فإن كثرة الضحك تميت القلب » ، وأنه كان لا يضحك إلا

تبسما ، فقد رووا عنه أنه كان يضحك من غير قهقهة ، وربما ضحك حتى تبدو نواجذه -[والنواجذ هي أقصى الأسنان] وقالت عنه الصديقة عائشة : كان رسول الله ﷺ بساماً ضحاكاً ، كما يقول عبد الله بن الحارث : « ما رأيت أحداً أكثر تبسما من رسول الله ﷺ. ولقد كان يبتسم فى وجه من يلقاه من أصحابه ، ويقول : « تبسمك فى وجه أخيك صدقة » .

وقد رووا عنه هذه الأحاديث :

« لا خير فيمن لا يطرب ولا يطرب » .

« روحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلوب إذا كلت عميت » .

« إن الله يحب السهل الطلق الوجه » .

« من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق » .

وإذا كانت قد وردت أخبار أو آثار فى النهى عن المزاح فإن أبا حامد الغزالى قد أبان عن وجه النهى بقوله : « اعلم أن المنهى عنه فى المزاح الإفراط فيه أو المداومة عليه . أما المداومة . فلأنه اشتغال باللعب والهزل فيه ، واللعب مباح ، ولكن المواظبة عليه مذمومة . وأما الإفراط فيه ، فإنه ورث كثرة الضحك ، وكثرة الضحك تميت القلب ، وتورث الضغينة فى بعض الأحوال ، وتسقط المهابة والوقار ، فما يخلو عن هذه الأمور فلا يذم » .

نعم جاء فى الحديث المتفق عليه أن النبى لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ، ومن صفات النبوة أن تتوافر للنبى الصيانة والحصانة ، حتى يكون أسوة حسنة ، وقدوة طيبة لأتباعه ، فلقد يلقى الإنسان بالكلمة النابية أو الجافية ، على سبيل الدعابة والتظرف ، فإذا هى تجرح نفوساً وتغيظ قاوباً ، ولعل مثل هذا هو الذى دعا رسول الله ﷺ أن يقول : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه ، يهوى بها فى النار أبعد من الثريا » .

وإنه لمن قوة الشخصية وسمو الذات وسعة الأفق أن يحسن رسول الله ﷺ الجمع بين جلال النبوة وبراعة الفكاهة ، فمع إمامته للأنبياء وزعامته للمرسلين ، وخطاب الله له بقوله : (وإنك لعلى خلق عظيم) كان فيه دعابة، وكان من أفكه الناس مع صحبه ، وكان من أفكه الناس مع نسائه .

ومعقد الروعة هنا أن الرسول كان يمزح ولا يقول إلا حقا ، والمعروف بين الناس أن المزاح يقوم فى الغالب على التخيل والادعاء والافتراء ، فإذا أراد الإنسان أن يكون صادقاً فى مزاحه احتاج إلى قدرة فى التفكير ، وقدرة فى التعبير ، وقدرة فى التصوير .

ولقد وعى أدب السيرة النبوية العطرة طائفة من المواقف التى تصور فنوناً من دعابة الرسول ﷺ ومزاحه، مع احتفاظه بالحق والصدق فى مجال الدعابة والمزاح :

جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ تسأله أن يحملها على جمل تستخدمه . فقال لها مداعباً: « إنا حاملوك إنشاء الله على ولد الناقة » ففهمت المرأة من « ولد الناقة » أنه القعود الصغير السن الذى لا يطيق حملا ولا عملا . فقالت : يا رسول الله ، وما أصنع بولد الناقة ؟ وهل يستطيع أن يحملنى ؟ .

فقال : لا أحملك إلا عليه .

ثم أضاف موضحاً : « وهل يلد الإبل إلا الناقة » ؟

ورووا – بسند فيه ضعف – أن عجوزاً أقبلت على رسول الله ﷺ تسأله أن يدعو لها ربه لتدخل الجنة .

فقال لها مداعباً : إن الجنة لا يدخلها عجوز .

فصاحت العجوز . . .

فتبسم الرسول وذكرها بقول الله تبارك وتعالى عن نساء الجنة وتجديد شبابهن : (إنا أنشأناهن إنشاء . فجعلناهن أبكاراً . عرباً أتراباً . لأصحاب اليمين) .

وهذه امرأة تسمى « أم أيمن » تسعى إلى النبي تقول له : إن زوجي يدعوك .

فقال : أهو الذى بعينه بياض ؟ .

قالت : والله ما بعينه بياض .

فعاد رسول الله يقول : بلى ، إن فى عينيه بياضاً .

فقالت المرأة : لا والله .

فقال لها : ما من أحد إلا وبعينه بياض .

أراد البياض المحيط بالحدقة فى العين .

ويروى أن هذه المرأة كانت من نساء الأنصار . وأنها حين سمعت النبي يقول لها : « الحقى زوجك فإن فى عينيه بياضاً » سعت إليه فى عجلة ، فقال لها : ما دهاك ؟ .

فأخبرته بما سمعت ، فقال لها : نعم إن فى عينى بياضاً لا لسوء . فخفضى عليك .

ونلاحظ أن جملة المواقف السابقة كانت الدعابة النبوية موجهة فيها إلى طائفة من النساء . ومع أن النبي ﷺ داعب الرجال كما داعب النساء . قد نفهم – لأنفسنا – أن هذه المواقف فيها إشارة إلى ترفق الرسول بالمرأة . وتلطفه فى الحديث معها . وهو القائل : « استوصوا بالنساء خيراً » .

وها هو ذا ﷺ يسمع جارية تغنى فتقول :

هل عليَّ ويحكم إن لهوت من حرج ؟

فيقول : لا حرج إن شاء الله .

* * *

والغناء ذو صلة باللهو والطرب ، وها هو ذا رسول الله ﷺ يتحدث مع السيدة عائشة عن فتاة زفتها إلى زوجها ، فيقول : أهديتم الفتاة إلى بعلها ؟

قالت : نعم .

قال : فبعثتم معها من تغنى ؟

قالت : لا .

قال النبي : أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل ؟ ألا بعثتم معها من تقول :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الحبة السمراء لم نحلل بواديكم

ولقد توسع ابن عبد ربه الأندلسى فى كتابه « العقد الفريد » فى الدفاع عن الغناء فكان مما قال :

« ومن حجة من كره الغناء أن قال : إنه يسعر القلوب ، ويستفز العقول . ويستخف الحليم ، ويبعث على اللهو ، ويحض على الطرب ؛ وهو باطل فى أصله . وتأولوا فى ذلك قول الله عز وجل : (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً) . وأخطأوا فى التأويل . إنما نزلت هذه الآية فى قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السير والأحاديث القديمة . ويضاهون بها القرآن . ويقولون إنها أفضل منه .

وليس من سمع الغناء يتخذ آيات الله هزواً . وأعدل الوجوه فى هذا أن يكون سبياه سبيل الشعر ، فحسنه حسن ، وقبيحه قبيح » .

* * *

ومما يدل على حسن تلطف الرسول ﷺ مع المرأة هذه المواقف المداعبة المفاكهة الممازحة التى كانت للرسول مع نسائه أمهات المؤمنين ، ولا عجب فهو القائل : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى » .

تروى السيدة عائشة فتقول : سابقت رسول الله ﷺ فسبقته ، فلما حملت اللحم [أى زاد وزنى] سابقنى فسبقنى ، فقال : هذه بتلك ! . .

وتروى عائشة أيضاً أنها صنعت ذات يوم نوعاً من الطعام يسمى «حريرة» وجاءت به إلى النبى ، وكان عنده زوجته سودة بنت زمعة . فقالت لها عائشة : كلى .

فقالت سودة : لا أحبه .

فقالت عائشة : والله لتأكلن ، أو لألطخن به وجهك .

قالت سودة : ما أنا بذائقته .

فأخذت عائشة شيئاً من الحريرة ومست به وجه سودة .

فتناولت سودة كذلك شيئاً من الطعام ومست به وجه عائشة .

وجعل الرسول ﷺ يضحك .

وكذلك شهد الرسول من عائشة موقفاً كان لها فيه دعابة ضحك منها الرسول :

كان الضحاك بن سفيان الكلابى رجلا دميا قبيح الشكل ، ولما بايعه النبى قبل أن تنزل آيات الحجاب . قال الضحاك للنبى - وعائشة على مرأى منهما - : إن عندى امرأتين أحسن من هذا الحميراء [يعنى عائشة] أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوجها ؟

وكانت عائشة تسمع ، فقالت للضحاك : أهى أحسن أم أنت ؟

فعجل الضحاك بقوله : بل أنا أحسن منها وأكرم .

فضحك الرسول من سؤالها إياه ، لأن الضحاك كان دميماً .

* * *

وكان الرسول ﷺ يشهد الفكاهة أو الدعابة من صحابته فيرتضيها ، ويضحك لها ، ويسر بها ، وفى بعض الأحيان يشارك الرسول ﷺ صحابته فى الفكاهة ، فيداعبهم بنفسه ، ومن شواهد ذلك أنه قال لأنس بن مالك : ياذا الأذنين . وهى كلمة ظاهرها المزاح ، وباطنها المدح والتقدير . فكأنه قال له: ايا صاحب الأذنين السميعتين الواعيتين لما سمعتا .

وكان ﷺ يستجيب لروح الفكاهة الطيبة ، ولا يتأبى عليها ، بل قد تخرجه هذه الفكاهة من الضيق إلى الرضا ، ومن الغضب إلى السرور .

ولقد شغله من الهم ذات يوم ما شغله ، فجلس بين صحابته متغير الوجه ، فأقبل نحوه أعرابى يريد أن يسأله ، فقالوا له محذرين : لا تفعل فإننا ننكر لونه

وكان فى الأعرابى روح فكاهة ودعابة ، فقال : دعونى ، فوالذى بعثه بالحق نبياً لا أدعه حتى يبتسم .

ثم أقبل على الرسول ﷺ يسأله : يا رسول الله ، بلغنا أن الدجال يأتى الناس بالثريد ، وقد هلكوا جوعاً ، أفترى لى - بأبى أنت وأمى - أن أكف

عن ثريده تعففا وتنزهاً حتى أهلك هزالا ، أم أضرب فى ثريده [أى أقبل عليه بنهم] حتى إذا اتضلعت شبعاً [امتلأت من الأكل] آمنت بالله وكفرت بالدجال ؟ !

فضحك الرسول ﷺ حتى بدت نواجذه ، وقال للأعرابى : لا ، بل يغنيك الله بما يغنى به المؤمنين .

وكان ﷺ يقدر جميل من يدخل على نفسه بالفرحة والمسرة عن طريق الفكاهة والدعابة . وهذه امرأة اسمها « سويداء » كانت تدخل على السيدة عائشة فتفاكهها وتضاحكها ، ويضحك الرسول ﷺ معها . ثم انقطعت المرأة عن المجيء مدة ، فسأل عنها النبى ﷺ وقال لعائشة : يا عائشة ما فعلت السويداء ؟

قالت : إنها مريضة يا رسول الله .

فذهب النبى إليها يعودها ، فوجدها فى سكرات الموت ، فقال لأهلها : إذا ماتت فأخبرونى .

فلما ماتت أعلموه ، فسعى فشهد جنازتها وصلى عليها ، ودعا لها ، فقال : اللهم إنها كانت حريصة على أن تضحكنى ، فأضحكها فرحاً .

وكان الرسول حريصاً على أن يزيل الشبهة من نفس الذى يسيء الظن باللهو البريء والفكاهة السليمة ، .

فهذا حنظلة أحد الصحابة يحضر مجلساً لرسول الله ﷺ ، فيتأثر به كثيراً ، ثم يرجع إلى أهله ، فيداعبه ويلاعب ، ثم يتنبه إلى الفرق بين حاله مع أهله وحاله بين يدى الرسول ، فيعود مذعوراً ليقول : نافق حنظلة ، يا رسول الله ، كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت العيون ، ثم رجعت إلى أهلى ، فأخذنا فى حديث الدنيا ، ونسيت ما كنا عندك عليه .

فقال له النبي متلطفاً : يا حنظلة ، لو أنكم كنتم أبداً على تلك الحالة لصافحتكم الملائكة على أفواه الطرق ، ولكن — يا حنظلة ، ساعة وساعة .

أي ساعة لربك وساعة لقلبك .

* * *

وكان صحابة رسول الله ﷺ يأخذون حظهم الفاضل العاقل من الفكاهة والدعابة ، ويقول فى ذلك ابن أبى الحديد فى كتابه « شرح نهج البلاغة » هذه العبارة :

« وروى عن كبراء الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، أنهم كانوا يتمازحون ، ويتناشدون الأشعار ، فإذا خاضوا فى الدين انقلبت حماليقهم ، وصاروا فى صور أخرى » .

والحماليق : جمع حملاق ، وهو باطن الجفن ، أو ما غطته الأجفان من بياض المقلة .

وقيل للنخعى : هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون ويمزحون ؟

فقال : نعم ، والإيمان فى قلوبهم مثل الجبال الرواسى .

أرأيت ؟ إنهم رجال فى مواطن الرجولة ، ظرفاء فى مواطن الفكاهة ، يحسنون الجمع بين قوة الشخصية ، ودماثة الأخلاق ، وسماحة النفوس ، وسهولة الطباع .

بل لقد روى مسلم فى صحيحه أنهم كانوا يتحدثون فيأخذون فى أمر الجاهلية فيضحكون ، ويبتسم رسول الله ﷺ .

حتى الشديد الصارم منهم لم يخل من فكاهة أو طرب .

هذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يبدى رأياً قاسياً فى المزاح ، فقد قال لمن حوله : أتدرون لم سمى المزاح مزاحاً ؟

قالوا : لا .

قال : لأنه أزاح صاحبه عن الحق .

ويقول أيضاً متشدداً ومتحوطاً : « من كثر ضحكه قلت هيبته ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه » .

ومع ذلك لم يضق عمر بالفكاهة الحلوة السمحة ، واستنشد الشعر وطرب له . ولقد دخل عبد الرحمن بن عوف على عمر ، فوجده مستلقياً ، رافعاً إحدى رجليه على الأخرى ، وهو ينشد :

وكيف ثوائى بالمـــدينة بعد ما قضى وطراً منها جميل بن معمر ؟

فلما جلس عبد الرحمن قال له عمر : يا أبا محمد ، إنا إذا خلونا قلنا كما يقول الناس .

وكان عمر رضى الله عنه يصف الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه بقوله : « ولكنه امرؤ فيه دعابة » وكذلك كان عمرو بن العاص يقول عن الإمام : « إن فيه دعابة » .

ويعلق ابن أبى الحديد فى « شرح نهج البلاغة » على رأى عمر فى الإمام على فيذكر أنه لم يرد أن يغض من شأن الإمام . وقال فيما قال : « ولما كان عمر شديد الغلظة وعر الجانب ، خشن الملمس دائم العبوس ، كان يعتقد أن ذلك هو الفضيلة ، وأن خلافه نقص . ولو كان طلقاً مطبوعاً على البشاشة

وسماحة الخلق ، لكان يعتقد أن ذاك هو الفضيلة ، وأن خلافه نقص ، حتى لو قدرنا أن خلقه حاصل لعلى عليه السلام ، وخلق على حاصل له ، لقال فى على : « لولا شراسة فيه » .

فهو غير ملوم عندى فيما قاله ، ولا منسوب إلى أنه أراد الغض من على ، والقدح فيه ؛ ولكنه أخبر عن خلقه ، ظاناً أن الخلافة لا تصلح إلا للشديد الشكيمة ، العظيم الوعورة » .

وبعد أن يطيل ابن أبى الحديد نفسه فى الكلام عن المزاح ووقوعه من كثير من الأعلام الأوائل ، يحاول أن ينفى الفكاهة والدعابة عن الإمام على فيقول :

« فأما أمير المؤمنين على – عليه السلام – فإذا نظرت إلى كتب الحديث والسير ، لم تجد أحداً من خلق الله ، عدواً ولا صديقاً ، روى عنه شيئاً من هذا الفن ، لا قولا ولا فعلا ، ولم يكن جد أعظم من جده ، ولا وقار أتم من وقاره ، وما هزل قط ولا لعب ، ولا فارق الحق والناموس الدينى سراً ولا جهراً . وكيف يكون هازلا ، ومن كلامه المشهور عنه : « ما مزح امرؤ مزحة إلا ومج معها من عقله مجة » .

ولكنه خلق على سجية لطيفة ، وأخلاق سهلة ، ووجه طلق ، وقول حسن وبشر ظاهر ، وذلك من فضائله عليه السلام . »

هكذا تحدث ابن أبى الحديد ، وتكفينا الفقرة الأخيرة من عبارته ، فنحن نفهم منها أن الإمام لم يكن عدواً للبشاشة ، ولا بعيداً عن تفتح الروح .

* * *

وهناك من صحابة الرسول ﷺ من كان لهم باع فى الفكاهة والدعابة والمزاح أطول من غيرهم ، وفى طليعتهم من يستحق أن يسمى « مضحك الرسول » إن صح مثل هذا التعبير . وهو الصحابى : النعيمان — أو نعيمان بن عمرو بن رفاعة الأنصارى ، وهو فى شرعة الإنصاف يستحق بسط المقال عنه فى هذا المجال .

إن نعيمان بن رفاعة لم يكن رجل دعابة ومزاح فحسب . بل كان مجاهداً ، شهد العقبة الثانية . وشهد غزوات بدر وأحد والخندق والمشاهد كلها . ويقول عنه ابن عبد البر فى كتابه « الاستيعاب » :

« كان نعيمان رجلا صالحاً على ما كان فيه من الدعابة » .

ومع ذلك يذكر النووى فى كتابه « تهذيب الأسماء واللغات » أن نعيمان كان كثير المزاح ، يضحك النبى ﷺ من مزاحه ، وله أشياء كثيرة فى هذا المجال ، حتى قيل إن الرسول ﷺ قال عنه : « يدخل الجنة وهو يضحك » .

ومن طرائف نعيمان أنه كان إذا دخلت المدينة طرفة من طرائف الطعام أو الفاكهة ، يشترى منها ، ويهدى ما يشتريه إلى النبى ﷺ قائلا : « هذا أهديته إليك » . فإذا جاء البائع يطالب بالثمن ، ذهب به نعيمان إلى النبى ﷺ وقال له : أعط هذا ثمن متاعه .

فيقول له النبى : أو لم تهده لى يا نعيمان ؟

فيجيب : إنه والله لم يكن عندى ثمنه ، ولقد أحببت أن تأكله .

فيضحك النبى ﷺ ويدفع .

يخيل إلى هنا — والله أعلم بحقيقة الأمر — أن النعيمان لم يكن يقصد مجرد الدعابة فى مثل هذا المقام ، بل هو يجمع بين عدة أغراض : بين تعبيره عن حبه للرسول ﷺ ، وإشفاقه عليه من زهده ، فهو يحتال لكى يطعم الرسول ما يطعم الناس ، وهو أخيراً يريد أن يدخل على قلب الرسول ﷺ بالفكاهة والدعابة .

ومن فكاهات النعيمان :

جاء أعرابى إلى لقاء النبى ﷺ ، وأناخ الأعرابى ناقته بفناء الرسول ، ثم دخل للقائه ، فجاء بعض الصحابة إلى نعيمان يقولون له مشيرين إلى ناقة الأعرابى : لو عقرتها [ذبحتها] فأكلناها فإننا قد قرمنا [أى اشتقنا إلى اللحم]؟

واستجاب نعيمان ، ففعل ما حرضوه عليه ! !

وخرج الأعرابى فرأى ناقته مذبوحة ، فصاح : واعقراه يا محمد .

وخرج الرسول ﷺ ورأى ما حدث فقال : من فعل هذا ؟

أجابوا : النعيمان .

فأخذ يبحث عنه حتى وجده مختبئاً فى دار ضباعة بنت الزبير .

فأخرجه النبى ﷺ من مخبئه وسأله : ما حملك على ما صنعت ؟

فأجابه : الذين دلوك يا رسول الله هم الذين أمرونى بذلك .

فجعل النبى يمسح عن وجهه التراب وهو يضحك .

ثم غرم النبى ثمن الناقة لصاحبها ! !

وتلك دعابة ربما لا يصبر لها ، أو لا يصبر عليها كثيراً من الناس ، ولكن النعيمان كان على ثقة من رحابة صدر الرسول الأكرم ﷺ .

* * *

ولقد تزداد دعابة النعيمان حدة :

كان مخرمة بن نوفل قد طعن فى السن ، وزاد على المائة ، وكف بصره ، فقام فى المسجد يريد أن يتبول ، فصاح به الناس : المسجد المسجد . فأخذ النعيمان بيده ، وتنحى به قليلا ثم أجلسه فى ناحية أخرى من المسجد ، وقال له : بل ههنا .

فصاح الناس بمخرمة مرة أخرى ، فقال : ويحكم ، فمن أتى إلى هذا الموضع ؟ قالوا : نعيمان . فقال : أما إن لله على إن ظفرت به أن أضربه بعصاى فى هذه ضربة تبلغ ما بلغت .

وعلم بذلك نعيمان ، فمكث ما شاء الله ، ثم أقبل على مخرمة يوماً فى المسجد ، وعثمان بن عفان قائم يصلى فى ناحية منه ، وقال لمخرمة : هل لك
المسجد ، وعثمان بن عفان قائم يصلى فى ناحية منه ، وقال المخرمة : هل لك
فى نعيمان ؟ قال : نعم . فأخذ بيده حتى بلغ به عثمان ، وقال له : دونك هذا نعيمان ، فرفع مخرمة عصاه وضرب عثمان ، فصاح به الناس : ضربت أمير المؤمنين . وغضبت لذلك قبيلة عثمان وهموا بنعيمان ، فنهاهم عنه عثمان ، وقال : إنه شهد غزوة بدر .

غفر الله لك يا نعيمان ، لقد أدت بك دعابتك أن تعرض للأذى رجل مثل عثمان ، عفا الله عنك .

ومن فكاهة نعيمان ودعابته أنه كان يذهب إلى الناس فى بعض الأماكن ويتنبأ لهم ويتكهن ضاحكاً عليهم ، فيأتونه باللبن والطعام . فيهدى منه إلى أصحابه ، وممن أهدى إليهم أبو بكر رضى الله عنه ، ولما علم أبو بكر بذلك وقد أكل بعض ما أهداه نعيمان ، قال : أرانى آكل من كهانة النعيمان منذ اليوم . واحتاط أبو بكر لنفسه ، فاستقاء ما فى بطنه .

غفر الله لك يا نعيمان ، لقد أدخلت بالألم على نفس الصديق رضى الله عنه ، فقد كان شديد التحرز والاحتياط فى مطعمه ، لا يأكل إلا ما يتأكد من حله وطهارة مصدره .

ولكن ماذا نملك معك يا نعمان، وأنت الذى ألممت ذات يوم بذنب ، فقال لك رجل من الصحابة : لعنك الله . فقال له النبى ﷺ : لا تفعل ، فإنه يحب الله ورسوله . عفا الله عنك .

وقصة نعيمان مع صاحبه سويبط بن حرملة مشهورة ، وسويبط بن حرملة بن مالك القرشى هو أحد الصحابة الفضلاء ، هاجر إلى الحبشة ، وشهد غزوة بدر . ويروى أن نعيمان وسويبط خرجا مع أبى بكر إلى « بصرى » ، وكان سويبط يقوم على أمر الزاد ، فجاءه نعيمان وقال له : أطعمنى . فأجاب سويبط : حتى يجىء أبو بكر .

فغضب نعيمان المضحاك المزاح ، وقال له : لأغيظنك .

وذهب نعيمان إلى أناس من التجار وقال لهم : تشترون منى عبداً لى .

قالوا : نعم .

قال لهم : إنه عبد كثير الكلام ، وهو سيقول لكم : است بعبده ، أنا ابن عمه ، فإن كان إذا قال لكم هذا تركتموه ، فلا تشتروه ولا تفسدوا على عبدى .

قالوا : بل نشتريه ولا ننظر إلى قوله .

فاشتروه منه بعشر من الإبل . ثم جاءوا لأخذه فامتنع منهم ، فلم يبالوا ووضعوا عمامته حول عنقه وشدوه بها ، فصرخ فيهم قائلا : إنه يهزأ بكم ، أنا حر ، ولست بعبد .

فقالوا : قد عرفنا خبرك . وكاد سويبط يضيع .

وهنا أقبل أبو بكر وعلم بالخبر فسارع باسترداد سويبط .

ولما قدموا من سفرهم على رسول الله ﷺ قصوا عليه ما حدث ، فضحك من ذلك حولا أو أكثر ، كما يعبر ابن عبد البر فى « الاستيعاب » .

هذا الخبر يذكرنا بأن النبى ﷺ دخل السوق مرة فرأى رجلا من صحابته اسمه زهير ، فأقبل عليه من خلفه واحتضنه ، وقال مداعباً : من يشترى العبد ؟

فقال زهير : إذن تجدنى كاسداً يا رسول الله .

فقال النبى : لكنك عند الله لست بكاسد .

ولم تبعد الدعابة هنا عن الحق والصدق ، فإن زهيراً أحد عباد الله عز وجل.

رحم الله نعيمان بن عمرو الذى يقول عنه الإمام ابن عبد البر : « كان من قدماء الصحابة وكبرائهم ، وكانت فيه دعابة زائدة ، وله أخبار طريفة فى دعابته » .

* * *

وهذا صحابى جليل آخر يحسن الجمع بين الدين والعلم والفقه والفكاهة .

إنه زيد بن ثابت بن الضحاك الذى شهد الغزوات ، وكانت معه راية بنى النجار فى غزوة تبوك ، وكانت أولا مع عمارة بن حزم فأخذها منه الرسول وأعطاها لزيد حافظ القرآن ، فقال عمارة :

أبلغك عنى شىء يا رسول الله ؟

قال النبى : لا ، ولكن القرآن مقدم .

وكتب زيد الوحي لرسول الله ﷺ ، وكان من علماء الصحابة ، وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين ، وهو الذى جمع القرآن فى عهد أبى بكر ، وقال له أبو بكر : « إنك شاب عاقل لا نتهمك » . وهو الذى قال له النبى : « تعلم كتاب يهود ، فإنى ما آمنهم على كتابى » .

ويروى أن ابن عباس رأى زيداً يركب دابة فأمسك بركابه ، فقال له زيد : تنح يا ابن عم رسول الله .

فقال له : لا ، هكذا نفعل بالعلماء والكبراء .

ويروى أن زيد بن ثابت كان بالمدينة رأساً فى القضاء والفتوى والقراءة والفرائض ، ولا عجب فقد قال فيه الرسول : « أفرضكم زيد » أى أعلمكم بالفرائض ، يعنى علم المواريث .

ووصفوه بأنه كان من الراسخين فى العلم ، وحين توفى سنة خمس وأربعين — على الراجح — قال أبو هريرة رضى الله عنه : « اليوم مات حبر هذه الأمة » .

زيد صاحب هذا التاريخ وهذه المكانة . يقول عنه ابن أبى الحديد فى « شرح نهج البلاغة » : « وكان زيد بن ثابت من أفكه الناس فى بيته وأرفثهم » والرفث هو ما انطلق من كلام المداعبة والمزاح .

وكان يحسن الجمع بين الجد والفكاهة ، حتى يقول عنه ثابت بن عبيد : « ما رأيت رجلا أفكه فى بيته ، ولا أوقر فى مجلسه من زيد بن ثابت » .

* * *

والذى يجب علينا أن نلحظه وأن نؤكده وأن نعتبر به هو أن الفكاهة عند هؤلاء الأعلام لم تكن تدفعهم إلى ارتكاب حرام وإتيان آثام ، وهذا على

سبيل المثال هو الصحابي خوات بن جبير بن النعمان الأنصاري ، أحد فرسان رسول الله ﷺ، والذي شهد غزوة بدر والغزوات من ورائها ، كان مع الرسول ﷺ في مكان يسمى « مر الظهران » على مرحلة من مكة ، وخرج من خيمته فرأى نسوة يتحدثن فأعجبنه ، فرجع إلى خيمته ولبس حلة جميلة ، وجاء فجلس مع النسوة .

وبعد قليل خرج الرسول ﷺ من خيمته ، فلما رآه خوات هابه وخافه . وقال للنبي ﷺ كأنه يعتذر : يا رسول الله ، جمل لي شرد فأنا أبتغي له قيداً . أي إن النسوة يصنعن له هذا القيد ، وهذا سبب جاوسه إليهن .

وأعرض عنه الرسول ﷺ ومضى ، وبعد حين لقي خواتاً ، فقال له مداعباً : يا أبا عبد الله ، ما فعل ذلك الجمل ؟

وفي مرة أخرى قال له : ما فعل شراد ذلك الجمل ؟

وبعد حين كان خوات يصلي في المسجد ، فدخل النبي فصلى ، وتعمد خوات أن يطيل صلاته ، رجاء أن ينصرف الرسول ، فقال الرسول : يا أبا عبد الله ، طول ما شئت أن تطول ، فلست بمنصرف حتى تنصرف .

فقال خوات في نفسه : والله لأعتذرن إلى رسول الله ﷺ، ولأبرئن صدره .

فلما أتم صلاته قال له النبي ﷺ مداعباً : السلام عليك أبا عبد الله ، ما فعل شراد ذلك الجمل ؟

فقال خوات : والذي بعثك بالحق ما شرد ذلك الجمل منذ أسلمت ! !

فقال له النبي : يرحمك الله . وكررها ثلاث مرات . ولم يعد إلى ذكر هذا الموضوع بعد ذلك .

ويعنى بقوله : « ما شرد ذلك الجمل منذ أسلمت » أنه مستقيم على الصراط لم ينحرف .

حيا الله أولئك الرجال !

أما بعد ، فهذا جانب من الحديث عن الفكاهة والدعابة فى مجتمع الرسول ﷺ والصحابة ، وهو حديث مقصور على مرحلة زمنية محدودة بحدودها ، ومع ذلك لم يستقص ولم يستوعب ، فكيف لو دار الحديث عن الفكاهة والدعابة فى تاريخ الإسلام والمسلمين . إنه لطويل طول طويل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

سفر الرسول إلى الشام

السؤال :

كم كان عمر رسول الله ﷺ يوم سافر إلى الشام لأول مرة ؟ ، ومع من سافر ؟

الجواب :

تروى كتب السيرة أن أبا طالب عم النبى ﷺ اعتزم السفر إلى الشام للتجارة فتعلق به رسول الله ﷺ يريد السفر معه ، فرق له قلب أبى طالب وقال : والله لأخرجن به معى ولا يفارقنى ولا أفارقه أبداً ، ويروى الرواة أن عمر النبى ﷺ كان تسع سنين ، وهذا هو الراجح . وقيل كانت سنه اثنتى عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام .

وهذه الرحلة الأولى إلى الشام هى التى قال الرواة عنها إنه رأى بحيرى الراهب عند « بصرى » من أرض الشام ، وقد رجع به عمه أبو طالب إلى مكة سالماً .

والله تبارك وتعالى أعلم .

فى ذكرى المولد النبوى

السؤال :

تمر علينا ذكرى المولد النبوى ، فما الخواطر التى تثور فى ذهن المسلم أمام هذه الذكرى المتجددة الخالدة ؟

الجواب :

من كان من الناس يظن يوم ولد سيدنا محمد ﷺ أن هذا الوليد اليتيم الفقير ، سيكون فى قابل أيامه وقادم حياته مصلح البشرية وسيد العالم ؟

لقد استهل محمد ﷺ صارخاً كما يفعل كل مولود ، ولقد وضعته امرأة لم تنفرد عن عامة النساء بمال أو جاه ، ولقد شهدت ميلاده جدران بيت متواضع ليس بقصر ذى أبهاء ، ولا إيوان ذى شرفات ، وما كان ميلاد الرسول العظيم المحفوف بالعناية الإلهية والرعاية الربانية منذ البدء محتاجاً إلى نمنمة أو زخرفة ، فرب مولود تعلن بمقدمه البشائر وتذبح له النحائر ، وتطلق المدافع ، وتقام السرادقات والحفلات ، ويصنع له غير ذلك من وسائل التعظيم البشرى ، ثم يظل برغم ذلك كله وبعد ذلك كله شيئاً تافهاً فى نظر الحقيقة لا يقام له عند الله ميزان .

ورب مولود يولد فى غفوة من غفوات الناس . وزحمة من شواغل الحياة ، بلا طبل أو زمر ، وبلا إعلان أو احتفال ، ثم يكون هذا المولود قرة عين السماء ، تفرح له الملائك فى الأفق الأعلى ، وإن لم يحس به أهل التراب الأدنى ، وتستفيض لمقدمه أنوار الشموس والكواكب ، وإن لم يوقد من أجل ميلاده على الأرض مصباح ، وتستيقظ من أجله حقائق الكون وأسرار الوجود متهيأة لتمد يديه بعد قليل بأكواب من رحيقها العذب وشرابها النمير . . .

وخير مثال نضربه — بل يضربه الله سبحانه وتعالى — لذلك الطراز الأخير هو سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله ﷺ . . .

لقد جاء سيدنا محمد ليغرس فى النفوس ديناً ، ويؤسس فى الأرض مجتمعاً . . . تلك حقيقة معلومة من الدين بالضرورة ، من تردد فيها فهو جهول ، ومن أنكرها فليس بمسلم ، أما الدين الذى غرسه فهو دين التوحيد والطهارة ، والأخوة والإنسانية ، والطبع القويم ، والخلق الكريم ، والنفس الصافية التى تقدم شئون الروح على شئون البدن ، وتفضل صلة القلوب على صلة الجيوب وتبذل فى الحياة جهدها ثم تسلم الأمر كله لعلام الغيوب وتتخذ صفة الراهب بالليل وعزمة الفارس بالنهار .

ولقد جاء سيدنا محمد ليحارب الشيطان فى كل مكان ، وليس الشيطان متمثلا فى طاغوته الأكبر « إبليس » فحسب ، بل إنه يتمثل فى كل جهة من جهات الشر المنبثة فى الوجود ، فقد يتمثل الشيطان فى صنم يغرى عابده الجهول بالضلال والوثنية ، وقد يتمثل فى وهم كاذب ويجعل صاحبه أسيراً له فلا يستخدم عقله . ولا يثق بربه ونفسه . وقد يتمثل فى كنز المال حتى يصير الذهب لكانزه معبوداً من دون الله ، وقد يتمثل فى امرأة فاجرة تلفتك عن كرامتك . أو صديق خئون فاسق يفسد عليك خلقك . أو منصب خادع يستذل بإغرائه كرامتك . أو غير ذلك من مظاهر السوء والشر . . . ورسول الإسلام ﷺ جاء فحارب هذه الشياطين جميعها . . .

حارب الشيطان فى ميدان العبادة فجعل الآلهة إلهاً واحداً ، وارتفع بالناس من حضيض الوثنية والإشراك إلى صفاء التوحيد ، وحارب الشيطان فى ميدان الأوهام والخرافات ؛ فحارب التطير والتشاؤم واستنباء الرمل والحصى والأحجار والأوثان ، وجاهد الترهات التى يثيرها شيطان

الجهل والعمى فى نفوس الغافلين فيجعلهم عبيداً للأباطيل والأكاذيب ، وكان حكيم صنعه فى ذلك أن مجد العقل ورفع من شأنه ، فنقل إلينا من أقواله : « ازدد عقلا تزدد من ربك تقرباً » ، « ولكل شىء دعامة ودعامة المؤمن عقله ، فبقدر عقله تكون عبادته » ، « ما اكتسب رجل من عقل يهدى صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى ، وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله » ، « العقل نور فى القلب يفرق به بين الحق والباطل » .

وحارب الشيطان فى ميدان الشهوات واللذات ، فعلم أتباعه كيف يقتصدون فى طعامهم وشرابهم ، وكيف يعفون عن خسيس رغباتهم ، وكيف يرتفعون عن أهواء النفس ورغبات الجسد ، حتى صاروا كأنهم ملائكة يمشون بين الناس مطمئنين ، وحتى امتلأت نفوسهم بالخشية لله ، فشغلتهم عن المطامع والأهواء : (قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) ! !

وحارب الشيطان فى ميدان المال والاقتصاد ، وهذا مجال للحديث يطول ويطول ، فلا بد فيه هنا من الإيجاز .

إن الأمة تشقى كل الشقاء إذا وجد فيها غنى مترف مسرف ، وبجواره فقر بالغ مدقع ، ولا بد لاستقرار الجماعة وسيادة روح التعاطف والمحبة بينها من مستوى عام للمعيشة ، لا يبعد عنه الغنى كثيراً جداً بترفه وإسرافه ، ولا ينزل عنه الفقير كثيراً جداً بجوعه وحرمانه ولا نعنى بذلك مساواة

مطلقة ، أو شيوعية منطلقة ، وإنما نعني تقارباً وتدانياً وتوازناً بين الطبقات ، وهذا ما فعله رسول الإسلام . . .

إنه لعن الفقر وحارب شياطينه ، كما لعن الإسراف وحارب شياطينه... لقد جاء فرأى فى الأمة فقيراً وغنياً ، فحث على المعروف والصدقة والإحسان ، وتلا عليهم قول ربه :

(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم • يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) .

وحرص على معونة العباد فقال : « الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » . ولم يقف الأمر عند الاختيار فى الصدقة ، بل جاءت فريضة الزكاة المحتومة التى يكفر جاحدها ويحارب مانعها : (والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) (كلوا من ثمره إذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) .

بل نرى الرسول فى بعض تصرفاته الاقتصادية يخطو خطوة حازمة فى سبيل التقريب بين الطبقات ، حتى لا تضطرب العلاقات الاجتماعية بسبب الغنى الفاحش والفقر الكافر . . لقد رأى ﷺ عقيب هجرته إلى المدينة أن الأنصار وهم أهل المدينة قوم لهم ديارهم وعقارهم وأموالهم ووسائل ارتزاقهم المستقرة ، فهم فى غنى ويسار واستقرار مادى يغبطون عليه ، وأما المهاجرون فقوم أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وفقدوا وسائل ارتزاقهم السابقة ، وهم وإن كانوا قد لاقوا من إخوانهم الأنصار عوناً ومساعدة — فى حاجة إلى إنعاش أحوالهم المادية ، ليقتربوا من الأنصار ، وهذا ما عمل الرسول على تحقيقه بوسيلة عملية ناجحة . . .

تحدثنا سيرة الرسول ﷺ فتقول : كانت غنائم بنى النضير للنبى خالصة ، إذ لم يفتحوها عنوة ، بل فتحوها على صلح ، فقسمها النبى بين المهاجرين ، ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا رجلين كانت بهما حاجة !

نعم قسمها بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً ، لا لهوان الأنصار عليه ، بل لأنهم أغنياء ، والمهاجرون فقراء ، والرسول ﷺ يريد بين الفريقين تقارباً فى أحوالهم الاقتصادية كما أنهم أصبحوا بنعمة الله إخواناً ، ولذلك أعطى رجلين من الأنصار بهما فقر وحاجة ، ولو كانا غنيين لما أعطاهما شيئاً ! . .

ومحمد ﷺ الذى حارب الفقر اللعين ، وعمل على إيجاد مستوى شريف للحياة والعيش عند كل إنسان ، وجعل معونة المحتاج مفروضة على بيت مال المسلمين ، وهيأ لأتباعه أن يحيوا طاعمين كراماً ، أبى إلا أن يضرب القدوة السامية من نفسه ، فتعب حيث استراح غيره ، وجاع حيث شبع سواه ، وحرم نفسه من كثير من المباحات التى أتاحها لسائر أمته ، لقد كان يمر الشهور لا توقد نار لطعام فى بيت محمد، بينما البيوت من حوله توقد وتطهى ، ولقد عرض على محمد من ربه أن يكون بعض الجبال له ذهباً وفضة . فأبى وآثر أن يجوع يوماً فيسأل ربه ، ويشبع يوماً فيحمده . وفضل أن يعيش عيشة العبد ، لا أن يطغى طغيان القياصرة والأكاسرة وظل يردد فى حياته : « اللهم أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، واحشرني فى زمرة المساكين » .

وما كان هذا من محمد استصغاراً لشأن حياته ، أو تحبيباً لغيره فى الإعراض عنها وهجرها ، ولكنه القائد الأول والراعى الأول ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، فيجب أن يأخذ نفسه بما لا يأخذ به سواه ، حتى لا تساء به الظنون ، وحتى لا يتوهم متوهم أن أمره أمر سلطنة أو امتلاك أو

استغلال ؛ ولذلك نرى أن محمداً قد أخذ أهله بهذا التأديب العالى ، فلم يدعهم يمرحون كما يمرح سواهم ، أو يتمتعون كما يتمتع سائر الناس ، لأن العيون إليهم متطلعة ، والأبصار بهم عالقة ، وكان الله سبحانه قد أراد له مثل هذا التقشف البليغ ، وذلك الزهد الزاهد فهو يقول له : (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى)

كما أراد الله لنسائه ﷺ أن يضربن المثل الأعلى اللائق ببيت النبوة ، فلا تتطلع عيونهن إلى متاع أو جاه أو زينة ، بل يجب عليهن أن يطلبن ما عند الله ، وأوعدهن على السيئة — إن كانت — ضعفين من العذاب ، ووعدهن على الحسنات — إذا كانت — ضعفين من الأجر والرزق الكريم ، وهددهن من الاختلاط والتبرج ، وأمرهن بأداء الفروض ، والطاعة والخضوع لما يتلى من آيات الله والحكمة .

وحسبك أن تسمع الآيات التاليات لترى كيف رسم الله تبارك وتعالى لنساء القائد الأعلى طريق الكمال والجلال ، حتى تكون القدوة فيهن ليس بعدها قدوة ، وحتى لا يكون هناك أى مجال لاحتمال الاستغلال ، يقول الحق تبارك وتعالى : (يأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما * يا نساء النبي من يأت بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً * ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً * يا نساء النبي لستن كأحد النساء * إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفاً * وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن

الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً . واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً) .

ولقد حرص سيدنا محمد الحرص كله على ألا يرى أحد من أهله لنفسه حقاً بحكم قربه من النبى أو قرابته من الرسول . إن محمداً للجميع ، وميراثه لأمته وولايته لكل من آمن به ، والزنجى المؤمن خير من الهاشمى الكافر ، ولذلك كان الرسول يقول لابنته : «يا فاطمة بنت محمد ، اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً» ويقول لأهله : «لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأحسابكم اعملوا فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً» ويقول : «ألا إن بعض آل بيتى يرون أنفسهم أولى بى ، وليس الأمر كذلك ، إنما أوليائى المتقون من كانوا وحيث كانوا ، ألا إنى لا أجيز لأهل بيتى أن يفسدوا ما أصلحت» !

وما أحكم ذلك الخطاب الذى بعث به سلطان من سلاطين مصر إلى أمير من الأمراء له صلة نسب بالرسول ﷺ .

«اعلم أن الحسنة فى نفسها حسنة ، وهى من بيت النبوة أحسن ، والسيئة فى نفسها سيئة ، وهى من بيت النبوة أسوأ ، وقد بلغنا أنك بدلت حرم الأمن بالخيفة ، وأتيت ما يحمر له الوجه ، وتسود الصحيفة ، فإن وقفت عند حدك وإلا أغمدنا فيك سيف جدك» .

ومما يتصل بهذه الناحية أن سيدنا محمد ﷺ قد جاء بشرعة المساواة الحقيقية التى لم يكتف فيها بالكلام وإبداء النظريات ، بل شملها بالتطبيق والتنفيذ فى أكرم صورة وأحسن مثال . وإذا كنا نرى أمريكا ذات الدعاوى العريضة التى تصف نفسها بأنها حارسة الحريات وبلد الأخوة الإنسانية والمساواة البشرية تفرق بين البيض والسود ، فتحرم الأمريكى الزنجى من الاختلاط فى الجامعات وغيرها بالأمريكى الأبيض ، فإن رسول الإسلام

ﷺ قد أعطاها وأعطى مثيلاتها من الخداعين الذين يقولون مالا يفعلون دروساً لا تنسى فى احترام الكرامة البشرية وتحقيق الأخوة الإنسانية ، إذ جعل بلالا الحبشى وصهيباً الرومى وسلمان الفارسى أنداداً وإخواناً للقرشيين ورءوس العرب ، من أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية وأبى سفيان ، لا يمتاز هؤلاء الأحرار العرب على أولئك العبيد الأعاجم بشىء ما ، لأن الإسلام قد جاء فقضى على الجاهلية وعصبية الآباء ونعرة الجنس ، وعنجهية الطائفة ، والتفاخر بالأصل والدم ، « كلكم لآدم وآدم من تراب » (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) .

وإذا كانت أمريكا المتمدنة المتحضرة الراقية ذات الجامعات والصحف والمجلات والنوادى والمجتمعات ، تحرم زواج الزنجى من الأمريكية البيضاء وتفرق بينهما ولو كان الزواج برضا المرأة ، وتعاقب على مثل هذا ، وتعتبره جريمة ، فقد علم محمد الإنسانية منذ مئات ومئات من السنين كيف تقضى على هذه العصبية الجنسية السخيفة .

ولقد جعل محمد زيد بن حارثة المولى الرقيق العبد زوجاً لزينب بنت جحش العربية الشريفة الحرة المجيدة ، التى صلحت فيما بعد لكى تكون زوجة الرسول العظيم ، وإحدى أمهات المؤمنين رضوان الله عليهم وبركاته .

ولقد جاء النبى ﷺ ليوطد شرعه النبل والإحسان فى المعاملة ، وليقيم الحياة على كرم الصفح وجمال العفو وبليغ المغفرة للمسىء ، فإذا به يتلو على قومه قول ربه الحكيم : (فاعفوا واصفحوا) وقوله : (إن تعفوا أقرب للتقوى) وقوله : (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين)

وقوله : (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) وقوله : (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) .

ولم يكتف النبي ﷺ بترديد الآيات ، وإلا لظلت مبادئ نظرية تقال ولا يعمل بها ، والمهم هو التطبيق والتنفيذ ، فإذا بالرسول يتخذ هذه الشرعة مبدأ له فى كل ما يقبل الصفح والغفران هذا رجل من المشركين اسمه النضر بن الحارث يتطاول على الرسول ﷺ ويتوعده ، ويتهكم بالقرآن ويسخر منه ويعارضه ، ويشترك فى مقاتلة المسلمين ويحرض على قتل الرسول ، ويفعل من الكبائر والمآثم ما تكفى الواحدة منها لاحتلال دمه ، فكيف بها كلها ، ثم يشاء الله أن يؤسر ذلك اللعين ، فيأمر به النبي فيقتله ، ثم تأتى أخت ذلك المشرك الأثيم فتنشد الرسول بضعة أبيات فى رثاء أخيها واستعطاف الرسول ، فيتأثر الرسول وتثور فى نفسه العاطفة الكريمة فيقول : « لو بلغنى هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه » ! . . فيكون هذا درساً نتعلم منه كيف نستجيب لعواطف الخير حينما تنبعث فى النفوس .

وتأتيه سفانة بنت حاتم أسيرة سبية ، فتقف بين يديه وتقول : « يا محمد ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فإن رأيت أن تخلى عنى فلا تشمت بى أحياء العرب فافعل ، فإنى بنت سيد قومى ، كان أبى يفك العانى ، ويحمى الذمار ، ويقرى الضيف ، ويشبع الجائع ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا بنت حاتم طيئ » ! فما كاد الرسول ﷺ يسمع منها هذه الكلمات العاجلة حتى رق لها وأجابها : « يا جارية هذه صفة المؤمن ، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه ، خلوا عنها ، فإن

أباها كان يحب مكارم الأخلاق وينقذها الرسول ﷺ من هوان الأسر والسبي والاستمتاع ، ويمن عليها بالحرية ثم يجهزها وينعم عليها ويعيدها إلى أخيها ووطنها عزيزة مكرمة !

أخيراً جاء النبي ليقيم بإذن ربه شرعة النقد والمحاسبة فى الحقوق والواجبات ، لا يشذ عنها عظيم أو جليل . . . الكل عباد الله ، والكل يخضعون لحكمه ، من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، حتى النبي ﷺ نفسه ، وهو أسمى صورة تبلغها البشرية . . . قد أراد الله له أن يضرب المثل فى الخضوع لهذه القاعدة ، حتى لا يتكبر عليها متغطرس ، وكيف يتكبر ، وهذا هو النذير البشير السراج المنير ، الرءوف الرحيم، ذو الخلق العظيم ، ورحمة الله إلى العالمين ، يخضع للنقد والمؤاخذة والعتاب ؟ ! . إننا حين نقرأ القرآن نجد فيه عجباً . . إننا نجد به فى حق هذا الرسول ﷺ آيات فيها مؤاخذة ولوم وعتاب ومحاسبة من الله سبحانه لرسوله ﷺ ، وذلك مثل قوله تعالى : (عفا الله عنك ، لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) ، (عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى . . .) .

يا أيها الناس . . أصيخوا إلى قدس النداء من رب السموات فى شأن سيد الأنبياء : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم) . صدق الله العظيم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

الرسول إمام القادة

السؤال :

كيف كان الرسول إماماً للقادة ؟

الجواب :

يقول الله عز شأنه فى سورة الأحزاب : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) . وقد يكون من الخير من مقامنا هذا أن نتعرف إلى شخصية الرسول الأعظم ﷺ فى مجال القيادة ، لنتخذ منه مثلا أعلى فى حياتنا الخاصة والعامة ، وينبغى لنا أن نعلم أن أى مجتمع — صغر أم كبر — لا بد له من نظام وتوجيه وقيادة . لأن الناس لا يصلح لهم أمر ، ولا يستقر لهم وضع إذا كانوا فى حياتهم فوضى بلا ضابط أو حاكم . ومن هنا رأينا الإسلام يضع فى تعاليمه مبادئ الخلافة ، أو الإمامة ، أو الإمارة ، أو القيادة ، أو الولاية على الناس ، ليتحقق من وراء هذه الولاية رعاية دين الله ، وسياسة دنيا الناس .

وإذا كانت الإمامة العظمى فى الإسلام شريعة دائمة ، وفريضة لازمة . فإن دين الإسلام قد أخذ بمبدأ القيادة أو الإمارة فى كل ميدان صالح لذلك : فى السلم والحرب ، وفى المجتمع الصغير والمجتمع الكبير ، حتى رأينا رسول الله ﷺ يقول : « إذا خرج ثلاثة منكم فى سفر فليؤمروا أحدهم » .

بل شاهدنا الرسول ﷺ فى بعض الأحيان يولى للجيش أميراً ، ونائباً للأمير ، ونائباً لنائب الأمير ، وقد رأينا مثلا لذلك فى غزوة مؤتة ، حيث عين للإمارة على التتابع : زيد بن حارثة ، فجعفر بن أبى طالب ، فعبد الله ابن رواحة .

وكذلك جعل الرسول كل مشرف على مجموعة ، أو كل قوام على طائفة ، راعياً لها ، ومسئولا عنها ، ووضع فى ذلك الشعار الدقيق : « كلكم راع ، وكل راع مسئول عن رعيته » .

وإذا كنا نعرف أن رعاية المجموعة الصغيرة المحدودة — كالأسرة أو الفرقة أو الفصل من فصول الدراسة — تحتاج إلى رعاية ويقظة ومجهود ، فلا شك أن رعاية الأمة بأجمعها تتطلب أضعافاً مضاعفة من التعب والصبر والحكمة .

وها نحن أولاء نحاول أن نتلمس الأسوة الحسنة عند رسول الله ﷺ . وهو فى مجال الرعاية والتوجيه ، متذكرين أنه كان للرسول سلطة واسعة فهو نبى يوحى إليه . وهو رسول معصوم قد اختاره الله واصطفاه ، وهو خير قومه عقلا وخلقاً وحكمة ، وهو المطاع بين أصحابه ، حتى إنهم يفدونه بأنفسهم وآبائهم وأمهاتهم ، ومع ذلك لم يفكر الرسول ﷺ يوماً من الأيام فى أن يستغل هذا السلطان الواسع لتجبر أو استبداد . بل نرى أنه عامل أتباعه بروح الصديق قبل أن يعاملهم بسلطة الحاكم ، ووجههم بعطف الأخوة لا بجبروت القيادة ، وكانت هذه منة من الله عليه ، وهبة له . وهو القائل لرسوله : (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) . .

* * *

إن محمداً القائد ، وهو من قد عرفنا علو مكانته وشرف رتبته . لم يعرف طريق التجبر أو التعالى يوماً من أيام حياته ، على غنى أو فقير ، ولا على كبير أو صغير ، وقد كان يستطيع ذلك لو أراد ، ولكن طبيعته النبوية ، أو أخلاقه العلية ، حالت دون ذلك ، فعاش بين أتباعه ومحبيه وعارفيه بروح

التواضع السمح الكريم ، وهذا مثلا رجل من عامة الناس يدخل عليه فإذا الرجل يرى من أنوار النبوة وجلال الرسالة ، ما يجعله يرتعد ويضطرب ، ولو كان محمد من أمثال الحاكمين المتجبرين لانتهزوا الفرصة ، وأوقع فى نفس الرجل ما يجعله يزيد اضطراباً وخوفاً ، ليزداد خضوعاً وذلا ، ولكنه قال للرجل مهدئاً وملاطفاً : « هون عليك فلست بملك ولا جبار ، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة » . [والقديد هو اللحم المجفف فى الشمس ليحفظ للأكل منه أياماً] ، وقد كانت هذه عادة عامة العرب الفقراء ، وأما الأغنياء فهم يذبحون الذبيحة ليومها ، ويأنفون أن يعودوا إلى الأكل منها فى يوم آخر . وانظر كيف نسب الرسول نفسه إلى أمه توسعاً فى التواضع والبعد عن التفاخر بالآباء .

وكان محمد ﷺ من شعوره بالتبعة ، وأنه مسئول عن غيره كما يسأل عن نفسه ، يشارك قومه ما يكلفهم به ، أو يدعوهم إليه ، فيده مع أيديهم ، ورأيه مع آرائهم ، وخطوته مع خطواتهم : يخرجون للجهاد فيكون فى طليعتهم ، ويكون أقربهم إلى الأعداء فيحتمى به الذين وراءه كما قال الإمام على بن أبى طالب . ويشرعون فى حفر الخندق حول المدينة ، فلا يجلس جلسة الرئيس أو الملاحظ ، بل يشترك معهم ، يحفر ويحمل ويتعب ويجوع .

بل إنه أحياناً كان يتخير لنفسه من العمل ما يحتاج إلى مجهود أكثر ، فقد خرج ذات يوم مع أصحابه ، وأرادوا أن يعدوا شاة للطعام ، فقال أحدهم : على ذبحها .

وقال الثانى : وعلى سلخها .

وقال الثالث : وعلى طبخها .

وقال الرسول الأكرم : وأنا على جمع الحطب .

ولعل جمع الحطب هنا يحتاج إلى مجهود أكثر من المجهود الذى يحتاج إليه الذبح والطبخ .

وهنا قال أصحابه : نحن نكفيك ذلك يا رسول الله .

فماذا قال ؟ قال : أنا أعلم أنكم تكفوننى ، ولكنى أكره أن أتميز عليكم ، وأن الله تبارك وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزاً على أصحابه .

إنه يبدأ بنفسه ويسارع إلى أداء الواجب قبل أتباعه ليكون قدوة وأسوة .

وهكذا علمه ربه ، لقد علمه أن يبدأ بنفسه وخطوته ، وبعد ذلك تقبل النفوس ، وتتوالى الخطوات ، ولذلك قال له فيما قال : (قل هذه سبيلى ، أدعو إلى الله على بصيرة ، أنا ومن اتبعنى). فعلمه هنا أن يبدأ بكلمة « أنا » فى أداء الواجب ، وبعدها يكون الأتباع والأنصار .

ولعل هذا التوجيه الإلهى هو الذى جعل الرسول ﷺ على الدوام سباقاً إلى الشعور بالتبعة ، مسارعاً إلى النهوض بالواجب ، ومن أوضح الشواهد على ذلك أن أهل المدينة فزعوا ذات ليلة لأصوات سمعوها ، فاتجهوا ناحية مصدرها ليتعرفوا الخبر ، وإذا هم يشاهدون الرسول ﷺ عائداً إليهم من جهة الصوت وهو يمتطى جواداً عارياً ليس عليه سرج . لقد سبقهم إلى جهة الصوت ، وعرف جلية الخبر ، وعاد إليهم يطمئنهم ويقول لهم : « لن تراعوا ، لن تراعوا » .

* * *

ومن حكمة محمد القائد أنه كان يحذر قومه الإسراف فى الجدل والخصومة ويقول لهم فى ذلك : « إن شر الناس الألد الخصم » . وقد أصلح الكثير من أمور الذين يقودهم عن طريق تنفيرهم وتحذيرهم الاتجاه إلى الجدل السقيم ، أو

التخاصم الذميم . ويتوسع الرسول ﷺ فى الانتفاع بهذا التوجيه حينما يقول لصحابته : « إنما أنا بشر ، وإنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق ، فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو فليتركها » .

وهو لأنه القائد يحرص على أن يكون للجميع وبالجميع ، فلا يقرب هذا على حساب إبعاد ذاك ، وهو لا يتودد إلى فريق ويتباعد عن آخر ، بل يقول لهم : إنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر .

وهو يأخذ الطريق السوى حين يحكم بين الناس فلا نسيان للعدالة ، ولا مكان للمحاباة فى الحكم ، وهو القائل : « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها . . . »

وهو إذ يختار للولاية أو الإمارة على الناس يجعل وجهته الأولى والأخيرة اختيار الأحسن والأصلح ، ويحذر من مخالفة ذلك حتى لا يكون الحكم فرصة لإرضاء الأقرباء أو الأصدقاء أو المعارف على حساب المصلحة العامة فيقول : « أيما رجل استعمل رجلا على عشرة أنفس ، علم أن فى العشرة أفضل ممن استعمل ، فقد غش الله وغش رسوله ﷺ وغش جماعة المسلمين »

* * *

ولعل روعة القائد تظهر فى مواطن الهول والبأس والصدام أكثر مما تظهر فى وقت السلام والاستقرار . لأن جو السلام يهيئ لأصحابه هدوءاً واستقراراً ، ونظراً وتدبراً ، مما يجعلهم يحسنون الملاحظة والاستنباط ، وأما مواطن النضال والاحتدام فهى تتطلب البديهة الحاضرة . والقدم الراسخة ، والنفس الشجاعة المقدام ، ولذلك نجد فى « عبقرية محمد » هذه الكلمات عن روعة الرسول ﷺ فى القيادة الحربية وتقدم الصفوف : « محمد كان

فى طليعة رجاله حين تحتدم نار الحرب ، ويهاب شواظها من الإيهاب ، وكان على فارس الفرسان يقول : « كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو » .

ولولا ثباته فى وقعة حنين ، وقد ولت جمهرة الجيش ، وأوشك أن ينفرد وحده فى وجه الرماة والطاعنين ، لحقت الهزيمة على المسلمين .

وخروجه — والليل لما يسفر عن صبحه ليطوف بالمدينة مستطلعاً ، وقد هددها الأعداء بالغارة ، والحصار — أمر لو لم تدعه إليه الشجاعة الكريمة لم يدعه إليه شيء ، لأن المدينة كانت يومئذ حافلة بمن يؤدون عنه مهمة الاستطلاع وهو قرير فى داره . ولكنه أراد أن يرى نفسه بنفسه فلم يثنه خوف ، ولم يعهد بهذا الواجب إلى غيره .

ومشاركته فى الوقعات الأخرى هى مشاركة القائد الذى لا يعفى نفسه — وقد أعفته القيادة — من مشاركة الجند عامة فيما يستهدفون له ، فهى شجاعة لا تؤثر أن تتوارى حيث يتاح لها أن تتوارى ، وعندها العذر المقبول ، بل العذر المحمود .

وإذا كان القائد خبيراً بالحرب . قديراً عليها ، غير هياب لمخاوفها . ثم اكتفى منها بالضرورى الذى لا محيص عنه ، فذلك هو الرسول ﷺ تأتيه الشهادة بالرسالة من طريق القيادة العسكرية ، وتأتى جميع صفاته الحسنى تبعاً لصفات الرسول » .

* * *

والذى يزيدنا إعجاباً بروح القيادة عند رسول الله ﷺ. وبراعته فى النهوض بالتبعات ، وتصديه البارع لحل المشكلات . هى أن روح القيادة الرائعة لم تتجل فى محمد وهو رسول فحسب . بل تجلت فيه وهو فى عز

شبابه ، وإن نسى الكثيرون مواقف لمحمد فى شبابه ، فهم لا يستطيعون أن ينسوا موقفه الخالد يوم احتدم النزاع على وضع الحجر الأسود فى مكانه ، بعد أن شرعت قريش فى تجديد بناء الكعبة . لقد تأهب القوم للقتال ، وأطلت السيوف من أغمادها ، وغمس القوم العتاة أيديهم فى جفنات الدم توسعاً فى التجرئة على فحش القتال ، ونادى من بينهم مناد فقال : اربعوا على أنفسكم يا قوم ، وحكموا فى أمركم أول داخل عليكم من باب الحرم ، ويكون هذا الداخل هو محمد الأمين ، وتستطيع عبقرية محمد فى القيادة أن تشترك جميع القبائل فى شرف المشاركة فى رفع الحجر الأسود ، عن طريق ممثل لكل قبيلة يمسك بطرف من الثوب الذى وضع فى وسطه الحجر ، وترضى كل قبيلة بذلك النصيب الذى تتساوى فيه مع غيرها من القبائل ، ولكن يدى محمد القائد الماجدة تنفردان دونهم جميعاً حيث لا يستطيعون الاستنكار أو الاعتراض ، برفع الحجر ووضعه مكانه ، والقوم لا يكادون يصدقون أنهم قد اشتركوا جميعاً ، وأن محمداً انفرد وحده دونهم برفع الحجر ووضعه .

ومن براعة محمد فى القيادة والحكم أنه كان لا يتتبع عورات الناس ، ولا يفتش عن دواخلهم ، لأن الأمير — كما قال محمد نفسه — إذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم ، ووضع فى ذلك قاعدة مثلى لا زالت تهدى الحاكم حيثما كان إلى طريق الرشاد : « أمرنا أن نأخذ بالظاهر والله يتولى السر » .

* * *

ومن مظاهر العظمة فى قيادة محمد لأمته أنه كان منصفاً لأتباعه ، بل كان أكثر من منصف . كان نبياً كريماً ، يخلع على صحابته حلل التقدير والتكريم ، فهو يشاورهم فى كل أمر ، وهو يقدر لهم كل جهد . وهو يستعين بكل طاقة فيهم ، وهو ينوه بكل صاحب فضل منهم ؛

عليهم أوسع الثناء حتى يقرنهم بتلك الألقاب الجميلة التى عدوها أكرم وسام يزين حياتهم وتاريخهم ، فأبو بكر يسميه الرسول بالصديق . وعمر هو الفاروق ، وعثمان ذو النورين ، وعلى باب مدينة العلم . وخالد سيف الله المسلول ، وأبو عبيدة أمين هذه الأمة ، وجعفر هو الطيار فى الجنة ، وخزيمة ابن ثابت هو ذو الشهادتين ، وطلحة بن عبيد الله هو الشهيد الذى يمشى على الأرض .

وكان النبى ﷺ دارساً لطبائع الناس ، ومطامح الأفراد ، وكان من براعته فى القيادة يحرص فى حكمته أن يرضى منازع النفوس ، وأن يستوعب طاقات الرجال وقواهم ، ودوافع الفخر عندهم فيما يرضى الله وينفع الدعوة ، فهو مثلا يرضى نزعة الفخر عند أبى سفيان بن حرب ، وفى الوقت نفسه يستغل هذا فى توطيد السلام فى يوم الفتح الأكبر : فتح مكة ، فقد أعلن على الأشهاد قوله : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، كل هذا إرضاء لنزعة الفخر عند أبى سفيان ، وكل هذا — فى الوقت نفسه — خدمة للدعوة والدين .

وحينما يتأهب الرسول ﷺ لإحدى الغزوات ، ويعطى سيفه للبطل صاحب العصابة : أبى دجانة ويعلق أبو دجانة السيف فى وسطه ، ويمشى به مختالا مفاخراً بين الصحابة ، لا يمنعه الرسول ذلك ، بل يجمع بين إرضاء نزعة الفخر عنده ، وإثارة روح المنافسة بين الجنود ، فيقول : « يا أبا دجانة إنها مشية يكرهها الله ، إلا فى مثل هذا الموطن » .

ولم يجعل الرسول ﷺ أساس التقدير أو التمييز بين الناس هو الغنى أو القوة أو كثرة العرض والمتاع ، بل كان له مقياس آخر يفضل به هذا

على ذاك . وقد صاغ هذا المقياس من هدى الله القائل : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . فقال متابعاً القرآن : « ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح » ، ويؤكد هذا الاتجاه أزكى تأكيد حين يجعل الضعيف هو الأساس الذى يحتاج إلى الرعاية والعناية ، ولذلك يقول ﷺ : « الضعيف أمير الركب » . ويقول أيضاً : « ابغونى فى ضعفائكم ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم » . ويجمع بين الرحمة للصغير الضغيف المحتاج إلى الرقة والرأفة ، وبين الاحترام للكبير فيقول ﷺ : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا » .

* * *

ولقد كان هذا القائد العظيم الحكيم ، والسيد المطاع بشخصيته ونبوته وإمامته ، رجلا لا يحفل بالمظاهر ، ولا يقيم وزناً لما تعارف عليه الناس من مظاهر الجاه ووسائل السلطة ، بل كان يقول : « إنما أنا عبد ، آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » . كان وهو النبي الرسول المطاع المفدى ، يحلب الشاة ، ويرقع الحذاء ، ويعلف البعير ، ويخيط الثوب ، ويسقى الهرة ، ويردف على الدابة ، ويحمل متاعه من السوق ، ويصغى إلى العجوز التى تقبل عليه لتسائله ، فلا ينصرف عن الاستماع إليها حتى تتم حديثها ، وينام على الحصير حتى تؤثر فى جنبيه .

وحسبنا عرفاناً بعظمة النبي أن يجتمع على تقديره الأصدقاء والأعداء ، والمسلمون وغير المسلمين وهذا هو العالم الأوربى « الدكتور ماركس دودز » يقول متحدثاً عن رسول الله ﷺ ، مع أنه ليس من أتباع ذلك الرسول :

« أليس محمد نبياً على وجه من الوجوه ؟ إنه على اليمين صاحب فضيلتين من فضائل الأنبياء ، فقد عرف حقيقة عن الله لم يعرفها الناس من حوله ، وتمكنت من نفسه نزعة باطنة لا تقاوم لنشر تلك الحقيقة ، وإنه لخليق فى هذه الفضيلة أن يسامى أوفر الأنبياء شجاعة وبطولة من بنى إسرائيل ، لأنه جازف بحياته فى سبيل الحق ، وصبر على الإيذاء يوماً بعد يوم . عدة سنين . وقابل النفى والحرمان والضغينة وفقد مودة الأصحاب بغير مبالاة ، فصابر على الجملة قصارى ما يصبر على الإنسان . دون الموت الذى نجا منه بالهجرة . ودأب مع هذا جميعه على بث رسالته ، لم يقدر على إسكاته وعد ولا وعيد ولا إغراء .

وربما اهتدى إلى التوحيد أناس آخرون بين عباد الأوثان ، إلا أن أحداً آخر غير محمد لم يقم فى العالم مثل ما أقام من إيمان بالوحدانية دائم مكين ، وما أتيح له ذلك إلا لمضاء عزمه أن يحمل الآخرين على الإيمان .

فإذا سأل سائل : ما الذى دفع بمحمد إلى إقناع غيره ، حيث رضى الموحدون بعبادة العزلة ؟ فلا مناص لنا من أن نسلم بأنه هو العمق والقوة فى إيمانه بصدق ما دعا إليه » .

لقد كان محمد ﷺ . إنساناً ونبياً ورسولا ، وحاكماً وقائداً وإماماً وكان المثل الأعلى فى هذه الصفات . ومن واجب الأمة التى استجابت له ، وآمنت به . أن تهتدى بهديه . وأن تستلهم منه المنهاج السليم المحقق لحراسة دين الله . وسياسة دنيا الناس .

والله تبارك وتعالى أعلم .

نبي من العرب

السؤال :

كيف كانت رسالة محمد ﷺ عامة؟

الجواب :

لم يكن رسول الله ﷺ – رسولا لقوم دون قوم ، ولا لشعب دون شعب ، بل كان رسول الله سبحانه للناس كلهم ، فهو الرسول الجامع الخاتم ولذلك يقول الحق جل جلاله فى سورة الأعراف : (قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض) . ويقول فى سورة الأنبياء : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

حقاً لقد كان محمد رسولا للكل وللجميع ، ولكن هذا لا ينفى أنه كان نبياً عربياً قرشياً هاشمياً ، أى أن الله تبارك وتعالى اختاره بعلمه وحكمته من الأمة العربية ، وإن كان قد أرسله للناس كافة ، وفى هذا فخر أى فخر لأمة العرب بل إن أعظم مفخرة أن يكون على هامة هذه الأمة الكريمة سيدها الأول : سيدنا رسول الله ﷺ ، وستظل هذه الأمة العظيمة بإيمانها ويقينها تقول للعالمين بملء فمها : منى أخرج الله بفضله وعنايته سيد البشرية وهادى الإنسانية ﷺ ، أخرجه من أشرف بيوتى وأطهر أنسابى .

وقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ حين قال كما جاء فى صحيح مسلم : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » .

وقال أيضاً : « إن الله عز وجل يوم خلق الخلق جعلني من خيرهم ، ثم حين فرقهم جعلني في خير الفريقين ، ثم حين جعل القبائل جعلني في خير قبيلة ، ثم حين جعل البيوت جعلني من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً » .

ولعل القدر المسعد أراد أن يكون اعتزاز العرب بالنبي العربي ممتد الجذور في أعماق الماضي من ناحية جديه إبراهيم وإسماعيل جدى العرب ، وهذا هو الإمام ابن الجوزى يروى لنا في كتابه « الوفاء بأخبار المصطفى » أن موسى عليه السلام بشر في السفر الأول من التوراة بأمة العرب المؤمنة العظيمة ، وبجديها العظيمين إبراهيم وإسماعيل ، وبنبيها العظيم حفيدهما محمد .

يقال إنه لما خرجت هاجر من عند سارة ، تراءى لها ملك الله وقال : يا هاجر أمة سارة ، ارجعى إلى سيدتك واخضعى لها ؛ فإنى سأكثر ذريتك وزرعك ، حتى لا يحصوا كثرة ، وها أنت ذى تحبلين وتلدين ابناً وتسمينه إسماعيل ، لأن الله قد سمع خشوعك ، وتكون يده فوق يد الجميع ، ويد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع .

قال ابن قتيبة : فتدبر هذا القول ، فإن فيه دليلا بيناً على أن المراد به رسول الله ﷺ. لأن إسماعيل لم تكن يده فوق يد إسحاق ، ولا كانت يد إسحاق مبسوطة إليه بالخضوع ، وكيف يكون ذلك والملك والنبوة في ولد إسرائيل والعيص ، وهما ابناء إسحاق ، فلما بعث رسول الله ﷺ انتقلت النبوة إلى ولد إسماعيل ، فدانت له الملوك ، وخضعت له الأمم ، ونسخ الله به كل شريعة ، وختم به النبيين ، وجعل لهم الخلافة والملك في آخر الزمان ، فصارت أيديهم فوق أيدى الجميع ، وأيدى الجميع مبسوطة بالرغبة إليهم مبسوطة بالخضوع .

وهناك دور كبير قام به إسماعيل جد النبى العربى لتوحيد الجنس العربى ، فقد تزوج من العرب : تزوج امرأة يمنية عربية من قبيلة « جرهم » العربية اليمنية ، واسمها : « رعلة بنت عمرو » ، وتزوج ثانية اسمها : « سعيدة بنت مضاض » ، من القبيلة ذاتها ، وتزوج ثالثة اسمها : « الحنفاء بنت الحارث » من القبيلة عينها .

وبهذه الزوجات العربيات الثلاث جرى فى كيان إسماعيل الدم العربى ممزوجاً بالدم العراقى الذى جاءه من جهة أبيه ، والدم المصرى الذى جاءه من جهة أمه هاجر . ولعل هذا كان إيماء من القدر إلى أن سلالة إسماعيل جد محمد — وهى الأمة العربية — ستنداح بفضل الإسلام فى آسيا وأفريقيا وسائر بقاع العالم .

واستجاب الله دعوة إبراهيم لأمة العرب ووطن العرب كما قال القرآن فى سورة إبراهيم : (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام * إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم * ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) .

ويرفع الجدان الأعليان لمحمد وقومه العرب القواعد من بيت الله الحرام كما جاء فى سورة البقرة : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) .

وكانت الاستجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل — كما جاء فى تفسير فى ظلال القرآن — هى بعثة هذا الرسول الكريم بعد قرون وقرون ، وهذا الرسول من ذريتهما وهو محمد النبى العربى ، يتلو عليهم آيات الله تعالى ، ويعلمهم القرآن والسنة ، ويطهرهم من الرذائل والخبائث ، وهما بدعائهما فى الآيات السابقة يقرران وراثة الأمة المسلمة لإمامة إبراهيم ، ووراثته فى القيام على البيت الحرام ، لأنه السادن الأول للبيت الحرام ، فمن كان يربط ديانته بإبراهيم ، ومن كان يربط نسبه بإسماعيل ، فليتذكر جيداً أن ورثته هم الأمة التى أسلمت وآمنت بربها ، لأن دعوة إبراهيم وإسماعيل كانت : أن يجعلهما الله مسلمين ، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة ، وأن يبعث فى أهل بيته رسولا منهم ، فأرسل الله من أهل هذا البيت الجليل العريق محمد بن عبد الله الرسول العربى الهاشمى ، وحقق على يديه الأمة المسلمة القائمة بأمر الله ، الوارثة لدين الله تبارك وتعالى .

ومنذ استجاب الله سبحانه لدعوة إبراهيم وإسماعيل والكعبة — وهى مركز الدائرة فى الوطن العربى — محط الرجال فالملايين بعد الملايين على امتداد التاريخ ، وذلك مجد أى مجد لأمة العرب الذى أعزها الله جل جلاله بدعوته وعزته .

ويأتى أبو النبى — بعد جديه الأعليين — يأتى أبوه عبد الله العربى الهاشمى الذى أكسب العرب الفخر الكبير .

إذا كان النبى يسمى « ابن الذبيحين » ، وكان الذبيح الأول هو إسماعيل الذى أشار القرآن المجيد إلى قصة فدائه فى سورة الصافات بقوله : (فبشرناه بغلام حليم * فلما بلغ معه السعى قال : يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى * قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إنشاء الله من الصابرين *

فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا ، إنك كذلك نجزى المحسنين * إن هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم * وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على إبراهيم) .

إذا كان إسماعيل هو أول الذبيحين للرسول العربى فإن أباه عبد الله هو الذبيح الثانى .

روى التاريخ أنه لما قام عبد المطلب بحفر زمزم ، لم يكن له يومئذ إلا ولد واحد هو الحارث ، فنازعته قريش ، فنذر عبد المطلب إن ولد له عشرة من الأولاد ، ثم بلغوا حتى يمنعوه ويدافعوا عنه ، ليذبحن أحدهم لله عند الكعبة . وتم الأبناء عشرة ، فأخبرهم بنذره ، فأطاعوه ، وكتب كل واحد منهم اسمه فى قدح ، وضربوا القداح فخرج القدح على عبد الله ، فهم بذبحه ، فعارضه قومه ، ونصحوا بأن يستشير عرافة فى أمره .

قالت العرافة : كيف الدية فيكم ، وكم هى ؟ . قالوا : عشر من الإبل .

قالت : قربوا صاحبكم وقربوا عشراً من الإبل ، ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا فى الإبل حتى يرضى ربكم ، فإذا خرجت على الإبل فقد رضى ونجا صاحبكم .

فقربوا عبد الله وعشراً ، فخرجت على عبد الله ، فزادوا عشراً فخرجت عليه فزادوا ، فلم يزالوا يزيدون حتى جعلوها مائة ، فخرجت القداح على الإبل ، فذبحوها وفرحوا بنجاة الذبيح الثانى .

* * *

وكان محمد العربى يشارك فيما فيه خير للعرب ، وإعزاز لمكارم الأخلاق بينهم قبل بعثته ، فهاهوذا يشترك وهو شاب فى « حلف الفضول » ، الذى

دعا إليه بعض أشراف العرب قبل ظهور الإسلام ، للتناصر والتعاون على الأخذ للمظلوم من المظالم ، وكان السبب المباشر لهذا الحلف أن رجلا من اليمن قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها رجل من بنى سهم ، وماطل فى دفع الثمن إلى اليمنى ، فقام على مرتفع وأخذ يهتف بين القوم :

يا آل فهر لمظلوم بضاعتـــه ببطن مكة ، نائى الدار والسفر
أقائم من بنى سهم بـــذمتهم أم ذاهب فى ضلال مال معتمر ؟

فقام العباس وأبو سفيان حتى ردوا عليه حقه . واجتمعت رجال من قيس فى دار عبد الله بن جدعان فتحالفوا على رد الظلم بمكة . وألا يقع الظلم على أحد إلا ناصروه ودافعوا عن حقه وأخذوه له ، واشترك فى هذا الحلف رسول الله ﷺ وقال عنه بعد ذلك : « لقد شهدت حلفاً فى دار ابن جدعان ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت » . فقال قوم من قريش : هذا والله فضل من الحلف ، فسموه حلف الفضول .

وشارك محمد النبى العربى فى حفظ الوحدة والوفاق لقومه — حتى قبل بعثته ﷺ — فقبل هذه البعثة بسنوات ، هدم العرب الكعبة ، وجددوا بناءها ، لأنها كانت قد تضعضعت بفعل السيول ، ولما بلغ القوم مكان الحجر الأسود تنازعوا : فكل قبيل تريد أن تنفرد بشرف وضعه فى مكانه ، حتى هموا بحرب أهلية طاحنة ، فقيل لهم : اجعلوا حكماً بينكم أول داخل من باب هذا المسجد ، وكان أول داخل عليهم هو محمد ﷺ .

فهتف الجميع : هذا هو الأمين . قد رضيناه حكماً بيننا .

وأخبروه الخبر ، فإذا العقل الذكى والذهن اللماح عند محمد يتفتق عن حل رائع لحسم النزاع ورفع الخصام ، قال : هلموا ثوباً واسعاً .

وتناول الحجر الأسود بيديه ، ووضعه وسط الثوب ، وقال : ليأخذ نائب كل قبيلة بطرف من الثوب . وأمرهم فرفعوه معاً . فلما جاء حاذوا مكانه أخذه بيديه ، ووضعه مكانه .

وحلت المشكلة ، ورضى الجميع ، وعاد السلام .

* * *

وجاء محمد النبى الرسول الذى أنعم الله به على قومه العرب ، فجمعهم من شتات ، ووحدهم من فرقة ، وفى يده كتاب ربه الأعلى : القرآن المجيد ، فإذا هذا القرآن يذكر قوم محمد بنعمته التى ساقها على يد محمد ، يذكرهم بالوحدة والقوة والهداية التى صاروا إليها بعد التفرق والتمزق والعداوة ، فإذا هو يقول فى سورة آل عمران : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) .

وذكر القرآن الكريم مؤمنى العرب بجدهم وجد رسولهم وهو إبراهيم عليه السلام ، فقال فى سورة الحج :

(وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير) .

وجاء القرآن الحكيم تحمله يمين محمد من عند ربه ، ليتحدث عن إكرام الله للعرب — وقريش هى هامتها — فيقول فى سورة قريش : (لإيلاف

قريش • إيلافهم رحلة الشتاء والصيف • فليعبدوا رب هذا البيت • الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

ولقد كان الجنود الأوائل فى الإسلام من العرب قوم محمد ، وقد باركهم الله بإيمانهم وأثنى عليهم ، فجاء مثلا فى سورة التوبة : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه . وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً . ذلك الفوز العظيم) .

وأوسع الله فضله على الأمة العربية المؤمنة عن طريق نبيه ورسوله سيدنا محمد ﷺ ، نعم أوسع الفضل وضاعف النعمة حين وهبها حافظ العروبة ولغتها وبيانها وهو القرآن المعجزة الإلهية الكبرى لمحمد رسول الله . وأعظم مفخرة للعرب ، لأن هذا القرآن هو الذى صان اللغة العربية . وضمن لها بقاءها وخلودها ، فما دام القرآن مضمون البقاء . فاللغة العربية مضمونة البقاء تبعاً له ، والقرآن يقول فى سورة الحجر : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) . وقد سجل القرآن أمام الدنيا أن الله شرف بالقرآن قوم نبيه ، فقال فى سورة الزخرف : (وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) .

قال شيخ المفسرين الطبرى : « يقول تعالى ذكره : وإن هذا القرآن الذى أوحى إليك يا محمد ، الذى أمرناك أن تستمسك به ، لشرف لك ولقومك من قريش » .

ويعود الحق جل جلاله إلى إكرام أمة محمد من أجل محمد فيقول فى سورة الأنفال : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم . وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) .

أى وما كان الله ليعذبهم وأنت مقيم بين ظهرانيهم ، وما كان الله معذبهم وفيهم المؤمنون يستغفرون : يغفر لمن فيهم من المسلمين .

ولقد تجلى فى القرآن العزيز الذى جاء به سيدنا محمد ﷺ من عند ربنا تبارك وتعالى تمجيد أماكن فى منزل الوحى ، وهى مركز الدائرة من موطن العرب ، فقد نوه القرآن بمكة وفيها أول بيت وضع للناس مباركاً وهدى للعالمين ، وسماها « أم القرى » فقال فى سورة « الشورى » : (وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها) وجعلها بلدة محرمة محترمة : فقال فى سورة النمل : (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها ، وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين) .

ونوه بالمدينة دار النصرة ، فقال فى سورة التوبة : (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) .

ونوه بالمسجد الحرام المطهر للطائعين والعاكفين والقائمين والركع السجود ، ونوه بالكعبة البيت الحرام ، البيت العتيق ، البيت المبارك ، هدى العالمين ، مثابة الناس وأمنهم ، التى جعلها الله قياماً للناس .

والذى جعله الله للناس (سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب السعير) .

ونوه بعرفات والمشعر الحرام ، والصفا والمروة وهما من شعائر الله .

وينوه القرآن أيضاً بالعرب — وينعتهم بالأميين ، لأن القراءة والكتابة كانت قليلة فيهم فى سابق عنهم ، وينوه بأثر الرسول العظيم فيهم ، ورسالته الكبرى بينهم فيقول فى سورة الجمعة :

(هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) .

وينوه القرآن بنفاسة الرسول بين قومه ، وارتباطه بهم ، وانشغاله بإصلاحهم فيقول فى سورة التوبة : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) .

قرأ الجمهور هذه الآية : « من أنفسكم » — بضم الفاء جمع نفس — أى من بين العرب ، وعن عبد الله بن عباس قال : ليس من العرب قبيلة إلا ولدت النبى ﷺ : مضريها وربيعها ويمانيها ، فقرابته كانت ذات وشائج منتشرة فى قبائل العرب .

وقرئت الكلمة : « من أنفسكم » — بفتح الفاء — أى أفضلكم وأشرفكم ، والنفيس هو الثمين الذى يُضن به ، وهذا يتفق وسمو النسب المحمدى على صاحبه الصلاة والسلام . ولقد علمنا أن محمداً كان أشرف العرب من ناحية النسب والسلالة والطهارة ، ولذلك قلت فى كتابى : « من أدب القرآن » هذه الكلمات مشيراً إلى الصيغة العربية النقية فى نسب سيدنا رسول الله ، « وقد نوه رسول الله ﷺ الخاتم بهذه الصبغة العربية فى نسبه وسلالته ، فقال :

« أنا أعربكم » .

« أنا سابق العرب إلى الجنة » .

وروى الترمذى عن سلمان الفارسى قال : قال لى رسول الله ﷺ : يا سلمان ، لا تبغضنى فتفارق دينك . قلت : يا رسول الله ، كيف أبغضك وبك هدانا الله ؟ قال : تبغض العرب فتبغضنى .

وروى الترمذى عن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله ﷺ : « من غش العرب لم يدخل فى شفاعتى ولم تنله مودتى » .

وروى ابن كثير فى تفسيره أن رجلا قال للنبى : يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ، ما أفصحك ، ما رأيت الذى هو أعرب منك ، فقال : حق لى ، وإنما أنزل القرآن بلسانى ، والله يقول : (بلسان عربى مبين) .

وها هو ذا القرآن المجيد يقول فى ختام سورة الفتح : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً ، يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً) .

ووصل القرآن فى التنويه بالذين آمنوا وتابعوا محمداً وأخلصوا من قومه حداً جعل بيعتهم لنبيهم بيعة الله جل جلاله فقال: (إن الذين بايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) . وهؤلاء الذين بايعوا محمداً هنا هم من العرب الذين زكاهم الله بالإسلام على يد محمد النبى العربى رحمة الله للعالمين ، والذين يجب عليهم دائماً أن يوقنوا بأن جماع عزهم ومعقد فخرهم ومنبع هديهم هو الإسلام العظيم .

والحديث القدسى الذى رواه البخارى يقول للنبى : (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ، وحرزاً للأميين) أى حصناً للعرب ، كما ذكر الإمام ابن حجر فى كتابه : « فتح البارى » .

والقرآن المجيد يقول فى سورة الشورى : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) ويعلق عبد الله بن عباس على الآية بقوله : إن رسول الله ﷺ كان أوسط النسب فى قريش ، ولم يكن حى من أحياء العرب إلا وقد

ولدوه ، فقال الله تعالى : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) أى تودوا قرابتى منكم ، وتحفظونى فى ذلك .

وأكرم به من شعور نبيل يتدفق بالرحمة والرعاية من الرسول الكريم الرحيم لقومه وقرابته وأمته ، وأمة محمد واسعة جامعة ، تنفسح حتى تشمل الملايين من هنا وهنالك ، بالأمس البعيد، والأمس القريب ، واليوم الحاضر، والغد المحجب ، ولكن هذه الأمة المحمدية يتصدرها كما يقص التاريخ مؤمنو أمته العربية ، وهو صلوات الله وسلامه عليه قد ترددت على لسانه الشريف كلمات جوامع لوامع ، تفيض بحبه لأمته هذه ، وتنبض بعواطف التقدير ومشاعر الرعاية :

يروى ابن ماجه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تزال هذه الأمة بخير».

ويروى أبو داود وابن حنبل قوله : «أمتى هذه أمة مرحومة» .

ويروى ابن حنبل أيضاً : «إنكم أمة أريد بكم اليسر» .

ويروى البخارى : «إن أمتى فى الأمم كالشعرة البيضاء» .

وتكرر كلام النبى العظيم عن أمته فى عشرات من الأحاديث ، فهو فى كل مناسبة يعنى بها ويحنو عليها ، ويشغل نفسه بما فيها خيرها وبرها ، وهو يردد : «أمتى ، أمتى ، أمتى» . . حتى فى موقف الشفاعة – كما يروى البخارى – يقول : «أمتى يارب . . .» .

لذلك لم يكن عجيباً ولا غريباً أن يأخذ الله تعالى صحابة نبيه بلون رفيع كريم من الأدب فى مخاطبة هذا النبى وإجلاله :

فلنقرأ من سورة الحجرات هذه الآيات ممعنين متدبرين :

(يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ، واتقوا الله إن الله سميع عليم * يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون* إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم) .

أما بعد ، فالحديث عن « محمد النبى العربى » له وشيجة ارتباط واتصال بحديث « الإسلام والعروبة » ، ولذلك ينبغى أن يرجع القارئ إلى باب : « حديث العروبة فى القرآن » من كتابى : « من أدب القرآن » ، فالذى هناك ينبغى أن يكون التتمة التى يكمل بها ما هنا ، وفوق كل ذى علم عليم .

وصلاة وسلاماً على النبى العربى الهاشمى محمد . الذى أرسله ربه رحمة للعالمين .

* * *

محمد فى القرآن

السؤال :

كيف صور القرآن الكريم محمداً ﷺ ؟

الجواب :

انعقد إجماع العقلاء البصراء من الناس على أن شخص الرسول محمد ﷺ هو أعظم شخص فى الدنيا بتاريخها القديم وتاريخها الحديث ، وهو إذا أردنا تشبيهه كالبسمة المضيئة المشرقة فى ثغر الدنيا : شرقها وغربها ، وحينما نرجع فى شأن هذا النبى العظيم إلى حديث القرآن المجيد ، أصدق الحديث ،

نجده يرسم لنا شخصية الرسول الأمين فى معرضين أساسين واضحين ، والمعرض الأول هو معرض التوقير والتكريم ، لأنه أهل لكل تعظيم ، والمعرض الثانى هو معرض التأديب والتكليف ، فتارة ينوه القرآن بالرسول ويمجده حتى يرفعه إلى أعلى عليين ، وتارة يمحص معدنه الكريم تمحيص النار للذهب الإبريز .

وكان الغرض من المعرض الأول هو الإيحاء بأن محمداً أهل للنبوة والرسالة ، والهداية والإمامة (الله أعلم حيث يجعل رسالته) . والغرض من المعرض الثانى هو بيان أن العظمة لله وحده . وأن الكبرياء شأنه وحده ، ومن نازع ربه ثوب الكبرياء قصمه الله ولا يبالى ، ولذلك يقول الحديث القدسى : « الكبرياء ردائى . والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحد منهما ، قصمته ولا أبالى » . وبيان أن شرعة الثواب والعقاب ، وأسلوب الحساب والجزاء ، لا يتخلص منه أحد ، ولا يستعلى عليه إنسان .

ومن هنا يتنوع حديث القرآن عن الرسول إلى أنواع نلحظ منها خمسة وهى : عنصر التكريم والتشريف ، وعنصر التكليف ، وعنصر الجمع بين التشريف والتكليف ، وعنصر التذكير بالبشرية ، وعدم القدرة أمام قدرة الله . وعنصر العتاب والمراجعة .

ولنستعرض طائفة من الآيات التى تنطق بالتكريم ، وتفيض بالتشريف .

فالله تعالى يقول لنبيه : (وإنك لعلى خلق عظيم) فى سورة القلم ، ويقول فى سورة التوبة : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) . ويقول فى سورة الأنبياء : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ، ويقول فى سورة الأحزاب : (يأيها النبى إنا أرسلناك

شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) . ويقول فى السورة نفسها : (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) .

بل يتابع القرآن حديث التشريف والتكريم ، فيجعل طاعة النبى من طاعة الله ، فيقول تعالى فى سورة النساء : (من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً) ، ويقول فى السورة نفسها : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) . ويجعل مبايعة الرسول لمبايعة الله فيقول فى سورة الفتح : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) .

ولا ينقضى إعجاب الإنسان بهذه المكانة العلية التى رفعه إليها القرآن ، فهو صاحب الخلق العظيم . وهو بالمؤمنين رءوف رحيم ، وهو رحمة الله للعالمين ، وهو السراج المنير . وطاعته من طاعة الله ، وحكمه من حكم الله ، ومبايعته مبايعة لله . وليس وراء ذلك تكريم أو تشريف .

* * *

وقد يظن ظان . أو يتوهم متوهم أن هذا التكريم الواسع لا ضابط له ، ولا مقابل أمامه ، فتذهب الظنون السيئة مذاهبها ، ولو تعقل الإنسان وتدبر ، لوجد أمام هذا التشريف ألواناً من التبعات والتكاليف تنوء بحملها الجبال ، فإذا كان القرآن قد أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من مراتب عالية ، ومنازل شريعة فاضت بآيات التكريم والتمجيد ، فإن الله جل جلاله قد حمل نبيه فى مقابل هذا أوامر وواجبات وتبعات هى كفاء لهذه المراتب والمنازل ، ولنستعرض طائفة من هذه الأوامر الإلهية . والتكليفات المتوالية التى كلف بها الله خاتم أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام . كما قال تعالى فى سورة

الأحقاف مخاطباً نبيه : (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الكافرون) ، ويقول فى سورة الكهف ، (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) ويقول فى سورة يوسف : (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) . ويقول في سورة الشورى : (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير) . ويقول الله عز وجل فى سورة هود : (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير) ، ويقول لنبيه فى سورة الحجر : (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) ، ويقول فى سورة الشعراء : (وأنذر عشيرتك الأقربين ۝ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) .

فها نحن أولاء نرى أن الله تبارك وتعالى قد صنع نبيه على عينه ، وجعله خير خلقه ، واختاره لأكرم رسالة وأعظم دعوة ، وكان هذا المقام يحتاج إلى التأييد والتمجيد ، والتكريم والتعظيم ، لأن العظائم كفؤها العظماء ، فكان اختياراً لرجل مناسب فى مكان مناسب كما يقول أهل عصرنا ، فأعطاه ما أعطاه من الخصائص والميزات ، وحصنه بما حصنه به من قوى وطاقات ، ثم طالبه أمام هذا بما طالبه به من تبعات .

وقد بدأت سلسلة التكليف الإلهى منذ طليعة الاختيار لهذا الداعى وهذه الدعوة ، ولذلك نجد فى طلائع الوحى الإلهى يأتى هذا النداء اللائق بالمثل الأعلى والنموذج الكامل للإنسان فى طهارته الحسية والمعنوية : (يأيها المدثر ۝

قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر) . وما هو إلا مدى قصير يمر بعد هذا التنزيل حتى يفاجأ الرسول بتنزيل مجيد آخر . كله أوامر وواجبات ثقيلة تحتاج إلى جهد الأبطال . فيقول له القرآن : (يأيها المزمل * قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا * إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا * إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا * إن لك فى النهار سبحاً طويلا * واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا) .

* * *

ثم يأتى عنصر الجمع بين التأديب والتعظيم ، أو بين التكليف والامتنان ، ليتحقق التوازن العميق الدقيق بين ما ساقه الله إلى نبيه من فضل وتشريف ، وما طالبه به من واجب وتكليف ، ونحن نرى فى القرآن الكريم مواطن يجتمع فيها هذان الأمران ، فنرى آيات مكرمة معظمة ، ومعها آيات تفرض وتوجب ، ومن أمثلة ذلك فى القرآن الكريم سورة الضحى ، فقد تضمنت هذه السورة على إيجازها آيات صدقت وتصدرت ، وفيها ما فيها من تبيان لعلو الشأن وسمو الشأو لرسول الله ﷺ ، فذلك فى الآيات الأولى من السورة وهى تقول : (والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى) :

وعقب هذه الآيات يأتى تذكير من الله تعالى لنبيه بما سبق إليه من هبات وعطايا فى الماضى ، فذلك حيث يقول النص الكريم : (ألم يجدك يتيما فآوى * ووجدك ضالا فهدى * ووجدك عائلا فأغنى) .

ويأتى عقب ذلك الآيات الآمرة الموجهة المطلقة ، فتقول : (فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث) .

وهذه السورة التى جمعت بين مقام التشريف ومقام التكليف سورة وجيزة قصيرة ، وكأن الله تبارك وتعالى قد أراد من هذا الجمع بين التكليف والتشريف أن يظل الإنسان فى مجالات حياته وشعاب مسيرته على بصيرة من أمره ، وبصر بالميزان المتعادل الكفتين بين ما له وما عليه ، أو بين حقوقه وواجباته . فكلما سعى الإنسان ، وتعب فى سعيه ، وأحس بقطرات العرق تسيل من جبينه . تذكر أن هذا وفاء بما أمره الله به ودعاه إليه ، وأن هذا التعب المرهق له عاقبة مرضية ، وثمرة مرتقبة ، فيهون هذا التذكر عليه ما يشعر به من تعب ، أو يعانيه من نصب ، وحينما ينتقل الإنسان إلى التمتع بثمرات سعيه ، ورآها ثمرات يانعة ، وخيرات ممتعة ، تذكر أنه مطالب بالجمع بينها وبين واجبه ، فلا يغتر بهذه الخيرات ، ولا يركن إلى هذه الثمرات ، بل يستبقى فى نفسه العزم والعزيمة ، ليعود من جديد إلى السعى والعمل . والنهوض بالتبعات والواجبات التى يؤهله أداؤها والقيام بها لكى تعاوده هذه الثمرات والخيرات ، وهكذا دواليك تسير مراحل الحياة ، وقد اجتمع فيها صفة التكريم لمن عمل وسعى ، وصفة العطاء والمنح لمن استحق ذلك ، وسار على الدرب بلا انقطاع .

وإنما يأخذ الإنسان العاقل هذا الدرس النافع من تصوير القرآن المعجز لعناصر الشخصية المحمدية التى جلاها لنا بأجلى منطق وأروع بيان .

* * *

ويأتى بعد ذلك التذكير الإلهى للرسول الأكرم بعد سلطته أمام سلطة الله عز وجل . فالرسول هو خير الناس ، وهو قائد المؤمنين ، وهو إمام المتقين وهو أقرب الخلق إلى الله عز وجل ، والمسلمون يفدونه بآبائهم وأمهاتهم وأنفسهم ، وهم لا يعصونه فى أمر ، ولا يخالفونه فى حكم ، ولكن هذا

الرسول أمام جلال الله وسلطانه عبد من عباده ، فإذا كان له سلطة أو طاعة على غيره من الناس فهو أمام الله أعبد الناس وأطوعهم لله .

ونستطيع أن نستعرض طائفة من الآيات تتحدث عن ذلك ، فالقرآن يقول فى سورة آل عمران : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين) . وتقبل سورة الكهف بهذا الأمر : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) . وفى سورة الأنفال : (لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) . ويقول فى سورة البقرة . (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء) وفى سورة آل عمران : (ليس لك من الأمر شيء) ، وفى سورة النازعات : (يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها * إلى ربك منتهاها) . وفى سورة الغاشية : (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) ، وفى سورة الأعراف : (قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) .

وقد يضل ضال فيتوهم أن هذا التجريد من السلطة فيه استهانة بمقام رسول الله ، أو استخفاف بأمره ، ومعاذ الله ، فإن رسول الله أحب خلق الله إلى الله ، وهو عنده بمكان عظيم ، وقد تعرضنا من قبل إلى طائفة من آيات التشريف له والتكريم لشأنه . ولكن الحق جل جلاله أراد أن يفرق بين الخالق والمخلوق ، وأن يقرر أنه المعبود دون سواه . وأنه يفعل ما يريد وما يختار ، لا يشركه فى ذلك نبي ولا رسول ولا صديق ولا شهيد . وهنا ليس للنبي من الأمر شيء ، ولو أنه إمام المتقين ، وقائد الغر المحجلين ،

والشفيع المشفع يوم الدين ، وهو رسول الرحمة . وكاشف الغمة ، والمنقذ للأمة ، وجامع الكلمة ، وهو بالنسبة إلى الكائنات سيد العالمين ، ولكن الأمر إذا انتهى إلى ساحة الله عز وجل ، فهو عبد الله . وصفة عبد الله هى أعظم وسام يتحلى به رسول الله .

ومن الدقائق اللافتة للبصيرة هنا أن القرآن لا يكاد يذكر النبى الأمين فى موطن تشريف أو تكريم إلا اختار له صفة العبودية على غيرها من كرائم الصفات ، فهو مثلا يتحدث عن إنزال القرآن على الرسول وهو أكبر المعجزات ، فيصف الرسول بالعبودية فيقول : (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعو شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) . ويتحدث عن الإسراء وهى من كبريات المعجزات ، فيصف النبى بالعبودية فيقول : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) .

ويفتتح سورة الكهف فى الحديث عن الكتاب الذى أنزله على « عبده » محمد فيقول : (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً) . ويفتتح سورة الفرقان بمثل هذه الطريقة قائلا : (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) ، ويقول أيضاً فى سورة الأنفال : (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير) . ويقول فى سورة النجم : (فأوحى إلى عبده ما أوحى) ، ويقول فى سورة الحديد : (هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم) . ويقول تعالى فى سورة الجن عن دعوة الرسول إلى الله : (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً) .

ثم يأتى عنصر العتاب والمراجعة ، فنحن نرى فى القرآن الكريم آيات يعاتب الله فيها رسوله على بعض الأعمال والتصرفات ، وينبغى لنا أن نتذكر أن العتاب فى أغلب أحواله دليل المحبة والمودة ، ولذلك قال شوقى :

أما العتاب فبالأحبـــة أخلـــق والحب يحـــلو بالعتاب ويصدق

وينبغى لنا أن نتذكر أيضاً أن العتاب يسمو لفظاً ومعنى كلما سما طرفاه ، فعتاب العلماء غير عتاب العامة والرعاع ، وعتاب العارفين غير عتاب الجهلاء ، وعتاب المقربين غير عتاب الأبرار وقديماً قيل : « حسنات الأبرار سيئات المقربين » ، فمن لنا بأن نبلغ شأو العتاب بين الله عز فى علاه ورسوله ﷺ

إن تلك منزلة أسمى من إدراك الناس وتناولهم ، فلعتاب الحبيب الأول مع محبه النبى مذاق يعلو على كل مذاق ، وإدراك يسمو فوق كل إدراك ، ونحن حين نستعرض آيات العتاب من الله لرسوله فى القرآن نرى العتاب مغلفاً بستار رقيق أنيق يشعر بالمحبة ، ويوحى بالمودة ، فها هو ذا مثلا لون من عتاب الله لنبيه فى سورة التحريم ، حيث تبدأ هكذا : (يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم) فآية العتاب تبدأ كما نرى بمخاطبة « النبى » وهو وصف فيه مودة ومحبة وتشريف . والعتاب يساق إلى هذا النبى بأسلوب الاستفهام ، لا بأسلوب المؤاخذة ، (لم تحرم ؟) . وأقرب سبب لنزول هذه الآية الكريمة خلاصته أن النبى ﷺ حرم على نفسه بنفسه لوناً من الحلوى كان يحبه ويتناوله ، وكان يقصد بذلك إرضاء بعض زوجاته ولذلك قالت الآية : (يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك) ثم ساقت الآية الغرض النبوى الكريم الذى قصده هو ، وهو إرضاء بعض زوجاته . وقد كان ﷺ مثلا أعلى وقدوة تحتذى فى الإحسان إلى الزوجات ، يقول النص ، (تبتغى مرضات أزواجك والله غفور رحيم) فكأن الله سبحانه

تولى عن رسوله الاعتذار عنه ، وتبيان الغرض الشريف من تحريمه ما حرمه ؛ وسارع الله إليه بالحكم الكريم الرحيم) : (والله غفور رحيم) ، فبدأ العتاب بالمخاطبة بوصف النبى وانتهى بكريم الغفران والرحمة .

ويقول الله تعالى مخاطباً رسوله فى سورة التوبة : (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) . والعتاب هنا يبدأ بداية حبيبة عجيبة ، إنه يبدأ بالعفو ، ولأمر ما كان أول الآية (عفا الله عنك) أى أن الحكم بالعفو والغفران قد سبق ذكر المعاتبة ، أو بتعبير الناس : إن الصفح قد سبق ذكر الذنب ، وحينما حدثه الله عن موضوع العتاب قال على سبيل الاستفهام أيضاً : (لم أذنت لهم ؟) ، وعتاب يقدم الله تبارك وتعالى بين يديه ذكر العفو الإلهى عتاب له مذاق عذب رائع ، وقد اجتهد الرسول فى الموقف بما لم يسبق عنده حكم فيه ، وهو لا يعلم حقيقة هؤلاء ، فالذى يعلم صدقهم أو كذبهم حق العلم هو العليم الخبير ، ولو سرنا مع الآيات نتلوها لوجدنا أن الله تعالى كأنه يسوغ لرسوله ما فعله ، فهو يقول بعد بضع آيات عن هؤلاء : (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين) .

وقد يسأل سائل : ما الحكمة فى إيراد القرآن لمواقف العتاب بين الله تعالى ورسوله ﷺ ؟ ويلوح لنا — والله أعلم بمراده — أن القرآن الكريم قد أورد آيات العتاب فى القرآن ليشعر الناس بأن قاعدة الحساب والجزاء عامة مطردة ، لا يستثنى منها أحد حتى ولو كان رسول الله ﷺ ، فها هو ذا القرآن يعاتبه ويراجعه ، ونكاد نقول : ويؤاخذه ، وها هو ذا يقرع السمع النبوى الكريم بمثل قوله عز من قائل فى سورة الأنفال . (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم) ومثل قوله فى سورة الأحزاب : (وإذ تقول

للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى عن فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) ومثل قوله فى سورة «عبس» : (عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى ، فأنت له تصدى * وما عليك ألا يزكى * وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهى * كلا إنها تذكرة) .

وهكذا كلما مرت علينا ذكرى من ذكريات محمد ﷺ ، وأقبل علينا موسم من مواسمه الجليلة ، وأردنا له صورة مشرقة مونقة ، يعمرها الصدق والحق ، وعدنا إلى كتاب العربية الأقدس ، وهو القرآن المجيد ، وجدنا فيه هذه الصورة المثالية لرسول الله ، وهى صورة قائمة على عناصرها الخمسة : عنصر التنويه والتشريف ، وعنصر المطالبة والتكليف ، وعنصر المزج بين التشريف والتكليف ، وعنصر التذكير بالبشرية والتجريد من السلطة أمام سلطة الله عز وجل ، وعنصر المعاتبة والمراجعة ، وبهذه العناصر تتضح الملامح الباهرة للشخصية الفريدة المنقطعة النظير ، شخصية محمد ﷺ .

(إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) .

* * *

النبى الأمى

السؤال :

هل صحيح أن سيدنا محمداً ﷺ أمى ؟

الجواب :

يقول الله تعالى فى سورة الأعراف : (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن

المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون * قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) .

والآيتان كما نرى صريحتان فى وصف النبى بالأمى ، وقد قال المفسرون ، إن الأمى منسوب إلى الأمة الأمية التى هى على أصل ولادتها لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها . وقال ابن عباس رضى الله عنه : كان نبيكم ﷺ أمياً لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب ، قال تعالى فى سورة العنكبوت : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) ، وروى أن النبى ﷺ قال : « إننا أمة أمية لا تكتب ولا تحسب » . وقيل : نسب النبى ﷺ إلى مكة أم القرى .

ويقول الله تعالى فى سورة البقرة : (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون) .

وقال القرطبى : إن الأميين من اليهود ، وقيل من اليهود والمنافقين أميون ، أى من لا يكتب ولا يقرأ واحدهم أمى ، منسوب إلى الأمة الأمية التى هى على أصل ولادة أمهاتها ، لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها ، وقيل إنهم أميون لأنهم لم يصدقوا بأم الكتاب ، وقيل إنهم أميون لنزول الكتاب عليهم ، كأنهم نسبوا إلى أم الكتاب ، فكأنهم قيل فيهم ، ومنهم أهل الكتاب لايعلمون الكتاب ، وقيل هم نصارى العرب . وقيل هم قوم من أهل الكتاب رفع كتابهم لذنوب ارتكبوها فصاروا أميين . وقيل : هم المجوس . والقول الأول أظهر . والله أعلم .

ويقول تعالى : فى سورة آل عمران : (فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا) . قال القرطبى ، إن الأميين هنا هم الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب .

وفى سورة آل عمران أيضاً : (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) . قيل إن اليهود كانوا إذا بايعوا المسلمين يقولون : ليس علينا فى الأميين سبيل – أى حرج فى ظلمهم – لمخالفتهم إيانا ، وادعو أن ذلك فى كتابهم ، فأكذبهم الله عز وجل ورد عليهم ، فقال : بلى عليهم سبيل العذاب بكذبهم واستحلالهم أموال العرب . ويقال : إن اليهود كانوا قد استدانوا من الأعراب أموالا ، فلما أسلم أرباب الحقوق قالت اليهود ، ليس لكم علينا شىء ، لأنكم تركتم دينكم ، فسقطت عنا ديونكم ، وادعوا أن هذا حكم التوراة ، فكذبهم الله فى ذلك .

ويقول تعالى فى سورة الجمعة : (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) . قال ابن عباس ، الأميون ، العرب كلهم من كتب منهم ومن لم يكتب ، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب ، وقيل : الأميون ، الذين لا يكتبون ، وكذلك كانت قريش . ويعنى بالرسول محمداً ﷺ ، وما من حى من العرب إلا ولرسول ﷺ فيهم قرابة . وكان النبى أمياً لم يقرأ من كتاب ولم يتعلم ﷺ .

قال الماوردى : فإن قيل : ما وجه الامتنان بأن بعث الله نبياً أمياً ؟ قيل ، الجواب عنه من ثلاثة أوجه : أحدها ، لموافقة ما تقدمت به بشارة الأنبياء . والثانى ، لمشاكلة حاله بأحوالهم فيكون أقرب لموافقتهم . والثالث ، لينتفى عنه سوء الظن فى تعليمه ما دعا إليه من الكتب التى قرأها ، والحكم التى تلاها ، وهذا كله دليل معجزته وصدق نبوته .

والله تبارك وتعالى أعلم .

وصف النبي بالضلال

السؤال :

هل يجوز وصف النبي ﷺ بالضلال ؟ وما معنى قوله تعالى مخاطباً النبي ﷺ فى قوله تعالى : (ووجدك ضالا فهدى) ؟

الجواب :

جاء فى الآية السابقة من سورة الضحى قوله تعالى : (ووجدك ضالا فهدى) . وقد تكلم المفسرون فى معنى هذه الآية ، ففى تفسير ابن كثير : « وقوله : (ووجدك ضالا فهدى) كقوله : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) . ومنهم من قال المراد بهذا أنه عليه السلام ضل فى شعاب مكة وهو صغير ثم رجع . وقيل إنه ضل وهو مع عمه فى طريق الشام ، وكان راكباً ناقة فى الليل ، فجاء إبليس يعدل بها عن الطريق ، فجاء جبريل فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة ، ثم عدل بالراحلة إلى الطريق ، حكاهما البغوى » وفى تفسير القرطبى جاء هذا النص « قوله تعالى : (ووجدك ضالا فهدى) أى غافلا عما يراد بك من أمر النبوة فهداك ، أى أرشدك والضلال هنا بمعنى الغفلة ، كقوله جل ثناؤه : (لا يضل ربى ولا ينسى) أى لا يغفل وقال فى حق نبيه : (وإن كنت من قبله لمن الغافلين) ، وقال قوم : « ضالا » لم تكن تدرى القرآن والشرائع ، فهداك الله إلى القرآن وشرائع الإسلام . . . وهو معنى قوله : (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) . وقال قوم : (ووجدك ضالا) أى فى قوم ضلال فهداهم الله بك . وقيل : (ووجدك ضالا) عن الهجرة فهداك إليها . وقيل : « ضالا » أى ناسياً تعليقك العمل على مشيئة الله .

وقيل : ووجدك طالباً للقبلة فهداك إليها . وقيل : وجدك متحيراً عن بيان ما نزل عليك فهداك إليه . وقيل : ووجدك محباً للهداية فهداك إليها . وقيل : ووجدك ضالا أى لا أحد على دينك وأنت وحيد ليس معك أحد فهديت بك الخلق إلىَّ .

ويرى القرطبى أن هذا القول الأخير أحسن الأقوال .

وفى تفسير القشيرى : عدة أقوال فى تفسير الآية ، ففيه : (ووجدك ضالا فهدى) أى ضللت فى شعاب مكة فهدى إليك عمك أبا طالب فى حال صباك . ويقال : ضالا فينا متحيراً ، فهديناك بنا إلينا . ويقال : ضالا عن تفصيل الشرائع ، فهديناك إليها بأن عرفناك تفصيلها . ويقال : فيما بين الأقوام ضلال فهداهم بك . ويقال : ضالا فى مجتمعنا فهديناك بنور القربة إلينا . ويقال : ضالا عن محبتى لك ، فعرفتك أنى أحبك .

وفى تفسير ظلال القرآن : يقول متحدثاً عن رسول الله ﷺ : « لقد نشأت فى جاهلية مضطربة التصورات والعقائد ، منحرفة السلوك والأوضاع فلم تطمئن روحك إليها ولكنك لم تجد لك طريقاً واضحاً مطمئناً ، لا فيما عند الجاهلية ، ولا فيما عند أتباع موسى وعيسى اللذين حرفوا وبدلوا وانحرفوا وتاهوا ، ثم هداك الله بالأمر الذى أوحى به إليك ، وبالمنهج الذى يصلك به .

والهداية من حيرة العقيدة وضلال الشعاب فيها هى المنة الكبرى ، التى لا تعدلها منة . وهى الراحة والطمأنينة من القلق الذى لا يعدله قلق ، ومن التعب الذى لا يعدله تعب ، ولعلها كانت بسبب مما كان رسول الله ﷺ يعانيه فى هذه الفترة ، من انقطاع الوحى وشماتة المشركين ، ووحشة الحبيب من الحبيب ، فجاءت هذه تذكره وتطمئنه على أن ربه لن يتركه بلا وحى فى التيه ، وهو لم يتركه من قبل فى الحيرة والتيه » .

وقد جاء فى تاج العروس أن الضلال يقال لكل عدول عن الحق عمداً كان أو سهواً ، يسيراً كان أو كثيراً فإن الطريق المستقيم الذى هو المرتضى صعب جداً. ولهذا قال ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا». ولذا صح أن يستعمل لفظة فيمن يكون منه خطأ ما ، ولذلك نسب إلى الأنبياء وإلى الكفار ، وإن كان بين الضلالين بون بعيد ، ألا ترى أنه قال فى النبى ﷺ : (ووجدك ضالا فهدى) ، أى غير مهتد لما سيق إليك من النبوة ، وجاء فى القرآن فى شأن يعقوب عليه السلام : (إنك لفى ضلالك القديم) ، وقال أولاده : (إن أبانا لفى ضلال مبين) إشارة إلى شغفه بيوسف وشوقه إليه ، وقال عن موسى عليه السلام : (قال فعلتها إذن وأنا من الضالين) تنبيهاً أن ذلك منه سهو .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

أهل البصيرة من الصحابة

السؤال :

من أهل البصيرة من الصحابة ؟

الجواب :

« البصيرة » هى نور القلب الذى به يهتدى ويستبصر ، كما أن البصر هو نور العين الذى به ترى وتبصر . وقد تطلق كلمة « البصيرة » على البيان ، والحجة الواضحة ، والعبرة التى يعتبر بها ، والمعرفة واليقين .

وقد قال أهل التفسير : إن البصيرة معناها عقيدة القلب ، أو المعرفة الثابتة باليقين ، أو القوة التى تدرك بها الحقائق العلميه ، وقد جاء فى القرآن

الكريم قوله : (قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ) . أى قد جاءتكم هذه الآيات الجلية بصائر من الحجج العقلية والكونية ، تثبت لكم عقائد الحق اليقينية التى يتوقف عليها نيل السعادة الأبدية .

كما جاء فى القرآن قوله : (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) . وقوله : (هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) وقوله : (ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) .

والعقلاء منذ أقدم العصور يقدمون البصيرة على البصر ، ويقولون : ليست المصيبة فى فقد البصر ، ولكن المصيبة فى فقد البصيرة ، ويقول المثل القديم : « ربما أصاب الأعمى رشده » . ويزكى القرآن ذلك حينما يقول : (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) . ولذلك نجد استعمال كلمة « النظر » بمعنى الرؤية الحسية أكثر عند العامة ، واستعمال هذه الكلمة بمعنى التأمل والمعرفة أكثر عند الخاصة .

وفى سنة ١٩٥٦ قلت فى الجزء الأول من كتاب « فى عالم المكفوفين » هذه العبارة : « نلاحظ أن القرآن لم يرد بالعمى فى أغلب المواطن المكفوف الذى ذهب بصره ، وإنما يريد العمى المعنوى القلبى أو العقلى أو الروحى . ن منظور يقول فى اللسان . يقال فلان أعمى من فلان فى القلب ، ولا يقال : هو أعمى منه فى العين . وقولهم : ما أعماه ، إنما يراد به ما أعمى قلبه ، لأن ذلك ينسب إلى الكثير من الضلال ، ورجل عم ، إذ كان أعمى القلب ، والعمى ذهاب نظر القلب ، وكلما ذكر الله جل وعز العمى فى كتابه فذمه ، يريد عمى القلب » .

وقد يؤكد هذا المعنى أمثال هذه الآيات فى التنزيل المجيد :

(فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها) .

(أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) .

(أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) .

(ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا)

والعرب منذ القدم كانوا يفخرون بالعمى ، وهذا هو شاعر قريش يعدد أسماء الذين أصابهم العمى من أشراف قريش ثم يقول :

وخـــير دائك داء لا تسب بـــه ... ولا تبيت تمنى لـــــــذة الوسن
داء كريم فلا عدوى فتحـــذره ... فالحمد لله ذى الآلاء والمـــنن

وقد تحدث الجاحظ عن ذلك فى كتابه « البرصان والعرجان والعميان والحولان » . وقد أخرجت « دار الاعتصام » هذا الكتاب لأول مرة بتحقيق الأستاذ محمد مرسى الخولى منذ قريب .

ويذكر الجاحظ أيضاً أن العمى الأشراف أكثر من غيرهم ، وفيهم جماعة كانوا يدركون ما لا يدركه أكثر البصراء .

ويهمنا فى مجالنا هنا أن نتعرف إلى طائفة من صحابة رسول الله ﷺ الذين أصيبوا بفقد البصر ، ومع ذلك آزرتهم بصائرهم ، فهيأت لهم المكانة الملحوظة والمنزلة المرموقة ، ولم يستطع العمى أن يحول بينهم ومواصلتهم خطوات العمل والتوفيق فى هذه الحياة .

هذا مثلا هو « العباس بن عبد المطلب » عم النبى ﷺ ، أصيب بالعمى فى حياته ، ومع ذلك ظل علماً من الأعلام ، حتى يذكر ابن حجر فى كتابه

« الإصابة » أن الصحابة كانوا يعترفون للعباس بفضله ، ويشاورونه ويأخذون برأيه .

وكان للعباس براعة فى الجواب ، وتلطف فى الرد على السائل ، فى بيان محكم وتعبير قويم . سأله سائل : أأنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟

فأجابه : إن رسول الله ﷺ أكبر منى ، وأنا ولدت قبله .

وانظر إلى العباس وقد أصاب الناس القحط ، فدعاه عمر ليدعو ربه ، فقام وارتجل هذه الدعوات البليغة العميقة ، قال :

« اللهم إن عندك سحاباً ، وعندك ماء ، فانشر السحاب ، ثم أنزل الماء فيه علينا ، فاشدد به الأصل ، وأطل به الفرع ، وأدر به الضرع . اللهم إنك لم تنزل بلاء إلا بذنب ، ولا تكشفه إلا بتوبة . وقد توجه القوم بى إليك ، فاسقنا الغيث . اللهم اشفعنا فى أنفسنا وأهلينا . اللهم اسقنا سقياً وادعاً نافعاً ، طبقاً مسحاً عاماً [أى مصبوباً شاملا] . اللهم إنا لا نرجو إلا إياك ، ولا ندعو غيرك ، ولا نرغب إلا إليك . اللهم إليك جوع كل جائع ، وعرى كل عار ، وخوف كل خائف ، وضعف كل ضعيف » !

لكأنما كان العباس موصول الأسباب — عن طريق بصيرته — بأسباب ربه ، فاستجاب لدعائه ، وهطل المطر بعد قليل فجعل الناس يقولون عنه إنه : ساقى الحرمين .

* * *

وهذا عبد الله بن عباس : ترجمان القرآن وحبر الأمة ، وأبو الخلفاء وابن عم الرسول ﷺ . لقد فقد بصره ، ولكنه لم يفقد بصيرته ، ولقد قال عمر بن الخطاب — وهو الخبير بالرجال — عن ابن عباس : « ابن عباس فتى

الكهول ، له لسان سئول ، وقلب عقول » . وهذا وصف يدل أوضح الدلالة على ما بلغه ابن عباس من مكانة ومنزلة .

وهذا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة التابعى يقول : « ما رأيت أحداً أعلم من ابن عباس بما سمعه من حديث رسول الله ﷺ ، وبقضاء أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ، ولا أفقه منه ، ولا أعلم بتفسير القرآن ، وبالعربية والشعر والحساب والفرائض ، وكان وكان يجلس يوماً للفقه ، ويوماً للتأويل ، ويوماً للمغازى ، ويوماً للشعر ، ويوماً لأيام العرب ، وما رأيت عالماً قط جلس إليه إلا خضع له ، ولا سائلا سأله إلا وجد عنه علماً » .

ومما يدل على ألمعية ابن عباس ونور بصيرته أن معاوية بن أبى سفيان قال له ذات يوم مستخفاً به :

ما بالكم تصابون فى أبصاركم يا بنى هاشم ؟ .

فلم يلبث عبد الله بن عباس أن رد عليه ذلك الرد الموجع : كما تصابون فى بصائركم يا بنى أمية .

ولم يستطع معاوية أن يقول بعد ذلك شيئاً .

ولقد كان ابن عباس نفسه يعرف أن الله عوض عن بصره خير العوض ولذلك قال :

إن يأخذ الله من عينى نورهما فنى لسانى وسمعى منهما نـــور
قلبى ذكى ، وعقلى غير ذى دخل وفى فمى صارم كالسيف مأثور

ولعل هذه البصيرة قد تألقت فى صدر ابن عباس بسبب دعاء الرسول ﷺ له ، فقد روى الإمام البخارى أن النبى ﷺ ضم ابن عباس إلى صدره وقال : « اللهم علمه الكتاب وعلمه الحكمة » ! .

* * *

ويأتى الصحابى الكفيف الذى غضب الله له ، وأنزل فى شأنه قرآناً ، فى صورة تسمى بوصفه « الأعمى » . ذلك هو عبد الله بن أم مكتوم الذى كان مكفوف البصر ، ومع ذلك سبق إلى الإسلام ، وتحمل المتاعب فى سبيل دينه وربه ، فهاجر من مكة إلى المدينة ، وكان جميل الصوت حلو النبرات ، ولذلك جعله الرسول مؤذناً للصلاة .

وكان قوى الحافظة ، فروى الكثير من الأحاديث ، وأخرجها له أبو داود والنسائى وابن ماجه .

وهو الذى نزل فى شأنه قول الله عز من قائل : (عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تصدى * وما عليك ألا يزكى * وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهى * كلا إنها تذكرة) .

وهذا الموقف الذى تشير إليه هذه الآيات ، يدلنا على قوة الشخصية عند ابن أم مكتوم ، فقد سعى إلى الرسول ، طالباً العلم ، وقاصداً التفقه فى الدين ، يرفع صوته قائلا : يا رسول الله ، أقرئنى وعلمنى مما علمك الله . دون أن يبالى بأشراف مكة الذين كانوا يتحدثون مع النبى ﷺ .

لقد وصفته الأيات بأنه راغب فى التزكى والتذكر ، ووصفته بالسعى والخشية ، ويالها من صفات .

ولقد عاتب الله بسببه رسوله ، ولذلك كان الرسول إذا رأى ابن أم مكتوم يقول له :

« مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى ، ألك حاجة نقضيها ؟ هل تريد من شىء ؟ هل لك حاجة فى شىء ؟ » وكذلك استخلفه الرسول ﷺ على المدينة ثلاث عشرة مرة فى أثناء الغزوات ، كما استخلفه فى حجة الوداع ، وليس

بصحيح ما جاء فى بعض المصادر من أنه استخلفه مرتين فقط ، وقد أشار الإمام النووى إلى ذلك فى كتابه : « تهذيب الأسماء واللغات » .

ومع أن ابن أم مكتوم كان كفيف البصر ، كان معروفاً بشجاعته ـ كما جاء فى كتاب « فدائيون فى تاريخ الإسلام » ـ ولقد ثار فى نفسه شوق عارم إلى المشاركة الفعلية فى النضال داخل ساحة الميدان ، وإن لم يكن ذلك واجباً عليه ، وتهيأت أمامه الفرصة حينما أقبلت معركة « القادسية » ، التى كانت من أهم المعارك الفاصلة بين المسلمين وأعدائهم ، فخرج إليها ، وحمل اللواء فيها وهو أعمى ، وكان يقول : « ادفعوا إلى اللواء ، فإنى أعمى لا أستطيع أن أفر ، وأقيمونى بين الصفين » .

وقاتل المجاهد المكفوف ، مستضيئاً بنور بصيرته ، حتى نال نعمة الشهادة فى المعركة بعد أن أثبت أن المؤمن صاحب البصيرة لا يستسلم لنقص حسى ، بل يناضل ببصيرته حتى يبلغ الكتاب أجله .

* * *

وهذا شاعر الإسلام وشاعر الرسول ﷺ ، وهو حسان بن ثابت ، يصاب بالعمى ، ومع ذلك ظل بنور بصيرته يحسن الدفاع عن النبى ، ويحسن تفنيد ما يزعمه شعراء الشرك من مفتريات وأباطيل ، ويحسن العرض لمحامد الإسلام ومبادئ الدين ، وكان الرسول ﷺ يدرك هذا الجهد العظيم من حسان ، فيقول : « إن الله يؤيد حسان بن ثابت بروح القدس ما نافح عن رسول الله » . ويقول أيضاً لشاعر الإسلام : « جبريل معيتك » . ويقول : « قل وروح القدس يؤيدك » ... إلخ .

وهذا هو « أبو قحافة » والد الخليفة الأول أبو بكر الصديق . كان أبو قحافة مكفوفاً ، ولكن نور بصيرته كان يعينه بالرأى الرشيد والقول

الحميد . ولقد سمع مثلا بموت الرسول ﷺ ، فقال : أمر جلل . وسكت قليلا ، ثم سأل : ومن ولى الأمر بعده ؟

أجابوا : تولاه ابنك أبو بكر .

فعاد يسأل فى اهتمام : فهل رضيت بذلك بنو عبد مناف وبنو المغيرة ؟

قالوا : نعم .

فقال فى اطمئنان : لا مانع لما أعطى الله ، ولا معطى لما منع !

وهذا حوار يدل على ذكاء أبى قحافة ، فهو يريد أن يستوثق لابنه فى منصبه الجديد ، ولذلك عبر العقاد عن هذا الموقف فى كتابه «عبقرية الصديق» بأنه يدل على دهاء ممزوج بالطيبة .

* * *

وهذا هو الصحابى المكفوف : أمية بن الأشكر الكنانى الليثى ، كان من سادات قومه ، وقد كف بصره ، وكان له ولد اسمه « كلاب » خرج – باختياره على ما يظهر – فى عهد عمر بن الخطاب إلى الغزو ، وثار الشوق فى صدر أمية ، وهو كفيف ، فأمر قائده بأن يأخذ بيده إلى المسجد حيث يوجد الخليفة ، فلما صار أمامه أنشده الأبيات التالية :

أعاذل قد عذلت بغير قدر ... وما تدرين عاذل ما ألاقى
فإما كنت عاذلة فردى ... كلاباً إذ توجه للعراق
فتى الفتيان فى عسر ويسر ... شديد الركن فى يوم التلاقى
فلا وأبيك ما باليت وجدى ... ولا شغفى عليك ولا اشتياقى
وإيقادى عليك إذا شتونا ... وضمك تحت نحرى واعتناقى
فلو فلق الفؤاد شديد وجد ... لهم سواد قلبى بانفلاق

سأستعـــــدى على الفاروق ربأ له عمـــد الحجيج إلى « بســـاق »
وأدعو الله محتسباً عليـــــــه ببطن الأخشبين إلى « دفاق »
إن الفاروق لم يـــردد كلاباً على شيخين هامهمــــا زواق

و « بساق » جبل بعرفات . و « دفاق » اسم موضع . والأخشبان : جبلا مكة . والهام والهامة : الطائر الذى كان العرب يزعمون أنه يضيح مطالباً بثأر القتيل ، و « الزواق » الطيور الصائحة .

فلما سمع عمر هذا الشعر بكى ، حيث رأى مكفوفاً يفيض به وجده ، ويشتعل فى صدره شوقه ، ويعبر عن مشاعر بذلك الأسلوب المؤثر العميق ، وأمر بإحضار « كلاب » من الغزو ، وسأله عمر :

ما بلغ من برك بأبيك ؟

فأجاب : كنت أوثره ، وأكفيه أمره ، وكنت إذا أردت أن أحلب له لبناً ، أجيء إلى أغزر ناقة فى إبله ، فأريحها وأتركها حتى تستقر ، ثم أغسل أخلافها حتى تبرد ، ثم أحلب له فأسقيه .

وأرسل عمر إلى « أمية » فحضر ، وجعله الخليفة فى ناحية حتى لا يراه ولده كلاب ، لحاجة فى نفس الخليفة .

ثم قال عمر لأمية : كيف أنت يا أبا كلاب ؟

فأجاب : كما ترى يا أمير المؤمنين ؟

فقال له عمر : هل لك من حاجة ؟

قال : نعم ، كنت أشتهى أن أرى كلاباً فأشمه شمة ، وأضمه ضمة ، قبل أن أموت !

فعاد عمر إلى البكاء وقال : ستبلغ فى هذا ما تحب إن شاء الله تعالى .

ثم أمر عمر كلاباً أن يحلب ناقة لأبيه كما كان يفعل ، وأخذ عمر الإناء وذهب به إلى أمية قائلا : اشرب هذا يا أمية .

فلما تناول أمية إناء اللبن وأدناه من فمه هتف قائلا : والله يا أمير المؤمنين إنى لأشم رائحة يدى كلاب فى الإناء .

وعاد عمر إلى البكاء ، وأمر بإحضار كلاب فأحضروه ، وقال لأمية : هذا كلاب عندك قد جئناك به .

فوثب أمية إلى ولده وجعل يضمه ويقبله ويشمه . وجعل عمر والحاضرون يبكون !

إنا نشهد هنا هذا الإحساس الدقيق من الوالد الكفيف ، حتى عرف رائحة ابنه فى الإناء بمجرد أن تناوله ، وهذا يذكرنا بما كان من أمر يوسف وابنه يعقوب ، حين كف بصر يعقوب حزناً على فراق ابنه ، ولما أرسل يوسف إليه بقميصه أحس يعقوب برائحته قبل أن يخبروه به ، يقول القرآن الكريم على لسان يوسف : (اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً وأتونى بأهلكم أجمعين * ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) إلى آخر الآيات .

* * *

وهذا هو عبد الله بن الأرقم الصحابى ، يكف بصره ، ومع ذلك يظل عزيزاً أبياً ، يهتدى بنورا بصيرته فيعوضه عن نور باصرته ، ولقد أرسل إليه عثمان بثلاثين ألف درهم كعطية ، فرفضها عبد الله ، ولم يقبلها تعففاً وتقوى .

وهذا أبو عبد الرحمن سعيد بن يربوع المخزومى ، الصحابى المكفوف ، كان فيه نور البصيرة ، وكان عنده أدب وذوق ولباقة ، وقد سأله الرسول ﷺ : أينا أكبر أنا أو أنت ؟

فقال : أنت أكبر منى ، وأنا أسن . ولم يقل : « وأنا أسن منك » حتى لا يكون استدراكاً وتفضيلا على النبى ، ولو فى سن ، أو فى اللفظ .

وقد يستطيع بعضنا أن يجيب بمثل ذلك الآن ، لأننا قرأنا مثل هذا أو سمعنا به ، فتعلمنا منه ، وتهذبنا به ، والسابق له الفضل لأنه رائد ومبتكر ، وهذا الجواب السديد قد قيل منذ قرابة ألف وثلثمائة سنة . وقد ذكرنا مثل هذا الجواب من قبل منسوباً إلى العباس بن عبد المطلب ، رضوان الله تعالى على الجميع .

وهذا هو عمير بن عدى الخطمى ، الصحابى المكفوف ، قاتل المرأة الأثيمة اللعينة « عصماء بنت مروان » . فقد كانت هذه المرأة كافرة مشركة لعينة ، كأنها الشيطان ، ولم تكتف بشركها وكفرانها ، بل أخذت تطعن الإسلام ، وتسب الرسول وتؤذيه ، وتحرض على قتله والفتك به ، وتقول فى ذلك شعراً مجرماً .

وغضب عمير بن عدى ، لحرمات الإسلام والرسول والمسلمين ، فسعى إليها على ضوء بصيرته ، حتى قتلها ليلا ، وعاد فصلى الصبح مع النبى ﷺ ، وأخبره بما فعل ، فقال النبى : « لا ينتطح فيها عنزان » . فكانت هذه الكلمة أول ما سمعت من النبى ، ويروى أن الرسول سماه « عمير البصير » .

وكان لعمر بن الخطاب فى الجاهلية جارية مملوكة تسمى « زنيرة » ، ولما أشرقت شمس الإسلام سارعت إلى الدخول فى دين الله ، ولم تبال بمعارضة عمر الذى كان لم يسلم بعد ، وأخذ قومها فى تعذيبها ، ومعهم عمر قبل أن يعلن إسلامه ، حتى فقدت بصرها ، ولكنها احتملت كل ذلك راضية صابرة محتسبة عند الله ما أصابها من ابتلاء وبلاء ، وقالت كلمة دلت على أنها ظلت تستضىء بنور بصيرتها بعد فقد بصرها قالت : « عميت عينى ، وتفتح قلبى » . ويالها من كلمة !

وقد اشترى أبو بكر هذه الجارية وأعتقها لوجه الله تعالى .

سلاماً سلاماً على أولئك الأعلام الذى حرمتهم الأقدار نعمة الإبصار ، وعوضتهم عنها ما هو أجل وأعظم : نور البصيرة ، والبصيرة أبقى وأزكى من نور البصر .

والله تبارك وتعالى أعلم .

ثبات المؤمن

السؤال :

يقال على لسان رسول الله ﷺ واحد مؤمن قوى يستطيع أن ينافس أربعة من الكفار غير المؤمنين .

الجواب :

يقول الله تعالى فى سورة الأنفال : (يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبون ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ۞ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين) . وفى هذه الآيات حث للمسلمين على الثبات فى قتال المشركين حتى يثبت الواحد منهم لأكثر من الواحد ، ويروى أنه لما نزل قوله تعالى : (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) فشق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم ألا يفر واحد من عشرة ، ثم جاء التخفيف فقال تعالى : (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين) . وعن ابن عباس أن الله كتب عليهم أولا ألا يفر عشرون من مائتين ، ثم خفف عنهم ، فلا ينبغى لمائة أن يفروا من مائتين ، فإذا كان عدد المسلمين نصف عدد عدوهم لم ينبغى لهم أن يفروا من عدوهم ، وإذا كانوا دون ذلك لم يجب عليهم قتالهم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

المؤمن والنحلة

السؤال :

هل شبه الرسول ﷺ المؤمن بالنحلة؟ وأين؟ ولم؟

الجواب :

جاء فى كتاب البرهان فى علوم القرآن للإمام الزركشى أن الحكيم الترمذى روى فى « نوادر الأصول » حديثاً جاءت فيه هذه العبارة : « مثل بلال كمثل نحلة غدت تأكل من الحلو والمر ، ثم يصير حلواً كله ». وقد شبهه بالنحلة لأنها تأكل من الثمرات : حلوها وحامضها ، ورطبها ويابسها ، وحارها وباردها ، فتخرج هذا الشفاء ، وليست كغيرها من الطير تقتصر على الحلو فقط لحظ شهوتها ، فلا جرم أعاضها الله الشفاء فيما تلقيه . وهذا كقول « عليكم بألبان البقر ، فإنها ترم من كل الشجر فتأكل ». فبلال رضى الله عنه كان يقصد آيات الرحمة وصفات الجنة ، فأمره أن يقرأ السورة على نحوها كما جاءت ممتزجة ، كما أنزل الله تعالى فإنه أعلم بدواء العباد وحاجتهم ، ولو شاء لصنفها أصنافاً ، كل صنف على حدة ، ولكنه مزجها لتصل القلوب بنظام لا يمل .

وفى «النهاية» لابن الأثير أنه فى حديث ابن عمر «مثل المؤمن مثل النحلة» روى بالحاء المهملة ، يريد نحل العسل ، ووجه المشابهة بينهما حذق النحل وفطنته ، وقلة أذاه وحقارته ومنفعته ، وقنوعه وسعيه فى الليل وتنزهه عن الأقذار وطيب أكله ، وأنه لا يأكل من كسب غيره ، ونحوله وطاعته لأميره ، وأن للنحل آفات تقطعه عن عمله . منها الظلمة والغيم ، والريح والدخان ، والماء والنار ، وكذلك المؤمن له آفات تفتره عن عمله ظلمة الغفلة ، وغيم الشك ، وريح الفتنة ، ودخان الحرام ، وماء السعة ، ونار الهوى .

والله تبارك وتعالى أعلم .

شراء المسلم على شراء أخيه

السؤال :

اتفق بائع ومشتر على أن يبيع الأول للثانى شيئاً بمبلغ ستة آلاف درهم مثلا ، وقبل دفع الثمن حضر مشتر آخر وأراد أن يدفع عشرة آلاف درهم فى الشىء نفسه ، فمن يستحق العشرة آلاف : البائع الأصلى أم المشترى الأول ؟

الجواب :

جاء فى السنة النبوية الكريمة نهى الرسول ﷺ المسلم أن يخطب على خطبة أخيه المسلم ، أو يشترى على شرائه ، وسبب هذا النهى هو المحافظة على الروابط الأخوية التى تربط المسلم بالمسلم ، والحرص على هذه الروابط التى تفسدها المزايدة غير المشروعة ، ويوهنها أن يتطاول القوى على الضعيف ، أو يتزيد الغنى على الفقير . ومن نور هذا الهدى النبوى الكريم نقول إنه ما دام قد تم البيع بين الطرفين ، وكان هناك الإيجاب والقبول فى وضوح وصراحة ، فإنه يحرم على المشترى الثانى أن يتطفل على اتفاقهما بمحاولة الزيادة الكيدية فى السعر ، كما نلاحظ وقوع ذلك كثيراً بين عوام المسلمين.

وبناء على ذلك تكون السلعة للمشترى الأول وليست للبائع الأصلى .

والله تبارك وتعالى أعلم .

شخصيّات

عدد الأنبياء

السؤال :

كم عدد الأنبياء الذين أرسلهم الله تبارك وتعالى ؟

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة النساء : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً • ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً • رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ .

وقد تكلم الإمام ابن كثير عن هذه الآيات وذكر أن الأنبياء الذين نص عليهم القرآن الكريم بالاسم هم : آدم وإدريس ونوح ، وهود وصالح ، وإبراهيم ولوط وإسماعيل ، وإسحاق ويعقوب ، ويوسف وأيوب وشعيب ، وموسى وهارون ويونس ، وداود وسليمان واليسع ، وزكريا ويحيي ، وعيسى ، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين ، وسيدهم محمد ﷺ .

ثم روى ابن كثير طائفة من الأحاديث التى تختلف درجتها قوة وضعفاً ، منها عن أبى ذر :

قلت : يا رسول الله ، كم الأنبياء ؟

قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً .

قلت : يا رسول الله ، كم الرسل منهم ؟

قال : ثلثمائة وثلاثة عشر جم غفير .

قلت : يا رسول الله ، من كان أولهم ؟

قال : آدم .

قلت : يا رسول الله ، نبي مرسل ؟

قال : نعم ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، ثم سواه قبلا .

ثم قال : يا أبا ذر ، أربعة سريانيون : آدم وشيث ونوح وخنوخ وهو إدريس - وهو أول من خط بقلم ؛ وأربعة من العرب : هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر ، وأول نبي من أنبياء بني إسرائيل موسى ، وآخرهم عيسى ، وأول النبيين آدم ، وآخرهم نبيك .

وعن القاسم عن أبي أمامة قال : قلت : يا نبي الله ، كم الأنبياء ؟ . قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً .

وعن أنس قال : « قال رسول الله ﷺ ؛ كان فيمن خلا من إخواني الأنبياء ثمانية آلاف نبي ، ثم كان عيسى بن مريم ، ثم كنت أنا » .

وأورد ابن كثير حديثاً طويلا في عدد الأنبياء عليهم السلام :

عن أبي ذر قال : دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس وحده ، فجلست إليه فقلت : يا رسول الله ، إنك أمرتني بالصلاة . قال : الصلاة خير موضوع ، فاستكثر واستقل .

قلت : يا رسول الله ، فأي الأعمال أفضل ؟

قال : إيمان بالله ، وجهاد في سبيله .

قلت : يا رسول الله ، فأي المؤمنين أفضل ؟

قال : أحسنهم خلقاً .

قلت : يا رسول الله ، فأى المسلمين أسلم ؟

قال : من سلم الناس من لسانه ويده .

قلت : يا رسول الله ، فأى الهجرة أفضل ؟

قال . من هجر السيئات .

قلت : يا رسول الله ، أى الصلاة أفضل ؟

قال : طول القنوت .

قلت : يا رسول الله ، فأى الصيام أفضل ؟

قال : فرض مجزئ ، وعند الله أضعاف كثيرة .

قلت : يا رسول الله ، فأى الجهاد أفضل ؟

قال : من عقر جواده ، وأهريق دمه .

قلت : يا رسول الله ، فأى الرقاب أفضل ؟

قال : أغلاها ثمناً ، وأنفسها عند أهلها .

قلت : يا رسول الله ، فأى الصدقة أفضل ؟

قال : جهد من مقل ، وسر إلى فقير .

قلت : يا رسول الله ، فأى آية ما أنزل عليك أعظم ؟

قال : آية الكرسى .

ثم قال : يا أبا ذر ، وما السموات السبع مع الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسى كفضل الحلقة .

قلت : يا رسول الله ، كم الأنبياء ؟

قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً .

قلت : يا رسول الله ، كم الرسل من ذلك ؟

قال : ثلثمائة وثلاثة عشر جم كثير طيب .

قلت : فمن كان أولهم ؟

قال : آدم .

قلت : أنبي مرسل ؟

قال : نعم ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وسواه قبيلا .

ثم قال : يا أبا ذر ، أربعة سريانيون : آدم وشيث وخنوخ .- وهو إدريس - وهو أول من خط بقلم ، ونوح .

وأربعة من العرب : هود ، وشعيب ، وصالح ، ونبيك يا أبا ذر .

وأول أنبياء بنى إسرائيل موسى ، وآخرهم عيسى .

وأول الرسل آدم ، وآخرهم محمد .

قلت : يا رسول الله ، كم كتاباً أنزل الله ؟

قال : مائة كتاب وأربعة كتب . أنزل الله على شيث خمسين صحيفة ، وعلى خنوخ ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف ، وأنزل على موسى من قبل التوراة عشر صحائف ، والإنجيل والزبور والفرقان .

قلت : يا رسول الله ، ما كانت صحف إبراهيم ؟

قال : كانت كلها : يا أيها الملك المسلط المبتلى المغرور ، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكنى بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم فإنى لا أردها ولو كانت من كافر .

وكان فيها مثال : وعلى العاقل أن يكون له ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفكر فى صنع الله ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب » .

وعلى العاقل ألا يكون ضاغناً [ماثلا] إلا لثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة (إصلاح) لمعاش ، أو لذة فى غير محرم .

وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه ، مقبلا على شأنه ، حافظاً للسانه ، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه .

قلت : يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى ؟

قال : كانت عبراً كلها : عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح ، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب (يتعب) ، وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن إليها ، وعجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم هو لا يعمل.

قلت : يا رسول الله ، فهل فى أيدينا شيء مما كان فى أيدى إبراهيم وموسى ، وما أنزل الله عليك ؟

قال : نعم ، اقرأ يا أبا ذر : (قد أفلح من تزكى ۞ وذكر اسم ربه فصلى ۞ بل تؤثرون الحياة الدنيا ۞ والآخرة خير وأبقى ۞ إن هذا لفى الصحف الأولى ۞ صحف إبراهيم وموسى) .

قلت : يا رسول الله ، فأوصنى .

قال : أوصيك بتقوى الله فإنه رأس أمرك .

قلت : يا رسول الله ، زدنى .

قال : عليك بتلاوة القرآن ، وذكر الله ، فإنه ذكر لك فى السماء ، ونور لك فى الأرض .

قلت : يا رسول الله ، زدنى .

قال : إياك وكثرة الضحك ، فإنه يميت القلب ، ويذهب بنور الوجه

قلت : يا رسول الله ، زدنى .

قال : عليك بالجهاد ، فإنه رهبانية أمتى .

قلت : زدنى .

قال : عليك بالصمت ، إلا من خير ، فإنه مطردة للشيطان ، وعون لك على أمر دينك .

قلت : زدنى .

قال : انظر إلى من هو تحتك ، ولا تنظر إلى من هو فوقك ، فإنه أجدر لك أن لا تزدرى نعمة الله عليك .

قلت : زدنى .

قال : أحبب المساكين وجالسهم ، فإنه أجدر أن لا تزدرى نعمة الله عليك .

قلت : زدنى .

قال : صل قرابتك وإن قطعوك .

قلت : زدنى .

قال : قل الحق وإن كان مراً .

قلت : زدنى .

قال : لا تخف فى الله لومة لائم .

قلت : زدنى .

قال : يردك عن الناس ما تعرف من نفسك ، ولا تجد عليهم [لا تغضب عليهم] فيما تحب ، وكفى بك عيباً أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك ، أو تجد عليهم فيما تحب . .

ثم ضرب الرسول ﷺ بيده صدرى ، فقال : يا أبا ذر ، ، لا عقل كالتدبير ، ولا ورع كالكف ، ولا حسب لحسن الخلق .

وروى الإمام أحمد عن أبى المغيرة ، عن معاذ بن رفاعة ، عن على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة أن أبا ذر سأل النبى ﷺ ، فذكر أمر الصلاة والصيام والصدقة ، وفضل آية الكرسى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله وأفضل الشهداء ، وأفضل الرقاب ، ونبوة آدم ، وأنه مكلم ، وعدد الأنبياء والمرسلين ، كنحو ما تقدم[1] .

والله تبارك وتعالى أعلم .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٢٤ طبعة دار الشعب .

ألواح موسى

السؤال :

ماذا كانت ألواح موسى عليه السلام ؟ وماذا كان فيها ؟

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة الأعراف : (وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين) . وقال فيها أيضا : (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) .

ويقول الإمام ابن كثير إن هذه الألواح كانت من الجوهر ، وإن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاماً مفصلة مبينة للحلال من الحرام ، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التى قال الله فيها : (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون) .

وقيل إن الله تعالى أعطى موسى الألواح قبل التوراة ، فالله أعلم .

وقال قتادة : فى قوله تعالى : (وأخذ الألواح) قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . فاجعلهم أمتى .

قال : تلك أمة أحمد .

قال : يارب إنى أجد فى الألواح أمة هم الآخرون — أى آخرون فى الخلق ، السابقون فى دخول الجنة ، رب اجعلهم أمتى .

قال : تلك أمة أحمد .

قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة أنا جيلهم فى صدورهم يقرءونها — كتابهم — وكان من قبلهم يقرءون كتابهم نظراً ، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ، ولم يعرفوه .

قال قتادة : وإن الله أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئاً لم يعطه أحداً من الأمم .

قال : رب ، اجعلهم أمتى .

قال : تلك أمة أحمد .

قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول ، وبالكتاب الآخر ، ويقاتلون فصول الضلالة ، حتى يقاتلوا الأعور الكذاب ، فاجعلهم أمتى .

قال : تلك أمة أحمد .

قال : رب ، إنى أجد فى الألواح أمة صدقاتها يأكلونها فى بطونها ، ويؤجرون عليها ، وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه ، بعث الله عليها ناراً فأكلتها ، وإن ردت عليه تركت ، فتأكلها السباع والطير وإن الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم ، قال : رب اجعلهم أمتى .

قال : تلك أمة أحمد .

قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ، ثم لم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة ، رب اجعلهم أمتى .

قال : تلك أمة أحمد .

قال : رب ، إنى أجد فى الألواح أمة إذا هم أحدهم بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها ، فإذا عملها كتبت عليه سيئة واحدة ، فاجعلهم أمتى .

قال : تلك أمة أحمد .

قال : رب ، إنى أجد فى الألواح أمة هم المستجيبون والمستجاب ، فاجعلهم أمتى .

قال : تلك أمة أحمد .

قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة هم المشفعون والمشفوع لهم ، فاجعلهم أمتى .

قال : تلك أمة أحمد .

قال قتادة : فذكر لنا أن نبى الله موسى نبذ الألواح . وقال : اللهم اجعلنى من أمة أحمد .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

حُسْن يوسف وبئره وقبره

السؤال :

هل من الصحيح أن جمال يوسف بن يعقوب عليهما السلام كان باهراً رائعاً ، وأن البئر المنسوبة إليه هى التى ألقى فيها ؟ وأين قبره ؟

الجواب :

نبى الله تعالى يوسف هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن عليهم وعلى نبينا محمد صلوات الله وسلامه . وقصته مبسوطة مفصلة فى القرآن الكريم ، ومنها نفهم أن يوسف كان جميلا ، وقد وردت الأحاديث الصحيحة لفضائله ومحاسنه .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ : من أكرم الناس ؟ . قال : أتقاهم . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فأكرم الناس يوسف ابن نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله وخليل الله .

وعن أنس فى حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ قال : ثم عرج بى إلى السماء الثالثة ، ففتح لنا ، فإذا أنا بيوسف ، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن ، فرحب ودعا لى بخير .

وفى كتاب « العرائس » لأبى إسحاق الثعلبى فى قصة يوسف أنه كان أبيض اللون ، حسن الوجه ، ضخم العين ، مستوى الخلق غليظ الساعدين والعضدين والساقين ، خميص البطن . أقنى الأنف ، صغير السرة ، وكان بخده الأيمن خال أسود ، وكان ذلك الخال يزيد وجهه ، وبين عينيه شامة تزيده حسناً .

وقد أقام يعقوب وأولاده — بعد قدومهم على يوسف بمصر — أربعاً أربعاً وعشرين سنة ، بأغبط عيش ، فلما حضرته الوفاة أوصاهم بأن يحمل جسده إلى بيت المقدس ، ويدفن عند أبيه وجده ، فخرج به يوسف وإخوته وعسكره محمولا فى تابوت . وكان عمر يعقوب مائة وسبعاً وأربعين سنة .

وعاش يوسف بعد يعقوب ثلاثاً وعشرين سنة ، وتوفى وهو ابن مائة وعشرية سنة ، ودفن بمصر فى النيل ، ثم حمل موسى فى زمنه إلى الشام حين خرجت بنو إسرائيل من مصر إلى الشام .

ويوجد فى القلعة الموجودة بالقاهرة بئر تسمى « بئر يوسف » والناس يقولون إن هذه البئر هى التى ألقى فيها يوسف ، وقد رأيت بنفسى هذه البئر ، ونزلت إلى قاعها . ولكن ليس هناك خبر يقينى أو متواتر عن أن هذه البئر هى التى ألقى فيها يوسف عليه السلام .

والله تبارك وتعالى أعلم .

النبي دانيال

السؤال :

من هو النبي دانيال ؟ وفى أى عصر عاش ؟

الجواب :

ذكر النووى فى « تهذيب الأسماء واللغات » أن دانيال النبي عليه الصلاة والسلام يقال له « دانيا » بحذف اللام والمشهور هو إثباتها ، وهو ممن آتاه الله عز وجل الحكمة والنبوة ، وكان فى أيام « بخت نصر » . قال أهل التواريخ : أسره بخت نصر مع من أسره من بنى إسرائيل وحبسهم ثم رأى بخت نصر رؤيا أفزعته . وعجز الناس عن تفسيرها ففسرها دانيال . فأعجبه وأكرمه . قالوا : وقبره بنهر السوس والله أعلم .

وقد ذكر الإمام إسماعيل بن كثير أن بخت نصر أحضر أسدين وأبقاهما فى جب . وألقى عليهما دانيال فلم يهيجاه . فمكث ما شاء الله ، ثم اشتهى ما يشتهيه الناس من الطعام والشراب . فأوحى الله إلى أرميا النبي وهو بالشام : أن أعد طعاماً وشراباً لدانيال فقال يارب أنا بالأرض المقدسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق . فأوحى الله إليه أن أعدد ما أمرناك به . فإنا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت . ففعل وأرسل إليه من حمله وحمل ما أعده . حتى وقف على رأس الجب فقال دانيال من هذا ؟ قال أنا أرميا . فقال ما جاء بك ؟ قال أرسلنى إليك ربك .

قال : وقد ذكرنى ربى ؟ قال : نعم .

فقال دانيال : الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره . والحمد لله الذى يجيب من رجاه . والحمد لله الذى من وثق به لم يكله إلى غيره . والحمد لله

الذى يجزى بالإحسان إحساناً ، والحمد لله الذى يجزى بالصبر نجاة ، والحمد لله الذى هو يكشف ضرنا بعد كربنا ، والحمد لله الذى يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا ، والحمد لله الذى هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا .

وعن أبى العالية قال : لما افتتحنا تستر – وهى مدينة فارسية – وجدنا فى مال بيت الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف ، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب ، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية ، فأنا أول رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما اقرأ القرآن هذا .

قيل لأبى العالية ما كان فيه ؟ قال سيركم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد .

قلت : فما صنعتم بالرجل ؟

قال : حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة ، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس فلا ينبشونه .

قيل : فما يرجون منه ؟

قال : كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريرة فينفرون .

قيل : من كنتم تظنون الرجل ؟

قال : رجل يقال له دانيال .

قيل : منذ كم وجدتموه قد مات ؟ قال : منذ ثلثمائة سنة .

قيل : فما تغير منه شىء ؟ قال : إلا شعيرات من قفاه . إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع .

قال ابن كثير . وإسناد هذا الحديث صحيح إلى أبي العالية ، ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظاً من ثلثمائة سنة فليس بنبي هو رجل صالح ، لأن عيسى بن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ – بنص الحديث الذى فى البخارى – والفترة التى كانت بينهما أربعمائة سنة ، وقيل : ستمائة ، وقيل ستمائة وعشرون سنة . وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانى مائة ستة ، وهو قريب من وقت دانيال ، إن كان كونه دانيال هو المطابق لما فى نفس الأمر ، فإنه قد يكون رجلا آخر إما من الأنبياء أو الصالحين ، ولكن قربت الظنون أنه دانيال ، لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس ، فأقام عنده مسجوناً كما تقدم .

وعن عنبسة بن سعيد – وكان عالماً – قال : وجد أبو موسى مع دانيال مصحفاً وجرة فيها ودك [سمن] ودراهم وخاتمه . فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر ، فكتب إليه عمر : أما المصحف فابعث بنا إليه ، وأما الودك فابعث إلينا منه ، ومر من قبلك من المسلمين يستشفون به ، واقسم الدراهم بينهم ، وأما الخاتم فقد نفلناكه [منحناك إياه] .

وروى ابن أبي الدنيا من غير وجه : أن أبا موسى لما وجده وذكروا له أنه دانيال ، التزمه وعانقه وقبله ، وكتب إلى عمر يذكر له أمره ، وأنه وجد عنده مالا موضوعاً ، قريباً من عشرة آلاف درهم ، وكان من جاء اقترض منها ، فإن ردها وإلا مرض ، وكان عنده صندوق ، فأمر عمر أن يغسل بماء وسدر ويكفن ويدفن ، ويخفى قبره فلا يعلم به أحد ، وأمر بالمال أن يرد إلى بيت المال ، وبالصندوق فيحمل إليه ، ومنحه خاتمه .

وعن أبي الزناد قال : رأيت فى يد ابن أبي بردة بن أبي موسى الأشعرى خاتماً نقش فصه أسدان بينهما رجل يلمسان ذلك الرجل .

قال أبو بردة : وهذا خاتم ذلك الرجل الميت الذى يزعم أهل هذه البلدة أنه دانيال أخذه أبو موسى يوم دفنه .

قال أبو بردة : فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم ، فقالوا :

إن الملك الذى كان دانيال فى سلطانه جاءه المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له : إنه يولد كذا وكذا غلام يعود (أى يذهب ويتلف) ملكك ويفسده .

فقال الملك : والله لا يبقى تلك الليلة غلام إلا قتلته .

إلا أنهم أخذوا دانيال فألقوه فى أجمة الأسد ، فبات الأسد ولبؤته يلحسانه ولم يضراه ، فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه ، فنجاه الله بذلك حتى بلغ ما بلغ .

قال أبو بردة : قال أبو موسى : قال علماء تلك القرية : فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه فى فص خاتمه لئلا ينسى نعمة الله عليه فى ذلك .

وعن أبى الأشعث الأحمرى قال : قال رسول الله ﷺ : إن دانيال دعا ربه عز وجل أن تدفنه أمة محمد ، فلما افتتح أبو موسى الأشعرى تستر وجده فى تابوت تضرب عروقه ووريده ، وقد كان رسول الله ﷺ قال : من دل على دانيال فبشروه بالجنة . فكان الذى دل عليه رجل يقال له حرقوص ، فكتب أبو موسى إلى عمر يخبره . فكتب إليه عمر أن ادفنه وابعث إلى حرقوص فإن النبى ﷺ بشره بالجنة .

قال ابن كثير عن هذا الخبر : « وهذا مرسل من هذا الوجه . وفى كونه محفوظاً نظر . والله أعلم » . كما أن الله أعلم بحقيقة ما ذكره ابن كثير فيما

أوردناه عن النبي دانيال . وتستر أعظم مدينة فى خوزستان ، وهى معربة عن كلمة شوشتر ، ومعناها الطيب اللطيف ، وأعظم ما فى خوزستان من أنهار نهر تستر ، وهى على مكان مرتفع من الأرض ويوجد فى تستر قبر البراء بن مالك الأنصارى ، وبعضهم يجعلها من البصيرة ويروى أن عمر بن الخطاب جعلها من أرض البصرة لقربها منها ، ومنها سهل التسترى شيخ الصوفية وصحب ذا النون المصرى وكانت له كرامات كما فى المعجم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

قوم تُبَّع

السؤال :

من هم قوم تبع ؟ وأين كانوا ؟

الجواب :

يقول الأصفهانى تبع : كانوا رؤساء ، سموا بذلك لاتباع بعضهم بعضاً فى الرياسة والسياسة ، وقيل : تبع ملك يتبعه قومه ، والجمع التبابعة .

وقد أشار إليهم القرآن الكريم فى سورة الدخان فقال : (أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين) . وقال فى سورة ق : (وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد) .

وينسبون إلى تبع الحميرى ملك اليمن الذى جيش الجيوش ، وفتح المدائن وكان مؤمناً وقومه كافرون .

و « تبع » هو لقب الملك الأكبر من ملوك الدولة الحميرية الثانية فى بلاد اليمن – كما فى كتاب الأعلام – وهو حسان بن أسعد أبى كرب الحميرى من أعاظم تبابعة اليمن فى الجاهلية ، ولعله أكثرهم غارات وأظفرهم كتائب .

روى أنه سار بجيش عرمرم حتى انتهى إلى سمرقند غازياً ، وكلما دخل بلداً اختار من حكمائها وعقلائها عدداً لا يقل عن العشرة ، فاستصحبهم معه . ثم قصد بلاد الشام ، وامتلك دمشق ، وأخذ منها كهنة وأحباراً ، وعاد يريد اليمن ، فمر بمكة ، وكسا الكعبة ، ويقال إنه أول من فعل ذلك ، ولما بلغ اليمن صارح أهلها بكراهيته للأوثان ، وقاوم الوثنية ، واتخذ من مدينتى مأرب وظفار سكناً له ، وجعل الأولى . للشتاء والثانية للصيف .

وثار عليه جماعة من قومه فقتلوه . ويظن أن عصره كان فى القرن العاشر قبل الهجرة .

وقد تحدث الإمام ابن كثير عن قوم تبع فى تفسيره لسورة الدخان عند قوله تبارك وتعالى فيها : (أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا قوماً مجرمين) .

فذكر أن قوم تبع هم أهل سبأ ، وقد أهلكهم الله وخرب ديارهم ، وشردهم فى البلاد ، وكانت حمير وهم سبأ كلما ملك فيهم رجل سموه تبعاً ، واتفق أن بعض تبابعتهم خرج من اليمن وسار فى البلاد حتى وصل سمرقند . واشتد ملكه وعظم سلطانه ، واتسعت مملكته وبلاده ، وكثرت رعاياه ، وهو الذى مصر الحيرة ، فاتفق أنه مر بالمدينة المنورة ، وذلك فى أيام الجاهلية ، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتلوه بالنهار ، وجعلوا يكرمونه بالليل ، فاستحيا منهم وكف عنهم ، واستصحب معه حبرين من أحبار اليهود كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه المدينة ، لأنها دار هجرة نبي يكون فى آخر

الزمان ، فرجع عنها وأخذ الحبرين معه إلى اليمن ، ولما اجتاز بمكة أراد أن يهدم الكعبة فنهياه فانتهى .

وملك تبع هذا دمشق ، وكان إذا استعرض الخيل صفت له من دمشق إلى اليمن . .

وقد أسلم تبع هذا وأسلم قومه على يديه ، وقد كسا الكعبة وعظمها .

وكانت عائشة تقول : لا تسبوا تبعاً فإنه قد كان رجلا صالحاً . وعن عطاء بن أبي رباح : لا تسبوا تبعاً فإن رسول الله ﷺ نهى عن سبه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

هود وقومه

السؤال :

لمن أرسل الله نبيه هوداً ؟ وما دعوته ؟ وأين عاش قومه ؟ وما خلاصة قصته معهم ؟ وأين دفن هود ؟

الجواب :

أرسل الله تعالى نبيه هوداً عليه السلام إلى قومه ، وهم « عاد الأولى » ، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله جل جلاله ، وهم أولاد عاد بن إرم الذين قال عنهم القرآن الكريم فى سورة الفجر . (ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد) .

وكان قوم هود يسكنون باليمن بالأحقاف ، وهى جبال الرمل .

ويقول صاحب كتاب «قصص الأنبياء» : كانت مساكن عاد فى أرض الأحقاف ، وهى تقع فى شمال حضرموت ، وفى شمالها الربع الخالى ، وفى شرقها عمان ، وموضع بلادهم اليوم رمال ليس بها أنيس ، بعد ذلك العمران والنعيم المقيم ، ولم يتعرض أحد من الأوربيين الباحثين والمنقبين إلى الكشف عن بلادهم . والتنقيب فى أرضهم . ولعل تحت الرمال من الثروة العلمية ما لو كشف لكان عظيم القيمة فى عالم الآثار ، وأبان عن مدينة عظيمة مطمورة تحت تلك الكثبان .

وقد قام جماعة إلى إحدى المدن البائدة فى شمال حضرموت ونقب فيها ، وعثر على بعض الآنية من المرمر عليها كتابة بالخط المسمارى .

وعن أبى الطفيل عامر بن واثلة : سمعت على بن أبى طالب يقول لرجل من حضرموت : هل رأيت كثيباً أحمر تخالطه مدرة حمراء . [والمدرة طين لا رمل فيه] ذا أراك وسدر [وهما نبتان] كثير . بناحية كذا وكذا ، من أرض حضرموت هل رأيته ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، والله إنك لتنعته نعت رجل قد رآه .

قال : لا ولكنه قد حدثت عنه . فقال الحضرمى : وما شأنه يا أمير المؤمنين ؟ . قال : فيه قبر هود عليه السلام .

قال بن جرير : وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن ، وأن هوداً عليه السلام دفن هناك ، وقد كان من أشرف قومه نسباً ، لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم . ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم . وكانوا من أشد الأمم تكذيباً للحق ، ولهذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى طاعته وتقواه .

وروى بن إسحاق أن قوم هود كانوا يعبدون صنماً يقال له « صداء » ، ويعبدون صنماً يقال له « صمود » . ويعبدون صنماً يقال له : « الهباء » .

وكانوا – كما يذكر ابن إسحاق – يسكنون باليمن من عمان وحضرموت ، وكانوا مع ذلك قد فشوا فى الأرض ، وقهروا أهلها ، بفضل قوتهم التى أتاهم الله ، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله ، فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام ، وهو من أوسطهم نسباً ، وأفضلهم موضعاً ،فأمرهم أن يوحدوا الله ، ولا يجعلوا معه إلهاً غيره ، وأن يكفوا عن ظلم الناس ، فأبوا عليه وكذبوه ، وقالوا : من أشد منا قوة ؟ واتبعه منهم ناس ، وهم يسير يكتمون إيمانهم . فلما عتت عاد على الله ، وكذبوا نبيه ، وأكثروا فى الأرض الفساد ، وتجبروا ، وبنوا بكل ريع آية عبثاً بغير نفع ، كلمهم هود فقال : أتبنون بكل ريع [مكان مرتفع] آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله وأطيعون .

قالوا له : ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ، إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء .

قال : أشهد الله وأشهدوا أنى برىء مما تشركون ، من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون ، إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم » .

ولقد أوجز القرآن الكريم قصة هود مع قومه بقوله فى سورة الأعراف : (وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون * قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين * قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين * أوعجبتم أن جاءكم ذكر من

ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون * قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين * فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين) .

وقد تحدث القرآن المجيد عن قصة هود وقومه عاد فى سور : هود ، والمؤمنون ، والشعراء ، وفصلت ، والأحقاف ، والذاريات ، والقمر ، والحاقة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

أَصحاب الأَيْكَة

السؤال :

من أصحاب الأيكة ؟ وأين كانوا ؟ ومن نبيهم عليه السلام ؟

الجواب :

ذكر القرآن الكريم أصحاب الأيكة فى أربعة مواطن ، فقال فى سورة الحجر : (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين * فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين) وقال فى سورة الشعراء : (كذب أصحاب لأيكة المرسلين * إذ قال هم شعيب ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أوفوا الكيل ولا تكونوا من

المخسرين * وزنوا بالقسطاس المستقيم * ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين * واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين * قالوا إنما أنت من المسحرين * وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين * فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين * قال ربى أعلم بما تعملون * فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) . وفى سورة «ص» : (كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد * وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب * إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب) . وفى سورة « ق » : (كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود * وعاد وفرعون وإخوان لوط * وأصحاب الأيكة وقوم تبع ، كل كذب الرسل فحق وعيد) .

وفى مفردات القرآن للأصبهانى : الأيك شجر ملتف وأصحاب الأيكة قيل : نسبوا إلى غيضة كانوا يسكنونها ، وقيل هى اسم بلد .

وقد جاء فى معجم البلدان لياقوت : يقال إن أصحاب الأيكة الذين بعث إليهم شعيب عليه السلام ، كانوا فى « تبوك » ، ولم يكن شعيب منهم وإنما كان من مدين ، ومدين على بحر القلزم ، على ست مراحل من تبوك .

وفى مادة الأيكة من معجم البلدان لياقوت جاءت هذه العبارة : الأيكة التى جاء ذكرها فى كتاب الله عز وجل : (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) . قيل : هى تبوك التى غزاها النبى ﷺ آخر غزواته ، وأهل تبوك يقولون ذلك ويعرفونه ، ويقولون إن شعيباً عليه السلام أرسل إلى أهل تبوك ولم أجد هذا فى كتب التفسير بل يقولون : الأيكة الغيضة الملتفة الأشجار والجمع أيك ، وإن المراد بأصحاب الأيكة أهل مدين .

قلت : ومدين وتبوك متجاورتان .

وكذلك جاء فى المجلد الخامس من معجم البلدان « مدين بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الياء المثناة من تحت وآخره نون ، قال أبو زيد مدين على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو من ست مراحل وهى أكبر من تبوك . وبها البئر التى استقى منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب . قال : ورأيت هذه البئر مغطاة قد بنى عليها بيت وماء أهلها من عين تجرى ومدين اسم القبيلة وهى فى الإقليم الثالث ، طولها إحدى وستون درجة وثلث ، وعرضها تسع وعشرون درجة ، وهى مدينة قوم شعيب ، سميت بمدين بن إبراهيم عليه السلام .

وقد جاء فى كتاب « قصص الأنبياء » للشيخ عبد الوهاب النجار أنه بعد أن فرغ الله تعالى من أهل مدين ، ونجى شعيباً والذين آمنوا معه . أرسله إلى أصحاب الأيكة . وهى غيضة تنبت ناعم الشجر . كانت بقرب مدين تسكنها طائفة من عباد الله . قيل : كانوا بادية مدين ، وكان شعيب أجنبياً منهم ، وكانوا على مثل طريقة أهل مدين . فلما نهاهم عما هم فيه قالوا : (إنما أنت من المسحرين * وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين) ظناً منهم أن الله لا يرسل إلى البشر هداة منهم . جهلا منهم بأن الله أعلم حيث يجعل رسالته .

وكان من شدة حماقتهم أن يطلبوا إلى شعيب . أن يسقط عليهم كسفاً من السماء [أى قطعاً منها] إن كان من الصادقين . ولشدة جهلهم لم يطلبوا الهداية إلى الحق ، فأخذهم عذاب يوم الظلة بأن سلط الله عليهم الحر سبعة أيام حتى غلت مياههم ، ثم ساق إليهم غمامة فاجتمعوا للاستظلال بها من وهج الشمس ، فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا ، وإلى ذلك الإشارة فى قوله تعالى : (إنه كان عذاب يوم عظيم) .

وقد جاء فى تفسير ابن كثير عند تفسير قوله تعالى فى سورة الحجر : (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين * فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين) . هم قوم شعيب ، والأيكة هى الشجر الملتف . وقد كان ظلمهم بشركهم بالله تعالى . وقطعهم الطريق ، ونقصهم المكيال والميزان فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة ، وقد كانوا قريباً من قوم لوط ، بعدهم فى الزمان ، ومسامتين لهم فى الأرض ، ولهذا قال تعالى : (وإنهما لبإمام مبين) أى بطريق مبين .

وعند تفسير قوله تعالى : (كذب أصحاب لأيكة المرسلين) قال تفسير ابن كثير : أصحاب الأيكة هؤلاء هم أهل مدين على الصحيح . وكان نبى الله شعيب من أنفسهم . وإنما لم يقل ها هنا أخوهم شعيب لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة . وهى شجرة ، وقيل : شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها . فلهذا لما قال : كذب أصحاب الأيكة المرسلين . لم يقل : إذ قال لهم أخوهم الذى نسبوا إليه . وإن كان أخاهم نسباً ، ومن الناس من لم يتفطن لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين . فزعم أن شعيباً بعثه الله إلى أمتين . ومنهم من قال ثلاث أمم .

وعن رسول الله ﷺ قال : إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان . بعث الله إليهما شعيباً النبى عليه السلام .

وعلق ابن كثير بقوله : وهذا غريب وفى رفعه نظر والأشبه أن يكون موقوفاً والصحيح أنهم أمة واحدة وصفوا فى كل مقام بشىء . ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان . كما فى قصة مدين سواء بسواء ، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة .

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم فى ثلاثة مواطن ، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ففى سورة الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ، وذلك لأنهم قالوا : (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا) فأرجفوا بنبى الله ومن اتبعه ، فأخذتهم الرجفة . والإرجاف إيقاع الرجفة وهى الزلزلة إما بالقول وإما بالفعل ، ويقال : أرجفوا فى الشىء إذا خاضوا فيه وفى سورة الحجر : قال : (فأخذتهم الصيحة مشرقين) ، وذلك لأنهم استهزئوا بنبى الله فى قولهم : على سبيل التهكم والازدراء فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم .

وفى الشعراء قال : (فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين) على وجه التعنت والعناد ، فناسب أن يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه : (فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) .

قال ابن عمر : إن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلهم منه شىء ، ثم إن الله تعالى أنشأ لهم سحابة فانطلق إليها أحدهم واستظل بها ، فأصاب تحتها برداً وراحة ، فأعلم بذلك قومه ، فأتوها جميعاً فاستظلوا تحتها ، فأججت عليهم ناراً .

وعن ابن أسلم بعث الله إليهم الظلة حتى إذا اجتمعوا كلهم كشف الله عنهم الظلة ، وأحمى عليهم الشمس فاحترقوا كما يحترق الجراد فى المقلى .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الرازى

السؤال :

هل هناك شخص آخر يلقب بالرازى غير المفسر المشهور فخر الدين الرازى ؟

الجواب :

لقب « الرازى » نسبة إلى مدينة « الرى » ، وهى مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن ، كثيرة الفواكه والخيرات ، بينها وبين مدينة قزوين سبعة وعشرون فرسخاً ، وينسب إليها كثير من أعلام العربية والإسلام ، وكل منهم يقال له « الرازى » نسبة إلى هذه المدينة العظيمة « الرى » .

إلى « الرى » ينسب الإمام المفسر أوحد زمانه فى المعقول والمنقول ، وإمام الدنيا فى عصره أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمى البكرى الرازى ، وهو قرشى النسب ، أصله من طبرستان ، وولد فى الرى ، ويقال له : ابن خطيب الرى ، ورحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان .

وكان شاعراً وواعظاً بارعاً بالعربية والفارسية . وهو أحد الفقهاء الشافعية المشهورين بالتصانيف الكبار والصغار ، نحو مائتى مصنف ، منها التفسير الحافل الذى يسمى « تفسير مفاتيح الغيب » فى ثمانية مجلدات ، وشرح الأسماء الحسنى . وأسرار التوحيد ، وشرح سقط الزند للمعرى ، ونهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز . ومناقب الإمام الشافعى .

ومن شعره قوله :

إليك إله الخلق وجهى ووجهتى ... وأنت الذى أدعوه فى السر والجهر

وأنت غياثى عنـد كل ملمـة ... وأنت ملاذى فى حياتى وفى قبرى

وقوله :

تتمة أبواب السعادة للخلق ... بذكر جلال الواحد الأحد الحق
مدبر كل الكائنات بأسرها ... ومبدعها بالعدل والقصد والصدق
أجل جلال الله عن شبه خلقه ... وانصر هذا الدين فى الغرب والشرق
إله عظيم الفضل والعدل والعلى ... هو المرشد المغوى هو المسعد المشقى

وكان معظماً عند ملوك خوارزم ، وكان ثرياً يملك الكثير .

توفى فى بلدة « هراة » سنة ست وستمائة للهجرة .

وإلى « الرى » ينسب الإمام أبو بكر محمد بن زكرياء الرازى الحكيم ، صاحب الكتب المصنفة ، ومنها كتاب « المنصورى » فى الطب ، وهو المسمى بالكناشة .

مات بالرى بعد منصرفه من بغداد سنة إحدى عشرة وثلثمائة .

وإلى « الرى » ينسب الإمام الحافظ الشيخ زين الدين محمد بن أبى بكر ابن عبد القادر بن عبد المحسن الرازى الحنفى ، أصله من الرى ، وكان ثقة مأموناً ، وقد صنف فى التفسير والفقه واللغة والوعظ . له كتاب « الذهب الإبريز فى تفسير الكتاب العزيز ، وكتاب مختار الصحاح فى اللغة ، وشرح المقامات الحريرية ، وكتاب أسئلة وأجوبة من غرائب آى التنزيل ، وحدائق الحقائق فى الوعظ .

زار مصر والشام . وتوفى فى قونية سنة ست وستين وستمائة .

وإلى « الرى » ينسب أبو حاتم محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران الحنظلى الرازى . حافظ للحديث من أقران البخارى ومسلم ، ولد فى

الري وإليها نسبته . تنقل فى العراق والشام ومصر وبلاد الروم . ومن كتبه : كتاب طبقات التابعين ، وكتاب الزينة .

توفى فى بغداد سنة سبع وسبعين ومائتين .

وإلى « الري » ينسب أبو جعفر محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز الرازى الحنفى ، شيخ الحنفية ومدرسهم بالموصل .

أصله من الري ، تردد إلى إربل ، واشتهر .

له كتب منها : كتاب الفرائض ، وكتاب الفقه ، وكتاب النورى فى مختصر القدورى ، وله كتاب على نسق التذكرة لابن حمدون .

توفى بالموصل سنة خمس عشرة وستمائة .

وإلى « الري » ينسب أبو زرعة أحمد بن الحسين بن على بن إبراهيم بن الحكم بن عبد الله الحافظ الرازى . قدم دمشق سنة سبع وأربعين وثلثمائة ، وسمع بها . وروى عنه كثيرون .

فقد بطريق مكة سنة خمس وسبعين وثلثمائة .

وإلى « الري » ينسب محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن الجنيد ، أبو الحسن الرازى . سمع ببلده وغيره . وأقام بدمشق وصنف . وكان حافظاً ثقة مكثراً .

ومات سنة سبع وأربعين وثلثمائة .

وهو والد تمام بن محمد الحافظ . ولد بدمشق . وسمع بها من أبيه ومن خلق كثير . وروى عنه خلق . وكان عالماً بالحديث ومعرفة الرجال ، وكان ثقة مأموناً حافظاً . وتوفى سنة أربع عشرة وأربعمائة .

وإلى « الرى » ينسب أبو سعد إسماعيل بن على بن الحسن بن محمد بن زنجويه الرازى ، المعروف بالسمان الحافظ . كان من المكثرين الجوالين . سمع من نحو أربعة آلاف شيخ . وكان معتزلياً ، وصنف كتباً كثيرة ، ولم يتأهل قط ، وكان فيه دين وورع .

مات فى الرابع والعشرين من شعبان سنة خمس وأربعين وأربعمائة .

وإلى « الرى » ينسب عبد الرحمن بن محمد بن إدريس أبو محمد بن أبى حاتم الرازى ، أحد الحفاظ . صنف كتاب « الجرح والتعديل » فأكثر فائدته .

ورحل فى طلب العلم والحديث ، فسمع بالعراق ومصر ودمشق ، وسمع من طائفة ، وروى عنه جماعة أخرى كثيرة .

صنف التصانيف المشهورة فى الفقه والتواريخ ، واختلاف الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار .

ولد سنة أربعين ومائتين . ومات سنة سبع وعشرين وثلثمائة .

وإلى « الرى » ينسب محمد بن عمر بن هشام ، أبو بكر الرازى ، الحافظ المعروف بالقماطرى . سمع وروى وجمع .

سكن « مرو » ومات بها سنة نيف وتسعين ومائتين .

هؤلاء هم الذين عرفت أنهم ينسبون إلى « الرى » ، فكل واحد منهم يقال له : « الرازى » ، وغيرهم كثير .

والله تبارك وتعالى أعلم .

عشاق الحرية

السؤال :

هل يتفضل الأستاذ ويوضح لنا معنى عشاق الحرية ؟

الجواب :

« العشق » هو إفراط الحب ، أو هو إعجاب المحب بمحبوبته ، وقيل إن العشق هو عمى الحس عن إدراك عيوب المحبوب ، وقد نسبوا هذا القول إلى أرسطاطاليس . وقال ابن الجوزى إن العشق هو شدة ميل النفس إلى صور تلائم طبعها .

ويذكر الزبيدى فى « تاج العروس » أن الرئيس ابن سينا له رسالة فى « العشق » ، بسط فيها معناه ، وأنه لا يختص بنوع الإنسان ، بل هو سار فى جميع الموجودات من الفلكيات والعنصريات والنباتات والمعدنيات والحيوانات ، وأنه لا يدرك معناه ، والتعبير عنه يزيده خفاء .

وقد تحدث ابن الجوزى فى كتابه « ذم الهوى » فأطال الحديث عن أنواع العشق ، وإن كان قد غلب عليه التعرض لأنواع العشق المذمومة .

و « الحرية » هى ملك الإنسان أمر نفسه ، وهى ضد العبودية ، ورضوان الله تعالى على أمير الشعر « شوقى » حين تغنى بالحرية ، فقال فى كتابه « أسواق الذهب » هذه العبارة فيما قال : « الحرية وما هيه ؟ الحمراء الغالية ، فتنة القرون الخالية ، وطلبة النفوس العالية ، غذاء الطبائع ، ومادة الشرائع ، وأم الوسائل والذرائع ؛ بنت العلم إذا عم ، والخلق إذا تم ، وربيبة الصبر الجميل والعمل الجم ؛ الجهل يئدها ، والصغائر تفسدها ، والفرقة تبعدها .

تكبيرة الوجود فى أذن المولود ، وتحية الدنيا له إذا وصل ، وصيحة الحياة به إذا نصل ؛ هاتف من السماء يقول له : يا ابن آدم ، حسبك من الأسماء : عبد الله ، وسيد العالم » .

والحرية أنواع ، فهناك حرية الوطن ، وحرية الاعتقاد والتدين ، وحرية التفكير والعلم ، وحرية الرأى فى أمور السياسة أو المجتمع ، إلى غير ذلك من حريات . . .

والحرية أول ميراث يرثه الإنسان عن ربه عز وجل ، لأن الخالق تبارك وتعالى يبرأ الإنسان حراً معصوم الذات والدم ومن هنا قال عمر بن الخطاب لمن أراد أن يستطيل على حرمة الناس : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » . وقال على بن أبى طالب يعظ ابنه : « لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً » .

وقرر البارئ سبحانه حرية الاعتقاد للإنسان ، فقال : (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) . وحرية البحث عن الحقيقة ، فقال رسول الله ﷺ : « من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر » .

وحث القرآن على تطلب الحرية ، حتى ولو تعب الإنسان فى سبيلها ، أو كافح من أجلها ، ولو أدى ذلك إلى الهجرة والضرب فى أرجاء الأرض ، فراراً من الذل وبحثاً عن الحرية والعزة ، فقال : (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض . قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ٭ إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ٭ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفواً غفوراً) .

وقال منفراً من الاستنامة للذلة : (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) :

وقد نبهنا الشعر إلى أن الحرية لها ثمنها الغالى وتبعتها الجليلة فقال شوقى :

وللحــرية الحمــراء باب   بكل يــد مضرجة يــدق

وقال الأول فى نحو هذا :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يــراق على جوانبه الدم

* * *

وليست الحرية انطلاقاً بلا حد ، أو انعتاقاً من كل قيد ، فإن الحرية المطلقة وهم واهم ، أوأضغاث حالم ، والحر هو الذى يضع نفسه بنفسه داخل الحدود أو القيود التى يؤمن بوجوبها ، لتكون حريته حرية عاقلة فاضلة ، ويعجبنى فى هذا المجال بيتان للدكتور عبد الوهاب عزام يقول فيهما :

قيــد الحر نفسه بهـــداه   وأبى فى الحياة قيــد سواه

وترى العبد راضياً كل قيد   غير تقييـــد عن هـــواه

وكأن أمير الشعراء يشير إلى مثل هذا حين دعا لأبناء وطنه ، فكان مما قال : « فاطبع اللهم كنانتك على هذا الغرار ، وأعدها — كما بدأتها — محلة الأبرار ، واجعل أبناءها أحراراً ، ولا تجعلهم أنصاف أحرار . ربنا وأنزلهم على أحكام العقول وقضايا الأخلاق ، ولا تخلهم من العواطف وإن كن عواصف ، ولا تكلهم للأهواء ، فإنها هواء » .

ولذلك لا يصعب علينا أن نعد من عشق الحرية العاقلة الفاضلة تلك الصورة المضيئة التى يعرضها علينا القرآن لما يمكن أن نسميه « حرية الفضيلة من عبودية الشهوة » وهى الحرية التى تجلت فى شخصية يوسف العفيف

الأمين ، فذلك حيث يقول القرآن : (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب ، وقالت : هيت لك . قال : معاذ الله ، إنه ربى أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون * ولقد همت به وهم بها ، لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين).

ومن هنا قال عبد الله بن عباس : « من أحب فعف فكتم فمات مات وهو شهيد » . وكثير من الناس يحسبون أن هذا القول حديث نبوى ، وليس ذلك بصحيح ، وإنما هو من كلام ابن عباس ، وإن كان معناه مقبولا .

* * *

ويعرض علينا القرآن الحكيم نماذج من عشاق الحرية تحدثت عنهم بتوسع فى كتاب « الفداء فى الإسلام » ، ومن هؤلاء قوم عشقوا الحرية فى الاعتقاد، وهم « سحرة فرعون » الذين استدعاهم ليردوا على معجزة موسى الإلهية ، حين ألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين .

وبدأ الصراع بين محاولة المخلوق العاجز ، وقدرة الخالق المسيطر ، فألقى السحرة حبالهم وعصيهم ، وقالوا — من اغترارهم بفرعون ، وانخداعهم بسلطانه — : بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . ولكن موسى ألقى عصاه بوحى من الله ، فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق ، وبطل ما كانوا يعملون .

وانتصر موسى ، واندحر سحر الساحرين ، وسطع ضوء الحق ، وامحى تمويه الباطل ، فاستبان للسحرة نور الإيمان ، وظهر الصراط المستقيم للعيان . ولكن فرعون ما زال هناك ، بجنوده وبنوده ، بقهره وفجوره . . .

ليكن ما يكون ، فمن عرف الحق وآمن به لزمه وحرص عليه . . . وهكذا عشق هؤلاء حرية عقيدتهم وصحة إيمانهم ، فلم يبالوا بما وراء ذلك من طغيان أو بهتان . يقول القرآن عن ذلك :

(فألقى السحرة سجداً ، قالوا : آمنا برب هارون وموسى . قال : آمنتم به قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى * قالوا : لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ، وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى) .

* * *

وهذا مثل آخر من عشاق الحرية فى ميدان الاعتقاد والإيمان :

إنه الصحابى الوفى النقى : ثمامة بن أثال الحنفى ، الذى كان سيد قومه أهل اليمامة من بنى حنيفة .وكان فصيحاً شاعراً .وكان فى أول أمره مشركاً ، ولرسول الله ﷺ — معادياً ، حتى لقد وسوس إليه الشيطان ذات يوم أن يغتال رسول الله ﷺ ، فدعا الرسول ربه تبارك وتعالى أن يمكنه من ثمامة .

واستجاب القدر ، حيث اعتقلت إحدى سرايا المسلمين ثمامة ، بلا عقد ولا عهد ، وهو عدو محارب مهدور الدم ، وهم لا يعرفونه ، وأقبلوا به على النبى ﷺ ، فلما رآه عرفه وقال لهم : أتدرون من أخذتم ؟ . هذا ثمامة بن أثال الحنفى . فأحسنوا أسره .

وأمر النبى بربطه فى عمود من أعمدة المسجد ، ولعل الرسول فعل ذلك لكى يتأثر ثمامة بجو المسجد ، وما فيه من عبادة وذكر ، وما تعرضه الصلاة من مساواة وخشوع وابتهال .

ورجع الرسول إلى أهله وقال لهم : اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به إليه . وأمرهم بأن يسقوه من لبن ناقته صباحاً ومساء .

وبعد ذلك ذهب الرسول إليه وقال له : مالك يا ثمامة ؟ هل أمكن الله منك ؟

وكان نور الإيمان قد نفذ إلى قلب ثمامة ، ولكنه طوى ذلك إلى ميقات معلوم ، فأجاب : « قد كان ذلك يا محمد ، فإن تقتل تقتل ذا دم [أى صاحب دم مطلوب] وإن تعف عن شاكر ، وإن تسأل مالا تعطه .

فتركه الرسول ﷺ ، ثم كرر معه مثل هذا الحوار فى اليومين التاليين ، وكان وجواب ثمامة فيها هو جوابه نفسه فى اليوم الأول .

وكأنما لمح النبى ﷺ بوادر التوبة وبشائر الإنابة فى نفس ثمامة ، فقال لأصحابه : أطلقوه ، ففعلوا ، وقال النبى لثمامة : قد عفوت عنك .

وخرج ثمامة من المسجد وئيد الخطا ، ومضى غير بعيد ، ثم اغتسل وتطهر ، وطهر ثيابه ، وعاد إلى رسول الله مسرعاً فقال له : يا محمد ، لقد كنت وما وجه أبغض إلى من وجهك ، ولا دين أبغض إلى من دينك ، ولا بلد أبغض إلى من بلدك ؛ ثم لقد أصبحت وما وجه أحب إلى من وجهك ولا دين أحب إلى من دينك ، ولا بلد أحب إلى من بلدك ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وهكذا حرص ثمامة أن يعلن إسلامه وهو حر طليق ، حتى لا يقال إنه أسلم لأنه أسير ! !

• • •

ويأتى بلال بن رباح ، مؤذن الرسول وداعى السماء ، وعاشق الحرية فى سبيل الوحدانية وكلمة التوحيد . .

بلال أول من أظهر إسلامه ، ونال ألواناً من التعذيب فى سبيل إسلامه ويقينه ، فاحتملها وصبر عليها . . . وكان المشركون يلبسونه الدرع من الحديد ، ويقيلونه فى لهب الشمس ، أو يجرونه على الأرض ، يحاولون بذلك — وهو العبد المملوك لهم — أن يخرجوه عن دينه ، أو يحطموا جانباً من عشقه لحرية دينه ، فلا يزداد إلا استمساكاً بهذه الحرية الدينية ، ولا يزيد على قوله : « أحد . . . أحد » !

حتى جاء أبو بكر فاشتراه وأعتقه ، وجاهد بلال جهاداً عظيماً فى سبيل ربه ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، ومات وهو حريص على حرية عقيدته وعلى شعاره : « أحد . . . أحد » ! . . .

وروى الإمام النووى فى كتابه « تهذيب الأسماء واللغات » أن بلالا قال لأبى بكر : « إن كنت قد اشتريتنى لنفسك فأمسكنى ، وإن كنت إنما اشتريتنى لله عز وجل فدعنى وعمل الله » . فأفهمه الصديق أنه إنما اشتراه ليعتقه فى سبيل الله عز وجل .

* * *

وعشق الحرية يسمو ويعلو حين يعشق الإنسان هذه الحرية لغيره ، كما يعشقها الإنسان لنفسه .

هذا هو كتاب الله المجيد يعرض علينا نموذجاً من هذا العشق لحرية الآخرين :

إنه مؤمن آل فرعون الذى يرى موسى عليه السلام يأتى إلى فرعون بالآيات الإلهية والدلائل الربانية ، فلا يؤمن فرعون ولا يستجيب ، بل يهدد ويتوعد ، ويأمر بقتل المؤمنين واستحياء نسائهم للذل والهوان ، ثم يهم فرعون بقتل موسى نفسه . . . وإذا بهذا الرجل المؤمن الذى ذاع وصفه بوصف

« مؤمن آل فرعون » يندفع فى نزعة بطولية فدائية ، ليواجه الطغيان الكافر الفاجر المتنمر ، ويؤيد الإيمان السافر المتألق ، ويكافح للدفاع عن أهل هذا الإيمان ، حتى ينالوا حريتهم ، دون أن يبالى بما قد يصيبه من تعذيب أو إزهاق روح .

وأخذ هذا الرجل المؤمن يجاهر بمعارضة فرعون وقومه ، ويهددهم بعذاب الله وعقابه ، وينتصر لأهل الحق واليقين ، مردداً قوله تعالى : (فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد) .

ويصور القرآن هذا الموقف بقوله : (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون ، فقالوا : ساحر كذاب * فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا : اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه ، واستحيوا نساءهم ، وما كيد الكافرين إلا فى ضلال * وقال فرعون : ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ، إنى أخاف أن يبدل دينكم ، أو أن يظهر فى الأرض الفساد * وقال موسى : إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب *

وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب) .

وبعد أن تذكر الآيات التالية عقب ذلك ما كان من فرعون من عناد واستكبار على النصح ، وما كان من ذلك الرجل المؤمن من تحذير وإنذار ، جاءت العاقبة ، فماذا كانت ؟ (فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ، ويوم تقوم الساعة : أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) .

* * *

ويمضي الزمن ، ويطوى القدر السنين كطى السجل للكتاب ، ونلمح على الأفق عاشقاً مجيداً من عشاق الحرية الذين بذلوا حياتهم العظيمة رخيصة فى سبيل الدفاع عن الحرية فى الحكم ، والحرية للشعب ، والحرية للأمة ، والحرية للحق .

إنه أبو الشهداء ، شهيد كربلاء ، سبط رسول الله وريحانته : الحسين ابن على رضوان الله عليهما .

وحسبنا هنا أن نسمع العقاد فى كتابه « أبو الشهداء » وهو يقول عن خروج الحسين إلى معركة كربلاء :

« هى حركة من أندر حركات التاريخ فى باب الدعوة الدينية أو الدعوة السياسية ، لا تتكرر كل يوم ، ولا يقوم بها كل رجل ، ولا يأتى الصواب فيها – إن أصابت – من نحو واحد ينحصر القول فيه ، ولا يأتى الخطأ فيها – إن أخطأت – من سبب واحد يمتنع الخلاف عليه ، وقد يكون العرف فيها بين أصوب الصواب وأخطأ الخطأ فرقاً صغيراً من فعل المصادفة والتوفيق ، فهو خليق أن يذهب إلى النقيضين .

هى حركة لا يأتى بها إلا رجال خلقوا لأمثالها . فلا تخطر لغيرهم على بال . لأنها تعلو على حكم الواقع القريب الذى يتوخاه فى مقاصده مسالك الطريق اللاحب والدرب المطروق .

هى حركة فذة يقدم عليها رجال أفذاذ ، من اللغو أن تدينهم بما يعمله رجال من غير هذا المعدن . وعلى غير هذه الوتيرة . لأنهم يحسون ويفهمون ويطلبون غير ما يحسه ويفهمه ويطلبه أولئك الرجال . هى ليس ضربة مغامر من مغامرى السياسة ، ولا صفقة مساوم من مساوم فى التجارة . ولا وسيلة متوسل ينزل على حكم الدنيا . أو تنزل الدنيا على حكمه . ولكنها وسيلة من

يدين نفسه ويدين الدنيا برأى من الآراء هو مؤمن به ، ومؤمن بوجوب إيمان الناس به دون غيره ، فإن قبلته الدنيا قبلها ، وإن لم تقبله فسيان عنده نواته بالموت أشهى إليه .

هى حركة لا تقاس إذن بمقاييس المغامرات ولا الصفقات ولكنها تقاس بمقياسها الذى لا يتكرر ولا يستعاد على الطلب من كل رجل أو فى كل أوان » .

ثم يقول مشيراً إلى بعض المؤرخين : « وكان خليقاً بهؤلاء أن يذكروا أن مسألة العقيدة الدينية فى نفس الحسين لم تكن مسألة مزاج أو مساومة ،وأنه كان رجلا يؤمن أقوى الإيمان بأحكام الإسلام ، ويعتقد أشد الاعتقاد أن تعطيل حدود الدين هو أكبر بلاء يحيق به وبأهله بالأمة العربية قاطبة فى حاضرها ومصيرها ، لأنه مسلم ، ولأنه سبط محمد ، فمن كان إسلامه هداية نفس فالإسلام عند الحسين هداية نفس وشرف بيت » .

ثم يضيف : « فحركة الحسين لم تكن مسدودة الأسباب لمنفعة الحسين بكل ثمن ، وحيثما كانت الوسيلة . وعلة ذلك ظاهرة قريبة ، وهى أن الحسين رضى الله عنه طلب الخلافة بشروطها التى يرضاها ، ولم يطلبها غنيمة يحرص عليها مهما تكلفه من ثمن ، ومهما تتطلبه من وسيلة . وهنا غلطة الشهداء ، بل قل : هنا صواب الشهداء .

ومن هو الشهيد إن لم يكن هو الرجل الذى يصاب ويعلم أنه يصاب لأن الواقع يخذله ولا يجرى معه إلى مرماه ؟ ومن هو الشهيد إن لم يكن هو الرجل الذى « يكلف الأيام ضد طباعها » ، ويصدق الخير فى طبيعة الإنسان والخير عزيز والدنيا به شحيحة ؟ منذ القدم أخطأ الشهداء هذا الخطأ ، ولو أصابوا فيه لما كانوا شهداء ، ولا شرفت الدنيا بفضيلة الشهادة .

فالحسين رضى الله عنه قد طلب خلافه الراشدين حيث لا تتسنى خلافة الراشدين ، أو حيث تتسنى الدولة الدنيوية التى يضن بها أصحابها ، ويتكالبون عليها ، ويتوسلون إليها بوسائلها ، فكانت عنايته بالدعوة والإقناع أعظم جداً من عنايته بالتنظيم والإلزام » .

* * *

ويتالق فى التاريخ عاشق آخر من عشاق الحرية فى ميدان آخر من ميادين العشق النبيل الجليل للحرية : ميدان التفكير الدينى . . .

إنه الإمام ابن تيمية الذى دافع عن الإسلام ، وواجه الشدائد بسبب كفاحه لخدمة المسلمين . لقد اشترك فى الجهاد ضد التيار لصيانة أرض الإسلام ، وحينما فر الناس من حوله بقى هو ثابتاً كالطود ، وواجه ملك « التتار » وأغلظ له القول ، حتى صور أحد الحاضرين هذا الموقف بقوله :

كنت حاضراً مع الشيخ . فجعل يحدث السلطان بقول الله ورسوله فى العدل ، ويرفع صوته . ويقرب منه ، والسلطان مع ذلك مقبل عليه ، مصغ لما يقول ، شاخص إليه ، لا يعرض عنه ، وإن السلطان من شدة ما أوقع الله فى قلبه من الهيبة والمحبة سأل : من هذا الشيخ ؟ إنى لم أر مثله ، ولا أثبت قلباً منه ، ولا أوقع من حديثه فى قلبى . ولا رأيتنى أعظم انقياداً لأحد منه . فأخبر بحاله . وما هو عليه من العلم والعمل .

وكان ابن تيمية مجدداً من مجددى الإسلام . ومجتهداً فى ميدان التفكير الدينى . وكان عاشقاً لتجديد الدين كل العشق . وثار عليه كثيرون من العامة والغوغاء . ومن أهل القدرة والغناء . واستعانوا عليه فى محاربته بأهل السلطان . ولكن ابن تيمية بقى على رأيه وتفكيره ثابتاً كالطود الأشم .

وسجن الظالمون ابن تيمية آكثر من مرة ، كي يرجع عما يعتقده أنه الحق في دين الله ، فلم يستسلم ولم يتزلزل ، بل رحب بالسجن فى سبيل فكرته وعقيدته . والرائع فى موقف ابن تيمية أنه حينما أغلقوا عليه باب السجن قال مستشهداً من القرآن الكريم : (فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب) . فداخل السجن عنده نعمة ، وخارج السجن عنده نعمة ، فالحرية لا تقاس بالمكان ، ولكنها تقاس بروح الإنسان .

وكان يقول كالعاشق المستهام للحق والحقيقة : ما يصنع أعدائى بى ؟ أنا جنتى وبستانى فى صدرى ، أين رحت فجنتى معى لا تفارقنى ، أنا حبسى خلوة ، وقتلى شهادة ، وإخراجى من بلدى سياحة ! !

جنته فى صدره لا تفارقه ؛ فى صدره إيمانه ويقينه ، وفى صدره أنوار علمه وبصيرته ، وفى صدره ثقته بربه عز وجل ، ومهما فعل به أعداؤه فلن يستطيعوا انتزاع الإيمان من قلبه ، وإن حبسه خلوة ، يخلو فيها إلى العبادة والتفكر ، وإلى المطالعة والبحث ، وإلى مزيد من المعرفة والعلم ، وإلى بعد عن الشهوات والملذات ؛ وإن قتله شهادة ، لأنه مناضل مجاهد ، قضى حياته وهو على طريق الجهاد ؛ جاهد صغيراً فى طلب العلم ، وجاهد فى سبيل الوطن الإسلامى ، وجاهد فى سبيل الدين ، حيث نشر كلمته وأذاع دعوته ، وجاهد فى سبيل الحق فجهر بما يؤمن أنه الحق دون مبالاة بتعويق أو اعتراض.

وإن إخراجه من بلده رحلة فى سبيل الله سبحانه ، ويكفى أن يعلم الناس أن الآثمين قد نفوا ابن تيمية حتى يتذكر الناس أن نفيه كان بسبب دفاعه عن حقائق الدين ومبادئه ، وهو فى نفيه يكسب خيراً عن طريق السياحة فى الأرض ، والتعرف إلى مزيد من الناس ، وبث دعوته هنا وهناك .

يا لها من كلمة تصور عظمة ابن تيمية : « جنتى معى لا تفارقنى ، أنا حبسى خلوة ، وقتلى شهادة ، وإخراجى من بلدى سياحة » ! !

* * *

والوطن العزيز الغالى ، لا بد لحريته من عشاق ، وما أكثرهم ، وما أوسع أخبارهم ، ولا عجب ،فالوطن – كما يقول شوقى – موضع الميلاد ، ومجمع أوطار الفؤاد ، ومضجع الآباء أو الأجداد ، وهو أيضاً مجرى الصبا وملعبه ، وعرس الشباب وموكبه ، ومراد الرزق ومطلبه .

ولقد تغنى ابن الرومى قديماً بحبه الوطن وعشقه البلد ، فقال :

ولى وطن آليت ألا أبيعــه ... وألا أرى غيرى له الدهر مالكا
عمرت به شرخ الشباب منعما ... بصحبه قوم أصبحوا فى هنالكا
فقد ألفته النفس حتى كأنها ... له بدن ، إن غاب غودر هالكا
وحبب أوطان الرجال إليهم ... مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم ... عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

ويقبل عاشق الوطن فى تاريخنا الحديث ، يقبل المستهام بحب مصر كنانة الله فى أرضه ، يقبل مصطفى كامل الذى كان يردد : « لا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس » . يقبل ليعطينا صورة من صور العشق للوطن والحرية والأمل .

يقبل ليقول : « هم يقولون إن وطنى لا وجود له ، وأنا أقول إنه موجود وأشعر بوجوده ، بما آنس له من الحب الشديد ، الذى سوف يتغلب على حب سواه ، وسأجود فى سبيله بجميع قواى ، وأفديه بشبابى ، وأجعل حياتى وقفاً عليه » .

ويقول : « إننا لا نعمل لأنفسنا ، بل نعمل لوطننا ، وهو باق ونحن زائلون » .

* * *

إن حديث عشاق الحرية طويل جميل ، وما سبق عنه إنما هو الإشارة أو الرمز ، وما أجدر هؤلاء العشاق بأن يكون لأحاديثهم تفصيل وتحليل ، يتسع لها أكثر من مجال ، ويدور حولها أكثر من مقال .

* * *

الفوز له ثمن

السؤال :

نريد أن نعرف شيئاً عن بطولات بعض الشهداء فى صدر الإسلام .

الجواب :

حينما أشرقت شمس الإسلام ، وبدأ الدعوة رسول الله ﷺ وأخذ الصراع طريقه بين كتائب الرحمن وأتباع الشيطان ، لم يكن طريق المسلمين الأوائل مفروشاً بالورود والرياحين . ولم يكن هناك صلة مضمون بالنصر الدائم ، أو الغلبة المستمرة ، بل جاهد المسلمون الأوائل ، وناضلوا ، وتحملوا ما تحملوا فى سبيل دعوتهم وعقيدتهم ، وأصابتهم جراحات وويلات ، ومات منهم شهداء وشهداء ، وهكذا أصحاب العقائد والمبادئ ؛ فإن المجاهد الصادق المؤمن يضع نفسه وحسه « تحت الطلب » لخدمة عقيدته ومبدئه : فهو مستعد دائماً لحمل التبعات ومواجهة الأزمات ، وهو يقذف بروحه فى

أتون المعركة بلا خوف من سطوة عدو ، أو مكر مخادع ، أو خيانة لئيم ، فالله الكبير موجود ، والحق ظاهر واضح ، والنهاية بفضل الله مضمونة مأمونة ، فإما عزة بنصر ، وإما نعيم بشهادة ، والله ولى الصابرين .

لقد تعرض أصحاب رسول الله ﷺ لأشد ألوان المكر والغدر والخديعة فما ضعفوا وما استكانوا ، بل استخفوا بالشدائد واستهانوا ، وأحسنوا إعدادهم واستعدادهم ، وأدوا واجباتهم بقدر طاقاتهم ، والنتائج بعد هذا بيد خالقهم وبارئهم ، لا يغرهم النصر إن سعى إليهم ، ولا تيئسهم الهزيمة إن مرت بهم ، فأمرهم إما عزة بنصر ، وإما نعيم بشهادة والله ولى الصابرين .

ومن الأيام العصيبة فى تاريخ المسلمين الأوائل « يوم الرجيع » ، وما أدراك ما يوم الرجيع ، وقد كان هذا اليوم العصيب فى شهر صفر ، على رأس ستة وثلاثين شهراً من هجرة سيدنا رسول الله ﷺ ، وجاء بعدها يوم عصيب آخر ، وهو يوم « بئر معونة » الذى كان فى شهر صفر أيضاً على رأس أربعة أشهر من غزوة أحد . فنحن نرى فى اليوم العصيب الأول رهطاً من قبيلتى عضل والقارة ، يضربون مثلا خسيساً فى الخيانة والغدر ، حيث لبثوا مسوح الوداعة والمسالمة ، وسعوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون منه أن يرسل إليهم من يفقههم فى الدين ، ويعلمهم القرآن الكريم ، وشرائع القرآن العظيم ، فاستجاب الرسول لهم وأرسل إليهم من صحابته ستة نفر ، فى آخر سنة ثلاث من الهجرة ، وتذكر أغلب المصادر أنهم كانوا ستة ، وفى بعض المصادر أنهم كانوا عشرة ، ويذكر ياقوت الحموى فى معجم البلدان أن عددهم سبعة ، أورد أسماء ثلاثة منهم ، ثم أورد خمسة أبيات لحسان فى رثائهم ، ولم يذكر حسان إلا خمسة أسماء ، مع أن « ياقوت » يقول إن الشاعر قد ذكر فى أبياته أصحاب يوم الرجيع جميعهم فى هذه الأبيات ، وليس ذلك الخلاف أمراً ذا بال فى الموضوع ، وإنما المهم هو أن هؤلاء الصحابة حينما

بلغوا مكاناً يسمى الرجيع ، وهو ماء لهزيل بناحية الحجاز ، على بعد ثمانية أميال من عسفان ، وجعل الصحابى عاصم بن ثابت أميراً عليهم ، وبينما هم فى طريقهم تبعهم ما يقرب من مائة من المشركين الأعداء من قبيلة هذيل ، وهاجموهم خيانة وغدراً ، وأعملوا فيهم سيوفهم وحرابهم ، ولم يفدهم أن اعتصموا برابية مشرفة ، لأن الخونة قالوا لهم : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم أحداً ، وانخدع بعض الرفاق بهذا الكلام وكانت النتيجة أن أعملوا فيهم الحسام ، حتى قتلوا أكثرهم واستولوا على الباقين أسرى .

ومن الخير أن نتعرف إلى هؤلاء المجاهدين . فمنهم شهيد الرجيع الصحابى العابد مرثد بن أبى مرثد الغنوى الذى آخى الرسول بينه وبين أوس بن الصامت الأنصارى وكان شاعراً إسلامياً مجيداً ، وكان مرثد من أمراء السرايا ، وأبطال الوفاء والفداء فى صدر الإسلام ، وقد شهد غزوة بدر وغزوة أحد ، وكان يقوم بمهمة فدائية لها شأنها ، فقد كان قوي البدن صلب العضلات ، فكان يذهب إلى مكة سراً بعد الهجرة ويحمل الأسرى المسلمين الضعاف ليلا ويعود بهم إلى المدينة ، وحدث ذات مرة أن رأته امرأة كان يخادنها فى الجاهلية ، فدعته إلى المبيت عندها فرفض ، فألحت عليه بإغراء وإثارة ، فقال لها إن الله قد حرم الفاحشة ، فدلت عليه قومها ، ولكن الله تعالى أنجاه حتى أنقذ الأسير أخاه فى الإسلام ، وعاد إلى المدينة .

وفى يوم الرجيع رفض مرثد أن يصدق عهد المشركين ووعدهم، ولما قامت المعركة الشرسة لم تكن متعادلة ولا متكافئة ، وظل البطل مرثد يناضل ويناضل ، حتى سقط شهيداً فى ساحة المعركة ، كما استشهد معه آخران أحدهما هو البطل الإسلامى الجليل عاصم بن ثابت. ومن أبطال يوم الرجيع خالد بن البكير الليثى الكنانى ، وقد شهد غزوة بدر ، وسبق أن بعثه النبى مع عبد الله بن جحش إلى عير قريش قبل غزوة بدر ، فى رهط من المهاجرين

فقتلوا عمرو بن الحضرمى وفيهم أنزل الله تعالى قوله فى سورة البقرة . (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عندالله والفتنة أكبر من القتل) . وقد نال خالد نعمة الشهادة فى معركة يوم الرجيع ، وكان عمره أربعاً وثلاثين سنة .

ومن أبطال يوم الرجيع خبيب بن عدى الشهيد المصلوب ، وكان رجلا كثير العبادة والصيام والقيام ، وقد آخى الرسول بينه وبين عمير بن أبى وقاص الصحابى البدرى الشهيد وقد حضر خبيب غزوة بدر ،وقتل فيها الحارث بن عامر ، فحرص أبناء الحارث على أن يشتروا خبيباً ممن أسروه يوم الرجيع ليقتلوه ثأراً لأبيهم ، وحبسوه فى مكة مدة من الزمن ، وأحس خبيب أن القوم سيقتلونه لا محالة فطلب من ابنة الحارث التى كان يوجد فى بيتها أسيراً — طلب منها شفرة ليتطهر بها استعداداً للموت فأرسلت إليه المرأة ما أراد عن طريق ابن لها ، فأجلس خبيب الطفل على فخذه ، وأخذ يداعبه فى رفق ، ورأت أم الولد هذا المنظر ففزعت ، حيث ظنت أن خبيباً قد يقتل الطفل انتقاماً لنفسه ، وأدرك خبيب ما دار بذهن المرأة فقال لها : أتخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل هذا .

ولذلك كانت هذه المرأة تقول فيما بعد : ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب . ويروى أن هذه المرأة قد أسلمت وقالت : كان خبيب قد حبس فى بيتى ، فقد اطلعت عليه يوماً ، وإن فى يده لقطفاً من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه ، وما أعلم فى أرض الله عنباً يؤكل ، وقال لى حين حضره القتل : ابعثى إلى بحديدة [شفرة] أتطهر بها للقتل ، فأعطيت غلاماً من الحى الموسى فقلت له : ادخل بها على هذا الرجل ، فوالله ما هو إلا أن قد ولى الغلام بها إليه ، فقلت : ما صنعت ؟ أصاب والله الرجل ثأره ، بقتل هذا

الغلام فيكون رجلا برجل ، فلما ناوله الحديدة أخذها من يده ، ثم قال : لعمرك ما خافت أمك غدرتى حتى بعثتك بهذه الحديدة ثم خلى سبيله .

ومضى المجرمون فى تنفيذ جريمتهم. خرجوا بخبيب إلى ظاهر مكة فى مكان يسمى « التنعيم » ونصبوا صليباً ضخماً عالياً ليقتلوا خبيباً عليه ، وهنا قال لهم المجاهد الصابر المؤمن خبيب : دعونى أركع ركعتين ، فأذنوا له بذلك فصلاهما ثم قال : والله لولا أن تحسبوا أن ما بى جزع لزدت . ومن يومها صارت مثل هذه الصلاة سنة ، لأنها فعلت فى عهد النبى ﷺ ولم يعترض عليها . ثم دعا زيد عليهم فى جرأة وشجاعة فقال : اللهم احصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولم تغادر منهم أحداً .

وتكاثر اللئام على المناضل الوحيد ، وأوثقوا ربطه على الصليب الضخم ، وأخذوا يتطلعون إليه كأنهم يتشفون فيه ، ويتلذذون بمنظر تعذيبه ولكنه لم يبال بهم ، ولم يضعف أمامهم ، بل أخذ يردد شعراً يقول فيه :

لقد جمع الأحزاب حولى وألبوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وقد قربوا أبناءهم ونساءهم ... وقربت من جذع طويل ممنع
وكلهم يبدى العداوة جاهداً ... على لأنى فى وثاق بمضيع
إلى الله أشكو غربتى بعد كربتى ... وما جمع الأحزاب لى عند مصرع
فذا العرش صبرنى على ما أصابنى ... فقد قطعوا لحمى وقد ضل مطمعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أعضاء جسم ممزع
وقد عرضوا بالكفر والموت دونه ... وقد ذرفت عيناى من غير مجزع
فلست بمبد للعدو تخشعاً ... ولا جزعاً إنى إلى الله مرجعى
ولست أبالى حين أقتل مسلماً ... على أى جنب كان فى الله مصرعى

وعجب المشركون من ثبات خبيب واطمئنانه ، فحسبوا أنهم إن عرضوا عليه العفو والخلاص ، فى مقابل أن يذم الرسول أو يتنكر للدعوة فإنه سيستجيب ، لأن حب الحياة فى الإنسان قوى عميق ، ولقد يبلغ الإنسان أرزل العمر ، حتى لا يستطيع أن ينهض لضعفه ، ومع ذلك يتشبث بالحياة ، ونسى هؤلاء أن خبيباً من قوم علمتهم عقيدتهم أن يحبوا الموت أكثر من الحياة ، وأن يعرضوا عما فى الدنيا إيثاراً لما عند الله . أقبل عليه أحدهم وهو مربوط على الصليب وقال له : أيسرك يا خبيب أن محمداً عندنا تضرب عنقه ، وأنك سالم فى أهلك ؟ فقال فى عزم وتصميم : والله ما يسرنى أنى سالم فى أهلى ، وأن تصيب محمداً شوكة تؤذيه .

ثم رفع خبيب رأسه إلى السماء وناجى ربه : اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك .

اللهم إنى لا أجد إلى رسولك رسولا غيرك ، فأبلغه منى السلام ، وبلغه الغداة ما يصنع بنا .

ونفد صبر هؤلاء المجرمين أمام ثبات خبيب وسكينة قلبه بفضل إيمانه ، فأرادوا أن يسرفوا إسراف اللئام السفهاء فى الانتقام ، فأحاطوا خبيباً بعشرات منهم ، وفى أيديهم السهام والرماح والسيوف ، ثم اندفعوا بجملتهم يرمونه ويطعنونه ويضربونه من كل جانب حتى أسلم آخر أنفاسه ، وكأن هذه الأنفاس لفح من فيح جهنم يعصف بهؤلاء المجرمين يوم لقاء الله عز وجل .

ومن أبطال يوم الرجيع الصحابى عبد الله بن طارق بن عمرو البلوى ، حليف بنى ظفر من الأنصار ، وقد شهد غزوتى بدر وأحد ، وهو أحد الستة الذين بعثهم رسول الله إلى رهط من عضل والقارة فى يوم الرجيع ، وقد نال عبد الله نعمة الشهادة فى هذا اليوم ، بعد أن أسروه ، ولكنه تخلص

من قيده فى الطريق مغافلا أعداءه ، وشهر سيفه ، وأقبل يطعنهم به غير هياب ولا وجل ، فتأخروا عنه ورموه بالحجارة حتّى قتلوه وقبره فى الظهران

ومن أبطال يوم الرجيع الصحابى المجاهد الشهيد المحب للرسول زيد بن الدثنة الأنصارى الذى شهد غزوتى بدر وأحد وأبلى فيهما بلاء حسناً ، وابتلاه الله فى يوم الرجيع الذى انخدع بالحيلة الماكرة من الأعداء الخونة ، فأسروه وذهبوا به إلى مكة ليبيعوه فيها بيع الأعداء ، وباعوه فعلا إلى ألد أعدائه حينئذ ، صفوان بن أمية وهو ما زال على شركه ولما يئسوا من إقلاعه عن إيمانه أقدموا على تنفيذ القتل فيه فسألهم أن يمهلوه حتّى يصلى لربه ركعتين ، وعقب انتهائه من ركعتيه اللتين جعلهما — مثلما فعل خبيب — كاللقاء التمهيدى له مع ربه ، ثم أقبل طواغيت الشرك على المجاهد الأعزل وقطعوا رقبته لتصعد روحه إلى بارئها لتنال كريم جزائها : (إن المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) .

ومن أبطال يوم الرجيع الصحابى المجاهد الشهيد أبو سليمان عاصم بن ثابت الأنصارى المسارع بالاستجابة إلى الله عز وجل ، وقد آخى النبى ﷺ بينه وبين البطل الشهيد عبد الله بن جحش الأسدى الذى تمنى الشهادة فى سبيل الله ، وتمنى أن يمزق الأعداء جسمه ليكون ذلك شهادة له عند ربه ، وتحقق له ما أراد ، وشبيه الشىء منجذب إليه ، والأبطال أنداد الأبطال . وقد شهد عاصم غزوة بدر الكبرى ، ثم شارك فى غزوة أحد ، وصرع فيها من صرع من طواغيت الكفر وزبانية الشرك وكان منهما أخوان لامرأة تسمى سلامة بنت سعد ، فحلفت أنها إن قدرت على رأس عاصم بعد قتله لتشربن فى جمجمته خمراً . وتألق عاصم فى صراع يوم الرجيع ، فأخذ يرمى أعداءه بنباله حتّى انتهت ، فأخذ يطاعنهم برمحه حتّى تكسر ، فاستل سيفه وهو آخر سلاح معه ، وأخذ يضرب به فيهم وكأنما أحس بنور الله فى صدره أن شهادته

قد اقتربت ، وقد بذل كل جهده وكان قد عاهد ربه ألا يمس مشركاً ، ولا يمسه مشرك أبداً فى حياته ، فقال يدعو ربه :

اللهم إنى حميت دينك صدر النهار ، فاحم لحمى آخره ، واستمر يناضل حتى نال الشهادة .

وأراد الأعداء الأخساء أن يمثلوا بجثته وأن يحملوا رأسه إلى « سلافة » لتشتريه منهم ،ولكنهم حينما أرادوا فعل ذلك وجدوا أسراباً من النحل والزنابير قد غطت جثته ، فقالوا : ننتظر حتى يأتى الليل ، ويتركه النحل ، فنأتى لنفعل ما نريد .

ولكن الله جل جلاله أرسل سيلا جارفاً ، فحمل جثة البطل الشهيد إلى حيث شاء علام الغيوب .

وقد أراد رسول الله ﷺ أن يكرم ذكر عاصم وإخوانه ، فخرج مع مجموعة من صحابته وذهب إلى مكان استشهاد هؤلاء ، وترحم عليهم ، ودعا لهم بالمغفرة والرضوان وقد رثى شاعر الإسلام حسان شهداء الرجيع فقال :

صلى الإله على الذين تتابعوا — يوم الرجيع فأكرموا وأثيبوا
رأس البسرية مرثد وأميرهم — وابن البكير إمامهم وخبيب
وابن لطارق وابن دثنة منهم — وافاه ثم حمامه المكتوب
والعاصم المقتول عند رجوعه — كسب المعالى إنه لكسوب
منع المقادة أن ينالوا ظهره — حتى يجالد إنه لنجيب

وقال من قصيدة أخرى :

ألا ليتنى فيها شهدت ابن طارق — وزيداً وما تغنى الأمانى ومرثدا
فدافعت عن حبى خبيب وعاصم — وكان شفاء لو تداركت خالدا

واللافت للنظر أن هؤلاء الأبطال الستة كلهم قد شهدوا غزوة بدر الكبرى وبذلك نالوا الحظوة العليا ، ففى ترجمة كل واحد منهما فى مصادر السيرة المختلفة نجد النص على أنه شهد غزوة بدر ، وهذه حكمة إلهية دقيقة ، وقد تتبعت ذلك فى هيبة ورهبة ، ونحن نعلم المكانة العليا لأهل بدر ، ونعرف من السيرة أن رسول الله ﷺ قال عن أهل بدر : اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض . وكذلك قال : لعل الله اطلع على أهل بدر فقالوا لهم اعملوا ما شئتم فإنى قد غفرت لكم .

* * *

ثم يأتى اليوم العصيب الآخر وهو يوم « بئر معونة » لينهض شاهداً آخر على أن طريق المسلمين الأوائل فى الكفاح والنضال لم يكن طريقاً مفروشاً بالورود والرياحين . بل كان طريقاً محفوفاً بالأهوال والمصاعب ، ولم يتلقوا من ربهم تبارك وتعالى قراراً أبدياً بأنهم منصورون دائماً ، أو أنه قد ضمن لهم الغلبة على أعدائهم دون عمل أو مجهود ، بل قال لهم : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) وقال لهم : (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس) .

وبئر معونة هى بئر بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم ، كلا البلدين منها قريب إلا أنها إلى حرة بنى سليم أقرب . وهى ماء لبن عامر بن صعصعة وعندها كانت أيضاً معركة الرجيع ، ومعركة بئر المعونة كانت فى صفر من السنة الرابعة وهى أيضاً تدل على غدر المشركين واحتمال المسلمين ، وكانت بعض القبائل وهى رعل وذكوان وعصية قد استعانت برسول الله ﷺ . فبعث إليها من أصحابه سبعين رجلا من الأنصار ، يسمون القراء وكانوا يحتطبون بالنهار لأنهم فقراء ، ويصلون بالليل ، والتقى المسلمون بهؤلاء القراء عند بئر معونة فغدروا بهم وهاجموهم ومن أبرز هؤلاء القراء الصحابى

الجليل المجاهد المنذر بن عمرو الساعدى ، من الأنصار السابقين إلى الإسلام ، فبايع النبي بيعة العقبة الثالثة وكان أحد النقباء الاثنى عشر ، وهو الذى تعلق بخطام ناقة النبى عند الهجرة يرجو منه أن ينزل فى ضيافته فكان النبى يقول : دعوا الناقة فإنها مأمورة واشترك المنذر فى غزوة بدر ، حيث ظهر منها إخلاصه لله تعالى ، وكان المنذر يقال له « المعنق ليموت » أى المسرع إلى طلب الشهادة والموت فى سبيل الله . وكان المنذر حينئذ فتى قوياً جلداً ، وكان إذا أدى واجب الميدان يجتمع بكوكبة من شباب الإسلام ، وينتمون ناحية ويأخذون فى قراءة القرآن والاستماع إليه ، ثم يصلون من الليل ما استطاعوا حتى إذا دنا الصبح جمعوا من الحطب ما قدروا ، ثم وضعوا ذلك على أبواب حجرات النبى ﷺ ، فهم مجاهدون من أهل النداء وهم عباد أتقياء ، وهم أهل الصنع الجميل والوفاء .

وإذا كان المنذر بن عمرو قد جعله الرسول أميراً وقائداً لهذه السرية ، فإن من أبطالها عامر بن فهيرةَ المجاهد الشهيد دفين الملائكة ، وفهيرة هى أمه ، وكان عبداً مملوكاً فى أول أمره ، واشتراه أبو بكر وأعتقه ، وقد شهد عامر غزوة بدر وأبلى فيها بلاء حسناً ، وشهد غزوة أحد واحتمل فيها احتمالا مشكوراً وقد ذاق نعمة الشهادة يوم بئر معونة ، ولما أصابه قاتله قال عامر : الله أكبر فزت ورب الكعبة .

وسأل قاتله ــ واسمه جبار الكلابى ــ لماذا قال : الله أكبر ، وأين الفوز الذى فاز به ؟ ألم تذق الموت ويذهب إلى التراب ؟ وقيل للقاتل السائل : إن عامراً يقصد أن الله قد أكرمه بالشهادة ، وأنه سيفوز بنعيم الجنة فى الدار الآخرة.

وانبهر جبار من هذا اليقين المسيطر ، وأخذ يفكر ويفكر ، وكأن عامراً يطل عليه من عالم الخلد ، ويشير إليه بأصابع نورانية ، ويقول له بصوت

فيه روعة السماء وهيبة الآخرة : يا جبار ، اقلع عن كفرك وعنادك ، إن الباب مفتوح أمامك ، فادخل فى دين الله تبارك وتعالى تكن من الفائزين .

وشرح الله صدر « جبار » للإسلام ، فاهتدى وأعلن إسلامه ، وقال فيما قال عن سبب هذا الإسلام : إن مما دعانى إلى الإسلام أنى طعنت رجلا منهم يومئذ بالرمح بين كتفيه ، فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره ، فسمعته يقول : الله أكبر ، فزت ورب الكعبة ، فقلت فى نفسى : ما فاز ؟ ألست قد قتلت الرجل ؟ حتى سألت بعد ذلك عن قوله فقالوا : إنه يعنى الشهادة فانشرح صدرى للإسلام وقلت : صدق والله ، فاز والله .

ولقد تحدث أحد الذين شهدوا هذه المعركة فقال إنه شاهد جسد عامر ابن فهيرة وهو يطير نحو السماء ، وجاء الإمام الزهرى فقال : بلغنى أنهم التمسوا جسد عامر بن فهيرة فلم يقدروا عليه [لم يعثروا عليه] فيروون أن الملائكة دفنته .

هذا ولقد ظل رسول الله ﷺ يقنت شهراً ، ويدعو على أعداء الله الذين قتلوا شهداء بئر معونة ، ويروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : ما رأيت رسول الله ﷺ وجد [غضب وحزن] على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة .

إن هؤلاء السابقين المناضلين لم يمنعهم فقرهم ولا قلتهم أن يجاهدوا ويقودوا ، فينتصروا ويسودوا ، ولقد ضربوا أروع الأمثلة للمظلومين والمهضومين كى يتجمعوا ويجاهدوا ، فيستردوا المسلوب ، ويستعيدوا المغصوب ، عن طريق الإيمان والإعداد والعمل ، وكان توكلهم على ربهم ثقة وعزماً وصبراً لا تواكلا أو تثبيطاً ، وشعارهم : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) . والله تبارك وتعالى أعلم .

مستشرق من هولندة

ارند جان فنسنك

صاحب الفهرسة لألفاظ الحديث

السؤال :

هل لنا أن نعرف شيئاً عن صاحب كتاب فهرسة ألفاظ الحديث ؟

الجواب :

هذا رجل مستشرق من هولندة ، يؤخذ منه ويرد عليه ، وما أقل الخالص الصافى الذى يؤخذ من المستشرقين بعامة ، وما أكثر المشبوه المردود عليهم ، ولكن جانباً مهماً من جوانب النشاط العلمى لهذا المستشرق الهولندى يلفت أبصارنا وبصائرنا أكثر من غيره ، ويفيدنا فى دراستنا الإسلامية أكثر من سواه ، وذلك هو جانب اشتغاله بالفهرسة لألفاظ الحديث النبوى الشريف .

ومن المعروف لكل مشتغل بالفكر الإسلامى أنه لا يستطيع الاستغناء عن الاستشهاد الموصول بالآيات القرآنية المجيدة ، والأحاديث النبوية المطهرة ، وليس كل باحث أو مفكر بحافظ القرآن الحكيم كله ، بل قد يكون حافظاً ولا يسهل عليه استحضار المواطن التى وردت فيها اللفظة القرآنية التى يريدها ، ولكنه عن طريق فهرس تفصيلى يستطيع فى يسر أن يبلغ ما يريد .

ومصادر الحديث النبوى الأساسية — فضلا عن الفرعية — كثيرة ضخمة ، يصعب صعوبة مرهقة أن يقطف منها الباحث الأحاديث المتعددة المتعلقة بالموضوع الذى يبحث عنه أو يكتب فيه . وطالما عانى الباحثون المشقات تلو المشقات فى هذا الميدان . فلما تيسرت أمامهم الفهرسة التفصيلية

لألفاظ الحديث النبوى تيسر هم فى بحوثهم ثمرات كثيرة كان يصعب الوصول إليها .

وهذا المستشرق هو الأستاذ الدكتور « أرند جان فنسنك الهولندى » (Arend Jan Wensinck)

وأغلب المصادر تذكر اسمه الأخير « فنسنك » بالفاء المثلثة النقط ، ولكنه كان يكتب اسمه – عند توقيعه بالعربية – بالواو مكان هذه الفاء : « ونسنك » .

وقد ولد سنة ١٢٩٩ هـ – ١٨٨١ م . وتوفى سنة ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م .

ونال شهادة « الدكتوراه » من جامعة « ليدن » سنة ١٩٠٨ م ، بكتابه الذى جعل عنوانه : « موقف الرسول من يهود المدينة » وقام برحلات إلى مصر وسورية ولبنان وبلاد العرب سنة ١٩٣٠ ، وعاد إلى مصر سنة ١٩٣٨ م قبل وفاته بقليل .

وكان أستاذاً للغات السامية فى جامعة ليدن .

و « ليدن » مدينة تقع فى جنوب هولندة ، ويوجد بها أقدم جامعات هولندة ، أسست سنة ١٥٧٥ م ، أسسها الأمير « وليم الصامت » أمير أورانج وهو الزعيم الأكبر للهولنديين فى نضالهم من أجل الاستقلال وهو ينحدر من أسرة « ناساو » المالكة ، وعمل فى البلاط الإسبانى الذى عينه حاكم هولندا سنة ١٥٥٥ م ، ولكن اعتداءات الملك فيليب الثانى على حريات الهولنديين حفزت وليم الصامت إلى الانقلاب على مليكه فيليب ، ثم شهر وليم السلاح ضد إسبانيا ، وقد اغتاله متعصب كاثوليكى فى مرحلة دقيقة من نضاله لنيل استقلال بلاده سنة ١٥٨٤ م .

وكانت جامعة ليدن مركزاً للدراسات الدينية البروستانتينية والعلوم والطب فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وقد تركز الاهتمام فيها أولا بالمباحث الدينية والفلسفية، ثم برزت فروع الطب والعلوم والآداب والحقوق.

واحتلت الدراسات الإسلامية مكانة مرموقة ، تبعاً لمصالح هولندا الاستعمارية والتجارية فى إندونيسيا بوجه خاص ، ونشأت هذه الجامعة مكتبة مكتبة ضخمة جداً .

فى هذا الجو تألق نجم « فنسنك » ، الذى أتقن اللغات السامية ، وتخصص فى دراسة الأديان الشرقية ، واشتغل أستاذاً للغة العبرية فى جامعة ليدن من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩٢٧ م ، ثم اشتغل أستاذاً لكرسى اللغة العربية ، من سنة ١٩٢٧ م إلى سنة وفاته عام ١٩٣٩ م .

وقد كان فنسنك فى شغله لهذا الكرسى خلفاً للمستشرق « هرجرونيه » ، وهو كرستيان سنوك ، المولود سنة ١٨٥٧ م والمتوفى سنة ١٩٣٦ م ، وله دراسات فى أصول الفقه الإسلامى ، وله « رحلات فى الشرق » ، وله كتاب عن مكة فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، وهو يعد من أهم أعماله .

وكان هرجرونيه خلف « دى جويه » فى كرسى أستاذ العربية بجامعة ليدن ، و « دى جويه ، هو ميخائيل جان ، ولد سنة ١٨٣٦ م وتوفى سنة ١٩٠٩ ، وهو تلميذ « دوزى رنيهارت » المستشرق الهولندى الفرنسى الأصل ، الذى كان أستاذاً فى جامعة ليدن ، واتسعت شهرته بدراساته الأندلسية ، وله كتاب « تكملة المعاجم العربية » .

وقد سافر « دى جويه » إلى أكسفورد ، وعاد فأصبح أستاذاً فى جامعة ليدن ، ونشر « المكتبة الجغرافية » .

وكل واحد من هؤلاء المستشرقين له منزلته وفحولته ، وإن كانت عليه مآخذ وملاحظات .

ويقول الكاتب العربى الأستاذ أمين مدنى « إن الكنائس المسيحية قد استغلت المستشرقين فى التبشير بالمسيحية ، ولقد ساق التعصب الأعمى للمسيحية الكثير منهم لمحاربة الإسلام ومحاولة النيل من رسالته وتعاليمه وتاريخه بشتى المفتريات ومختلف التقولات ، كما استغلتهم دول الاستعمار فى دعم نفوذها السياسى والاقتصادى والثقافى ، واتخذت منهم السفراء والملحقين والقناصل .

ومن الطبيعى أن يثير حنق بعض المستشرقين وتهجمهم على الإسلام ومقدساته – بدافع الموقف العدائى الذى وقفته المسيحية من الإسلام منذ ظهوره ، وتحمس بعض المستشرقين للمخططات الاستعمارية والدعاية لها – الريبة والحذر فى أقوال المستشرقين عن الشرق وتاريخه عامة ، وعن العرب والتاريخ الإسلامى خاصة ، عند المسلمين .

ومن الطبيعى أن يثير هوج بعض المستشرقين ، وأخطاء الذين لا عمق لهم فى بحوثهم ، ولا أصالة فى رأيهم ، الشك فى النتائج التى نجدها عائمة بين زبد الشكوك والتهم .

ومن الطبيعى أن يجنى الحاقد الذى عبثت به الأغراض على النزيه يبحث عن الحقيقة ، وأن يجنى المعمعى [الإمعة المتابع لغيره] المتطرف على البحاثة المتزن ، ومن هنا اختلفت الآراء الشرقية ، ولا سيما العربية المسلمة ، فأجحف البعض واعتدل الآخرون » .

وليس المستشرق الهولندى « فنسنك » بالمعصوم بين هؤلاء ، ولكنه من حسن الحظ أن أبرز أعماله العلمية ، هما كتاب : « مفتاح كنوز السنة »

وكتاب : « معجم ألفاظ الحديث النبوي » ، وهما كتابان يعتمدان على الفهرسة ، لا على إبداء الآراء والأفكار . . .

وهذا هو المحدث الإسلامى المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر ، قد لقى « فنسنك » وحادثه وقال عنه : « وجدته رجلا مطلعاً على السنة اطلاعاً يندر أن نجده فى مثله » .

وكتاب « مفتاح كنوز السنة » هو معجم مفهرس عام تفصيلى ، وضع للكشف عن الأحاديث النبوية الشريفة المدونة فى كتب الأئمة الأربعة عشر الشهيرة ، وذلك بالدلالة على موضع كل حديث فى صحيح البخارى ، وسنن أبى داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، والدارمى . وذلك ببيان رقم الباب ، .

وفى صحيح مسلم ، وموطأ مالك ، ومسندى زيد بن على ، وأبى داود الطيالسى ، وذلك ببيان رقم الحديث .

وفى مسند أحمد بن حنبل ، وطبقات ابن سعد ، وسيرة ابن هشام ، ومغازى الواقدى ، وذلك ببيان رقم الصفحات ، وقد وضع فنسنك هذا المعجم باللغة الإنجليزية .

وقد قام بترجمته إلى العربية خادم السنة النبوية المرحوم محمد فؤاد عبد الباقى ، ونشرته له لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية ، وطبعته لأول مرة فى « مطبعة مصر » بالقاهرة سنة ١٩٥٣ هـ ـ ١٩٣٤ م .

وكتب فنسنك إلى الأستاذ المترجم خطاباً بخط يده ، نجد صورته فى أول الكتاب المترجم ، وفى الخطاب يبدى المستشرق الهولندى سروره بترجمة الكتاب ، ويقول للأستاذ عبد الباقى فيما يقول :

« قرأت الكتاب بفرح وسرور ، والشكر لله الذى له التوفيق لهذه الوظيفة الثقيلة ، وأما شخصى الضعيف فقد أوجبتم شعور شكرى الجزيل ، لأن فى عملكم الكريم زيادة فى منفعة مؤلفى ، وكذلك فى تصحيح الأخطاء التى وجدتموها فى الطبع الأورباوى .

وأرجو أنكم قد اخترتم المطبعة التى تخرج الكتاب فى أصح صنع وأدقه ، وسأكون مغتبطاً إذا تكرمونى بإرسال ثلاث أو أربع نسخ . . . » إلخ .

وطريقة فنسنك فى هذا الكتاب ، يصورها الأستاذ أحمد محمد شاكر حين يقول فى تقديمه الكتاب : .

هذا الكتاب جعله مؤلفه فهرساً لثلاثة عشر كتاباً من أمهات كتب الحديث ، وهى : مسند الإمام أحمد بن حنبل ، صحيح البخارى ، صحيح مسلم ، سنن الدارمى ، سنن أبى داود السجستانى ، سنن الترمذى ، سنن النسائى ، سنن ابن ماجه ، وهذه الثمانية هى أصول السنة ، ومصادرها الصحيحة الموثوق بها ، ويندر أن يكون حديث صحيح خارجاً عنها ، ليس موجوداً فى أحدها .

ثم موطأ الإمام مالك ، ومسند أبى داود الطيالسى ، وهما من أقدم الكتب المؤلفة فى الحديث ، فإن كان مالكاً والطيالسى من علماء القرن الثانى الهجرى ، وإن كان الطيالسى تأخرت وفاته إلى أول القرن الثالث (سنة ٢٠٤ هجرية) .

ثم سيرة ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هجرية ، وهى اختصار وتهذيب لأول كتاب ألف فى السيرة ، وهو كتاب محمد بن إسحاق رئيس أهل المغازى المتوفى سنة ١٥١ هجرية .

ثم كتاب المغازى للإمام محمد بن عمر الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هجرية .

ثم أعظم كتاب جمع سيرة النبي ﷺ وتراجم الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، وهو كتاب (الطبقات الكبير) للإمام الحافظ الثقة محمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هجرية ، وهو تلميذ الواقدى وكاتبه .

والكتاب الرابع عشر : المسند المنسوب للإمام زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب المتوفى شهيداً سنة ١٢٢ هـ . وهذا الكتاب عمدة فى الفقه عند علماء الزيدية من الشيعة ، ولو صحت نسبته إلى الإمام زيد عليه السلام لكان أقدم كتاب موجود من كتب الأئمة المتقدمين ، إلا أن الراوى له عن زيد رجل لا يوثق بشىء من روايته عند أئمة الحديث ، وهو أبو خالد عمرو بن خالد الواسطى ، رماه العلماء بالكذب فى الرواية ، قال الإمام أحمد بن حنبل فى شأنه : « كذاب ، يروى عن زيد بن على عن آبائه أحاديث موضوعة » .

وقد رتب الأستاذ فنسنك كتابه على المعانى والمسائل العلمية والأعلام التاريخية ، وقسم كل معنى أو ترجمة إلى الموضوعات التفصيلية المتعلقة بذلك ثم رتب عناوين الكتاب على حروف المعجم ، واجتهد فى جمع ما يتعلق بكل مسألة من الأحاديث والإثارة الواردة فى هذه الكتب .

وقد وضع للكتب السابقة رموزاً تدل عليها مع اختصار ، فوضع رمز « بخ » لصحيح البخارى ، و « مس » لصحيح مسلم » ، و « بد » لسنن أبى داود ، و « تر » لسنن الترمذى ، و « نس » لسنن النسائى ، و « مج » لسنن ابن ماجه ، و « مى » لسنن الدرامى ، و « ما » لموطأ مالك ، و « ز » لمسند زيد بن على ، و « عد » الطبقات ابن سعد ، و « حم » لمسند أحمد بن حنبل ، و « ط » لمسند الطيالسى ، و « هش » لسيرة ابن هشام ، و « قد » لمغازى الواقدى . . .

ووضع رمز « ك » لكتاب ، و « ب » لباب ، و « ق » لقسم ، و « ص » لصفحة ، وهكذا . .

وهذا نموذج من كتاب « مفتاح كنوز السنة » . وهذا النموذج تحت عنوان « أبو الدرداء » :

* أحد جامعى القرآن .

بخ - ك ٦٦ ب لأ ٨ .

عد - ج ٢ ق ٢ ص ١١٢ - ١١٤ .

* علمه -

عد - ج ٢ ق ٢ ص ١١١ .

حم - خامس ص ٢٤٢ .

* زهده -

تر - ك ٣٤ ب ٦٤ .

عد - ج ٢ ق ١ ص ٦١ » .

وهذا نموذج ثان من الكتاب نحو عنوان : « الأجير » :

* عقوبة من لم يوف الأجير أجره -

بخ - ك ٣٧ ب ١٠

مج - ك ١٦ ب ٤

حم - ثان ص ٣٥٨ . ثالث ص ٥٩ و ٦٨ ، ٧١

* إذا استأجرت أجيراً فأعلمه أجره -

نس - ك ٣٥ ب ٤

ز - ح ٦٥٤ .

ولنصبر على نموذج ثالث تحت عنوان : « مصر » :

- — وصف النبي لها —

مس — ك ٤٤ ح ٢٢٦ — ٢٢٧

حم — حامسى ص ١٧٣

- عدم قسمة عمرو لها بين المسلمين —

حم — أول ص ١٦٦ .

قد تبدو الرموز لنا متعبة بعض الشيء ، ولكنها تختصر لنا الكثير ، والتعود عليها يجعلها مألوفة مأنوسة . ونحن نقطف ثمرات جهود مكث فيها « فنسنك » كما يقول عشر سنوات ، وظل المترجم لها سنوات .

ولكى نعرف قيمة هذا الكتاب ينبغى أن نتمعن فيما يقوله السيد محمد رشيد رضا أكبر تلاميذ الأستاذ الإمام محمد عبده وخليفته من بعده ، فهو يقول :

« أما بعد فإن خير ما أعرف به هذا الكتاب لقراء العربية أن أبين لهم وجه الحاجة إليه وطريق الانتفاع به ، وعدم استغناء أعلم علماء الحديث عنه ، بل هم أشد حاجة إليه من غيرهم ، ويتلوهم من دونهم من العلماء ، فمن دونهم من دهماء القراء الذين يقتنون شيئاً من كتب الحديث المشهورة وغيرها . . . وإنى أستمد هذا البيان من تجربتى واختبارى فى السنين الطوال ، لا أقوله بادى الرأى . ولا أصطاده من سوانح الاستحسان . . .

ولو وجد بين يدى مثل هذا المفتاح لسائر كتب الحديث لوفر على أكثر من نصف عمرى الذى أنفقته فى المراجعة [يقصد كتاب مفتاح الصحيحين المطبوع المشهور] ولكنه لم يكن ليغنينى عن هذا الكتاب [مفتاح كنوز السنة . فإن ذا إنما يهديك إلى مواضع الأحاديث القولية التى تعرف أوائلها ،

وهذا يهديك إلى جميع السنن القولية والعملية وما فى معناهما كالشمائل والتقريرات والمناقب والمغازى وغيرها . فلو كان بيدى هو أو مثله من أول عهدى بالاشتغال بكتب السنة لوفر على ثلاثة أرباع عمرى الذى صرفته فيها ، ولكننى من الاستجابة لمن اقترحوا علىّ أن أضع كتاباً جامعاً للمعتمد منها ، وكتاباً آخر للمشكل منها فى نظر علوم هذا العصر وفلسفته ، والجواب المقنع عنه » .

* * *

ويأتى الكتاب الجليل الآخر : « معجم ألفاظ الحديث النبوى » الذى أقدم عليه فنسنك . وأخذ يجمعه من أمهات مراجع الحديث النبوى ، وهى صحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، وسنن أبى داود ، وسنن الترمذى ، وسنن النسائى ، وسنن ابن ماجه ، وسند الدرامى ، وموطأ مالك ، ومسند ابن حنبل.

واشترك معه فى المعجم طائفة من المستشرقين ، وبدأ المعجم يظهر منذ سنة ١٩٢٣ ، وكان من الذين اشتركوا معه منسنج ، وفان لوون ، ودى وهاوس ، ودى بروين ، وبرنادلويس ، وشارل بيلا ، وجوزيف شاخت .

وقد رتب هذا المعجم على الحروف الأبجدية ، وصنفه تصنيفاً لغوياً لجميع الألفاظ ، وأتبعه بثلاثة تذييلات للأعلام والأماكن والاستشهادات القرآنية . ويقع هذا المعجم فى سبعة مجلدات كبيرة ضخمة .

وقد وضع فنسنك لهذا المعجم رموزاً هى حرف « د » لأبى داود ، و « دى » للدرامى ، و « ط » للموطأ ، و « م » لمسلم ، و « ن » للنسائى و « ت » للترمذى ، و « جه » لابن ماجه ، و « حم » لأحمد بن حنبل ، و « خ » للبخارى .

وهذا نموذج من هذا المعجم ، من المجلد الأول ، تحت مادة « أدب » :

« لو أن رجلا أدب بعض رعيته : د ديات ١٥ . حم ١ و ٤١ .

من عال ثلاث بنات فأدبهن وزوجهن د أدب ١٣١ خ استقراض ١٨ ن بيوع ٧٧ حم ٣ ، ٩٧ .

أدبته أمه ، وأنت أدبتك أمك م مساجد ٦٦

لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع ت بر ٣٣ حم ٥ ، ٩٦ ، ١٠٢ . . . إلخ .

* * *

ولم يقتصر فنسنك على جهوده فى هذين المعجمين ، بل كانت له أعمال أخرى يطول الحديث عنها لو تناولناها بشيء من التفصيل . فلنذكرها بطريق الإجمال والإيجاز ، ونترك الحكم لها أو عليها لمجال آخر .

تولى فنسنك تحرير « دائرة المعارف الإسلامية » بلغاتها الثلاث سنة ١٩٢٤ م . فأتم منها الأجزاء الثلاثة الأولى ، وأسهم فيها بكتابة كثير من البحوث ، وشرع قبيل وفاته بإعداد طبعة مختصرة لها ، مقصورة على المقالات الدينية ، ظهرت باللغة الألمانية سنة ١٩٥٣ م .

وهذه قائمة بكتب فنسنك مرتبة على حسب سنوات ظهورها :

١ — محمد واليهود ، سنة ١٩١١ م .

٢ — الإسرائيليات فى الإسلام ، سنة ١٩١٣ .

٣ — فهرس ذيل الحديث ، سنة ١٩١٦ .

٤ — قيمة الحديث فى الدراسات الإسلامية ، سنة ١٩٢١ .

٥ – محمد والنبوة ، سنة ١٩٢٤ .

٦ – فلسفة ابن خلدون الاجتماعية لطه حسين ، سنة ١٩٢٥ .

٧ – مفتاح كنوز السنة ، سنة ١٩٢٧ .

٨ – المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ، بدأه سنة ١٩٢٧ .

٩ – الخمر فى الإسلام ، سنة ١٩٢٨ .

١٠ – الشمس فى تقاليد الساميين ، سنة ١٩٢٨ .

١١ – الصوفية الشرقية : مسيحية وإسلامية ، سنة ١٩٢٨ .

١٢ – الاعتقاد بمشيئة واحدة عند الشرقيين ، سنة ١٩٢٨ .

١٣ – الصوفية الشرقية فى الآداب السريانية ، سنة ١٩٣٠ .

١٤ – العقيدة الإسلامية وتطورها التاريخى ، سنة ١٩٣٢ .

١٥ – الغزالى ، سنة ١٩٣٢ .

١٦ – دراسات سامية ، سنة ١٩٣٨ .

١٧ – فكرة الغزالى ، نشر سنة ١٩٤٠ .

١٨ – الأثر اليهودى فى أصل الشعائر الإسلامية ، نشر سنة ١٩٥٤ .

ونكرر القول بأن هذه البحوث وغيرها مما كتبه فنسنك مما يحتاج – فى تقويمه وتقديره ، والحكم له أو عليه – إلى بحث مستقل لا يتسع له هذا المجال ولقد روى أن بعض الناس رشح « فنسنك » ليكون عضواً فى مجمع اللغة العربية بمصر ، ولكن هذا الترشيح لم يستجب له القائمون على أمر المجمع يومئذ ، وقيل فى تعليل الرفض إن جريدة الأهرام المصرية نشرت بعض المقالات النقدية التى تحمل على فنسنك من جهة بحوثه وأفكاره التى لا تتسق مع الفكر الإسلامى السليم ، فكانت هذه المقالات سبباً فى صرف النظر عن تعيينه عضواً فى المجمع اللغوى .

ومهما يكن من أمر المستشرق الهولندى « أرندجان فنسنك » فيما يتعلق بمعتقداته وآرائه والمآخذ التى تؤخذ عليه ، فمما لا شك فيه أنه قد فرض اسمه فى مجال العناية بفهرسة الحديث النبوى فى كتابه الجليلين « مفتاح كنوز السنة » و « معجم ألفاظ الحديث النبوى » ، وسيظل المشتغلون بدراسة الحديث ، يذكرون فنسنك بالتقدير ، كلما استعانوا بكتابيه فى الاهتداء إلى نصوص السنة الشريفة ، خلال هذا الخضم الهائل من مراجعها ومصادرها الواسعة .

* * *

ابن سيرين وتفسير الأَحلام

السؤال :

ما هى حكاية تفسير الأحلام وابن سيرين ؟

الجواب :

المشهور لدى كثير من الناس أن تفسير الأحلام – أو تعبير الرؤيا – عمل يقوم به صنف من الناس قد يكونون أقرب إلى الارتزاق والاستغلال ، منهم إلى العلم والمعرفة ، مع أن هذا العمل قد قام به خلال التاريخ علماء أجلاء وفقهاء كبراء . وعلى رأسهم الإمام العظيم ابن سيرين ، بل حدثنا كتاب الله المجيد ، بأن هذا العمل قد قام به بعض الأنبياء ، مثل يوسف عليه السلام ، وإلى هذا يشير التنزيل الحكيم حيث يقول : (ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً . وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه . نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين) .

فمن ابن سيرين هذا ، صاحب تعبير الرؤيا ، وتفسير الأحلام ؟

إنه الإمام الفقيه المفسر المحدث المعبر : أبو بكر محمد بن سيرين الأنصارى البصرى التابع ، المقدم فى الزهد والورع ، وفى التفسير والحديث والفقه وتعبير الرؤيا ، وهو مولى أنس بن مالك ، الذى كان معاصراً للإمام الزاهد العظيم البصرى ، رضوان الله على الجميع .

وأصله من بلدة : « جرجرايا » ، وهى مدينة خربت ، من أعمال النهروان الأسفل ، بين واسط وبغداد من الجانب الشرقى ، وفيها قال الشاعر :

ألا حبــذا يوماً جـــررنا   ذيــول اللهــو فيه بجرجرايا

وكان أبوه سيرين — فيما يقال — يعمل فى قدور النحاس . وأمه تسمى « صفية » ، كانت مولاة لأبى بكر الصديق ، وقد طيبها عند زواجها ثلاث من زوجات رسول الله ﷺ ، ودعون لها ، كما حضر زواجها ثمانية عشر صحابياً من أهل بدر ، فيهم أبى بن كعب ، يدعوهم يؤمنون على دعائه .

وكانت امرأة حجازية تحب صبغ الثياب بالألوان ، وكان محمد إذا اشترى لها ثوباً اشترى ألين ما يجد ، لا ينظر فى بقائه ، فإذا كان كل يوم صبغ لها ثيابها . وما رئى رافعاً صوته عليها قط ، وإذا كلمها كان كالمصغى إليها .

وقد ولد ابن سيرين بالبصرة سنة ثلاث وثلاثين للهجرة ، لسنتين بقيتا من خلافة عثمان رضى الله عنه .

ويشترك ابن سعد مع النووى فى وصفهما له بأنه كان ثقة مأموناً ، عالياً رفيعاً ، فقيهاً إماماً ، ورعاً كثير العلم .

ويقول عنه مورق العجلى : « ما رأيت رجلا أفقه فى ورعه ، ولا أورع فى فقهه ، من محمد بن سيرين » ! .

وكان ابن سيرين واحداً من الطبقة الثانية من رواة الحديث ، روى عن جمع من الصحابة : منهم أبو هريرة ، وعبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وأنس بن مالك ، وجندب بن عبد الله البجلى ، وعبد الله بن الزبير ، وعمران ابن الحصين ، وعدى بن حاتم ، وسليمان بن عامر ، وأم عطية الأنصارية .

وسمع من جمع من التابعين ، فيهم عبيدة السلمانى ، وقيس بن عباد ، وسالم ابن يسار ، وشريح ، وعلقمة ، والربيع بن خيثم ، ومعبد بن خيثم ، وحميد بن عبد الرحمن الحميرى ، وعبد الرحمن بن أبى بكرة ، وأخته حفصة ، وخلائق آخرون .

وروى عنه جماعات .

وكان يقول : « إن هذا العلم دين . فانظروا عمن تأخذونه » .

وكما كان عالماً بالحديث ، كان عالماً بالقضاء . حتى قال عثمان البتى :

« لم يكن بهذه البلدة أحد أعلم بالقضاء من محمد بن سيرين » .

وجمع إلى هذا علمه بتعبير الرؤيا وتفسير الأحلام . حتى صار يشار إليه بالبنان فى هذا المجال ، وأصبح إماماً حجة فيه . وهذا جعل بعض المتأخرين عنه يكتبون رسائل فى تعبير الرؤيا ، وينسبونها إليه لتروج وتنتشر .

ولقد نشأ ابن سيرين بالبصرة . واستقر فيها . وعمل بزازاً ، يشتغل بتجارة البز . على عادة الأعلام من علماء من هذه الأمة الذين لم يحل العلم بينها وبين العمل والاحتراف .

ولم تخل حياة ابن سيرين من المتاعب والمصاعب ، ولقد ذاق مرارة السجن فى بعض الديون التى ركبته . ولم يستطع الوفاء بها . ولما صار فى السجن عرف السجان قدره . فجاء إلى ابن سيرين يقول له : إذا كان الليل فاذهب

إلى أهلك ، وإذا أصبحت فتعال ، فأنف ابن سيرين أن يفعل ، وقال للسجان : لا والله ، لا أعينك على خيانة السلطان .

ولا عجب أن يكون منه هذا الموقف الرائع ، فالتاريخ يحدثنا بأنه كان مثلا يحتذى فى الورع والتقوى .

لقد كان متميزاً فى دينه ، لا يقترب من شبهة ولا ريبة ، كثير التنظيف والتعفف والتطهر .

لا يغتاب ولا يحسد ، وإذا اغتاب أحداً تصدق بدينار ، وإذا مدح أحداً قال : هو كما يشاء الله ، وإذا ذم أحداً قال : هو كما يعلم الله .

يكره المراء ويقول لمن يماريه : إنى قد أعلم ما تريد ، وأنا أعلم بالمراء منك ، ولكنى لا أريد أن أماريك .

ريقول : لو يعلم الذى يتكلم أن كلامه يكتب عليه لقل كلامه .

ويتلو قول الله تبارك وتعالى : (وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) .

ثم يقول : اللهم محصنا ، ولا تجعلنا كافرين .

وإذا ودع شخصاً قال له : اتق الله ، واطلب ما قدر لك من حلال ، فإنك إن أخذته من حرام لم تصب أكثر مما قدر لك !

وطالت حياة ابن سيرين بعض الطول ، حتى قاربت الثمانين ، وقد عمرها بالعلم والعمل ، والتقوى والورع ، ثم لحق بربه يوم الجمعة ، لتسع مضين من شهر شوال ، سنة عشر ومائة ، ولما شهدت البصرة ميلاده ، شهدت وفاته ، رضوان الله عليه .

• • •

هذه خلاصة القول عن محمد بن سيرين فى التاريخ .

ويأتى الحديث عن الكتاب المنسوب إليه ، تحت عنوان : « تفسير الأحلام » .

والبعض يسميه : « منتخب الكلام فى تفسير الأحلام » ، وهو كتاب لطيف الحجم ، ظهر مطبوعاً أكثر من مرة .

وهناك من يشكك فى نسبة هذا الكتاب إلى ابن سيرين ، ولهذا التشكيك دوافعه التى نعرض لها بعد قليل . كما أن ابن النديم قد ذكر لابن سيرين كتاباً اسمه « تعبير الرؤيا » . وهناك أيضاً من يشكك فى هذه النسبة .

وقد جاء فى أول الكتاب المسمى « تفسير الأحلام » هذه العبارة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى ، وعلى آله وصحبه وسلم . وبعد ، فهذا كتاب جليل فى تعبير الرؤيا . ينسب إلى الإمام محمد بن سيرين رحمه الله تعالى . . » .

ومنذ هذه السطور الأولى فى طليعة الكتاب تشم رائحة التشكك فى نسبة الكتاب إلى صاحبنا . وسنعود إلى بحث هذه القضية بعد قليل .

ويحرص ابن سيرين فى الباب الأول من كتابه – إن صحت النسبة – على أن يبين صلة تفسير الأحلام بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، فهو يبدأ أولا بذكر الصفات التى يلزم أن يتحلى بها المعبر للرؤى المفسر للأحلام ، وأغلبها أخلاق دينية . ثم يبين ارتباط التعبير للرؤيا بكتاب الله عز وجل ، والاهتداء به ، والاستمداد من معينه . وكذلك ارتباط هذا التعبير بالحديث الشريف . فيقول :

« اعلم وفقني الله وإياك إلى طاعته ، أن الرؤيا – لما كانت جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة – لزم أن يكون المعبر عالماً بكتاب الله ، حافظاً لحديث رسول الله ﷺ ، خبيراً بلسان العرب واشتقاق الألفاظ ، عارفاً بهيئات الناس ، ضابطاً لأصول التمييز ، عفيف النفس ، طاهر الأخلاق ، صادق اللسان ، ليوفقه الله لما فيه الصواب ، ويهديه لمعرفة أولى الألباب ، فإن الرؤيا تعبر باختلاف الأزمنة والأوقات ، فتارة تعبر من كتاب الله تعالى ، وتارة تعبر من حديث الرسول ﷺ ، وتارة تعبر عن المثل السائر ، وربما صرفت عن الرائي إلى نظيره أو سميه .

وقد تؤول الرؤيا من لفظ الاسم مرة ، ومرة من ضده ، ومرة من اشتقاقه ، ومرة بالزيادة ، ومرة بالنقصان .

فأما التأويل من القرآن الكريم ، فكالبيض يعبر عنه بالنسوة ، لقوله تعالى : (كأنهن بيض مكنون) وكالحجارة يعبر عنها بالقسوة ، لقوله تعالى : (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) . وكاللحم الطرى يعبر عنه بالغيبة ، لقوله تعالى : (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) . وكالمفاتيح فإنه يعبر عنها بالكنوز ، لقوله تعالى : (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) فتزيد أمواله ، لأن الكنوز لا يتوصل إليها إلا بالمفاتيح ؛ وكالسفينة يعبر عنها بالنجاة ، لقوله تعالى : (فأنجيناه وأصحاب السفينة) ولقوله تعالى : (فأنجيناه ومن معه فى الفلك) .

وكالملك يرى أنه قد دخل داراً أو بلدة أو محلة ، ولم يكن له عادة الدخول إليها ، يعبر عنها بحلول مصيبة أو ذل ينال أهل ذلك الموضع ، لقوله تعالى : (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة) . وكاللباس يعبر عنه بالنساء ، لقوله تعالى : (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) .

وكالغراب يعبر عنه بالرجل الفاسق ، لأن رسول الله ﷺ سماه فاسقاً . وكالفأرة يعبر عنها بالمرأة الفاسقة ، لقوله ﷺ : « الفأرة فاسقة » ، وسماها أيضاً : فويسقة . وكالضلع يعبر عنه بالمرأة أيضاً ، لأن رسول الله ﷺ قال : « المرأة خلقت من ضلع أعوج » . وكأسكفة الباب السفلى — أى عتبة — يعبر عنها بالمرأة ، لما روى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال لولده إسماعيل : « غير أسكفة بابك » [يعنى زوجته] .

ومن حديث الكتاب يفهم أنه قد يكون هناك تلطف وتأنق فى التماس التأويل أو التعبير ، كما فى شأن النرجس والورد مثلا ، إذ يعبر عنهما بقلة البقاء وقصر الأجل ، وذلك بسرعة ذبولها .

وقد يكون التأويل فى مجال التعبير والتفسير قريب المأخذ جداً ، كقول الكتاب إن كل رجل يسمى « الفضل » يعبر عنه بالفضل ، وكل رجل اسمه « راشد » يعبر عنه بالرشد ، وكل رجل اسمه « سالم » يعبر عنه بالسلامة .

ومن العجائب فى باب التعبير والتفسير للأحلام أن الشىء قد يفهمون منه معنى متصلا به ، أو عائداً إليه ، كما رأينا فى فهم معنى الرشد من اسم « راشد » ، أو معنى السلامة من اسم « سالم » .

وقد يفهمون من الشىء ضد معناه ، مثل البكاء ، إذ يعبر عنه بالفرح ، ومثل الضحك يعبر عنه بالحزن ، ومثل الرجلين يقتتلان أو يصطرعان فإنه يعبر عن المصروع المغلوب بأنه الغالب .

والمشهور عند الناس أن الرؤيا تكون عادة فى حلم يراه الإنسان ليلا ، ولكن ابن سيرين يقرر — فيما ينسب إليه — أن وقت الأحلام قد يكون ليلا ، وقد يكون نهاراً : « واعلم أن أصدق أوقات الرؤيا وأواخر الليل ، ووقت القائلة بالنهار » .

ومن الأدب والذوق فى تعبير الرؤيا وتفسير الأحلام أن يحسن الإنسان التخلص وهو يقوم بمهمة التعبير والتفسير ، فلا يصدم من يفسر له بقسوة فى تعبير ، أو غلظة فى مواجهة تؤذى وتسىء . يقول الكتاب : « فإن دلت الرؤيا على فاحشة ، أو قبيح أمر ، أخفاها عنه ، وعبرها له بحسن عبارة ، وأخفى عنه ماتدل عليه هذه الرؤيا » .

* * *

وكتاب « تفسير الأحلام » المنسوب إلى ابن سيرين يكثر النقل عن الإمام جعفر الصادق فى تعبير الرؤيا ، أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين السبط ، الهاشمى القرشى : سادس الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية ، ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط ، وكان جريئاً صداعاً بكلمة الحق ، وكانت له مكانة عالية فى العلم ، وكان من أجلاء التابعين ، وأخذ عنه الإمام أبو حنيفة ، والإمام مالك وآخرون ، وتوفى بالمدينة سنة ثمان وأربعين ومائة .

يروى عنه الكتاب مثلا ما يأتى : جاءه رجل فقال : رأيت كأن ابى ناولنى حديداً ، وسقانى شربة من خل ، فما يكون ذلك ؟

فقال له الإمام : ما رأيت من الحديد فإنه شدة لقوله تعالى : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) ، وربما تعلم بعض أولادك صنعة داود عليه السلام ، وأما شربك الخل فإنك ترزق مالا من مرض يصيبك ، يطول فيه مضجعك ، فإن توفاك الله تعالى يكون عنك راضياً ، ويغفر لك الذنوب : المستقبل منها والماضى ! !

وينقل عنه الكتاب أيضاً : جاءه رجل فقال له : رأيت كأن الشمس طالعة على جسدى ، فقال له الإمام : تنال أمراً عظيماً ، وشرفاً جسيماً ، من الملك ، ودنيا شاملة مع ذلك الشرف .

وجاءه آخر فقال : رأيت الشمس طالعة على قدمى دون سائر جسدى . فقال له : تنال فى معيشتك من البر والثمر ونبات الأرض ، مما يطأ قدمك ، وتنتفع به ، وتكون مقرباً من جهة الملك .

وروى عنه أيضاً : جاء رجل إلى جعفر الصادق فقال : رأيت كأنى عانقت القمر ، فقال له : أعزب أنت ؟ قال : نعم . قال : تتزوج بامرأة أحسن أهل زمانها .

ثم غاب عنه الرجل مدة طويلة ، ثم جاءه فقال له : يا سيدى ، إنى تزوجت امرأة لم يكن أحسن منها ، ورأيت البارحة كأنى أحمل القمر . فقال : ستلد لك هذه المرأة ولداً أحسن أهل زمانه وتحمل به . فقال الرجل : هى الآن حامل . فكان الأمر كما فسر رضى الله عنه .

وسأل رجل جعفر الصادق فقال : إنى رأيت كأنى أخوض فى المطر يوماً وليلة .

فقال له : ما أحسن ما رأيت ، أنت تخوض فى الرحمة ، وترزق فى الأرض سعة فى الرزق .

وجاءه رجل فقال له : رجل رأى فى منامه كأن مطراً نزل على رأسه خاصة . فقال : هذا رجل مذنب كثرت ذنوبه عليه ، وأحاطت به خطيئته ألم يسمع قوله تعالى : (وأمطرنا عليهم مطراً ، فساء مطر المنذرين) .

وسئل جعفر الصادق عن رجل رأى أنه يأكل السحاب ، وبين يديه سحب كثيرة .

فقال الإمام : نعم ما رأى هذا الرجل ، من أهل تعلم العلم ، وارتفاع فى الذكر ، وحاز الفخر ، ونال من ذلك ما لم ينله أحد ، وله ثناء حسن وجاه .

وسئل عن رجل كأن السحاب أظله . فقال : إن كان هذا الرجل سقيماً فيشفى ، وإن كان فقيراً فالله يغنى فقره ، وإن كان مظلوماً ينتصر ، لأن السحاب رحمة ، وكانت سحابة تظل الرسول الكريم – ﷺ – فى وقائع الحروب .

* * *

ويؤكد كتاب « تفسير الأحلام » المنسوب إلى ابن سيرين معنى الاستعانة بالقرآن الكريم فى تعبير الرؤيا ، فهو يذكر مثلا أن رجلا جاء إلى ابن سيرين وقال له : رأيت كأنى أؤذن . فقال : تقطع يدك !

ثم جاء رجل آخر ، وصاحب الرؤيا الأولى ما زال واقفاً ، فقال الثانى : رأيت كأنى أؤذن . فقال له : تحج !

وعجب الحاضرون ، فقال ابن سيرين : رأيت الأول سيماه سيما الشر ، فأولت بقوله تعالى : (ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون) ، ورأيت الثانى سيماه سيما الخير ، فأولت بقوله تعالى : (وأذن فى الناس بالحج) .

ويقول ابن سيرين فى الكتاب فيما ينسب إليه : « الرعد مع الريح سلطان جائر ، والبرق للمسافر خوف ، وللمقيم طمع ، لقوله تعالى : (هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً) » .

ومن الشواهد على تأكيد الاستعانة بالقرآن فى تفسير الأحلام أن ابن سيرين يقول فى الباب الخامس من الكتاب المنسوب إليه : « فمن رأى أنه اغتسل فى نهر أو بحر ، ولم ينظر هولا ولا ذلا ولا علاجاً لنفسه ، أو أرى أنه اغتسل فى ماء ، فإن الغسل ذهاب هم وغم وحزن ، وفرح وشفاء ، فإن كان مهموماً أو فى ضيق فرج الله عنه ضيقه وإن كان مريضاً شفاه الله تعالى . وإن كان مديوناً قضى الله دينه ، وإن كان ذا خوف أمن الله خوفه ، وإن

كان فى سجن خلصه الله منه ، قال الله تعالى : (اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب • ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب) .

ومن الشواهد أيضاً قوله : « الرياح إن كانت طيبة ولطيفة ، فهى بشارة وبركة ، لقوله تعالى : (وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته) . وإن كانت سوداء مظلمة فهى هم وغم ، لقوله تعالى : (وعاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) » .

ومن الشواهد قوله فى الباب الثامن : « المسكر من غير شراب مكروه لا خير فيه ، لقوله تعالى : (وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد) » .

ومن الشواهد قوله فى الباب الثامن والعشرين : « فمن رأى أنه عطشان ، وأراد أن يشرب من نهر ، فلم يشرب ، فإنه يخرج من حزن ، لقوله تعالى فى قصة طالوت : (إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ، ومن لم يطعمه فإنه منى) قال بعضهم : من أراد أن يشرب فلم يشرب لم يظفر بحاجته» !

ويعقد الكتاب باباً يعرض فيه « تأويل قراءة سور القرآن » حيث يتناول القرآن سورة سورة ، ذاكراً تأويل قراءة كل سورة مبتدئاً بالفاتحة مختتماً بسورة الإخلاص .

* * *

وهنا تبدو لنا بعض الملاحظات فيما يتعلق بالاستعانة بالقرآن المجيد فى تعبير الرؤيا . . .

نراه مثلا يقول : «فإن رأى أنه يأكل ناراً من غير لهب ، فإنه يأكل مال يتيم » .

وكان يستطيع هنا الاستئناس فى هذا التأويل بقول الله تعالى فى سورة النساء : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) .

وفى الباب الرابع يقول : « والشمس هى الملك ، وربما كانت أحد الأبوين » .

وكان من المستحسن أن يستشهد فى ذلك بقول القرآن الكريم ، وهو يسرد رؤيا يوسف : (إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) . فقد ذكر أهل التفسير أن المراد بالشمس والقمر هنا هو أبوه وأمه .

وفى الباب الخامس يقول الكتاب : « المطر غيث ورحمة » . وكان ينبغى له أن يستشهد بقول الله تعالى عن المطر فى سورة لقمان : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث) أى المطر ، وقوله فى سورة الشورى : (وَهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته) .

ويذكر الكتاب فى الباب السابع : « ومن رأى أنه يعصر العنب فإنه يخدم السلطان » . وكان ينبغى له أن يستشهد لذلك بما ذكره القرآن فى قصة يوسف : (ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً ...) أى أعصر عنباً ، وكان هذا الفتى يخدم السلطان كما جاء فى القصة .

وجاء فى الباب السابع عشر أن « البقرة السوداء سنة مخصبة ، وإذا اجتمعت بقرات سود كانت سنين مخصبة بقدر سمنها ، إن ملكها ، أو كانت لأهل ذلك الموضع الذى هو فيه ، ولحوم البقر أموال ، وإن كانت هزالا فهى سنون مجدبة . فمن رأى بقرة سمينة فهى سنة مخصبة من تلك السنين » .

وقد كان من المستحسن أن يستشهد فى ذلك بما قصه القرآن المجيد فى سورة يوسف من رؤيا الملك ، فقد جاء ذكر البقر فى الرؤيا ، وفسروا البقر بالسنين ، فذلك حيث يقول القرآن : (وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون * قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين * وقال الذى نجا منهما وادّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون * يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون * قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون * ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون * ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) .

وفى الباب نفسه ذكر أن « النعمة امرأة شريفة كريمة محظية ، فإن رأى أنه أصاب نعجة ، أو ملكها ، فإنه يصيب امرأة » . وكان من الممكن أن يستشهد بما جاء فى سورة ص : (إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب * قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) .

فقد قال بعض المفسرين إن « النعجة » هنا رمز إلى الزوجة .

ويقول الكتاب فى الباب الثامن : « من رأى نهراً من خمر فإن كان فى روضة خضرة مجهولة ، فإنه ينال دخول الجنة إذا شرب منه ... » . وقد كان من الممكن أن يستأنس لذلك بقول الله تعالى فى سورة محمد : (مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهارٌ من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين) .

* * *

ثم تأتى ملاحظات نلاحظها فى باب الاستعانة بالحديث النبوى على تعبير الرؤيا :

فى الباب التاسع يقول : « من رأى أن فى يده طولا فإنه يكثر ماله ونفقته وكرمه » ، كما قال فى الباب الأول : « وأما التأويل من الأمثال السائرة فكالرجل يرى فى يده طولا فإنه يعبر باصطناع المعروف ، لقولهم : هذا أطول منك يداً وباعاً ، أى أكثر منك عطاء » .

وكان من الممكن لابن سيرين أن يجعل ذلك من باب التأويل المستمد من الحديث النبوى الشريف ، فقد روى أن رسول الله ﷺ قال لزوجاته : « أولكن لحوقاً بى أطولكن يداً » . أراد أطولكن يداً بالعطاء ، أى أكثركن إعطاء للناس .

وفى الباب الرابع يقول الكتاب : « اللبن هو فطرة الإسلام وسنة رسول الله ﷺ » . وكان من الممكن أن يستعين هنا بما جاء فى قصة الإسراء والمعراج حينما عرض جبريل على النبى الخمر والماء واللبن ، فأخذ النبى وعاء اللبن ، فقال له جبريل : « هديت الفطرة » .

* * *

هذا وفى الكتاب إشارات تدل على نسبته إلى ابن سيرين ضعيفة غير متيقنة ، كان يتكرر فى الكتاب مثل قوله : « يحكى أنه جاء رجل إلى محمد ابن سيرين » وقوله : « جاءت امرأة إلى محمد بن سيرين » والمؤلف لا يتحدث عن نفسه فى العادة بهذه الصورة .

ومن الإشارات على ضعف نسبة الكتاب إلى ابن سيرين أن ترد به أقاصيص تحتاج إلى تمحيص ، مثل ما جاء فى الباب الرابع : « جاءت امرأة إلى محمد بن سيرين فقالت : رأيت القمر قد دخل فى الثريا ، ونادانى نداء من خلفى : أيتها المرأة ، امضى إلى محمد بن سيرين فقصى عليه رؤياك .

فقبض ابن سيرين على يديها وقال لها : كيف رأيت ؟

فأعادت الكلام ثانياً . فعند ذلك اصفر وجهه ، وقام وهو آخذ ببطنه . فقالت أخته : ما بالك مصفر الوجه ؟ قال : وكيف لا يكون ذلك ، وقد زعمت هذه المرأة أنى قد أقبر بعد سبعة أيام .

فدفن فى اليوم السابع رحمه الله » ! .

وهكذا يتحدث ابن سيرين عن نفسه بعد أن مات وصار فى القبر ! ! أهذا معقول ؟

وفى الباب السابع يقول عن « التين » : « وكان يسميه محمد بن سيرين بالتبر » . ويقول عقب ذلك مباشرة : « قيل إن رجلا أهدى إلى الإمام محمد ابن سيرين جملا . . . » . وهكذا يتحدث عن ابن سيرين عن نفسه بضمير الغائب . ويذكر اسمه حيناً مجرداً من كل لقب ، وحيناً ينبعت نفسه بلقب « الإمام » .

أهذا معقول ؟ !

وفى الباب الحادى عشر يحكى ابن سيرين — كما يزعم الكتاب — حكاية عن أبي حنيفة ، مع أن ابن سيرين مات قبل موت أبي حنيفة بأربعين سنة ، لابن سيرين سنة مائة وعشر ، وأبو حنيفة مات سنة مائة وخمسين ! !

وفى الباب العاشر يورد الكتاب أقاصيص لا تليق عن الأعضاء التناسلية والنواحى الجنسية . مما لا يناسب مقام الإمام الجليل محمد بن سيرين .

أغلب الظن — إن لم يكن اليقين — أن الكتاب جمعه جامع . مما روى عن ابن سيرين . ثم نسبه إليه .

والله جل جلاله أعلم بحقيقة الأمر .

فقهاء المدينة السبعة

السؤال :

نسمع عن فقهاء المدينة السبعة فمن هم ؟ مع نبذة مبسطة عن حياتهم ؟

الجواب :

المدينة المنورة هى دار الهجرة ، ومركز النصرة ، ومضجع رسول الله ﷺ ، وقد نوه بها النبي تنويهاً كريماً زكى من شأنها ، ورفع من قدرها فقال فى الحديث المتفق عليه : « إن الله تعالى سمى المدينة طابة » [لطيب أهلها] . وكذلك قال فى الحديث المتفق عليه : « المدينة كالكير تنفى خبثها وينصح طيبها » . وكذلك قال : « إن الإيمان ليأرز [يجتمع] إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها » .

ولقد تألقت مجموعة من أعلام الفقهاء فى صدر الإسلام عرفهم الناس باسم « فقهاء المدينة السبعة » كانوا إذا جاءتهم المسألة من مسائل الدين دخلوا جميعاً فنظروا فيها ، ولا يقضى القاضى حتى يرفع إليهم القضية ، لينظروا فيها ويصدروا الحكم .

وهؤلاء الفقهاء السبعة هم : خارجة بن زيد ، وعروة بن الزبير ، والقاسم بن محمد ، وعبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وسليمان بن يسار ، وسعيد بن المسيب . والسابع هو سالم بن عبد الله بن عمر . أو أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ، أو أبو سلمة بن عبد الرحمن . وذلك لأن سابع هؤلاء الفقهاء اختلف فى تحديده الرواة .

وقد جمع هؤلاء الفقهاء السبعة أحد الشعراء فى قوله :

ألا كل من يقتدى بأئمـــــة   فقسمته ضيزى عن الحق خارجة
فخذهم : عبيد الله . عروة ، قاسم   سعيد ، أبو بكر . سليمان ، خارجة

وهذه التسمية : « فقهاء المدينة السبعة » تذكرنا بالفقهاء العشرة ، وهم جملة القضاة الذين كان الحاكم العادل خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز يرجع إليهم فى زمن ولايته على المدينة ، كما أشار إلى ذلك ابن كثير فى كتابه : « البداية والنهاية » .

يقول ابن جرير الطبرى فى تاريخه إنه فى سنة سبع وثمانين للهجرة أسند الوليد بن عبد الملك إمارة المدينة إلى عمر بن عبد العزيز ، فقدمها فى شهر ربيع الأول ، وهو ابن خمس وعشرين سنة ، فلما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة : هم عروة بن الزبير ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبو بكر بن عبد الرحمن ، وأبو بكر بن سليمان بن خيثمة ، وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عبد الله ابن عمرو ، وعبد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد ، فدخلوا عليه فجلسوا ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : إنى إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتكونون فيه عواناً على الحق ، ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم ، أو برأى من حضر منكم ، فإن رأيتم أحد يتعدى ، وبلغكم عن عامل لى ظلامة . فأحرج الله على من بلغه ذلك إلا بلغنى .

فخرجوا يجزونه خيراً وافترقوا .

فمن هؤلاء الفقهاء السبعة الذين نلاحظ أولا أنهم مختارون من بين القضاة العشرة الذين كان يستشيرهم خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز ؟

وإذا كان القضاة العشرة قد اختارهم وجمعهم عمر بن عبد العزيز . فإن فقهاء المدينة السبعة لم يختَرهم فرد بعينه . وإنما هى المكانة الفقهية المرموقة التى أهلت هؤلاء ليشيع بين الناس وصفهم بأنهم فقهاء المدينة السبعة .

ولنتحدث حديث التعريف الموجز المركز عن كل واحد من هؤلاء ، دون أن ندخل بينهم بشيء من المفاضلة أو التميز ، ولنتحدث أولا عن خارجة بن زيد :

هو أبو زيد خارجة بن زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصارى النجارى ، المدنى التابعى . كان إماماً بارعاً فى العلم ، واتفقوا على توثيقه وجلالته ، وقال عنه السخاوى فى كتابه « التحفة اللطيفة » : « كان يفتى بالمدينة مع عروة وطبقته ، بل عدوه من الفقهاء السبعة . روى خارجة عن أبيه زيد ، وعمه يزيد ، وأم العلاء الأنصارية ، وروى عنه سالم بن عبد الله . والزهرى ، ويزيد بن عبد الله بن قسيط ، وأبو الزناد ، وآخرون . وقد توفى خارجة بالمدينة ، سنة مائة للهجرة ، وهو ابن سبعين سنة » .

وثانى هؤلاء الفقهاء هو عروة بن الزبير :

وهو أبو عبد الله عروة بن الزبير بن العوام ، الأسدى المدنى ، التابعى الجليل ، فقيه المدينة ، وأحد فقهائها السبعة . وكان فقيهاً حافظاً ثبتاً عالماً بالسير ، وقد أجمعوا على جلالته وعلو مرتبته ووفور علمه ، ومناقبه كثيرة مشهورة .

قال بن شهاب : كان عروة بحراً لا يكدر .

وقال ابنه هشام : والله ما تعلمنا منه جزءاً من ألفى جزء من حديثه .

وقال ابن عيينة : كان أعلم الناس بحديث عائشة ثلاثة : القاسم وعروة وعمرة .

وقال ابن سعد : كان ثقة كثير الحديث ، فقيهاً عالماً ، مأموناً ثبتاً .

سمع من كثير من الصحابة ، وسمع خلائق من التابعين : سمع أباه وأخاه عبد الله ، وأمه أسماء بنت أبي بكر ، وخالته عائشة ، وسعيد بن زيد ، وحكيم بن حزام ، وابنه هشام بن حكيم ، وأبا أيوب وأبا حميد وأبا هريرة، وأسامة والحسن بن على ، والمسور والمغيرة والنعمان بن بشير ومعاوية . وأم سلمة وأم هانئ .

وسمع من العبادلة الأربعة ، وهم : عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمرو بن العاص . هكذا سماهم الإمام أحمد بن حنبل وسائر المحدثين وغيرهم .

قيل لأحمد بن حنبل : فعبد الله بن مسعود ؟

قال : هو ليس منهم . قال البيهقي : لأنه تقدمت وفاته ، وهؤلاء عاشوا طويلا ، حتى احتيج إلى علمهم ، فإذا اتفقوا على شيء قيل : هذا قول العبادلة أو فعلهم .

وروى عن عروة : عطاء وابن أبي مليكة ، وعراك بن مالك وأبو سلمة ابن عبد الرحمن والزهرى وعمر بن عبد العزيز ، وبنوه : هشام ومحمد ويحيي وعبد الله وعثمان ، بنو عروة ، وخلائق من التابعين وغيرهم .

توفى عروة فى قول الجمهور سنة أربع وتسعين للهجرة ، وقال البخارى سنة تسع وتسعين .

وثالث هؤلاء الفقهاء : القاسم بن محمد .

وهو التابعى الجليل أبو محمد — أو أبو عبد الرحمن — القاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق ، الذى أجمعوا على جلالته وتوثيقه وإمامته ، كان ثقة ورعاً رفيعاً فقيهاً إماماً كثير الحديث .

قال عنه بن عيينة : كان القاسم بن محمد أفضل أهل زمانه .

وقال ابن شوذب : ما أدركنا بالمدينة أحداً نفضله على القاسم بن محمد .

وقال أبو الزناد : ما رأيت أعلم من القاسم بن محمد .

وقال أحمد بن عبد الله : كان القاسم من خيار التابعين وفقائهم ، ثقة نزهاً ، رجلا صالحاً .

روى القاسم عن ابن عمر وابن عباس وأبي هريرة ومعاوية وعائشة ، وآخرين من الصحابة ، وخلائق من التابعين .

وروى عنه جماعات من التابعين ، منهم نافع مولى ابن عمر ، وابن أبي مليكة ، والزهري ويحيي الأنصارى ، وأيوب وربيعة وغيرهم .

وتحدث القاسم عن درجته فى التحصيل والعلم فقال : استقلت عائشة بالفتوى وخلافة أبي بكر وعمر وعثمان إلى أن ماتت ، وكنت ملازماً لها ، وكنت أجالس البحر عبد الله بن عباس ، وجلست مع ابن عمر وأبي هريرة فأكثرت ، وكان هناك - يعنى ابن عمر - علم جم وورع ووقوف عما لا يعلم .

ولما حضرت الوفاة القاسم قال يناجي ربه : أنت ربي وحسبي وسيدى . وقال ابن سعد إن القاسم أوفى سنة ثنتى عشرة ومائة . وقيل سنة ثمان ومائة وقيل سنة إحدى ومائة ، وبلغ من العمر اثنتين وسبعين سنة وقد ذهب بصره عليه رحمة الله تعالى .

ورابع هؤلاء الفقهاء : عبيد الله بن عبد الله .

هو الإمام التابعى أبو عبد الله عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلى المدنى ، وهو ثقة صالح جامع للعلم ، وكان أحد الفقهاء العشرة فى عهد

عمر بن عبد العزيز ، ثم كان أحد فقهاء المدينة السبعة ، الذين تدور عليهم الفتوى ، وكان عالماً فاضلا ، مقدماً فى الفقه ، شاعراً محسناً واتفقوا على جلالته وإقامته وعظم منزلته .

قال ابن سعد عنه: كان عالماً ثقة فقيهاً ، كثير العلم والحديث شاعراً .

وقال الزهرى : كان ابن عباس يعزه [أى يعز عبيد الله بن عبد الله] .

وقال أيضاً : ما جالست عالماً إلا ورأيت أنى أتيت على ما عنده ، إلا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، فإنى لم آته إلا وجدت عنده علماً طريفاً .

وتحدث عبيد الله عن قوة ذاكرته فقال : ما سمعت حديثاً قط فأشاء أن أعيه إلا وعيته ، وكان عبيد الله معلم خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز .

سمع عبيد الله من ابن عباس وابن عمر وأبى هريرة وأبى سعيد الخدرى ، وأبى واقد الليثى وزيد بن خالد ، والنعمان بن بشير ، وعائشة وفاطمة بنت قيس ، وغيرهم من الصحابة .

وسمع جماعات من كبار التابعين .

وروى عن عراك بن مالك والزهرى ، وأبو الزناد وصالح بن كيسان ، وغيرهم .

وكان ضريراً قد ذهب بصره فى آخر حياته .

توفى عبيد الله بن عبد الله سنة أربع وتسعين وقيل سنة خمس وتسعين ، أو تسع وتسعين .

ويأتى خامس هؤلاء الفقهاء إنه التابعى المدنى أبو أيوب – وقيل أبو عبد الرحمن ، وقيل أبو عبد الله .

سليمان بن يسار الهلالى .

قال عنه ابن سعد : كان ثقة عالماً رفيعاً فقيهاً كثير العلم .

وقال أبو زرعة الرازى : سليمان بن يسار مدنى ثقة مأمون فاضل عابد .

سمع سليمان من ابن عباس وابن عمر وجابر ، وحسان بن ثابت وأبى رافع وزيد بن ثابت والمقداد بن الأسود ، وأبى سعيد وأبى واقد وأبى هريرة ، وعائشة وأم سلمة ، وخلائق من التابعين .

وروى عنه جماعات من التابعين ، منهم عمرو بن دينار ونافع ، وعمرو ابن ميمون وصالح بن كيسان ، والزهرى ويحيى الأنصارى وقتادة ، وآخرون .

توفى سليمان بن يسار سنة ثلاث ومائة وقيل سنة تسع ومائة ، وهو ابن ثلاث وسبعين سنة .

ويأتى سادس هؤلاء الفقهاء سعيد بن المسيب :

وهو فقيه أهل المدينة ، الإمام الجليل ، أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن بن وهب المخزومى إمام التابعين ، وعالم أهل المدينة بلا مدافع ، كما يعبر عنه السخاوى فى كتابه « التحفة » . اتفق العلماء على إمامته وجلالته ، وتقدمه على أهل عصره فى العلم والفضيلة ووجوه الخير ، وأقوال السلف والخلف متظاهرة على إمامته وجلالته وعظم مكانه فى العلم والدين . وله ترجمة واسعة أوردها ابن سعد فى كتابه « الطبقات الكبرى » فى الجزء الأول ، وقد شغل هذه الترجمة ما يزيد عن سبع عشرة صفحة ذكر فيها أنه كان جامعاً ثقة كثير الحديث ثبتاً فقيهاً مأموناً . ورعاً عالياً رفيعاً .

ويقول عنه محمد بن يحيى بن حيان : كان رأس من بالمدينة فى دهره ؛ المقدم عليهم فى الفتوى : سعيد بن المسيب ويقال له فقيه الفقهاء .

وقال ميمون بن مهران : أتيت المدينة فسألت عن أفقه أهلها ، فدفعت إلى سعيد بن المسيب فسألته .

وقال مكحول : سعيد بن المسيب عالم العلماء .

وقال أبو حاتم : ليس فى التابعين أنبل من سعيد بن المسيب .

وقال قتادة ما رأيت أحداً أعلم بحلال الله وحرامه من سعيد بن المسيب .

وقال سليمان بن موسى : كان سعيد بن المسيب أفقه التابعين .

وقال على بن المدينى : لا أعلم أحداً فى التابعين أوسع علماً من سعيد بن المسيب وإذا قال سعيد مضت السنة فحسبك به . وهو عندى أجل التابعين .

وحينما قال الإمام أحمد بن حنبل : أفضل التابعين سعيد بن المسيب ، قيل له : فعلقمة والأسود ؟

قال : سعيد وعلقمة والأسود .

وقول ابن حنبل إن سعيد بن المسيب أفضل التابعين ، أراد أنه أفضلهم فى علوم الشرع ، وإلا فالحديث المروى عن عمر فى صحيح مسلم يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن خير التابعين رجل يقال له أويس » . ويمكن مراجعة تفاصيل ترجمته فى كتابى « فدائيون فى تاريخ الإسلام » .

سمع سعيد بن المسيب من عمر وعثمان وعلى ، وسعد بن أبى وقاص ، وابن عباس ، وابن عمر وجبير بن مطعم ، وعبد الله بن زيد بن عاصم ، وحكيم بن حزام وأبى هريرة ، ومعاوية وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبى موسى الأشعرى ، وصفوان بن أمية وأبيه ، والمسور بن مخرمة وجابر ابن عبد الله ، وأبى سعيد الخدرى وزيد بن ثابت وعثمان بن أبى العاص ، وعائشة وأم سلمة ، وغيرهم من الصحابة .

وروى عنه جماعات من أعلام التابعين ، منهم عطاء بن أبى رباح ومحمد الباقر وعمرو بن دينار ، ويحيى الأنصارى والزهرى ، وخلائق غيرهم .

وينوه ابن المسيب بما بذله من جهد فى سبيل الحديث والعلم فيقول : كنت أرحل الأيام والليالى فى طلب الحديث الواحد . وما كان يمر على أذنه شىء إلا وعاه قلبه . وقال فيما قال : ما بقى أحد أعلم بكل قضاء قضاه رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وعمر منى . وكان يفتى وأصحاب رسول الله ﷺ أحياء.

وكان عمر بن عبد العزيز لا يقضى بقضاء حتى يسأل سعيد بن المسيب .

وكان ابن المسيب من أعبر الناس للرؤيا وأخذ ذلك عن أسماء بنت أبى بكر ، وهى أخذته عن أبيها ، وكان رجلا صالحاً لا يأخذ العطاء ، وله بضاعة بأربعمائة دينار يتجر فيها فى الزيت .

وقد أوذى فى الله عز وجل حيث ضربه هشام بن إسماعيل ستين سوطاً ، لأنه تردد فى إعطاء البيعة لولدى عبد الملك بن مروان .

ولما قيل لسعيد بن المسيب : ادع على بنى أمية . فأجاب بهذه الإجابة الرائعة : اللهم أعز دينك ، وأظهر أولياءك ، وأخز أعداءك ، فى عافية لأمة محمد ﷺ .

وكان كما روى يحيى بن سعيد يتحوط فى دينه ، فلا يكاد يفتى فتوى ، ولا يقول شيئاً إلا قال : اللهم سلمنى وسلم منى . ومع ذلك كان واسع الأفق عميق النظرة فقد قال له عبد الرحمن ابن حرملة : وجدت رجلا سكران ، أفترانى يسعنى ألا أرفعه إلى السلطان ؟

قال سعيد : إن استطعت أن تستره بثوبك فاستره .

وكان سعيد بن المسيب زوجاً لبنت أبى هريرة ، وحج أربعين حجة ، وقال عنه ابن حيان : « كان من سادات التابعين فقهاً وديناً ، وورعاً وعلماً . وعبادة وفضلا ، بل هو سيد التابعين ، وأفقه أهل الحجاز ، وأعبر أهل الناس للرؤيا ، ما نودى بالصلاة أربعين سنة إلا وهو فى المسجد ينتظرها » .

توفى سعيد بن المسيب سنة أربع وتسعين للهجرة ، وكان يقال لهذه السنة : سنة الفقهاء ، لكثرة من مات فيها من الفقهاء . ومات ابن المسيب وهو ابن أربع وثمانين سنة ، وقيل : وهو ابن اثنتين وسبعين سنة ، رحمة الله تعالى عليه .

* * *

ويأتى سابع هؤلاء الفقهاء — على الخلاف الذى أشرنا إليه سابقاً — وهو سالم بن عبد الله بن عمر :

وهو أبو محمد — ويقال أبو عبد الله — سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، القرشى المدنى التابعى ، الإمام الفقيه الزاهد العابد . أجمعوا على إمامته وجلالته وزهادته وعلو مرتبته ، وقال عنه السخاوى فى « التحفة اللطيفة » : إنه « أحد الأعلام المكثرين ، والفقهاء الذين يصدر عنهم أهل المدينة قضاء وفتيا » .

وقال سعيد بن المسيب عن سالم : كان عبد الله بن عمر أشبه ولد عمر به ، وكان سالم أشبه ولد عبد الله به .

وقال مالك بن أنس : لم يكن أحد أشبه بمن مضى من الصالحين فى الزهد والقصد والعيش من سالم ، كان يلبس الثوب بدرهمين .

وقال ابن سعد : كان سالم كثير الحديث عالياً من الرجال ورعاً .

سمع سالم أباه وأبا أيوب الأنصارى ورافع ابن خديج وأبا هريرة وعائشة ، وسمع جماعات من التابعين .

وروى عن سالم جماعات من التابعين ، منهم عمرو بن دينار ونافع مولى أبيه ، والزهرى وموسى بن عقبة ، وحميد الطويل وعبيد الله العمرى ، وصالح بن كيسان ، وغيرهم من التابعين وخلائق من تابعى التابعين .

ومن زهد سالم أن هشام بن عبد الملك رآه يطوف بالكعبة فقال له : سلنى حاجة . فقال سالم : إنى أستحيي من الله تعالى أن أسأل فى بيته غيره .

فلما خرج سالم من المسجد لحق به هشام وقال له : الآن خرجت .

فقال سالم : والله ما سألت الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها.

توفى سالم بالمدينة سنة خمس ومائة أو قيل سنة ثمان ومائة ، رحمة الله تعالى عليه .

هذا هو القول الأول فى تحديد السابع من هؤلاء الفقهاء .

والرأى الثانى أنه هو التابعى أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ابن المغيرة المخزومى المدنى ، واسمه كنيته . ولد فى خلافة عمر ، وكان يقال له : راهب قريش ، لكثرة صلاته . وكان ثقة عالماً عاقلا سخياً كثير الحديث.

قال ابن خراش : أبو بكر هذا أحد أئمة المسلمين .

وقال ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » عن سالم : كان من الثقة والأمانة والفقه وصحة الرواية على جانب عظيم .

وله أخوة هم : عمر وعكرمة وعبد الله ، كلهم ثقات أجلة يضرب بهم المثل .

سمع سالم أباه عبد الرحمن الصحابى ، وأبا مسعود البدرى ، وأبا هريرة وعائشة وأم سلمة وأسماء بنت عميس وأم معقل الأسدية ، ومروان بن الحكم ، وغيرهم .

وروى عنه مجاهد وعكرمة بن خالد وعمر بن عبد العزيز ، والشعبى وعمرو بن دينار ، والزهدى ، وعبد ربه بن سعيد والحكم بن عتيبة وجامع ابن شداد ، وابناه عبد الله وعبد الملك : ابنا أبى بكر ، وعبد الواحد بن أيمن وعبد الله بن كعب الحميرى ، وآخرون .

وكان أبو بكر بن عبد الرحمن مكفوفاً .

توفى أبو بكر سنة ثلاث وتسعين أو أربع وتسعين ، وقد قال الواقدى عنه : مات سنة أربع وتسعين وكان يقال لها : سنة الفقهاء ، لكثرة من مات فيها منهم .

والقول الثالث فى تحديد سابع هؤلاء الفقهاء هو أبو سلمة عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى المدنى ، من كبار التابعين ، كان إماماً عالماً ، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة ، وكان واسع العلم ، واتفقوا على جلالة أبى سامة وإمامته وعظم قدره وارتفعت منزلته . يقول ابن سعد عنه : كان ثقة فقيهاً كثير العلم .

وقال أبو زرعة : هو ثقة إمام .

سمع أبو سلمة جماعة من الصحابة ، منهم عبد الله بن سلام ، وابن عمر وابن عباس ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وجابر بن عبد الله ، وأبو سعيد الخدرى ، وأبو سيد ، ومعاوية بن الحكم وربيعة بن كعب ، وعائشة وأم سلمة ، وجماعة من التابعين ، منهم عطاء بن أبى رباح وعروة وبُشير بن سعيد وعمر بن عبد العزيز .

وروى عنه خلائق من التابعين وغيرهم ، فمن التابعين عامر الشعبي وعبد الرحمن الأعرج وعراك بن مالك وعمر بن دينار ، وأبو حازم سلمة ابن دينار ، والزهدى ويحيى الأنصارى ويحيى بن أبى كثير ، وآخرون .

توفى أبو سلمة بن عبد الرحمن بالمدينة سنة أربع وتسعين ، وهو ابن ثنتين وسبعين سنة ، رحمة الله تعالى عليه .

* * *

ومما ينبغي أن نلاحظه فى شأن هؤلاء الفقهاء السبعة أن هناك مجموعة من الصفات المشتركة بينهم ، فكلهم من أهل المدينة ، وكلهم توفوا بها ، وكلهم من التابعين ، وهم جميعاً متقاربون من ناحية العصر أو الجيل ، فهم قد كانوا متألقين فى أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى الهجرى . وكلهم أو أغلبهم قد اشتركوا فى السماع والأخذ عن أناس بعينهم فهم مثلا قد سمعوا من العبادلة الذين أشرنا إليهم ، وهم عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله ابن الزبير ، وعبد لله بن عمرو بن العاص ، وهم قد سمعوا من أبى هريرة وعائشة وأم سلمة .

وهم قد اتصفوا بصفات علمية ودينية وخلقية أهلتهم لكى يكونوا فقهاء المدينة السبعة ، فهم قد اتصفوا بالإمامة والثقة والجلالة والعلم والحديث ورفعة المنزلة وكثرة الحديث والأمانة والزهد ونحو ذلك .

وهم أو كثير منهم قد مات سنة أربع وتسعين من الهجرة وهى سنة الفقهاء التى يقول عنها بن كثير فى « البداية والنهاية » ما نصه : « وكان يقال لهذه السنة سنة الفقهاء ، لأنه مات فيها عامة فقهاء المدينة ، مات فى أولها على بن الحسين بن زين العابدين ، ثم عروة بن الزبير ، ثم سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وسعيد بن جبير من أهل مكة . . . » .

واشترك هؤلاء الفقهاء أيضاً فى أنهم طالت أعمارهم حتى تجاوزوا السبعين من العمر .

وكذلك نلاحظ أن كثيراً من هؤلاء الفقهاء قد كف بصره فى أخريات أيامه ، ولعل ذلك كان نتيجة للبحث الطويل والتنقيب الدائم على مسائل العلم والفقه .

رضوان الله تبارك وتعالى على فقهاء المدينة السبعة الذين تألقوا فى صدر الإسلام أئمة أعلاماً ، نالوا مكانتهم العالية بإخلاصهم ويقينهم وسعيهم الموصول فى سبيل الله ، ومن أجل دين الله .

رضوان الله عليهم أجمعين .

* * *

هند بنت عتبة

امرأة ذات بطولة فى الجاهلية والاسلام

السؤال :

قرأنا فى كتب السيرة عن هند بنت عتبة فمن هى وما أمر بطولتها ؟

الجواب :

هذه امرأة عربية كان لها خطرها وأثرها قبل إسلامها ، وكان لها قدرها وذكرها فى الإسلام ، وهى امرأة تعد نموذجاً للمرأة العربية بجاهليتها وإسلامها ، فهى ذات بأس واقتدار ، حينما استبدت بها مواريث بيئتها ، وتقاليد قومها ، وهى ذات ادكار واعتبار ، حينما استضاءت بنور الإيمان ، وهى ذات بطولة فى جاهليتها بمقاييس أهلها ومجتمعها ، وهى ذات بطولة فى

إسلامها بموازين الحق والقسطاس ؛ وإذا كانت قد شانتها قوة شخصيتها فى ظلمات جاهليتها ، فقد زانتها قوة شخصيتها فى أضواء الإسلام واليقين .

إنها هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف الأموية القرشية ، بنت زعيم فى ناديها هو عتبة بن ربيعة ، وزوجة زعيم فى قريش هو أبو سفيان ابن حرب ، وأم زعيم فى بنى أمية هو معاوية بن أبى سفيان . وأمها سيدة من سيدات قومها هى صفية بنت أمية بن حارثة بن الأوقص .

وقد توافرت لها صفات تزيد حسباً على حسب ، وترفع قدرها بين نساء العرب ، ففيها فصاحة وجرأة ، وأنفة وتعاظم ، وحزم ورأى ، تقول الشعر وترسل الحكمة ، وتشمخ بأنفها معتزة بنفسها ونسبها ، وكأن ابنها معاوية كان من أبصر الناس بها حين صورها فقال : « إنها فى الجاهلية عظيمة الخطر ، وفى الإسلام كريمة الخبر » . وما أبلغ الإمام ابن عبد البر حين أوجز وصفها فقال : « كانت امرأة لها نفس وأنفة » .

ولعل أول ما يستلفت أنظارنا وأفكارنا من أخبارها فى الجاهلية تلك القصة التى حاكها الأدب العربى فى أخباره أو أساطيره ، وهى قصة لانعدم فيها دلالة عميقة ، سواء أكانت من واقع التاريخ أو رائع الخيال ، لأنها تقنع بحقها حين تكون خبراً ، وتحاول تصوير الواقع إن كانت أسطورة .

حدث التاريخ الأدبى فقال إن هند بنت عتبة تزوجت « الفاكه بن المغيرة المخزومى » أحد فتيان قريش ، وكان له فى داره بيت ضيافة يغشاه الناس ويرتادونه بلا إذن ، وذات يوم كان الفاكه يستريح فى هذا البيت ومعه زوجته هند ، ثم خرج عنها لبعض شأنه وتركها نائمة من وهج القيلولة ، فأقبل بعض من كان يغشى البيت ، فلما رأى هنداً نائمة رجع من حيث جاء ،

وشاعت حبكة القصة أن يعود الفاكه فيشهد الرجل منصرفاً ، فيثور فى صدره الشك الأعمى .

ويدخل ثائراً على زوجته العربية الأبية ، ويسائلها فى تأنيب : من هذا الخارج من عندك ؟

فتجيب : والله ما انتبهت حتى نبهتنى ، وما رأيت أحداً قط .

ولكن الغيرة التى لا تبصر دفعته إلى قوله : الحقى بأبيك !

وفشا الخبر بين الناس . . . وأقبل عليها أبوها يقول لها : يا ابنتى ، احذرى العار وإن كان كذباً ، بثينى خبرك ، فإن كان الرجل صادقاً دسست عليه من يقتله ، فيقطع عنكِ العار ، وإن كان كاذباً حاكمته إلى بعض كهان اليمن . . . وهكذا كانت شرعة القوم يوم ذاك .

وأجابت هند : والله يا أبت ، إنه لكاذب .

فذهب عتبة إلى الفاكه يقول له : إنك رميت ابنتى بشىء عظيم ، فإما أن تقيم بينة على ما قلت ، وإلا فحاكمنى إلى بعض كهان العرب .

وخرج رجال ونساء إلى اليمن ، وفيهم هند وزوجها وأبوها ، فلما اقتربوا من دار الكاهن ، تغير وجه هند ، لأن عفتها وسمعتها وكرامتها ستوضع فى الميزان بعد قليل ، وإنه ميزان غير معصوم من الخطأ والانحراف والميل وتزلزل كيان أبيها وقد رأى تغير وجهها . فأقبل عليها يسر إليها قائلا : يا ابنتى ، ألا كان هذا قبل أن يشتهر فى الناس خروجنا ؟

واندفعت الحرة تدافع عن نفسها وتقول : يا أبت ، والله ما كان ذلك لمكروه عندى . ولكنكم تأتون بشراً يخطئ ويصيب ، وأخشى أن يسمنى بسمة تبقى على ألسنة العرب .

وأمام هذا المنطق الحق الصادع لم يملك الوالد أن قال : صدقت . وأخبرها أنه سيختبره ببعض الامتحان ، ونجح الكاهن – كما تقص الأسطورة فى الاختبار ، وأقبل على هند ، وقال لها وهو فى نشوة الانتصار على مسمع من الجميع إنها طاهرة الذيل ، وإنها ستلد رجلا يملك يسمى « معاوية » .

ونهضت هند كأنما نشطت من عقال ، وخطت خطوات من دفع القدر عنها بلاء أحاط بها . . .

وهنا أقبل نحوها زوجها الفاكه ليأخذ بيدها ، فإذا الحرة الغاضبة لعرضها تنتر يده من يدها ، كأنها أذى أو قذى ، وتقول له : إليك عنى ، والله لأحرصن على أن يكون ذلك الولد من غيرك ! . .

وإذا كان لا بد للقصة من نهاية ، فقد حرص راوى القصة أو الأسطورة على أن يختمها بقوله :

« فتزوجها أبو سفيان ، فولدت له معاوية بن أبى سفيان » ! !

بل يجعل للخاتمة ذيلا ، فيضيف أن هنداً قالت لأبيها : يا أبت ، إنك زوجتنى من هذا الرجل، ولم تؤامرنى فى نفسى ، فعرض لى معه ما عرض ، فلا تزوجنى من أحد حتى تعرض على أمره وتبين لى خصاله .

أرأيت إلى القصة . . . لقد جاءت علينا بكثير من الإشارات والرموز إلى أن هذه المرأة كانت فى جاهليتها ذات نفس وأنفة ، وذات قدر وخطر ، وذات ترفع وطموح . . .

ثم نرى « الطبقات الكبرى » لابن سعد لا تبخل علينا برواية طريفة عن قصة زواج هند بأبى سفيان بن حرب ، ترويها عن شيخ من بنى عامر ، وفى

الرواية التى لا تخلو من فطنة الصنعة تقول هند لأبيها إنى امرأة قد ملكت أمرى ،فلا تزوجنى رجلا حتى تعرضه على . فقال : لك ذلك .

وبعد حين أقبل عليها يقول : إنه قد خطبك رجلان من قومك ، ولست مسمياً لك واحداً منهما حتى أصفه لك . أما الأول فنى شرف الصميم والحسب الكريم ، تخالين به عوجاً من غفلته ، وذلك إسجاع من شيمه ، حسن الصحبة حسن الإجابة ، إن تابعته تابعك ، وإن ملت كان معك ، تقضين عليه فى ماله ، وتكتفين برأيك فى ضعفه .

وأما الآخر فنى الحسب الحسيب ، والرأى الأريب ، بدر أرومته ، وعز عشيرته ، يؤدب أهله ولا يؤدبونه ، إن اتبعوه أسهل بهم ، وإن جانبوه توعر بهم . . . » .

ثم وصفه بشدة الغيرة والرقابة وإباء الخضوع ، وهنا قالت هند عن أولها : « أما الأول فسيد مضياع لكريمته » وأنه متابع لها ، تضيع شخصيته فى شخصيتها ، وأعرضت عنه وطلبت من أبيها ألا يذكر اسمه . ثم قالت عن الآخر إنه « بعل الحرة الكريمة » وقالت إنها تحب هذا الوصف . وإنها ترغب فيه . ثم سألت أباها : فمن هو ؟

فأجابها : ذلك أبو سفيان بن حرب .

فطلبت إلى أبيها أن يزوجها له فى عزة وكرامة .

وهكذا نرى هنداً تركب الصعب من الأمور ، وترفع رأسها نحو القمم ، ولا ترضى بالزوج « الطيب » الذى يكون ألعوبة فى يدها ، بل تريده زوجاً له شخصيته وكرامته وقوته ، وكدت أقول : وشراسته ! !

وتمضي هند فى حياتها الزوجية مع أبى سفيان ، فنراها تحرص على محامد الفعال أكثر مما تحرص على شهوة الرجال والنساء ، ولقد روى « العقد الفريد » أن ملك اليمن أكثر عشر جزائر لتذبح فى مكة ، وشرط أن يذبحها أعز رجل قرشي ، وكانت هند عروساً جديدة عند أبى سفيان ، فإذا هى تقول له : أيها الرجل ، لاتشغلنك النساء عن هذه المكرمة التى لعلها أن تفوتك ! !

ولو كانت امرأة أخرى من عامة النساء لحرصت على أن يخلص لها زوجها ، وتخلص له ، ليكون بينهما ما يكون بين عروسين من متعة لقاء .

ويقرب من هذا المعنى ويتصل به : ذلك الطموح الواسع الذى كانت تتطلع إليه هند ، وترى نفسها أهلا له ،حتى تدركها المبالغة فى هذا الطموح ، ومن شواهد ذلك أن بعض الناس رآها ومعها ابنها معاوية ، فتوسموا فيه النبوغ ، فقالوا لها عنه : إن عاش ساد قومه !

فلم يكفها هذا المديح ، بل قالت فى إباء وتعظم وتطلع واسع : ثكلته إن لم يسد إلا قومه !

ولم لا تقول هذا وأكثر منه ، والمعقول عنه هو ابنها ، ومن يفخر بالولد أكثر من فخر أمه به ؟ . وها هى ذى تزيد ثناءها على ابنها معاوية « حبتين أو ثلاثاً » ، فتقول عندما سئلت عنه : والله لو جمعت قريش من أقطارها ، ثم رمى به فى وسطها ، لخرج من أى أعراضها شاء !

* * *

وهناك فى حياة هند بنت عتبة صفحة قاتمة سوداء ، لا تمحى ولا تزول ولا يكفيها ماء البحر لإزالتها من الإلباب والقلوب ، تلك الصفحة هى ما فعلته هند بأبى الشهداء وسيدهم حمزة بن عبد المطلب رضوان الله تعالى عليه .

نعم إن حمزة قد قتل « شيبة » أخا هند فى غزوة بدر ، وأعان على قتل أبيها « عتبة » ، ولكن هذا كان صراع ميدان ، وكل فى القتال حريص على قتل عدوه . .

وقد يقال إن الثأر له أثره العميق فى نفوس أهل الجاهلية ، وقد يقال : إن هنداً امرأة ، والمرأة أسرع إلى تحريك دوافع الثأر . ولكن ما فعلته هند بحمزة لم يكن قتلا ، ولم يكن أخذاً لثأر ، بل كان أوجع من ذلك وأشنع .

لقد خرجت هند يوم عتبة تحرض قومها على القتال وأخذ الثأر . وهذا فى منطق الحرب غير مستغرب .

ولقد أخذت تضرب بالدفوف مع نسائها ، ويرددن :

نحن بنات طــــارق   نمشى على النمــــارق
إن تقبلوا نعانـــــق   ونفـــــرش النمارق
أو تـــدبروا نفارق   فـــراق غير وامـــق

وتردد أيضاً :

ويهاً بنى عبد الـــدار   ويهاً حماة الأدبــــار
ضرباً بكل بتار !

وهذا غير مستبعد !

ولقد حرضت « وحشى بن حرب » عبدها ، ووعدته الحرية إن قتل حمزة وأخذ لها بثأرها ، وظلت توجج فى صدره نيران العدوان ، وتقول له يوم أحد كلما رأته : « إيه أبا دسمة ، اشف واشتف » ! !

وهذا فى منطق أهل الثأر غير مستنكر . . .

ولكن الذى لا يطاق ولا يحتمل فى شرعة الإنسان أن تظهر كل هذه الشماتة من هند لمصرع سيد الشهداء حمزة ، وأن تقتل بكل قسوة وشراسة على جثمان البطل الشهيد — وقد فقد الحياة بطريق الاعتداء الأثيم الخائن الغادر فتقطع أنفه ، وتقطع أذنيه ، وتشق بطنه ، وتنزع كبده ، ومضغتها وحاولت ابتلاعها فلم تستطع ، فألقتها على الأرض ، ثم أخذت تردد فى ذلك شعراً يفيض بالحقد الأسود والضغينة النكراء .

إن هذه الصفحة السوداء جعلت هنداً تبوء بلقب آذاها كثيراً ، وأذى أهلها طويلا ، فأخذ أعداؤها يقولون عنها : « هند آكلة الأكباد » . وأخذ أعداء أبيها وأعداء ابنها يعيرونها ويغيظونهما بترديد هذا اللقب اللعين ، حتى بعد أن أسلمت هند واستقامت على الطريق .

أين هذه الصفحة السوداء من ومضة الإنسانية التى نشهدها من هند فى جاهليتها وشركها ، حين ترى زينب بنت رسول الله ﷺ تهم بالهجرة من مكة إلى المدينة ، بعد أن هاجر أبوها ، فتقبل هند عليها — كما فى تاريخ الطبرى — وتعرض عليها أن تعاونها بما تريد من مال أو غيره ، وتناديها : « يا ابنة عمى » فتشكر لها زينب هذا الصنيع ؟ . أين هذا الظلام الدامس فى يوم أحد من هذه الومضة يوم هجرة زينب ؟ !

* * *

لكن رحمة الله أوسع مما يتصور الجهلاء . . .

وقد شاء القدر أن تعرف هند بنت عتبة طريقها نحو هذه الرحمة التى وسعت كل شىء

لقد ظلت هند تكابر وتعاند ، وظلت تمثل الأنفة الجاهلية سنوات بعد سنوات ، حتى عزت كلمة الله ، وأقبل الفتح المبين ، وأسلم زوجها وركب الرسول الفاتح فى الطريق نحو مكة .

وأهدر النبي الفاتح دماء أفراد ذكرهم بأسمائهم ، ومن بينهم هند بنت عتبة آكلة الأكباد ، التى غاظت المسلمين غيظاً شديداً مريراً بما فعلته فى جثمان حمزة الشهيد عليه الرضوان . .

وكانت هند من جهتها قد أخذت تنهنه من كفرانها ، وتكف من طغيانها ، وتتلمس الطريق إلى إيمانها . فماذا تصنع ؟

لقد شاهدت هند جموع المسلمين وهم يصلون حول الكعبة عقب الفتح فأثر فيها هذا المنظر الباهر أعمق تأثيراً وتفتح قلبها لنور الإسلام ، ولكنها كانت تخشى إهدار دمها على فم الرسول ، فماذا تصنع ؟ لم يخنها رأيها ولا حيلتها .

قالت لبعض من حولها : إنى أريد أن أبايع محمداً .

فقيل لها : قد رأيتك تكفرين ؟

قالت : والله ما رأيت الله تعالى عبد حق عبادته فى هذا المسجد قبل الليلة . والله ما باتوا إلا مصلين قياماً وركوعاً وسجوداً .

قيل لها : فإنك قد فعلت ما فعلت . فاذهبي برجل من قومك معك .

فذهبت إلى عمر فذهب معها فاستأذن لها . فدخلت وهى متنقبة ، والرسول لا يعرفها . وأعلنت إسلامها ، وبإعلان كلمة الإسلام حصنت نفسها . وعصمت دمها . وحفظت حياتها .

يقول ابن عبد البر فى « الاستيعاب » : « ثم ختم الله لها بالإسلام فأسلمت يوم الفتح » .

ويقول النووى فى « تهذيب الأسماء واللغات » : « أسلمت فى الفتح بعد إسلام زوجها أبى سفيان بليلة وحسن إسلامها » . وأقرهما النبى على زواجهما .

ولبيعة هند أمام الرسول حديث يساق :

لقد دخلت عليه – كما يحدث الطبرى – متنقبة متنكرة بسبب ما صنعت فى حمزة ، ولأنها كانت تخاف أن يؤاخذها على ذلك . وبدأ الرسول يقول للنساء وهى بينهن : تبايعننى على ألا تشركن بالله شيئاً ولا تسرقن . وهنا لم تملك هند نفسها أن قالت إنها كانت تحس بأن زوجها أبا سفيان بخيل ، وكانت تأخذ من ماله ما تحتاج إليه .

وهنا عرفها الرسول ﷺ ، فقال : وإنك لهند بنت عتبة .

أجابت : أنا هند بنت عتبة ، فاعف عما سلف عفا الله عنك .

واستمر الرسول فى المبايعة قائلا : ولا تزنين .

وسارعت هند بتعليقها الرائع تقول : وهل تزنى الحرة ؟

وواصل الرسول مبايعته قائلا : ولا تقتلن أولادكن .

فعلقت هند بقولها : قد ربيناهم صغاراً ، وقتلتهم يوم بدر كباراً ، فأنت وهم أعلم ؟

وهنا ضحك عمر بن الخطاب رضوان الله عليه فبالغ فى الضحك .

ثم قال الرسول : ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن .

فقالت هند : والله إن إتيان البهتان لقبيح .

ثم قال الرسول : ولا تعصيننى فى معروف .

فعلقت هند بقولها : ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك فى معروف !!

أرأيت كيف وقفت هند أمام الرسول بشخصيتها القوية التى سواها الإسلام وعمرها الإيمان . . . وقفت تسائل وتحاور ، وتستفهم وتراجع !!

وعادت هند إلى بيتها عقب إسلامها ، وإذا هى تجد فى ركن من البيت صنماً كأنها لم تلحظه منذ حين ، فأقبلت عليه مغيظة محنقة ، كأن لها عنده ثأراً ، وتناولت قدوماً ، وجعلت تحطمه قطعة قطعة ، وهي تخاطبه بقولها : كنا منك فى غرور . كنا منك فى غرور ! !

* * *

ومضت الأيام ، وتوالت الأعوام ، وهند المسلمة تزداد مع الإسلام ثقافة وتجربة وخبرة بالناس والحياة ، وكانت تنصح فتنظر فى نصحها إلى المدى البعيد ، ومن أمثلة ذلك أنها رأت عمر بن الخطاب يستعين بابنها معاوية فى بعض الأعمال ، فتقول لولدها : « يا بنى ، إنه قلما ولدت حرة مثلك ، وقد استعملك هذا الرجل ، فاعمل بما وافقه ، أحببت ذلك أم كرهت» .

لا تنس أن تلاحظ هنا أيضاً استمرار اعتزازها بنفسها وبابنها .

ومن كلماتها البليغة العميقة الدلالة قولها : « المرأة غل لا بد للعنق منه ، فانظر من تضعه فى عنقك » ! !

ومن دلائل قوة الشخصية عندها أنها لم تستنكف أن تشتغل بالتجارة . فقد استقرضت من عمر بن الخطاب أربعة آلاف درهم تتاجر فيها ، وتضمنها فأقرضها ، فخرجت تتاجر ، وباعت واشترت ، ووفت بوعدها . كما يذكر الطبرى فى تاريخه .

وكما اعتسفت هند بنت عتبة حين أسهمت فى الحرب مع المشركين ، حاولت التكفير عما فعلت ، فأسهمت فى الجهاد مع المسلمين ، وقد اشتركت مع زوجها أبى سفيان فى غزوة اليرموك المشهورة ، وأبلت بلاء حسناً . وفى السنة الرابعة عشرة للهجرة لحقت بربها هند بنت عتبة ، التى كانت كما صورها ابنها : « إنها فى الجاهلية عظيمة الخطر . وفى الإسلام كريمة الخبر» .

عليها رحمة الله .

أسلوب الإمام على

السؤال :

للإمام على كرم الله وجهه أسلوبه الأدبى الرائع فكيف وصل إليه ؟

الجواب :

الأسلوب عند الأدباء هو طريقة تنسيق الربط بين الألفاظ والمعانى ، لإعطاء شحنة فكرية معينة ، ويعبر الإمام عبد القاهر الجرجانى عن ذلك بكلمة « النظم » . ويقول المعاصرون إن الأسلوب هو الصورة اللفظية التى يعبر بها عن المعانى ، ويصف « الزيات » الأسلوب بأنه الهندسة الروحية لملكة البلاغة التى تربط بين الفكرة والكلمة ، أو الموضوع والشكل ، لأن الكلام كائن حى ، روحه المعنى وجسمه اللفظ ، فإذا فصلت بينهما أصبح الروح نفساً لا يتمثل ، والجسم جماداً لا يحس .

والأسلوب يتكون من الأفكار ، والصور الجزئية ، والعبارة ، والإيقاع والعاطفة ، وهذه العناصر تتعاون على إيجاد الصورة الأدبية .

والإمام على بن أبى طالب – رضى الله عنه وكرم الله وجهه – هو شيخ البلاغة العربية المسلمة ، وهو طليعة فرسان الخطابة والبيان ، بعد رسول الله ﷺ ، وكأن الإمام قد أدركته بركة دعاء الرسول له حين قال عنه : « اللهم اهد قلبه ، وثبت لسانه » . وهذا ضرار الصدائى يقول فى وصفه : « كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه » .

ودراسة أسلوبه ليست أمراً سهلا ، لأكثر من سبب ، فالمأثور عنه ، أو المنسوب إليه ، قدر ضخم ، فهذا هو المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ يذكر

أن الإمام علياً ترك من ورائه ما يقرب من خمسمائة خطبة ، منها القصير ومنها الطويل ، ولقد عنى القدماء بجمع المنسوب إلى الإمام حتى جمعوا الكثير ، فهناك أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ . وعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ . ثم هناك أكبر القوم جهداً فى جمع تراث الإمام وهو الشريف الرضى أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوى المتوفى سنة ٤٠٦هـ وجامع الكتاب المشهور « نهج البلاغة » المنسوب إلى الإمام على .

ويزيد أمر هذه الدراسة صعوبة أن هناك أشياء منسوبة إلى الإمام ، وليس لدينا على صحة نسبتها إليه يقين ، مثل المقامات التى تخلو من حرف الألف ، والمصطلحات المتعلقة بعلم الكلام أو نحوه ، والتمييز بين الصحيح وغير الصحيح من كلام الإمام قضية أدبية ثار حولها عجاج النقاش فى القديم والحديث .

كما أن الإمام رضوان الله عليه كان يميل فى طائفة من كلامه إلى الإشارة والرمز ، فله — كما يقول ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغة — مقاصد فى كلامه يشير إليها ، ومعضلات يكنى عنها ، وخفايا يجمجم بذكرها ، وهنات تجيش فى صدره فينفث بها نفثه المصدور ؛ ولذلك يحتاج كلام الإمام إلى من يتدبره ويتأمله . ويسبر أغواره ، ويعرف أسراره ، لا أن يكتفى بالتعليق على مفرداته . أو شرح الغريب من كلماته .

* * *

ولقد تضافرت عوامل كثيرة على تحقيق القوة والروعة لأسلوب الإمام على ، فقد كان كثير التلاوة والتدبر للقرآن الكريم المعجز ، وكان حافظاً القرآن فى عهد رسول الله ﷺ ، وهو من قبل فرع دوحة النبوة ، وربيب النبى ، وابن عمه ، وزوج ابنته ، وأقرب الرجال منه ، وأحد كتاب الوحى

إليه ، ورفيق دعوته ، والنبي هو صاحب البيان الأول بعد بيان القرآن المعجز ولذلك يقول بعض الكاتبين من شيعته : لا بدع أن يكون الإمام نادرة من نوادر الزمان فى فصاحة اللسان وكرم الجانب ، لأنه من بنى هاشم ، بل من أكرمهم نسباً ، وأطيبهم عرقاً ، وأرفعهم سناء وحسباً ، وبنو هاشم — كما وصفهم الجاحظ — هم ملح الأرض وزينة الدنيا وحلى العالم .

وينهض أسلوب الإمام على جملة عناصر ، منها الحكمة الدينية ، وغزارة العلم بأمور الدين ومسائل الشريعة والفقه ، وتعدد روافد الثقافة ، فقد درس القرآن والدين والبلاغة النبوية والنحو والحساب ، وأحسن الجمع بين فحولة البداوة وتهذيب الحضارة ، وصبغ كلامه بصبغة الإنشاء الفنى ، وإذا حاور أو ساجل أو راسل بدأ مسدداً مؤيداً ، يجمع بين سطوة الحق ، ومتانة الحجة وقوة البيان .

ومن الملامح العامة فى أسلوب الإمام أنه يعنى برسم « الصورة الأدبية » فى كلامه ، فيبرز المعنى العقلى أو الحسى فى صورة محسة ، تتخذ لنفسها هيئة وشكلا ، وبذلك يمتزج اللفظ بالمعنى ، أو الشكل بالمضمون ، وكأنهما بدن وروح .

ومن أمثلة ذلك قول الإمام :

« ألا إن الخطايا خيل شمس [جمع شموس] حمل عليها أهلها ، وخلعت لجمها ، فتقحمت بهم فى النار . وإن التقوى مطايا ذلل [جمع ذلول] حمل عليها أهلها ، وأعطوا أزمتها ، فأوردتهم الجنة » .

ويعلق الزيات على العبارة فيقول إنك تجد صورتين : صورة الفرس الشموس ، لم يروض ولم يلجم ، فيندفع براكبه جامحاً ، لا ينثنى حتى يتردى

به فى جهنم ، وصورة الناقة الذلول ، قد سلس خطوها ، وخف عنانها ، فتنطلق بصاحبها فى رسيم كالنسيم حتى تدخل به الجنة .

ثم تجد عاطفتين : عاطفة النفور من الألم الذى يشعر به الخاطئ ، وقد جمحت به خطاياه الرعن فى أوعار الأرض ، حتى ألقته فى سواء الجحيم ، وعاطفة الميل إلى لذة المتقى الوادع ، وقد سارت به تقواه سيراً ليناً ، حتى أبلغته جنة النعيم .

ذلك من جهة الموضوع ، وأما من جهة الشكل فتجد اختيار الألفاظ المناسبة للفكرة ، كالمطايا وما يلائمها من الانقياد والإيراد هنا ، وكالخيل وما يوائمها من الشماس والتقحم هناك . والفروق الطبيعية بين الفرس والناقة فى هذين المكانين لا تخفى على ذى لب . ثم تجد بعد ذلك التأليف المتوازن المحكم الرصين ، وهذه المقابلة البديعة بين جملة معان لا تكلف فى صوغها ولا تعسف

وكلام الإمام على لا يطرق موضوعاً واحداً ، ولا يتخذ طريقاً واحداً ، بل من كلامه الخطب والأوامر ، والكتب والرسائل ، والنصائح والمواعظ ، والمحاورات والمساجلات ، والكلمات الحكيمة الوجيزة المركزة ، وهو إذا خطب أخذ بمجامع القلوب ، وإذا أمر أسمع وأقنع ودفع ، وإذا كتب كشف ووصف وأنصف ، وإذا وعظ أو نصح أو ناجى ربه خيل إليك — كما يذكر الشريف الرضى — أنه لا حظ له غير الزهادة ، ولا شغل له بغير العبادة ، ولا يكاد يوقن أنه كلام ذلك المجاهد الذى يغمس نفسه فى أتون الحرب ، أو يسبح ملاطماً مشكلات السياسة والحكم وقيادة الناس .

• • •

وهذا نموذج سريع من كلامه فى مفاتح خطبه الدينية وعظاته الإسلامية ، يقول فيه :

« الحمد لله الذى لا يبلغ مدحته القائلون . ولا يحصى نعماءه العادون ، ولا يؤدى حقه المجتهدون ، الذى لا يدركه بعد الهمم ، ولا يناله غوص الفطن ، الذى ليس لصفته حد محدود ، ولا نعت موجود ، ولا وقت معدود ولا أجل ممدود . فطر الخلائق بقدرته ، ونشر الرياح برحمته ، ووتد بالصخور ميدان أرضه » .

فأنت ترى هنا وجازة الجمل . وسهولة السجع ، وعدم التزامه أو الإلحاح فيه. وأنت ترى كيف جمع بين حمد الله والبناء عليه ، وتقاصرهم العقول عن إدراكه . وتوالى نعمه وأفضاله .

وفى موطن آخر يقف الإمام وظلمات الليل تحيط به ، ورهبة الخوف من الله تشمله ، ويأخذ فى مخاطبة الدنيا التى تحاول بكل ما استطاعت أن تلفته ولو قليلا — إلى مفاتنها ومباهجها ، وليس لها إلى ذلك سبيل فتقول :

« يا دنيا إليك عنى . غرى غيرى ، ألىّ تعرضت أم إلى تشوفت ، هيهات . قد باينتك ثلاثاً لا رجعة لى إليك . فعمرك قصير وخطرك حقير وخطبك يسير . آه من قلة الزاد وطول الطريق ووحشة السفر » .

وقد تعمدت أن أكتب كلمات هذه المناجاة متتابعة الألفاظ ، لأعود فأكتبها متقطعة أو مجزأة . لتتحلى بقطيعها روعة تقسيمها . هكذا :

« يا دنيا . . .

إليك عنى . . .

غرى غيرى . . .

ألى تعرضت ؟ أم إلى تشوفت ؟ . . .

هيهات . . .

قد باينتك ثلاثاً . . .

لا رجعة لى إليك . . .

فعمرك قصير . . .

وخطرك حقير . . .

وخطبك يسير . . .

آه من قلة الزاد ، وطول الطريق ، ووحشة السفر » ! !

أرأيت هذا التقسيم البارع ، القائم على التقطيع السريع المتتابع ، المتنوع المدلول ؟ إن المقطع يأتى فى كلمة كما ترى أو كلمتين أو ثلاثاً – إلا النادر – ومع ذلك يستقل المقطع بنفسه ، ويعطى معنى يمكن السكوت عنده والاكتفاء به ، ومع ذلك أيضاً يربط المقطع بما قبله وبما بعده ، فى وحدة فكرة ، ووحدة صورة ، وتلاحم أسلوب !

وعلى قريب من هذا المسلك نجد الإمام يعطى راية القيادة ابنه محمد ابن الحنفية فى إحدى المعارك ، ويوجه إليه وصيته وأوامره ، فلا يزيد على قوله : « يا بنى ، تزول الجبال ولا تزل ، عض على ناجذك ، أعز الله جمجمتك ، تدفى الأرض قدمك ، ارم ببصرك أقصى القوم ، ثم غض بصرك ، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه » !

إنها قائمة أوامر ، يستقل كل أمر منها بنفسه ، وفى الوقت ذاته يلتحم بجاره ، فمن الممكن – بل من المستحسن – أن نكتب العبارة على هذه الصورة :

« يا بنى . . .

تزول الجبال ولا تزل . . .

عض على ناجذك . . .

أعز الله جمجمتك . . .

تد فى الأرض قدمك

ارم ببصرك أقصى القوم . . .

ثم غض بصرك . . .

واعلم أن النصر من عند الله سبحانه » ! !

إنها وصاة لا يستغرق إلقاؤها نصف دقيقة ، ولكن دقائق معانيها ومغازيها ومراميها يمكن أن يستغرق كتاباً بقلم كاتب من كتاب الحروب وخبراء الجندية .

ومثل هذا الصنيع تستطيع أن تفعله مع وصية الإمام حين خرج يودع الصحابى الجليل أبا ذر الغفارى حينما نفاه الحاكمون إلى الربذة » فقال له :

« يا أبا ذر . إنك غضبت لله ، فارج إلى من غضبت له . إن القوم خافوك على دنياهم ، وخفتهم على دينك . فاترك فى أيديهم ما خافوك عليه ، واهرب بما خفتهم عليه . فما أحوجهم إلى ما منعتهم ، وما أغناك عما منعوك . وستعلم من الرابح غداً والأكثر حسداً . ولو أن السموات والأرض كانتا على عبد رتقاً اتقى الله ، لجعل الله له منهما مخرجاً . لا يؤنسنك إلا الحق ، ولا يوحشنك إلا الباطل . فلو قبلت دنياهم لأحبوك . ولو قرضت منها لأمنوك » ! !

كدت أسمى هذا الأسلوب بالأسلوب لمتصل المنفصل ، الذى تعتبر كل جملة فيه بذاتها . ولكنها تتداخل وتتكامل مع جاراتها . ومثل هذا الأسلوب لا يتهيأ إلا لمقتدر على البيان . ذى باع طويل فى تصريف فنون الكلام !

وإذا كانت الوصية الماضية كادت تخلو من السجع . وترتضى اعتزازها بتلك المقابلة التصويرية بين فريق الحق وفريق الباطل . فإننا نرى فى أسلوب

الإمام فى مواطن أخرى ذلك السجع السريع المتتابع ، كقوله يذم بعض الناس :

« أخلاقكم دقاق ، وعهدكم شقاق ، ودينكم نفاق ، وماؤكم زعاق » ! !

* * *

وهناك لون من أسلوب الإمام على ، يمتاز بدقته وعمقه ووجازته ، وتناولت مختلف الموضوعات الدينية والدنيوية ، والذاتية والاجتماعية ، والمادة والمعنوية . وهو تلك الكلمات القصيرة الوجيزة الحكيمة ، التى ينطوى كل عبارة منها على عبرة أو عظة أو حكمة . ولقد جمع الشريف الرضى فى كتاب « نهج البلاغة » مئات من هذه الكلمات ، ختم بها ذلك الكتاب الضخم . وإن كان هناك شك فى نسبة طائفة من هذه الكلمات إلى الإمام ، فإنها فى مجموعها تجرى فى ذلك السنن الذى جرى فيه معظم خطبه وعظاته ، وهذه نماذج معدودة من تلك الحكم العميقة :

١ — الناس أبناء الدنيا . ولا يلام الرجل على حب أمه .

٢ — المسئول حر حتى يعد .

٣ — لكل امرئ فى ماله شريكان : الوارث والحوادث .

٤ — اتقوا معاصى الله فى الخلوات . فإن الشاهد هو الحكم .

٥ — يوم العدل على الظالم أشد من يوم الجور على المظلوم .

٦ — من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهواته .

٧ — ما قال الناس لشىء : طوبى له ، إلا وقد خبأ له الدهر يوم سوء .

٨ — الغنى الأكبر اليأس عما فى أيدى الناس .

وإذا كان الإمام قد نثر المئات من كلماته ، وجعل كل حكمة منها تسير بين المشرق والمغرب مسيل المثل الشرود ، فإنه فى بعض الأحيان يجمع المجموعة من كلماته الحكيمة فى عقد واحد ، ينتظمها كلمة بجوار كلمة ، ومن أمثلة ذلك القطعة التالية :

« من نظر فى عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره ، ومن رضى برزق الله لم يحزن على ما فاته ، ومن سل سيف البغى قتل به ، ومن كابد الأمور عطب ، ومن اقتحم اللجج غرق ، ومن دخل مداخل السوء اتهم .

ومن كثر كلامه كثر خطؤه ، ومن كثر خطؤه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه ، ومن مات قلبه دخل النار .

ومن نظر فى عيوب غيره فأنكرها ثم رضيها لنفسه فذلك الأحمق بعينه ؛ والقناعة مال لا ينفد .

ومن أكثر من ذكر الموت رضى الله من الدنيا باليسير .

ومن علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه » .

• • •

ولقد حث الإمام كثيراً على الجهاد ، ودعا إلى الفداء والوفاء ، وحين نطالع خطبه فى الحث على الجهاد يخيل إلينا أنها دوى مدافع وقعقعة سلاح ، ولذلك قال بعض الكاتبين عنه : « ونظرة فاحصة إلى خطبه الحماسية تريك أنها شحنات من المروءة والدين ، وممزوجة بانفعالات الحق ، وعواطف التقوى والصلاح : تشتد فتخالها أسنة مشرعة ، وتلين فتحسبها براعم ندية ، وتهدأ فترى خلالها أحواضاً حافلة بالأزاهير ، وتثور فتحس لها فعل العواصف والأعاصير ، وترضى فإذا هى لوحات فنية ذات ألوان من الجنان ، وتنفعل فإذا هى سياطة ملتهبة ذات ذوائب من النار » ! !

استمع إليه مثلا وهو يحث على الجهاد فيقول : « أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فتحه الله لخاصة أوليائه ، وهو لباس التقوى ، ودرع الله الحصينة ، وجنته الوثيقة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء » .

واستمع إليه إذ يقول مستنفراً : « أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه ، وقرءوا القرآن فأحكموه ، وهيجوا إلى القتال فولهوا وله اللقاح [النياق] إلى أولادها ، وسلبوا السيوف أغمادها ، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً ، وصفاً صفاً ، وبعض هلك ، وبعض نجا ، لا يبشرون بالأحياء ولا يعزون بالموتى » ؟ !

• • •

ويتحدث العقاد فى « عبقرية الإمام » فيذكر أنه ولا ريب أول من عالج الرسائل والعظات والخطب فى الأمة الإسلامية معالجة أديب ، وأول من أضفى عليها صبغة الإنشاء الذى يقتدى به فى الأساليب ، لأن الذين سبقوه كانوا يصوغون كلامهم صياغة مبلغين ، لا صياغة منشئين . ويقصدون إلى أداء ما أرادوه . ولا يقصدون إلى فن الأداء وصناعة التعبير .

ولكن الإمام تعلم الكتابة صغيراً ، ودرس الكلام البليغ من روايات الألسن وتدوين الأوراق ، وانتظر بالبلاغة حتى خرجت من طور البداهة الأولى إلى طور التفنن والتجويد ، فاستقام له أسلوب مطبوع مصنوع ، هو أول أساليب الإنشاء الفنى فى اللغة العربية ، وأول أسلوب ظهرت فيه آثار دراسة القرآن والاستفادة من قدوته وسياقه ، وتأتى له بسليقته الأدبية أن يأخذ من فحولة البداوة ومن تهذيب الحضارة ، ومن أنماط التفكير الجديد الذى أبدعته المعرفة الدينية والثقافة الإسلامية ، وكتابه « نهج البلاغة » أحق

كتاب بهذه التسمية بين كتب العربية ، واشتماله على جزء صحيح النسبة إليه ، صحيح الدلالة على أسلوبه .

ويرى العقاد أن كل نمط من أنماط كلام الإمام على شاهد له بالملكة الموهوبة فى قدرة الوعى وقدرة التعبير ، فهو ولا شك من أبناء آدم الذين علموا الأسماء ، وأوتوا الحكمة وفصل الخطاب . وأسلوب الإمام لا تخطئ فيه مرة جزالة البادية ، وصقل الحاضرة ، وحسن البداهة ، وامتزاج الصناعة بالطبع الذى لا تكلف فيه .

ولذلك لم يكن غريباً ولا عجيباً أن نجد الأستاذ الإمام محمد عبده يقول : « ليس فى أهل هذه اللغة إلا قائل بأن كلام الإمام على بن أبى طالب هو أشرف الكلام وأبلغه — بعد كلام الله تعالى ، وكلام نبيه ﷺ — وأغزره مادة ، وأرفعه أسلوباً ، وأجمعه لجلائل المعانى .

فأجدر بالطالبين لنفائس اللغة ، والطامعين فى التدرج لمراقيها ، أن يجعلوا هذا الكتاب أهم محفوظهم ، وأفضل مأثورهم ، مع تفهم معانيه فى الأغراض التى جاءت لأجلها ، وتأمل ألفاظه فى المعانى التى صيغت للدلالة عليها ، ليصيبوا بذلك أفضل غاية ، وينتهوا إلى خير نهاية » .

ولقد احتل كتاب « نهج البلاغة » مكانة رفيعة بين كتب الأدب الدينى والحكمة الإسلامية . ومن شواهد هذه المكانة عكوف طائفة من أعلام هذه الأمة على شرحه وتفسير كلماته . مثل سعيد بن هبة الله بن الحسن الراوندى المتوفى سنة ٥٧٣ هـ ، وفخر الدين محمد بن عمر بن الحسن الرازى المتوفى ٦٠٦ هـ . وعبد الحميد بن أبى الحديد المدائنى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ . والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ . وأوسع هذه الكتب شهرة هو شرح ابن أبى الحديد .

وهناك ناحية تتعلق بكتاب « نهج البلاغة » . ولها صلة بأسلوب الإمام على ، وهى ناحية الخلاف حول نسبة ما فى هذا الكتاب إلى الإمام على .

وهذا هو ابن أبي الحديد يقول : « كثير من أرباب الهوى يقولون : إن كثيراً من نهج البلاغة كلام محدث ، صنعه قوم من فصحاء الشيعة ، وربما عزوا بعضه إلى الرضى أبي الحسن أو غيره ، وهؤلاء أعمت العصبية أعينهم ، فضلوا عن النهج الواضح ، وركبوا بنيات الطريق ، ضلالا وقلة معرفة بأساليب الكلام » .

ثم يشرع ابن أبي الحديد فى الدفاع عن صحة نسبة الكتاب من طريق دراسة الأسلوب ، فيتكلم عن « الحاسة الفنية » التى هى الميزان الصحيح للتمييز بين أسلوب وأسلوب ، ونتاج فكرى وآخر فيقول : « من قد أنس بالكلام والخطابة ، وشد طرفاً من علم البيان ، وصار له ذوق فى هذا الباب ، لا بد أن يفرق بين الكلام الركيك والفصيح ، وبين الفصيح والأفصح ، وبين الأصيل والمولد. وإذا وقف على كراس واحد يتضمن كلاماً لجماعة من الخطباء ، أو لاثنين منهم فقط ، فلا بد أن يفرق بين الكلامين ، ويميز بين الطريقتين .

ألا ترى أنا مع معرفتنا بالشعر ونقده ، لو تصفحنا ديوان أبي تمام فوجدناه قد كتب فى أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره ، لعرفنا بالذوق مباينتها لشعر أبي تمام نفسه وطريقته ومذهبه فى القريض ؟

ألا ترى أن العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة إليه ، لمباينتها لمذهبه فى الشعر ، وكذلك حذفوا من شعر أبي نواس كثيراً لما ظهر لهم أنه ليس من ألفاظه ولا من شعره ، وكذلك غيرهما من الشعراء . ولم يعتمدوا فى ذلك إلا على الذوق الخاص » ؟

ثم يتخذ ابن أبي الحديد من هذا المبدأ وسيلة لبلوغ هدفه ، فيقول : « وأنت إذا تأملت نهج البلاغة وجدته كله ماء واحداً ، ونفساً واحداً ،

وأسلوباً واحداً ، كالجسم البسيط الذى ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقى الألفاظ فى الماهية ، وكالقرآن العزيز ، أوله كأوسطه ، وأوسطه كآخره ، وكل سورة منه ، وكل آية مماثلة — فى المآخذ والمذهب والفن والطريق والنظم — لباقى الآيات والسور .

ولو كان بعض نهج البلاغة منحولا ، وبعضه صحيحاً ، لم يكن ذلك كذلك ، فقد ظهر لك بالبرهان الواضح ضلال من زعم أن هذا الكتاب أو بعضه منحول إلى أمير المؤمنين عليه السلام » .

ونطالع فى كتاب « مدرسة الأستاذ الإمام وأثرها فى اللغة والأدب » أن أول من ذهب إلى التشكيك فى شأن كتاب « نهج البلاغة » ، ونسبة جميع ما فيه إلى الإمام على هو أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن خلكان الأربلى المتوفى سنة ٦٨١ ﻫ . ثم جاء من بعده الصفدى فشك شكه ، ثم تبعهما آخرون .

وقد بنى المتشككون تشككهم على أسباب منها ما فى الكتاب من تعريض بصحابة رسول الله ﷺ ، ومنها ما فيه من سجع وتنميق لفظى ، وصنعة بيانية لم يألفها عصر صدر الإسلام ، ومنها ما فى الكتاب من دقة وتفصيل فى وصف الأشياء ، واستعمال الألفاظ الاصطلاحية فى العلوم والفنون التى لم تكن قد نشأت بعد ، وكذلك استعمال الطريقة العددية فى شرح المسائل وتقسيمات الفضائل أو الرذائل ، كقوله : « الاستغفار على ست معان . . . » . وقوله : « الإيمان على أربع دعائم . . . » .

وقوله : « الصبر على أربع شعب . . . » إلخ . ومنها ما فى الكتاب من عبارات قد يشتم منها معنى الادعاء لعلم الغيب .

وهناك كثيرون ردوا على هذا التشكيك ، ولكن يهمنا أن نتعرف إلى رأى كاتب كبير معاصر ، هو الأستاذ العقاد ، فهو يقول أولا : « من المحقق

الذى لا خلجة فيه من الشك عندنا أن النبواءت التى جاءت فى نهج البلاغة عن الحجاج بن يوسف وفتنة الزنج وغارات التتار وما إليها هى من مدخول الكلام عليه ، ومما أضافه النساخ إلى الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بزمن قصير أو طويل » . ثم يستعرض موضوعات نهج البلاغة ويعلق عليها قائلا :

« وربما تشكك الباحث فى نسبة بعضها إلى الإمام لغلبة الصبغة الفلسفية عليها ، وامتزاجها بالآراء والمصطلحات التى اقتبست بعد ذلك من ترجمة الكتب الإغريقية والأعجمية ؛ ولا سيما الكلام على الأضداد والطبائع والعدم والحدود والصفات والموضوعات .

ولكن الذى يقره الباحث ، ولا يشك فى نسبته إلى الإمام ، أو فى جواز نسبته ، قسط واف لتحقيق رأى القائلين بسبق الإمام فى مضمار علم الكلام ، واعتراف المعترفين له بالأستاذية الرشيدة لكل من لحق به من أصحاب الآراء والمقولات ، وهو على جملته خير ما يعرف به المؤمن ربه ، وينزه به الخالق فى كماله » .

والنفس أميل إلى رأى العقاد فى هذا المجال ، وهو يؤيد ما ذهب إليه السيد محمد رشيد رضا الذى يقرر أن بعض ما فى « نهج البلاغة » موضوع ومكذوب على الإمام .

• • •

وللامام على ديوان من الشعر ينسب إليه ويحسب عليه ، مع أن أبا عثمان المازنى يقول — كما جاء فى معجم الأدباء : لم يصح عندنا أن على بن أبى طالب — عليه السلام — تكلم من الشعر بغير هذين البيتين :

تلكم قـــريش تمنانى لتقتلـــنى ولا — وجدك — ما بروا ولا ظفروا
فـإن هلكت فرهن ذمتى لهم بذات روقين لا يعفـــو لها أثر

وقوله : « ذات روقين » أى داهية عظيمة .

ويتوسع بعض الباحثين فيقول إن الذى تصح نسبته من الشعر إلى الإمام على هو عشرات من الأبيات،لا عشرات من القصائد كما جاء فى الديوان المنسوب إليه . ولما كان الأمر كذلك أصبح من غير الإنصاف أن نتعرض لأسلوب شعره ما دام الزائف منه قد اختلط بالصحيح .

ومن نماذج شعره قوله يصف قبيلة همدان فى وقعة صفين :

ولما رأيت الخيل ترجم بالقنا ... فوارسها حمر النحور دوام
وأعرض نقع فى السماء كأنه ... عجاجة دجن ملبس بقتام
ونادى ابن هند فى الكلاع وحمير ... وكندة فى لخم وحى جذام
تيممت همدان الذين هم هم ... إذا ناب دهر جنتى وسهامى
فجاوبنى من خيل همدان عصبة ... فوارس من همدان غير لئام
فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها ... وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام
فلو كنت رضواناً على باب جنة ... لقلت لهمدان ادخلى بسلام

وقوله يعتز بالإسلام ، ويفخر بنسبته إلى الرسول ﷺ :

محمد النبى أخى وصهرى ... وحمزة سيد الشهداء عمى
وجعفر الذى يمسى ويضحى ... يطير مع الملائكة ابن أمى
وبنت محمد سكنى وعرسى ... منوط لحمها بدمى ولحمى
وسبطا أحمد ولداى منها ... فأيكم له سهم كسهمى
سبقتكم إلى الإسلام طراً ... صغيراً ما بلغت أوان حلمى
وصليت الصلاة وكنت فرداً ... فمن ذا يدعى يوماً كيومى ؟

ويروى أن الصحابة سألوا رسول الله ﷺ أن يأذن لعلى فى هجاء المشركين ، فقال له : ليس بذاك ، وأشار بأن يتولى ذلك شاعر الإسلام حسان بن ثابت ، وهذا نفهم منه — كما يستنتج العقاد — أن الإمام لم يرزق ملكة الإجادة فى الشعر ، ومجموعة شعره — سواء أصحت نسبته إليه أم لم تصح — ليس فيها ما يجعله من المجودين بين الشعراء .

ومع هذا أوتى الإمام على بصراً بنقد الشعر ومذاهبه ، فكان يعرف اختلاف مذاهب القول ، واختلاف وجوه المقابلة والتفضيل على حسب المذاهب . ومن شواهد ذلك أنه سئل : من أشعر الشعراء ؟ فقال : إن القوم لم يجروا فى حلقة تعرف الغاية عند قصبتها ، فإن كان ولا بد فالملك الضليل [يعنى امرأ القيس] .

وهذا أول تقسيم لمقاييس الشعر على حسب [المدارس] والأغراض الشعرية بين العرب ، فلا تكون المقابلة إلا بين أشباه وأمثال ، ولا يكون التعميم بالتفضيل إلا على التغليب .

* * *

وثمة ظاهرة تدل على مكانة الأسلوب الأدبى الذى استقام للإمام على ، وواسع أثره فى الأدب والأدباء ، وهى ظاهرة استمداد الأدباء والشعراء من بيان الإمام وكلامه ، فهناك فى مشارق الأرض ومغاربها ألوف مؤلفة ، يعكفون على كتاب « نهج البلاغة » يوسعونه حفظاً وفهماً ، ويكررون النقل عنه والاقتباس منه .

وهذا الاستمداد ليس ابن عصرنا فقط ، ولكنه أمر معروف مشهور من قديم ، فقد ذكر التاريخ الأدبى أن عبد الحميد الكاتب الذى بدئت به الكتابة ، كان يحفظ سبعين خطبة من خطب الإمام على ، ويقول ابن نباتة :

« حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيده الإنفاق إلا سعة وكثرة ، حفظت مائة فصل فى مواعظ على بن أبى طالب » .

ولقد كان الحجاج – وهو من هو فى الخطابة – يقلد الإمام علياً فى أسلوبه أحياناً ، ومن أمثلة ذلك أن الإمام قال فى أول خطبة له بالمدينة بعد خلافته ، لتهدئة الفتنة وتحذير الطغاة .

« إن الله داوى هذه الأمة بدواءين : السوط والسيف ، لا هوادة عند الإمام فيهما ، استتروا فى بيوتكم ، وأصلحوا ذات بينكم ، والتوبة من ورائكم . من أبدى صفحته للحق هلك » .

فجاء الحجاج وتأثر بذلك فقال فى خطبة له : « إن للشيطان طيفاً ، وإن للسلطان سيفاً ، فمن سقمت سريرته صحت عقوبته ، ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه . ومن لم تسعه العافية ، لم تضق عنه الهلكة » .

والشعراء أيضاً قد تأثروا ببيان الإمام على وكلامه .

ها هوذا يعزى قوماً عن ميت مات لهم . فيقول : « إن هذا الأمر ليس لكم بدأ . ولا إليكم انتهى ، وقد كان صاحبكم هذا يسافر ؟ فقالوا : نعم . قال : فعدوه فى بعض سفراته ، فإن قدم عليكم وإلا قدمتم عليه » .

وجاء من بعده إبراهيم بن المهدى فانتفع بهذا البيان حينما رثى ابنه فقال :

يؤوب إلى أوطانه كل غائب ... وأحمد فى الغياب ليس يؤوب
تبدل داراً غير دارى وجيرة ... سواى ، وأحداث الزمان تنوب
أقام بها مستوطناً ، غير أنه ... على طوال أيام المقام غريب
وإنى وإن قدمت قبلى لعالم ... بأنى وإن أبطأت عنك قريب
وإن صباحاً نلتقى فى مسائه ... صباح إلى قلبى الغداة حبيب

ويقول الإمام على فى كلماته البليغة : « لكل امرئ شريكان : الوارث والحوادث» ويأتى من بعده الشريف الرضى وينتفع بالكلمة العلوية فى قوله :

خذ من تراثك ما استطعت فإنما شركاوك الأيام والوراث
لم يقض حق المال إلا معشر نظروا الزمان يعيث فيه فعاثوا

ويقول الإمام فيما يقول من تلك الكلمات البلغية : « ماء وجهك جامد ، يقطره السؤال ، فانظر : عند من تقطره » ؟ ويأتى أحد الشعراء فينتفع بهذا المعنى فى قوله :

إذا أظمأتك أكف اللئام كفتك القناعة شبعا وريا
فكن رجلا رجله فى الثرى وهامة همته فى الثريا
فإن إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المحيا

ويقول الإمام أيضاً : « الغنى الأكبر اليأس عما فى أيدى الناس » . وينتفع بهذا المعنى عبد الله بن المبارك حين يقول :

قد أرحنا واسترحنا من غدو ورواح
واتصال بأمير ووزير ذى سماح
بعفاف وكفاف وقنوع وصلاح
وجعلنا الياس مفتا حاً لأبواب النجاح

ويقول الإمام : « اذكروا انقطاع اللذات ، وبقاء التبعات » ، فيأتى شاعر ويقول :

تفنى اللذاذة ممن نال بغيته من الحرام ، ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء فى مغبتها لاخير فى لذة من بعدها النار

ويقول الإمام : « الناس أبناء الدنيا ، ولا يلام الرجل على حب أمه » . فيأتى شاعر ويقول :

ونحن بنى الدنيا غزينا بدرهــا   وما كنت منه فهو شىء محبب !

وهكذا يتسع الاستمداد بين الأدباء والشعراء من بيان الإمام على رضوان الله تعالى عليه ، ولو أن باحثاً أديباً تتبع مواطن هذا الاستمداد فى كتب النثر والشعر ، على بصيرة وأناة ، لاستقام أمامه بحث يصلح لدرجة الدكتوراه .

إن أسلوب الإمام على باب مستقل متميز الملامح والمعالم فى تاريخ الأدب العربى ، وماقدمت من حديث عنه لايزيد عن كونه إشارة تشير إلى طريق ممتد طويل .

رضى الله تبارك وتعالى عنه .

• • •

قائد حالفه الحظ

عمرو بن العاص

السؤال :

نريد أن نعرف شيئاً عن فاتح مصر مع إلقاء الضوء على حياته . .

الجواب :

لايعلم إلا الله وحده ما كانت تصير إليه مصر الغالية ، لو لم يهم عمرو ابن العاص بها حباً ، بعد أن زارها ورأى عظمتها وخيرها وعطاءها ، ولم يعش سنوات يحلم بفتحها على اسم الله واسم الإسلام ويرى أن تحقيقه ذلك هو أكبر أمنية له فى حياته .

ولا عجب فهو الذى وصفها للخليفة عمر بن الخطاب ، فكان مما قاله : « يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر ، له أوان يدر حلابه ، ويكثر فيه ذبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها » .

وكان مما قاله أيضاً : « فبينما مصر ياأمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، إذا هى غبرة سوداء ، فإذا هى زمردة خضراء ، فإذا هى ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء ، الذى يصلح هذه البلاد وينميها ، ويقر قاطنيها فيها...» .

وستتقلب على مصر الأمور ، خلال العصور والدهور ، ولايستطيع كر الزمان أن يمحو من ذهن الإنسان أن هذه البلاد العظيمة الكريمة قد أدخلها ربها بحبوحة الإسلام بفضله وعنايته ، ثم ، بهمة هذا القائد الفاتح الكبير : أبى عبد الله عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم القرشى السهمى الصحابى فاتح مصر .

وعمرو بن العاص شخصية طال اختلاف حولها فى الماضى ، ويطول فى الحاضر ، وسيطول فى المستقبل القريب والبعيد ، وطالت فيه أقوال من مالوا إليه ، كما طالت فيه أقوال من حملوا عليه ، ولكن أهل الإنصاف يتفقون على أنه كان قائداً كبيراً ، وصاحب عبقرية ودهاء فى الرأى والسياسة ، وفى القيادة والحرب .

وهو أيضاً شخصية متعبة للدارس لها والباحث فيها ، ولقد حاولت أن أرسم له صورة تتعجل تقديم الملامح العامة له ، فكانت هذه الصورة : إنه بطل داهية ، واسع عقل ، عميق التفكير ، بارع الحيلة ، فيه فطنة وكياسة وسياسة ، وفيه خبرة بوسائل جذب القلوب وكسب النفوس ، وفيه اعتداد بذاته ، ومعرفة لتبعات وظيفته وعمله ، لايجامل فى هذا المجال ولا يفرط ،

بل يحرص ويستمسك ، وهو جريء مقدام ، يجازف ويخاطر ، وفيه حب للامارة وشغف بالزعامة ، ولا هو لايكتفى بالتمنى فى بلوغ مايريد ، بل يناضل ويكافح ، حتى يكسب تقديراً من أعدائه فوق تقدير أصفيائه ، وحسبك أن (أرطبون الروم) — وهو قائد جيشهم — قال فى عمرو : « إنه أدهى الخلق » ، وردد قوم عمرو كلمتهم عنه : « إن أرطبون العرب قد غلب أرطبون الروم » ! .

وكان فى عمرو صبر على المحاولة ، وثبات على المنهج ، واستمرار على الطريقة ، ودوام على الرأى ، ولو كلفه ذلك ألواناً من الجهد والمشقة ، وكان يكره التردد والتأرجح ، ويعد التغير عما اعتاد مما لايوائم مكارم الأخلاق وهو الذى يخبرنا بأنه لن يمل أحداً يدوم له ، حتى ذابته لا يملها مهما شابت ، مادامت تحمله ، وهو القائل : « إن الملل من كواذب الأخلاق » .

وعمرو فيه ذكاء نادر ، وأى ذكاء كذكائه حينما حرض الخليفة عمر الفاروق على أن يأذن له فى فتح مصر ، وأجاب الخليفة بعد تردد ومراجعة ، واهتبل عمرو الفرصة ، فسارع بجيشه نحو مصر ليفتحها ، ولكن الخليفة تعاوده الخشية والخيفة ، فيرسل خلف عمرو بكتاب له يأمره بالعودة ، إذا كان لم يطأ أرض مصر ، وعند « رفح » يلتقى حامل الكتاب بعمرو ، ويخبره بأنه يحمل إليه رسالة من الخليفة ، ويدرك عمرو بذكائه الخارق مضمون الرسالة ، فيأخذ فى شغل الرسول بالحديث فى أمور مختلفة ، والركب يقد السير نحو أرض مصر حتى دخلها من أطرافها .

وهنا تناول عمرو الكتاب من الرسول وفتحه ، فإذا فيه قول الخليفة : « إن أدركك كتابى هذا قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك ، وإن كنت قد دخلت فامض لوجهك ، واعلم أنى ممدك » .

ويتجاهل عمرو المكان . ويسأل من حوله : أين نحن الآن ؟

ويأتيه الجواب : نحن فى أرض مصر .

ويطمئن عمرو . ويتلو كتاب الخليفة على الناس . ثم يأمرهم بمواصلة المسير .

ويمضى نحو تحقيق . أمله الأكبر : فتح مصر تحت لواء الإسلام .

* * *

إن صورة عاجلة كهذه تعطينا الملامح الأساسية لشخصية هذا القائد الداهية الكبير .

وحين نقف أمام هذه الشخصية متأملين دارسين ندرك أننا أمام رجل قد توافرت له عوامل كثيرة ، جعلته قائداً ناجحاً . ومحارباً منتصراً . فقد كان يحارب عن إيمان وعقيدة بعد أن شرح الله صدره للاسلام . ودخله عن عن اقتناع ويقين . وكان يثق بنفسه . ويحسن النهوض بتبعاته فى قوة ومثابرة ، ويعطى القدوة من ذاته لغيره . ويتعمق فى تفكيره ، ويستقصى فى نظره وتدبيره . ثم يقدم فى عزم وحزم وكفاءة . مع دهاء وبراعة مكر وحسن احتيال .

وكأنما قد خلق الله عز وجل هذا الرجل وفى دمه أو طبعه نزعة القيادة والإمارة ولذلك ذكر ابن حجر فى كتابه « الإصابة » أن عمر بن الخطاب نظر إلى عمرو وهو يمشى فقال : « ماينبغى لأبى عبد الله أن يمشى على الأرض إلا أميراً » ! .
كما يرى الشعبى أن دهاة العرب فى الإسلام أربعة . وعد منهم عمرو بن العاص قائلا عنه : « أما عمرو فللمعضلات » ! .

ولقد يؤخذ على عمرو أنه قد تأخر به الدخول فى الإسلام ، حيث لم يسلم إلا سنة سبع أوثمان بعد الهجرة ، ولكنه حاول تعويض ذلك بما بذل من جهود وجهاد بعد ذلك فى خدمة الإسلام والمسلمين ، حتى تألق نجمه أكثر من أخيار سبقوه فى الاستجابة وزادوا عليه فى العبادة والتقوى .

وإذا كان القطر يدل على الغيث ، وكانت صغار الأمور تدل على كبارها فإن بوادر التوفيق والنصر التى جرت على يد عمرو فى أولى إسلامه قد دلت على ما يقبل منها فى روعة واتساع .

بعد إسلام عمرو بقليل ، وعقب فتح مكة ، أرسله النبى عليه الصلاة والسلام ، إلى صنم « سواع » على بعد ثلاثة أميال من مكة ليحطمه ويعفى على آثاره ، وكانت قبيلة هذيل تعبد هذا الصنم فى جاهليتها وتتهالك عليه ، حتى ضرب بهم المثل فى ذلك ، فقال رجل من العرب :

تراهم حـــول قيلهم عكوفاً   كما عكفت هذيل على سواع

فخرج عمرو فى رمضان ومعه جماعة قليلة من رفاقه ، وحينما بلغ عمرو الصنم قال له خادم الصنم : ماتريد ؟ .

فأجاب عمرو : أمرنى رسول الله ﷺ أن أهدمه .

فحذره الخادم قائلا : لاتقدر .

فسأل عمرو : ولم ؟ .

فأجابه الخادم : تمنع .

فرد عمرو ساخراً : حتى الآن أنت على الباطل ؟ ويحك ، وهل يسمع أو يبصر حتى يمنعنى ؟ ! .

وأقدم عمرو فحطم الصنم تحطيماً ، غير عابئ بخرافات الأمس وأباطيل الماضى ، وغير مبال بالتهديد أو الوعيد ، وطلب من رفاقه أن يهدموا بيت خزانة الصنم . ففعلوا ولم يجدوا فيها شيئاً .

وهنا قال عمرو للخادم موبخاً : كيف رأيت ؟ .

فلم يملك الخادم نفسه أمام سطوع الحق إلا أن يقول مبهوراً : أسلمت لله رب العالمين .

وتوالت الانتصارات والفتوح بعد ذلك على يدى عمرو بن العاص .

جاءت سرية « ذات السلاسل » فى مكان بينه وبين المدينة عشرة أيام ، وكانت فى جمادى الآخرة من السنة الثامنة . ووقع اختيار الرسول عليه الصلاة والسلام على عمرو ليكون أميراً لها . وفيها نحو ثلثمائة من خيار المهاجرين والأنصار ، . وقال له النبى عند تأميره : « ياعمرو ، إنى أريد أن أبعثك على جيش ، فيغنمك الله ويسلمك » .

فقال عمرو : يارسول الله ، إنى لم أسلم رغبة فى المال .

فوجهه الرسول قائلا : « ياعمرو ، نعم المال الصالح للرجل الصالح » !.

وعقد له الرسول لواء أبيض وراية سوداء .

ومضى عمرو فى طريقه مجاهداً ، ثم طلب من الرسول مدداً حينما رأى ضخامة جيش الأعداء ، كيلا يغرر برفاقه ، أو يعرضهم للخطر ، فأمده الرسول بنحو مائتين أمثال أبى بكر وعمر وأبى عبيدة رضوان الله على الجميع .

وبدأت المعركة . وفيها أظهر عمرو عبقريته وبطولته . وتحقيق نصر الله تعالى له ولرفاقه بعد قليل ، ونوه النبى صلوات الله وسلامه عليه بفوز عمرو حتى روى أنه قال له : « استعد ياعمرو لفتح جديد » ! .

• • •

ثم أقبلت حروب الردة القاسية الشرسة فى بداية عهد الصديق أبى بكر، فكان لعمرو فيها نصيب ملحوظ.

قضى عمرو على فتنة الردة فى « قضاعة »، وقضى بينها زمناً توطد فيها كلمة الحق ودعوة الصدق.

ورأى الخليفة أن يوجه الأمة المجاهدة المؤمنة إلى فتح الشام فأرسل إلى عمرو يقول له: « أردت يا أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك فى حياتك ومعادك، إلا أن يكون الذى أنت فيه أحب إليك ».

وجاءه جواب عمرو، فكان جواب المطبوع على الحرب والقتال. قال له: : « إنى سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد الله الرامى بها، والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها، فارم به شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحى ».

وأخذت جيوش الفتح تسير وجهتها، وكان عمرو قائداً للجيش الذاهب منها إلى فلسطين — ردها الله على العرب والمسلمين — وهذا هو الجيش الثانى من جيوش المسلمين. وكانت مهمته أن يفتح فلسطين وأن يكون مدداً للجيوش التى تحتاج إلى المدد من حوله.

ووجه أبو بكر إلى عمرو وصية دقيقة عميقة بقيت على الزمن وشغلت المؤرخين. قال له فيها:

« قد وليتك هذا الجيش فانصرف إلى أهل فلسطين. وكاتب أبا عبيدة إذا أرادك » ولا تقطع أمراً إلا بمشورته.. اتق الله فى سرك وعلانيتك، واستحيه فى خلواتك، فإنه يراك فى عملك. وقد رأيت تقدمتى لك على من هم أقدم منك سابقة وأقدم حرمة، فكن من عمل الآخرة. وأرد بعملك وجه الله.

واسلك طريق إيلياء حتى تنتهي إلى أرض فلسطين . وإياك أن تكون دايناً عما ندبتك له ، وإياك والوهن ، وإياك أن تقول : جعلني ابن أبي قحافة في نحر العدو ، ولا قوة لي به .

واعلم يا عمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر . فأكرمهم ، واعرف حقهم ، ولا تتطاول عليهم بسلطانك ، ولا تداخلك نخوة الشيطان فتقول : إنما ولاني أبو بكر لأني خيرهم . وإياك وخداع النفس ، وكن كأحدهم ، وشاورهم فيما تريد من أمرك . والصلاة الصلاة ، أذن بها إذا دخل وقتها .

واحذر من عدوك ، وأمر أصحابك بالحرس ، ولتكن أنت بعد ذلك مطلعاً عليهم ، وأطل الجلوس بالليل مع أصحابك ، وأقم بينهم ، واجلس معهم ، واتق الله إذا لاقيت العدو . وقدم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك . وإذا وعظت فأوجز . وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك ، وإذا رأيت عدوك فاصبر ولا تتأخر ، فيكون في ذلك فخر منك . وألزم أصحابك قراءة القرآن ، وأنههم عن ذكر الجاهلية وما كان منها ، فإن ذلك يورث العداوة بينهم .

وأعرض عن زهرة الدنيا ، حتى تلتقي بمن مضى من سلفك ، وكن مع الأئمة الممدوحين في القرآن الكريم ، إذ يقول الله تعالى : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين) . امض بارك الله فيك وفيهم » .

• • •

وأقبل عمرو بلا خوف على معركة مع الروم أنزل بها في قلوبهم الرهبة والرعب ، وجمع الروم فلولهم وعادوا يحاولون النيل من المسلمين ، فتصدى لهم عمرو مع خيوله ، وقتلوا من الأعداء خمسة عشر ألف فارس ، ولم يقتل من المسلمين سوى مائة وثلاثين مجاهداً .

وكان عمرو يحرص دائماً على تجميع الجنود وتوحيد القيادة ، ويرى أن ذلك هو مفتاح النصر ، ولذلك رأيناه فى معركة اليرموك ينصح زملاءه بقوله : « إن الرأى الاجتماع ، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة ، فأما إن تفرقنا لم تقم كل فرقة لمن استقبلها لكثرة عدونا .

ومع أنه لم يكن القائد العام فى معركة اليرموك ، فقد كانوا يرجعون إلى رأيه ويأخذون بمشورته . وتوج عمرو نصر المسلمين فى اليرموك بأن انتزع اللواء من يد قائد الأعداء ، فانهار الجيش الباغى من ورائه .

وكذلك كان عمرو من القادة البارزين فى فتح دمشق الذى تم فى أوائل الخليفة عمر بن الخطاب ، كما تألق نجمه فى فتح « فحل » و « بيسان » و « غزة » من فتوح الشام .

وتطلع عقب ذلك إلى فتح « أجنادين » من أرض فلسطين ، وكان عمرو داهية لا يخاف كما عرفنا ، فأراد أن يطلع بنفسه على خبايا قائد الأعداء من الروم ، وكان يسمى « أرطبون » ، فجازف عمرو وذهب بنفسه متنكراً للقاء الأرطبون ، على أنه رسول لعمرو بن العاص ، وهناك أفهم أرطبون أن كل مسلم يحمل روحه على يده ليقدمها رخيصة فى سبيل الله ، وأحس الأرطبون فى نهاية الحديث أن هذا المحاور له لابد أن يكون عمرو بن العاص ،أو أحد قواده العظام ، فأوحى الأرطبون إلى جنوده بقتله فى الطريق . بعد أن أهدى إليه هدية .

وأحس عمرو بالشر ينتظره على الطريق ، وأحسن الاحتيال ، بأن عاد إلى الأرطبون ، وتظاهر بأنه يريد رد الهدية لأن له عشرة من إخوته وبنى عمومته ، وكل منهم فارس وقائد ، ولا يستطيع أن ينفرد دونهم بالهدية فإن رأى الأرطبون أن يهدى إليهم جميعاً كان ذلك خيراً .

وفرح الأرطبون ، وحسب الموقف فخاً يستطيع به أن يصيد عشرة لا واحداً ، فاتفق مع عمرو على إحصاره الباقين ، ونهى الأرطبون جنوده عن الاعتداء على عمرو ، وبهذا خلص عمرو من المأزق الدقيق الخطير .

وهكذا تحقق رأى عمرو فى نفسه ، فقد ذكر عن نفسه أنه يعرف أين يضع قدمه ، وأنه مادخل فى شىء إلا وخرج منه ، بل وصدقت فيه كلمة عمر بن الخطاب حينما وجهه لقتال الروم ، قال : « قدر مينا أرطبون الروم بأرطبون العرب ، فأنظروا عما تنفرج » .

ولقد انفرجت التجربة فعلا . انفرجت بتغلب عمرو أرطبون العرب على أرطبون الروم . وحق لقائد الروم أن يقول عقب ذلك : « خدعنى الرجل ، إنه أدهى الخلق جميعاً » . وردد الخليفة عمر قوله : « غلبه عمرو ، لله عمرو » ! .

* * *

ثم جاء فتح مصر فى أواخر السنة الثامنة عشرة .

وفى هذا الفتح تألق نجم عمرو أوسع تألق . . .

وكانت مصر حينئذ تحت طغيان الروم المحتلين واضطهادهم وتعذيبهم ، وكانت مصر تتطلع إلى من ينقذها من الاضطهاد والعذاب . . وأراد الله جلت قدرته أن يكون المنقذ عمرو بن العاص .

وتحدث القائد الفاتح — كما عرفنا — إلى الخليفة الفاروق ، محاولا إقناعه بوجوب فتح مصر التى فر إليها أرطبون الروم وتحصن بها مع جيشه بعدهزائمه فى فلسطين والشام .

وتردد الخليفة فى الإذن لعمرو ، ولكن الداهية لم ييأس ، فعاود الحديث بعد الحديث ، وساق الأسباب وراء الأسباب ، حتى اقتنع الخليفة بفكرة

الفتح ، وسارع القائد بالتحرك ، ورأينا كيف احتال عند « رفح » حتى لايعيده كتاب الخليفة الذى عرفنا أمره من قبل . . .

ودارت معارك فى « الفرما » و « بلبيس » و « أم دنين » « و الفيوم » و « عين شمس » وأخيراً : « حصن بابليون » . وتجات عبقرية عمرو فى المعارك، بضم القوى ، وتوحيد القيادة ، وتجميع المعلومات ، واستخدام المفاجأة ، والتعجيل بالهجوم ، وخفة الحركة ، وإثارة الروح المعنوية ، مع الحرص على سلامة الجنود قدر الطاقة .

وانتصر القائد الفاتح ، وشق للاسلام فى مصر طريقاً جعلها تعتز فيما بعد بالإسلام ، وتدافع عنه خلال عصور التاريخ الطويلة المدى :

وأراد عمرو أن يكون فاتحاً فى البناء والتعمير ، كما فتح فى ميدان القتال ، فبنى مدينة الفسطاط سنة إحدى وعشرين ، وهى المدينة التى صارت نقطة الارتكاز فى قيام المجتمع الإسلامى فى مصر العظيمة ، وكانت عاصمة مصر المسلمة : مصر القرآن . وبنى عمرو كذلك مسجده الشهير ، وهو أول مسجد يقام فى هذه الديار ، وحفر عمرو خليجاً سمى « خليج أمير المؤمنين » . وضرب عمرو كذلك مثلا فى النزعة الإنسانية الرحيمة التى تجعل القائد المحارب أليف الطعان والجراح ، يرفق بيمامة ضعيفة ، فقدروا أنه حينما أراد عمرو أن يرحل إلى الإسكندرية متابعاً فتوحه وانتصاراته وأمر بتقويض فسطاطه ، وجد فيه يمامة قد باضت فى أعلاه ، فأمر بترك الفسطاط على حالته وقال « قد تحرمت اليمامة بفسطاطنا وفى جوارنا ، أقروا الفسطاط حتى تطير فراخ اليمامة » ! ! .

وتنقل عمرو بين مواطن الانتصارات ، ففتح الإسكندرية ، وفتح برقة بعد أن وجه إليها حملة مظفرة بقيادة البطل الفاتح عقبة بن نافع ، وأقبل عمرو بعد فوز الحملة فصالح أهل برقة ، ثم تقدم عمرو عقب ذلك إلى طرابلس

فافتتحها ، كما افتتح بلاداً أخرى كثيرة ، واستمر فى هذه الفتوح حتى السنة الثالثة والعشرين .

والعجيب فى أمر عمرو أنه كان يثق فى النصر إلى حد يثير الدهشة ، ولقد ولقد تحاور ذات يوم مع قرة بن هبيرة ، فسأله قرة خلال الحوار : أأنت أأنت واثق من النصر ياعمرو ؟ .

فكان الجواب : إنى أراه كما أراك أمامى ياقرة ! ! .

ولعل السر فى هذه الثقة العميقة هو أنه كان يعرف عوامل النصر ويحرص عليها . فقد توافرت فى عمرو قوة الشخصية والشجاعة والدهاء والكتمان والحذر واليقظة والمفاجأة وسرعة الحركة والمحافظة على روح الإيمان .

كما كان يرعى مبادئ الحرب وأسسها : من الإعداد وجمع المعلومات والاستكشاف والمحاصرة والمباداة ، ورفع القوة المعنوية للجنود على الدوام .

كان عمرو يحرص على جمع المعلومات بوساطة عيونه ورسله . وكان يرسل أكثر من عين ، ويدقق فى اختيار هؤلاء العيون ، وكان يجازف أحياناً فيجمع هذه المعلومات بنفسه ، كما رأينا فى زيارته متنكراً أرطبون الروم .

وكان عمرو يعنى بحشد القوى إلى غاية الوسع والطاقة . والقوى هنا تشمل الأفراد والسلاح والذخيرة والتموين . فهو يجمع أكبر عدد ممكن من الجنود وهو يوجد بينها ويؤلف قلوبها . وهو لايجازف بالعدد الصغير يلقى به العدد الكبير من الأعداء ، وهو يطلب المدد حينما يحتاج إليه ولا يتكبر فى ذلك أو يكابر . وهو لايتردد فى تأجيل المعركة حتى يستوفى لها حاجتها من القوى والجنود .

وكان عمرو يحسن المباغتة أو مفاجأة العدو بما لم يعدله حساباً ، أولم يهيئ له أسباباً ، وبذلك يجنى ثمرتين : الأولى أن يربك عدوه ويقلب نظامه ويأخذه على غرة ، والأخرى أن توجد أمامه فرصة سابقة لنيل النصر فى أول الطريق .

وكان عمرو يؤمن بأن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع ، وقد دأب عمرو على اتخاذ « الهجوم المبكر » مفتاحاً لانتصاراته المتلاحقة ، حتى يمكن القول بأن هذا البطل كان المهاجم لعدوه دائماً ، ولم يدع لعدوه فرصة كى يبدأه بالهجوم .

وكان عمرو يدرك جيداً أن القوى البشرية فى المعارك لها المكانة الأولى ولذلك تجب صيانتها والمحافظة عليها للانتفاع بها فى كسب المعارك وتحقيق النصر . ولذلك كان ينهى أحياناً عن متابعة المهزومين أمامه خشية أن تفاجأ جنوده بكمين يسىء إلى هذه القوى البشرية العالية ، ولقد حدث فى معركة « ذات السلاسل » أن هزم عمرو أعداءه ، فأراد جنوده بحماستهم أن يلاحقوا المنسحبين ، فمنهم عمرو ، فشكوا ذلك إلى النبى ، فدافع عمرو عن فكرته وقال : يارسول الله ، لقد كنا نحاربهم فى بلادهم ، وقد خفت أن يكون لهم مدد فينقض على المسلمين إذا تبعوهم وبعدوا عن مواقعهم !

وكان عمرو يعرف جيداً أن كل الأسلحة لاتغنى عن الروح المعنوية أو القوة النفسية للجنود ، ولذلك كان يستنفر جنوده ويعبئهم دينياً ومعنوياً . ويصلهم بأسباب الإيمان واليقين . ويقول لهم : تقدموا فبكم نصر الله .

وكان دائماً يسمعهم آيات القرآن الكريم ، ويذكرهم بأنهم جند الله ، وأنهم مؤيدون بعون الله ، وأنهم يجاهدون فى سبيل الله ، وأنهم موعودون بإحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة . وكان فى أشد المراحل يقول فى ثقة ويقين : « بقيت سيوف ستغمد فى قلوب المرتدين والكافرين » ! .

* * *

هذا ، وإذا كنا قد سلطنا الأضواء فى مجالنا هذا على الجوانب المشرقة المضيئة فى بطولة عمرو الحربية فليس معنى هذا أننا ننزهه عن الخطأ ، أونحول بينه وبين المراجعة والنقد فى هذا الجانب أو ذاك ، فمن الطبيعى أن توجد فى الحياة العريضة الواسعة لبطل كعمرو ، مأخذ لمن يطلبها ، ومراجعات لمن يتعقبها ، وهذه الجوانب التى طال حولها الخلاف والنقاش ، قد تكفلت بتفصيلها مراجع ومراجع ، فحسبنا هنا الاقتصار على ماقدمنا ، لعل فيه عظة وبلاغاً لقوم يعقلون .

ولقد ظل عمرو بن العاص سنوات بعد سنوات بعد سنوات ، وهو موصول الأواصر بالحرب والنصر ، وقد يبعد عن الميدان ، وقد يدنو منه ، ولكنه لم ينقطع عنه ، حتى زاد عمره على السبعين ، حيث توفى يوم الفطر سنة ثلاث وأربعين ، ودفن فى سفح المقطم .

وحينما حضرته الوفاة أخذ يقول مناجياً ربه :

« اللهم أمرتنى فلم أأتمر ، ونهيتنى فلم أنزجر ، ولست قوياً فأنتصر ، ولا بريئاً فاعتذر ولا مستكبراً ، بل مستغفراً ، لا إله إلا أنت » .

فلم يزل يردد هذه الكلمات حتى مات .

عليه رحمة الله ورضوانه .

أعظم الشيوخ فى تاريخ الأزهر ومؤلفاتهم

السؤال :

لقد تولى مشيخة الأزهر عدد كبير من العلماء الأجلاء نريد أن نعرف موجزاً عن بعضهم ومؤلفاتهم.

الجواب :

إن تاريخ الأزهر طويل عريض ، يستطيع الباحث فيه أن يصول ويجول ، ليستعرض أكثر من ناحية أو أكثر من اتجاه ، فهناك النواحى الدينية والفكرية والسياسية والاجتماعية والأدبية وغيرها ، وإن ألف عام تمر على الأزهر – وهو قائم ثابت – لدليل أى دليل على أن الله تبارك وتعالى قد أعطى هذا المعهد الإسلامى الأكبر من عوامل البقاء والخلود شيئاً كثيراً ، على الرغم مما عرض له أو حاف به .

وإنى الآن بسبيل أن أتحدث حديث الإيجاز والتركيز عن الشيوخ اللامعين فى تاريخ الأزهر ، وعن كتبهم ومؤلفاتهم التى تصور عقلياتهم وجهودهم الثقافية والفكرية ، حتى يكون ذلك الحديث لوناً من ألوان التعريف بالتراث الفكرى الضخم الذى يرتبط بتاريخ هذه الجامعة الإسلامية العربية التليدة .

وهذا الحديث لايستوعب ولا يستقصى ، بل يقوم بمسيرة عاجلة خلال قرون الأزهر العشرة ، فيختار منها طائفة من الشيوخ ، منذ فتح الأزهر أبوابه ، حتى آخر القرن التاسع عشر ، ومطلع القرن العشرين ، وأما القرن العشرين فقد حفل بعشرات وعشرات من الأزهريين الذين غزر إنتاجهم ، وكثرت مؤلفاتهم ، وهؤلاء جديرون بأن يستقلوا بحديث .

وصاحب هذا البحث لايستطيع أن يزعم لنفسه — فضلا عن أن يزعم لغيره — أنه قد أحصى مؤلفات كل شيخ من هؤلاء الأعلام ، وإنما الذى كان أنه بحث وفتش ، مستعيناً بكتب السابقين وكتب اللاحقين ، وانتحل من هذا العباب خلاصة تصلح أن تكون علامة بارزة على طريق التعرف المفصل إلى تراث الأزهر فى مجال التأليف والإنتاج الفكرى .

وإذا كان ابن تغرى بردى قد عرفنا فى كتابه « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » بطائفة من أعلام الأزهر الذين تألقوا منذ قرون ، فإن عبد الرحمن الجبرتى قد عرفنا فى تاريخه بطائفة أخرى تألقت منذ قرنين ، وجاء باحثون معاصرون فعرفوا بطوائف من أعلام الأزهر فى القديم والحديث ، فكتب الأستاذ محمد عبد الله عنان كتابه « تاريخ الجامع الأزهر » وظهر للدكتور عبد الحميد يونس كتابه « الجامع الأزهر » . وظهر للدكتور كامل الفقى كتابه « الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة » وظهر للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى كتابه « الأزهر فى ألف عام » وظهر من وزارة الأوقاف كتاب « الأزهر تاريخه وتطوره » ، وظهر للشيخ عبد المتعال الصعيدى كتابه « تاريخ الإصلاح فى الأزهر » . وظهر للدكتور أحمد الشرباصى — صاحب هذا البحث كتابه « فى عالم المكفوفين » ومنهم طائفة كبيرة من هؤلاء الأعلام الأزهريين . وظهر كتاب « الأعلام » للاستاذ خير الدين الزركلى ، وهو يضم فى تراجمه أخباراً كثيرة من هؤلاء الأعلام ...... إلخ .

* * *

وهذه المجموعة من مشهورى الشيوخ إما أن يكونوا قد تعلموا فى الأزهر ، أو قاموا بالتدريس فى الأزهر . أوكان للازهر تأثير فيهم بطريق مباشر أوغير مباشر . أو كان لهم تأثير فى مسيرة الأزهر الفكرية بطريق مباشر أو غير مباشر

ولن يعنينا كثيراً فى هذا المجال أن نطيل عنان الحديث عن تراجم هؤلاء وأحداث حياتهم ، فهى معروفة يسهل على اليد أن تتناول تفاصيلها من المراجع التى ذكرتها أو من سواها ، وإنما يعنينا أن نذكر لكل واحد منهم مانعرفه من مؤلفاته ليكون ذلك رصيداً تاريخياً للاتجاهات التى سيطرت على هؤلاء فى مجال العلم والفكر والثقافة .

وينبغى أن نلاحظ هنا جملة ملاحظات :

فلنلاحظ أولا أن بعض هذه المؤلفات قد طبع ، ولكن نسخة نادرة أو قليلة ، وأن بعضها مفقود أو مجهول المصير ، وأن الكثير منها مازال مخطوطاً ينتظر اليد الأمينة النشيطة لإخراجه من الظلمات إلى النور ، وأن أكثرها لم يطلع عليه أبناء الجيل الحاضر ، حتى من الأزهريين المعاصرين .

ولنلاحظ ثانياً أن الكثير من هذه المؤلفات تدور حول موضوعات دينية أو لغوية ، بعضها يدور حول موضوعات يظن الكثيرون من الناس أن لاعلاقة لها بالأزهر ، كموضوعات الطب والهندسة والفلك والحساب والجبر .

ولنلاحظ ثالثاً أن كثيراً من هذه الكتب كانت كتباً مقررة للتدريس فى الأزهر ، أو شرحا لهذه الكتب المقررة ، وذلك أمر طبيعى مادمنا نتذكر أن العلوم التى كانت تدرس فى الماضى بالأزهر كانت كثيرة متنوعة .

ولنلاحظ رابعاً أن مجموعة هذه المؤلفات تسير فى الغالب على طريقة أزهرية خاصة معروفة بين أبناء الأزهر ، أو كانت معروفة بينهم إلى عهد قريب ، إذا حرصنا على الدقة فى التعبير ، وهى طريقة « المتن فالشرح ، فالحاشية ، فالتعليق ، فالتقرير ..... » إلخ . وفى سنة ١٩٦٦ شرحت فى كتابى « رسالة المسجد فى نشر الثقافة والحضارة » هذه الطريقة ، فذكرت أن تدريس المادة من مواد العلوم فى الأزهر كان يتنقل — عن طريق الكتاب المقرر — فى

مراحل تبدأ من الصغير ، وتنتهى إلى الأكبر ، وقد تعود فتنتهى من الأكبر إلى الأصغر .

قد تكون مادة الدرس أحد « المتون » التى تمتاز بالاختصار والتركيز ، ثم يأتى شخص فيفسر هذا المتن ، ويفك عبارته ، ويوضح معانيه ، فيسمى هذا الإيضاح « شرحاً » . ثم يقبل شخص ثالث فيزيد فى هذا الإيضاح ، ويوسع فى ذلك الشرح ، ويسمى هذا التوسيع « حاشية » ، وقد يقبل رابع فيكتب زيادات على هذه الحاشية ، بالموافقة أو المراجعة أو التمحيص ، فتسمى هذه الزيادات « تقريراً » ، وقد يقبل خامس فيتناول هذا « التقرير » بشىء من النظر أو البحث ، ويسمى ذلك « تعليقاً » .

ولقد بدأت السلسلة — كما ترى — من أقل شىء حجماً وهو المتن ، ثم جاء « الشرح للمتن » ، ثم جاء « شرح الشرح » وهو الحاشية ، ثم جاء « شرح شرح الشرح » ، وهو التقرير ، ثم جاء « شرح شرح شرح شرح » وهو التعليق ! .

وقد يقبل شخص على الكتاب الواسع الضخم فيلخصه ، ثم يقبل بعده ثان فيختصره ، ثم يقبل ثالث فيزيده اختصاراً ، ثم يقبل رابع فيزيده فى الاختصار ، وهكذا حتى يبلغ الكتاب الكبير الضخم — بعد توالى الاختصار والتلخيص — مرتبة « المتن » ! .

ولنلاحظ خامساً شيوع السجع فى عناوين هذه المؤلفات . ولم يقبل السجع فى عناوين الكتب إلا أخيراً ، وسنجد بين مئات المؤلفات أمثال هذه العناوين : « دعائم الإسلام فى الحلال والحرام — البرهان فى تفسير القرآن — المختار فى ذكر الخطط والآثار — منهج السلوك إلى نصيحة الملوك — دقائق الأخبار وحدائق الاعتبار — الإيضاح والتبصير فى فضل يوم الغدير — البحر المورود فى المواثيق والعهود » ... إلخ .

ولنلاحظ سادساً أن هؤلاء الأعلام من أصحاب المؤلفات لم يكونوا من مصر وحدها ، بل من أقطار كثيرة قد تكون من العالم العربى ، وقد تكون من العالم الإسلامى ، وهذا أمر طبيعى ، لأن الأزهر ليس جامعة مصرية ، وليس جامعة عربية ، وإنما هو جامعة إسلامية لكل المسلمين فى سائر أنحاء العـالم الإسلامى .

* * *

وأول شخصية تبدوا أمامنا من مشهورى الأزهريين أصحاب المؤلفات والكتب هو أبو حنيفة النعمان بن أبى عبد الله ابن محمد القيروانى ، قاضى المعز لدين الله الفاطمى ، وقد كان القيروانى من أعلام الدعاة إلى المذهب الفاطمى الشيعى ، وقد توفى سنة ثلاث وستين وثلثمائة ، وكان كتابه «الاقتصار فى فقه آل البيت » هو أول كتاب درس فى الأزهر ، وإلى جوار هذا الكتاب توجد للقيروانى كتب أخرى ، منها :

١ ــ مختصر الآثار فيما روى عن الأئمة الأطهار .

٢ ــ الدعائم ، فى المذهب الإسماعيلى .

٣ ــ دعائم الإسلام فى الحلال والحرام .

٤ ــ الينبوع .

٥ ــ المجالس والمسارات .

٦ ــ اختلاف أصول المذاهب .

٧ ــ الأخبار .

والصيغة الغالبة على هذه المؤلفات أنها كتب فقهية واعتقادية ، وأنها تصور نتاج عالم شيعى إسماعيلى ، يحاول بالكلمة المكتوبة ، كما حاول بالكلمة المنطوقة أن يدعو إلى مذهب الفاطميين الذى شاع فى مصر خلال ذلك العهد .

* * *

ويأتى بعد ذلك أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون ابن كلس ، الذى ولد فى بغداد ، ورحل إلى مصر سنة ٣٣٤ هـ ، وكان يهودياً فأسلم فى شعبان سنة ٣٥٦ هـ ، ثم رحل إلى المغرب ، وهناك تعرف إلى المعز لدين الفاطمى ، وخطى عنده ، حتى صار رائداً لجيش المعز فى حملته على مصر ، وحضر يعقوب مع المعز إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ ، وقام بالتدريس فى الأزهر ، وكان بارع الحديث والمحاضرة ، وكان ثرياً معطاء ، وتولى الوزارة للمعز ، ولقبه المعز بلقب الوزير الأجل ، وتوفى فى ذى الحجة سنة ٣٨٠ هـ .

وله طائفة من الكتب والمؤلفات ، منها :

١ ـ الرسالة الوزيرية فى الفقه الشيعى .

٢ ـ كتاب فى القراءات .

٣ ـ كتاب فى آداب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

٤ ـ كتاب فى علم الأبدان والصحة .

ونلاحظ أن الدعوة إلى المذهب الشيعى ظاهرة فى عنوان الكتاب الأول ، وأن الناحية الدينية تستحوذ على معظم العناية ، ولكن أضيف إليها التأليف فى فى العلوم الطبية ، وقد يدلنا هذا على أن الأزهر لم يقتصر رجاله على البحث فى العلوم الشرعية ، بل طرقوا أبواب غيرها من العلوم والمعارف .

* * *

وممن تألقت أسماؤهم فى تاريخ الأزهر من ناحية العلم والتأليف فيه : أبو الحسن على إبراهيم بن سعيد الحوفى ، الذى كان إماماً علامة فى النحو وعلوم العربية ، وقد توفى سنة ٤٣٠ هـ . ومن مؤلفاته :

١ ـ البرهان فى تفسير القرآن .

٢ ـ الموضح فى النحو .

٣ ــ إعراب القرآن .

٤ ــ مختصر كتاب العين للخليل (فى اللغة) .

وإذا كان بعض هذه الكتب يشير إلى العناية بأمر تفسير القرآن الكريم ، لأن فهم كتاب الله تبارك وتعالى يأتى فى الصدر بالنسبة إلى علماء الإسلام ، فإن بقية الكتب تشير إلى العناية بالنحو واللغة ، وللازهر الشريف منذ أقدم العهود وشهرة عالمية بالعكوف على قواعد النحو والصرف ، والعناية بمفردات اللغة وتراكيبها ؛ ولعل هذه الكتب التى ألفها الحوفى تشير أيضاً إلى اتساع فى الاتجاه العلمى داخل الأزهر ، فبعد أن كنا نرى الدعوة المذهبية الشيعية غالبة عليه ، أخذنا نرى من رجاله عناية بعلوم القرآن وعلوم العربية .

* * *

ويأتى الفقيه المفسر المحدث المؤرخ : أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى المولود بمصر ، والذى تولى القضاء فى عهد الخليفة المستنصربالله الفاطمى ، وأرسله الخليفة إلى قيصرة قسطنطنية (تيودورا) سنة ٤٤٧ ﻫ لمجادلة الصلح بينها وبين مصر ، والذى تأثر بالأزهر وأثر فيه ، وتوفى بمصر سنة ٤٥٤ ﻫ . وكانت له مجموعة مؤلفات ضخمة منها :

١ ــ تفسير القرآن (عشرون مجلداً) .

٢ ــ تواريخ الخلفاء .

٣ ــ خطط مصر .

٤ ــ درة الواعظين ، وذخر العابدين .

٥ ــ نزهة الألباب .

٦ ــ دقائق الأخبار وحدائق الاعتبار .

٧ ــ دستور معالم الحكيم .

٨ — ألف ومائتا كلمة من حديث رسول الله ﷺ .

٩ — الشهاب فى المواعظ والآداب .

١٠ — مسند الصحاب .

١١ — أبناء الأنبياء .

١٢ — مناقب الإمام الشافعى .

١٣ — عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف .

١٤ — المختار فى ذكر الخطط والآثار .

ونلاحظ أن الصبغة التالية على هذه المؤلفات هى الميل إلى التاريخ والوعظ ولكن لايفوتنا التنويه بأحد هذه الكتب وهو « دستور معالم الحكم » فعنوانه قد يفهمنا أن من علماء الأزهر من أخذ يكتب عن السياسة الشرعية وعن الأمور التى تتصل بالحكم والمجتمع ، وهذا إسهام شخصى من القضاعى وأمثاله فى توسيع دائرة الدراسات التى شهدها الأزهر الشريف خلال تاريخه الطويل .

* * *

ويأتى اللغوى النحوى : أبو الحسن طاهر بن أحمد المصرى ، المعروف بابن باب شاذ ، الذى كان إمام عصره فى النحو واللغة ، وتأثر بالأزهر وأثر فيه ، كان تاجراً فى الجواهر ، وتولى إصلاح مايصدر من كتابات عن « ديوان الإنشاء » فى مصر ، وتزهد فى آخر حياته . وتوفى سنة ٤٦٥ هـ . وقد ألف عدة كتب منها :

١ — المقدمة فى النحو ، وتسمى : المقدمة المحسنية فى فن العربية .

٢ — شرح الجمل للزجاجى .

٣ — شرح الأصول لابن السراج .

٤ – شرح النخبة .

٥ – التعليق فى النحو (خمسة عشر مجلداً) .

٦ – المحتسب فى النحو .

ومن الجلى أن المجرى الرئيسي لكتب ابن باب شاذ هو مجرى الدراسات النحوية ، وكأن هذه المؤلفات امتداد للاتجاه التى سار فيه الحوفى وأمثاله ، كما أن هذه المؤلفات تمثل ما نستطيع أن نسميه بالكتب الدراسية فى الأزهر حينئذ .

* * *

ويأتى أبو نصر المؤيد فى الدين : هبة الله بن موسى داود الشيرازى ، الذى لقبوه بداعى الدعاة وباب الأبواب ، وأصله من شيراز ، ورحل إلى الأهواز ، ثم رحل إلى مصر ، ودعا إلى مذهب الفاطميين ، وكان يلقى دروسه فى الأزهر ، وكان شاعراً مناظراً ، ناظر أبا العلاء المعرى بالمراسلة فى موضوع « أكل البنات » ، وتوفى بمصر سنة ٤٧٠ هـ وعمره ثمانون عاماً ، وترك من ورائه مجموعة كتب ومؤلفات له ، منها :

١ – المجالس المؤيدية .

٢ – السيرة المؤيدية .

٣ – ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة .

٤ – أساس التأويل (بالفارسية) .

٥ – مراسلات مع أبى العلاء المعرى .

٦ – تأويل الأرواح .

٧ – المرشد إلى أدب الاسماعيلية .

٨ – كتاب الابتداء والانتهاء .

٩ – كتاب المسألة والجواب .

١٠ – المسائل السبعون .

١١ – نهج الهداية للمهتدين .

١٢ – نهج العباد وشرح المعاد .

١٣ – الإيضاح والتبصير فى فضل يوم الغدير .

ونشاهد الميل إلى الدراسات المذهبية الشيعية يبدو جلياً فى هذه القائمة من المؤلفات ، فى الوقت الذى كان أبناء الإسلام يأملون فيه أن ينفسح رحاب الأزهر المعمور للدراسات فقهية وإسلامية أوسع وأشمل ، حتى لا يقتصر البحث على مذهب بعينه ، أو اتجاه بذاته .

* * *

ولكنا لا يطول بنا الانتظار فى تاريخ الأزهر الشريف حتى يأخذ أبصارنا ضوء علم من الأعلام ، تأثر بالأزهر وأثر فيه ، وهو الشيخ العلامة الإمام شيخ الإسلام : عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم ابن الحسن بن محمد بن المهذب السلمى الدمشقى ، المشهور باسم « العز بن عبد السلام » أو « عز الدين بن عبد السلام » والملقب بلقب « سلطان العلماء » . وقد ولد بدمشق سنة ٥٨٧ هـ ، وتألق فى العلم والفقه ، فأفتى وألف وصنف . وبلغ مرتبة الاجتهاد ، وقصده الطلاب وتخرج على يديه أئمة ، وتولى قضاء مصر القديمة مدة من الزمن ، وقام بالتدريس فى عدة بلاد . وتوفى بالقاهرة سنة ٦٦٠ هـ . وقد خلف لنا العز بن عبد السلام مؤلفات كثيرة منها :

١ – الإلمام فى أدلة الأحكام .

٢ ــ التفسير الكبير .

٣ ــ الإلمام فى أدلة الأحكام .

٤ ــ قواعد الشريعة .

٥ ــ ترغيب أهل الإسلام فى سكنى الشام .

٦ ــ بداية السول فى تفضيل الرسول .

٧ ــ الفرق بين الإيمان والإسلام .

٨ ــ قواعد الأحكام فى إصلاح الأنام .

٩ ــ رسالة فى التصوف .

١٠ ــ الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز .

١١ ــ الغاية فى اختصار النهاية .

١٢ ــ الفوائد فى شكل القرآن .

١٣ ــ حل الرموز (تصوف) .

١٤ ــ مسائل الطريقة (تصوف) .

١٥ ــ شجرة المعارف والأحوال . وصالح الأعمال والأقوال .

١٦ ــ مقاصد الصلاة .

١٧ ــ مناسك الحج .

ونلاحظ فى كتب العز بن عبد السلام تنوعاً وتناولا لموضوعات ومواد مختلفة . فهو قد كتب فى التفسير والأصول والفقه والتاريخ والاجتماع والتصوف . وقد كانت للدراسات الصوفية بين علماء الأزهر منزلة ملحوظة وإذا كان العز قد أسهم فى ذلك بنصيب . فإن غيره قد توسع فى هذا الجانب الروحى من الدراسات الإسلامية . كما سنرى فى موطن آخر . وهذا التنوع الواضح فى كتب العز بن عبد السلام ينهض دليلا آخر على أن رحاب الأزهر اتسعت لمختلف العلوم والفنون .

• • •

ثم نمضى مع الزمن سراعاً حتى نلمح من بين أعلام الأزهر شخص أبى يحيى زكريا بن محمد بن محمود الأنصارى ، الحافظ شيخ الإسلام ، والذى كان يراجع السلطان وينصحه ، وقد ولد سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة ، وتعلم فى الأزهر ، ودرس فيه كثيراً من العلوم الدينية والمدنية كالهندسة والميقات والجبر ، وتولى منصب قاضى القضاة ، وتوفى سنة ٩٢٦ هـ ، وتروى سيرته أنه صنف فى كثير من العلوم كالفقه والتفسير والحديث واللغة والتصريف والبلاغة والمنطق والطب والجبر والمقابلة والهندسة والهيئة وغيرها . ومن كتبه :

١ – فتح الرحمن فى تفسير القرآن .

٢ – تحفة البارى على صحيح البخارى .

٣ – شرح ألفية العراقى فى مصطلح الحديث .

٤ – فتح الوهاب شرح الآداب .

٥ – غاية الوصول فى الأصول .

٦ – شرح إيساغوجى فى المنطق .

٧ – منهج الطلاب فى الفقه .

٨ – تحفة نجباء العصر فى التجويد .

٩ – شرح شذور الذهب فى النحو .

١٠ – اللؤلؤ النظيم فى روح التعلم والتعليم .

ولم أرد أن أذكر هنا اسم جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى المولود سنة ٨٤٩ هـ والمتوفى سنة ٩١١ هـ والذى كان إماماً مفسراً حافظاً مؤرخاً أديباً . لأن مؤلفاته أعظم من أن نشير إليها بكلمات عاجلة وسط هذه المسيرة . فقد ألف السيوطى ما يقرب من ستمائة مؤلف فى التفسير والحديث

والفتاوى والتاريخ واللغة والأدب والمقامات والنحو والتراجم وغيرها ، وهذا القدر الضخم من المؤلفات يحتاج إلى دراسة واسعة لا إلى إشارة عابرة .

* * *

وجاء الصوفى الكبير عبد الوهاب بن أحمد بن على الشعرانى المصرى ، الذى ولد فى بلدة « قلقشندة » بمصر سنة ٨٩٨ هـ ونشأ فى قرية « ساقية أبى شعرة » بالمنوفية وإليها ينسب ، ودخل الأزهر وقضى فيه سنوات ، وتعلم على يد شيخه « على الشونى » وغيره ، واتصل بالأعلام من شيوخ الأزهر ، من أمثال السيوطى والأنصارى واللقانى والرملى والسمنودى ، ويصور الشعرانى بعبارته جانباً من العلوم والكتب التى درسها بعد أن ترك قريته وتوجه إلى القاهرة ليدرس فى الأزهر ، فيقول : « ثم لما جئت إلى مصر حفظت كتاب المنهاج للنووى ، ثم ألفية ابن مالك ، ثم التوضيح لابن هشام ، ثم جمع الجوامع ، ثم ألفية العراق ، ثم تلخيص المفتاح ، ثم الشاطبية ، ثم قواعد بن هشام ، وغير ذلك من المختصرات ، وحفظت هذه الكتب حتى صرت أعرف متشابهاتها كالقرآن من جودة الحفظ .

ثم ارتفعت الهمة إلى حفظ كتاب الروض مختصر الروضة ، لكونه أجمع كتاب فى مذهب الشافعى ، فحفظت منه إلى باب القضاء على الغائب وهو فى أواخر الكتاب ، فلقينى بعض أرباب الأحوال بباب الخرق (باب الخلق) خارج باب زويلة فقال لى مكاشفاً : قف على باب القضاء على الغائب ، ولا تقضى على غائب بشىء .

فما قدرت بعد ذلك على حفظ شىء منه ، لكننى طالعت الكتاب ودرسته نحو مائة مرة ، وكنت أقرأ محفوظى للمتن فى الشرح ، وأنظر كل شىء توقفت فى فهمه ، حتى صار شرحه للشيخ زكريا (الأنصارى) عندى نصب عينى .

ثم لقيني الشيخ أحمد البهلول رضى الله عنه ، فقال لى مكاشفاً : أقبل على الاشتغال بالله ، ويكفيك من العلم ما قد تعلمته ، فشاورت فى ذلك مشايخي ، فقالوا : لا تدخل طريق القوم إلا بعد شرح محفوظاتك كلها على الأشياخ ، فإذا فهمتها وتبحرت فيها فعليك بطريق القوم » .

وإنما سقت هذا النص من كلام الشعرانى لأبين أن هذا التوجيه كان له أثر كبير فى مؤلفات الشعرانى الذى توفى سنة ٩٧٣ بالقاهرة ، فقد استجاب الشعرانى لتوجيه أساتذته ، وقرأ محفوظاته على خمسين شيخاً وسمع شرحها ، ثم انصرف بجل عنايته إلى الدراسات الصوفية والتأليف فيها ، وترك من ورائه ما يقرب من ستين كتاباً ، أغلبها فى التصوف والحكم والتوجيه الروحى ، ومنها ما يلى :

١ — لطائف المنن .

٢ — مختصر تذكرة القرطبي .

٣ — مشارق الأنوار .

٤ — اليواقيت والجواهر .

٥ — مدارك السالكين .

٦ — منح المنة فى التلبيس بالسنة .

٧ — بهجة النفوس .

٨ — تنبيه المغترين .

٩ — الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء الصوفية .

١٠ — البحر المورود فى المواثيق والعهود .

١١ — الأنوار القدسية . . . إلخ .

وقد كانت هذه الكتب سبباً فى صراع عنيف وقع بين الشعرانى وطائفة من علماء الأزهر حول آرائه الصوفية ، وحديثه عن الشريعة والحقيقة ؛ وهذا الصراع يصلح أن يكون موضوعاً لمقال مستقل عن « الشعرانى والأزهر » ، ولعل القدر يهيئ لهذا المقال مجالا آخر . ولكنا نلاحظ أن موضوع التصوف أخذ يشغل علماء الأزهر فى هذه المدة ، تأييداً أو تفنيداً ، فكان هناك مثلا من أيد الشعرانى ودافع عنه ، وكان هناك من عارضه وهاجمه ، بل افترى عليه .

* * *

ثم جاء أول رجل تولى مشيخة الأزهر ، بعد إنشاء هذا المنصب ، وهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخراشى المالكى ، الذى ينسب إلى قرية « أبو خراش » فى البحيرة ، وقد ولد بالقاهرة سنة ١٠١٠ ه ، وأخذ العلوم عن طائفة من شيوخ الأزهر ، وكان فقيهاً فاضلا ورعاً ، وقد توفى بالقاهرة سنة ١١٠٠١ ه ، ومن كتبه :

١ ــ الفرائد السنية شرح المقدمة السنوسية .

٢ ــ الشرح الكبير على متن خليل فى الفقه المالكى .

٣ ــ جزء فى الكلام على البسملة .

٤ ــ الشرح الصغير على متن خليل .

ونلاحظ أن مؤلفاته يغلب عليها الاتجاه إلى الفقه المالكى ، لأنه كان مالكياً ، ونستطيع أن نقول إن هذه المؤلفات كانت ــ فى الغالب ــ لا تتخطى نطاق الكتب الأزهرية الدينية التى يدرسها العلماء لطلابهم فى الجامع الأزهر .

* * *

ثم جاء العالم الشاعر الشيخ عبد الله بن محمد بن عامر الشبراوى الذى تولى مشيخة الأزهر أيضاً ، ولد سنة ١٠٩١ هـ وتعلم فى الأزهر ، وبرز وتألق فى العلم والشعر ، وكان صاحب جاه ومنزلة ، ومن كتبه :

١ — منائح الألطاف فى مدائح الأشراف .

٢ — عنوان البيان .

٣ — شرح الصدر فى غزوة بدر .

٤ — ديوان شعر الشبراوى .

والظاهرة اللافتة للنظر هنا هى غلبة الشعر على أحد أقطاب الأزهر ، بل وأحد الأعلام الذين تولوا مشيخة الأزهر ، مع أن الذى كان شائعاً فى الأزهر إلى عهد قريب ، أن الأزهرى الذى يشتغل بالأدب أو الشعر لا يفلح فى تكوين نفسه علمياً وفكرياً ، ولكن يظهر أن الشيخ الشبراوى قد هدم هذا الزعم منذ أكثر من ثلاثة قرون ، ثم انتقل الأزهر — وخاصة فى عهده الحديث — إلى عناية واسعة بالأدب والشعر ، وتألق فى سمائه عشرات وعشرات من الأدباء والشعراء يحتاج الحديث عنهم إلى مئات من الصفحات .

* * *

وفى السنة التى لحق فيها الشعرانى بربه تبارك وتعالى ، وهى سنة ١١٠١ هـ ولد الشيخ شمس الدين محمد بن سالم بن أحمد الحفنى — أو الحفناوى — الشافعى ، وقد وُلد فى بلدة « حفنة » بالشرقية ، وتعلم فى الأزهر الشريف ، وصار فقيهاً فى مذهب الشافعية ، وبرع فى علم العروض ، وقال الشعر أيضاً على قلة ، وهو صاحب الزجل الشعبى :

« احدتك حدوته ، بالزيت ملتوتة ، حلفت ما آكلها ، حتى يجى تاجرها . . . » إلخ .

وقد تولى الشيخ الحفنى مشيخة الأزهر كذلك ، وخلف لنا كتباً كثيرة منها :

١ ـ حاشية على شرح الأشمونى فى النحو .

٢ ـ أنفس نفائس الدرر .

٣ ـ فوائد عوائد جبرية .

٤ ـ رسالة فى التقليد (فى الحساب) .

٥ ـ حاشية على شرح السمرقندى للياسمينية فى الجبر والمقابلة .

٦ ـ حاشية على شرح العزيزى للجامع الصغير .

٧ ـ حاشية على الشنشورى فى الفرائض والمواريث .

٨ ـ الثمرة البهية فى أسماء الصحابة البدرية .

٩ ـ حاشية على شرح العضد للسعد (فى البلاغة) .

١٠ ـ حاشية على مختصر السعد فى البلاغة .

ونلاحظ هنا أن عالماً تولى مشيخة الأزهر ، وكان له باعه فى الدراسات الأزهرية ، ومع ذلك كان يقول الشعر ، وكان يؤلف فى الجبر والحساب ، وكان يقول الزجل العام كما رأينا .

* * *

ثم نجد الشيخ أحمد بن عبد المنعم بن يوسف بن صيام الدمنهورى ، المولود فى دمنهور سنة ١١٠١ هـ ، والذى تلقى العلوم العقلية والطبية فى الأزهر ، وتولى مشيخة الأزهر ، وكان مهيباً عند الأمراء ، قوالا لكلمة الحق ، آمراً بالمعروف ، وكان يعرف باسم « المذاهبي » لعلمه بالمذاهب

الفقهية الأربعة ، وله تآليف كثيرة ، وقد توفى سنة ١١٩٢ هـ . ومن كتبه ما يلى :

١ — الفيض العميم فى معنى القرآن العظيم .

٢ — إيضاح المتهم من معانى السلم .

٣ — سبيل الرشاد إلى نفع العباد .

٤ — حلية اللب المصون بشرح الجوهر المكنون .

٥ — منتهى الإرادات فى تحقيق الاستعارات .

٦ — القول الصريح فى علم التشريح .

٧ — الزهر الباسم فى علم الطلاسم .

٨ — طريق الاهتداء بأحكام الأمة والابتداء .

٩ — الفتح الربانى بمفردات ابن حنبل الشيبانى .

١٠ — نهاية التعريف بأقسام الحديث الضعيف .

١١ — منهج السلوك إلى نصيحة الملوك .

١٢ — إحياء الفؤاد بمعرفة ظواهر الأعداد .

١٣ — عين الحياة فى استنباط المياه .

١٤ — الرقائق الألمعية على الرسالة الوضعية .

ونلاحظ فى مؤلفات الدمنهورى هذا التوسع الفسيح فى مختلف العلوم والفنون ، فهو لا يقتصر على الموضوعات الدينية واللغوية فحسب ، بل يكتب فى التشريح والحساب واستنباط المياه وشئون المجتمع وسياسة الحكم . . إلخ .

* * *

ويأتى الشيخ أحمد بن أحمد بن محمد السجاعى البدراوى الأزهرى المتوفى سنة ١١٩٧ هـ . وهو من قرية « السجاعة » بالغربية ، وهو فقيه شافعى المذهب ، درس وأفتى وألف ، ومن كتبه :

١ ــ الدرر فى إعراب السور .

٢ ــ حاشية على شرح القطر لابن هشام .

٣ ــ شرح معلقة امرئ القيس .

٤ ــ شرح لامية السموءل .

٥ ــ حاشية على شرح ابن عقيل للألفية .

٦ ــ منظومة فى الاستعارات .

* * *

ثم جاء الشيخ أبو البركات أحمد بن محمد بن أحمد العدوى المشهور بالشيخ الدردير ، الذى ولد فى بنى عدى بمحافظة أسيوط سنة ١١٢٧ هـ ، ورحل إلى الأزهر فتعلم فيه ، وبخاصة عن الشيخين على الصعيدى والحفنى ، وتألق نجمه ، وتصوف وأفتى ، وكان مثلا فى التعفف ، وتولى مشيخة المالكية ونظارة وقف الصعايدة ، ومشيخة رواقهم ، وكان لا يهاب سطوة المماليك ، بل يقف بجوار الشعب مقاومة مظالم الحاكمين الذين كانوا يهابونه ويعرفون مكانته الشعبية . وقد توفى الشيخ الدردير بالقاهرة سنة ١٢٠١ هـ . ومن مؤلفاته ما يلى :

١ ــ أقرب المسالك لمذهب مالك .

٢ ــ تحفة الإخوان فى آداب أهل العرفان .

٣ ــ رسالة فى المعانى والبيان .

٤ ــ رسالة فى طريقة حفص فى القراءات .

٥ ـ رسالة فى متشابهات القرآن .

وللشيخ الدردير أشعار كثيرة أغلبها فى التصوف وعلم التوحيد ، مثل قصيدته « الخريدة السنية » وقصيدته « الخريدة البهية » .

* * *

ومن الأعلام المشهورين فى تاريخ الأزهر الشيخ عبد الله ابن حجازى ابن إبراهيم الشرقاوى ، المولود فى بلدة « الطويلة » بالشرقية سنة ١١٥٠ هـ ، وتعلم فى الأزهر ، وتولى مشيخة الأزهر سنة ١٢٠٨ هـ ، وفى عهده أنشئ رواق « الشراقوة » . وكان الشيخ الشرقاوى عالماً جليلا ، وزعيماً سياسياً ، ومجاهداً مضحياً . وله مواقفه المشرفة فى الدفاع عن حرية الشعب وكرامة الوطن ، وقد توفى فى القاهرة سنة ١٢٢٧ هـ . ومن مؤلفاته هذه الكتب :

١ ـ مختصر مغنى اللبيب فى النحو .

٢ ـ التحفة البهية فى طبقات الشافعية ، من سنة ٩٠٠ إلى سنة ١١٢١ .

٣ ـ تاريخ مصر .

٤ ـ متن العقائد المشرقية وشرحها .

٥ ـ تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من السلاطين .

٦ ـ حاشية على شرح التحرير .

٧ ـ شرح حكم ابن عطاء الله السكندرى .

٨ ـ شرح الوصايا الكردية .

٩ ـ فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى .

١٠ ـ مختصر الشمائل مع شرحه .

* * *

ومن المشهورين فى تاريخ الأزهر ، الشيخ أبو العرفان محمد بن على الصبان الشافعى النحوى ، الذى تعلم فى الأزهر ، وبرع فى النحو ، وتوفى فى القاهرة سنة ١٢٠٦ هـ . ومن كتبه :

١ ــ الكافية الشافعية فى علمى العروض والقافية .

٢ ــ إتحاف أهل الإسلام بما يتعلق بالمصطفى وأهله الكرام .

٣ ــ أرجوزة فى العروض وشرحها .

٤ ــ حاشية على شرح الأشمونى للألفية .

٥ ــ الرسالة الكبرى فى البسملة .

٦ ــ إسعاف الراغبين .

٧ ــ حاشية على شرح الملوى للسلم .

٨ ــ تقرير على مقدمة جمع الجوامع .

٩ ــ حاشية على شرح الرسالة العضدية .

١٠ ــ علم الهيئة .

١١ ــ رسالة فى الاستعارات .

• • •

وجاء الشيخ محمد بن محمد بن أحمد الأمير المالكى ، وشهرته « الشيخ الأمير » ، وأصله من المغرب ، وقد ولد فى بلدة « سنبو » بمصر سنة ١١٥٤ ، وتعلم فى الأزهر ، وأصبح من مشهورى فقهاء المالكية ، وتوفى سنة ١٢٣٢ هـ وله كتب كثيرة ، منها :

١ ــ حاشية على مغنى اللبيب لابن هشام فى النحو .

٢ ــ حاشية على شرح الزرقانى للعزية .

٣ ــ الإكليل فى شرح مختصر خليل ، فى الفقه المالكى .

٤ - المجموع فى الفقه .

٥ - حاشية على شرح ابن تركى للعشماوية فى الفقه .

٦ - حاشية على شرح الشذور فى النحو .

٧ - حاشية على شرح الشيخ خالد على الأزهرية .

٨ - تفسير المعوذتين .

٩ - انشراح الصدر فى بيان ليلة القدر .

١٠ - حاشية على شرح جوهر التوحيد .

١١ - ضوء الشموع شرح المجموع .

* * *

ثم جاء الأزهرى الواسع الأفق ، العميق الثقافة ، الجامع بين علم الدين وعلم الدنيا ، الشيخ حسن بن محمد بن محمود العطار المولود بالقاهرة سنة ١١٩٠ هـ ، وأصله من المغرب ، واتصل برجال الحملة الفرنسية ، وتعلم منهم ، وتولى مشيخة الأزهر سنة ١٢٤٦ هـ ، ، وحاول ربط الأزهريين بالعلوم الحديثة والمعارف المختلفة ، وكان شعاره : « أن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها » . وكان يجيد عمل المزاول الليلية والنهارية ، وله رسائل فى الطب والتشريح ، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية ، وله أشعار رقيقة ، منها قصائد فى الغزل ، وقد توفى الشيخ العطار بالقاهرة سنة ١٢٥٠ . وله كتب كثيرة منها :

١ - حاشية على جمع الجوامع .

٢ - حاشية على مقولات الشيخ السجاعى .

٣ - رسالة فى كيفية العمل بالاسطر لاب ، والربعين المقنطر والمجيب والبسائط .

٤ ــ رسائل فى الطب والرمل والزايرجة والتشريح .

٥ ــ رسالة فى البسملة والحمدلة .

٦ ــ إنشاء الشيخ العطار .

٧ ــ حاشية شرح قواعد الإعراب .

٨ ــ حاشية الأزهرية فى النحو .

٩ ــ حاشية العصام على الوضعية للايجى .

١٠ ــ شرح المنظومة فى آداب البحث .

١١ ــ شرح منظومة التشريح .

١٢ ــ شرح نزهة الشيخ داود فى الطب .

١٣ ــ حاشية شرح أشكال التأسيس فى علم الهندسة .

١٤ ــ مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس .

١٥ ــ ديوان الشيخ العطار .

* * *

وجاء الأزهرى العبقرى المكفوف الشيخ حسين أحمد المرصفى ، المولود فى قرية « مرصفا » بالقليوبية سنة ١٨١٥ هـ . وأصيب بكف البصر وهو فى الثالثة من عمره ، وتعلم فى الأزهر ، وكان صاحب حافظة قوية وعقلية ممتازة ، وقام بالتدريس فى الأزهر ، ثم تعلم الفرنسية فى ثلاثة أشهر ، وانتفع بمطالعاته فى الفرنسية ، وقام بالتدريس فى دار العلوم ومدرسة العميان وهى أول مدرسة من نوعها فى مصر ، واختير عضواً بالمجلس الأعلى للتعليم ، وكان صديقاً للشاعر محمود سامى البارودى ، وكانت بينهما مراسلات ومساجلات ، وقد توفى المرصفى بالقاهرة سنة ١٢٧٠ هـ . وقد ترجمت له

ترجمة واسعة فى كتابى « فى عالم المكفوفين » بالجزء الثانى . ومن كتب المرصفى ما يلى :

١ – الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية .

٢ – دليل المسترشد إلى فن الإنشاء .

٣ – رسالة الكلم الثمان .

ولا ننسى أن المرصفى كان أستاذاً للشاعرين الكبيرين أحمد شوقى وحافظ إبراهيم .

ثم جاء الأزهرى النابغ الجامع بين ثقافتى الشرق والغرب : رفاعة رافع الطهطاوى ، المولود بطهطا سنة ١٢١٦هـ . وتعلم فى الأزهر ، واستكمل تعلمه فى فرنسة ، حينما كان إماماً للبعثة العلمية الموفدة من مصر فى عهد محمد على ، وكان له أثر كبير فى النهضة العلمية والفكرية ، وهو الذى أسس مدرسة الألسن ، وأنشأ جريدة الوقائع ، وترجم كتباً كثيرة مؤلفة ومترجمة . وتوفى بالقاهرة سنة ١٢٩٠ . ومن كتبه ما يلى :

١ – قلائد المفاخر فى غرائب عادات الأوائل والأواخر (مترجم) .

٢ – المعادن النافعة (مترجم) .

٣ – مبادئ الهندسة .

٤ – المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين .

٥ – نهاية الإيجاز فى السيرة النبوية .

٦ – أنوار توفيق الجليل فى تاريخ مصر .

٧ – تعريب القانون المدنى الفرنسى .

٨ – بداية القدماء .

٩ ـــ تاريخ قدماء المصريين ؛

١٠ ـــ التعريبات الشافية لمريد الجغرافية .

١١ ـــ خلاصة الإبريز فى رحلة باريز .

١٢ ـــ جغرافية بلاد الشام .

١٣ ـــ جغرافية ملطبرين .

* * *

وفى ختام هذه الجولة بين المشهورين فى تاريخ الأزهر الشريف يأتى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، صاحب الجهد الكبير الضخم فى إحياء النهضة الأدبية والفكرية فى مصر ، وقد صارت سيرته أشهر من أن تكرر هنا وقد توفى سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ م) ، ومن كتبه ما يلى :

١ ـــ رسالة التوحيد .

٢ ـــ شرح نهج البلاغة .

٣ ـــ الواردات فى التوحيد على طريقة الصوفية .

٤ ـــ فلسفة الاجتماع والتاريخ .

٥ ـــ تفسير القرآن (تفسير المنار) إلى أواخر سورة النساء .

٦ ـــ شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى .

٧ ـــ تفسير جزء عم .

٨ ـــ نظام التربية والتعليم بمصر .

٩ ـــ الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية .

١٠ ـــ شرح البصائر النصيرية فى المنطق .

وإنما ختمنا مسيرتنا هذه بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، لأن حياته

انتهت بانتهاء القرن التاسع عشر ومبادىء القرن العشرين ، وأما أعلام الأزهر فى القرن العشرين بعد الأستاذ الإمام فإنهم كثيرون ، ولم أحاول فى مسيرتى هذه أن أستوعب الأشخاص ، ولو أردت لما استطعت ، فهناك غير هؤلاء المذكورين هنا كثيرون لهم مكانتهم ومؤلفاتهم ، وكان لابد من الاكتفاء بجانب منهم .

وكم أتمنى أن توضع دائرة معارف نحو عنوان «أعلام الأزهر الشريف» تضم تراجم الآلاف الأزهريين الذين تألقوا فى تاريخ الأزهر خلال ألف عام ، وتحصى أعمالهم ومؤلفاتهم بقدر الإمكان . إن هذه أمنية تاريخية علمية ، لو تحققت على وجهها لكانت خير تحية نقدمها إلى الأزهر المعمور وإلى أرواح هؤلاء الذين توالوا على هذا المعهد الإسلامى الأكبر خلال هذه القرون العشرة ، وإنى أضع هذا الإقتراح أمانة بين أيدى المسئولين عن الأزهر ، راجياً أن يمتد العمر بالإنسان حتى تشهد عينه هذا الأمل حقيقة واقعة وعلى الله قصد السبيل .

• • •

الطيبي صاحب التبيان

السؤال :

نريد إلقاء نظرة على صاحب كتاب التبيان فى المعانى والبيان .

الجواب :

منذ سنوات سألنى سائل عن شرف الدين الطيبى . فعز على الجواب إلا بعد المراجعة ، فلم يكن فى ذاكرتى شىء ذو بال عن هذا الاسم ، فاستعنت بما تيسر لى من مراجع فإذا بى أجمع عنه سطوراً معدودة ، نشرتها فيما بعد

فى المجلد الثالث من كتابى « يسألونك فى الدين والحياة » وذكرت أن أهم آثار الطيبى هو كتابه « التبيان فى المعانى والبيان » . ولم أكن أعلم المغيب فأعرف أن الله جل جلاله قد قيض للطيبى دارساً باحثاً صبوراً ، يخرج عنه وعن تحقيق كتابه دراسة جامعية جامعة ، لنيل درجة الدكتوراه فى البلاغة والنقد من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ، حرسها الله معقلا للغة القرآن وأدب العرب ، ذلك هو فضيلة الدكتور عبد الستار حسين زموط المدرس بالكلية ، وجعل عنوان هذه الرسالة : « الإمام الطيبى وتحقيق كتابه التبيان فى البيان » .

وفى اليوم الثانى والعشرين من ديسمبر ١٩٧٧ م احتشد جمع كبير لحضور مناقشة هذه الرسالة ، ثم اجتمع لها كوكبة من أساتذة البلاغة ليكونوا لجنة المناقشة لهذه الرسالة هم الأساتذة الدكتور كامل الخولى المشرف على الرسالة ، والدكتور محمد عبد الرحمن شعيب ، والدكتور محمد عبد الرحمن الكردى وبعد مناقشة استمرت فوق ثلاث ساعات ، أصدرت حكمها بالإجماع بمنح الباحث درجة الدكتوراه ، مع مرتبة الشرف الأولى فى البلاغة والنقد ، وذكر المشرف فى إعلان النتيجة أنه لو كانت جامعة الأزهر تطبع شيئاً من الرسائل الآن ، لكانت هذه الرسالة أهلا لتقرير طبعها ، والتوصية بتداولها بين الجامعات ، لما لها من مكانة ومنزلة ، ولأن كتاب « التبيان فى البيان » الذى قام الباحث بدراسته وتحقيقه ظل مخطوطاً مجهولا عند كثير من العلماء ، حتى كشف عنه الباحث غبار السنين ، وهو أهل للطبع والتداول للانتفاع به عند دارسى البلاغة العربية ، وطالبى الدراسة الأدبية .

وقد ذكر الباحث دوافع اختياره لهذا الموضوع الجليل ، وقد لخصها الباحث فى الأمور التالية :

أولا — احساسه بالرغبة الملحة فى المشاركة الجادة فى إحياء التراث العربى والإسلامى ، بتحقيق مخطوطاته .

ثانياً — إيمانه بأن البلاغة العربية فى حاجة إلى تجديد ، وأن أول سبيل لتجديدها هو الرجوع إلى التراث البلاغى القديم .

ثالثاً — ملاحظته أن صاحب « التبيان فى البيان » يحاول استنباط الجديد ، والجمع بين الاتجاهات المختلفة .

رابعاً — ملاحظته أن اسم الطيبى يتردد فى حواشى النحو تارة ، وفى كتب البلاغة والحديث تارة أخرى ، فأراد أن يزيل الغموض عن سيرته وأن يعرف به فى تفصيل .

وقد قسم الباحث رسالته إلى قسمين : القسم الأول دراسة عن الطيبى وكتابه ، والقسم الثانى يستقل بتحقيق كتاب « التبيان فى البيان » للامام الطيبى

وقد قسم الباحث القسم الأول من رسالته إلى ثلاثة فصول : تكلم فى الفصل الأول عن الإمام الطيبى المتوفى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة للهجرة . وفى هذا الفصل حقق لنا الباحث اسم الطيبى ونسبه ومولده ، وأنه منسوب إلى بلدة « الطيب » التى يحتمل أنه ولدفيها ، ثم انتقل إلى « توريز » وهى مدينة « تبريز » .

وأردف الباحث ذلك بالكلام عن شيوخ الطيبى وتلاميذه . وعلى الرغم من أن كتب التراجم لاتسعف بشىء ذى بال فى هذا المجال استطاع الباحث عن طريق استنطاق النصوص واستشفاف العبارات أن يهتدى إلى معرفة شيخين من شيوخه ، هما الشيخ أحمد الجاربردى ، والشيخ شهاب الدين محمد ابن محمد السهروردى . وأما فيما يتعلق بتلاميذه الذين ظل أمرهم غامضاً . استطاع الباحث التعرف على اثنين منهم هما على بن عيسى صاحب « حدائق البيان » ، وولى الدين محمد بن عبد الله الخطيب التبريزى صاحب « مشكاة المصابيح » .

وقام الباحث فى الفصل الثانى من هذا الباب بتحقق عنوان الكتاب ، مبيناً أنه هو التبيان فى البيان » وإن كثر ذكره باسم « التبيان » فقط وأورده الكثيرون من النساخ باسم « التبيان فى المعانى والبيان » وتحدث عن توثيق نسبة الكتاب إلى صاحبه ، ثم تحدث عن مصادر الكتاب وأبان أنها متعددة ، ولم تقتصر على كتب البلاغة ، بل تضمنت كتباً فى اللغة والتفسير والأدب ، مما يدل على أن الطيبى كان ذاثقافة واسعة ، وبصر بكتب الأقدمين وآراء السابقين . وعرض الباحث لنسخ الكتاب التى عثر عليها واعتمدها فى التحقيق وأبان منهج الطيبى فى كتابه ، متحدثاً بإيجاز عن المدرسة الأدبية والمدرسة الكلامية وخصائص كل منهما فى البحث البلاغى ، ذاكراً أن فن البلاغة كان أدبياً فى عهده الأول ، ثم اتجه منذ الرازى والسكاكى وجهة كلامية فلسفية ، وخالف الباحث الذين يذهبون إلى أن قدامة ابن جعفر وعبد القاهر الجرجانى وجار الله الزمخشرى من أعلام المدرسة الكلامية ، وذكر أن هؤلاء أقرب إلى المدرسة الأدبية ، وذكر من خصائص المدرسة الأدبية الإكثار من الشواهد نثرها ونظمها ، وإلا قلال من البحث فى التعاريف والقواعد والأقسام ، واستعمال المقاييس الفنية فى الحكم على الأدب ، وكون أسلوبها سهلا مفهوماً .

ولكى يتضح منهج الطيبى فى كتابه أبرز الباحث أهم السمات المنهجية التى تلوح من تضاعيف الكتاب ، بادئاً بعرض إجمالى لمحتوياته ، للوقوف على خطة الطيبى فى بحثه التى تؤكد لنا شدة التقارب بينه وبين السكاكى من ناحية المنهج ، وذكر من هذه السمات التى تدل على الاستقلال الفكرى للطيبى هذه الأمور :

أولا — اعتبار حال المتكلم فى الإسناد .فذكر الطيبى أن المخاطب المنكر قد ينزل منزلة غير المنكر وعكسه ، وأن المتكلم تعتبر حالة فى الإسناد كالمخاطب .

وهكذا يقرر الطيبي مراعاة حال المتكلم ، إذ ليس الأمر مقصوراً عنده على مراعاة حال المخاطب .

ثانياً – يذهب الطيبي إلى أن التشبيه قسم أصلى من البيان ، ولذلك جعله ثلاثة أصول التشبيه والمجاز والكناية ، وليس التشبيه عنده مقدمة لبعض المجاز وهو الاستعارة ، كما يذهب السكاكى وغيره ، وبهذا نهج الطيبي لحصر أصول البيان نهجاً آخر صار به التشبيه ركناً أصيلا فى البيان ، حيث إنه إنه لم يعول على الدلالات ، وإنما نظر إلى المبالغة التى جعلها الغرض المنشود من علم البيان .

ثالثاً – وقف الطيبي بشأن البديع موقفاً جديداً يخالف كل من تقدمه من مدرسة السكاكى التى عرفت تقسيم البلاغة إلى المعانى والبيان والبديع ، وتوسع الطيبي فى تعريف البلاغة توسعاً شمل البديع ، ثم قسم البديع إلى ثلاثة أقسام بقوله : علم البديع هو معرفة وجوه تحسين الكلام ، والتحسين إما راجع إلى المعنى أو إلى اللفظ أو إليهما ، والبحث عن القسم الثانى وظيفة الفصاحة ، والبحث عن الأول والثالث وظيفة البلاغة .

وأبان الباحث أن حصر الطيبي للبلاغة فى العلوم الثلاثة ، وجعله البديع موزعاً بين البلاغة والفصاحة موقف جديد يدل على احتفائه بالبديع ، وإنزاله من البلاغة منزلة المعانى والبيان ، وليس ذيلا تابعاً لهما كما هو عند السكاكى وتابعيه . فإن السكاكى لم يدخل البديع فى البلاغة حين عرفها كما نرى عند الطيبي ، لأن البلاغة عند السكاكى تختص بعلمى المعانى والبيان . ومن هنا ندرك روعة صنيع الطيبي فيما ألمح إليه بالنسبة إلى مكانة البديع من البلاغة .

رابعاً – مما يدل على ظهور شخصية الطيبي فى كتابه – مما يعد ميزة له تميزه عن مدرسة السكاكى اهتمامه بالفصاحة اهتمام المتقدمين ، كابن سنان

الخفاجي وابن الأثير ، فدرسها فى فن مستقل ، حيث قسم كتابه إلى فنين أحدهما فن البلاغة بعلومها الثلاثة ، والآخر فن الفصاحة ، وبذلك جعل لدراستها خطاً موازياً لخط البلاغة .

ومن الملامح المنهجية التى لاحظها الباحث عند الطيبى إكثاره من الاستشهاد بالجملة القرآنية ، مما يدل على أن للطيبى باعاً طويلا فى التزود بالقرآن ، وإلا رتشاف من رحيقه والقطف من شهى ثماره ، وكانت له فى سياق الآيات القرآنية استشفافات ذوقية تدل على استقلال فكرى جميل ، ولا عجب فى ذلك فالطيبى مفسر ألف تفسيرا للقرآن الكريم ، كما أن حاشيته على تفسير الكشاف تدل على ثقافته الإسلامية الواسعة قرآناً وحديثاً وقراءات .

ومن السمات المنهجية للطيبى فى كتابه ظهور جهده المشكور فى الحقل البلاغى وإذا كان لم يخط خطوات راسعة فإن طبيعة العصر الذى عاش فيه — وهو العالم المفسر المحدث البلاغى — كانت تجعله إلى المحافظة أقرب منه إلى التجديد ، فإذا وجدنا بوارق استقلال فى تأليفه البلاغى كان ذلك سبقاً واضحاً من مثله .

وقد استجاب الطيبى فى كتابه لطبيعة العصر الذى عاش فيه ، حيث كان هم العلماء فى القرن الثامن هو الجمع والاختصار والشرح ، وكان علماء العجم أول من برع فى هذه الطريقة .

ويتحدث الدكتور عبد الستار زموط فى رسالته عن تأثير الطيبى فيمن أتى بعده ، فأبان أن هناك كثيرين من البلاغيين نقلوا عنه صراحة ورجعوا

لمؤلفاتهم البلاغية ، ومن هؤلاء بهاء الدين السبكى ، وأبو جعفر الغرناطى ، وجلال الدين السيوطى ، وابن معصوم المدنى .

لذلك رأى الدكتور عبد الستار زموط أن من حق الدراسة أن يتحدث عن كل واحد من هؤلاء الأربعة حديثاً يبين مدى تأثير الطيبي فيهم كما تحدث الدكتور من قبل عن الذين تأثر بهم الطيبي ، وهم الزمخشرى والسكاكى وابن الأثير .

ثم يأتى القسم الثانى من الرسالة ، وهو تحقيق كتاب « التبيان فى البيان » تحقيقاً علمياً جامعياً دقيقاً يدل على صبره وتدقيقه وبصره بمسيرة التحقيق العلمى للمخطوطات ، وقد قام الباحث فى هذا المضمار بما يلى :

أولا – جمع نسخ المخطوط ، واتخذ أقدمها أصلا للبحث ، ثم قام بمقابلة النسخ بعضها ببعض لبيان أوجه الاختلاف بينها من ناحية ، ولإثبات مانقص من النسخة الأصل بسبب الحزم من ناحية أخرى .

ثانياً – درس الآيات القرآنية ووثق قراءاتها التى ذكرها الطيبي .

ثالثاً : قام بتخريج الأحاديث النبوية الشريفة ، وقام بتوثيق كل حديث من مصدره فى الكتب الصحيحة .

رابعاً – قام بنسبة الأبيات الشعرية لقائلها ، ذاكراً المراجع التى ورد فيها مبيناً اختلاف الروايات إن وجد .

خامساً – شرح بعض المفردات الغريبة ، كما علق على بعض العبارات مما يكشف غموضها .

سادساً – قام بوضع تراجم مختصرة للاعلام الواردة فى الكتاب .

سابعاً – قام بتخريج النصوص البلاغية برجع كل نص إلى مصدره .

ثامناً – وضع عدة فهارس فى نهاية الكتاب تيسيراً للافادة منه .

إن هذا الجهد العظيم الذى بذله الدكتور عبد الستار زموط فى رسالته التى لقيت حظها من التقدير والإشادة ، يستحق منا كل تقدير وشكران ، وإذا كان الدكتور الباحث قد تألق نجمه الأدبى وهو مازال فى المرحلة الأخيرة من دراسته الجامعية بجامعة الأزهر الشريف . فإننا نتوقع أن يزداد نجمه تألقاً وسطوعاً ، وهو يأخذ مكانه اللائق به بين أساتذة الجامعة ، وأن يتخرج على يديه الكثير العديد من الطلاب الصالحين فى غدهم لخدمة العلم والأدب ، وللمحافظة على السمعة التاريخية الجليلة للازهر الشريف معقل الإسلام والعربية ، ونأمل أن يكتب الله تعالى لهذه الرسالة العظيمة أن تطبع وتنشر فى الآفاق حتى ينتفع أهل العلم بكتاب الطيبى وتفاصيل حياته وجهده المشكور .

وعلى الله قصد السبيل .

من أعلام الشبان المسلمين

السؤال :

للشيخ عبد العزيز جاويش فضل كبير على جمعيات الشبان المسلمين نريد أن نعرف شيئاً عنه .

الجواب :

يعد المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش من أوائل أوائل الأعلام الذين أسهموا بفكرهم وعملهم ونشاطهم فى بناء جمعيات الشبان المسلمين ، وقد

شهد جاويش عصر السلطان عبد الحميد الذى حكم من سنة ١٨٧٦ إلى سنة ١٩٠٩ م . وقد شهد جاويش ظهور السيد جمال الدين الأفغانى فى مصر سنة ١٨٧١ إلى سنة ١٨٧٩ . وكان جاويش يقتدى فى كفاحه ونضاله باثنين من الأعلام هما « جمال الدين الأفغانى » و « محمد عبده » ، ولعل هذا كان من الأسباب التى جعلته يتألق فى سماء الإصلاح الدينى والتربية والتعليم والصحافة ، والتوجيه الإسلامى .

وقد ولد الشيخ عبد العزيز جاويش فى الحادى والثلاثين من أكتوبر سنة ١٨٧٦ ، فى الوقت الذى كان جمال الدين الأفغانى يمهد فيه الطريق لإقامة مدرسته الإصلاحية ، والشيخ جاويش يرجع فى منبته إلى أسرة أصلها من جنوب تونس ، وقد نشأ جاويش فى مدينة الاسكندرية ، وسط أسرة تشتغل بالتجارة والأعمال المحلية ، ولكن عبد العزيز حفظ القرآن الكريم ، وتعلم أصول اللغة العربية ، ونال قسطاً من الثقافة الإسلامية ، وخالف أسرته حيث صمم وأصر على أن يتمم تعليمه ، واختلف مع أسرته حول ذلك ، حتى أدى الأمر إلى انقطاعه عنها ، وأقام فى أحد المساجد ، لا يعطف عليه إلا مربية له سوداء ، ولما شاهد والده إصراره على طلب العلم أذن له بالسفر إلى القاهرة ليجاور فى الأزهر الشريف ، فبلغ القاهرة سنة ١٨٩٢ م ، وصحبه فى ذلك رفيق عمره الشيخ حسن منصور ، وكان الأزهر هو مبعث الثورات ومعقل الحركات الوطنية والإسلامية فى ذلك الوقت ، ومن الأصوات العميقة الأثر فى نفس جاويش فى فتوته صوت الإمام محمد عبده وصوت الزعيم شاب مصطفى كامل ، فقد أثر فيه هذان العلمان من أعلام الإصلاح ، أولهما من الوجهة الإسلامية ، والآخر من الوجهة الوطنية .

وكان عبد العزيز حين بلغ القاهرة فى السادسة عشرة من عمره ، ولكن علامات النجابة كانت بادية عليه ، على الرغم من الظلام الكثيب الذى كان

ينشره الاحتلال البريطاني الذي كان يسيطر بجبروته على البلاد ، وانتظم جاويش في سلك الدراسة بالأزهر ، واستقى من رحيقه ما استقى ، ثم انتقل إلى مدرسة دار العلوم التي كانت تعد امتداداً للدراسة الأزهرية ، مع تجديد وتطعيم ، وانتقل معه زميله حسن منصور ، وكانت فرصة ذهبية أن يتصل مصطفى كامل بجريدة الأهرام ، ولجاويش صلة بمصطفى كامل ، فاستطاع جاويش أن يجد عن طريق مصطفى كامل منفذاً إلى الكتابة في الأهرام حيث ظهر وتألق .

وتخرج جاويش من دار العلوم سنة ١٨٩٧ م . وبدأت الصلة الشخصية بينه وبين الإمام محمد عبده ، حيث قدمه إليه السيد محمد رشيد رضا ، وكان للامام ندوة في بيته بعين شمس ، وكان جاويش يتردد عليها ويستفيد منها ، وقد نبغ في علوم الدين والعلوم الكونية كالطبيعة والفلك ، وفي هذه المرحلة وصف الشيخ محمد عبد المطلب عبد العزيز جاويش بقوله « شاب بهى الطلعة ، وضيء المحيا ، ساطع الوقار ، جياش الأدب ، غزير المادة على حداثة سنه .

وصار جاويش إلى هذا شاعراً وخطيباً ، وكاتباً مجيداً ، وعقب تخرجه اشتغل مدرساً في مدرسة الزراعة ، وبعد مدة قصد إنجلترا ليتعلم في جامعة « برورود » بها ، حيث درس التربية والتعليم وقضى ما يقرب من ثلاث سنوات ، ثم اشتغل بالتدريس في « أكسفورد » لمدة خمس سنوات ، وأعجب بأخلاق القوم هناك ، وكان فيما قال هذه الكلمات ، « ذهبت إلى تلك الديار ، فوجدت الناس متمسكين بدينهم ، فزادوني تمسكاً بديني ، رأيتهم شديدى الحرص على لغتهم ، فزادوني حرصاً على لغتي ، أبصرتهم يتفانون في الدفاع عن بلادهم ، ويحرمون على الأجانب الاستيلاء على بعض شئونهم أو التصرف في أموالهم ورقابهم ، فأخذت أحاكيهم في هذه البلاد السيئة الحظ بالاحتلال وأشياعه . رأيتهم يحبون الصراحة . ولا يخشون مغبتها . ولا يتهيبون متاعبها

ما دام الحق لهم ، فأخذت أحاكيهم فى تلك الفضائل ، أبصرتهم يحبون العمل ويكرهون الكسل ويحضون على الفضيلة ، فعدت إلى بلادى ، ثم صرت أشتغل بهمة لا تعرف الملل ولا الانقطاع » .

وهكذا استطاع جاويش عن طريق التعلم فى الغرب أن يضم إلى ثقافته العربية الإسلامية الثقافة الأوربية المعاصرة ، فأخذ نصيباً لا بأس به فى علوم الأخلاق والطبيعة والقانون والتاريخ والاقتصاد وغير ذلك ، وليس عجيباً أن يحقق الطالب الأزهرى المجتهد مفاهيم جديدة فى آرائه وتفكيره بعد أن عاش سنوات فى « أكسفورد » الجامعة القديمة ذات المكانة والهيبة .

وعاد جاويش إلى وطنه حيث عين مفتشاً بوزارة المعارف ، ولكنه بعد سنة واحدة رجع إلى « أكسفورد » ليشتغل مدرساً فيها ، مع أنه شديد العداوة والكراهية للانجليزى ومن ألد خصومه ، حتى قرر جاويش أن الانجليز أنفسهم ندموا على اختيارهم له مدرساً للغة العربية فى جامعتهم .

وبعد ذلك اشتغل جاويش مفتشاً للغة الانجليزية فى المدارس المصرية ، وأعجب ماشئت لرجل كان معمماً يلبس الزى الإفرنجى تحت عمامته ، ومع ذلك يشتغل مفتشاً للغة الانجليزية فى مدارس مصر ، وفوق هذا ألف هذا الشيخ المعمم كتاباً فى الترجمة بين العربية والانجليزية يسميه « مرشد المترجم » ويروى أن جاويش دخل على أحد المدرسين فى مدرسته بعمامته ، ليفتش عليه فى مادة اللغة الإنجليزية ، فتعجب المدرس من ذلك ، وظن أن هناك خطأ ، وقال لجاويش متعجباً : هذه حصة اللغة الإنجليزية ، فتناول جاويش من يده الكتاب ، وقرأ منه قطعة باللغة الإنجليزية الفصيحة ، ثم ترجمها إلى العربية وحاور المدرس والتلاميذ فى معانيها ، فسألوه من أنت ؟ فقال : أنا مؤلف كتاب « مرشد المترجم » ، أنا عبد العزيز جاويش .

وكان جمع جاويش بين الثقافة الدينية ، والثقافة المدنية سبباً فى إعطائه حصانة ومتانة وقوة ، حيث ظل طيلة حياته معتزاً باللغة العربية لغة القرآن والإسلام الحنيف ومصر كنانة الله فى أرضه ، وقد اشترك جاويش فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى الجزائر سنة ١٩٠٥ ، وفى هذا المؤتمر تعرض أحد المستشرقين الألمان للغة القرآن المجيد بما لا يناسب ، فتصدى له جاويش وفند مزاعمه ، مما نال إعجاب الحاضرين ، حتى إن موضوع ذلك المهاجم لم ينشر ضمن بحوث المؤتمر ، وذلك بناء على رغبة من صاحبه الألمانى .

وفى أبريل سنة ١٩٠٨ استقال جاويش من وظيفة مفتش بوزارة المعارف ليرأس تحرير جريدة اللواء ، وكان له فيها نشاط صحفى واسع ، فبدأ اسمه يتألق لحماسته وجرأته وحملاته الصارمة على الاحتلال والاستعمار .

وقد كتب جاويش فى اليوم الثالث من مايو ١٩٠٨ مقاله الأول فى جريدة اللواء ، وجاء فى هذا المقال هذه الكلمات :

« باسمك اللهم قد استدبرت حياة زادها الجبن والخور العزيمة ، ومطيتها الدهان والتلبيس ، فى أسواقها النافعة تشترى نفيسات النفوس بزيوف الفلوس وتباع الذمم والسرائر بالابتسام وهز الرءوس . وبيمنك اللهم أستقبل فاتحة الحياة الجديدة ، حياة الصراحة فى القول ، حياة الجهر بالرأى ، حياة الإرشاد العام ، حياة الاستمالة فى سبيل الدفاع عن البلاد العزيزة ، بعد أن قضيت فى سابقتها ثمانى حجج ، بلغت بها ذلك المنصب الذى كنت فيه بين محسود عليه ومرجو فيه ، أستقبل هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر متبرياً فى ميدانها ، فإما إلى المصدر ، وإما إلى القبر ، موقناً بما أعده الله لعباده العاملين المخلصين من الظفر والفتح المبين ، عارفاً أن الحى لا يموت إلا مرة ، والموت أحلى من حياة مرة . . . » .

ومن مبادئ جاويش أنه لا اعتدال مع الاحتلال ، وهو عدو للحكومات المستبدة ، فيقول : « يستحيل عملياً أن يستقيم شأن الحكومات الفردية ، أو تطول أعمارها ، أو يهدأ بال الأمم التى تخضع لحكمها ، ومن مضارها أن رعايا هذه الحكومات التى فى قبضة الأفراد إنما مثلها مثل قطعان الأغنام والسوائم فى البيداء ، ليس لها أن تفكر أو تدبر » .

وقد تعرض جاويش للمحاكمة والسجن بسبب مقالاته وشدتها ، وهو فى الواقع قد حوكم ثلاث مرات ، الأولى بسبب حادث فى السودان سنة ١٩٠٨ ، والثانية بمناسبة ذكرى حادث دنشواى الذى وقع سنة ١٩٠٦ ، وكانت هذه المحاكمة الثانية سنة ١٩٠٩ م . والمحاكمة الثالثة بسبب كتابته مقدمة لديوان « وطنيتى » لعلى الغاياتى سنة ١٩١٠ ، وقد اشترك معه فى هذه المحاكمة الثالثة زميله محمد فريد الذى كتب مقدمة أخرى لديوان « وطنيتى » .

وقد اضطر جاويش إلى المهاجرة من وطنه سنة ١٩١٢ م ، وظل سنوات ينتقل بين تركيا وألمانيا ، ولم يعد إلى مصر إلا فى سنة ١٩٢٣ م .

ومن كلامه عن هذه الهجرة : « إنما يجب على الإنسان الإقامة فى وطنه أمران : التضامن ، والعدل ، فإذا تقوضت فيه أركان العدل مالت النفس إلى مغادرته إلى غيره ، لا انسلاخاً منه ولا كراهة له ، ولكن قد تلجئ الضرورات المرء إلى النزوح عن بلده وهو أشد ما يكون تعلقاً به وتذكراً له وإشفاقاً عليه ، إذا كان مطروداً منه ، مشرداً عنه » .

وقد اشترك جاويش مع عبد الحميد سعيد ومحمد فريد فى وفد مصرى سافر إلى برلين ، لانتهاز فرصة المؤتمر الاشتراكى فى سويسرا برياسة « هندرسون » ، وقد قابله جاويش ، وطالبه بتمثيل مصر فى المؤتمر ، فطلب هندرسون منه إعداد مذكرة فى هذا الشأن .

وقد وضع جاويش نشيداً لثورة مصر سنة ١٩١٩ م ، التى اشترك فيها ، وجاء فى مطلع هذا النشيد قوله :

مصر رجى من دمانا ما اشتهيت من فـدا
واطلبى العـز منا نحن نكفيك العـدا

وفى العشرينيات من هذا القرن سافر جاويش إلى المدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام حيث أنشأ الجامعة الإسلامية فيها ، ووضع أساسها ، ثم سافر إلى إصلاح كلية صلاح الدين بالقدس ، وتولى الإشراف عليها .

وفى المرحلة الأخيرة من حياته اتجه جاويش إلى الجهاد فى مجال التربية والتعليم والإصلاح الاجتماعى بعد أن عين مديراً للتعليم الأولى ، ، كخطوة لمحو الأمية وتوسيع نطاق التعليم ، فبذل فى ذلك جهوداً طيبة مثمرة ، وشجع التعليم الحر ، ونظم جمع التبرعات له ، وقد ضاق المحتلون بذلك ذرعاً ، ولحكمة أرادها الله تعالى عاش جاويش معلماً ، حيث بدأ حياته بالتعليم وختمها به ، فقد تولى أولا وظيفة التفتيش فى وزارة المعارف ١٩٠١ م ، وعين مديراً للتعليم الأولى سنة ١٩٢٥ م إلى أن توفى سنة ١٩٢٩ ، حيث كان يرى أن رفعة الأمة مرتبطة بقوة التعليم فيها ، ويرى أن التربية هى الأساس لوجود الأمة ، وقد دعى جاويش إلى العناية بأمر الأزهر الشريف ، وإرسال بعثات منه إلى الخارج للتعلم والعودة للنهوض بالأزهر الشريف ، وكان إلى جوار ذلك يعنى بتعليم المرأة ، وكان ينادى بإنشاء فرق فى المعاهد الدينية لتعليم المرأة علوم الدين واللغة . ولما عارضه المرحوم الشيخ محمود أبو العيون فى ذلك بحجة أن المدارس تستطيع تحقيق ذلك عن طريق العناية بالدين وتعاليم الإسلام ، اعترض جاويش على ذلك ، وطالب ملحاً بأن تدخل البنات الأزهر للدراسة ، ثم أضاف إلى ذلك أن خصص للمرأة قسما فى مجلته « الهداية الإسلامية » .

ومن ميادين النشاط التي صال فيها جاويش وجال أنه كان يعني دائماً بإنشاء الجمعيات التعاونية والأهلية والنقابات العمالية في شتى نواحي البلاد .

وللجاويش أكثر من كتاب ، وقد عرفنا سابقاً أنه ألف كتاباً اسمه « مرشد المترجم » ، وله كتاب عنوانه « غنية المؤدبين » ألفه سنة ١٩٠٢ ، وكان مرجعاً مهماً للمعلمين ، وللجاويش كتاب اسمه «الإسلام دين الفطرة» ، وله كتاب آخر عنوانه « أذى الخمر ومضاره » .

وللجاويش كلمات سائرة خالدة منها قوله » :

« إن لله رجالا تخلد حياتهم إذا ماتوا ، ويزيدون ظهوراً إذا فتروا ، كما أن للنار أناساً يموتون وهم أحياء ، ويتعثرون في ظلمات أعمالهم ، وهم على الأرض يعيشون » . ومنها قوله :

« إن للتاريخ عيناً ، وإن للأمة حساباً » .

ومنها قوله :

« نحن لا نرضى أن نقيم على الضيم ، نحن لا نرضى بسلطان أجنبي علينا . نحن لا نقبل أن نباع بيع السلع في الأسواق ، نحن لا نصبر على العسف والجور نحن لا نعرف للاحتلال بيننا صبغة تكسب المحتلين شيئاً من النفوذ والسلطة الشرعية » .

ومنها قوله :

« إذا كان للمرء عقيدة راسخة ثابتة بذل في سبيل الدفاع عنها ما لديه من مال وعقار ، وبنين وبنات ، وهان عليه ما يلقاه من أعدائه من الظلم والاضطهاد » .

ومنها قوله :

« إن أهم ركن من أركان التربية أن ندرب الإنسان على أن يفهم دائماً أنه إنسان ذو كرامة ، وأنه يجب أن يحتفظ بكرامته تلك ، فلا يعرضها للامتهان ، وأن يكون مستقل الرأى ، معتمداً بعد الله على نفسه ، غير متكل على معونة خارجية ، لأن انتظار هذه المعونة يبعث فيه دائماً أنه لا يصلح أبداً أن يكون مستقلا .

ومن الأمور التى ينبغى أن نلتفت إليها وأن ننوه بها أن عبد العزيز جاويش كان يفهم الطريقة السليمة لتربية الشبان المسلمين ، فهو يعنى فيها بتربية الأخلاق والعقول والأبدان ، ومن اللافت للبصر والبصيرة أن عبد العزيز جاويش كان يقول ويؤكد الدعوة إلى العناية بالناحية الرياضية البدنية ، ويقول : « أوجه الالتفات إلى أمر ذى بال ، هو أن الرياضة البدنية ضرورية جداً » .

وهذا الذى يعنى بتربية الأبدان والأجسام كل هذه العناية كان يحرص الحرص كله على تصحيح مفاهيم الإسلام بصورة تكشف عن عظمة الإسلام ويفتح الطريق أمام طلاب الحق ، فهو ينظر إلى الاجتهاد على أنه أصل من أصول الإسلام ، يؤمن به ويدعو إلى فتح بابه ، ويقول فيما يقول : « إذا تيسر لنا معشر المسلمين أن نسترد بضاعتنا ، ويقوم فيها مجتهدون أكفاء لممارسة الاستنباط والقياس فلن يكون اجتهادهم فردياً ، بحيث يقوم فى مصر مجتهد تلتف حوله جماعة ، وفى الهند آخر يطيف به آخرون ، وفى قازان ثالث يشايعه مشايعون ، بل قد يكون اجتهادهم إجماعياً . فإذا رأى أحدهم رأياً سواء استنبطه بنفسه ، أو قال إنه لغيره من الأئمة الأقدمين . فيستحسن تطبيقه ، لاسيما فيما يتعلق بالصالح العام وأمور السياسة والتشريع والاجتماع » .

وجاويش يقرر أن رعاية المصلحة والأخذ بها بما يلائم حال الزمان والمكان ميزة امتازت بها هذه الشريعة الإسلامية الغراء .

هذا وقد انتقل المرحوم عبد العزيز جاويش إلى رحمة ربه تبارك وتعالى في يوم الجمعة ٢٥ من يناير سنة ١٩٢٩ م.

عليه رحمة الله ورضوانه .

* * *

الإمام محمد بن عبد الوهاب

السؤال :

كثر الحديث عن الدعوة الوهابية وصاحبها نطمع في معرف شيء عن الدعوة والداعي .

الجواب :

ليست الدعوة الوهابية المنسوبة إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب مذهباً لفرقة معينة ، بل هي في مفهومها الصحيح تجديد لمفهوم الإسلام ، ولذلك يعدون الشيخ مجدد القرن الثالث عشر الهجري ، ويدخلونه في مفهوم الحديث النبوي المشهور : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » . وبعضهم يسمى هذه الدعوة (دعوة التوحيد) لأن لبابها هو شرح التوحيد والتمكين له . وبعضهم يسميها (السلفية) وبعضهم يسمى أتباعها (أهل التوحيد) . وقد يعبرون عنهم بأنهم « إخوان من أطاع الله » .

وبعضهم يسميهم (الوهابيين) نسبة إلى الشيخ ابن عبد الوهاب ، ولكن رجال هذه الدعوة الإسلامية الإصلاحية لا يرحبون كثيراً بهذه التسمية . ولعل المستشرقين وأتباعهم هم الذين يحرصون على هذه التسمية .

ولعله لم يظلم الناس دعوة إصلاحية دينية كما ظلم الجهلاء منهم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ولازلت أذكر خطبة ألقيتها منذ عهد بعيد فى (مسجد المنيرة) بالقاهرة أشرت فيها إلى أن دعوة محمد بن عبد الوهاب دعوة تجديدية إسلامية ، فثار كثيرون ضد هذا الكلام ، فذكرنى بأن شخصاً سألنى فى الأربعينيات وأنا على منبر المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين فقال : هل الوهابيون مسلمون ؟ . وكان هذا السؤال مجالا للتندر على ضيق الأفق وقلة العلم . وأشرت يومها إلى أن دعوة الشيخ ليست إلا تجديداً لروح الإسلام الخالص ، وإحياء لمذهب الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه .

ولا شك أن هناك أسباباً كثيرة لسوء ظن الناس بأهل هذه الدعوة فى أول أمرها ، فقد كان بعضهم يتشدد فى دعوته إلى مستوى منفر ، وكانت هناك عوامل سياسية مختلفة ، ليس هذا المجال صالحاً للافاضة فى تفصيلها . ومهما يكن من أمر فقد كسبت هذه الدعوة كثيراً من الأعداء الذين لم يتفهموها ، ولأن تنفيذ تعاليمها كان يأخذ فى بعض الأحيان طابع العنف ، ومن أمثلة ذلك تسرعهم — قبل تمكين دعوتهم من النفوس — فى هدم كثير من القباب المتعلقة بأصحاب المكانة العالية بين المسلمين .

والذى يهمنا الآن هو أن نتعرف إلى رأس هذه الدعوة وزعيمها الذى يعد زعيم النهضة الدينية الحديثة فى جزيرة العرب . وهو الإمام الشيخ محمد ابن عبد الوهاب بن سليمان التميمى النجدى الحنبلى . وقد ولد فى سنة خمس عشرة ومائة بعد الألف للهجرة ، وتوفى سنة ست ومائتين بعد الألف . وبعض المصادر تذكر أن ولادته كانت سنة ١١١٦ هـ — ووفاته كانت سنة ١٢٠٤ هـ . وهو على كل حال قد عاش فوق التسعين سنة . وشاب شيبته فى الإسلام . وكانت ولادته فى بلدة « العيينة » من أرض نجد . والبعض يكتبها « العوينة » . ويقال إن جده سليمان ينتسب إلى آل بيت النبي ﷺ. ويذكرون

أنه رأى فى نومه أنه شاهد ناراً خرجت من سرته ، فأضاءت البوادى كلها ، فعبر بعضهم هذه الرؤيا ، بأنه يخرج من صلبه رجل يهدى الأمة ويؤسس ملكاً كبيراً ، فكان ذلك الرجل هو حفيده محمد بن عبد الوهاب بن سليمان .

وقد نشأ الشيخ فى بلدة « العينية » . وتلقى فيها مبادئ العلوم الدينية على أيدى العلماء الحنابلة من أهل هذه البلدة ، وأتم تحصيله العلمى لمبادئ العلوم فى المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، حيث درس على بعض العلماء الأعلام فيها ، وزار الشام . وطلب العلم فى دمشق . ودخل البصرة . وناله فيها جانب من الأذى . كما طلب العلم فى بغداد .

لقد تنقل ابن عبد الوهاب فى شبابه بين كثير من بلاد العروبة والإسلام ، فأقام فى بغداد نحو خمس سنوات . وأقام فى البصرة نحو أربع سنوات ، ثم رحل إلى بلاد فارس ، فألم بمدينة « قم » المشهورة . وقضى مدة فى أصفهان يزداد علماً . ويدرس التصوف وفلسفة الإشراق ، وقضى سنتين فى همذان . وسنة فى كردستان . ورجع بعد هذه الجولات إلى نجد ، إلى بلده « العيينة » ، وسكن بلدة « حريملاء » وكان أبوه قاضياً فيها ، وأخذ يدعو بين الناس بدعوته إلى إخلاص التوحيد لله تبارك وتعالى .

وكان للشيخ محمد بن عبد الوهاب أئمة بين أساتذته ، نستطيع أن نذكر منهم ابن تيمية . وابن قيم الجوزية وابن عروة الحنبلى . ولكن أهمهم وأكثرهم تأثيراً فى ابن عبد الوهاب هو الإمام ابن تيمية مجدد القرن السابع الهجرى ، فقد تتلمذ الشيخ ابن عبد الوهاب على كتب ابن تيمية ودرسها وانتفع بها ، واتخذه ابن عبد الوهاب إماماً له . ومن قبل اتخذ ابن تيمية الإمام أحمد بن حنبل إماماً له . وقد تابع ابن عبد الوهاب إمامه ابن تيمية — إلى حد ما — فى الاجتهاد والجهر بالإصلاح .

اختتم الشيخ محمد بن عبد الوهاب جولاته العلمية باعتكافه فى بلده عدة شهور ، وكأنه كان يستعيد ما درس ويتأمل فيما حصل ، ثم سلك طريق السلف الصالح ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، مقاوماً للبدع والخرافات والأوهام ، مركزاً عنايته على الدعوة إلى التوحيد ، وقد جهر ابن عبد الوهاب بدعوته هذه فى سنة ١١٤٣ هـ — ١٧٣٠ م فأيقظت العالم الإسلامى ، وشغلت أفكار الناس وخواطرهم .

لقد بدأ دعوته فى « العيينة » ولقى بعض المتاعب ، وخرج إلى بلدة « الدرعية » وشاء القدر أن تزدهر الدعوة هناك ، حيث عرض الشيخ دعوته على محمد بن سعود أمير الدرعية ، فتقبلها وأعجب بها ، وتعهد بالدفاع عنها وتمهيد الطريق أمامها ، باللسان والسنان . وأخذت الدعوة تنتشر ، وأقبل عليها الكثير ، وأحست الحكومة العثمانية بخطر هذه الدعوة على كيانها ، فأوحت إلى محمد على حاكم مصر بمقاتلتها ، ودخلت الدعوة دور النضال الميدانى ، الذى فاز أهلها فيه مرة ، وانهزموا أخرى .

* * *

وأساس هذه الدعوة هو إخلاص التوحيد ، وتحقيق معنى شهادة التوحيد : « لا إله إلا الله ولذلك يسمى أتباعه أنفسهم بالموحدين . فأساسها كذلك تجريد معتقدات المسلمين من كل ما يمتزج أو يختلط بهذا التوحيد ، فالله وحده هو المعبود ، لا شريك له من إنسان أو حيوان أو جماد : (ألا لله الدين الخالص) .

ويقرر ابن عبد الوهاب أن شهادة : « لا إله إلا الله » إذا تحقق معناها عند المسلمين كانت لهم قوة أى قوة ، وقامت فيهم عزة ليس بعدها عزة ، وأعادتهم إلى مجدهم القديم ، لأنها تجرد المؤمن من العبودية أو الخضوع لأى

إنسان ، وتجعل عبوديته لله وحده ، وما عدا الله تعالى فليس له دخل فى سلطة الله عز وجل ، فالله هو الخالق ، والله هو الرازق ، والله هو الفعال لما يريد ، والله هو القدير على كل شىء ، والله هو النافع ، والله هو الضار ، والله بيده ملكوت كل شىء ، وهو عز شأنه يقول فى سورة آل عمران : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير) . ويقول فى سورة الشعراء : (واتل عليهم نبأ إبراهيم ، إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) .

وكما جعل ابن عبد الوهاب عقيدة الوحدانية مقصورة على الله رب الأرباب ومهيئ الأسباب . جعل التشريع لله وحده ، فليس غير حكم الله حكم ، وليس هناك سواه يملك حقاً فى التحليل والتحريم : (ألا له الحكم) . فالله وحده هو المشرع ، وهو الذى يحل الحلال ويحرم الحرام ، ورسوله ﷺ مبلغ عنه ومبين لتنزيله ، والكتاب والسنة هما مصدر الشريعة ومنبعها ، وليس لكلام أحد بعد ذلك حجة فى الدين ، وطوائف الفقهاء والمتكلمين لا ينشئون تشريعاً . وإنما نقبل منهم إذا استقام اجتهادهم واستنباطهم من الكتاب والسنة .

وثمت مجال آخر نشطت فيه دعوة ابن عبد الوهاب ، فهناك مظاهر كثيرة منافية للتوحيد الخالص ، فهناك على سبيل المثال لا الحصر :

١ ــ أضرحة يحج إليها الناس ويتمسحون بها .

٢ ــ أولياء ينذر لهم الناس ، ويتلمسون منهم الخير ، ويستدفعون بجاههم الشر .

٣ ــ أماكن أو أشجار أو أحجار أو أشياء أخرى يعتقد الناس أنها تنفع البشر وتجلب لهم السعد .

٤ ــ قبور مبنية عالية ، مجصصة مشيدة ، مزينة مزخرفة ، كأنها أنصاب أو أوثان .

٥ ــ بقايا جاهلية وفضلات وثنية مختلفة .

هذه المظاهر التى تنافى التوحيد ولا توافق روح الإسلام ، من الواجب فى رأى بن عبد الوهاب أن يقاومها مع أنصاره وأتباعه .

وهناك أمور أخرى يجب أن يقطع عليها الطريق ، فهناك التوسل والشفاعة والنذور والاستعانة ببعض البشر ، وشد الرحال إلى مساجد بعينها . وتشييد القباب والأضرحة ، وكسوتها بالحرير ، والطواف حولها والتمسح بها ، وهناك الذين ابتدعوا فى الإسلام صوفية كاذبة ، أشبه ما تكون بالرهبانية ، وهؤلاء المتصوفة بحلقاتهم ودفوفهم وأذكارهم ورقصهم وغنائهم وأناشيدهم وأحزابهم وأورادهم وتمائمهم وتوسلاتهم وإسرافهم فى مدائحهم . كل هذا يجب فى دعوة الشيخ أن يقف له جميعه بالمرصاد حتى يتحقق الدين الخالص والتوحيد الصافى .

والعجيب فى حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنه عنى فى شبابه بدراسة التصوف و فلسفة الإشراق ، وانتهى إلى اختيار طريق السلف وأهل الشرع ، وأنكر البدع والأوهام ، وضلالات أدعياء التصوف ، حتى صار من

المعروف الواضح تلك العداوة الصارمة بين الشيخ ورجال الصوفية ، ولا تزال آثار تلك العداوة ماثلة إلى اليوم ، قد تهدأ حيناً ، ولكنها سرعان ما تعود إلى الالتهاب والاشتعال .

وقد حدث ما يشبه هذا – إلى حد ما – للامام الشيخ محمد عبده ، وتلميذه الأكبر وخليفته من بعده السيد محمد رشيد رضا ، فكل منهما – كما يحدثنا تاريخه – قد أقبل على التصوف وكتبه أولا ، ثم انصرف إلى طريقة السلف بعد ذلك .

وكان الشيخ ابن عبد الوهاب يعتقد أن انحراف العقيدة هو سبب هوان المسلمين ، ويشرح الأستاذ أحمد أمين هذه الناحية بهذه العبارة : « لقد كان محمد عبد الوهاب ومن نحا نحوه يرون أن ضعف المسلمين اليوم وسقوط نفسيتهم ليس له من سبب إلا العقيدة ، فقد كانت العقيدة الإسلامية فى أول عهدها صافية نقية من أى شرك ، وكانت لاإله إلا الله معناها السمو بالنفس عن الأحجار والأوثان وعبادة العظماء وعدم الخوف من الموت فى سبيل الحق وعدم الخوف من استنكار المنكر والأمر بالمعروف مهما تبع ذلك من عذاب ولا قيمة للحياة إلا إذا بذلت فى رفع لواء الحق ودفع الظلم وهذا هو الفرق الوحيد بين العرب فى الجاهلية والعرب فى الإسلام ، وبهذه العقيدة وحدها غزوا وفتحوا وحكموا . ثم ماذا ! . . . ثم لم يتغير شىء إلا العقيدة ، فتدنوا من سمو التوحيد إلى حضيض الشرك ، فتعددت آلهتهم من حجر وشجر وأعواد خشب وقبور أولياء ، أو ركنوا إلى ذلك فى حياتهم العامة فالزرع ينجح لرضا ولى ويخيب لغضبه ، والبقرة تحيا إذا نذرت للسيد البدوى أو مثله ، وتموت إذا لم تنذر . وهكذا فى الأمراض والعلل ، والغنى والفقر ، كلها لاترجع إلى قوانين الله الطبيعية ، وإنما ترجع إلى غضب الأرواح ورضاها ، ومثل هذه النفوس الضعيفة التى تذل للحجر والشجر والأرواح . لاتستطيع

أن تقف أمام الولاة والحكام الظالمين تأمرهم بمعروف أو تنهاهم عن منكر فذلوا للحكام والأغنياء كما ذلو للخشب والأحجار ومازال كل قرن يمر تزداد معه الآلهة عدداً وتزداد النفوس ذلة ، حتى وصلت الحالة بالأمة الإسلامية إلى فقد سيادتها وانهيار عزتها ، ولا يصلح آخر الإسلام إلا بما صلح به أوله ، فلا بد من العودة إلى الحياة الإسلامية الأولى حيث التوحيد الصحيح والعزة الحقة ، ولا بد من هدم هذه البدع والخرافات باللين إن نجح أو بالقوة إن لم ينجح والله المستعان » .

• • •

وإذا كنا نقدر للشيخ جهوده التي بذلها وصبر عليها من أجل دعوته ، فإن الإنصاف يقتضينا ألا نغفل عن التنويه بالجهود التي بذلها أمير الدرعية ابن سعود ، فإن الشيخ ابن عبد الوهاب في أول أمره قد لقي مناصرة من أمير العيينة حينئذ ، وهو عثمان بن حمد بن معمر ، ولكن هذا الأمير بعد أن أيد الشيخ في دعوته حيناً عاد فخذله فاتجه الشيخ إلى الدرعية في نجد سنة ١١٥٧ هـ فأحسن استقباله أمير الدرعية محمد بن سعود — وهو رأس الأسرة السعودية الحاكمة الآن في المملكة العربية السعودية . ولقد استقبل ابن سعود الشيخ ابن عبد الوهاب بالحفاوة والتأييد ، وبذل في سبيله الكثير من الجنود . وضحى من أجل الدعوة بالمال والدماء ، ولقد سار على درب هذه المؤازرة بعد ذلك الملك عبد العزيز آل سعود ، والملك سعود بن عبد العزيز ، وحاربوا من خالف دعوة الشيخ ، وكان من فضل الله تبارك وتعالى عليهم أن توطد سلطانهم ، وبذلك انتشرت الدعوة في شرق الجزيرة والحجاز واليمن ، وظلت لحفدة ابن عبد الوهاب مكانة ملحوظة عند الأمراء السعوديين ، وهؤلاء الحفدة يسمون باسم : « بيت الشيخ » .

ولقد توفي الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب مجدد القرن الثالث عشر

الهجرى فى بلدة « الدرعية » فى يوم ٢٩ من شوال سنة ١٢٠٦ هـ – ١٧٩٢ م بعد أن رزقه الله بثمانية عشر ولداً ، وبعد أن ترك دوياً لايزال يشغل أفكار الناس وعقولهم ، وقد ترك من ورائه مجموعة من الكتب والمؤلفات ، أغلبها رسائل لطيفة الحجم ، ومنها :

١ – كتاب التوحيد

٢ – كشف الشبهات .

٣ – تفسير الفاتحة .

٤ – تفسير شهادة لاإله إلا الله .

٥ – مفيد المستفيد .

٦ – الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

٧ – كتاب الكبائر .

٨ – رسالة فى أن التقليد جائز لا واجب .

٩ – معرفة العبد ربه ودينه ونبيه .

١٠ – المسائل التى خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية .

١١ – فضل الإسلام .

١٢ – نصيحة للمسلمين .

١٣ – معنى الكلمة الطيبة .

١٤ – مجموعة خطب .

* * *

هذا ولقد تأثر بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب – بطريق مباشر أو غير مباشر عدد من أهل الدعوة والتجديد والإصلاح بين المسلمين . نذكر منهم .

١ ــ الزعيم الهندى الدينى السيد أحمد الذى حج سنة ١٨٢٢ م وعرف دعوة الشيخ وأعجب بها ، ورجع إلى بلاده داعية لها فى البنجاب ، وأنشأ باسمها شبه دولة وهابية ، وحارب البدع والخرافات بشدة ، ولقيت الحكومة الحكومة الإنجليزية المحتلة متاعب كثيرة بسببه .

٢ ــ فى اليمن قام محمد بن على الشوكانى المولود سنة ١١٧٢ هـ والمتوفى سنة ١٢٥٥ هـ بما قام به من اجتهاد فقهى وإصلاح فكرى إسلامى ، وهو صاحب الكتاب المشهور « نيل الأوطار » الذى شرح به كتاب ابن تيمية « منتقى الأخبار » . وقد دعا الشوكانى إلى الاجتهاد ، وحارب التقليد والتوسل بالقبور وأصحابها .

٣ ــ الآلوسى الكبير فى بغداد .

٤ ــ جمال الدين الأفغانى فى أفغانستان .

٥ ــ الإمام محمد بن على السنوسى الذى قام فى بلاد المغرب بالحركة السنوسية الواسعة .

٦ ــ جمال الدين القاسمى فى بلاد الشام .

٧ ــ خير الدين التونسى فى تونس .

٨ ــ صديق حسن خان فى بهو بال .

٩ ــ أمير على فى كلكتا .

١٠ ــ الإمام الشيخ محمد عبده الذى دعا إلى محاربة البدع وفتح باب الاجتهاد وتفسير القرآن الكريم على طريقة مدرسة العقل ، وقد ساعده على ذلك ثقافته الواسعة واحتكاكه بالسياسة ، ومعرفته باللغة الفرنسية .

وغير هؤلاء كثير يطول بنا المقال لو نزعنا إلى طريقة الإحصاء أو الاستقصاء .

رضوان الله تبارك وتعالى على الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب مجدد القرن الثالث عشر ، ورحمه الله رحمة واسعة .

أبو شامة

الحافظ ـ المؤرخ ـ الأديب

السؤال :

نسمع كثيراً عن أبو شامة فمن هو وما هي آثاره الموجودة الآن؟

الجواب :

« أبو شامة » كلمة تذكرنا بالشامة ، والشامة علامة تخالف البدن الذى الذى هى فيه ، وقيل الشامة أثر أسود فى البدن ، وأبو شامة كنية لشخصية من أكبر الشخصيات العلمية التى عرفتها دمشق فى العصر الأيوبى ،وهو صاحب آثار جليلة ، كلها يديرة بالنشر والدراسة ، وقد أطلقت عليه كنيته «أبوشامة» لوجود شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر وقد اشتهر هذا الإمام بكنية أبى شامة أكثر من اشتهارة بألقابه ونسبه ، وهو يعرف أيضاً بأبى محمد وأبى القاسم . أبو شامة هو الإمام العالم الحافظ ، المحدث الفقيه المؤرخ ، العلامة المجتهد المقرئ النحوى صاحب التصانيف الجليلة ، ولم يكن فى وقته مثله فى علمه وديانته ، وعفته وأمانته . وأبو شامة هو شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل ابن إبراهيم بن عثمان بن بكر بن إبراهيم بن محمد المقدس الدمشقى الشافعى . وأصل أجداد أبى شامة من بيت المقدس ، وكان جده الأكبر محمد بن أحمد الطوسى مقرئاً وصوفياً وإماماً لمسجد الصخرة ، قتله الفرنج يوم دخلوا بيت المقدس سنة ثنتين وتسعين وأربعمائة للهجرة ، فرحلت أسرته إلى دمشق فيمن رحل واستوطنت بها .

وقد ولد أبو شامة ليلة الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، وكانت ولادته برأس درب الفواخير بدمشق ، داخل

الباب الشرقى . وإذا كان أبو شامة أصله من القدس . فولده كان فى دمشق وبها نشأته ، وفيها وفاته .

وما كادت عينا أبى شامة تتفتحان للحياة حتى جذبه جاذب خفى علوى إلى مائدة القرآن الكريم ، فحفظ كتاب الله تبارك وتعالى وهو فى سن العاشرة وانصرف إلى جمع القراءات السبع ، فختمها وهو فى السابعة عشرة . وقد حبب الله إليه من صغره حفظ الكتاب العزيز وطلب العلم ، فجعل ذلك همته ، فلم يشعر به والده إلا وهو يقول له : قد ختمت القرآن حفظاً . وقد أخذ بعد حفظ القرآن فى معرفة القراءات السبع والفقه والعربية والحديث . وأيام الناس ومعرفة الرجال وغيرها من العلوم ، وصنف فى ذلك مصنفات كثيرة ، كما حدثنا عن ذلك فى كتابه « ذيل الروضتين » . وقد قرأ القراءات سنة ست عشرة وستمائة على شيخ له اسمه البخارى ، وسمع من الشيخ الموفق ، وعبد الجليل ابن مندويه وطائفة . وقال عنه صاحب « فوات الوفيات » : قرأ القرآن دون العشر وجمع القرآن كله سنة ست عشرة وستمائة على الشيخ علم الدين السخاوى وسمع بالإسكندرية من الشيخ أبى القاسم عبد بن عبد العزيز وغيره ، وحصل سنة تسع وثلاثين عناية بالحديث وسمع أولاده وقرأ بنفسه ، وكتب الكثير من العلوم . وأتقن الفقه ودرس وأفتى ، وبرع فى العربية .

وكان أبو شامة يتردد على مجالس الوعظ التى يعقدها سبط بن الجوزى كل بيت وقد أفاده ذلك ومكنه أن يشارك فى علوم مختلفة . فظهر نضوجه فى العلم وأبيض شعر رأسه ولحيته مبكراً وهو فى الخامسة والعشرين ، وبرم فى الفتوى ، وسمع جماعة من المشايخ والعلماء منهم الحافظ أبو طاهر السلفى وأبو الفرج الثقفى وأبو طاهر بركات بن إبراهيم الخشوعى ولازم كبار الشيوخ فى عصره مثل علم الدين السخاوى ، والموفق المقدس ، والفخر ابن عساكر والعز ابن عبد السلام والتقى بن الصلاح .

ويحدث عن نفسه أنه كان فى صغره يحفظ القرآن فى جامع دمشق ، وينظر إلى مشايخ العلم كالشيخ فخر الدين أبى منصور بن عساكر ، ويروى طريقه فى فتاوى المسلمين ، وحاجة الناس إليه وسماع الحديث النبوى عليه وهو يمر من مقصورة الصحابة إلى تحت قبة النسر لسماع الحديث ، إلى المدرسة التقوية لإلقاء دروس الفقه ، ويرى إقبال الناس عليه – على ابن عساكر – ويتمنى رتبته فى العلم ونشره ، وانتفاع الناس بفتاويه ، وقد بلغه الله من ذلك فوق مايتمناه .

وقد حج أبو شامة مع والده سنة إحدى وعشرين وستمائة ، ثم حج فى السنة التى بعدها أيضاً ، ثم سافر إلى بيت المقدس زائراً سنة أربع وعشرين وستمائة ، وسافر إلى الديار المصرية سنة ثمان وعشرين وستمائة ، واجتمع بشيوخ البلاد فى ذلك الوقت بالقاهرة ودمياط والإسكندرية ، ثم لزم الإقامة بدمشق عاكفاً على الاشتغال بالعلم وجمعه فى مؤلفاته ، والقيام بفتاوى الأحكام وغيرها .

وكان أبو شامة يدرس فى بعض مدارس دمشق كالأشرفية والركنية ، وكان يفتى فى العادلية ، وقد عرف بجرأته فى الجهر بالحق ومحاربة البدع ، ولعل هذا من أثر شيخه العز بن عبد السلام . وقد ولى أبو شامة عدة وظائف منها : مشيخة القراء بتربة الأشرفية ومشيخة دار الحديث الأشرفية ، والتدريس بالركنية ، وقد بلغ أبو شامة رتبة الاجتهاد ، وكان له تلاميذ ينتفعون بعلمه فكان يحضر عنده بالجامع والتربة الأشرفية جماعة من الأكابر والفضلاء لسماع كتابه فى التاريخ وكتابه الروضتين وغيرهما من تصانيفه ، ونظم أحد تلاميذه – وهو الرئيس الأصيل محسن الدين بن على بن محمد التميمى من بنى القلانس – أبياتاً يقول فيها :

أنا والله والجماعـــة طراً   من سماع التاريخ فى بستان
ورياض أنيقة أطلقتهـــا   بأزاهيرهـا لنـــا الروضتان
أيد الله شيخنـــا فلـــقد   أبدع فى الاختصار والتبيان
فهو قطب الحجى وبدر المعالى   وشهاب الفتيا وشمس البيان

وكذلك أخذ عنه القراءات الشيخ شهاب الدين الكفوى وشهاب أحمد اللبان وزين الدين أبو بكر بن يوسف المزى وجماعة ، وقرأ عليه شرح الشاطبية الشيخ شرف الدين الفزارى الخطيب .

وأبو شامة لم تنج حياته من مصائب سببتها له الخصومة التى كانت مشتعلة حينئذ بدمشق بين الحنابلة والشافعية ، وأبو شامة شافعى ولعل متاعب حياته كانت السبب فى ظهور الشيب فى لحيته ورأسه وهو فى سن الشباب ، فعجل الله له تعالى الشيخوخة صورة ومعنى ، ونظم فى ذلك بعض الفضلاء أبياتاً يقول فيها :

إن يشب إذا بلغ خمساً وعشرين   فما كان المشيب فيه بعـــاب
جهل الناس قدر شيخوخة العلم   فجلت أنواره فى الشـــباب
نور الله الوجه والقلب منـــه   إن فيـــه هداية المرتاب
فهو شيخ معنى فعالجه الشيب   وقارن لـــه على الأتراب
فحوى الفضل يافعاً ومسناً   إن زلفى له وحسن مئاب

وكان أبو شامة رجلا متخيراً متواضعاً مطرحاً للتكاليف — قضى حياته محباً للعزلة والانفراد ، لا يتردد على أبواب أهل الدنيا ، وكان يتجنب المزاحمة على المناصب ، لا يفضل على العافية والكفاية شيئاً .

* * *

وقد تحدث أبو شامة فيما كتبه عن حياته على منامات رويت له ، وتفيد أن معاصريه كانوا ينظرون إليه إماماً ومجتهداً فى العلم والورع والتقوى والفقه وقد ذكر أن بعض معاصريه وصفه بأنه « نبى ذلك الزمان » وسيعتذر أبو شامة عن هذه المنامات بعد قليل .

أورد من هذه المنامات رؤيا رأتها والدته ، إذ أخبرته رحمها الله – وهو إذ ذاك صغير يتردد إلى المكتب وأبوه رحمه الله يعجب من حبه للمكتب وحرصه على القراءة على خلاف المعروف من عادة الصبيان – أنها لما كانت حاملا به رأت فى المنام كأنها فى أعلى مكان من المئذنة عند هلالها وهى تؤذن ، فقصت المنام على عابر فقال : تلدين ذكراً ينتشر ذكره فى الأرض بالعلم والخير .

ويقص أبو شامة أنه رأى فى صفر سنة أربع وعشرين وستمائة كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أقبل إلى الشام منجداً لأهله على الفرنج إخذلهم الله . وكان له به خصوصية من إفضاء أمره إليه . والتحدث معه فى أمور المسلمين . وهو يمشى إلى جانبه ملاصقاً منكبه . حتى كان الناس يسألونه عنه وعما يريد أن يفعل ، وهو يخبرهم . وكأنه واسطه بينه وبين الناس . وفى السنة الماضية (٦٢٤ هـ) رأى أبو شامة أيضاً كأنه والفقيه العز ابن عبد السلام – سلمه الله داخل باب الرحمة بالبيت المقدس وقد أراد فتحه ، وهناك من يمنعه من فتحه . ويدفعون الباب لينغلق فما زال العز وأبو شامة يعالجان الأمر حتى فتحا مصراعى الباب فتحاً تاماً . بحيث أسند كل مصراع إلى الباب الذى خلفه .

ورأى أبو شامة أيضاً فى جمادى الآخرة من السنة السالفة كأن المسلمين فى صلاة الجمعة فى حر شديد وهو خائف عليهم من العطش ، ولا يوجد ماء

معروف فنظر إلى قريب ماء قريباً منه وحوض فخطر له أن يستى من ذلك القريب ، ويسكب فى الحوض حتى يشرب منه الناس إذا انصرفوا من الصلاة ، فاستقى شخص قبله لايعرفه دلواً أو دلوين ، ثم أخذ الدلو منه فاستقى دلاء كثيرة لم يعرف عددها وسكب فى الحوض . ورواه المهنار ابن مازن الحرانى متقلداً هيكلا وهو يقول : انظروا فلاناً كيف تقلد كلام الله ورأته امرأة كبيرة كأن جماعة صالحين اجتمعوا بمسجد قرية « بيت سوا » وهى قرية من قرى عوطة دمشق وكأنهم سئلوا ما شأنهم ؟ قالوا : ننتظر النبى يصلى بنا . قالت المرأة : فحضر أبو شامة فصلى بهم وبعد أن يسرد أبو شامة طائفة من رؤاه أو رؤى الناس له يعتذر عما فيها قائلا : « وإنما سطرت هذه المنامات وغيرها تحدثاً بنعمة الله عز وجل كما أمر سبحانه وتعالى فى قوله : « وأما بنعمة ربك فحدث » وقد قال النبى ﷺ : « لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له » اللهم أوزعنا شكر هذه النعم وأختم بخير واسترنا فى الدنيا والآخرة وآمنا مكرك ولاتنسنا ذكرك » .

• • •

وكان أبو شامة ينظم إشعاراً كثيرة يقول بعض المؤرخين عنها : « منها ماهو مستحلى ، ومنها مالا يستحلى فالله يغفر لنا وله » . ومن شعره أبيات فى العزلة التى كان يحبها ويميل إليها ، وفى هذه الأبيات يقول :

نزهت نفسى وعرضى ... وصنت هذى البقيه
لما انعزلت ببيتى ... قولا وفعلا ونيه
وبقيت علقتى بالـ ... مدارس الفقهية
وسوف أخلص منها ... حقاً ورب البرية
إنى عبد ضعيف ... أخاف نعت المنيه

ولست أرضى لنفسى دوام هذى البلية
إلى الممات فربى لبه هبات عليه

وكثيراً ماكان يقول فى القناعة والعزة مثل قوله :

أنا فى عز القناعة رافل فى كل ساعة
رب أتممها بخير بمعافاة – وطاعة

ومثل قوله :

الثوب وللقمة والعافيه لقانع من عيشة كافيه
وما يزد فالنفس ليست به وإن تكن مملكة راضيه

وكتب يوماً إلى رجل عنده أصل الصنف بكتاب « الوسيلة إلى كشف الفصيلة » بخط مصنفه الشيخ السخاوى رحمه الله ، يستعيره منه .

يامن نراه وسيله بحوز كل فضيله
ومن مدى الدهر يسعى فيما يسر خليله
مازال يتعب صب بهوى وصال العقيله
وطالب العلم يهوى كثيره – وقليله
فابعث إليه مقيناً له كتاب الوسيله

وكان يحلو لأبى شامة أن ينظم أبياتاً تجمع أموراً وردت فى الحديث من الوقعات المهلكات ، فقد جاء فى الحديث المتفق عليه عن النبى ﷺ « اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا يارسول الله وماهن ؟ قال ، الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وآكل الربا . وآكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » ، فحصرهن أبو شامة فى قوله :

آكل مال اليتيم والشرك والسحر | وآكل الربا وقذف المسبرا
والتولى يوم زحف وقتل نفس | سبع فيها وبقت من تحسرا

وجاء الحديث الصحيح يقول : سبعة يظلهم الله تعالى فى ظله يوم لاظل إلا ظله : إمام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله . ورجل قلبه معلق فى المساجد ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه . ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله . ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه . ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

وجاء أبو شامة فحصر السبعة فى قوله :

إمام محب ناشئ متصدق | وباك مصل خائف سطوة الياس
يظلهم الله الجليل بظله | إذا كان يوم العرض لاظل للناس
أشرت بألفاظ تدل عليهم | فيذكرهم فى النظم من بعدهم ناسى

وقال فى المعنى نفسه :

وقال النبى المصطفى إن سبعة | يظلهم الله العظيم بظله
محب عفيف ناشئ متصدق | وباك مصل والإمام يعدله

• • •

ويقال : إن بعض آراء أبى شامة كانت سبب قتله . فقد اتهموه برأى تظهر براءته منه فألبوا عليه حنبليين اعتالاه ، ويرى جماعة من أهل الحديث أنه كان مظلوماً ، وكان الذين قتلوه جاءوه قبل ذلك فضربوه ليموت فلم يمت ، فقيل له : ألا تشتكى ؟ فأبى وقال :

قلت لمن قال لى ألا تشتكى | ماقد جرى فهو عظيم جليل
يقضى الله تعالى لنا | من يأخذ الحق ويشفى الغليل
إذا توكلنا عليه كفى | فحسبنا الله ونعم الوكيل

وعادوا إليه فقتلوه بدمشق ليلة الثلاثاء التاسع عشر من رمضان سنة خمس وستين وستمائة للهجرة ، ودفن فى باب الفراديس ، وقبل دفن بمقابر باب كيسان .

* * *

وقد قامت شهرة أبى شامة فى التاريخ على كتابة « الروضتين » ، وهو مصدر مهم جداً لدراسة مصادر موثوق بها لابن الأثير ولعماد الأصبهانى وابن شداد والقلانوسى والقاضى الفاضل وابن طيئ المؤرخ الشيعى الحلبى ، وقد وقف فى حوادث الكتاب عند سنة تسع وثمانين وخمسمائة . أى سنة وفاة صلاح الدين الأيوبى ، ثم أظهر كتابه « الذيل » الذى يبدو فيه دقيق الملاحظة جيد الانتقاء ، وفيه سجل حوادث عصره أحسن تسجيل وقد انتهى فيه إلى سنة خمس وستين وستمائة .

ولأبى شامة باع طويل فى التصنيف والتأليف ، فقد جمع وألف وهذب وصنف فى فنون من العلوم النافعة كتباً كثيرة ومصنفات جليلة ، مختصرة ومطولة . فمنها :

١ ـ شرح القصائد النبوية . فى مجلد .

٢ ـ شرح قصيدة الشاطبى . وسماه : إبراز المعانى فى حرز الأمانى . وهما شرحان أكبر وأصغر . والأصغر فى مجلدين .

٣ ـ اختصار تاريخ دمشق . لابن عساكر ، وقد اختصره مرتين ، الأولى فى عشرين مجلداً ، والثانى فى خمسة مجلدات .

٤ ـ كتاب الروضتين ، فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية . فى مجلدين . واختصره فى مجلد صغير .

٥ ــ الذيل على الروضتين .

٦ ــ الكتاب المرقوم فى جمله من العلوم ، وهو يجمع عدة مصنفات فى مجلدين . الأول فيه خطبة العلم الكبرى التى سماها ، « خطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول » .

٧ ــ كتاب نور المسرى فى تفسير آية الإسرا .

٨ ــ شرح الحديث المقتفى فى مبعث النبى المصطفى .

٩ ــ ضوء السارى إلى رؤية معرفة البارى .

١٠ ــ المحقق من علم الأصول فيما يتعلق بأفعال الرسول .

١١ ــ كتاب البسملة .

١٢ ــ الباعث على إنكار البدع والحوادث .

١٣ ــ كتاب السواك وما أسته ذلك .

١٤ ــ مختصر كتاب البسملة وغير ذلك .

١٥ ــ كشف حال بنى عبيد .

١٦ ــ الواضح الحلى فى الرد على الحنبلى .

١٧ ــ إقامة الدليل .

١٨ ــ الناسخ لجزء القاسخ .

١٩ ــ الأصول من الأصول .

٢٠ ــ مفردات القراءة .

٢١ ــ شيوخ الحافظ البيهقى .

٢٢ ــ مقدمة فى النحو .

٢٣ ــ الألفاظ المعربة .

٢٤ ــ القصيدة الدافعة ، وقصيدتان فى منازل طريق الحج .

٢٥ – نظم مفصل الزمخشرى .

٢٦ – نظم العروض والقوافى .

٢٧ – نظم شىء من متشابه القرآن .

٢٨ – شرح عروس السمر .

٢٩ – جامع أخبار مكة .

٣٠ – رفع النزاع للرد إلى الأتباع .

٣١ – المذهب فى علم المذهب .

٣٢ – نية الصيام دماً فى يوم الشك من الكلام .

٣٣ – شرح نظم المفصل .

٣٤ – الإعلام بمعنى الكلمة والكلام .

٣٥ – شرح لباب التهذيب .

٣٦ – الأرجوزة فى الفقه .

٣٧ – ذكر من ركب الحمار .

٣٨ – مشكلات الآيات .

٣٩ – مشكلات الأخبار .

٤٠ – كتاب القيامة .

٤١ – شرح أحاديث الوسيط .

٤٢ – تعاليق كثيرة فى فنون مختلفة من غير ترتيب . على طريقة التذكرة لأبى على الفارسى . وآمالى ثعلب وآمالى الزجاج . ونحو كتاب المجالسة واختصار جملة من الدواوين .

٤٣ – اختصار تاريخ بغداد .

٤٤ ــ تقييد الأسماء المشكلة .

٤٥ ــ المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز .

ومن المؤسف أن هذا العدد الضخم من مؤلفات أبى شامة التى تعبنا كثيراً فى تتبعها وإحصائها يحدثنا التاريخ أن أبا شامة وقف جميع كتبه ومصنفاته على الخزانة العادلية بدمشق ، فأصابها حريق التهم أكثرها ، ومع هذه النازلة التى أصابت ركناً ضخماً من أركان المكتبة الإسلامية لا يزال هناك عدد كبير من مؤلفات أبى شامة ، بعضها مخطوط ، وبعضها مطبوع ، ولا يزال هذا العالم العملاق فى حاجة إلى جهود كثيرة نقفها على تتبع آثاره ونشر مؤلفاته ، إظهاراً لفضلها وعمقها ، وإبقاء عليها من الضياع أو التلف .

رحم الله العالم المحدث المؤرخ الموسوعى أبا شامة ، وجزاه خير الجزاء عما قدمه إلى لغة القرآن من آثار نافعة باقية .

ابن قلاقس

العالم ــ الشاعر ــ المترسل

السؤال :

سيدى الأستاذ قرأنا القليل عن ابن قلاقس ونريد أن تلقى الضوء على سيرته ومؤلفاته .

الجواب :

هذا رجل من الأعلام المجهولين ، الذين لا يعرف عنهم العامة من القارئين قليلا أو كثيراً من المعلومات ، على الرغم من أنه كان من كبار الكتاب المترسلين ومن أعلام القرن السادس الهجرى ، وكان من شعراء الدولة الصلاحية ، ويقول عنه ياقوت : إنه كان أديباً فاضلا وشاعراً مجيداً . ومع ذلك ظل « ابن قلاقس » اسماً غريباً مجهولا لا يعرف معناه كثير من

الناس ، ومع أنه شاع ذكر الكنى فى شعراء هذا العصر مثل ابن قلادس وابن مكنسه لم نجد المصادر المألوفة تفيض فى تراجم أمثال هذه الأسماء ، أو تتوسع فى الترجمة لهم .

و « ابن قلاقس » بفتحتين فسكون ، فكسر القاف الثانية ، وهو جمع قلقاس ، والقلقاس بقل معروف فى مصر ، ويقول عنه القاموس : «القلقاس أصل نبات يؤكل مطبوخاً يزيد فى الباه ويسمن » .

قيل : وقد تكون كنيته ابن قلاقس لكون رأسه تشبه هذا البقل المعروف

وقد يكون من الخير أن نبدأ بالتعرف إلى اسمه ونسبه ، فهو أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن على بن عبد القوى بن قلاقس اللخمى الأزهرى الإسكندرى . وقد اضطربوا فى اسمه وحقيقته ، فسماه العماد الأصبهانى : نصر بن عبد الله بن على الأزهرى . وسماه أبو شامة : نصر بن عبد الله الإسكندرى . وسماه ابن خلكان : نصر الله بن عبد الله بن مخلوف ابن على بن عبد القوى .

وكنيته : أبو الفتح أو أبو الفتوح . ومن ألقابه : نصر الله أو نصير الدين أو نصير الله .

ويلقب بالقاضى الأعز .

ومن ألقابه كلمة « الأزهرى » نسبة إلى الأزهر . ولعله قد استكمل تعليمه بالأزهر الشريف .

ومن شعر ابن قلاقس :

وأزهر منسب حي لـــه　　　يـؤكـده أنى الأزهـــرى

ومن ألقابه اللخمى . نسبه إلى قبيلة لخم العربية اليمنية ، ومن شعره :

أنا من لخم ولكن جاركـم   وحقوق الجار فـوق النسب
ولنا أصـــل نمـا فى يمن   باسق الفـرع زكى المنصب

وكلمة الإسكندرى ، نسبة إلى الإسكندرية .

وقد ولد ابنُ قلاقس بثغر مدينة الإسكندرية يوم الأربعاء الرابع من شهر ربيع الآخر سنة ثنتين وثلاثين وخمسمائة ، الموافقة لسنة ثمان وثلاثين ومائة وألف للميلاد .

وقد ذكر مولده ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان وياقوت فى معجم الأدباء والسيوطى فى حسن المحاضرة ، وقد أجمع المؤرخون له على مولده فهم متفقون فيه ، على الرغم من الغموض الذى يعلو تفاصيل سيرته ، وقد نشأ ابن قلاقس بالإسكندرية وانتقل إلى القاهرة ، وتوزعته جوانب الحياة .

وقد كانت لابن قلاقس صفات حسنة كما ذكر التاريخ ، فقد كان رجلا فاضلا نبيلا ، وشاعراً مجيداً ، وكان وقاد الخاطر ، وكان حسن الطبع حاد الذكاء ، وكان صاحب أدب جم وخلق رفيع . وكان صاحب قناعة وزهد وتقشف ، وكان موصوفاً بالجرأة والاستهانة بالصعاب .

وكان لابن قلاقس ثقافة واسعة فى الفقه الشافعى وعلم الحديث . وكان يقول الشعر فى المدح ، وكانت له قصائد مدح فيها كبار الرجال من الأمراء والحكام ، وحاول التكسب بأدبه ، ولكنه لم يحصل ثروة كبيرة وعاش فقيراً

وشعره طبقات ، طبقة ابتكر فيها المعانى ، فبلغ فيها أعلى رتب المجيدين ، وطبقة جود فيها اللفظ فلم ينزل عن أمهر صياغة . وطبقة لا يرتفع فيها قريضه عن متوسط الشعر فى اللفظ والمعنى . وطبقة نازله إلى حد بعيد .

وهناك مؤثرات عامة فى شعره منها : تأثره بوطنه الإسكندرية المدينة

ذات المحاسن والمفاتن . وتأثره بالمجالس العلمية التي كان يشهدها . وتأثره بالمذهب السني وبخاصة عن طريق أستاذه الحافظ السلفي . وتأثره بالمذهب الشيعي الذي درسه في الأزهر على عهده . وتأثره برحلاته وتنقلاته وأسفاره . ومما يستحسن من شعره بيتان له في وصف الحمى يقول فيهما :

وبغيضة تدعو وما دعيت ... فتبيت بين الجلد والكبد
يصبو الفؤاد لبينها فإذا ... ولت بكاها سائر الجسد

وهو في هذا الشعر ينظر إلى المتنبي في أبياته عن الحمى التي يقول فيها :

وزائره كأن بها حياء ... فليس تزور إلا في الظلام
إذا ما فارقتني غسلتني ... كأنا عاكفان على حرام
ويصدق وعدها والصدق شر ... إذا ألقاك في الكرب العظام

وكان ابن قلاقس ميالا إلى الرحلات ولوعاً بها ، وكان كثير الأسفار سريع التنقل من بلد إلى بلد ، فسافر في البر والبحر ، والصحراء والفلوات ، وصعد الجبال ونزل السهول ، وهو لا يكاد يستقر في بلد ، ولذلك كان يقول :

سافر إذا حاولت قدراً ... سار الهلال فسار بدراً
والماء يكسب ما جرى طيباً ... ويخبث إذا ما استقر
وبنقلة الدرر النفيسة ... بدلت بالبحر نحرا

وقد رحل إلى عدن سنة خمس وستين وخمسمائة ، وغادرها مبحراً في تجارة وأصابته بعض الأهوال في سفره ، ورحل إلى صقلية ، وبقي بها نحو عامين ثم رجع إلى مصر وتركها إلى اليمن . ومات ببلدة عيذاب — وهي بفتح العين وسكون الياء وفتح الذال وهي بليدة على شاطئ بحر جدة « البحر

الأحمر » ينتقل من عندها الراكب المصرى المتوجه إلى الحجاز على طريق قوص ، فى ليلة واحدة غالباً ، فيصل إلى جدة ومنها إلى مكة حرسها الله تعالى . وقد ظل الحجاج من مصر والمغرب ما يزيد على مائة سنة ، وهم لا يتجهون إلى مكة إلا عن طريق صحراء عيذاب ، يركبون النيل من ساحل الفسطاط إلى قوص ، ثم يركبون الإبل من مدينة قوص ويعبرون بها الصحراء إلى عيذاب ، ثم يركبون البحر إلى جدة ، وكذلك تجار الهند واليمن والحبشة ، يردون فى البحر إلى عيذاب ، ثم يسلكون هذه الصحراء إلى قوص ، ومنها يزورون مصر ، فلم تزل عيذاب مسلكاً لهم فى الذهاب والإياب ما يزيد على مائتى سنة ، ويقول المقريزى إن عيذاب كانت من أعظم مراسى الدنيا .

وكانت وفاة ابن قلاقس فى الثالث من شهر شوال سنة سبع وستين وخمسمائة من الهجرة الموافقة لسنة إحدى وسبعين ومائة وألف من الميلاد ، وقد ذكر وفاته ابن خلكان وياقوت والسيوطى ، ومات وهو شاب لأنه عاش قرابة خمس وثلاثين سنة هجرية . ويحتمل أن تكون وفاة ابن قلاقس فى عز شبابه بسبب مرض أصابه ، وضعف اعتلت به صحته ، وذلك لأن أهل جيله وزمانه كانوا يعيشون طويلا ، وهذا أستاذه الحافظ السلفى قد عاش فوق المائة .

ومن شعر ابن قلاقس فى المرض :

نكست فى الأمراض بعد إفاقتى نكس الهـــلال

والـرأس مثـل الكأس ــ لـولا علة نالته ــ خالى

ولابن قلاقس مؤلفات منها المطبوع ومنها المخطوط ، ومن هذه المؤلفات

١ ــ ديوان مطبوع من اختيار خليل مطران وقد ضاع أكثر شعره .

٢ ــ ديوان ترسل مخطوط .

٣ ــ كتاب مواطر الخواطر .

٤ – كتاب الزهر الباسم فى أوصاف أبى القاسم . وهو القائد أبو القاسم ابن حجر ، وله على ابن قلاقس أفضال اعترف بها ونوه بقيمتها . وكان لابن قلاقس أساتذة ضن علينا التاريخ بتفصيل أخبارهم . وأبرز هؤلاء الأساتذة أستاذه الحافظ السلفى . وقد نوه ابن قلاقس به كثيراً ، وهو الشيخ الحافظ أبو طاهر عماد الدين أحمد بن محمد بن أحمد السلفى الأصفهانى الذى استوطن الإسكندرية بعد أن ولد فيها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، وكان صاحب مدرسة سنية ، وهو أوحد زمانه فى علم الحديث ، وأعلمهم بقوانين الرواية ، وكان يجلس إليه صلاح الدين الأيوبى وأولاده وكبار رجال دولته . وبنى له الأمير العادل وزير الظافر العبيدى مدرسة فى الإسكندرية سنة ست وأربعين وخمسمائة للهجرة . وتوفى سنة ست وسبعين وخمسمائة بالإسكندرية ودفن فيها .

وكان ابن قلاقس يعتبر فقهاء المدرسة الحافظية بالاسكندرية من بين أساتذته الذين يحترمهم . ولذلك كتب إليهم رسالة منها قوله : « كتبت أطال الله بقاء مولى الفقراء أنجم المهتدين . وصواعق المعتدين . من مصر حرسها الله . وقد خرجت بظاهرها ليلة الجمعة للنزهة مع الأمراء أدام الله على امتداد ظلهم » .

وضمن رسالته هذه قصيدة قال فيها :

أرى الدهر أشجانى ببعد وسرنى بقـرب ، فأخطأ مرة وأصابا
فـإن ارتشفت شهد الدنو فإننى تجرعت للبين المشتت صـابا

وكان لابن قلاقس تلاميذ ضنت المراجع بتفصيل الحديث عنهم ، ولكن المؤرخين ذكروا من تلاميذه أبا الحسن على بن أبى الفتح بن خلف وهو من ساكنى صقلية .

وهناك رجل له فضل على ابن قلاقس . إذ كان راوية لشعره ، فأبقى على كثير من قصائده وهو الأمير نجم الدين بن نصال أحد أعيان الدولة الأيوبية .

وكان ابن قلاقس سنياً على الرغم من أن الدولة كانت شيعية المذهب ، وقد كان من شعراء الدولة الصلاحية . ولعل مما ساعد على ذلك أن شيخ بن قلاقس وهو الحافظ السلفى كان سنياً وكان ابن قلاقس شافعى المذهب كأستاذه .

ومما يروى فى سيرة ابن قلاقس أنه قام بزيارة صقلية سنة ثلاث وستين وخمسمائة وفيها تعرف بالقائد أبى القاسم بن الحجر ، وقدم إليه كتابه الذى سماه كما سبق « الزهر الباسم فى أوصاف أبى القاسم » فأحسن وفادته وأقام فى حماة بصقلية مدة . ولما قصد العودة إلى مصر فاجأت المركب ريح عاصفة ردته إلى الجزيرة ، فكتب ابن قلاقس إلى صديقه القائد يقول :

منـــع الشتاء من الوصو　　ل مع الرســول إلى ديارى
فأعادنى ، وعلى اختيــــا　　رى جاء من غير اختيارى
ولـــربما وقـــــع الحما　　ر ، وكان من غرض المكارى

ويرى بعض الباحثين أن شعر ابن قلاقس شعر رقيق حسن التصرف ، لطيف التشبيه على ما يعتبره أحياناً من محسنات لفظية ، وله بيتان فى وصف جارية سوداء ومعناها غريب وفيها يقول :

رب سوداء وهى بيضاء معنى　　نافس المسك عنـدها الكافــور
مثل حب العيون يحسبه الناس　　ســــواداً ، وإنمـــا هو نور

رحم الله بن قلاقس ورضى عنه بقدر ما أحسن إلى دولة العلم والأدب .

اليهود والمسيح

السؤال :

ما العلاقة بين اليهود والمسيح عليه السلام ولماذا ناصبوه العداء ؟ !

الجواب :

المسيح هو عبد الله ورسوله ، عيسى ابن مريم ، روح الله وكلمته ، وقد جاءت كلمة المسيح بالزيت المبارك وهو زيت الزيتون ، أو لأن الله عن طريق جبريل قد مسحه بالبركة ، أو لأن الله مسح عنه الذنوب ، أو لأنه مسحت عنه الأخلاق الذميمة ، وقد تعددت الأقوال فى ذلك .

والراجع إلى القرآن الكريم يجد أن كتاب الله تعالى قد أورد ذكر المسيح بالتمجيد والتكريم فى خواص كثيرة . كأن يقول عز من قائل فى سورة مريم عن عيسى وأمه : (واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً * فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً * قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً * قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً * قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً * فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً * فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً * فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً * وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً * فكلى واشربى وقرى عيناً فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً * فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً * يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً * فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً * قال إنى عبد

الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً ، وجعلنى مباركاً أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً * وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً * والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً) .

وفى هذه الآيات تصوير رائع للنفحات والآيات التى أحاطت بميلاد السيد المسيح عبد الله ورسوله ، مما جعله مذكوراً على ألسنة المسلمين وقارئى القرآن بالحرمة والهيبة والجلال .

ويقول القرآن المجيد فى سورة آل عمران متحدثاً عن أم عيسى : (إذ قالت امرأت عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى إنك أنت السميع العليم * فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم * فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) .

وبعد قليل يعود التنزيل المجيد فى السورة نفسها ليقول : (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين * يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين * ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون * إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين * قالت ربى أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * ويعلمه الكتابة والحكمة والتوراة والإنجيل * ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم

بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين * ومصدقاً لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون * إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) .

وفى سورة الأنبياء يقول القرآن عن مريم وابنها : (والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين) .

ويأتى الحديث النبوى بعد القرآن الكريم ليزيد فى تكريم عيسى وتمجيده فيقول الحديث الذى رواه البخارى ومسلم : « أنا أولى الناس بعيسى بن مريم فى الأولى والآخرة ، الأنبياء أولاد علات (ضرائر) ، ودينهم واحد ، وليس بينى وبينه نبى » .

وجاء فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم أيضاً : «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان ، إلا ابن مريم وأمه » . قال أبو هريرة راوى الحديث : اقرءوا إن شئتم : (وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) .

وأخبر الرسول ﷺ عن مريم البتول أنها خير نساء الدنيا فى زمانها ، وقال عليه الصلاة والسلام : (أعلمت أن زوجتى فى الجنة مريم ابنة عمران) . كما أخبر عليه الصلاة والسلام أنه قد كمل من النساء أربع ذكر منهن مريم ابنة عمران .

كان من الخير أن نسوق هذه السطور لنتبين عن طريقها موقف الإسلام والقرآن من نبى الله عيسى عليه الصلاة والسلام ، لنرى الفرق بين هذا التكريم وبين موقف اليهود من عيسى ابن مريم ، ولنذكر أن عيسى من

اليهود أنفسهم ، نشأ بينهم وكان نسبة إليهم ، بعثه الله تعالى فيهم نبياً ورسولا ، ليرد للانسان كرامته التى أهدرها اليهود ، وليربو منهم على حب الخير وحب الناس ، وقال لهم فيما قال – كما جاء الإصحاح السادس من إنجيل لوقا : « لكنى أقول لكم أيها السامعون أحبوا أعداءكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، باركوا لاعينكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم . من ضربك على خدك فأعرض له الآخر أيضاً ، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضاً ، وكل من سألك فأعطه ، ومن أخذ الذى لك فلا تطالبه » .

وهذه كما يقول كتاب « خطر اليهودية العالمية » تعاليم سامية عالية لا تتفق وأخلاق اليهود وطباعهم ، فكيف يوجد مكان للحب والبركة والسماحة والتواضع بين الذين ألفوا الحقد والكراهية والبغضاء ، فهم ينكرون الجميل ، ويقابلونه بعنده ، وهم يستحلون أموال غيرهم ودماءهم ، ولا يصلون إلا للذهب والمال . ولذلك نشأ الصراع بينهم وبين رسولهم عيسى ، الذى حاول أن ينقذهم ويهديهم ، وينقلهم من عبادة المال إلى عبادة خالق المال .

ولقد تذرع عيسى بشتى الوسائل لإصلاحهم فما أجدت الرغبة ولا الرهبة عندهم شيئاً ، وهذا انجيل متى يتحدث عن ذلك فيما يتحدث فيقول : « ودخل يسوع إلى هيكل الله ، وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون فى الهيكل ، وقلب موائد الصيارفة وكراسى باعة الحمام ، وقال لهم : مكتوب بيتى بيت الصلوات يدعى ، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص » .

ولكن هذا الوعيد والتهديد لم يجديا لدى هؤلاء اليهود شيئاً ، لأن الشر متأصل فى نفوسهم ، ولأن الغرور يملأ كيانهم ، ويجعل منهم مخربين قساة ، لا مثيل لهم بين أجناس البشر .

ولذلك حمل الإنجيل عليهم حملته الصارمة ، فخاطبهم – كما جاء فى

إنجيل متى — بقوله : « أيها الحيات أولاد الافاعى ، كيف تهربون من دينونة جهنم . لذلك ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة ، فمنهم تقبلون وتصلبون ومنهم تجلدون فى مجامعكم ، وتطردون من مدينة إلى مدينة ، لكى يأتى عليكم دم زكى سفك على الأرض ، من دم هابيل الصديق ، إلى دم زكريا بن برخيا الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح » .

ولقد صارح المسيح أولئك اليهود بالحقيقة المرة ، حين واجههم بأنهم معتسفون منحرفون ، خداعون مراءون . يتظاهرون بالطيبة والصلاح ، وهم يضمرون الخبث والمكر . وهم يبدون فى كلامهم ماليس فى ضمائرهم ويقالون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم . ولذلك هتف بهم إنجيل متى يقول لهم : « ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، بأنكم تنفقون خارج الكأس والصفحة . وهما من داخل مملوءتان اختطافا ودعارة . أيها الفريسى الأعمى نق أولا داخل الكأس والصحيفة ، لكى يكون خارجهما أيضاً نقياً . ويل لكم لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة ، تظهر من خارج جميلة ، وهى من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة . هكذا أنتم من خارج تظهرون للناس أبراراً . ولكنكم من داخل مشحونون رياء وإثماً » .

وهاجمهم المسيح هجوماً صارماً لجشع اليهود وحبهم المال ، فيأتى فى إنجيل مرقص هذا القول : « فنظر يسوع حوله وقال لتلاميذه : ما أعسر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت الله . فتحير التلاميذ من كلامه ، فأجاب يسوع أيضاً وقال لهم : يابنى . ما أعسر دخول المتكامين على الأموال إلى ملكوت الله . مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله » .

ومن الواضح أنه يقصد بهذا التعريض أولئك اليهود الذين يكتنزون

الذهب والفضة ويكفرون بالله ويعصون أوامره . والقرآن الكريم يخبرنا بأن اليهود كفروا برسالة عيسى ولم يتبعه إلا تلاميذه وحواريوه ، ولذلك يقول التنزيل فى سورة آل عمران : (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنامسلمون) .

ويؤكد هذا الكفر اليهودى بعيسى وبشارته بأخيه خاتم الأنبياء محمد ، وبأخيه موسى من قبله وذلك حيث يقول فى سورة الصف : (وإذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لايهدى القوم الفاسقين وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) .

وبينما يمجد القرآن عيسى عليه السلام ، فيأتى فى سورة مريم على لسانه (قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً وجعلنى مباركاً أين ماكنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً » .

ويمجد مريم البتول العذراء فيقول فى سورة التحريم :(ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) .

وينوه بذلك شاعر مسيحى هو بولس سلامة فيقول :

بين فهد المسيح والمسجد الأقصى ... تسامى هـوى وجـل ولاء
مريم مريم الطهـارة لم تحـلم ... بأسنى من طهرهـا العلياء
ألف الطهر منذ ماهـل وحى ... والتقت أحرف وقام أداء
قدس المصحف المجيـد يسوعاً ... وعلى الشمس قـرت العذراء

بينما نجد هذا نجد اليهود يعدون المسيح وثنياً مرتدا عن الدين اليهودى ويقول « التلمود » الكتاب المقدس عندهم على لسان أحد أحبارهم : « إن يسوع الناصرى موجود فى لجات الجحيم ، بين القار والنار ، وقد أتت به أمة من العسكرى بانذاراً عن طريق الخطيئة ، أما الكنائس النصرانية فهى قاذورات ، والواعظون منها أشبه بالكلاب النابحة ، وقتل المسيحى من التعاليم المأمورة بها ، ومن الواجب أن يلعن اليهودى ثلاث مرات رؤساء المذهب النصرانى » .

أين هذه الخسة الوضيعة من ذلك السمو السامى الذى نراه فى حديث القرآن » عن المسيحية بالنسبة إلى اليهود والمشركين فى قول الله تعالى فى سورة المائدة : (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) .

ويقول المرحوم القائد عبد الله التل فى كتابه « جذور البلاء » : « وآمن الرسول (محمد (بنبوة عيسى ابن مريم . فأنكر اليهود عليه ذلك لأنهم كانوا يكفرون برسالة عيسى ويجحدون نبوته . فأنزل الله تعالى فيهم : (قل يأهل الكتاب هل تنقمون منا ، إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون) .

وبينما كان الإسلام يمجد المسيح عليه السلام ويصون شرف السيدة العذراء فى نظرة قدسية سامية ، كان اليهود يواصلون حربهم على المسيح والمسيحية ويتهجمون بأساليبهم القذرة على السيدة العذراء ، مطبقين تعاليمهم التلمودية التى لم تترك نقيصة إلا ألصقتها بمريم البتول ومن يقرأ رأى الإسلام

بالمسيح وأمه ، ويقارن بين ذلك وبين آراء اليهود ونظرتهم للمسيح وأمه ، يعجب لموقف مسيحى الغرب الذين أعمى الله أبصارهم وبصائرهم ، فظلوا سائرين فى غيهم مناصرين لأعداء دينهم ، وأعداء بنى جنسهم بل أعداء الإنسانية كافة » .

* * *

وإذا كان اليهود قد تعددت جرائمهم ومقابحهم نحو المسيح عليه السلام فلعل أكبر هذه الجرائم هو تلك الصورة البشعة التى افتروها على البتول العذراء ، ومحاولتهم قتل المسيح عليه السلام ، بعد أن أحتمل من تطاولهم ما احتمل ، والقرآن الحكيم نفسه يشير إلى هذا فى إيجاز ، وإعجاز ، حيث يقول فى سورة النساء عن اليهود : (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيماً) .

وحين نعود إلى « تفسير المنار » نجده يقول إنه بسبب نقد اليهود لميثاق ربهم ، حيث أحلوا ماحرمه ، وحرموا ما أحله ، وكفروا بأيات الله ، وقتلوا الأنبياء الذين بعثهم لهدايتهم ،فعل بهم ما فعل من للعن والغضب،وضرب الذلة الذلة الأنبياء الذين بعثهم لهدايتهم ، فعل بهم ما فعل من اللعن والغضب ، الذلة والمسكنة وإزالة الملك ، لأن هذه الذنوب قد مزقت نسيج وحدتهم ، وفرقت شمل أمتهم ، وأفسدت أخلاقهم .

وكذلك افتراؤهم على مريم تلك الفرية الشنعاء ، وهى قدفها بالفاحشة زوراً وبهتاناً ، وإدعائهم أنهم قتلوا المسيح عليه السلام فعلا مع أن القرآن يذكر حقيقة الحال وهى أنهم لم يقتلوه كما زعموا تبجحاً بالجريمة ولم يصلبوه كما أدعوا وشاع بين الناس ، ولكن وقع لهم الشبه فيه ، فظنوا أنهم صلبوا

عيسى ، وإنما صلبوا غيره ، وما قتلوه متيقنين أنه هو بعينه ، لأنهم لم يكونوا يعرفونه حق المعرفة ، والأناجيل المعتمدة عند النصارى تصرح بأن الذى أسلمه إلى الجند هو يهوذا الإسخريوطى ، وأنه اتفق معهم على أن الشخص الذى يقوم بتقبيله هو المسيح » .

لقد رأى اليهود أن دعوة المسيح صارت خطرة عليهم ، لأنها تقاوم سيئاتهم وأهواءهم ، ورذائلهم واستغلالهم ، وقد صور المسيح نفسه لؤم هؤلاء وخساستهم حين وصفهم بأنهم « الحيات أولاد الأفاعى » .

ولذلك تآمروا عليه ، وقرروا التخلص منه ، يقول الإنجيل : « حينئذ اجتمع رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشعب ، لكى يمسكوا يسوع بمكر ويقتلوه ، ولكنهم قالوا : ليس فى العيد ، لكى لايكون متغب فى الشعب » .

وأتم اليهود خطتهم ، واتفقوا مع أحد الحواريين . على أن يدلهم على المسيح ، ورضى يهوذا الإسخريوطى أن يظل يهودياً جشعاً يقدس المال ، ويبيع ضميره بثلاثين قطعة من الفضة .

يقول إنجيل لوقا : « فدخل الشيطان فى يهوذا الذى يدعى الأسخريوطى وهو من جملة الاثنى عشر ، فمضى وتكلم مع رؤساء الكهنة وقواد الجند كيف يسلمه إليهم ، ففرحوا وعاهدوه أن يعطوه فضة ، فواعدهم .... » .

ويقول إنجيل متى : « وكان الوالى معتاداً فى العيد أن يطلق للجمع أسيراً واحداً أرادوه وكان لهم حينئذ أسير مشهور يسمى باراباس ففيم هم مجتمعون قال لهم بيلاطس من تريدون أن أطلق لكم . باراباس أم يسوع الذى يدعى المسيح لأنه علم أنهم أسلموه جسداً . وإذ كان جالساً على الكرسى الولاية أرسلت إليه امرأته قائلة إياك وذاك البار لأننى تألمت اليوم كثيراً فى حلم من أجله . ولكن رؤساء الكهنة والشيوخ حرضو الجموع على أن يطلبوا

باراباس ويهلكوا يسوع ، فأجاب الوالى وقال لهم من من الاثنين تريدون أن أطلق لكم . فقالوا باراباس قال لهم بيلاطس فماذا أفعل بيسوع الذى يدعى المسيح . قال الجميع ليصلب فقال الوالى وأى شر عمل . فكانوا يزدادون صرافاً قائلين ليصلب . فلما رأى بيلاطس أنه لاينفع شيئاً بل بالجرى يحدث شغب أخذ ماء وغسل يديه قدام الجمع قائلا إنى برىء من دم هذا البار . أبصروا أنتم . فأجاب جميع الشعب دمه علينا وعلى أولادنا . حينئذ أطلق لهم براباس وأما يسوع فجلده وأسلمه ليصلب .... » .

وفى كتاب « حياة المسيح » للعقاد تصوير لخيوط المؤامرة التى حيكت للبطش بالمسيح عليه السلام ، وفى هذا التصوير بيان للاضطراب فى سرد تفاصيل الأحداث المتعلقة بصلب المسيح حسب التصوير الإنجيلى ، ومما جاء فى الكتاب المشار إليه أنه منذ اللحظة الأولى فى بيت المقدس حين ألهم بتنفيذ المؤامرة كما طمعوا وأملوا ، لمس المسيح مكامن الأشراك التى ترصد له فى كل خطوة ، وعرف من الأسئلة التى كانت تنهال عليه أن القوم يأتمرون به لإهلاكه ، إذ كانت هذه الأسئلة جميعاً تنزع إلى هدف واحد ، وهو استدراجه إلى كلمة تثبت العصيان والتمرد على الدولة ، أوكلمة تثبت « الكفر » ونقض الشريعة ، وكانت أجوبته كلها على ما تعودوه فى مواضع العنت والإحراج ، تستند إلى حجته ، وتستقيم مع غايته ورسالته ، وتخجل من يحاول إحراجه ، وتهتك مايستره من حجب الرياء ، ولا يبعد أنه قدسمع من بعض رؤساء الهيكل تفصيل المؤامرة المحبوكة ، لأن أحدهم وهو — — نيقوديموس — كان يزوره ليلا ولعله واحد من كثيرين .

ثم حدث مالا بد أن يحدث فى عيد كذلك العيد ، بين أناس متنمرين ، وأناس متجردين لدعوة جديدة ، يتطوعون لنشرها ويتحمسون لصاحبها ، فاشتبك السيد المسيح وسماسره الهيكل فى معركة أدبية لم تلبث أن انقلبت إلى

معركة يدوية ، فقلب عليه السلام موائد الصيارفة وباعة الضحايا ، وصاح بهم وبسماسرة الهيكل يذكرهم أنهم فى بيت الله ، وأنهم نقلوه من معبد صلاة وطهارة إلى مغارة لصوص .

وكانت هذه هى الواقعة الفاصلة على ما يظهر ، وربما سعى إليها السيد المسيح تقريراً للموقف على وجه من الوجوه ، فامتلات الصدور الموغرة ، واتخذت من درء الفتنة ذريعة إلى العمل العاجل ، وبدأ العمل على النحو الذى تفرقت فيه أقوال النقلة والرواة .

وهنا ينتهى دور التاريخ ويبدأ دور العقيدة .

فليس للتاريخ كلمة راسخة فى خبر من الأخبار التى أعقبت حادثه الهيكل وحركت كهانة للبطش والنكاية ففى حادثة الاعتقال لايدرى متتبع الحوادث من اعتقله ، ومن دل عليه ، وهل كان معروفاً من زيارته للهيكل ، أو أو كان مجهولا لايهتدى إليه بغير دليل .

وفى حادثة المحاكمة يجرى الخبر على أنه حوكم بالليل ، وصدر الحكم فى يوم واحد ، ويجرى نظام القضاء الموسوى على تحريم المحاكمة الليلية ، وإسقاط كل حكم يصدر فى قضايا الدم بعد جلسة واحدة فى يوم واحد ، ولا ينقذ الحكم فى هذه القضايا إلا إذا صدر بالإجماع .

وفى حادثة التنفيذ يجرى الخبر على أنه قد تم على الرغم من إعلان الحاكم الرومانى براءة المحكوم عليه ، ويقول إنجيل يوحنا إن تسليمه للتنفيذ كان فى نحو الساعة السادسة ، ويقول إنجيل مرقس إنها كانت الساعة الثالثة فصلبوه .

ومع أن القرآن الحكيم ينفى صلب اليهود فهو لا ينفى عنهم صفة المجرمين المتعمدين المصرين ، وإن كانوا لم يصلوا إلى ماأرادوا من نتيجة لجريمتهم

النكراء وهى صلب المسيح ، فقال كما سلف : (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) . فقد كانت تلك إرادة الله وحده ، وكانت غير إرادة اليهود الأخساء ، فهم قد أصروا واستمروا فى جريمتهم ، ولكن الله ألقى شبه المسيح على غيره ، فصلبوه وهم يحسبون أنهم صلبوا المسيح نفسه ، فالجريمة فوق رءوسهم ، ومن حولهم ، محيطة بأعناقهم إلى يوم الدين .

ويقول « تفسير المنار » فيما يقول عن هذا الموضوع : « إن مسألة الصلب من المسائل التاريخية التى لها نظائر وأشباه كثيرة ، فقد كان الملوك والحكام يقتلون ويصلبون ، وناهيك بالرومانيين وقسوتهم ، واليهود وعصبيتهم ، وقد قتل هؤلاء غير واحد من أنبيائهم أشهرهم زكريا ويحيى عليهما السلام ، والفائدة فى إثبات التاريخ لمثل هذه الوقائع لاتعدو العبرة بأخلاق الأمة ودرجة ضلالها وهوايتها وسيرة الحكام فيها ، وقد كان اليهودى فى عصر المسيح تحت سلطان الروم والرومانيين ، والحاكم الرومانى فى بيت المقدس فى ذلك العهد (بيلاطسى) لم يكن يريد قتل المسيح ، ولم يحفل بوشاية اليهود وسعايتهم فيه ، ولا خاف أن يكون ملكاً يزيل سلطان الروم عن قومه ، هكذا تقول النصارى فى كتبها ، وإنما كانت اليهود تريد قتله ﷺ لما دعا إليه من الإصلاح الذى يزجرهم عن تقاليدهم المادية ، لأنهم بقتل زكريا ويحيى قد أصيبوا بالضراوة بسفك دماء النبيين والمصلين ، فسواء صح خبر دعوى قتل عيسى وصلبه أم لم يصح ، فلا صحته تفيدنا عبرة بحال أولئك القوم لم تكن معروفة ، ولا عدمها ينقص من معرفتنا بأخلاقهم وتاريخ زمنهم » .

وحينما قبض اليهود على المسيح ، محاولين إتمام جريمتهم ، اتبعوا معه القسوة والغلظة ، كأنه لص أو مجرم ، وأوثقوه بالحبال ، وقدموه إلى الحاكم الرومانى (بيلاطسى) ، وشارك جميع اليهود فى اتهام المسيح ، والتشنيع عليه ،

والمطالبة بقتله ولم تنهض منهم طائفة تنكر ذلك عليهم ، فكانت حادثة القبض عليه صورة لئيمة مخزية تجردت من كل قيم الأخلاق وحياة الضمير ، وحركة العاطفة لإنسانية وتجسم منهم غلظ الشعور وموت الإحساس ، واتهموه كذباً وزوراً بأنه خارج على الدولة ، متمرد على الحاكم محرف للدين ، وكأن الحاكم (بيلاطسى) لم يكن مشاركاً لهم فى اتهاماتهم ، ولكنه فيما يظهر كان مغلوباً على أمره ، أمام ضجة الغوغاء وثورة اليهود العمياء .

* * *

وقد يخيل إلى البعض أن افتراءات اليهود ضد المسيح كانت فى الماضى البعيد ، وأنها انطوت بأنطوائه ، ولكن الحقيقة المرة أن حملة الافتراء القذرة المسعورة مازالت مستمرة ، وذلك عن طريق نشر الكتب والمجلات التى تتعرض لشخصية المسيح عليه السلام ، بالتشكيك تارة ، وبالافتراء القذر تارة أخرى . وعلى سبيل المثال توجد فى نيويورك قلب أمريكا يوجد عدد ضخم من دور النشر اليهودية الصهيونية ، تهتم بطبع هذه الكتب التى تطعن فى المسيح ، وتشوه صورته بأسلوب قذر منحط ، منها دار « سيمون وشوستر اليهودية » . وقد نشرت أخيراً كتاباً عنوانه « التجربة الأخيرة للمسيح » وفى الصفحة الخامسة والعشرين يقول هذا الكتاب اللئيم : « ذهب المسيح قانا الجليل ، قرية أمه ، ليختار زوجته . لقد أجبرته أمه على ذلك لأنها تريد أن تفرح به . وقف وسط البلدة وفى يده وردة حمراء يحدق ببنات القرية اللاتى كن يرقصن تحت شجرة حور . أحد يتطلع إلى كل منهن ويقارن الواحدة بالأخرى . . لم تكن له الجرأة أن يختار . إنه يريدهن كلهن. وجاءت المجدلية ابنة خاله الوحيدة : شعرها مسدل على كتفيها ، تتهادى ببطء اهتز عقل الشاب عندما وقع نظره عليها وصرخ : هى التى أريد ها ومديدة ليقدم لها الوردة الحمراء » .

وفى الصفحة السادسة والثمانين يقول الكتاب القذر :

« كانت المجدلية مستلقية على ظهرها فى الفراش عارية تماماً . مبللة بالعرق ، وشعرها الأسود الفاحم منشور على وسادتها ويداها متشابكتان تحت رأسها لقد كانت تضاجع الرجال منذ الفجر فكانت منهوكة القوى . وكان شعرها وكل جزء من جسدها تفوح منه رائحة جميع الأمم وخفض ابن مريم نظرة ووقف وسط الغرفة غير قادر على الحركة » .

وفى الصفحة الخمسين بعد الأربعمائة يقول الكتاب :

« أمسك بها يسوع وطبع على فمها قبلة ملتهبة ، وامتقع لونهما واصطكت ركبهما ، فتساقطا تحت شجرة ليمون مزهرة وبدأ يتدحرجان على الأرض . طلعت الشمس ووقفت فوقهما ، وهب نسيم عليل أسقط أزهار الليمون على جسديهما العاريتين ، وضمت المجدلية يسوع إليها وألصقت جسده بجسدها الملتهب » .

وفى الصفحة الثانية والثمانين بعد الأربعمائة يقول الكتاب على لسان يهودا

« وعندما واجه الصليب داخ المسيح المزيف وأغمى عليه . فأمسكت به نساء كن موجودات وأسعفنه ليضاجعهن كى ينجبن أطفالا . ويخاطب يهوذا المسيح بقوله : واجبك أن تعلو على الصليب إنك تفاخر بأنك قاهر الموت الويل لك هكذا تقهر الموت بمضاجعة النساء » .

أية بقية بقيت عند هؤلاء من حياء أو خجل ؟ ولكنها الطبيعة الخبيثة المستكنة السارية فى العروق عبر القرون ، لتجسم العداوة الفاجرة الكافرة من هؤلاء اللئام تجاه عبد الله ونبيه ورسوله وروحه وكلمته عيسى ابن مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

* * *

الماسونية والإسلام

السؤال :

نقرأ فى هذه الأيام عن الماسونية وعلاقتها بالصهيونية نرجو أن تشرح لنا علاقة الماسونية والإسلام.

الجواب :

الماسونية هى أخبث ما ابتدعه المكر اليهودى بمعونة الاستعمار الخسيس، والماسونية جمعية سرية مخربة مدمرة ، وأصل المعنى لاسمها هو « البناء الحر » ، وكلمة الماسونية التى تطلق عليها ليست ترجمة لها ولا أصلا ، لأن الماسونية فى الأصل تتكون من كلمتين فرنسيتين : « فرانك » ومعناها الحر و « ماسون » ومعناها البناء - بتشديد النون - ، فمعنى الكلمتين معاً « الحر البناء » .

ولذلك يطلق أتباعها على جمعيتهم اسم « جمعية البنائين الأحرار » وكذبوا ، ولو صدقوا لسموها « جمعية الهدامين الأشرار » .

وهى جمعية يهودية إرهابية ، ذات طقوس غريبة مثيرة ، ويقال إن أول نشأتها كان فى هيكل سليمان ، وإن كان هناك من يرجع بها إلى عصر الفراعنة ، أو إلى الهند ، أو إلى اليونان ، أو إلى فارس ، وهناك من قال إن نشأتها كانت فى القرن الثامن عشر الميلادى ، وهناك من ذهب إلى أنها أنشئت سنة ١٦١٦ من جمعية الصليب الوردى ، وهناك من رأى أنها نشأت أيام الحروب الصليبية ، ولعله كانت هناك محاولات لإبراز تلك الفكرة الشريرة ، ولكن مختلف العوامل وقفت فى طريقها مرة بعد أخرى ، حتى تنمرت فى القرن الثامن عشر ، ولذلك يقول بعض المؤرخين : الخلاصة أن أصول البناء الحر لا ترجع إلى مصدر واحد ، ولعلها قد اشتقت من جميع

المصادر التى سبقت ، فقد تكون النظم المادية اشتقت من الجمعية الرومانية وجماعات البنائين فى القرون الوسطى ، والمبادئ الفلسفية من تعاليم البطارقة وأسرار الوثنيين . بيد أن المصدر الذى لا ريب فيه هو الكابالا اليهودية وذلك سواء كان انتقال أسرارها إلى البناء على يد الجمعية الرومانية ، أو الفرسان ، أو الصليب الوردى ، أو يهود القرن السابع عشر . وأقطع حجة على ذلك هو أن النظم والتعاليم اليهودية هى التى اتخذت أساساً لإنشاء المحفل الأكبر فى سنة ١٧١٧ ووضع رسومه ورموزه .

ومما يؤكد أن التعاليم الماسونية الفلسفية السرية مستمدة من تعاليم « الكابالا اليهودية » أن أغلب المصطلحات وكلمات التعارف وأسماء المناصب فى الماسونية يهودية ، وأن الدرع التى تستعمل فى المحفل الماسونى الأكبر رسمها شخص يهودى ، على مثال الرموز والأساطير اليهودية .

وهدف الماسونية الأكبر هو هدم الأديان السماوية - سوى اليهودية - عن طريق التناصر بالفرار من التعصب لهذه الأديان وهى تريد القضاء على المسيحية والإسلام لتبقى اليهودية بكيانها الإسرائيلى الصهيونى ، وهم يصرحون بذلك ، ولا يكتفون بالتلميح ، فقد جاء فى إحدى نشراتهم الرسمية ما يلى :

« نحن الماسون لا يمكننا أن نتوقف عن الحرب بيننا وبين الأديان ، لأنه لا مناص من ظفرنا أو ظفرها ، ولن نرتاح أبداً إلا بعد أن نغلق جميع أبواب المعابد » .

ويقول الأستاذ سيف الدين البستانى : « تتظاهر الماسونية بأنها تهادن الأديان جميعاً ، وهى فى الواقع تحارب الأديان غير اليهودية ، ومنذ أن ظهرت الماسونية اصطدمت بالمسيحية لأنها كانت ألصق الديانات بها . وحين ظهرت البروتستنتيه هادنتها الماسونية وشنت حربها على الكثلكة ، ومنذ ظهور الإسلام

لم يأل اليهود ثم الماسونية اليهودية جهراً فى مقاومته ، ودس الدسائس وبث الفتن التى تضعف من شأنه » .

والكتاب المسيحيون يحملون حملات صارمة على الماطونية عدوة المسيحية ، وقد ضمها الأب لويس شيخو إلى الجمعيات السرية التى نشأت فى أول عهد المسيحية ، متسترة تحت السرية المظلمة ، فتدعى ظاهراً ترقية العلوم أو التقرب من الله وهى فى الحقيقة مباءة فساد ودعارة ، ولا هم لها إلا بث الأكاذيب ، وتعظيم قوى الطبيعة ، ورفع الإنسان إلى مصاف الألوهية . وهذا هو المؤرخ « هورتر » يقول فى كتاب نشره سنة ١٨٤٠ م :

« إن من يعتبر نظام الشيعة الماسونية الباطن وما تكيده من المكايد منذ نحو ستين سنة لمناوأة الكنيسة الكاثوليكية ، ثم يقابل بين مبادئها ومبادئ شيع الكاثريين المعروفة لا يسعه إلا قرار بالتوافق الموجود بينهما ليس فقط من حيث المبادئ العمومية ولكن أيضاً فى دقائق الأمور . فإن ساالشيعتين كلتيهما تجاهران بحرية الإنسان التامة واستقلاله من كل سلطة عليا . كلتاهما تبغض البغض التام كل نظام للهيئة الاجتماعية ولشرائع العمران وعلى الأخص القوانين الكنسية كلتاهما تحرص على سرها فلا تكشفه إلا للذين اختبرتهم زمناً طويلا وإذا أعلنته بالأقسام المحرجة بكتمه عن كل غريب بل عن أقرب الأصدقاء والأهل . لكلتيهما رؤساء مجهولين لا يعرفهم إلا بعض الأفراد ، وكذلك أعضاؤهما يتعارفون برموز سرية وإشارات خفية يطوونها عن سواهم . وترى كلتا الشيعتين إذا خافت على نفسها تظاهرت بالمراء وجاهرت بالدين لخدع الجمهور ، وإنى أقدر أن أؤكد التأكيد التام أن كل ما حدث فى أوربة من الفتن والثورات أو الانقلابات السياسية منذ أكثر من نصف قرن ، إنما كان من أعمال تلك الشيع السرية التى خلفت شيعة الاليجيين » .

* * *

وإذا كان الإسلام يقوم أساسه على الإيمان بالله تبارك وتعالى موجد كل شيء ، ومصرف كل أمر ، ويقول القرآن الكريم فى سورة البقرة : (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) ويقول : (لله ما فى السموات وما فى الأرض) ويقول : (ألا لله الدين الخالص) ... إذا كان الإسلام يقرر هذا فإن الماسونية الملحدة الخبيثة تنكر وجود الله وتقول عنه إنه حديث خرافة ، وتحارب الأديان لكى تصل فى الخفاء وبالدهاء إلى إشاعة اليهودية ، وهى تبدو فى ظاهرها بريئة تقدمية ولكنها فى الواقع دعوة يهودية تهدف إلى القضاء على الأديان لحساب الدين اليهودى وإعادة ملك سليمان ، وهناك شواهد كثيرة على ذلك :

١ ــ يقول أحد دعاتهم : « إذا سمحنا لمسيحى أو مسلم بالدخول فى أحد هياكلنا فإن ذلك قائم على شرط أن الداخل يتجرد عن أضاليله ، ويمجد خرافاته وأوهامه التى خدع بها فى شبابه » .

٢ ــ جاء فى النشرة الماسونية سنة ١٨٦٦ م ما يلى : « علينا نحن الماسون أن نتحرر من كل اعتقاد بوجود الله ، لأنه لم يبق أحد يؤمن بالله وبخلود النفس غير البله والحمقى ، وعلينا أن نتصور الله ينبوعاً لكل استبداد وظلم » .

٣ ــ وقالت النشرة الماسونية سنة ١٨٩٥ م : « إن الماسونية تعتبر كل الفرائض الدينية كأعمال حقارة بالإنسان وبكمال البشرية فى عقلها وآدابها . ولا يسوغ لأحد أن يرقى إلى مستوى الماسون إلا بعد أن يوقع صكاً بأن بأن أولاده لا يشتركون مطلقاً بالفرائض الدينية » .

٤ ــ وجاء فى نشرة سنة ١٨٩٧ : « يجب ألا تقبل الماسونية الأشخاص المتدينين لأن الماسونى الحقيقى لا يكون متديناً » .

٥ ــ وقال دليس مقدم الشرق الأعظم سنة ١٩٠١ م : « إن انتصار

الجايلى قد دام عشرين جيلا ، وها هو قد سقط بمساعينا ، هذا الإله الكاذب ، ونحن الماسون يسرنا أن نشاهد سقوط الأنبياء الكذبة ، والماسونية أنشئت كى تناصب كل الأديان العداء وتشن عليها الحرب » .

٦ — وجاء فى نشرة ١٩٠٣ م : « لا يكفى التغلب على الأديان والمعابد ، والقصد هو محو الأديان ، وبعد أن نفرق الدين عن الدولة نبدأ بمحاربة الإله » .

٧ — وجاء فى نشرة ١٩١١ م « لا تنسوا أننا نحن الماسون أعداء الأديان ، لذا فإننا فى مجتمعاتنا نصرف كل قدرتنا لمحو أقل تظاهر دينى » .

٨ — وجاء فى نشرة ١٩٢٢ م « ستقوم الماسونية مقام الدين والمحافل مقام المعابد » .

٩ — وجاء فى محاضرات محفل الشرق سنة ١٩٢٣ م : « يجب أن تبقى الماسونية لملة واحدة وعليه يقتضى محو جميع الأديان وتابعيها » .

١٠ — وقال يوسف روزن فى كتابه « الشيطان وشركاؤه » : « إن المنتظم فى الدرجة ٣٣ عليه أن يسعى لملاشاة الأديان لأنها خيانة . أما الوسائل التى نستعملها للوصول إلى غاياتنا فكلها حسنة شرط أن تنجح فالغاية عندنا تبرر الواسطة » .

وتتلون الماسونية وتتعدد ومواقفها بتعدد الإنسان والزمان والمكان ، فهى تعطى أدهى صورة للنفاق الماسونى . وليس هذا تجنياً من عندنا نلصقه بالماسونية الماكرة . بل هى حقيقة يقررها الكاتب المؤرخ « هورتر » حين يبين أن الماسونية تختلف باختلاف البلاد التى تنشأ فيها . فهو يراها فى فرنسا وإيطاليا وأسبانيا عريقة فى الكفر تجاهر به ، وفى انجلترا وألمانيا وأمريكا تحرص قليلا على الدين والآداب الاجتماعية ، وهكذا ، فهى فى البلد الذى تخاف فيه الفشل والخيبة تخفف من محاربتها للدين . كما نرى منها فى بلاد

الشرق مثلا ، ولكن مبادئ الماسونية تتفق من حيث المبدأ والمرجع على هدم الدين والتشكيك فى كل شريعة ، حتى تقيم على أنقاضه ذلك دعائم التلمود اليهودية ، وتعاليمه العنصرية المتعصبة .

وها هو ذا الأستاذ محمد عبد الله عنان يؤكد هذا فى كتابه « تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة » ، وينقل عن أحد دعاة الماسونية وهو « دلبش » أنه ألقى فى سنة ١٩٠٢ م خطاباً شدد فيه الحملة على المسيحية ، وعلى فكرة الدين ، وجهر فيه بسفاهة وحمق أن الله خرافة – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – وقال ذلك الماسونى فيما قال : « لقد استمرت خرافة الدين طويلا جداً ، ولكن الإله الكاذب يختفى بدوره ، ويذهب ليغيط فى غيار القرون إلى جانب آلهة الهند ومصر واليونان ورومة ، تلك الأمم التى شهدت كثيراً من هذه المخلوقات الزائفة تهبط إلى أسفل هياكلها » .

أين هذا الهراء الوقح الأحمق من تلك الحقيقة الأزلية الساطعة التى يقوم عليها الإسلام ، وهى حقيقة وجود الله الواحد الأحد التى يقول عنها الشاعر الحكيم :

وفى كل شىء لـــه آية تـــدل على أنـــه الواحد

ويؤيد القرآن المجيد هذه الحقيقة الباهرة فى عشرات المواطن منه ، كقوله جل جلاله : (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل قدير ‎* الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ‎* الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) .

ويؤكد حديث رسول الله ﷺ هذه الحقيقة التى يجب أن ترافق المسلم فى

كل الأحوال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

* * *

ولقد سبقت الإشارة إلى أن بعض الآراء تذهب إلى أن الماسونية نشأت متأثرة بطائفة (الكابالا) ويسميها بعض الكاتبين « طائفة القباليين اليهودية » ، والصلة وثيقة بين هذه الطائفة وبين الماسونية ، وطائفة القباليين هى التى انتشرت فى القرون الوسطى ، ومزجت بين التعاليم الفلسفية والأضاليل السحرية ، ثم نقلت بعد ذلك إلى الماسونية أسرارها ورتبها وطقوسها وشاراتها ، حتى قال بعض الآباء المسيحيين : إن الماسونية من وراء ذلك قد أصبحت كالنهر الكبير الذى تصب فيه جداول من الجمعيات والحركات الشريرة التى نشأت من عهد المسيحية الأول إلى القرن الثامن عشر .

واستغلال اليهود لحركة الماسونية كوسيلة ماكرة لإعادة ملك سليمان ودولة اليهود أمر قد كشفوا عنه الغطاء فى أول جلسة لمؤسسى هذه الجمعية المخربة ، حيث قال رئيسها : « إن الغاية من جمعيتنا هى إرجاع العالم إلى اليهودية وسحق تعاليم يسوع » .

وقام مجرم آخر من أكابر مجرميها ومؤسسيها فقال : « على هذه الجمعية أن تقوم ولو بالقتل وصنع كل محرم فى سبيل حفظ كيان الدين اليهودى » .

وينبغى ألا ننسى الدور اللئيم الذى قامت به بريطانيا فى نشر الماسونية ، فقد كانت بريطانيا هى الدولة الاستعمارية الماكرة التى أعطت وعد بلفور ، وهى التى مهدت لإيجاد إسرائيل ، وتشريد أهل فلسطين ، وهى التى فعلت ما فعلت من المآسى ضد العرب والمسلمين ، وهى هى التى نشرت أخطبوط الماسونية هنا وهناك ، وكانت أسبق الدول بإنشاء محفل ماسونى أعظم ، فقد

أسس المحفل الماسونى الأعظم فى بريطانيا سنة ١٧١٧ م ولو رجعنا إلى « الانسكلوبيديا البريطانية » لوجدنا فيها أن المحافل الماسونية العظمى تتابعت فى الغرب والشرق بعد محفل بريطانيا ، وذلك على الوجه التالى :

أول محفل ماسونى فى باريس سنة ١٧٢٣ م
أول محفل ماسونى فى جبل طارق سنة ١٧٢٨ م
أول محفل ماسونى فى ألمانيا سنة ١٧٣٣ م
أول محفل ماسونى فى البرتغال سنة ١٧٣٥ م
أول محفل ماسونى فى هولندا سنة ١٧٤٥ م
أول محفل ماسونى فى سويسرة سنة ١٧٤٠ م
أول محفل ماسونى فى الدنمرك سنة ١٧٤٥ م
أول محفل ماسونى فى إيطاليا سنة ١٧٦٣ م
أول محفل ماسونى فى البلجيك سنة ١٧٦٥ م
أول محفل ماسونى فى روسيا سنة ١٧٧١ م
أول محفل ماسونى فى السويد سنة ١٧٧٣ م
أول محفل ماسونى فى الهند سنة ١٧٥٢ م

والماسونية لها طقوسها المبهمة الغامضة ، ومنها طقوس يمارسونها أمام هيكل عظمى الإنسان بداخل المحفل ، ويصور أحدهم كيفية انتسابه إلى الماسونية ودخوله المحفل فيقول :

قبل أن أدخل وضعوا على عينى عصابة ، وأخذونى إلى غرفة ، ثم رفعوا العصابة عن عينى ، فوجدت نوراً ضئيلا ، وقال لى الكفيل : انتظر هنا ولا تفكر ، وهاك الهيكل البشرى ــ وكان إلى جانبى هيكل عظمى لإنسان ــ

ثم عاد الكفيل وقال لى : هل أنت مستعد لشرائه ؟ . ثم أخذ منى نقودى وخرج .

ثم دخل غيره ، ورفع كم بنطلونى عن الرجل اليسرى حتى الركبة ، وكذلك شمر عن ساعدى الأيمن ، وكشف عن عنقى وصدرى ، وربط عنقى بحبل ، وقادنى بعد إغماض عينى مسافة ما . وأحسست أن سيفاً مسلولا على عنقى ، وقال لى الرئيس بماذا تحس ؟ . قلت أحس بما يشبه السيف . قال افهم أيها الطالب أن هذا السيف يهدد حياتك إذا لم تكن مستعداً لكتمان السر .

وبعد ذلك أزالوا العصابة عن عينى ، وفكوا الحبل عن عنقى ، وأشعلوا مواد ملتهبة بهرت نظرى ، ورأيت الجميع قد سلوا سيوفهم فوق رأسى ، ووجهوا حراباً إلى صدرى ، ثم علقوا المئزر فى عنقى .

ويقول هذا الماسونى بعد ذلك : ولقد ترقيت إلى الدرجة الثامنة عشرة واسمها « الصليب الوردى » ، ثم إلى الدرجة الثالثة والثلاثين ، وصرت معدوداً فى صف الشيوخ ، ومع علو منزلتى لم أكن أعرف – ولا رئيس المحفل يعرف – المصدر الأول للأوامر العليا التى تأتينا بشكل غامض .

أين هذا من وضوح الإسلام ، ويسر دعوته ، واستقامة طريقته ، وظهور مبادئه : . إن الإسلام لا يعرف أسراراً ولا إرهاباً ولا غموضاً ولا طقوساً ذات تعقيد ، بل هو الدين السهل السمح الميسر الذى يعبر عنه القرآن الكريم بقوله : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) .

ويصور رسوله ﷺ مبادئه الأساسية الواضحة فيقول : « بنى الإسلام

على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا » .

ويزيد الرسول هذا التوجيه الواضح تأكيداً وتوطيداً حين يقول لكل مسلم : « قل آمنت بالله ثم استقم » . ويقول له كذلك : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

ومما يوضح عنصر الإرهاب الذى تقوم عليه الماسونية هذا القسم الذى تطلب ممن ينضم إليها أن يقسم به ، ففيه يقول : « أقسم بمهندس الكون الأعظم فى حضرة هذا المحفل الموقر وأتعهد أمام الحاضرين أن أصون وأكتم الأسرار الماسونية التى تباح لى ولا أبوح بشىء منها . وأقسم أيضاً أنى لا أكتب هذه الأسرار الماسونية التى تباح لى ولا أطبعها ولا أدل عليها وأن أمنع بكل قدرتى من يريد أن يفعل ذلك كى لا تكشف أسرارنا لغير أبناء عشيرتنا . أقسم بشرفى بلا مواربة أنى أحافظ على قسمى هذا وأتودد إلى إخوانى وأعضاء محفلى وأساعدهم وأعاونهم فى احتياجاتهم وأواظب على الحضور فى جلسات المحفل بقدر استطاعتى وأحافظ على طاعة قانون المحفل الأكبر وإن حنثت فى يمينى أكن مستحقاً قطع عنقى واستئصال لسانى وإلقاء جثتى لطيور السماء ولحيتان البحر . وإنى راض بأن جثتى تعلق فى محفل ماسونى لأضحى عبرة للداخلين من بعدى ثم تحرق ويذر رمادها فى الهواء » .

وعلى الرغم من هذا التهديد الإرهابى الذى لا ترضاه شريعة ولا قانون ، لا تكتفى الماسونية بهذا القسم ، بل تعده قسما أولياً ، ولذلك تتبعه بقسم آخر بعد أن يتدرج الماسونى فى الرتب الماسونية ، وينال ثقة رؤسائه ، وتبدأ الماسونية فى محو شخصيته وفصله عن مجتمعه وأسرته ، ووطنه وحكومته ، فيكون القسم هذه المرة كما يلى :

« أقسم على أن أقطع كل الروابط التى تربطنى بمطلق كل إنسان ، كالأب والأم والأخوة والأخوات ، والزوج والأقارب والأصدقاء ، والملك والرؤساء، وكل من حلفت له بالأمانة والطاعة وعاهدته على الشكر والخدمة».

أين هذا من هدى الإسلام العظيم الذى جعل هناك إخوة بشرية بين الناس ورحماً إنسانية بين جميع بنى آدم ، فقال تبارك وتعالى : (يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً » .

ويقول عن الوالدين : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) .

ويقول عن المودة والمحبة والسكينة بين الزوجين : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

ويقول عن طاعة ولاة الأمر : (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) .

* * *

والماسونية الماكرة تقسم نفسها إلى ثلاث مراحل :

الأولى — ابتدائية رمزية ، وهى التى يدخلها غير اليهود .

الثانيــة — ملوكية متوسطة ، وهى التى يدخلها غير اليهود بعد حصولهم على الدرجة الثالثة والثلاثين .

الثالثــة — كونية وهى التى تضم حكماء اليهود الذين يوجهون المحافل الماسونية .

وهذا التقسيم لا يعرفه الإسلام ، لا جملة ولا تفصيلا ، ولا يرضى عنه .

والماسونية — من خلالها ومكرها — تهدف إلى محو كل شعور وطنى ، وكل نزعة قومية فاضلة ، مع أن الأثر الإسلامى يقول : « حب الوطن من الإيمان » . والرسول ﷺ يقول : « من قتل دون قومه (أى وهو يدافع عنهم) فهو شهيد » والماسونية الفاجرة تفحش فى خبث استغلالها للمرأة ، واتخاذها أحبولة لنيل مآربهم ، والوصول إلى أغراضهم ، ولقد قال أحد دهاتهم وهو « دورفويل » هذه الجملة الفاجرة : « إن العفة المطلقة مرذولة عند الماسونيين والماسونيات لأنها ضد ميل الطبيعة » .

فأين هذا من تلك الصيانة التى حاط بها الإسلام المرأة ، وتلك الحصانة التى أرادها للمرأة حتى تكون عنواناً على العفاف والشرف .

والماسونية الخبيثة تعمل على تحطيم الأسرة التى جعلها الإسلام اللبنة الأساسية الأولى للمجتمع ، بل جعلها المجتمع الصغير الذى يتكون من تعدده المجتمع الكبير وهو الأمة المؤمنة .

لقد جاء فى أحد تعاليم الماسونية السرية ما يلى : « إن الأمر الجوهرى فى استمالة الناس إلى جماعتنا إنما هو أفراد الرجل عن عائلته وإفساد أخلاقه . فاجتذبوه وأصحبوه وإذا ما فصلتموه عن امرأته وأولاده وجسمتم له مشاق الواجبات الأهلية ومصاعب العيشة البيتية رغبوا إليه العيشة الحرة وأنفثوا فى قلبه السأم من الديانة ثم خاطبوه بما يحبب إليه الماسونية وادعوه إلى الانخراط فى مصاف المحفل الماسونى الأكثر قرباً » .

وهنا ينبغى لنا أو يجب علينا أن نتذكر موقف الإسلام العظيم من رعايته للأسرة التى تبدأ بزوج وزوجة ، وها هو ذا القرآن يجعل الحياة الزوجية نعمة يمن الله بها على عباده ، وفى طليعتهم المرسلون عليهم الصلاة والسلام ،

فيقول القرآن : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية) . ويقول عن عباد الرحمن الأخيار : (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً) . ويقول الرسول ﷺ : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » .

والماسونية من فجورها تجعل للخمر قداسة وأى قداسة فى جميع أحفالهم ولقاءاتهم ، وهذا منكر لا يقره الإسلام ولا يرتضيه ، وكيف وهو الذى يصفها بأنها أم الخبائث ، وأنها داء وليست بدواء ؟ وكيف وكتاب الإسلام الأعظم يقول : (يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) ؟ .

* * *

وإذا كان القرآن الكريم يقول : « وشهد شاهد من أهلها » فهذا ماسونى سابق وفقه ربه للتوبة وللكفران بالماسونية وخبائثها ، بعد أن وصل فى مراتبها إلى أعلى الدرجات والمناصب : إنه يوسف الحاج الذى فضح دسائس الماسونية فى كتابه « فى سبيل الحق » ، ويصف لنا بعض طقوسها ورموزها فى النقاط التالية :

١ — يسمى الماسون الرمزيون المكان الذى يجتمعون فيه محفلا أو هيكلا رمزاً للكون الذى هو هيكل الله ، بينما الملوكيون يرمزون به إلى هيكل سليمان الذى يرى فيه اليهود شعار وطنهم القومى .

٢ — يستعمل الماسون النور رمزاً إلى نور العقل الإنسانى ، أما الملوكيون فيرمزون به إلى النور الذى كان يتجلى فيه الله لسيدنا موسى وإلى عمود النار الذى رافق بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر .

٣ — يرمز السيف فى الماسونية العامة إلى الجهاد فى سبيل الحق والعدل والحرية أما الملوكيون فيشيرون به إلى السيف الذى كان يحمله بنو إسرائيل دفاعاً عن أورشليم عندما كانوا يبنوا الهيكل والسور للمرة الثانية بعد رجوعهم من سبي بابل .

٤ — البناية الحرة هى نفس هيكل سليمان فى عرف الملوكيين فى حين يعتبرها الرمزيون علماً إنسانياً يتقدم فيه الإنسان تدريجياً .

٥ — الأنوار السبعة ترمز عند الماسون العميان إلى عدد الأعضاء الذين لا يمكن بدونهم أن تكون جلسة المحفل قانونية ، وترمز عند الملوكيين إلى عدد السنوات السبع التى أتم بها الملك سليمان هيكله .

٦ — يوجد فوق كرسى رئيس المحفل شعار على شكل نجم فى وسطه حرف (G) ينار هذا الشعار بنور فضى من ورائه وله صورة ثانية يجعلونها من جهة الشرق يدعونها (الكوكب الساطع وكوكب الشرق الأعظم) وهذا هو اسم هيكل سليمان نفسه .

* * *

ولننتقل إلى مصر ، فإن طوفان الماسونية قد نالها فيما نال من بلاد الأرض ومن المؤسف أنه قد اغتر بالماسونية فى أول أمرها كثير من الأعلام فى ميادين السياسة والاجتماع والاقتصاد ، بل لقد اجتذبت الماسونية فى مصر ببريقها الباهر الخادع السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ، ولكنهما عندما عرفا حقيقتها انسحبا منها ، وكشفا النقاب عن خططها الجهنمية وأخطارها على الناس ، وها هو ذا السيد محمد رشيد رضا يشير إلى ذلك فى كتابه « تاريخ الأستاذ الإمام » ويقول فيما يقول عن أهل الماسونية : « هؤلاء الماسون رأوا من الحكمة ألا يفرقوا بين الأديان فى الدخول فى جمعيتهم بدعوى أنها لا تمس الأديان، وإن كانت غايتها هدم جميع الأديان ».

ولما استبان لولاة الأمور فى مصر خطر الماسونية وجرائمها أقدمت على حل جمعيتهم فى مصر ، وكان ذلك سنة ١٩٦٤ م .

لعلك تريد مزيداً من التفاصيل والمعلومات الماسونية ، وتستطيع أن ترجع إلى الكتب التالية :

١ – أوقفوا هذا السرطان ، لسيف الدين البستانى .

٢ – أسرار الماسونية ، لجواد رفعت أتلخان .

٣ – تبديد الظلام ، لعوض الخورى .

٤ – جذور البلاء ، لعبد الله التل .

أما بعد فحسبنا كخلاصة للخلاصة أن نعرف أن الماسونية إحدى مكائد اليهودية وأنها ضد الإسلام ، بل تهدم الدين الإلهى من أساسه ، وهو صنع الله العلى الكبير .

* * *

البهائية مؤامرة ضد الإسلام

السؤال :

ما حقيقة البهائية ؟ وما موقف الإسلام منها ؟

الجواب :

من أشد الدعوات الهدامة خطراً وضرراً مذهب البهائية الضال الذى انتشر انتشار الوباء خلال القرن التاسع عشر ، وامتدت بلاياه إلى القرن العشرين ، ولم تسفر البهائية عن وجهها الخبيث منذ يومها الأول بل سبقتها طلائع منكرة كانت أشبه بالبوادر التى سبقتها ومهدت لها ، وأهم هذه

الطلائع التى كانت أشبه بالمقدمة أو الأساس للبهائية هى دعوة البابية التى تعود الباحثون والمؤرخون أن يربطوا بينها وبين البهائية ربطاً كاملا.

وقد ظهرت البابية أولا فى بلاد فارس نسبة إلى لقب زعيمها الذى لقب نفسه بلقب «الباب».

وكلمة الباب لها أكثر من معنى فقد يراد منها: باب العلم، أو باب الحقيقة، أو باب السماء، أو المبشر بقرب نزول المنقذ المنتظر، ويرى بعض المؤرخين أن لفظة «الباب» هذه قد استعملها طائفة «الإسماعيلية المشهورة عنواناً على الشيخ أو الأساس الذى يعلم الناس أسرار الدين والدعوة السرية الإسماعيلية وكان سلمان الفارسى معروفاً بين النصيرية بالباب، لأن أمر الدعوة كان معهوداً إليه بعد موت الرسول كما يزعمون، ويستعملها الصوفية وبعض الفرق الباطنية، ويطلقونها على أركان الدعوة، لأن هؤلاء الزعماء عندهم هم واسطة الدخول وسبب الوصول.

وتنسب هذه النحلة إلى رجل من أهل شيراز بفارس اسمه ميرزا محمد على الشيرازى، وقد ولد سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف للهجرة، من عائلة تنتسب إلى الحسين بن على رضوان الله عليهما، وكانت تشتغل بالتجارة، ولما بلغ الشيرازى الخامسة والعشرين من عمره، إدعى أنه الباب، والباب عند الشيعة هو نائب المهدى المنتظر، وكان ذلك سنة ستين ومائتين وألف وسارع إلى تصديقه الملاحين الملقب عندهم بباب الباب، وهو من أهل خراسان.

والبابية مذهب ينسب نفسه إلى الدين، وقد زعم مؤسسة أنه نبى، وسمى نفسه «باب الدين». وادعى أنه خليفة موسى وعيسى ومحمد، عليهم الصلاة والسلام، «هكذا بالجملة»، ودعا إلى التقاء أديانهم الثلاثة، وزعم أن

دعوته تحقق ذلك ، ووصف نفسه بأنه « نقطة التقاء الأديان الثلاثة » .

وقد تدرج الشيرازى فى ادعاءاته ، على النحو التالى :

١ – زعم أنه الباب إلى الإمام المنتظر ، وسميت دعوته بالبابية لذلك ، فالناس فى زعمه يتصلون عن طريقه بالإمام ، ويتلقون أوامره .

٢ – ثم ادعى أنه الإمام نفسه ، فكان يعلن أنه المهدى المنتظر .

٣ – ثم ادعى النبوة وأنه يوحى إليه .

٤ – ثم ادعى الألوهية عن طريق الحلول ، أى حلول روح الله فيه .

وكان يعتمد فى دعاواه على رؤى يزعم أنه شاهدها ، فهو مثلا يقول : « إن تبتلى وصلواتى ونسكى كانت نتيجة رؤيا رأيتها قبل إعلان أمرى بسنة واحدة ، هى أنى رأيت رأس الإمام الحسين سيد الشهداء معلقة على شجرة ، يقطر دماً بغزارة من بلعومه المقطوع ، فاقتربت من تلك الشجرة ، وأنا مبتهج أشد الابتهاج ، وبسطت كلتا يدى ، وجمعت قليلا من قطرات ذلك الدم المقدس ، وشربتها بإخلاص ، ولما انتبهت شعرت بأن روح الله قد اخترقت جسمى ، واستولت على نفسى ، وابتهج قلبى بفرح الحضرة الإلهية ، وتجلت أسرار روحية أمام عينى بكل مجده » . وقد اشتدت الخصومة بين الباب والعلماء وولاة الأمور ، وقد كان رجلا ضعيف الشخصية ، ومما يدل على ذلك أنه لما أظهر علماء شيراز فجوره فى دعواه ، وطلب منه الحاكم أن يتوب أمام المصلين فى المسجد يوم الجمعة ، صعد المنبر وأعلن توبته خوفاً وكذباً ، وقال : « إن غضب الله على كل من يعتبرنى وكيلا عن الإمام ، أو الباب إليه ، وإن غضب الله على من ينسب إلى إنكار وحدانية الله ، أن أنى أنكر نبوة محمد خاتم النبيين ، أو رسالة أى رسول من رسل الله ، أووصاية

على أمير المؤمنين ، أو أى أحد من الأئمة الذين خلفوه . ثم رجع عن توبته وعاد إلى ترديد مزاعمه .

وقد وجد الباب مرتعاً خصباً لدعوته ، فقد كان أتباعه فى حالة يرثى لها من الجهالة وعدم التبصرة ، حتى يذكرنا ذلك بما روى من أنه ظهر فى إيران قديماً رجل يدعى النبوة ، فعلم بذلك سلطان زمانه ، فدعاه إليه وسأله ، أصحيح أنك أدعيت النبوة ؟ . فاجاب : هل تسمح يامولاى بإحضار جمع من أتباعى ؟ فلما حضروا نهق بينهم كما ينهق الحمار ، فإذا أهم يقلدونه جميعاً وينهقون مثله . فقال المتنبئ الكذاب : يامولاى أنا نبى هؤلاء الحمير .

ومن فظائع الباب فى دعوته أنه جعل لنفسه حق التشريع والتغيير فى الدين ، وقد عقد مؤتمراً فى بلدة « بدشت » وجاء ز تقرير الخاص بهذا المؤتمر ما يلى :

« دار البحث حول الأحكام الفرعية - أى الصلاة والصوم والحج من حيث التبديل وعدمه ، وتبين بعد المذكرات الطويلة التى دارت فى المجالس الخاصة بين أكابر الأحباء أن أكثرهم يعتقد بوجوب النسخ والتجديد ، ويرى أن من قوانين الحكمة الإلهية فى التشريع الدينى أن يكون (الظهور) اللاحق أعظم مرتبة وأعم دائرة من سابقة أو يكون كل خالف أرقى وأكمل من سلفه ، فعلى هذا القياس يكون حضرة الباب أعظم مقاماً وآثاراً من جميع الأنبياء الذين خلوا من قبله ، ويثبت أن له . الخيار المطلق فى تغيير الأحكام وتبديلها ، وذهب قلائل إلى عدم جواز التصرف فى الشريعة الإسلامية مستندين إلى أن حضرة الباب ليس إلا مروّجاً لها ومصلحاً لأحكامها مما دخل عليها من البدعة والفساد » .

والمتابع بتفاصيل دعوة الباب يعرف أنه استقى مادة دعوته من منابع

مختلفة ، مما جعلها خروجاً على الإسلام ، وتشويهاً له ، وإسرافاً فى التطاول على جلال الله ومقام رسوله ، فهو قد ادعى مثلا أنه يوحى إليه بوحى أعظم من القرآن ، فهو يقول : « إن نبيكم لم يخلف لكم بعده غير القرآن ، فهاكم كتابى البيان ، فاتلوه واقرءوه تجدوه أفصح عبارة من القرآن .

« والبيان » الذى أشار إليه اسم كتاب زعم أنه وحيه ، وهو ملىء بالأخطاء النحوية واللغوية . ومن المضحك المؤسف أنه حينما اعترضوا عليه بأن الله تعالى لا يوحى بهذا اللغو المضمن لهذه الأخطاء أجابهم إجابة مضحكة فقال : « إن الحروف والكلمات كانت قد عصت ، واقترفت خطيئة فى الزمن الأول. فعوقبت على خطيئتها بأن قيدت بسلاسل الإعراب ، وحيث إن بعثتنا جاءت رحمة العالمين ، فقد حصل العفو عن جميع المذنبين والمخطئين ، حتى الحروف والكلمات فأطلقت من قيدها تذهب إلى حيث تشاء من وجوه اللحن والغلط » .

وليس وراء ذلك السخف سخف .

وكان يرى نفسه أفضل من سيدنا رسول الله محمد ﷺ ، فهو يقول « إنى أفضل من محمد ، كما أن قرآنى أفضل من قرآن محمد ، وإذا قال محمد بعجز البشر عن الإتيان بسورة من سور القرآن ، فأنا أقول بعجز البشر عن الإتيان بحرف من حروف قرآنى . إن محمداً كان بمقام الألف وأنا بمقام النقطة » .

واللعين يقصد بالنقطة أنها الحقيقة الإلهية فى التعين الأول ، أما الألف فهى الصورة الحاكية عنه .

ومن تشريعاته الضالة المصادمة للاسلام أنه ألغى الصلوات الخمس ، وصلاة الجمعة ، وصلاة الجماعة إلا فى الجنازة ، وقرر أن الطهر من الجنابة غير واجب ، وأن القبلة هى البيت الذى ولد فيه بشيراز ، ولذلك جعل الحج

إلى هذا البيت ، وأباح لأتباعه أن يقضوا خمسة أيام قبل الصوم — الذى جعله تسعة عشر يوماً فقط — فى لهو ومجانة ، تنطلق فيها النفوس بشهواتها العارمة ، دون تقيد بقانون أو مجتمع .

ولما كان رقم تسعة عشر رقماً مقدساً عند ذلك الدعى فقد قسم الأشهر إلى تسعة عشر شهراً ، وهذا مخالف لسنة الله فى الكون ومناقض لصريح القرآن الذى يقول : (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله) . واستجابة لهيامه المجنون برقم تسعة عشر أجاز للرجل أن يرجع مطلقته تسع عشرة مرة ، وليس وراء ذلك استخفاف بكرامة المرأة وجعلها ألعوبة فى يد الرجل .

والباب ينكر البعث وقيام القيامة ، ويرى أن كل ماجاء بهذا الشأن فى القرآن وغيره إنما هو رمز لأمور مجازية معنوية روحية — ومن مؤامرته ضد الإسلام ، وإنكاره له ، وخروجه عليه أنه كان يقول بوحدة الوجود وبنظرته الحلول ، ووحدة الوجود فكرة منحرفة تقوم على أساس وجود الله فى كل شىء ، وجعل العالم خيالا لاحقيقة ، وقد قال بها غلاة الصوفية ، حيث وحدوا بين ذات الله وذات الإنسان ، ومحو الفرق بين الخالق والمخلوق . وأما الحلول فأهله يعتقدون أن الله حل فى الإنسان ، ويقولون إن من عذب نفسه فى الطاعة ، وصبر على اللذات والشهوات ارتقى إلى مقام المقربين ، ثم لايزال يصعد ويرتقى حتى يصفو عن البشرية ، وهنا تحل فيه روح الله الذى حل فى عيسى ابن مريم .

ولم تنس البابية أن تستعين بالمرأة والجنس فى بث سمومها ونشر أكاذيبها وجذب أتباعها ، وقد استعانوا فى ذلك بامرأة جميلة فاتنة ، ذات شعر ذهبى ، تفجرت أنوثتها الطاغية ، وكان لها صلاتها المريبة ببعض من حولها ، وكانوا

يلقبونها «قرة العين» واسمها أم سلمى بنت صالح القزوينى ، ومن عجب أنهم كانوا يلقبونها « الطاهرة » على الرغم من نتن فضائحها الأخلاقية والجنسية ، وقد ولدت هذه المرأة الهلوك سنة ١٢٣٠ هـ – ١٨١٤ م وكانت لسنة مقتدرة على الجدال والحديث ، مثيرة للفتنة بأنوثتها ومكرها ، وقد كان لها عند البابية سلطة الإفتاء ، وقد أفتت بأنه يجوز للمرأة أن تتزوج تسعة رجال ، وكان لها دور ملحوظ بارز فى مؤتمر البابية الذى انعقد فى بلدة « بدشت » .

يقول أحد مؤرخيهم مشيراً إلى قوة سلطانها وتأثيرها : كانت تكاليف الأمر الجديد مغلقة غامضة ، حتى ذهب بعضهم إلى أن هذه الحركة تابعة للشرع الإسلامى ، وتمسك البعض بأنها أمر مستقل وشريعة جديدة ، وكان القوم يستفتون «قرة العين الطاهرة» كلما عرض لهم أمر بشكل ، فتجيبهم عليه ، كأن هذه المرأة هى ربة هذا الدين الزائف ، وقد قادت هذه المرأة الدعوة فى المؤتمر إلى نسخ البابية للشريعة الإسلامية ، وقالت فيما قالت لقومها . « اعلموا أن أحكام الشريعة المحمدية قد نسخت الآن بظهور الباب » . ونادت بالمساواة المطلقة بين الرجال والنساء فقالت فيما قالت : « مزقوا هذا الحجاب الحاجز بينكم وبين نسائكم ، بأن تشاركوهن بالأعمال ، وتقاسموهن بالأفعال . واصلوهن بعد السلوى وأخرجوهن من الخلوة إلى الجلوة ، فماهن إلا زهرة الحياة الدنيا ، وإن الزهرة لابد من قطفها وشمها .... » إلخ .

وزعمت هذه المرأة الهلوك أنها المقصودة بالصور الذى ذكره القرآن الكريم فقالت : « إن الصور الذى تنتظرون فى اليوم الآخر هو أنا » .

وقد لقيت هذه المرأة جزاءها ، فقد أعدمت سنة ١٢٥٩ هـ – ١٨٥٢ م وقد أحدثت دعوة البابية رجة أثيمة وبلبلة واسعة ، مما أدى إلى سجن الباب ميرزا محمد على الشيرازى ، وفى سنة ١٨٤٨ م خرج أتباع الباب بثورة ضد

الشاه فأخمدها ، وأعدم منهم كثيرين ، وأعدم الباب نفسه ، حيث قتل رمياً بالرصاص فى ميدان مدينة تبريز سنة ١٨٥٠ م بعد أن حكم العلماء بكفره وارتداده .

وعن البابية يقول عباس محمود العقاد فى إيجاز : « منهم من يخالطه الوسواس فيفعل أفعال المجانين ، ونحسب أن الباب أشد هؤلاء ثقة بنفسه فى البداية ، وأقلهم ثقة بها فى النهاية : لهذا كان أبعدهم عن العقيدة السوية فى الإسلام » .

وضاقت بلاد فارس بالبابيين ، فانتقلوا إلى إستانبول سنة ١٨٥٣ م ثم إلى أدرنه وقبرص — وفى سنة ١٩٦٨ م أسسوا لهم مركزاً فى (عكا) تحت زعامة بهاء الدين ، وبذلك حلت البهائية محل البابية ، أو كانت امتداد لها ، وأهل الضلال أمة واحدة .

وعمل البهائيون مع بقايا قرنائهم البابيين على إقامة قبر للباب ميرزا محمد على الشيرازى الذى بشر ببهاء الله فى جبل الكرمل بحيفا .

* * *

وقد أسس البهائية زعيم دينى فارسى اسمه حسين على بن الميرزا عباس بزرك المازندرانى النورى . وقد ولد سنة ١٨١٧ م ، ومات سنة ١٨٩٢ م ، وسمى نفسه « بهاء الله » ، وآمن بالبابية وزعم أن الباب تنبأ له بأنه « مظهر الله » تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ولما انطوى علم البابية أنشأ بهاء الله دعوة البهائية لترث البابية ، وقد قضى فى السجن بعد ذلك سنوات طويلة انتهت بها حياته .

وقد بدأ بهاء الدين بنشر تعاليم أستاذه الباب فى « طهران » ثم توجه إلى بلدة مازندران ، وحضر مؤتمر بدشت السالف الذكر مع « قرة العين » ،

وكان له تأثير عظيم وسلطان عليها ، إذ هو الذى أنقذها من سجن وقعت فيه ، فحضرت إليه ، ووقعت فى حبه ، وهو الذى كان يحركها ويوجهها فى المؤتمر وحدث فى أثناء سجنه بأمر الشاة أن ضغطت السفارتان الروسية والبريطانية على الشاه ، حتى أخرجه ونفاه إلى بغداد فى سنة ١٢٦٩ هـ ، ثم نفوه إلى مدينة عكا حيث هلك هناك ودفن بعد أن أوصى بالأمر من بعده إلى ابنه عباس الذى سماه « عبد البهاء » ، وقد يقال له أيضاً : « خليفة بهاء الله » .

وقد زعم البهاء أن موسى وعيسى ومحمد جاءوا للتبشير به . وقد كانت ثقافته كما يقول بعض المؤرخين خليطاً من البرهمية والبوذية والزرادشتية والمانوية والمزدكية واليهودية والمسيحية والفرق الباطنية والإسلام ، ومن أهم ما أثر فيه النزعة الصوفية وخاصة فيما يتعلق بوحدة الوجود والحلول والفناء ، وكان صاحب اقتدار على صياغة الكلام بأسلوب مؤثر . وقد أثرت فيه بوجه خاص النزعة الصوفية فى الكتابة والتعبير ، وحسبنا أن نورد النص التالى دليلا على ذلك . قال : « يأيها الطائر فى هواء المحبة والوداد ، والناظر إلى أنوار وجه ربك مالك الإيجاد ، قد أماتتنى ظلمة البعد . أين نور قربك يامقصود العارفين ؟ وأهلكتنى سطوة الهجر . أين ضياء وصالك يامحبوب المخلصين ؟ . طوبى لمن فاز بلقائك ، وشرب رحيق الوصال من أيادى عطائك . إلهى إلهى ، أسألك بدماء عاشقيك الذين اجتذبهم بيانك الأعلى حيث قصدوا الذروة العليا مقر الشهادة الكبرى . وبالأسرار المكتوبة فى علمك ، وباللآلئ المخزونة فى بحر عطائك ، أن تغفر لى ولأمى » .

وللبهاء زعيم البهائيـــة كتاب سماه « الأقدس » . وهو كتاب يفيض بالضلالات ، ونسوق هنا بعض النماذج التى تدل على مايحويه هذا الكتاب غير الأقدس من انحرافات فهو يقول مثلا مسرفاً فى الادعاء والكذب والخروج على الإسلام : « من يقرأ آية من آياتى خير له من أن يقرأ كتب الأولين

والآخرين » . ويتجارأ فيدعى لنفسه حق التشريع فيقول : « من يحزن أحداً فله أن ينفق تسعة عشر مثقالا من الذهب ، هذا ماحكم به مولى العالمين . ويتعرض لتفسير آيات من القرآن الكريم فيأتى بكل تحريف أو تخريف ، كأن يقول : « قال تعالى : (كما بدأ كم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليه الضلالة » : أى فريقاً هدى فآمن ببهاء الله ، وفريقاً لم يؤمن فحق عليه الضلاله قال تعالى : (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤ فكون * وقال الذين أوتو العلم) أى علم دين بهاء الله والإيمان به (لقد لبثتم فى كتاب الله) والخطاب للامة المحمدية ، أى لبثتم فى إقامة كتاب الله — وهو القرآن الكريم — والعمل بشريعته المطهرة (إلى يوم البعث) أى قيام بهاء الله .

وقد زعم البهاء أنه بنى ، كما زعم الباب من قبله أنه نبى ، مع أن النبوة ختمت بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام . ومن عقيدة البهائية ما يعبر عنه داعيتهم الأكبر أبو الفضائل الجرفادقانى — أو كما ينعته بعضهم أبو الرذائل تندراً عليه ، فى كتابه « الدرر البهية » ونصه : « نحن معاشر الأمة البهائية نعتقد بأن مظاهر أمر الله ومهابط وحيه هم بالحقيقة مظاهر جميع أسمائه وصفاته. ومطالع شموسى آياته وبيناته ، لاتظهر صفة من صفات الله تعالى فى الرتبة الأولية إلا منهم ، ولا يمكن إثبات نعت من النعوت الجلالية والجمالية إلا بهم . ولا يعقل إرجاع الضمائر والإشارات فى نسبة الأفعال إلى الذات إلا إليهم . لأن الذات الإلهية والحقيقة الربانية غيب فى ذاتها ، متعال عن الأوصاف بحقيقتها ، منزه عن النعوت بكينونتها ، لاتدرسها العقول ، ولا تبلغ إليها الأفهام ، ولا تحويها الضمائر ، ولا تحيط بها المدارك ، فلا توصف بوصف ولا تسمى باسم ، ولا تشار بإشارة » .

وهذا كله خروج على منطق القرآن ومصادرته للمعلوم من الإسلام ،

وها هو ذا المرحوم محب الدين الخطيب يعلق على هذا السخف بقوله :
« لكن الله هو الذى سمى نفسه بأسمائه الحسنى ، ووصف نفسه بأوصافه العليا ، فكيف تبلغ القحة بالبهائية أن يكذبوا الله فيما أخبر به عن نفسه ، وهل هم أعلم به منه ؟ الحقيقة هى أنهم يريدون أن يقولوا إن الله معدوم ، وإن علم الله وعزة الله وقدرته ومشيئته هى صفات مظهر أمره ، وهو سخيفهم المحتال الخبيث الذى زعم لهم أنه ربهم . فليقولوها بلا مواربة ، وبلا تعرض لأسماء الله وصفاته . بل حتى أفعال الله ليست أفعاله بزعمهم ، وإنما هى أفعال مظهر أمره الذين يعنون به بهاءهم الأبهى ، فأين كان بهاؤهم الأبهى عندما سرق منه أخوه كتاب وحيه وانتحله لنفسه ؟ فهلا منع ذلك ودفع هذه الحرقة التى بقيت تحز فى صدره إلى أن هلك ؟ إن إنكار صفات الله قد سبقتهم إليه الإسماعيلية فى أيام الحاكم العبيدى فأعلن ذلك دعاته وسموا هذه العقيدة فى كتبهم (عقيدة التوحيد) ، لأنه لما يكون الله بغير صفات يكون حينئذ وهما ، فيكون الحاكم ربا . وهو سلف للبهاء فى هذا الهراء » .

إن خطورة نحلة البهائية هنا تأتى من أنها تريد بطريقتها الخبيثة أن تزعم أن الله ليس له وجود مطلق بأسمائه وصفاته كما تحدث سبحانه عن ذاته القدسية ، وكما تحدث عنه رسله صلوات الله وسلامه عليهم ، وعلى قمتهم سيدنا رسول الله محمد ﷺ . فهذه الصفات المجمع عليها يزعمون أنها تفتقر إلى من تظهر فيه ، فكان الله تعالى مفتقر إلى من تظهر فيه صفاته ، ولذلك بشروا بمظهر الله الأبهى الذى يلقب عندهم باسم « بهاء الله » . فهو مظهر صفات الله ، وهو مصدر أفعال الله ، وهو مصدر الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ويبلغ تبجح أتباع البهائية حداً يجعلهم يقولون عن كتاب زعيمهم إنه كتاب إلاهى ووحى سماوى ويقولون عنه : « مع ماكانت تصادف ربنا الأبهى طول أيام ظهوره من البلايا والمصائب الجسيمة والدواهى العظيمة ،

ومع أنه لم يكن أهل العلم ، ولم يدخل المدارس العلمية ، فقد ملا الآفاق من الواحه المقدسة الفارسية والعربية ، مما لانبالغ إذا قلنا إنها تزيد على ما عند ملل الأرض جميعاً من كتبهم السماوية وصحفهم الإلهية » .

يا للوقاحة ، إنهم جعلوه رباً ، ومع ذلك وصفوه بعجزه عن دفع البلايا عن نفسه ، ووصفوه بأنه لم يكن على علم ، ثم كادوا كيدهم ، وقالوا قولتهم الشوهاء : إن كتبه تفوق كتب الأديان السماوية جميعاً .

وهكذا سارت البهائية على درب البابية فى ضلالها البعيد . ولما هلك شيطان البهائية : ميرزا حسين على سنة ١٨٩٢ م تولى البهائية من بعده ابنه عبد البهاء بهائى المولود سنة ١٨٤١ م والهالك سنة ١٩٢١ م ، وهو المسمى عباس أفندى ، وقال مقالة السوء التى قالها قرناوه وهى أن البهائية نسخت الشرائع ومن بينها الإسلام .

* * *

وإذا كنا نقول إن البهائية كانت مؤامرة ضد الإسلام فإننا فى الوقت نفسه نشم رائحة الكيد الاستعمارى فى تحريك البهائية وتأييدها لطعن الإسلام وتجزئة أعدائه على النيل منه ، والتطاول على كتابه ونبيه وتعاليمه ، ولنتذكر هنا أنه لما صدر الحكم بإعدام زعيم البابية تدخل قنصل القيصر الروسى لإنقاذه من الإعدام ولكن سبق السيف العدل ويقول صاحب كتاب « حقيقة البابية والبهائية » هذه الكلمات عن الصلة بين البهائية وبين الاستعمار الإنجليزى : « إن الإنجليز رأو أن أملهم الأخير يكن فى مناصرتهم للميرزا حسين البهاء ، وتهيئة الظروف اللازمة لإنجاح دعوته ، بعد إخفاق الحركة البابية فى السيطرة على إيران . ولذلك فإنهم لجأوا إلى كل وسيلة لإنقاذه من الإعدام ، متعاونين بذلك مع الروس واليهودية العالمية . لأنهم كانوا يرون فيه الشخص الذى بوسعه أن يقدم إليهم أجل الخدمات . إن تشبث الإنجليز بحياة الميرزا قد بلغ

حداً دعاهم إلى أن يتصلوا به عن طريق القنصل البريطانى العام فى بغداد فلقد كاتب هذا البهاء وطلب إليه أن يتجنس بالجنسية الإنجليزية ليحافظ على حياته، وإذا كان لا يريد الإقامة فى إنجلترا فبإمكانه أن يسافر إلى الهند التى هى مملكة شرقية وتوافق مذاقه . وأما علاقة الإنجليز بعبد البهاء عباس ، فعلاقة قوية بلغت حد العمالة العلنية والخدمة المباشرة لمصالحهم . فلقد كان عبد البهاء الجاسوس الإنجليزى الذى كان يعرف كيف يقوم تحت جنح الظلام بتطبيق ماعقدوا عليه العزم من هدم الإسلام وسلخ جزء عزيز من بلاده لتسليمه إلى اليهود . إن البهائيين أنفسهم يعترفون أنه لما فتح الإنجليز حيفا فى ٢٣ أيلول سنة ١٩١٨ م بادر قائد الحامية لزيارة عبد البهاء ، ولما صافحه طلب القائد بعض المساعدات من أجل الدخول إلى البلاد العربية لفتحها بسهولة دون تضحية ولا مغامرة . ولما وجد القائد رغبة عبد الهادى فى فتوحات الإنجليز للبلاد العربية ، واستعداده للقيام بإبداء المساعدات اللازمة فى سبيل خدمة بريطانيا ، قدم إليه وسام العضوية البريطانية من درجة فارس ممنوحاً من لدن صاحب الجلالة ملك الإنجليز لقاء خدماته الجليلة ومساعدة الحكومة البريطانية أيام الحرب الكونية . وقلد الوسام فى حفلة كبرى أقيمت فى دار السفارة الإنجليزية فى أبريل سنة ١٩٢٠ » .

وينبغى أن نتذكر أن الاستعمار الماكر يعمل دائماً على محاربة الإسلام وإفساد المسلمين بوساطة أناس من بينهم ، يصطفيهم ويقربهم ويغدق عليهم ، ثم يوحى إليهم بما يريد من وراء ستار ، فتبدوا الأمة الإسلامية كأنها تتصارع من داخلها فى حرب أهلية تتعدد ألوان الصراع فيها ، والحقيقة أن السم الناقع يتسرب إلى كيانها من ذلك الشيطان الخبيث ، والبهائية المخربة لم تكن تتلقى سماً واحداً ، بل كانت تتلقى سموماً من ثلاث جهات هى الاستعمار ومؤامراته ، والصهيونية ودسائسها ، والصليبية الغربية وتبشيرها .

* * *

هذه لمحة عن البهائية ومؤامراتها ضد الإسلام ، وأما فيما يتعلق بالبهائية فى بلادنا مصر ، فقد ضج الناس من فضائح البهائية ومآسيها فى الخمسينيات من هذا القرن ، وبلغ من تبجح البهائيين فى أرض الكنانة أنهم كانوا يكتبون فى خانة ديانة المولود من شهادة الميلاد أنه « بهائى » بدلا من أن يكتبوا كلمة « مسلم » ، وهذا يتضمن أنهم لايعترفون بالإسلام ديناً لهم ، وفزع ولاة الأمور من ذلك ، فكتبت وزارة الصحة المصرية تستطلع رأى إدارة الشعبة الاجتماعية والثقافية بمجلس الدولة ، فكتبت الإدارة بتاريخ ١٨ مارس سنة ١٩٥٤ تقول فى ردها :

« إن موضوع الدين البهائى سبق أن عرض على محكمة القضاء . وقد جاء فى حكمها : إن هذا الدين ليس له وجود قانونى ، وإن من يعتنقه من المسلمين يعتبر مرتداً عن الدين ، ولهذا قررت الشعبة أنه لايجوز إدراج أى بيان فى الخانة المخصصة للديانة » .

وجاء فى فتوى أخرى لمجلس الدولة عن هذه الطائفة : « إنها ترمى إلى بث عقائد فاسدة تناقض أصول الدين الإسلامى وعقائده ، وتنتهى إلى تشكيك المسلمين فى آيات كتابهم ونبيهم ، بل إنها تخالف الأديان السماوية » .

وهكذا التقى علماء الدين وعلماء القانون على تكفير البهائية والحكم بردتهم عن الإسلام ، ويعلق المرحوم الشيخ عبد الرحمن الوكيل الرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية سابقاً على ما سلف بقوله :

« من هذا يتبين لنا بجلاء أن هذه الفئة كانت تكافح فى سبيل أن ترغم الدولة على الإعتراف بها ، لتقيم شعائر الكفر ، وتعترف جرائم الصهيونية تحت سمع القانون وبصره ، ومن المحزن المؤلم أن بعض الناس فى الشرق قد تردوا فى ردعة البهائية فهلكوا ، وكانت مأساة تتلوها مأساة » .

ويقص الشيخ عديداً من المآسى الفواجع التى عرفها من جرائم البهائية والبهائيين .

وهذه مأساة من هذا المآسى المروعة :

رآها فى الجامعة ، فرأى الجمال المشبوب ، وسحر الأنوثة الفاتكة ، ورأت هى فى عينيه نهما وشهوة محمومة ، فمارست هواه حتى تزوج بها ، وهو يظن أنها مسلمة .

ثم تبين له أنها تغشى المحفل البهائى فى القاهرة لممارسة شعائر البهائية فيه ، وللعربة فى احفاله الماجنة فراح يتوسل إليها أن ترتدع عن غيها . وأن تعود إلى الإيمان الصادق بالله ، غير أنها كانت على ثقة من أن فتنتها الجسدية كفيلة بالقضاء على ثورته ، فأبت فى عناد أن تستجيب له ، فهفا الزوج إلى أهلها يستغيث بهم وإذا الحقيقة تبدهه صاعقة ، إذ تبين له أنهم جميعاً من زنادقة البهائية .

وعصف بسكينة الزوج قلق رهيب وحيرة عاصفة . إنه لايدرى كيف يتجلد لهذا السعير الذى يضطرم فى جسده حين يرى هذه الفتنة الوحشية ، وقد تقتلت له فى المخدع السكران ، ولا يدرى ماذا يفعل لهذه الطفلة الجميلة الوديعة التى أثمرتها صلته بهذه المرأة ، ولا كيف يستطيع أن يصم سمعه عن ذلك النذير المدوى فى أعماقه بوعيد الله .

وسكن الصراع الدامى فى نفسه إلى نتيجة اطمأن إليها ، فأسرع إلى القضاء يطلب — كما جاء فى صحيفة الدعوى — : « الحكم ببطلان الزواج بسبب الغش الذى أدخلته الزوجة عليه . وإخفائها عنه عيباً جوهرياً لو علمه ما أتم العقد ، وهذا العيب هو اعتناقها مذهب البهائية » .

ثم جاءت قاصمة الظهر لبهتان البهائية وفسادها فى مصر كنانة الله فى

أرضه ، جاء الحكم الفاصل الذى فرح له كل مؤمن هذه الديار : وهو القرار الجمهورى الذى صدر سنة ١٩٦٠ م فى شأن حل المحافل البهائية . وهو ينص على أن تحل جميع المحافل البهائية ومراكزها فى البلاد ، ويوقف نشاطها ، ويحظر على الأفراد والمؤسسات والهيئات القيام بأى نشاط كانت تباشره هذه المحافل والمراكز : (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً).

واستتبع هذا القرار المحمود تحويل ممتلكات هذه المحافل والمراكز إلى جمعيات المحافظة على القرآن الكريم . وهو الكتاب الإلهى الذى يقول فيه رب العالمين : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً » .

حفظ الله الإسلام وكتابه إنه سميع مجيب .

* * *

الإسلام والماركسية

السؤال :

تنتشر الآن بين أفراد الأمة الإسلامية بعض المبادئ الهدامة مثل الماركسية ما موقف الإسلام منها ؟

الجواب :

حينما نتحدث عن موقف الإسلام من الماركسية لا نريد بذلك أن نتقرب إلى نظم قد تتعارض مع الماركسية ، ولكنها لا تتفق مع الإسلام ، فلسنا — مثلا — نقاوم الماركسية لنناصر الرأسمالية ، ولكننا نريد أن ندرس دراسة موضوعية نتبين فيها أن الإسلام — أولا — كل لا يتجزأ ، أو أن الإسلام؟ ثانياً — نظام مستقل متميز ، وأن الإسلام — ثالثاً — وحى الله جل جلاله ،

المنزه عن النقص والخطأ والنسيان ، وأن الإسلام – رابعاً – لا يقاس بغيره ، ولا يتطلب الزلفى أو الاستعانة بنظام من نظم الحياة أو الأحياء ، فهو شرعة الحق التي يقول فيها رب العالمين : (إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم) .

ونسأل بادئ ذي بدء : ما الإسلام ؟ . بل : ما الدين بصفة عامة ؟

إن الدين في عرف القرآن الكريم هو – كما يقول أهل البحث الموسوعي – الإيمان بالأصول الدينية التي هي حقائق خالدة ، لا يدخلها النسخ ، ولا يختلف فيها الأنبياء والرسل ، وإن الإسلام هو هذا الدين ، إذ لا دين غيره عند الله . بمعنى الإذعان والخلوص وإسلام النفس لبارئها ، ولذلك هتف به الأنبياء والمرسلون ، فنرى نوحاً يقول : (وأمرت أن أكون من المسلمين) ، ويقول القرآن عن إبراهيم : (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً) . وموسى يقول لقومه : (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) والحواريون يقولون لعيسى (آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون)

والإسلام هو الدعوة إلى الإنسانية كلها ، لا فرق بين أمة وأمة ، ولا بين جنس وجنس ، ولا بين لون ولون ، ولذلك يقول الله تعالى لنبيه ﷺ (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

ولا شيء أقوى تأثيراً في مشاعر الإنسان العاقل وعواطفه من الدين ، ولذلك يقول العقاد :

« إن تجارب التاريخ يقرر لنا أصالة الدين في جميع حركات التاريخ الكبرى ، ولا تسمح لأحد أن يزعم أن العقيدة الدينية شيء تستطيع الجماعة أن تلغيه ، ويستطيع الفرد أن يستغنى عنه في علاقته بتلك الجماعة ، أو فيما بينه وبين سريرته المطوية عمن حوله ، ولو كانوا من أقرب الناس إليه .

ويقرر لنا التاريخ أنه لم يكن قط لعامل من عوامل الحركات الإنسانية

أثر أقوى وأعظم من عامل الدين ، وكل ما عداه من العوامل المؤثرة فى حركات الأمم فإنما تتفاوت فيه القوة بمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة فى التمكن من أصالة الشعور ومواطن السريرة .

هذه القوة لا تضارعها قوة العصبية ، ولا قوة الوطنية ، ولا قوة العرف ، ولاقوة الأخلاق ، ولاقوة الشرائع والقوانين . إذ كانت هذه القوة إنما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه ، أو العلاقة بينه وبين مجتمعه ، أو العلاقة بينه وبين نوعه على تعدد الأوطان والأقوام . أما الدين فمرجعه إلى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره ، وميدانه يتسع لكل ما فى الوجود من ظاهر وباطن ، ومن علانية وسر ، ومن ماض أو مصير ، إلى غير نهاية بين آزال لا تحصى فى القدم ، وآباد لا تحصى فيما ينكشف عنه عالم الغيوب ، وهذا على الأقل هو ميدان العقيدة الدينية فى مثلها الأعلى وغايتها القصوى ، وإن لم تستوعبها ضمائر المتدينين فى جميع العصور .

ومن أدلة الواقع على أصالة الدين ، أنك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين الجماعة المتدينة والجماعة التى لا دين لها ، أو لا تعتصم من الدين بركن ركين . وكذلك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين فرد يؤمن بعقيدة من العقائد الشاملة ، وفرد معطل الضمير مضطرب الشعور ، يمضى فى الحياة بغير محور يلوذ به ، وبغير رجاء يسمو إليه . فهذا الفارق بين الجماعتين ، وبين الفردين ، كالفرق بين شجرة راسخة فى منبتها وشجرة مجتثة من أصولها ، وقل أن ترى إنساناً معطل الضمير على شيء من القوة والعظمة ، إلا أمكنك أن تتخيله أقوى من ذلك وأعظم إذا حلت العقيدة فى وجدانه محل التعطل والحيرة » .

هذا عن الإسلام ومصدره وأصالته وقوة أثره .

فماذا عن « الماركسية » وصاحبها كارل ماركس ؟ .

* * *

ولد كارل ماركس سنة ١٨١٨ م ، ومات سنة ١٨٨٣ م ، وهو من أصل يهودى ألمانى أبواه يهوديان ، وقد كفر بيهوديته ، وصبأ إلى المسيحية ، ثم كفر باليهودية والمسيحية ، كما كفر بكل دين ، إلا المادية الملحدة فقد اتخذها له شيطاناً أو إلهاً . لم يكن له حظ من الأخلاق الفاضلة أو ثبات الشخصية .

كانت الحياة شديدة الوطأة عليه فكفر بالإنسانية .

كان فقيراً مدقعاً ، فنما الحقد لديه ، ومال إلى البطالة والكسل ، وأخذ يستغل غيره من الأقارب والأباعد ، ويقترض ويستدين ، ولا يعرف الأكل من كسب يده .

أخفق فى المدرسة ، وفى الجامعة ، وفى تحصيل لقمة العيش ، فماذا ننتظر من مثله ؟ .

درس فى جامعة « بينا » بألمانيا ، ثم انتقل إلى باريس ، والتقى بقرينه فى الفكرة والاتجاه ، وتعاونا على إصدار المنشور الشيوعى الأول سنة ١٨٤٨ . واشترك فى ثورات فشلت ، فانتقل إلى انجلترا ، وأقام بها حتى نهاية حياته .

وله كتاب سماه « رأس المال » ، أصدر منه جزءاً ، وأصدر منه أنجلز جزأين بعد هلاك ماركس . وأسس ماركس سنة ١٨٦٤ م المؤتمر الاشتراكى العالمى ، ومزج بين الفلسفة الألمانية والنظريات الاقتصادية ، وأخرج نظريته فى « الاشتراكية العلمية » ، ولم يكن بحثه خالصاً لوجه الحقيقة والعلم ،

ولكنه ألبس نزعاته وميوله وثورته الجياشة ثوب التحليل العلمى ، وما هى بذلك .

وبعد أن تعرفنا إلى « ماركس » فى إيجاز نتعرف إلى مذهبه « الماركسية » فى إيجاز نقلا عن « الموسوعة » العربية الميسرة » :

يرى ماركس فى تصوره المضطرب أن تاريخ المجتمعات إنما هو تاريخ الصراع بين الطبقات ، وما دامت توجد فى المجتمع طبقات فلا بد من أن تسعى إحداها إلى استغلال الأخرى ، وهذا الاستغلال يولد الصراع الذى ينتهى إلى انهيار الطبقة المستغلة ، وسيادة طبقة أخرى ، وتستمر هذه المعركة إلى أن يوجد مجتمع بلا طبقات فينتهى الصراع .

ويذكر أن النظام الإقطاعى كان يقوم على استغلال السادة الإقطاعيين لأتباعهم ، ثم قويت تدريجياً طبقة « البورجوانية » وهم أصحاب رءوس الأموال من رجال الصناعة والتجارة ، وتمكنت من القضاء على الطبقة الإقطاعية ، وأخذت الطبقة الجديدة السائدة فى استغلال الطبقة العمالية الكادحة ، وقال ماركس بنظرية « فائض القيمة » ، وخلاصتها على حسب تصوره أن قيمة السلع التى يستهلكها العامل أقل من قيمة السلع التى ينتجها ، والفرق بين القيمتين يمثل ربح الطبقة البورجوازية ، وهذا الاستغلال يولد الصراع بين الطبقتين ، والسير الطبيعى للرأسمالية يؤدى إلى تركيز رءوس الأموال وأدوات الإنتاج فى أيدى عدد متناقص من الأفراد ، وبذلك يزداد باستمرار عدد الطبقة الكادحة ، ويسرف الرأسماليون القلائل فى استغلال هذه الكثرة الكادحة ، ويزداد البؤس والشقاء ، إلى أن تتمكن الطبقة الكادحة من القضاء على « البورجوازية ، والاستيلاء على الحكم بالقوة ، ويستتبع ذلك قيام دكتاتورية الطبقة الكادحة التى تستمر إلى أن تجتث جذور الطبقة البرجوازية ، وتقضى على بقاياها .

وهنا ينشأ المجتمع اللاطبقى البرىء من الصراع كما يتخيل ماركس ، وتزول الحاجة إلى الدولة فتختفى ، كما يزول – فى وهمهم – الدين والأسرة وكل التنظيمات التى وضعتها البورجوازية لإطالة أمد استغلالها .

يقول بصراء الباحثين : غير أن آراء ماركس فى الصراع الطبقى ، واستغلال الرأسمالية للطبقة العاملة ، وحتمية التطور الاجتماعى على حسب تصوره ، لا تلقى قبولا عند أكثر رجال الاقتصاد .

ويرى هؤلاء أن ماركس قد تأثر فى تحليله بالظروف التى كانت تسود البلاد الرأسمالية ، خلال القرن التاسع عشر ، وهو قرن شاعت فيه البطالة ، وانخفضت الأجور ، وشاع استغلال النساء والأطفال ، وقد ظن ماركس أن هذه الظواهر العارضة صفة دائمة للنظام الرأسمالى ، فحسبها من القوانين الأبدية المحتومة ، مع أن الدولة تستطيع أن تضع حداً للاستغلال فى صوره؟ المختلفة ، ويستطيع العمال أن يحصلوا على حقوقهم عن طريق النقابات المنظمة .

* * *

هذه لمحة عن الدين ، وهذه لمحة عن الماركسية ، وبينهما بعدما بين النقيض والنقيض .

إن الإسلام يمتاز أولا بعنصر الثبات والدوام والاستقرار ، وأما سمة الماركسية فهى التغير والتذبذب . إن للاسلام مصدرين أساسيين هما القرآن والسنة ، والقرآن هو القرآن منذ نزل على رسول الله ﷺ منذ نزل منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ، وسنة الرسول هى كما هى منذ قالها ومنذ وعتها مصادرها الصحاح : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

ولكن الماركسية التى قال بها إنسان ناقص عاجز قد تأرجحت وتبدلت قبل أن يمضى عليها نصف قرن من الزمان ، تذبذبت فى أثناء التصور الفكرى ، وفى أثناء التطبيق العملى وفى أثناء الممارسة الممتدة .

كسب الماركسية أنصاراً فى فورة الحماسة ، ثم أخذت تخسر منهم وتخسر فيهم ، لأنها صنع الإنسان ، والإنسان محدود مهما كان ، وأما الإسلام فهو صنع الله جل علاه : (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ، ونحن له عابدون) والله هو صاحب الكمال المطلق ، وصاحب الجلال المطلق ، وصاحب الجمال المطلق ، ولذلك لا يزداد الإسلام مع الأيام إلا إشراقاً وتألقاً ، ولم تزده العدوات والأحقاد والافتراءات إلا ثباتاً وقوة ، واتباعه بمئات الملايين يزيدون ولا ينقصون وصدق العلى الكبير إذ يقول : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد) .

ومن الواضح الجلى أن هناك فروقاً جوهرية بين الإسلام والماركسية ، بحيث لا يمكن الجمع بينهما . فيسرف فى الدعوى والافتراء من يزعم أنه مسلم وماركسى ،إذ لا يمكن الجمع بين الإيمان والإلحاد ولا بين التوحيد والوثنية ، ولا بين النور والظلام .

وهذه طائفة من الفروق الجوهرية التى لا يكابر فيه إلا المتبجحون المتوقحون :

١ — الإسلام دين ربانى عماده الإيمان بالله تبارك وتعالى : (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) .

والماركسية أساسها جحود الله سبحانه . .

٢ — الإسلام على عقيدة البعث والحساب ، والثواب والعقاب ، والحياة الآخرة الباقية ، والماركسية تنكر ذلك ، وتقول كما قال أهل الجاهلية الأولى : (إن هى إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر) .

٣ — الإسلام يؤمن بالروح وعالم الغيب والقيم المعنوية والأخلاقية ،

والفضيلة والتصدق ، ولكن الماركسية تسمي الفوضى حرية ، والفسق والفجور سنة متبعة ، وهي لا تعترف إلا بالمادة وعالم الحس ، ولذلك أنكرت الحقيقة الكبرى الأولى ، وهي وجود الله جل جلاله ، ولذلك أخذت تربي ناشئتها على ذلك ، وفي سنة ١٩٣٠ كما يروى الرواة الثقاة اتبعوا شياطين الماركسية طريقة فاجرة للقضاء على الروح الدينية عند الأطفال ، إذ يجمعونهم في « عنابر » كبيرة في المدن الإسلامية المحتلة ، ويقولون للأطفال : هل الله موجود ؟

فيردون بفطرتهم قائلين : نعم .

فيسألونهم : من الذى يعطيكم الطعام ؟

فيقولون بفطرتهم : الله .

فيقولون للأطفال بعد تجويعهم : هيا اطلبوا الطعام من الله .

فيهتف الأطفال : يارب ، أعطنا الطعام . ويرددون دعاءهم ، منتظرين الإجابة . ولكن السماء لاتلقى بالطعام على الناس جاهزاً في أطباق . ولكن الله جعل لكل شيء سبباً ويطول انتظار الصغار الأبرياء للطعام . ويشتد بهم الجوع فيشتكون .

وهنا يقول لهم الشياطين : قولوا : أعطنا الطعام ياستالين .

وبسبب الجوع القاتل يردد الصغار : أعطنا الطعام ياستالين .

وعندئذ يسارع الخدم — على حسب خطة خبيثة موضوعة — يسارعون إلى الصغار بالطعام الشهى الممتاز ، حيث يأكلون ويمتلئون . وبعد الانتهاء من الطعام يقول الشياطين لهؤلاء الصغار الأبرياء . لو كان الله موجوداً حقاً لأعطاكم الطعام . ولكن لأنه غير موجود لم يعطكم . إنما إلهكم هو ستالين ، وهو الجدير منكم بالعبادة والذكر والتقديس .

والرد على هؤلاء الخونة المخادعين حاضر ، وقريب غير بعيد ، ويتبين هذا الرد من القصة الوجيزة العالية :

وقف مدرس ماركسى بين صبية فى بداية المرحلة الإعدادية يقول لهم على طريقته الإلحادية : هل ترون الله ؟ . فأجاب الفتيان : لا .

وهنا وقف أحدهم — ولعل أباه كان أزهرياً — وقال للمدرس : أتأذن لى أن أسأل زملائى سؤالا واحداً . فقال المدرس فى ضجر : اسألهم ... ماذا ستقول لهم ؟

واتجه الفتى إلى زملائه وسألهم فى هدوء : أيها الزملاء ، هل ترون عقل المدرس ؟ .

وأجاب الفتيان معاً : لا .

وهنا قال الفتى : إن عقل المدرس غير موجود .

وضج المكان بالضحك والتصفيق .

وكانت الإجابة مفحمة ، وبهت الذى كفر .

ولقد طالعنا ماهذى به أحد الماركسيين من رواد الفضاء ، حيث قال لقد بحثت فى الفضاء طويلا عن الله الذى يتحدثون عنه فلم أجده ولم أراه .

ورد عليه رائد آخر متدين مؤمن بالله فقال : إن الله الذى أؤمن به لاتدركه عينا ذلك الملحد الجاحد .

وكأنما استمد هذا الجواب من نور القرآن الكريم الذى يتحدث عن الله جل جلاله فيقول (لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) .

٤ ـ الإسلام يحدثنا عن الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله أعلام هداية للناس ، ويأمر الإسلام المسلم بأن يؤمن بجميع أنبيائه ورساه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وأما الماركسية فلا تؤمن بأى واحد منهم ، وتصفهم بالكذب والافتراء ، لأنه لا وجود لله الذى أرسلهم :

محمد الذى يؤمن بدعوته مئات الملايين يصفونه بالكذب والافتراء .

وعيسى الذى يؤمن بدعوته مئات الملايين يصفونه بالكذب والافتراء .

وموسى الذى آمنت به الملايين يصفونه بالكذب والافتراء .

وهكذا كل المرسلين من الله عليهم الصلاة والسلام .

ياللوقاحة والجرأة فى الباطل .

٥ ـ الإسلام يؤمن بالوحى تنزل على من اصطفاه الله من أنبيائه ورسله ، فأبلغهم رسالات ربهم ، وأمرهم بتبليغ دينه ، والدعوة إليه ، والحرص عليه ، والاعتصام به ، والماركسية تعد الدين خرافة ، وأفيوناً للشعوب ، ومخدراً للامم .

٦ ـ الإسلام يأمر بأن يعمل الإنسان ، ويسعى ، ويكتسب ، ويتملك ، وينفق ، ويدخر ، ويتمتع بطيبات الحياة ، والماركسية تدعو إلى الفوضى التى لاتستند إلى حق حقوق التبعة والمسئولية .

٧ ـ الإسلام يقر الملكية الفردية النابعة من مصادر طيبة ، ويحترم هذه الملكية ويصونها ، حتى يقول الرسول ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » .

والماركسية ألغت الملكية الفردية وقاومتها ، مع أنها طبيعة وفطرة وغريزة

٨ ـ الإسلام شرع نظام الميراث ، وفصل أحكامه ، وأخذ بأحكامه

كثير من غير المسلمين طوعاً واختياراً ، وقال القرآن الكريم فى مقام الحديث المفصل عن أحكام الميراث : (تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم * ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها ، وله عذاب مهين) .

والماركسية لاتعترف بالميراث ، ولاتقيم للآثار المترتبة عليه .

٩ — الإسلام يؤمن بالدعوة المسالمة ، والحجة المقنعة ، والموعظة الحسنة. ولكن الماركسية تؤمن بالعنف وحمامات الدماء والوصول إلى المطلوب بالقوة .

١٠ — الإسلام ينادى بالأخوة الإنسانية والزمالة البشرية ، فيقول القرآن. (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً . وقبائل لتعارفوا) ويقول : (يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها : وجها وبث منها رجالا كثيراً ونساء) . وعامل التفضل الواحد العادل هو التقوى والعمل . فيقول كتاب الله : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . ويقول ويقول الرسول : ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح » .

والماركسية تعمل على سيطرة طبقة بعينها على من سواها .

١١ — الإسلام قد جاء من أجل الإنسان وسعادته : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ، (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) ، (يريد الله ليخفف عنكم) . ولكن الماركسية تقول : الإنسان من أجل الشيوعية كأنها صنمة أو وثنة أو معبودة .

والإسلام يعلو بالإنسان فيقول : (ولقد كرمنا بنى آدم . وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقناتفضيلا) ولكن الماركسية تجعل الإنسان مسماراً فى دولاب الدولة . وهذا « لينين »

وهو أحد أصنام الشيوعية يقول : «حيث تكون دولة لاتكون حرية ، وحيث تكون حرية لاتكون دولة » .

الإسلام الحكيم يجمع بين الدولة المسئولة والفرد الحر ينادى بالدولة التى يكون الوالى فيها قبل غيره مسئولا عن أمورها حتى يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : « لو عثرت دابة بشط العراق لخشيت أن أسأل عنها يوم القيامة : لماذا لم أمهد لها الطريق » .

الإسلام يجعل الدولة وفى طليعتها الحاكم مسئولة أمام الشعب . وهذا أبو بكر يقول فى خطبته الأولى بعد توليه الخلافة : « إن رأيتمونى على حق فأعينونى . وإن رأيتمونى على باطل فقومونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم » .

وهذا عمر يقول للامة : « من رأى منكم فى اعوجاجاً فليقومه » . ويسهل على أحد الأفراد من السامعين أن يجيب بقوله : « لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » .

وقد عزز الإسلام حرية الفرد منذ ولادته حتى مماته . حتى قال على ابن أبى طالب : « لاتكن عبد غيرك وقد خلقك الله حراً » . وحينما رأى عمر بعض الولاة لايحافظ على حرية الأفراد أنكر ذلك وقال له : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .

وكل هذه المبادئ التى جاء بها الإسلام وطبقها المسلمون فى عهودهم المزهرة لم تعرف الماركسية الطريق إليها . ولا الالتزام بها وإذا رددت شيئاً منها فإنما ترد ده على سبيل المخادعة والدعوى الجوفاء . والإسلام يغنى عن بريق الماركسية الزائف حينما نراه يبيح الكسب ويحرم الكنز . ويدعو إلى تداول المال فى أيدى الجميع . لافى أيدى الأغنياء وحدهم . وينهى عن

طغيان المال بالإنسان عن سواء السبيل ، ولذلك نطالع فى كتاب « حقائق الإسلام » هذه السطور : « كسب المال مباح محمود ، ولكن الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى الخير ملعونون مستحقون للعذاب الأليم : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) وصلاح المال أن تتداوله الأيدى كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم وليس من الخير فى غنى المال أن يجمعه الإنسان حتى يطغيه (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) أما المحتكرون فهم منبوذون من المجتمع الإسلامى يبرأ منهم ويلعنهم الله ، كما جاء فى الأحاديث النبوية الشريفة : « الجالب مرزوق والمحتكر ملعون » وكما جاء فيها : « من احتكر طعاماً أربعين يوماً يريد به الغلاء فقد برئ من الله وبرئ الله منه» ودفعاً للحيلة فى المضاربة بالنقد أوبالطعام لاحتكاره وتحليل الربا عليه قد نهى عليه السلام أشد النهى عن مبادلة المعادن والأطعمة المتماثلة بزيادة فيها فقال فى رويات متشابهة : « الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا بمثل يداً بيد . فمن زاد أو اشتراه فقد أربى » والإسلام يحب للمسلم أن يعمل ويكسب ويكره له أن يتبطل ويتكل على غيره .

وأحاديث النبي عليه السلام تؤكد الأوامر الإلهية فى هذا المعنى فيما يجمعه قوله تعالى : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) والنبي عليه السلام يقول « إن الله يحب العبد المحترف ويكره العبد البطال » ويقول : « أفضل الكسب كسب الرجل بيده » وكان الخليفة العظيم عمر بن الخطاب مؤسس الدولة الإسلامية يقول : « والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة . فإن من قصر به عمله لايسرع به حسبه » فلا عذر فى المجتمع الإسلامى لمن يقعد عن العمل والكسب وهو قادر عليهما . أما الذى يقعد عنهما اضطراراً لعجز أصابه أو حرج وقع فيه

فله على المجتمع حق مفروض لاهوادة فيه يؤديه عنه كل من ملك نصاب الزكاة وهى إحدى الفرائض الخمس التى بنى عليها الإسلام ، ولم يتكرر فى القرآن الكريم ذكر فريضة منها كما تكرر ذكر هذه الفريضة بلفظها أو بلفظ يدل عليها كالصدقة والإحسان والبر واطعام اليتامى والمساكين » .

* * *

ونحن لانريد أن نقتصر فى نقد الماركسية على الحديث نأتى به من ذات أنفسنا فقد يكون من الخير أن نستشهد بآراء الآخرين الذين كان لهم قدم سبقهم فى الدراسة والحكم على الحركات الاجتماعية والاتجاهات المختلفة ، وهذا واحد من هؤلاء انبهر أولا ببريق الماركسية اللامع ، فأقبل عليها ، وتشيع لها فى حماسى وقوة ، ثم انكشف له الحقائق المريرة فعاد إلى الحق وهو « أندريه جيد » الكاتب الفرنسى المشهور الذى قال بعد انخداعه حينا بالماركسية : « لايمكن مهما كان الأمر أن تنحدر الأخلاق إلى الدرك الأسفل الذى تنحدر إليه الشيوعية ، ولا يمكن لأحد مهما طفر به الخيال أن يتصور مأساة الإنسانية والأديان والحريات فى بلاد الشيوعية ، ولا يمكن أن تصل الخسة بالإنسانية إلى حدما تصل إليه فى الشيوعية » .

وهذا « نهروا الزعيم الهندى المشهور يقول فى خطاب تاريخى ألقاه فى إبريل سنة ١٩٥٦ م : « إن تفكير كارل ماركس الذى عاش فى القرن التاسع عشر لايلائم تفكير القرن العشرين الذى تقدمت فيه العلوم والنظريات الاقتصادية تقدماً جعل آراء ماركس غير مقبولة ولا صالحة فى هذا القرن ، وأنا لا أتصل شيئاً من فلسفة ماركسى ، وهى لاتملأ شيئاً من فراغ نفسى ، ولا على أى سؤال يوجهه عقلى ، وإن الماركسية خالية من المثالية ، والشر لايكون وسيلة للخير » ولعله بعد هذا البيان يتضح لكل ذى نظر أن الإسلام رفض الماركسية شكلا وموضوعاً ، وأن المسلم لايستطيع بحال من الأحوال

أن يجمع بين الإسلام والماركسية ، ومن ادعى أنه يجمع بينهما فقد افترى على الله والحق ، وتنكر لإيمانه ودينه ، وارتكب إثماً كبيراً ، .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

* * *

الإسلام والقاديانية

السؤال :

يعتنق بعض الناس فى بعض الدول بعض المذاهب التى تتنافى مع الشريعة الإسلامية فما هذه المذاهب أو الفرق وعلى الأخص فرقة القاديانية ؟ !

الجواب :

هناك فى تاريخ النحل الضالة المضلة فئتان خبيثتان اتخذهما الاستعمار مطية له وعميلة عنده ، فى شبه القارة الهندية ، هما القاديانية والبهائية ، وتنسب القاديانية إلى قرية (قاديان) إحدى قرى مقاطعة (البنجاب) بالهند ، ومؤسس هذه النحلة الأثيمة هو المتنبئ الكذاب ، أو متنبئ الإنجليز : غلام أحمد القاديانى ، وهو من الفرس أو المغول ، واسمه بالكامل هو غلام أحمد ابن غلام مرتضى ، بن عطا محمد ، ويقال إن آباءه من سمرقند ، وقد ولد سنة تسع وثلاثين وثمانمائة وألف فى قرية قاديان . وتعلم بعض العلوم العربية ، وشيئاً من اللغة الإنجليزية ، وكان كثير الأمراض ، ومنها السل ، ودوران الرأس وهبوط القلب ، وسوء الهضم ، وكان يقول عن نفسه : « أنا رجل دائم المرض » .

وقد نشأ غلام أحمد فى أسرة خائنة عميلة للاستعمار ، حيث كان أبوه غلام مرتضى صاحب رابطة وثيقة ظنينة بالحكومة الإنجليزية . وكان صاحب

كرسي فى ديوانها ، وفى سنة إحدى وخمسين وثمانمائة وألف انضم إلى معاونة الإنجليز ضد بنى قومه ودينه ، وأمدهم بخمسين جندياً وخمسين فرساً .

وبعد أن درس بعض الكتب الأردية والعربية ، وقرأ جانباً من القانون ، شغل وظيفة فى بلدة « سيالكوت » ، ثم أخذ ينشر كتابه « براهين أحمدية » فى عدة أجزاء ، وكان قد بدأ دعوته الأثيمة سنة سبع وسبعين وثمانمائة بعد الألف . وفى سنة خمس وثمانين وثمانمائة بعد الألف أعلن أنه مجدد . وفى سنة إحدى وتسعين وثمانمائة بعد الألف ادعى أنه المهدى ، وأنه المسيح الموعود ، وأخذ يقول : « أنا المسيح ، وأنا كليم الله ، وأنا محمد وأحمد الذى اجتباه الله » وفى هذا — فوق ادعائه النبوة — يزعم لنفسه أنه هو موسى وعيسى ومحمد معاً ، ولذلك كان يدعى أنه أفضل من جميع الأنبياء .

ولقد نشأ غلام أحمد مهزوز الأعصاب ، يتخيل أوهاماً وخيالات غريبة ، ومن مضحكاته أنه قال : إنه رأى ملاكاً فى صورة شاب إنجليزى ، وأنه رأى ملكة إنجلترا « قيصرة الهند » تعطفت وشرفته فى بيته ، فكان ذلك صنيعاً يستحق الحمد والشكران . ويقول : نحن بأرواحنا فداء لإنجلترا وحكومتها ، وإذا عصينا إنجلترا نكون قد عصينا الإسلام لأن الله تعالى يأمرنا بقوله : « وأطيعوا الله والرسول وأولى الأمر » والإنجليز هم ولاة الأمر .

لعنه الله ولعنهم معه .

ومات غلام أحمد فى ٢٦ من مايو سنة ١٩٠٨ م فى مدينة لاهور ، ودفن فى قرية قاديان وكان القاديانى ذكياً فى مزاعمه وتضليله فهو حين ابتدع القاديانية ، وحمل كبر الإثم فيها ، لم يجاهر بعداوة الإسلام ، ولم يصرح بالخروج عليه ، بل بدأ بمظهر التجديد والتطوير ، ثم انتقل إلى فكرة المهدوية ثم انتقل إلى ادعاء أنه يوحى إليه ، لا على أنه نبى مستقل مرسل ، بل على أنه نبى متابع ، كهارون بالنسبة إلى موسى عليهما السلام .

ثم أخذ فى تأويل نصوص القرآن الكريم تأويلا منحرفاً فاسداً،لتحقيق مآرب لديه ، ثم تعاون تعاوناً بعيداً مع الاستعمار والمحتلين ، وأصدر فتواه الأثيمه بأن فريضة الجهاد قد انتهت وأصبحت منسوخة ، ولذلك لايجوز رفع السلاح من المسلمين ضد الإنجليز المحتلين للهند ، وكيف تجوز محاربتهم وهم فى إفتائه اللئيم خلفاء الله فى الأرض ، وكبرت كلمة تخرج من فمه الخسيس .

وقد حاول ابنه وخليفته من بعده — واسمه محمود — أن يروج لزعم النبوة عند أبيه فقال : إننا نكفر غير القاديانيين لأن القرآن يخبرنا أن من ينكر أحداً من الرسل يكفر ،وعلى هذا من ينكر أن غلام أحمد نبى رسول يكفر بالله . وجاء ابنه الثانى لبزيد الطين بلة فقال بكل وقاحة وتبجح : كل من يؤمن بموسى ولا يؤمن بعيسى ، أويؤمن بعيسى ولا يؤمن بمحمد فهو كافر ، وكذلك من لايؤمن بغلام أحمد فهو كافر .

وتزعم كتب القاديانية أن الله أوحى إلى غلام أحمد فقال له : الذى يحبنى ويطيعنى وجب عليه أن يتبعك ويؤمن بك ، وإلا لايكون محباً لى ، بل هو عدو لى ، وإن أراد منكروك ألا يقبلوا هذا ، بل كذبوك وآذوك ، فنجزيهم جزاء سيئاً ، واعتدنا لهؤلاء الكفار جهنم سجناً لهم .

وقد مهد غلام أحمد بمكره الخبيث لزعمه النبوة وتطاوله على مقام الرسالة والرسول فقال « من فرق بينى وبين المصطفين ما عرفنى وما رآنى » .

ولقد أخذت القاديانية الضالة المضلة توهم الناس أن الله تبارك وتعالى يرسل أنبياءه حيناً بعد حين ،وقد أرسل محمداً إلى العرب حين تأخروا وانحطوا ، وعندما فشا الفساد والانحراف فى الناس احتاج الأمر إلى إرسال نبى آخر بعد محمد ، فأرسل الله بزعمهم : « مرزا غلام أحمد القاديانى ولذلك يعد من عقائد القاديانية الباطلة أن النبوة لم تختم بسيدنا وقائدنا رسول الله محمد عليه

الصلاة والسلام ، بل تقول القاديانية : « نعتقد أن الله لايزال يرسل الأنبياء لإصلاح هذه الأمة وهدايتها على حب الضرورة » . هذا مع قول القرآن الصريح فى سورة الأحزاب : (ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً) .

وقد جاء فى صحيح البخارى قوله ﷺ : « لانبى بعدى » . ولكن القاديانية يدعون أن آية الأضراب السابقة لايدل على ختم الرسالات بمحمد صلوات الله وسلامه عليه ، ويذكرون فى ذلك الأقوال الجدلية التالية :

١ – الخاتم ليس معناه الآخر ، بل معناه الأفضل فيصير معنى الآية : ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وأفضل النبيين .

٢ – إن معنى الخاتم المهر ، يعنى أنه يمهر الناس ، وبمهره يصير الواحد نبياً .

٣ – إن المراد من النبيين الأنبياء الذين جاءوا بشرائع مستقلة ، فمحمد خاتم للنبيين الذين جاءوا بشريعة مستقلة كهارون لموسى عليهما السلام .

وهى كما ترى تأويلات باطلة وتحريفات فاسدة لاتثبت للحق ، وقد جاء فى تفسير ابن كثير أن هذه الآية نص فى أنه لانبى بعده ، ومن هنا لارسول بعده بطريق أولى ، ولقد أورد ابن كثير طائفة من الأحاديث الصحيحة التى تنص على ذلك ، كقوله : « وإنى آخر الأنبياء » .

ومن فسق القاديانية تهجمها القذر على مقام الأنبياء والرسل ، وعلى الخلفاء الراشدين ، والصحابة الطاهرين ، وتطاولها على حرمة سيدى شباب أهل الجنة الحسن والحسين ، فيقول مبتدع القاديانية مثلا : « يقولون عنى بأنى أفضل نفسى على الحسن والحسين ، فأنا أقول نعم ، أنا أفضل نفسى عليهما ، وسوف يظهر الله هذه الفضيلة » ويأتى بعد هذا الأثيم ابنه ليواصل

مسيرته فيقول : « إن ابى قال : مائة حسين فى جيبى ، والناس يفهمون معناه أنه يساوى مائة حسين ، ولكنى أقول أكثر من هذا ، وهو أن تضحية ساعة واحدة لخدمة الدين من أبى أفضل من تضحيات مائة حسين » .

ولم لا يتطاول هذا التطاول وهو الذى بلغ فى الإجرام غايته حين تطاول على حرمة رسول الله ﷺ فقال : إن الرسول له ثلاثة آلاف معجزة ، ولكن معجزاتى زادت على مليون معجزة .

* * *

ومن ضلال القاديانية الأثيم البالغ مداه فى الإثم تحريضهم أو تحريفهم فى تأويل آيات القرآن المجيد ، والأمثلة على ذلك يضيق عنها هذا المجال لكثرتها ومنها أنهم يعلقون على الآية الكريمة من سورة الإسراء : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) : : فيقولون إن المقصود من المسجد الأقصى هنا ليس هو مسجد بيت المقدس كما أجمع أهل التفسير والتاريخ ، بل المراد به هو مسجد قاديان ، لأن الرسول ﷺ أسرى به إلى هذا المسجد الذى يقع فى شرقى قاديان .

ويشبه غلام أحمد هذا المسجد ببيت الله الحرام ، ويزعم أن مسجد قاديان هو الذى أنزل الله تعالى فيه قوله :) ومن دخله كان آمناً » .

ومن تحريف القاديانى فى تفسير القرآن أنه يفسر قوله تعالى : (ولقد نصركم الله ببدر) فيقول فى وقاحة : إن الإسلام بدأ كالهلال (أى مصغراً) ثم قدر له أن يكون فى هذا القرن كالبدر (أى كاملا) .

فكيف يتفق هذا مع قول الحق تبارك وتعالى منذ أربعة عشر قرناً : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) .

بل كيف يتفق هذا مع ادعاء القاديانى (النبوة لنفسه ، وهو يزعم مع أتباعه الضالين أن الله قد أرسله لأن الضلال والفساد قد عما العالم ، فأين إذن الكمال الذى يتحدث عنه فى هذا القرن ؟

ومن تخريفه فى تأويل القرآن الكريم أنه يتعرض بوقاحته وسفالته لقول الله تبارك وتعالى : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) فيزعم لنفسه أنه المراد بمحمد ، فيقول المخبول : « محمد هنا هو أنا ، لأن الله سمانى فى هذا الوحى محمداً ورسولا ، كما سمانى بهذا الاسم فى عدة مقامات أخرى » ولم يتورع ذلك الوقح عن تسجيل هذا فى كتابه « تبليغ رسالة » .

ويواصل سفاهته حينما يقول : أنا المقصود بقول القرآن : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ويقول كذلك : أنا المقصود بقول القرآن فى سورة الصف : (ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) ويعلل ذلك بأن النبى العربى « اسمه محمد » وليس اسمه « أحمد » .

* * *

ومن فجور القاديانية أنها حاولت صرف أتباعها عن منزل الوحى ، وعن الكعبة المشرفة ، ، وعن المسجد الحرام ، فاتخذت من قرية « قاديان » قبلة وكعبة لهم ، بدل الكعبة المطهرة فى مكة ، وفسقوا فى فجورهم وإلحادهم حين جعلوا فريضة الحج فى نحلتهم الضالة هى حضور المؤتمر السنوى للقاديانية فى قرية « قاديان » ، ويقول كبيرهم غلام أحمد : « المجىء إلى قاديان هو الحج »

وكذلك بنى القاديانيون مدينة صغيرة فى باكستان الغربية ، وسموها « ربوة » ، وجعلوها مركزاً لدعوتهم ، وألقوا عليها ظلالا من الهيبة والتقديس

ويزعم غلام أحمد أنه قد نزل عليه من عند الله قرآن اسمه « الكتاب المبين »

وأنه قد نزل عليه أكثر مما نزل على الأنبياء ، وقد نشر طائفة من الكتب الخبيثة المليئة بالمزاعم والأوهام ، ومنها هذه الكتب .

١ — براهين أحمدية .

٢ — إزالة الأوهام .

٣ — حقيقة الوحى .

٤ — سفينة نوح .

٥ — تبليغ رسالة .

٦ — خطة الهامية .

ومن تضليل القاديانية أنها تسمى نفسها « الأحمدية » تمويهاً وتضليلا ، وإيحاء كاذباً بأنهم ينتسبون إلى « أحمد » الرسول كما جاء فى القرآن الكريم على لسان عيسى عليه السلام : « ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) .

ولعل أقذر ماالجأ إليه المتبنى الكذاب القاديانى من توهين شوكة المسلمين أمام المستعمرين ، وإلغاء الجهاد ضد المحتلين ، ولذلك أخذ يدعو بأنه لاجهاد فى الإسلام بعد الآن ، ويعلل لذلك تعليلا لئيماً مضحكاً فيقول : إن الله خفف شدة الجهاد فى سبيل الله بالتدريج ، فكان يبيح قتل الأطفال فى عهد موسى ، وفى عهد محمد ألغى قتل الأطفال والشيوخ والنساء ، ثم ألغى الجهاد نهائياً فى عهدى .

ويقول : اليوم ألغى حكم الجهاد بالسيف ، ولا جهاد بعد هذا اليوم ، فمن رفع بعد ذلك السلاح على الكفار ويسمى نفسه غازياً يكون مخالفاً لرسول الله الذى أعلن قبل ثلاثة عشر قرناً إلغاء الجهاد فى زمن المسيح الموعود ، فأنا المسيح ، ولا جهاد بعد ظهورى الآن ، فنحن نرفع علم الصلح وراية الأحسان » .

وبركز اهتمامه بالإصرار على جريمته فى هذه الدعوة المناقضة لملة الله وسنة رسوله فيقول : « اتركوا للآن فكرة الجهاد ، لأن القتال للدين قد حرم وجاء الإمام والمسيح ، ونزل نور الله من السماء ، فلا جهاد ، بل الذى يجاهد فى سبيل الله الآن فهو عدو الله » .

والقاديانى يتعب نفسه هذا التعب كله فى مقاومة الجهاد لإرضاء الإنجليز واستجلاب عطفهم عليه ، وهو نفسه لايتحرج من التصريح بذلك ، فيقول « ثبت من محاضراتى المسلسلة طوال سبع عشرة سنة أنى وفى مخلص للدولة الإنجليزية ، من صميم القلب والروح ، وإطاعة الحكومة وحب الناس عقيدتى ، وهذه هى العقيدة التى أدخلتها فى شروط البيعة المتبعى ومريدى ، وصرحت عن هذه العقيدة تحت المادة الرابعة فى رسالة شروط البيعة التى توزع على المريدين والمتبعين لى .

ونسيت القاديانية أن الجهاد فريضة إسلامية دائمة ما بقيت السموات والأرض ، لايراد منها الاعتداء أو الطغيان ، بل يراد منها رد العدوان والدفاع عن المظلومين والمهضومين ، والقرآن الكريم يقول : (وجاهدوا فى الله حق جهاده) ويقول : (يأيها الذين آمنو هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) . ويقول : (فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة) ويقول (يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ويجدوا فيكم غلظة) . ويقول : (يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير) .

وهذه هى السنة من وراء القرآن المجيد تؤكد فرضية الجهاد والدعوة إليه فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « اعلموا أن الجنة تحت ظلال

السيوف » ويقول : « اغزوا فى سبيل الله من قاتل فى سبيل الله فوق ناقة وجبت له الجنة » ويقول : « لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها » . ويقول : « الجهاد أفضل الأعمال » .

هذه هى بعض نصوص القرآن والسنة فى الجهاد ، ولكن القاديانية الأثيمة التى جاءت لتكون مطية يركبها الاستعمار لتحقيق مآربه الخسيسة تأبى إلا أن تقول الكلمة العوراء ، وهى أنه لاجهاد فى الإسلام بعد اليوم .

ومما ينبغى أن نلاحظة أن تفكير الاستعمار الإنجليزى الخبيث قد طال فى تقدير خطورة الإسلام والمسلمين على الاستعمار والمستعمرين ، وقد انتهى هذا الاستعمار إلى أن أجدى وسيلة لمحاربة الإسلام هى أن يتحارب أبناؤه المسلمين فيما بينهم يهدم بعضهم بعضاً بأيديهم ، ورأى الاستعمار الإنجليزى أن ذلك الهدم يتحقق بإنشاء فرق ضالة مضلة بين المسلمين من بعض المنتسبين إلى الإسلام والمحسوبين عليه كالبهائية والقاديانية وأضرابهم ، واستغل الاستعمار الإنجليزى فى هذا المجال بريق الذهب والمال ، فأغدق الأموال الاستعمارية الضخمة على عملائه الذين أحسن اختيارهم من الفقراء المحتاجين ، ومن المهزوزين عقلياً ونفسياً لتسهل لديهم الاستجابة لرغبات الاستعمار اللئيم ، وفيما بين يوم وليلة انتقل هؤلاء المعزوزون إلى أصحاب أموال عريضة ، وقصور شاهقة ، وعربات فارهة ، وسلطات واسعة ، وفى سبيل هذه المغريات ، ومن أجل تلك الشهوات ، باع أولئك العملاء دينهم ووطنهم ، وأقوامهم وإخوانهم ، وقيمهم ومبادئهم ، وساروا فى ركاب المستعمر يرقصون له ، ويحمدون كل مايفعله بلا ضمير ولاحياء .

وهذا غلام أحمد القاديانى يقول : أكثر من دخل فى جماعتى هم أعضاء الحكومة الإنجليزية ، والشاغلين المناصب العليا ، أو رؤساء هذه البلاد

وتجارها . أو المحامون المتعلمون الدراسة الإنجليزية . أو العلماء الذين خدموا الحكومة الإنجليزية .

ولذلك ظل القادياني وأتباعه يتغنون بمحامد الإنجليز ويسبحون بحمدهم إن صح هذا التعبير وهذا هو القادياني الفاجر يقول في مخاطبة الحكومة الإنجليزية الكافرة : « أنا من الأسرة التي تعترف حكومتنا الإنجليزية بأنها أسرة وفية للحكومة . وأقر الحكام أيضاً بأن أبي وقومي من الذين خدموا الحكومة بكل وفاء . بالقلب والروح ، وأنا لا أجد ألفاظاً للتعبير عن شكري وامتناني للحكومة المحسنة . لأجل الراحة والاطمئنان اللذين نجدهما تحت رعاية هذه الحكومة . ولهذا شمرنا عن ساقنا أنا وأبي وأخي بأن نظهر إحسانات هذه الحكومة ومنافعها . ونفرض طاعة هذه الحكومة على الناس . ونرسخها في قلوبهم » .

ويعود ليقول في موطن آخر : « إني أفنيت أكثر حياتي في تأييد الحكومة الإنجليزية . ومخالفة الجهاد . ومازلت أجتهد حتى صار المسلمون أوفياء مخلصين لهذه الحكومة » .

ولقد قدم غلام أحمد عريضة إلى نائب أمير الهند الإنجليزي ، ورجاه أن تحافظ الحكومة على أسرته الوفية للانجليز . وفي هذه العريضة الوضيعة يقول القادياني مانصه : « العريضة التي أعرضها إلى حضرتكم ، مع أسماء أتباعي . ليس المقصود منها إلا أن تلاحظوا الخدمات الجليلة التي أديتها أنا وآبائي في سبيلكم ، وكما ألتمس وأرجو من الدولة العالية أن تراعي الأسرة التي أثبتت بكمال وفائها وإخلاصها طوال خمسين سنة . أنها من أخلص المخلصين للحكومة والتي أقر واعترف لولائها أكابر أمراء الحكومة العظمى وحكامها . وكتبوا لها وثائق وشهادات على أن هذه الأسرة أسرة خدام .

وأسرة مخلصة ، فلذا أرجو منكم أن تكتبوا للحكام الصغار برعاية هذه الشجرة وحفظها التى ماغرسها إلا أنتم .

كما أرجو أن ينظروا إلى أتباعى بنظرة خاصة ودية ، لأننا ماتأخرنا أبداً عن التضحيات فى سبيلكم ، لا بالنفوس ولا بالدماء ، كما لاتتأخر بعد ذلك ، فلاجل هذه الخدمات الجليلة نحن نستحق أن نطلب من الحكومة العظيمة المد والعون لكى لايجرؤ أحد علينا » .

ويعود فى موطن آخر إلى التغنى بخدمات إنجلترا الجليلة ، وما ارتكبه من جريمة فى حق دينه تطييباً لخاطرها فيقول : « إنى ملات المكاتب من التى كتبتها فى مدح الإنجليز ، وخاصة فى وضع الجهاد الذى يعتقده كثير من المسلمين ، وهذه خدمة كبيرة للحكومة ، فأرجو أن أجزى بها جزاء حسناً » .

ويعود مرة ثالثة ليتباهى المحرم بأنه قضى ثمانية عشر عاماً فى تأليف الكتب المأوفة المسمومة لتحبيب الناس فى بريطانيا الغادرة ، فيقول : « قد مضى ثمانية عشر عاماً ، وأنا مشغول فى تأليف الكتب التى تنشئ فى قلوب المسلمين المحبة ، والطاعة ، والولاء لكم ، مع أن أكثر العلماء يبغضوننى لأجل هذه الأشياء ، ويحترقون فى قلوبهم حنقاً على من مثل هذه الأفكار ، ولكنى أعرف بأنهم جهلة لايعرفون أن من لم يشكر الناس لم يشكر الله ، وأن أداء الشكر للمحسن كأداء الشكر لله . فهذه عقيدتنا ، ولكن وبالأسف أن حكومتنا المحسنة لم تنظر إلى هذه المؤلفات التى ملئت بالوفاء للحكومه ، وحبها ، بنظرة عميقة ، مع أنى لفت نظرها عدة مرات . والآن وأذكركم مرة أخرى بأنكم تلتفتون إلى الكتب ، المذكورة ، فى عريضتى هذه ، وتقرءون منها المقامات التى أشرت صفحاتها وعلمت عليها . .. وينبغى أن تتفكر الحكومة الإنجليزية بعين الجد ، أن هذه الجهود المسلسلة التى تبذل من

ثمانية عشر سنة لتوجيه المسلمين إلى طاعة الحكومة ، وترسيخها فى قلوبهم ، ولبث الدعاية فى البلدان الخارجية ، للحكومة الإنجليزية ، ماذا غايته ، وهدفه؟ ولم تنشر مثل هذه الكتب وترسل ، ولأجل أى شيء ؟ » .

ولم يكتف غلام أحمد المتنبئ القاديانى بما ابتدعه واخترعه واصطنعه من تحريف الدين وهدم لفرائضه وتشويه لتعاليمه بل قال كذلك إن الصلاة لاتجوز خلف أى مسلم ، بل لابد أن يكون قاديانيا ، ونص عبارته هى « هذا هو مذهبي المعروف . أنه لايجوز لكم أن تصلوا خلف غير القاديانى ، مهما يكن ومن يكن ، ومهما يمدحه الناس . فهذا حكم الله ، وهذا مايريده الله . وإن المتشكك والمذبذب داخل فى المكذبين ، والله يريد أن يميز بينكم وبينهم»

ويقول : « إن الله أطلعنى بأنه حرام حراماً قطعياً أن تصلوا خلف الذى يكذبنى . أو يتردد عن طاعتى بل واجب عليكم أن تصلوا خلف إمام من أئمتكم . وهذا ما أشير إليه فى الحديث : « إمامكم منكم » يعنى إذا نزل المسيح فعليكم أن تتركوا الفرق التى تدعى الإسلام . وتجعلو إمامكم منكم . فافعلوا ما أمرتم . أتريدون أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » ؟ .

والقاديانية هنا تأخذ بالتقية والتستر والمخادعة . وليس أدل على ذلك من كلام قاله الخليفة الثانى للقاديانية . وهو ابن الغلام محمود أحمد . فقد قال ، وهو يتحدث عن رحلته إلى الحج :

« أنا ذهبت سنة ١٩١٢ إلى مصر . ومن هناك إلى الحج . ولقينى فى جدة جدى من الأم . وذهبنا سوياً إلى مكة . وفى أول يوم حيث كنا فى الطواف . أدركتنا الصلاة . فأردت الانصراف . ولكن سدت الطرق من الازدحام . وبدأت الصلاة . فأمرنى جدى بأن ندخل فى الصلاة . فدخلنا وصلينا . وحينما رجعنا إلى البيت قلنا هيئوا نصلى الصلاة لله التى لاتؤدى

ولا تقبل خلف غير القادياني ، فقمنا وصلينا الصلاة مرة أخرى . وكنا نفعل هكذا ، وكثيراً ما كنا نصلي في بيوتنا ، وأحياناً كنا نتأخر حتى تنتهى صلاة الجماعة ، فنقوم ونصلي بجماعتنا ، وفي بعض الأوقات يشترك معنا غير القاديانيين » .

ثم يقول : « وحينما رجعنا سأل أحدنا الخليفة الأول نور الدين : ماذا يفعل القادياني في الصلاة خلف غير القادياني ؟ . فأجابه الخليفة : لو يرى المصلحة في الصلاة خلف غير القادياني ، فله أن يصلي خلفه ، ثم يعيد هذه الصلاة مرة أخرى » .

والقاديانية الآثمة المنحرفة الضالة عن سواء السبيل تقول لأتباعها على السنة قادتها المخربين : لاتشاركوا المسلمين في حفلات الزواج ، ولا في غيرها ولا تصلوا على جنائزهم ، لأنه ليس لنا أي علاقة بهم ، وبعد أن قطعت الروابط والصلات ، ولم يعد يهمنا مايهمهم ، فمن أين لنا أن نصلي على أمواتهم؟

ولقد سأل أحدهم الخليفة القادياني الثاني : هل تجوز الصلاة على طفل من من أطفال المسلمين لأنه معصوم ، ومن الممكن أن يصير قاديانياً لو بقي حياً ؟

فأجاب الخليفة الثاني جازاه الله بما يستحق : لايصلي عليه ولو كان معصوماً ، كما لا يصلي على أطفال النصارى ، مع أنهم أيضاً معصومون

وكتب هذا الإنسان نفسه في كتاب « أنوار خلافة » يقول :

بقي سؤال وهو : هل تجوز الصلاة على أطفال المسلمين ؟ فأقول :

لايجوز . كما لاتجوز ، كما لاتجوز على أطفال الهندوس وأطفال المسيحيين لأن مذهب الطفل مذهب أبويه ، وهو تابع لهما ! !

أرأيت ؟ . أرأيت أن هؤلاء يجعلون النصرانية والهندوكية والإسلام شيئاً واحداً ؟

وهل تبقى لهم بعد هذا وغيره أى صلة بالإسلام ، وإن تستروا باسم الإسلام ؟ .

إنهم لايقصدون من انتسابهم إلى الإسلام إلا أن يجدوا لميكروبهم منفذاً إلى داخل كيان المجتمع الإسلامى ، فيحاولوا من الداخل هدم الإسلام بدعوى التجديد فى الإسلام .

(ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين) .

* * *

ومن الظلال الاستعمارية الخبيثة التى تحيط بالقاديانية وأتباعها أنه أنشىء لها مركز خطير فى قلب إسرائيل : إسرائيل التى اغتصبت فلسطين ، وأحرقت المسجد الأقصى ، وشردت الملايين من المسلمين ، وتعاونت تعاونها الخبيث اللئيم مع الغربى لمحاربة الإسلام .

القاديانية تجد فى قلب إسرائيل من يفتح لها أبوابها عن سعة ، ويقول لها : أهلا بك وسهلا ، وتقيم لها مركزاً قاديانياً خطيراً فوق أشلاء الضحايا من أبناء فلسطين الذين سالت دماؤهم فوق وطنهم نتيجة للمؤامرة الصهيونية الاستعمارية المشتركة .

ومن الذكريات السود فى تاريخ القاديانية أنه حينما سقطت الخلافة الإسلامية على أيدى الكماليين فى تركيا ، قامت مظاهرات ضخمة فى الهند ، للمطالبة بإعادة الخلافة الإسلامية ، لتعمل لصالح الإسلام والمسلمين ، ولكن القاديانية قاومت هذه المشاعر الإسلامية ، ولم يشترك أتباعها مع

مواطنيهم فى هذا الاتجاه ، وكيف يشاركون فى كثير من ذلك أو قليل ، وأسيادهم الإنجليز كانوا ضالين فى جريمة القضاء على تركيا « الرجل المريض» والإجهاز على الخلافة ؟ .

ولقد كتب شاعر الإسلام المرحوم الدكتور محمد إقبال سلسلة مقالات نارية فى بيان أكاذيب القاديانية . وكشف أضاليلهم وأباطيلهم ، وكان ذلك ذلك فى وسط الثلاثينيات من هذا القرن ، وفى سنة ١٩٣٦ م ، وكتب غيره من العلماء والدعاة والباحثين ، ولكن القاديانية ظلت على غيها وبغيها، يساندها الاستعمار الخبيث من جهة ، وأمواله الحرام من جهة ، واستغلت القاديانية قلة الوعى الإسلامى ، وانتشار الجهل بالدين فيما حولها ، وتأثير الأحوال الاجتماعية المختلفة.وتهيئها الجو المناسب لتقبل الخرافات والجهالات والأوهام.

ولم يدع أتباع القاديانية فرصة إلا انتهزوها لتحقيق مآربهم الخبيثة ، فألفوا الكتب وأصدروا المجلات ، ونشروا الصحف وترجموا القرآن إلى مختلف اللغات ، وأقاموا المؤسسات ، وفتحوا المستشفيات والدور الاجتماعية وغيرها .

وخلاصة القول فى القاديانية أنها لعبة استعمارية خبيثة، تظاهرت بالانتماء إلى الإسلام والإسلام منها براء ، وقد استطاع المكر الاستعمارى أن يسخر هذه النحلة الضالة المضلة لتحقيق أغراضه التى كانت تعمل دائماً على تشويه الإسلام وإضعاف المسلمين ، ولكن الإسلام سيبقى على الرغم من أعدائه .

والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لايعلمون .

* * *

فرعون موسى

السؤال :

ما الحق فى جثة فرعون موسى الموجودة فى مصر ؟ ومن فرعون موسى هذا ؟ ولماذا قال الله تعالى : (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) ؟

الجواب :

ذكر المحققون من المؤرخين أن فرعون الذى اضطهد بنى إسرائيل ، وولد موسى فى عصره هو رعمسيس الثانى ، الذى أشرك معه فى الحكم ابنه منفتاح الولد الثالث عشر لرعمسيس الثانى ، ومنفتاح هذا هو فرعون الخروج الذى أرسل الله إليه موسى وهارون لإخراج بنى إسرائيل من مصر ، وهو فرعون الذى عثروا على جثته وهى فى المتحف المصرى إلى الآن .

وعبور موسى هذا كان من خليج السويس قريباً من البحيرة المرة فى شمالى خليج السويس المعروف بعيون موسى فى البر الآسيوى . وهى لاتبعد عن السويس كثيراً .

ويقول الله تعالى عن فرعون وغرقه وبقاء جثته وذلك فى سورة يونس : (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لاإله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين * الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين * فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون) . وهذه الآيات تفيد مجاوزة الله البحر بهم ببنى إسرائيل بمعونته وقدرته ، فلحقهم فرعون ظلماً وعدواناً عليهم . فخاض البحر وراءهم حتى إذا وصل حد الغرق قال : (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل) وأنا فرد

من جماعة المزعمين له المنقادين لأمره بعد ماكان من كفر وجحود . فقيل له : أتسلم الآن وتدعى الإذعان والطاعة حيث لا مجال لهما ولا مكان ، وقد عصيت قبله وكنت من المفسدين فى الأرض الظالمين للعباد ، فاليوم نجعلك على نجوة من الأرض أى موضع مرتفع ونبرزك ببدنك لينظر إليك من يكذب بهلاكك وذكر المفسرون أنه خرج بجسده سالماً ليعرفه بنو إسرائيل ويوقن الذين شكوا فى غرقه والعبرة فى ذلك هى ما سيقت القصة لأجله من كونها شاهداً على صدق وعد الله لرسله ووعيده لأعدائهم كطغاة مكة الذين أنزلت هذه الآيات لإقامة حجج الله عليهم .

وقد تحدث الرازى عن قوله تعالى : (فاليوم ننجيك ببدنك) فقال : فيه وجوه :

الأول — ننجيك ببدنك أى نلقيك بنجوة من الأرض وهى المكان المرتفع .

الثانى — نخرجك من البحر ونخلصك مما وقع فيه قومك من قعر البحر بعد أن تغرق .

الثالث — أن هذا وعد له بالنجاة على سبيل التهكم كما فى قوله فبشرهم بعذاب أليم ، كأنه قيل له ننجيك ولكن هذه النجاة إنما تحصل ببدنك لا لروحك ، ومثل هذا الكلام قد يذكر على سبيل الاستهزاء ، كما يقال : نعتقك ولكن بعد الموت ، ونخلصك من السجن ولكن بعد الموت .

وأما قوله تعالى : لتكون لمن خلفك آية ففيه وجوه :

الأول — أن قوماً ممن اعتقد فى فرعون الألوهية لما لم يشاهدوا غرقه كذبوا بذلك ، وزعموا أن مثله لا يموت ، فأظهر الله تعالى أمره بأن أخرجه من الماء بصورته حتى شاهدوه وزالت الشبهة عن قلوبهم .

الثانى — لايبعد أنه تعالى أراد أن يشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة بعد ماسمعوه يقول : أناربكم الأعلى ، ليكون ذلك زجراً للخلق عن مثل طريقته ويعرفوا أنه كان بالأمس فى نهاية الجلالة والعظمة ثم آل أمره إلى مايرون .

الثالث . قرأه بعضهم فتكون لمن خلقك آية « بالقاف » أى لتكون لخالقك آية كسائر آياته .

الرابع — أنه تعالى لما أغرقه مع جميع قومه ، وخصه بالإخراج وحده كان تخصصه بهذه الحالة العجيبة دالا على كمال قدرة الله تعالى وعلى صدق موسى عليه السلام فى دعوة النبوة والله يقول : لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

أحكام الميت والقبور

صلاة الجنازة على الكافر

السؤال :

هل يصلى على الكفار الذين يعبدون الطاغوت أو المشركين عموماً ؟

الجواب :

أجمعت الأمة على أنه لاتجوز الصلاة على الكافر والمشرك لأن هذه الصلاة على الميت رحمة وبركة وخير وهذا كله مما لايستحقه المشرك والكافر ، لأنهما بكفرهما وشركهما قد جحدا نعمة الله عليهما ، وأعلنا عليه الحرب ، فمصيره أسوأ مصير ، ولا يستحق أن يعامل برحمة أو دعاء . وأما عبادة الطاغوت فضلال كبير وكفر بعيد والقرآن يقول : (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . ويقول فى سورة المائدة : (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

اهدنا الصراط المستقيم

السؤال :

يقول القرآن الكريم : (اهدنا الصراط المستقيم) وقد قيل إن معنى هذا الصراط هو الإسلام ، أو القرآن ، أو طريق الجنة ، وهذا الدعاء يردده المسلمون وهم مهتدون ، فما معنى طلبهم الهداية إلى الصراط المستقيم ؟ ألا يكون هذا تحصيلا للحاصل ؟ . نرجو الإجابة .

الجواب :

يقول الإمام ابن جرير الطبرى : الأولى بتأويل هذه الآية عندى – أعنى (اهدنا الصراط المستقيم) – أن يكون معنياً به : وفقنا للثبات على ما رضيته، ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك ، من قول وعمل ، وذلك هو الصراط المستقيم ، لأن من وفق لما وفق له من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، فقد وفق للاسلام ، وتصديق الرسل ، والتمسك بالكتاب ، والعمل بما أمره الله به ، والانزجار عما زجره عنه ، واتباع منهاج النبى ﷺ ، ومنهاج الخلفاء الأربعة ، وكل عبد صالح ، وكل ذلك من الصراط المستقيم .

فإن قيل : كيف يسأل المؤمن الهداية فى كل وقت من صلاة وغيرها ، وهو متصف بذلك ؟ فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أو لا ؟ .

فالجواب : أن لا ، ولولا احتياجه ليلا ونهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده الله إلى ذلك ، فإن العبد مفتقر فى كل ساعة وحالة إلى الله تعالى فى تثبيته على الهداية ، ورسوخه فيها ، وتبصره وأزدياده منها ، واستمراره عليها ، فإن العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله . فأرشده تعالى إلى أن يسأله فى كل وقت أن يمده بالمعونة والثبات والتوفيق ، فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله ، فإنه تعالى قد تكفل بإجابة الداعى إذا دعاه ، ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار ، وقد قال تعالى (يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزّل على رسوله ، والكتاب الذى أنزل من قبل) فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان ، وليس فى ذلك تحصيل الحاصل، لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعنية علي ذلك .

ويتوسع فخر الدين الرازى فى التعليق على قوله تعالى : (اهدنا الصراط

المستقيم) فيعقد لذلك فصلا خاصاً يذكر فيه الفوائد التى تستنبط من النص الكريم ، فيقول :

الفائدة الأولى : لقائل أن يقول : المصلى لابد أن يكون مؤمناً ، وكل مؤمن مهتد ، فالمصلى مهتد . فإذا قال : اهدنا ، كان جارياً مجرى أن من حصلت له الهداية فإنه يطلب ، فكان هذا طلباً لتحصيل الحاصل ، وأنه محال.

والعلماء أجابوا عنه من وجوه :

الأول : المراد منه صراط الأولين فى تحمل المشاق العظيمة لأجل مرضاة الله تعالى ، يحكى أن نوحاً عليه السلام كان يضرب فى كل يوم كذا مرات. بحيث يغشى عليه ، وكان فى كل مرة يقول : اللهم اهدى قومى فإنهم لايعلمون . فإن قيل : إن رسولنا عليه السلام ما قال ذلك إلا مرة واحدة ، وهو كان يقول كل يوم مرات ، فلزم أن يقال إن نوحاً عليه السلام كان أفضل منه .

والجواب : لما كان المراد من قوله : « اهدنا الصراط المستقيم » طلب تلك الأخلاق الفاضلة من الله تعالى ، والرسول عليه السلام كان يقرأ الفاتحة فى كل يوم كذا مرة ، كان تكلم الرسول بهذه الكلمة أكثر من تكلم نوح عليه السلام بها .

الوجه الثانى فى الجواب أن العلماء بينوا أن فى كل خلق من الأخلاق طرفى تفريط وإفراط ، وهما مذمومان ، والحق هو الوسط ، ويتأكد كذلك بقوله تعالى : (وكذلك جعلكم أمة وسطا) . وذلك الوسط هو العدل والصواب ، فالمؤمن بعد أن عرف الله بالدليل صار مؤمناً مهتدياً ؛ أما بعد حصول هذه الحالة فلا بد من معرفة العدل الذى هو الخط المتوسط بين طرفى الإفراط والتفريط فى الأعمال الشهوانية ، وفى الأعمال الغضبية ، وفى

كيفية إنفاق المال ، فالمؤمن يطلب من الله تعالى أن يهديه إلى الصراط المستقيم الذى هو الوسط بين طرفى الإفراط والتفريط فى كل الأخلاق ، وفى كل الأعمال ، وعلى هذا التفسير فالسؤال زائل .

الوجه الثالث : أن المؤمن إذا عرف الله بدليل واحد ، فلا موجود من أقسام الممكنات إلا وفيه دلالة على وجود الله وعلمه وقدرته ، وجوده ورحمته وحكمته . وربما صح دين الإنسان بالدليل الواحد ، وبقى غافلا عن سائر الدلائل ، فقوله : (اهدنا الصراط المستقيم) معناه : عرفنا ياإلهنا مافى كل شئ من كيفية دلالته على ذاتك وصفاتك وقدرتك وعلمك ، وعلى هذا التقدير ، فالسؤال زائل .

الوجه الرابع : أنه تعالى قال : (إنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض) . وقال أيضاً لمحمد عليه السلام : (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه) . وذلك الصراط المستقيم هو أن يكون الإنسان معرضاً عماسوى الله ، مقبلا لكلية قلبه وفكره وذكره على الله . فقوله : أهدنا الصراط المستقيم المراد أن يهدمه الله إلى الصراط المستقيم الموصوف بالصفة المذكورة ، مثالة أن يصبر بحيث لو أمر بذبح ولده لأطاع كما فعله إبراهيم عليه السلام ، ولو أمر بأن ينقاد ليذبحه غيره لأطاع كما فعله إسماعيل عليه السلام ، ولو أمر بأن يرمى نفسه فى البحر لأطاع كما فعله يونس عليه السلام . ولو أمر بأن يتتلمذ لمن هو أعلم منه بعد بلوغه فى المنصب إلى أعلى الغايات لأطاع كما فعله موسى مع الخضر عليهما السلام .

ولو أمر بأن يصبر فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على القتل والتفريق نصفين لأطاع كما فعله يحيى وزكريا عليهما السلام .

فالمراد بقوله : اهدنا الصراط المستقيم هو الاقتداء بأنبياء الله فى الصبر

على الشدائد، والثبات عند نزول البلاء، ولا شك أن هذا مقام شديد هائل، لأن أكثر الخلق لاطاقة لهم به ، إلا أن نقول : أيها الناس لاتخافوا ولاتحزنوا فإنه لايضيق أمر فى دين الله إلا اتسع ، لأن فى هذه الآية مايدل على اليسر والهولة ، لأنه تعالى لم يقل : صراط الذين ضربوا وقتلوا ، بل قال : صراط الذين أنعمت عليهم .

فلتكن نيتك عند قراءة هذه الآية أن تقول : ياإلهى إن والدى رأيته ارتكب الكبائر كما ارتكبتها ، وأقدم على المعاصى كما أقدمت عليها ، ثم رأيته لما قرب موته تاب وأناب ، فحكمت له بالنجاة من النار والفوز بالجنة ، فهو ممن أنعمت عليه ، بأن وفقته للتوبة ، ثم أنعمت علية بأن قبلت توبته ، فأنا أقول : اهدنا إلى مثل ذلك الصراط المستقيم ، طلباً لمرتبة التائبين ، فإذا وجدتها فاطلب الاقتداء بدرجات الأنبياء عليهم السلام ، فهذا تفسير قوله : اهدنا الصراط المستقيم .

الوجه الخامس : كأن الإنسان يقول فى الطرق : كثرة الأحباب يجروننى إلى طريق ، والأعداء إلى طريق ثان ، والشيطان إلى طريق ثالث ، وكذا القول فى الشهوة والغضب ، والحقد والحسد ، وكذا القول فى التعطيل والتشبيه ، والحبز والقدر ، والإرجاء والوعيد ، والرفض والخروج . والعقل ضعيف ، والعمر قصير ، والصناعة طويلة ، والتجربة خطرة ، والقضاء عسير .

وقد تحيرت فى الكل فاهدنى إلى طريق أخرج منه إلى الجنة ، والمستقيم السوى الذى لاغلط فيه .

يحكى عن إبراهيم بن أدهم أنه كان يسير إلى بيت الله ، فإذا أعرابى على ناقة له ، فقال : ياشيخ ، إلى أين ؟ . فقال إبراهيم . إلى بيت الله .

قال : كأنك مجنون ، لا أرى لك مركباً ولا زاداً ، والسفر طويل .

فقال إبراهيم : إن لى مراكب كثيرة ، ولكنك لا تراها .

قال : ماهى ؟ . قال : إذا نزلت على بلية ركبت مركب الصبر ، وإذا نزلت على نعمة ركبت مركب الشكر ، وإذا نزل بى القضاء ركبت مركب الرضا ، وإذا دعتنى النفس إلى شىء علمت أن مابقى من العمر أقل مما مضى

فقال الأعرابى : سر بإذن الله فأنت الراكب وأنا الراجل .

الوجه السادس : قال بعضهم : الصراط المستقيم : الإسلام . وقال بعضهم القرآن ، وهذا لايصح ، لأن قوله : (صراط الذين أنعمت عليهم) بدل من الصراط المستقيم ، وإذا كان كذلك كان التقدير : اهدنا صراط من أنعمت عليهم من المتقدمين ، ومن تقدمنا من الأمم ماكان لهم القرآن والإسلام وإذا بطل ذلك ثبت أن المراد اهدنا صراط المحقين المستحقين للجنة . وإنما قال : الصراط ، ولم يقل : السبيل ، ولا الطريق ، وإن كان الكل واحداً ، ليكون لفظ الصراط مذكراً لصراط جهنم ، فيكون الإنسان على مزيد خوف وخشية .

القول الثانى فى تفسير : اهدنا ، أى ثبتنا على الهداية التى وهبتها منا . ونظيره قوله تعالى : (ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) أى ثبتنا على الهداية فكم من عالم وقعت له شبهه ضعيفة فى خاطره فزاغ ونزل وانحرف عن الدين القويم والمنهج المستقيم .

وها هو ذا ابن أبى بكر بن عبد القاهر الرازى يعلق على آية : (اهدنا الصراط المستقيم) فيقول : معناه ثبتنا عليه ، وأدمنا على سلوكه خوفاً من سوء الخاتمة ، نعوذ بالله من ذلك . كما تقول العرب للواقف : قف حتى آتيك . معناه : دم على وقوفك واثبت عليه . أومعناه : طلب زيادة الهدى ،

كما قال الله تعالى : (والذين اهتدوا زادهم هدى) . وقال عز وجل : (ويزيد الله الذى اهتدوا هدى) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

ذلك الكتاب لا ريب فيه

السؤال :

كيف قال القرآن المجيد : (ذلك الكتاب لا ريب فيه) ، مع أن أهل الضلال قد ارتابوا فيه ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) ؟

الجواب :

الريب هو الشك والتهمة ، فكتاب الله تعالى لاشك فيه ولا ارتياب ، فهو حق فى ذاته ، وهو منزل من عند الله ، وصفة من صفاته . وإن وقع ريب للكفار . وقيل : هو خبر ومعناه النهى ، أى لا ترتابوا فيه .

وقد طعن بعض الملاحدة فى القرآن وفى قوله : (لاريب فيه) فقال : إن عنى أنه لاشك فيه عندنا ، فنحن قد نشك فيه ، وإن عنى أنه لاشك فيه ، فلا فائدة فيه . والجواب أن المراد أنه بلغ فى الوضوح إلى حيث لاينبغى لمرتاب أن يرتاب فيه ، والأمر كذلك ، لأن العرب مع بلوغهم فى الفصاحة إلى النهاية عجزوا عن معارضة أقصر سورة من القرآن ، وذلك يشهد بأنه بلغت هذه الحجة فى الظهور إلى حيث لايجوز للعاقل أن يرتاب فيه .

وقال ابن أبى بكر الرازى : المراد أنه ليس محلا للريب ، أو : معناه لاريب فيه عند الله ورسوله والمؤمنين ، أو هو نفى معناه النهى ، أى لا ترتابوا فيه أنه من عند الله تعالى ، ونظيره قوله تعالى : (وأن الساعة آتية لا ريب فيها) .

وفى تفسير المنار : ذلك الكتاب مبرأ من وصمات العيب فلاشك فيه ، ولاريبة تعتريه ، لامن جهة كونه من عند الله تعالى ، ولا فى كونه هادياً مرشداً ، ويصح أن يقال إنه فى قوة آياته ، ونصوع بيناته ، بحيث لا يرتاب عاقل منصف . غير متعنت ولا متعسف ، فى كونه هداية مفاضة من سماء مهتداة إلى الخلق ، على لسان أمى لم يسبق له قبله الاشتغال بشيء من علومه ، ولا الإتيان بكلام يقرب منه فى بلاغته ، ولا فى أسلوبه حتى بعد نبوته ؛ ولهذا قال فيما يأتى قريباً : (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) .

وحاصله : أنه كذلك فى كل من نظمه وأسلوبه وبلاغته ، ومن معانيه وعلومه وتأثيره فى الهداية — لا يمكن أن توجه إليه الشبهة ، أو تحوم حوله الريبة ، سواء أشك فى ذلك أحد بجهالته وعمى بصيرته ، أو بتكلفة ذلك عناداً أو تقليداً ، أم لا .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

وما رميت إذ رميت

السؤال :

لقد قال الله تعالى : (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) . فكيف نفى القتل عنهم ، وأثبته لله ؟ وكيف نفى الرمى عن النبى وأثبته لله تعالى ؟

الجواب :

يقول الله تعالى فى سورة الأنفال : (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما

رميت إذ رميت ولكن الله رمى . وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً إن الله سميع عليم) .

ويفسر ابن كثير ذلك بقوله : يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد ، وأنه المحمود على جميع ماصدر عنهم من خير . لأنه هو الذى وفقهم لذلك وأعانهم . ولهذا قال : فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم . أى ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم . فهو الذى أظهركم عليهم كما قال تعالى : (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) وقال تعالى : (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذا عجبتكم كثرتكم) .

وبهذا يعلم أن النصر ليس بكثرة العدد ولا بلبس السلاح والعدد . وإنما النصر من عند الله كما قال : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم أيضاً فى شأن القبضة من التراب التى حصبت بها النبى وجوه المشركين يوم بدر حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته فرماهم بها وقال : شاهت الوجوه . ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ماشغله عن حاله . ولهذا قال : وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى . أى هو الذى بلغ ذلك إليهم . قال : وكبتهم بها لا أنت . وعن ابن عباس : رفع رسول الله ﷺ يديه يوم بدر فقال : يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً . فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم . فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين.

وفى تفسير الجامع لأحكام القرآن : قوله تعالى : (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) أى يوم بدر . روى أن أصحاب رسول الله ﷺ لما صدروا عن بدر وذكر كل واحد منهم مافعل : قتلت كذا ، فعلت كذا . فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك . فنزلت الآية إعلاماً بأن الله تعالى هو المميت والمقدر لجميع الأشياء ، وأن العبد إنما يشارك بتكسبه وقصده . وهذه الآية ترد على من يقول بأن أفصال العباد خلق لهم . فقيل : المعنى فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم بسوقهم إليكم حتى أمكنكم منهم . وقيل : ولكن الله قتلهم بالملائكة الذين أمدكم بهم .

(وما رميت إذ رميت) مثله (ولكن الله رمى) واختلف العلماء فى هذا الرمى على أربعة أقوال ذكر منها قولا ، وهو أن هذا الرمى كان يوم بدر . وهو أصح الأقوال ، لأن السورة بدرية وذلك أن جبريل عليه السلام قال للنبى : خذ قبضة من التراب فأخذها ورمى بها وجوههم ، فما من المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة . وقال ثعلب : المعنى وما رميت الفزع والرعب فى قلوبهم ، إذ رميت بالحصباء فانهزموا ، ولكن الله رمى أى أعانك وأظفرك . والعرب تقول : رمى الله لك ، أى أعانك وأظفرك وصنع لك . وقال محمد بن زيد : وما رميت بقوتك إذ رميت ، ولكنك بقوة الله رميت .

ويتحدث « تفسير المنار » عن الآية الكريمة بتوسيع ملخصه فيما يلى :

(فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) كأنه يقول يا أيها المؤمنون لا تولوا لا تولوا ظهوركم فى القتال أبداً ، فأنتم أولى منهم بالثبات والصبر ثم ينصر الله تعالى ، فها أنتم أولاء قد انتصرتم عليهم مع كثرتهم واستعدادهم ، وإنما ذلك بتأييد الله تعالى لكم ، وربطه على قلوبكم وتثبيت أقدامكم ، فلم تقتلوهم ذلك

القتل الذريع بمحض قوتكم واستعدادكم المادى ، ولكن الله قتلهم بأيديكم بما كان من تثبيت قلوبكم بمخالطة الملائكة وملابستها لأرواحكم وبإلقاء الرعب فى قلوبهم . والمؤمن أجدر بالصبر الذى هو الركن الأعظم للنصر من الكافر .

ثم التفت القرآن عن خطاب المؤمنين إلى خطاب قائدهم وهو رسول الله ﷺ ، فقال له وما رميت إذ رميت أحداً من أولئك المشركين فى الوقت الذى رميت فيه تلك القبضة من التراب ، ولكن الله رمى وجوههم كلهم بما أوصل التراب الذى ألقيته فى الهواء مع قلته فقد كثره الله بمحض قدرته . وقد علم من هذا التفسير المتبادل من اللفظ بغير تكلف . وجه الفرق بين قتل المؤمنين الكفار الذى هو فعل من أفعالهم المقدورة لهم بحسب سنن الله فى الأسباب الدنيوية ، وبين رمى النبى ﷺ إياهم بالتراب الذى ليس بشكاية أعينهم ، لقلته وبعدهم عن راميه .

وأما رمى النبى ﷺ توجه القوم فإنه لم يكن سبباً عادياً لإصابتهم وهزيمتهم ، لا مشاهداً كضرب أصحابه لأعناق المشركين ، ولا غير مشاهد . والجمع بين نفيه و ثباته لا يوهم التناقض . للعلم بعدم السببية . ولولا تأييد الله تعالى ونصره لما وصل كسبهم المحض إلى هذا القتل . وأما الفصل بين فصله تعالى فى القتل وفعله فى الرمى . فالأول عبارة عن تسخيره تعالى لهم أسباب القتل ، كما هو الشأن فى جميع كسب البشر وأعمالهم الاختيارية من كونها لا تستقل فى حصول غاياتها إلا بفعل الله وتسخيره لهم وللأسباب التى لا يصل إليها كسبهم عادة . فالإنسان يحرث الأرض ويلقى فيها البذور ، ولكنه لا يملك إنزال المطر ولا إثبات الحب . ولا دفع الجوائح عنه ، ولا يستقل إيجاد الزرع وبلوغ ثمرته صلاحها ، بكسبه وحده . وأما الثانى : وهو ﷺ فى تأثيره ، فالرمى منه كان صورياً لتظهر الآية على يده ﷺ .

ويعلق القشيرى فى « لطائف الإشارات » على الآية الكريمة بقوله : الذى نفى عنهم من القتل هو إماتة الروح وإثبات الموت ، وهو من خصائص قدرته سبحانه ؛ والذى يوصف به الخلق من القتل هو ما يفعلونه فى أنفسهم ، ويحصل ذهاب الروح عقيبه .

وفائدة الآية قطع دعاواهم فى قول كل واحد على جهة التفاخر : قتلت فلاناً . فقال : (فلم تقتلوهم) أى لم تكن أفعالكم مما انفردتم بإيجادها ، بل المنشئ والمبدئ هو الله عز وجل . وصانهم بهذه الآية ، وصان نبيه ﷺ ، عن ملاحظة أفعالهم وأحوالهم .

وكذلك قال جل ذكره : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) : أى ما رميت بنفسك ، ولكنك رميت بنا ، فكان منه ﷺ قبض التراب وإرساله من يده ، ولكن من حيث الكسب ، وكسبه موجد من الله بقدرته ، وكان التبليغ والإصابة من جهة الله خلقاً له وإبداعاً ، وليس الذى أثبت ما نفى ، ولا نفى ما أثبت إلا هو ، والفعل فعل واحد ، ولكن التغاير فى جهة الفعل لا فى عينه .

فقوله : « إذ رميت » فرق ، وقوله : (ولكن الله رمى) جمع ، والفرق صفة العبودية ، والجمع نعت الربوبية ، وكل فرق لم يكن مضمناً بجمع ، وكل جمع لم يكن — فى صفة العبد — مؤيداً بفرق ، فصاحبه غير سديد الوتيرة .

ويتعرض الفخر الرازى لتفسير قوله تعالى : (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) فيقول فيما يقول : اختلفوا يوم بدر ، فقال هذا : أنا قتلت ، وقال الآخر : أنا قتلت ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، يعنى أن هذه الكسرة الكبيرة لم تحصل منكم ، وإنما حصلت

بمعونة الله . روى أنه لما طلعت قريش ، قال رسول الله ﷺ : هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها ، يكذبون رسولك ، اللهم إنى أسألك ما وعدتنى . فنزل جبريل وقال : خذ قبضة من تراب فارمهم بها . فلما التقى الجمعان قال لعلى : أعطنى قبضة من التراب ، من حصباء الوادى ، فرمى بها فى وجوههم وقال : شاهدت الوجوه . فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فانهزموا .

قال صاحب الكشاف : والفاء فى قوله : فلم تقتلوهم . جواب شرط محذوف تقديره : إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم .

ثم قال : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) يعنى أن القبضة من الحصباء التى رميتها فأنت ما رميتها فى الحقيقة ، لأن رميك لا يبلغ أثره إلا ما يبلغه رمى سائر البشر ، ولكن الله رماها بحيث نفذ أجزاء ذلك التراب ، وأوصلها إلى عيونهم . فصورة الرمية صدرت من الرسول ﷺ ، وأثرها إنما صدر من الله ، فلهذا المعنى صح فيه النفى والإثبات .

ويجيب ابن أبى بكر ابن عبد القادر الرازى عن قريب من هذا السؤال فيقول :

لما كان السبب الأقوى فى قتلهم إنما هو مدد الملائكة ، وإلقاء الرعب فى قلوبهم الكافرين ، وتثبيت قلوب المؤمنين وأقدامهم ، وذلك كله بفعل الله تعالى ، نفى الفعل عنهم . ونسبه إليه . يعنى : إن كان ذلك فى الصورة منكم ، فهو فى الحقيقة منى . فسبيلكم الشكر . دون العجب والفخر .

وكذلك الرمية أثبتها الرسول ﷺ لأن صورتها وجدت منه ، ونفاها عنه لأن أثرها الذى لا يوجد مثله عن رمى البشر فعل الله تعالى :

ونظير هذا قولك لمن يصدر عنه قول حسن أو فعل مكروه بتسليط من هو أعلى رتبة منه : هذا ليس قولك ولا فعلك .

وقيل : معنى قوله تعالى : (وما رميت إذ رميت) وما رميت الرعب فى قلوبهم إذ رميت الحصا فى وجوههم ، ولكن الله رمى الرعب فى قلوبهم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الإسلام أساسه التوحيد

السؤال :

كيف يكون مبدأ الإسلام أن يعبد الإنسان إلهاً واحداً ؟

الجواب :

أساس الإسلام وعماده هو الإيمان بإله واحد فرد ، ولذلك لا يدخل الإسلام إلا عن طريق شهادة التوحيد ، وهى لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وكان جهاد رسول الله ﷺ هى أن يجمع الناس على كلمة لا إله إلا الله ، والرسول يقول : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم » .

وجاء القرآن الكريم - وهو دستور الإسلام - مؤيداً ومؤكداً هذه الحقيقة ، فنزلت فيه سورة الإخلاص التى تقول : (قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد) .

ولما كان الإسلام عماده الصالحة ، أمر الله عباده أن يتلوا سورة الفاتحة فى كل ركعة من ركعاتها ، وفى سورة الفاتحة تأكيد للتوحيد ولعبادة الله وحده فهى تقول : (الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين) .

وقد قرر القرآن ذكر الله الواحد الذى لا يعبد المسلم غيره ، فجاء فى سورة البقرة : (الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض) .

والدعوة إلى عبادة الإله الواحد هى أساس دعوة كل نبى وكل رسول ، ولذلك يقول القرآن فى سورة الأنبياء : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) .

بل يسير القرآن المجيد إلى أن كل رسول يبعثه الله إلى الناس كان يبدأ بالدعوة إلى عبادة إله واحد . فنى سورة الأعراف : (لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) . وفى السورة نفسها : (وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون) .

وفى السورة نفسها (وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم) .

وفى السورة نفسها : (وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم) .

وفى السورة نفسها : (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون * قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

أدب الجنائز

السؤال :

ما هو الآداب التي ينبغي أن نتحلى بها عند الموت وفي الجنازة ؟

الجواب :

لعل أهم أدب يجب أن يتحلى به المسلم عند الجنازة هو أن يتذكر أنه سائر إلى الموت مهما طال الزمن . لقول القرآن : (كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) . فاللائق بالإنسان أن يتعظ ويعتبر ويتذكر ذلك المصير ، وإذا كان مصاب الإنسان في أهل بيته يعز عليه فقد أباح الإسلام البكاء دون صراخ أو نباح أو لطم أو ندب ، وقد روى أن رسول الله ﷺ بكى لموت ابنه إبراهيم ، وقال : « إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ، ولكنا لا نقول ما يغضب الرب ، وإنا من بعدك يا إبراهيم لمحزونون » .

وقد جاء الحديث القائل : « ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » .

وقد ذكر الفقهاء أنه يجوز للمرأة أن تحد على قريبها الميت ثلاثة أيام ، وتحد الزوجة على زوجها أربعة أشهر وعشراً . والحداد هو عدم التزين وعدم لبس الثياب الفاقعة الألوان .

ومن أدب الجنازة أن يكون تكفين الميت من أوسط ما كان يلبس في حياته بلا إسراف ، ويجوز المشي خلف النعش أو أمامه ، دون رفع صوت بذكر أو قراءة أو نشيد أو بردة كما يصنع العوام ، فكل ذلك بدعة ، ولا تتبع النساء الجنازة .

ومن آداب الإسلام أن القبر لا يرتفع عن الأرض أكثر من شبر .

والتعزية تكون خلال ثلاثة أيام . ومن البدع التى لم ترد فى الشريعة إقامة السرادقات وصف المقاعد ، وعمل الأخمسة وذكرى الأربعين والذكرى السنوية فكل هذه بدع .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

إحراق الميت

السؤال :

لماذا لا يحرق الميت فى الإسلام كما فى بعض الأديان ؟

الجواب :

من البدع المنكرة والملل الفاسدة أن أهل بعض الأديان يقومون بإحراق الميت بعد وفاته وسحق جثته وتذريتها فى الهواء أو فى مياه بعض الأنهار ، نزولا على معتقدات باطلة .

والإسلام يحرم هذا وينهى عنه ، لما فيه من إهانة للميت واستخفاف بأمره ، والإسلام كما كرم الإنسان فى حياته ، فقال القرآن الكريم فى سورة الإسراء : (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) .

كرم الإسلام الإنسان بعد وفاته ، فحرم أن يمس بإحراق أو تشويه أو إهانة .

المسلم إذا صعدت روحه إلى بارئها حاطه الإسلام بالرعاية والعناية ،

فأوجب على أهله أن يقوموا بغسله ، وأن يزيلوا عنه ما لعله علق به أو خرج من جوفه من أذى ونجاسة وعليهم بعد ذلك أن يكفنوه حتى لا يظل معرضاً للآفات أو الحشرات ، وأن يقوموا بالصلاة عليه والدعاء له وتشييعه إلى مقره الأخير ، وأن يقوموا بدفنه فى قبر يحميه ويصونه وأن يحفروا له حفراً عميقاً . حتى لا ينبش قبره ، ولا تنبعث منه رائحة كريهة مؤذية .

وهكذا حاط الإسلام الميت بعد وفاته بالتكريم والصيانة ، ولم يقبل أن يجعله عرضة للمثلة أو الإهانة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

اتجاه الميت إلى القبلة

السؤال :

لماذا يكون الميت مضطجعاً نحو القبلة عند دفنه ؟

الجواب :

التوجه إلى القبلة هو شأن المسلم فى صلاته وفى دعائه وفى غير ذلك من الأعمال الصالحة كقراءة القرآن الكريم ، والقراءة فى كتب التفسير والحديث ونحوها .

وقد ذكر العلماء أنه يسن توجيه الميت عند احتضاره نحو القبلة مضطجعاً على جنبه الأيمن ، ليلقى الله تعالى وهو متجه إلى القبلة ، وكأنه على عهده من الاتجاه إلى القبلة فى الصلاة .

وقد روى أبو قتادة — كما روى البيهقى والحاكم — أن رسول الله ﷺ

عندما وصل المدينة ، سأل عن البراء بن معرور رضي الله عنه،فقالوا : توفى وأوصى بثلث ماله لك ، ، وأن يوجه إلى القبلة إذا حضرته الوفاة .

فقال النبي ﷺ : أصاب الفطرة ، وقد رددت ثلث ماله على ولده .

ثم ذهب فصلى عليه وقال : اللهم اغفر له وارحمه ، وأدخله جنتك ، وقد فعلت ، أى استجبت الدعاء) .

قال الحاكم عندما رواه : لا أعلم فى توجيه المحتضر إلى القبلة غيره .

وروى أحمد فى المسند : أن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ عند موتها استقبلت القبلة ، ثم توسدت يمينها .

وهذه هى الصفة التى أمر النبي ﷺ أن ينام عليها النائم ، والتى يكون عليها الميت فى قبره عند دفنه .

وقد روى الشافعى أن المحتضر يستلقى على قفاه ، وقدماه إلى القبلة ، وترفع رأسه قليلا ، ليصير وجهه إليها ، والأول الذى ذهب إليه الجمهور أولى .

والسنة التى جرى عليها العلماء أن يجعل الميت فى قبره على جنبه الأيمن ووجهه تجاه القبلة ، ويقول واضعه : « باسم الله وعلى ملة الصادق رسول الله أو وعلى سنة رسول الله » ويحل أربطة الكفن .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

إنكار الذنب

السؤال :

ما حكم المسلم الذى ينفى ارتكابه للذنب مع أنه ارتكبه فعلا ؟

الجواب :

إن الله تبارك وتعالى يأمر بالصدق وينهى عن الكذب ، لأن الصدق فضيلة من فضائل الإسلام ، والكذب رذيلة من الرذائل القبيحة ، وإنكار الذنب لا يليق إلا إذا كان ذكره مؤدياً إلى الوقوع فى ذنب أكبر منه أو مثله ، أو كان شيئاً يستحى الإنسان من ذكره ، ولا يستطيع البوح به ، على أنه ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « فضوح الدنيا خير من فضوح الآخرة » فإذا تخلص الإنسان فى الدنيا من ذنبه كان ذلك أيسر عليه بكثير من عذاب الآخرة ، خاصة إذا عرفنا وتذكرنا أن الإنسان يستطيع أن يتخفى وينكر أمام الناس ولكنه لا يستطيع ذلك بين يدى الله جل جلاله ، ولو أنكر لأنطق الله حواسه بما فعل أو ارتكب ، والقرآن الكريم يقول فى ذلك فى سورة النور : (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) ويقول عز من قائل فى سورة فصلت : (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون * وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

ملائكة الرحمة

السؤال :

من هم ملائكة الرحمة ؟ وما هى الأعمال المكلفون بها ؟

الجواب :

خلق الله الملائكة ، وهم عدد كبير هائل ، لايحصيه إلا الله جل جلاله ، ومن الملائكة جنود الله الذين يسخرهم ربهم فيما أراد ، وهم عباد مكرمون لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ، ومن هؤلاء الجنود غلاظ شداد ، ومنهم خزنة النار ، ومنهم ملائكة الرحمة والنعيم والرضوان ، ومنهم خزنة الجنة بأقسامها وأبوابها ، والله جل جلاله يقول فى سورة الزمر : (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين * وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين) .

ومن ملائكة الرحمة الموكلون بالرزق والغيث والمطر والذين يؤازرون المؤمنين ويبشرونهم بالنصر والفتح .

والله تعالى يقول عن المحسنين : (أولئك لهم عقبى الدار * جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) ، وقد روى أحمد فى مسنده عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لايستطيع لها قضاء فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك وخيرتك

من خلقك ، أفتأمرنا أن تأتى هؤلاء فنسلم عليهم ؟ قال : إنهم كانوا عباداً يعبدوننى لايشركون بى شيئاً ، وتسد بهم الثغور وتتقى بهم المكارة ويموت أحدهم وحاجته فى صدره فلا يستطيع لها قضاء . قال ؛ فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب قائلين : (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الاعتذار إلى الغير

السؤال :

ما حكم الشخص الذى يسىء إلى شخص آخر وبدلا من أن يتأسف له لإرضائه يقول : إنى سأستغفر الله ؟

الجواب :

دعا أدب الإسلام إلى أن يكون الإنسان طيب العشرة ، حسن المعاملة مع الناس جميعاً ، فإذا بدرت منه بادرة وجب عليه أن يعتذر إلى من تطاول عليه أو أساء إليه قولا أو فعلا ، فهذا الاعتذار نصلح نفس المعتدى عليه ويخفف وقع الإساءة فى نفسه ، وإذا كان الرسول ﷺ قد قال : « إياك وما يعتذر منه » فقد أراد أن يحرص الإنسان على الاستقامة والمعاملة بالحسنى حتى لايقع منه قول أو عمل يسىء غيره ، وبذلك لايحتاج إلى الاعتذار لأنه لم يقع منه بالفعل أو القول شىء يستحق الاعتذار ، ولكن إذا وقع منه سوء كان واجباً عليه أن يعتذر عنه وأن يصلح مافى نفسك الغير منه ، وإذا كان الرسول قد قال : « لم يشكر الله من لم يشكر الناس » فإننا نستطيع أن

نقيس على ضوء هذا الهدى النبوى فنقول : من لم يعتذر إلى الناس فإنه لم يحسن الاعتذار إلى الله ولم يحسن الاستغفار إليه مما بدر منه .

وليس الاعتذار إلى الناس مغنياً عن الاستغفار إلى الله أو معارضاً له ، فالإنسان يجمع بين الحسنيين وهما : أن يعتذر إلى من أساء إليه وفى الوقت نفسه يستغفر إلى الله ويعتذر إليه مما فعل .

والمسلم عادة يكون حريصاً على حسن علاقته بغيره وخاصة إذا كان مثله مسلماً ، حتى تدوم العلاقة بين أبناء الإسلام على أساس الود والأخوة والمحبة والسلام العام ، والمسلم المثالى هو من كان بين الناس كالعافية ، إذا يسر الله أسبابها للناس حمدوه عليه وإذا غابت عنهم تشوقوا إليها وتطلبوا أسبابها . فعلى الأخ الذى أساء إلى شخص آخر أن يتأسف له وأن يرضيه وأن يزيل أسباب غضبه ويعطى العهد بألايعود إلى مثل هذه الإساءة ، ومع هذا يستغفر الله فيكون ذلك أرجى عند الله للرضا والقبول ، وهو الغفور الرحيم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الدين والملة

السؤال :

ما الفرق بين الملة والدين والشريعة ؟

الجواب :

فى تفسير الألوسى وكتاب حبيئة الأكوان لصديق خان وكتاب الإسلام ظهوره وانتشاره لحامد عبد القادر : الملة فى الأصل اسم من أمليت الكتاب ثم أطلقت على أصول الشرائع لأنها من إملاء الرسل وقد تطلق على الباطل ،

فقد قيل : الكفر كله ملة واحدة . ولا تضاف إلى الله ، ولا إلى الفرد من أفراد الأمة ، فلا يقال : ملة الله ، ولا ملة فلان .

وقيل : الملة هو ما يكون عليه المجتمع من تعاون بين أفراده .

والدين لغة : الجزاء أو الحساب ، أو الطاعة والانقياد ، والإيمان ، ويطلق على شرعة الله لعباده على ألسنة الرسل ، فالملة والدين على هذا المعنى متحدان .

وقد يطلق الدين على الفروع تجوزاً . ويضاف إلى الله ، وإلى الله ، وإلى الآحاد ، وإلى الطوائف ، كما فى قوله تعالى : (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر) ، وقد يطلق على الباطل كما فى قوله تعالى : (لكم دينكم ولى دين) .

والشريعة فى الأصل : المورد كالشرعة . ويطلق على الأحكام الجزئية المتعلقة بالمعاش والمعاد . وتستلزم شارعاً يصنعها إجمالا أو تفصيلا ، وقد تطلق على الأصول الكلية تجوزاً .

والنحلة فى الأصل : النية ، وتطلق على الدعوى ، وعلى مايدعيه الفرد لنفسه من المبادىء والآراء طبقاً لهواه وميوله .

ويقول صاحب المفردات : الملة كالدين ، وهو اسم لما شرعه الله تعالى لعباده على ألسنة الأنبياء ، ليتوصلوا به إلى جوار الله ، والفرق بينها وبين الدين أن الملة لاتضاف إلا إلى النبى عليه السلام التى تستند إليه ، نحو : اتبعوا ملة إبراهيم . واتبعت ملة آبائى . ولا تكاد توجد مضافة إلى الله ، ولا إلى آحاد أمة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا تستعمل إلا فى جملة الشرائع دون آحادها لا يقال ملة الله ، ولا ملتى وملة زيد كما يقال دين الله ودين زيد.

وأصل الملة من أمللت الكتاب ، قال تعالى : (فليملل الذى عليه الحق فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً ، أولا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل) .

وتقال الملة اعتباراً بالذى شرعه الله ، والدين اعتباراً بمن يطيعه ، إذ كان معناه الطاعة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

تعليم الرجل للمرأة

السؤال :

هل يجوز أن يقوم الرجل الأجنبي بتعليم المرأة أنواع العلم مثل القراءة والكتابة وأمور الدين ؟

الجواب :

نعم . يجوز للرجل أن يقوم بتعليم المرأة أمور الدين والقراءة والكتابة ونحوها إذا احتاج المجتمع إلى ذلك ، ولم توجد من النساء من تقوم بهذا التعليم ، فإن تعليم المرأة للمرأة أبعد عن الظن ، وكذلك يجوز للرجل أن يقوم بالتعليم للمرأة إذا كان هناك عدد كبير من النساء يتعلم من الرجل فى علانية وعدم انفراد يخشى منه التهمة أو الظن عند وجود الخلوة ، ومن الواضح أنه يجوز للرجل أن يعلم المرأة إذا كانت زوجته أو بنته أو من محارمة ، انفراداً أو اجتماعا ، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أن النساء كن يحضرن مجالس العلم وفى أطهر مكان وهو المسجد ، كما ثبت أنه لما أحس النساء المسلمات بأن الرجال سيتغلبون عليهن ، تقدمت إلى رسول الله يطلبن منه أن يجعل لهن

مجلساً خاصاً يعلمهن فيه ، فاستجاب الرسول لذلك وإن كان قد بقى الحق للنساء أن يحضرن مجالس العلم مع الرجال فى أدب ونظام ، فالرجال يجلسون فى ناحية والنساء يجلسن فى ناحية أخرى ، ومن هذا نعلم أن الإسلام لم يغلق الباب على تعليم المرأة ، ولم يحرمها حقها المشروع فى العلم والثقافة .

وإذا كان الرسول قد قال فى حديثه الصحيح : « طلب العلم فريضة على كل مسلم دون أن يقول و « مسلمة » فقد ذكر بعض العلماء أن كلمة مسلم هنا تشمل المسلمة ، وقال بعض آخر : إن الرسول قد صرح بفرض العلم على المسلمة لأن المسلم إذا تعلم شيئاً كان واجباً عليه أن ينقله إلى زوجته دون أن يحملها مشقة السعى إلى مجالس العلم إذا كان ذلك يشق عليها ، أو لم تتوافر فى بعض هذه المجالس الصيانة اللائقة بحرمة المرأة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الدليل على القيامة

السؤال :

ما هى الأدلة الواضحة الصريحة ليوم القيامة ؟

الجواب :

لقد خلق الله تعالى الناس فى هذه الدنيا لتكون مزرعة للآخرة ، ولذلك وصفت الدنيا بأنها دار إعداد وعمل ، والآخرة دار حساب وجزاء والعقل لايقبل أن يتساوى الصالح والطالح ، والمستقيم والمنحرف ، والطائع والمجرم فيعيشون حيوات مختلفة ، يظلم هذا ويبغى ذاك ويحرم ذلك ، ثم يتساوى الجميع فلا يكون هناك قصاص إلهى من الظالم للمظلوم ، ومن الباغى

للضعيف ، وكثير من الجرائم لا تضبطها عيون الناس ، ولا تنالها أيدى القانون ، فإذا فات الناس أن يحاسبوا على هذه الجرائم فالعقل ينفى أن يفلت المجرم من العقاب ومادام قد أفلت من أيدى الناس فليس من العدل فى شىء أن يفلت من يد العزيز القاهر أحكم الحاكمين وأعدل العادلين ، بل لابد من يوم تصحح فيه الأوضاع وتغربل الأعمال (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ولهذا قال القرآن فى سورة المؤمنون : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون) ؟

ولو رجعنا إلى القرآن الكريم لوجدناه يحدثنا عن يوم القيامة بأساليب مختلفة ليستقر فى صدورنا الإيمان بهذا اليوم الآخر الذى يقال فيه لمن الملك اليوم ؟ فيكون الجواب لله الواحد القهار . ويقول الله تعالى فى سورة التغابن : (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) وهذا هو القرآن فى سورة طه يحدثنا عن بدء الخليقة من الأرض للتكليف ، وعودتها إلى الأرض للاستعداد للبعث ثم إخراجها لتلقى الحساب يوم القيامة فيقول (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) . وهاهو ذا فى سورة يس يقيم أمام أبصارنا وبصائرنا الدلائل والشواهد على قدرته على البعث وإحياء الناس ليوم القيامة فيقول (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحيها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون * أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون) .

وإليه تبارك وتعالى أعلم .

أعداء الإسلام

السؤال :

ما هى الدول التى تشكل عداوة للاسلام ؟ وما هى الشعوب التى تناضل من أجل الإسلام؟

الجواب :

نستطيع أن نقول إن هناك بعض الأعداء المناهضين للاسلام سراً أوجهراً وفى طليعة هؤلاء الشيوعية الملحدة ، والصليبية الحاقدة والصهيونية الوافدة فهذه الجهات الثلاث تصور عداوة للاسلام ظاهرة وخافية ولكل منها أسلوبه وطريقته ، وقد لاقى المسلمون من ويال هؤلاء الأعداء الأمرين وذاقوا الويل على أيديها ألوناً وأصنافاً والحديث التفصيلى فى ذلك يطول حتى لايتسع له المقام .

وأما الشعوب التى تناهض وتناضل وتكافح من أجل الإسلام فهى الشعوب الإسلامية فى البلاد العربية أو ماحولها ولا نستطيع أن نثبت نسبة محددة معنية لنضال هذه الشعوب ، والله المسئول أن يبارك فى نضالها ويشد من أزرها ، ويجعل الغلبة لها بحقها وعدلها ، حتى يجتمع أبناء الإسلام على كلمة واحدة لنصرة الإسلام وإعزاز شأنه ، والله يقول : (إنما المؤمنون إخوة) ، ويقول : (وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

بناء الكعبة

السؤال :

متى تم بناء الكعبة المكرمة ؟

الجواب :

جاء فى كتب التفسير عن قوله تعالى : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) . أن الكعبة بنتها قريش بعد إبراهيم عليه السلام بمدة طويلة وقبل مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين ، وقد نقل معهم فى الحجارة وله من العمر خمس وثلاثون سنة ، وجاء فى كتب السيرة أن رسول الله لما بلغ خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبناء الكعبة ، وكانوا يهمون بذلك ليسقفوها ويخافون هدمها فلما أجمعوا أمرهم على هدمها وبنائها قام أحدهم وهو أبو وهب خال والد النبى ﷺ فتناول من الكعبة حجراً فرجع الحجر من يده إلى موضعه ، فقال أبو وهب يامعشر قريش لاتدخلوا فى بنيانها من كسبكم إلا طيباً ، لا يدخل فيها مهر بغى ، ولا بيع ربا ، ولامظلمة أحد من الناس . وتجزأت قريش الكعبة ، ليكون لكل قبيلة منها شق . ثم إن الناس هابوا هدمها فقال الوليد ابن المغيرة أنا بدؤكم فى هدمها ، فأخذ المعول وقام عليها وهو يقول على طريقتهم اللهم لم تورع ،اللهم إنا لا نريد إلا الخير ، كلمة اللهم لم تورع كلمة يقال عند تسكين الروع والتأنيس وإظهار اللين والبر فى القول ، وهى كلمة تقتضى إظهار قصد البر فلما هدم الوليد ماهدم تربص الناس تلك الليلة وقالوا ننظر فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً ، ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شىء فقد رضى الله ماصنعنا ، فأصبح الوليد سالماً فهدم وهدم الناس ، حتى إنتهى الهدم إلى أساس إبراهيم عليه السلام وأخذوا فى البناء حتى بلغ موضع

الحجر الأسود فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى واستعدوا للقتال من أجل ذلك فقال لهم بعضهم اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد فكان أول داخل رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا هذا الأمين رضينا ، فوضع الحجر على ثوب ثم أمر كل قبيلة أن ترفعه من طرف حتى إذا بلغوا به موضعه أخذه بيده الشريفة ووضعه فى مكانه صلوات الله وسلامه عليه .

ثم احترقت الكعبة فى عهد عبد الله بن الزبير بعد سنة ستين فنقضها ابن الزبير إلى الأرض وبناها على قواعد إبراهيم عليه السلام .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

حكم الإسراف

السؤال :

ما حكم الإسراف فى نظر الإسلام ؟ وما الدليل على ذلك من القرآن والسنة ؟

الجواب :

الإسراف هو مجاوزة الاعتدال وتعدى الحد ، ومجاوزة القصد والاعتدال وهو أمر مكروه فى الإسلام ، وقد دل القرآن والسنة على ذلك ، فقال تعالى فى سورة الأعراف : (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين) ، وجاء فى سورة الفرقان فى وصف عباد الرحمن : (والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) ، وجاء فى سورة الأنعام : (كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لايحب

المسرفين) ، وقال فى سورة الإسراء : (ولاتبذر تبذيراً * إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا)، وقال فيها: (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) .

ويقول الرسول ﷺ : « أوصيكم بالقصد فى الغنى والفقر » وقال : « الاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة » قال أيضاً : « ماعال من اقتصد » .

وقد ثبت أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يدخر قوت سنة .

والله تبارك وتعالى أعلم (١) .

• • •

السن المخلوعة

السؤال :

عندنا عادة جرى عليها الناس ، وهى أنه إذا خلع إنسان إحدى أسنانه اتجه بها نحو الشمس ورمى السنة وقال : « يا شمس الشموسه ، خذى سنتى وهاتى سنا أحسن منها » فما حكم ذلك فى الإسلام؟

الجواب :

الإسلام دين العقل ، وهو يحارب الأوهام والخرافات . ومبادئه تعلمنا أن الله تعالى هو المتصرف الوحيد فى الكون ، ولذلك يقول القرآن فى سورة آل عمران : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير) ويقول فى سورة الملك : (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير).

---

(١) فى المجلد الخامس من كتابى « يسألونك فى الدين والحياة » بحث واسع عن الإسراف ، انظر من صفحة ٣٠٥ إلى صفحة ٣٥١ .

والله جل جلاله هو الذى يخلق الأسنان وغيرها ، ولا يخلق غيره شيئاً ، ولو اعتقد الإنسان أن الشمس هى التى تخلق لكان ذلك كفراً ، فلا يوجد أحد يخلق غير الله ، ولذلك لايليق بعاقل أن يفعل ماجاء فى السؤال متعللا بأنه عادة سارية ، وينبغى الإقلاع عن ذلك وتسليم الأمور كلها لله . ولاشك أن هناك جناية ممتدة من الكبار نحو الأطفال والصغار ، لأن المتقدمين فى السن يعلمون الأولاد مثل هذه الأوهام ، فيشبون عليها ، ومن شب على شىء شاب عليه ومن شاب على شىء مات عليه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

دعاء للرفاعى

السؤال :

قرأت فى بعض الكتب دعاء للامام الرفاعى يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من علم لاينفع ، وعمل لايرفع ، وقلب لايخشع ، ودعاء لايسمع » فما معناه ؟

الجواب :

هذا الدعاء من حزب « الوسيلة » للامام الرفاعى ، وهو فى كتاب « السير والمساعى فى أحزاب الرفاعى » طبع الكويت ، وقد جاء فى الكتاب أن هذا الحزب يقرأ فى جوف الليل ، وقد روى أنه تلقاه عن رسول الله ﷺ ، قيل ولذلك تكثر فيه النصوص النبوية والدعوات المحمدية الواردة فى الأحاديث .

وأول الدعاء « اللهم إنى أعوذ بك من علم لاينفع » ومعنى الاستعاذة : الإلتجاء إلى الله ، والتحصن بحوله وقوته وقدرته للحفظ والصيانة ، والقرآن

الكريم يعلمنا أن نستعيذ بالله سبحانه ، فجاء فى القرآن : (قل أعوذ برب الفلق) وجاء فيه أيضاً : (قل أعوذ برب الناس) وجاء فى القرآن : (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) .

وهناك علوم كثيرة لاتنفع مثل علم السحر والتنجيم والفلسفة المنحرفة ، وعلوم التخريب والتدمير ، ولا شك أن علوم القرآن فى طليعة ماينفع الإنسان ولذلك قال الإمام على : « من فقه القرآن عرف به كليات العلوم » .

« وعمل لايرفع » ولكى يرفع العمل لابد فيه من صلاح وإخلاص ، والقرآن يقول : (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) . وهناك أسباب تعوق العمل عن رفعه إلى مقام الرضا والقبول ، وأخطرها الرياء والنفاق .

« وقلب لايخشع » وقد ذكرت مادة الخشوع خمس عشرة مرة فى القرآن الكريم ، وهذا يدل على مكانة الخشوع . والخشوع هيئة فى النفس بسببها يظهر السكون والتواضع على الإنسان . وموضع الخشوع الأساسى هو القلب . ولذلك يقول الإمام الجنيد : « الخشوع تذلل فى القلوب لعلام الغيوب » . ولقد رأى النبي ﷺ رجلا يعبث بلحيته وهو يصلى فقال عليه الصلاة والسلام : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » .

« ودعاء لايسمع » أى لايستجاب ، لأن سماع الدعاء معلوم لله على أى حال وإنما يستجاب دعاء الإنسان إذا كان مستقيماً مخلصاً موصول الأسباب قيوم السموات والأرض ، ولذلك يقول القرآن الكريم : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

الدورة الشهرية

السؤال :

إذا انتهت الدورة الشهرية للمرأة فهل يجب عليها غسل ثيابها مع جسمها ؟

الجواب :

الواجب على المرأة إذا انتهت من حالة الدورة الشهرية أن تغتسل ، أى تستحم ، تغسل كل جسمها ورأسها ، وإذا كان شىء من ملابسها قد أصابه شىء من آثار الدورة الشهرية كدم أو نحوه ، فيجب غسل هذه الملابس لأنها قد أصابتها نجاسة يلزم تطهيرها .

وإذا كان هناك جزء من الثياب الخارجية لم تصبه أى نجاسة أو ملامسة للنجاسة فإنه لايجب غسل هذا الجزء ، وذلك مثل المعطف أو الملابس الخارجية الأخرى التى لاتمس جسم المرأة ، ولا تنالها نجاسة ، وإذا علمت الفتاة أن ثيابها نالتها نجاسة ، ولكنها لا تعرف بالضبط موطن هذه النجاسة وجب عليها غسل جميع الثوب ، خضوعاً لقاعدة مالايتم الواجب إلا به فهو واجب .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الأذان وإذاعة القرآن

السؤال :

شخص يتعمد إيذاء الناس بصوته وهو يردد الأذان فما حكمه؟

الجواب :

المقصود من الأذان هو الإعلام بأوقات الصلاة توطئة لأدائها ، وهو مظهر من مظاهر الإسلام التي لايجوز تعطيلها ، وفى حديث رسول الله ﷺ أنه قال : « ما من ثلاثة لايؤذنون ولاتقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان » .

وينبغي أن نلاحظ أن الأذان لايستغرق وقتاً طويلا فهو يأخذ نحو ثلاث أو أربع دقائق ، والأصل فى الأذان أن يكون بصوت الإنسان لا بمكبر من المكبرات . ولا ينبغى للمسلم أن يتعمد إيذاء الناس بصوته ، لأن الحديث يقول : « لاضرر ولا ضرار » ، ولعل التبرير للإيذاء بأنه يؤذن ، والأذان شعيرة من شعائر الإسلام ، فلعل المسلم يتذكر أنه ينبغى له ألا يتخذه وسيلة لإزعاج الناس من غير حاجة ، وقاسوا ذلك على أنه ينبغى للمسلم أن يحسن اختيار الأماكن والأزمنة التى يستجاب فيها لتلاوة القرآن الكريم ، فليس مما ينبغى أن يأتى القارئ إلى وسط السوق الصاخب ويجلس فيه لقراءة القرآن ، وهو يعلم أنه ليس هناك استعداد لسماع التلاوة .

والله تبارك وتعالى أعلم ،

* * *

فصل الإصبعين الملتصقتين

السؤال :

هناك فتاة لها إصبعان ملتصقتان ، فهل يحرم عليها أن تفصلهما ؟

الجواب :

إن الله تبارك وتعالى قد خلق الإنسان فى الحياة ليسعى فيها ويسعد ، لاليشقى فيها ويتألم ، ومما جاء فى القرآن الكريم قوله لآدم أبى البشر : (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ۝ وأنك لاتظمأ فيها ولا تضحى) ويقول أيضاً : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) .

والدين يدعو إلى تعاطى الدواء والعلاج إذا كانت هناك مصلحة للإنسان فى ذلك ، والضرورات تبيح المحظورات . فإذا كاد التصاق الإصبعين يعطل الإنسان عن العمل ، أو أداء الواجب ، أو يحدث تشويهاً يضيق به صاحبه ، فلا مانع من فصل الإصبعين ، متى أقر ذلك الطبيب المؤمن الحازق .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

مناسبة عاشوراء

السؤال :

ما المناسبة الدينية فى يوم عاشوراء ؟ وما الصلة بين عاشوراء الآن والمناسبة الدينية ؟

الجواب :

عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر المحرم ، وفيه يتذكر المسلمون ذكرى استشهاد الحسين بن على رضى الله عنهما . وهى ذكرى جهاد واستشهاد ، والذكرى تنفع المؤمنين .

وقد روى أن رسول الله ﷺ حينما هاجر من مكة إلى المدينة وجد اليهود يصومون فى يوم عاشوراء ، لأنه اليوم الذى نجى الله فيه موسى عليه السلام ، فقال النبى ﷺ ، « نحن أحق بموسى من القوم » . وصامه . فصار من السنة صوم ذلك اليوم ، وقال ﷺ : « لئن عشت إلى قابل لأصومن تاسوعاء مع عاشوراء » .

وما تعود الناس على ما يعملونه يوم عاشوراء من صنع طعام أو حلوى ، مجرد عادة ، لعلها نشأت من محبة الناس التوسعة على أهليهم بهذا الطعام .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

المسح والتيمم بسبب المرض

السؤال :

هناك سيدة عمرها فوق الخمسين ، ورجلاها يؤلمانها ويتورمان ، فهل يجوز لها المسح على الجورب ؟ وفي بعض الأحيان ترتعد من الماء وتتأذى به ، فهل يجوز لها التيمم ؟

الجواب :

الدين يسر لا عسر : (ما جعل عليكم في الدين من حرج) وأيضاً : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) والرسول ﷺ يقول : « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا » .

وهذه السيدة المسئول عنها مريضة ، والقرآن الكريم يقرر أن (ليس على المريض حرج) .

ولذلك يجوز لها أن تمسح على الجورب المتماسك على الرجل ، بشرط أن تلبسه على طهارة ، وذلك المسح لمدة يوم وليلة .

وما دامت هذه المرأة تتأذى من استعمال الماء فلا مانع شرعاً أن تتيمم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

معنى السنة

السؤال :

ما المراد بالسنة فى الفقه الإسلامى ؟

الجواب :

السنة فى اللغة معناها الطريقة ، ومن ذلك قول النبي ﷺ : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

والسنة فى الدين هى السنة النبوية المطهرة ، ويراد بها كل ما أمر به النبي ﷺ ، أو نهى عنه ، أو ندب إليه قولا أو فعلا ، أو أقره . ولذلك يقال : « السنة » هى أقوال النبي وأفعاله وتقريراته .

وقد يطلق لفظ « السنة » على ما قابل البدعة ، وقد يطلق لفظ « السنة » على ما يقابل الغرض والمناخ .

والسنة بيان للقرآن الكريم ، وشرح لأحكامه وأصوله وقواعده ، وتمام لتشريعه ، لأنه ما دامت السنة قد ثبتت عن رسول الله ﷺ فهى شريعة واجبة الاتباع والالتزام :

(وما ينطق عن الهوى ● إن هو إلا وحى يوحى) .

وقد تكون السنة بوحى ظاهر عن طريق جبريل سفير الرحمن عليه السلام ، وهذا هو الأعم الغالب . وقد تكون بطريق الإلهام والقذف فى القلب ، كما فى الحديث : « إن روح القدس نفث فى روعى ، لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » . وبعض السنة يكون بالاجتهاد على حسب ما علم النبي مما علمه الله عز وجل .

والسنة هي الأصل الثاني من أصول الدين ومصادر التشريع ، ولها أهداف منها تبيين الفرائض كالصلاة والحج ، وبيان المقادير كالزكاة والصوم ، وقد تأتى بتشريع لم ينص عليه فى القرآن ، وإن كانت لا تعارضه ، كقوله ﷺ : «لا يجمع بين المرأة وعمتها ، ولا بين المرأة وخالتها» .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

التيمم

السؤال :

لماذا شرع الله التيمم ؟ وما كيفيته ؟

الجواب :

شرع الله التيمم تخفيفاً على المسلمين إذا فقدوا الماء ، أو لم يستطيعوا استعماله ، أو احتاجوا إليه . والقرآن الكريم يقول فى سورة النساء :

(وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً) .

والتيمم هو أن يضرب الإنسان بيديه على تراب طاهر ، أو شيء غير التراب طاهر ، ثم ينفضهما أو ينفخ فيهما ، ثم يمسح بيديه وجهه وكفيه إلى الرسغين ، ويكون ذلك بضربة واحدة ، فإن الحديث النبوى الصحيح قد دل على ذلك كما ذكر الرواة .

والتيمم يبيح الصلاة ، ومس المصحف ، وهو يقوم مقام الوضوء .

وينقض التيمم كل ما ينقض الوضوء ، وكذلك وجود الماء مع القدرة على استعماله .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

معنى قوله تعالى : (هن لباس لكم)

السؤال :

ما معنى قول الله تبارك وتعالى فى آية الصيام : (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) ؟

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة البقرة : (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم . فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام إلى الليل ، ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ، تلك حدود الله فلا تقربوها ، كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون) .

وقوله تعالى : (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) كناية عن المخالطة والمعاشرة التى تكون بين الزوجين . أى : هن سكن لكم وأنتم سكن لهن ، وكذلك كل واحد من الطرفين ستر للآخر وإحصان له . وهذا كناية عن المعاشرة الزوجية . ولذلك أباح القرآن الكريم هذه المعاشرة الجنسية بين الزوجين فى ليالى رمضان بعد أن كان الناس يتخوفون من ذلك . ويظنون أن من سبقوهم فى العصور الماضية كانوا يتمنعون عن ذلك فأباحه القرآن والله بعباده رءوف رحيم . وما جعل عليكم فى الدين من حرج .

ويذكر ابن كثير فى تفسيره أن هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين ، ورفع لما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام ، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء ، أو ينام قبل ذلك ، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة ، والرفث هنا هو الجماع ، وهن لباس لكم وأنتم لباس لهن يعنى هن سكن لكم وأنتم سكن لهن أو هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن .

وذكر التفسير أنه لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء فى رمضان كله ، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله قوله : (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم) ثم قال (فالآن باشروهن) أى جامعوهن ، وابتغوا ما كتب الله لكم من الولد والذرية ، وأمرهم أن يأكلوا ويشربوا حتى يتبين ضياء الصباح من سواد الليل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

التبرك بالقرآن

السؤال :

هل يجوز وضع القرآن الكريم على سبيل التبرك تحت المخدة ، أو فى السيارة ؟

وهل يجوز تعليق حجاب منه على صدر الإنسان ؟

الجواب :

أنزل الله تبارك وتعالى كتابه المجيد ليكون نوراً مبيناً يهدى الناس إلى سواء السبيل ، ويعرفهم طريق السعادة فى الدنيا ، والنعيم المقيم فى الآخرة

ولذلك يقول الحق جل جلاله فى سورة الإسراء : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً) ويقول فى فاتحة سورة الكهف : (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ۞ قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ۞ ماكثين فيه أبداً) .

ولم يكن الغرض من إنزال القرآن الكريم أن يقتصر الناس فى أمره على اتخاذه أحجبة وتمائم ، دون عمل بما فيه ، أو دون التزام لأوامره أو انتهاء عن نواهيه .

وليست رسالة القرآن الأساسية أن يقتصر الناس على اتخاذه لوحات تعلق فى المنازل والمكاتب ، ولا تمائم تعلق فى الرقاب وعلى الصدور ، ولا تعويذة توضع تحت الوسادة لتطرد الشيطان أو تحقيق الاطمئنان،أو توضع فى السيارة لحفظها وصيانتها . إنما رسالة القرآن أن يكون عقيدة وشريعة ، أو يكون قائداً للحياة ورائداً للأحياء ، وأن يكون دستوراً يهتدى به كل مؤمن فى مجالات الحياة ، ليستقيم على الصراط المستقيم وهذا بعض ما نفهمه من قول الله جل جلاله : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) . وهذا لا يتعارض مع ما ورد فى كتب السنة الصحيحة من مشروعية الرقية بتلاوة القرآن المجيد ، وقد فسر ذلك بعض العلماء بأنه لون من ألوان الدعاء الذى يستجيبه الله بفضله ، حينما يتوافر فيه إخلاص التوجه إلى الله عز وجل على أنه لا مانع من أن يحمل الإنسان المصحف ، أو جزءاً منه ، أو يعلق شيئاً من القرآن الكريم أمامه أو يضعه معه على المكتب أو فى السيارة ، إذا كان المراد

من ذلك هو أن يتذكر المسلم آيات القرآن أو يطالع فيها ، أو يستحضر معانيها ليعمل بمقتضاها ، فيكون ذلك باباً إلى رضا الله تبارك وتعالى ورضوانه .

ومما ينبغي تذكره أن القرآن الكريم تلزم صيانته وحفظه عن مواطن الإهانة والتحقير والنجاسة ، فلا نعرضه لما لا يليق بحرمته أو مكانته .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الشهيد

السؤال :

من الشهيد؟ ولم سمي شهيداً؟ وأين ورد في آيات القرآن؟

الجواب :

الشهيد هو المقتول في سبيل الله تعالى . وقد اختلفوا في سبب تسميته شهيداً ، فقال النضر بن شميل – كما في تهذيب الأسماء واللغات للنووي – : إنه سمي بذلك لأنه حي ، فإن أرواح الشهداء شهدت وحضرت دار السلام ، وأرواح غيرهم إنما تشهدها يوم القيامة .

وقال ابن الأنباري : سمي شهيداً لأن الله تعالى وملائكته عليهم السلام يشهد للشهداء بالجنة . وقيل : لأن الشهيد عند خروج روحه يشهد ما أعد الله تعالى له من الثواب والكرامة .

وقيل : لأن ملائكة الرحمة يشهدونه فيأخذون روحه . وقيل : لأنه شهد له بالإيمان وخاتمة الخير بظاهر حاله . وقيل : لأن عليه شاهداً شهد بكونه شهيداً . وهو الدم ، فإنه يبعث يوم القيامة وأوداجه يشخب دماً .

وحكى الأزهرى وغيره قولا آخر أنه سمى شيهداً ، لأنه ممن يشهد على الأمم يوم القيامة . وعلى هذا القول لا اختصاص له بهذا السبب .

واعلم أن الشهيد ثلاثة أقسام : أحدها المقتول فى حرب الكفار بسبب من أسباب قتالهم ، فهذا له حكم الشهداء فى ثواب الآخرة ، وفى أحكام الدنيا ، وهو أنه لا يغسل ولا يصلى عليه .

الثانى : شهيد فى الثواب دون أحكام الدنيا ، وهو المبطون والمطعون وصاحب الهدم والغريق . والمرأة التى تموت فى نفاسها ، والمقتول دون ماله وغيرهم ممن وردت الأحاديث بتسميته شهيداً ، فهذا يغسل ويصلى عليه وله ثواب الشهداء ، ولا يلزم أن يكون ثوابهم مثل ثواب الأول .

الثالث : من غل [اختلس] فى الغنيمة وشبهه ، ممن وردت الآثار بنفى تسميته شهيداً إذا قتل فى حرب الكفار . فهذا له حكم الشهداء فى الدنيا ، فلا يغسل ولا يصلى عليه ، وليس له ثوابهم الكامل فى الدار الآخرة .

وقد ورد ذكر الشهداء فى القرآن فى قوله تعالى فى سورة آل عمران : (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا منكم ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين) . وفى سورة النساء : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) . وفى سورة الحديد : (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

لبس السواد عند المصيبة

السؤال :

ما حكم لبس السواد عند الموت أو الوفاة ؟

الجواب :

لبس السواد عند حدوث المصائب أو وقوع الموت بدعة سيئة لا أصل لها فى الدين وكل بدعة ضلالة . وقد اتخذ الناس هذه العادة المبتدعة إظهاراً للحزن وإشعاراً بالمصيبة .

والسنة هى لبس الثياب البيض فى كل الأحوال – فرحاً أو ترحاً – فإن حديث النبي ﷺ يقول : « البسوا من ثيابكم البيض ، فإنها من خير ثيابكم ، وكفنوا فيها موتاكم » .

وقد جاء حديث آخر يقول : « البسوا البياض ، فإنه أطهر وأطيب وكفنوا فيه موتاكم » .

ويقاس على لبس السواد تعليق شارة سوداء على صدر الإنسان أو تعليق ربطة عنق سوداء حول الرقبة ، لأن هذا كله ابتداع لا أصل له من الدين ، وخير ما يفعله الإنسان عند نزول المصيبة أن يتحلى بالصبر والحكمة ، وأن يرضى بقضاء الله وقدره ، وأن يتذكر قول ربه عز من قائل : (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين • الذى إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون • أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) وينبغى أن نعلم أن الحد لا يجوز أكثر من ثلاثة أيام ، إلا ما يكون من حداد زوجة على زوجها ، فإن مدة حدادها أربعة أشهر وعشرة أيام .

والله تبارك وتعالى أعلم .

الحلف الكاذب

السؤال :

ما رأى الدين إذا حلف الإنسان كذباً على أمر من الأمور وهو يعلم أنه كاذب ؟

الجواب :

إذا حلف الإنسان كاذباً ، وهو يعلم أنه كاذب فى يمينه ، فقد ارتكب أمراً محرماً يعد من الكبائر ، أى من الذنوب الكبيرة والمعاصى الشنيعة ، ولذلك جاء فى السنة المطهرة أن مثل هذا الحلف الفاجر يسمى «اليمين الغموس» لأنها تغمس صاحبها فى الإثم وفى النار ، ومثل هذا الحلف تلزم فيه التوبة الصادقة النصوح ، رجاء لعفو الله ومغفرته .

واليمين إذا وقعت لها كفارة هى على الترتيب : تحرير رقبة مؤمنة ، أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم بما يستر عامة البدن ، فإن عجز عن هذين الأمرين صام ثلاثة أيام متتابعة ، وإلى هذا يشير الله تبارك وتعالى فى سورة المائدة بقوله : (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ، واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

زيارة القبور

السؤال :

ما الحكم في زيارة القبور ؟

الجواب :

الحكمة الدينية من زيارة القبور هى أنها كما أخبرنا رسول الله ﷺ بأنها تذكرنا بالموت ، وبأن الدنيا زائلة مهما امتد أجل البقاء فيها ، وأن الجميع سيلقون هذا المصير ، فالله تعالى يقول : (كل من عليها فان • ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) .

ويقول : (كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) ويقول : (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) .

فإذا لم يكن الأساس فى زيارة القبور هو هذه الحكمة ، فقد ابتدعت الزيارة عن هدى الدين وأدب الإسلام .

ولا يليق بزائر القبر أن يأتى بدعة من البدع ، أو يرتكب أمراً منكراً ، فليس من السنة فى هذه الزيارة الصراخ أو النواح أو الندب أو اللطم أو التفاخر أو غير ذلك من المنكرات .

ويقرر بعض العلماء أن المرأة لا يباح لها زيارة القبور ، لما فى ذلك من تعرض للاختلاط والفتنة وارتكاب البدع ، وقد روى أن رسول الله ﷺ رأى نسوة يزرن القبور فقال لهن : « ارجعن مأزورات غير مأجورات » أى ارجعن وأنتن مذنبات وليس لكن على تلك الزيارة ثواب . ولكن لو التزمت المرأة بكل أوامر الدين وآدابه ، وزارت القبر محتشمة دون تعرض لبدعة أو

محرم لجازت لها هذه الزيارة فقد روى عن أم المؤمنين السيدة عائشة — كما جاء في المجلد الأول من كتابي « يسألونك في الدين والحياة »[1] — أنها أقبلت ذات يوم من زيارة المقابر فقيل لها : يا أم المؤمنين من أين أقبلت ؟ قالت من قبر أخي عبد الرحمن فقيل لها أليس كان نهى رسول الله ﷺ عن زيارة القبور ؟ قالت : نعم كان نهى عن زيارة القبور ثم أمر بزيارتها ، وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ مر على امرأة وهي تبكي عند قبر ابنها ، وتقول ما كرهه منها ، فقال لها : « اتق الله واصبري » ولم ينكر عليها زيارة القبر .

والله تبارك وتعالى أعلم

* * *

حكم التنجيم

السؤال :

سألت امرأة رجلا منجماً عن السبب في عدم زواجها ، فقال لها : « إنها معمول لها عمل ويلزم فكه في المقابر » فهل هذا صحيح ؟

الجواب :

حرم الدين هذه الوسائل التي يتخذها المفترون وسيلة لادعاء الغيب ، سواء في ذلك حساب النجوم ، أو خط الرمل ، أو الضرب بالحصى ، أو قراءة الكف ، أو قراءة الفنجان ، أو معرفة الأثر في الثياب ، أو غير ذلك من الترهات التي يخترقها الدجالون ، ويحتالون بها على الجهلاء والأغرار .

ومن المأثور عن الإمام على رضى الله عنه وكرم الله وجهه أنه قال :

---

(١) المجلد الأول من كتابي : « يسألونك في الدين والحياة » ، ص ٤٢٧ .

« إياكم وتعلم النجوم ، إلا ما يهتدى به فى بر أو بحر ، فإنها تدعو إلى الكهانة ، والمنجم كالكاهن ، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر فى النار » .

ويقول بعض الأئمة : إن الالتجاء إلى هذه الوسائل لمعرفة المستقبل من الأقدار مفسد للعقول وضار بالمصالح ، إذ يعتقد من سمع أقوالهم أنهم قد اطلعوا على ما حجب عنه ، فيقدم أو يحجم ، ويفرح أو يحزن ، ويعيش فى تصرفاته وراء أوهام وخيالات ، وقد يكون الخير فيما ظنه شراً ، وقد يكون الشر فيما ظنه خيراً ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، والقرآن الكريم يقول : (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

فالواجب على هذه المرأة ألا تلقى بالا إلى كلام هذا الخداع الأثيم ، وأن تعود إلى ربها مؤمنة بأنه النافع الضار ، وأن الأمر منه وإليه من قبل ومن بعد وهو الفعال لما يشاء .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

نشر البخت فى الصحف

السؤال :

ما رأى الإسلام فيما تعودته بعض الصحف من نشر أخبار عن البخت والحظ ؟

الجواب :

إن عادة بعض الصحف فى نشر البخت والحظ بدعة من البدع التى يراد بها تضليل الناس فى عقائدهم ، أو الضحك عليهم والسخرية بعقولهم ، وإن إصرار بعض الصحف على نشر هذا البخت فيه نوع من الاستخفاف بعقول

القراء ، وفيه تضليل لهم ، وصرف لعقولهم عن فهم السنن الكونية والأوامر الإلهية التي جاء بها الدين .

والله تبارك وتعالى يقول فى سورة الأنعام : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) كما أن القرآن يعلمنا أن الله وحده هو مالك شئون العباد ، وهو المتصرف فى حاضرهم ومستقبلهم ، فالله يقول فى سورة آل عمران :

(قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير * تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب) . ويقول تعالى فى سورة لقمان : (وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) . فادعاء الغيب والإحاطة بما فيه أو التنبؤ بالمستقبل تطاول فاحش على مقام الله جل جلاله .

وقد قال رسول الله ﷺ فى حديثه الشريف : « من أتى عرافاً فسأله عن شىء فصدقه ، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً » والعراف هو من يضرب الرمل أو الودع ، أو يقول البخت أو الطالع . وكذلك جاء فى الحديث : « من صدق كاهناً أو عرافاً فقد كفر بما أنزل على محمد » والكاهن هو الذى يدعى علم الغيب والقدرة على الإخبار بالأمور المستقبلة ، والاطلاع على الأسرار ، وكشف ما فى النفوس والضمائر .

وينبغى أن نلاحظ أن هذا النهى عن التنجيم والبخت لا يتعارض مع علم حقائق النجوم والفلك ، فهذه علوم طبيعية لها أصولها الثابتة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

الإرغام على الحلف

السؤال :

هناك امرأة أجبروها على الحلف ، وعندها الدورة الشهرية ، فهل إذا صامت لا بد من التوالى؟

الجواب :

الإسلام أولا ينفر من كثرة الحلف وينهى عنه ، حتى ولو كان الإنسان صادقاً فى يمينه ، فكيف به إذا كان كاذباً . والقرآن يقول : (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) ويقول فى آية أخرى :(ولا تطع كل حلاف مهين) إلى غير ذلك من النصوص الدينية .

وليس هناك ارتباط بين الحلف والدورة الشهرية ، كما أن السؤال لم يبين نوع الإرغام ، فقد يكون الإرغام بالإلحاح أو ما شابه ذلك ، ومن الممكن للإنسان ألا يعبأ بمثل هذا الإرغام ، ويرفض الحلف إذا كان يؤدى إلى الكذب .

وهذه المرأة إذا شرعت فى التكفير عن يمينها إذا وقعت فيها وجب عليها أن تكون أيام الكفارة متتابعة . وينبغى أن نلاحظ هنا أنه لا يصح الصوم من المرأة وهى فى حالة الدورة الشهرية . وإنما يكون تكفير الوقوع فى اليمين بالصوم إذا كانت عاجزة عن تحرير رقبة ، أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم . ونلاحظ أن كثيراً من الناس يتعللون بأسباب مختلفة ومعاذير واهية للحلف كذباً ، وهذا باب خطير جداً .

وإذا وقع اليمين كذباً وصاحبه يعلم حين وقوعه أنه يكذب فليس له كفارة إلا التوبة الصادقة لعل الله يمحو حوبته ويغفر ذنبه . وإذا فرضنا أن

الحالف حلف على شيء ، ثم رأى غيره خيراً منه ، فالسنة المطهرة تهديه إلى أن يفعل ما هو خير ويكفر عن يمينه التي وقعت .

والله تبارك وتعالى أعلم.

• • •

مندوبة النساء إلى الرسول

السؤال :

قرأت أن أسماء بنت يزيد كانت مندوبة النساء إلى النبي ﷺ ، وأنها كانت شخصية فذة ، فهل يمكن أن نعرف شيئاً عن هذه الشخصية ؟

الجواب :

هي الصحابية الجليلة والمجاهدة البطلة أسماء بنت يزيد بن السكن . وهي التي وفدت على رسول الله ﷺ في السنة الأولى للهجرة ، وبايعته بيعة الإسلام ، وكان النبي ﷺ يبايع النساء بالآية الواردة في سورة الممتحنة ، وهي :

(يأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك في معروف ، فبايعهن واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم) .

ولذلك قالت أسماء : بايعنا رسول الله ﷺ فأخذ على النساء ألا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن . . الآية .

وكانت مبايعتها في صدق وإخلاص . حتى تروى السيرة العطرة أن

أسماء كانت تضع حينئذ فى يديها سوارين من ذهب ، فقال لها النبى ﷺ : ألقى السوارين يا أسماء ، أما تخافين أن يسورك الله بأساور من نار ؟ .

فسارعت أسماء ــ دون أى تردد أو جدال ــ فنزعتهما وألقتهما أمام رسول الله ﷺ .

وأخذت أسماء بعد ذلك تسمع من الرسول حديثه الشريف ، حتى كانت تسأله عن دقائق الأشياء والأمور ، وهى التى سألته عن طريقة تطهر المرأة من الحيض ، ولا حياء فى الدين ، وقد كانت قوية الشخصية ، ويقول عنها ابن عبد البر : كانت من ذوات العقل والدين .

وكانت تنوب عن نساء المسلمين فى مخاطبة الرسول ﷺ فيما يتعلق بهن ، ولقد أتته ذات مرة فقالت له :

يا رسول الله ، إنى رسول من ورائى من جماعة نساء المسلمين ، كلهن يقلن بقولى ، وهن على مثل رأيى . إن الله تعالى بعثك إلى الرجال والنساء فآمنا بك واتبعناك ، ونحن معشر النساء مقصورات مخدرات ، قواعد بيوت ، ومواضع شهوات الرجال ، وحاملات أولادهم ، وإن الرجال فضلوا بالجمعات وشهود الجنائز والجهاد وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم ، وربينا أولادهم ، أفنشاركهم فى الأجر يا رسول الله ؟ فالتفت رسول الله ﷺ إلى أصحابه فقال : هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالا عن دينها من هذه؟ فقالوا : بلى يا رسول الله .

فقال رسول الله ﷺ :

انصرفى يا أسماء ، واعلمى من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاته ، واتباعها لموافقته ، يعدل كل ما ذكرت للرجال .

فانصرفت أسماء وهى تهلل وتكبر استبشاراً بما قال رسول الله ﷺ .

وكانت أسماء تخدم النبي فى دعوته بما استطاعت ، ولذلك روى عنها أنها قالت : إنى لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه سورة المائدة كلها ، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة ، وكان الرسول يعرف لها قدرها ، ولذلك روت أسماء قالت : مر بى النبى ﷺ وأنا فى نسوة ، فسلم علينا ، فرددنا عليه السلام . وكانت أسماء من أخطب نساء العرب ، ومن ذوات الشجاعة والإقدام ، وكان يقال لها « خطيبة النساء » وكانت تحسن الحوار والمباحثة ، كما شهدنا حينما اختارها النساء المسلمات لتذهب إلى النبي فتسأله عن مكانة المرأة فى نظر الإسلام .

وكأن أسماء كانت تطوى فى صدرها التطلع إلى المشاركة فى الجهاد ، ولكن الظروف لم يكن حينئذ يتطلب ذلك . ومضت الأيام والأعوام ، وأقبلت السنة الثالثة عشرة للهجرة — بعد وفاة الرسول ﷺ لسنوات — وأقبلت معها معركة « اليرموك » وهى المعركة العصيبة الشديدة التى دارت رحاها على أرض العرب المغتصبة ، وفيها أعطى المسلمون أعداءهم الروم درساً لم ينسوه أبداً .

هذا وقد تحدثت عن أسماء بنت السكن حديثاً طويلا فى كتابى « أبطال عقيدة وجهاد »[1] فلنرجع إليه إذا أردنا التوسع فى هذا الموضوع .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

---

(١) كتابى « أبطال عقيدة وجهاد » بعنوان «بطلة ناضلت : أسماء بنت يزيد ابن السكن» من ص ٢٧١ إلى ٢٨٠ .

تغسيل الزوج لزوجته

السؤال :

إذا ماتت المرأة ، فهل يجوز أن يغسلها زوجها ؟

الجواب :

إذا ماتت المرأة بين الرجال الأجانب عنها . وكذلك إذا مات الرجل بين النساء الأجنبيات عنه ، فى هذه الحالة يقوم التيمم مقام الغسل ، لما روى عن مكحول أن النبي ﷺ قال : « إذا ماتت المرأة مع الرجال ، ليس معهم امرأة غيرها ، والرجل مع النساء ليس معهن رجل غيره فإنهما ييممان ويدفنان ، وهما بمنزلة من لم يجد الماء » .

وييمم المرأة ذو رحم محرم منها بيده ، فإن لم يوجد يممها أجنبي بخرقة يلفها على يده . هذا مذهب أبى حنيفة وأحمد . وعند مالك والشافعى : إن كان بين الرجال ذورحم محرم منها غسلها . لأنها كالرجال بالنسبة إليه فى العورة والخلوة .

وعن الإمام مالك : أنه سمع أهل العلم يقولون : إذا ماتت المرأة وليس معها نساء يغسلنها ، ولا من ذى المحرم أحد يلى ذلك منها ، ولا زوج يلى ذلك يممت ، يمسح بوجهها وكفيها من التراب الطاهر . وإذا هلك الرجل وليس معه أحد إلا نساء ، يممنه أيضاً .

واتفق الفقهاء على جواز غسل المرأة زوجها . قالت عائشة رضى الله عنها : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ماغسل النبي ﷺ إلا نساؤه .

واختلفوا فى جواز غسل الزوج امرأته ، فأجازه الجمهور ، لما روى

من غسل على فاطمة رضى الله عنها . ولقول رسول الله ﷺ لعائشة: « لو مت قبلى لغسلتك وكفنتك » .

وقال الحنفية : لايجوز للزوج غسل زوجته ، فإن لم يوجد إلا الزوج يممها . والأحاديث حجة عليهم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

بئر زمزم

السؤال :

هل جاء فى القرآن الكريم ذكر لبئر زمزم؟

الجواب :

لم يذكر القرآن الكريم اسم « زمزم » زادها الله تعالى شرفاً ، وهى بئر فى المسجد الحرام على مقربة من الكعبة المشرفة ، وقد سميت زمزم لكثرة مائها ، يقال ماء زمزم وزمزام إذا كان كثيراً ، وقيل سميت زمزم لضم هاجر عليها السلام لمائها حين انفجرت ، وزمها إياها وقيل لزمزمت جبريل وكلامه ، ولها أسماء أخر ، ويقال لها : طعام طعم ، وشفاء سقم ، وشراب الأبرار .

والزمزمة صوت خفى لايكاد يفهم ، وقيل : إن الزمزمة هى كلام يقولونه المجوس عند أكلهم بصوت خفى . وقد جاء فى حديث قباث بن أشيم : « والذى بعثك بالحق ماتحرك به لسانى ولا تزمزمت به شفتاى » . ويذكر النووى فى « تهذيب الأسماء » أنه جاء فى الحديث : «ماء زمزم لما شرب له»

ومعناه أن من شربه لحاجة نالها ، وقد جربه العلماء والصالحون لحاجات أخروية ودنيوية فنالوها بحمد الله تعالى وفضله . وفى الصحيح عن أبى ذر الغفارى رضى الله تعالى عنه أنه أقام شهراً بمكة لاقوت له إلا ماء زمزم وجاء فى الحديث : «ماء زمزم طعام طعم وشفاء سقم » . وفضائلها أكثر من أن تحصر والله تعالى أعلم .

وقد روى الأزرقى عن العباس بن عبد المطلب أنه قال : تنافس الناس فى زمزم فى زمن الجاهلية ، حتى إن كان أهل العيال يفدون بعيالهم ، فيشربون فيكون صبوحاً لهم ، وقد كنا نعدها عوناً على العيال . وعن على ابن أبى طالب قال : « خير بئر فى الأرض زمزم وشر بئر فى الأرض برهوت» وهى بئر بحضرموت يقال : إن أرواح الكفار فيها ، والله أعلم بحقيقة لأمر .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

إمارة المسلمين

السؤال :

هل يمكن تخصيص أمير واحد يقوم بجميع شئون الإسلام مثل المسيحيين؟

الجواب :

أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتآلف والاتحاد فقال عز من قائل : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) وقال فى آية أخرى : (إنما المؤمنون إخوة) وقال فى آية ثالثة : (وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا

ربكم فاتقون) . ومن هذا نفهم أن الاجتماع على كلمة واحدة هى أعز الأمانى والآمال التى يرتجيها كل مخلص للإسلام ولإخوته فى الله ، وإذا كان من العسير أن يتحقق الآن وجود ولى أمر مطاع لكل أبناء الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها ، لوجود موانع كثيرة تحول دون تحقيق ذلك فإن على شعوب المسلمين هنا وهناك أن يعمل كل شعب منها على تجميع كلمته وتوحيد أبنائه ، وأن يكون حاكمهم وقائدهم وهاديهم هو كتاب الله عز وجل ، وإمامهم هو سيدنا رسول الله ﷺ ، وبتحقيق الوحدة بين أفراد كل شعب من شعوب الإسلام يتقارب أبناء الملة الواحدة استجابة لقول الحق جل جلاله : (وتعاونوا على البر و التقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الدعوة إلى الإسلام

السؤال :

لماذا رؤساء المسلمين لا يرسلون رسولا إلى القرى يدعوهم إلى الإسلام كما يفعل المسيحيون ؟

الجواب :

الواجب على المسلمين أن يقوموا بالدعوة إلى الله فى كل زمان ومكان قدر استطاعتهم وقدرتهم ، وعليهم فى ذلك أن يبدءوا بالأهم ، فمن واجبهم أن يبدءوا بقومهم وأقاربهم وجيرانهم ، ثم ينتقلوا بعد ذلك إلى توسيع دائرة الدعوة ، لأن الدعوة إلى الله من واجبات الإسلام ، والله تعالى يقول :

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) ، والدعوة إلى الله هي عمل الأنبياء وهم قدوة عليا لأتباعهم ، والقرآن الكريم يقول : (يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) والرسول عليه الصلاة والسلام يحث حثاً قوياً على الدعوة إلى الله ، وبذل كل مجهود في هذا الطريق ، وهو القائل : « لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من الدنيا وما فيها » .

ولا شك أن هناك جهوداً مختلفة يبذلها المسلمون هنا وهناك للدعوة إلى سبيل الله في المشرق والمغرب ، ولكن جهود المسلمين في هذه الناحية أقل من جهود سواهم الذين ينظمون الارساليات التبشرية في كل مكان ، ومن الواجب على المسلمين أن يضاعفوا جهودهم في ميدان الدعوة إلى الله تعالى ، وأن يضعوا لذلك خطة حكيمة رشيدة حتى ينشروا دعوة الله في المشارق والمغارب .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

متفرقات

الإسلام بين الثبات والتطور

السؤال :

ما العلاقة بين الإسلام والتطور ؟

الجواب :

الإسلام هو دين الله الخاتم الجامع الذى ، انقطعت بعده رسالات السماء إلى الأرض ، فلا بد أن يكون هذا الدين صالحاً لكل زمان ومكان وإنسان ، بناء على قول الله تبارك وتعالى فى سورة المائدة : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا) .

ولكى يكون الدين صالحاً للدوام والبقاء يلزم أن تكون فيه مبادئ ثابتة مستقرة ، يؤمن بها الجميع ، ويخضع لها الجميع لأنها لاتقبل التحوير ولا التطوير ، وأن تكون هناك إلى جوار ذلك وسائل فرعية لطرق التطبيق والتنفيذ ، ومسائل جزئية تتكيف على حسب الظروف والأحوال ، وهذا ما جاء به الإسلام خاتم الأديان .

وفيما يتعلق بجهة الثبات والاستقرار نجد أن هذا يتمثل فى العقائد ، وفى العبادات ، وفى الحدود المشروعة الواجب تنفيذها والخضوع لها .

ويوضح هذا قول الرسول ﷺ : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الذكاء ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا » .

ونلاحظ أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد قال هنا : « بنى الإسلام » والبناء يدل على التماسك والثبات والاستقرار ، فشهادة التوحيد هى أساس الأمر كله ، ولا دين من غيرها وشهادة أن محمداً رسول الله هى تكملة لأولى

القواعد والأسس التي يقوم عليها الدين ، فمن لايؤمن ولا يعترف للرسول بالرسالة والتبليغ عن الله يكون قد هدم ركناً أساسياً فى الإسلام .

والصلاة فريضة باقية دائمة ، بعددها وأركانها ، لا تقبل تغييراً ولا تبديلا ، ولا يصلح أن يحدث فيها زيادة أو نقصان ، ومثل هذا يقال عن الصوم والحج ، فهذه العبادات مبادئ مستقرة ثابتة ترمز إلى دوام الدين وبقائه ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وجميع المسلمين فى أرجاء الأرض يلزمهم أن يجتمعوا عليها ، وأن يقوموا بأدائها فى كل وقت .

• • •

وإذا دققنا النظر فى مبادئ الإسلام وتعاليمه فى شتى نواحى الحياة نجد أنه قد جاء وهدفه الأساسى أمران هما : كلمة التوحيد ، وتوحيد الكلمة ، فكلمة التوحيد ترمز إلى القضاء على الوثنية والشرك وتعدد الآلهة ، فليس هناك إلا إله واحد أكبر من كل شىء ، وفوق كل شىء ، وليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير .

وهناك آية فى القرآن الكريم تصور هذه الواحدانية والألوهية خير تصوير ، وهى قول الله تعالى فى سورة البقرة : (الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له مافى السموات ومافى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم) .

وأما توحيد الكلمة فترمز إلى أن من مبادئ الإسلام الأساسية جمع الناس على وجهة واحدة وطريقة واحدة ، دون افتراق ولا شقاق ، ولا عجب فالإسلام يعلمنا أن الرب واحد ، والرسول واحد والكتاب هو القرآن واحد ،

والطريق واحد هو طريق الحق والصدق ، والغاية واحدة هى الرجوع إلى الله حيث يحاسب كل إنسان على مافعل وقدم : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ، (من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) .

وبهذه المبادئ الثابتة الدائمة صلح الإسلام أن يكون هو الدعوة الباقية مادامت السموات والأرض ، مستقرة لاتقبل التحوير أو التطوير ...

* * *

لما كان الإسلام ديناً خاتماً جامعاً باقياً ما بقيت الحياة ، دائماً مادامت السموات والأرض . كان لابد من وجود أصول ثابتة فيه ، وأركان مستقرة ينهض عليها ، ويتميز بها ، ومن بين تلك الأركان والأصول : الحدود ، لأنها عقوبات زاجرة رادعة ومؤدبة ، فيجب أن يكون فيها وضوح وتحديد وشمول ، والقرآن الكريم يقول : (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون) ، ولو لم يشرع الله تبارك وتعالى القصاص محدداً لاتسع المجال أمام الثأر ، والإسراف فى القتل والعدوان ، ولعل هذا هو السر فى أن الله تبارك وتعالى يقول فى سورة الإسراء : (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً ، فلا يسرف فى القتل ، إنه كان منصوراً) .

والسبب نفسه رأينا القرآن ينص على حد السرقة بوضوح وبيان ، فيقول فى سورة المائدة : (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبانكالا من الله ، والله عزيز حكيم ، فمن تاب بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه ، إن الله غفور رحيم) .

ولم يقتصر عنصر الثبات على الحدود والعقوبات ، بل شمل بعض الأصول الأخرى كالميراث فالله تبارك وتعالى قد اقتضت حكمته العلية ألا يترك مسائل

الميراث للاجتهاد أو القياس ، أو نحوهما من مصادر التشريع ، بل نص على معظم هذه المسائل فى القرآن الكريم ، فأصبح هذا البيان شرعاً يلزم الخضوع له فى كل عصر وأوان ، فإذا قال الله تعالى مثلا فى مسائل الميراث : (للذكر مثل حظ الأنثيين) فلا يجوز شرعاً ، ولا يقبل عقلا فى أى مجتمع من المجتمعات أن ينعق ناعق باسم التجديد أو المساواة ويدعو إلى التغيير أو التبديل فى هذا الحكم الإلهى الثابت ، لأن الحق جل جلاله حينما قرر هذا المبدأ كان يعلم أنه ليس محاباة للرجل ، وليس إجحافاً بالمرأة فإن المرأة مثلا لانفرض عليها العمل ، ولا تطالبها الشريعة بالإنفاق على نفسها ، أو على غيرها فى أى مرحلة من مراحل عمرها ، فنفقتها على أبيها وهى بنت وعلى زوجها وهى امرأة ، وعلى عصبتها وهى أرملة .

أما الرجل فهو مطالب بالإنفاق على نفسه وعلى أسرته ، وفى طليعتها المرأة ، فكان من صميم العدل أن تتوازن الحقوق مع التبعات والواجبات ، فهى إذن شريعة إلهية محكمة باقية تعطينا صورة من صور الدوام والثبات والاستقرار فى شريعة الله ، شريعة العدل والحق .

* * *

ومن أمثلة الثبات والاستقرار فى شريعة الله عز وجل ، نظام الزكاة ، فإن الإسلام الحنيف قد حدد أحكامها الثابتة ، فذكر مصارفها فى قول الله تعالى فى سورة التوبة :

(إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم) .

وحدد الإسلام الحنيف مقادير الزكاة ، فهى إما العشر ، كما فى زكاة

الزرع إذا سقى بلا آلة وهى نصف العشر إذا كان الزرع يسقى بآلة ، وهى ربع العشر كما فى زكاة الذهب والفضة .

وهذا هو الفرق الذى نلحظه بين نظام الزكاة الثابت ، ونظام الضرائب المتغير المتطور الذى يخضع لاختلاف الظروف والمناسبات .

ومن هذا وأمثاله ،نفهم كيف قامت شريعة الله تعالى على أصول مستقرة ثابتة لها صبغة الدوام : (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ، ونحن له عابدون) ..

* * *

وإذا كانت الشريعة الإسلامية الغراء تعرف أصول الثبات والدوام والاستقرار فى جهات كثيرة فإنها فى الوقت نفسه تعرف مظاهر التطور والتجديد ، وحسبنا أن نتذكر فى هذا المقام « نظام الشورى » الذى أسس قاعدته القرآن ، وقام بتطبيقه رسول القرآن محمد عليه الصلاة والسلام ، فهذا النظام يجمع بين الثبات فى أصله وقاعدته ، وبين التطور والتجدد فى تطبيقه ووسائل تنفيذه .

ولا جدال عند المسلمين فى أن الشورى أصل من أصول الإسلام ، وقد أجمع العلماء والفقهاء على ذلك بلا خلاف بينهم أو نزعات ، فالقرآن الكريم وهو الذكر الحكيم قد قال فى محكم آياته : (وأمرهم شورى بينهم) ، وهو يعنى بذلك كل المسلمين فى سائر الأزمان والأوطان . والرسول ﷺ مأمور من ربه تبارك وتعالى أن يتبع نظام الشورى ، ولذلك يقول له الله تعالى : (وشاورهم فى الأمر) . وإذا كان الأمر منصوصاً عليه فى القرآن فقد أصبح لايقبل الجدال ولا النقاش .

هذا من ناحية الأصل ، ولكن طرق التطبيق ووسائل التنفيذ لنظام الشورى تختلف من عصر إلى عصر ، ومن مكان إلى مكان ، ومن مجتمع إلى مجتمع ، فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام كانت المشاورة تتم بنظام سهل ميسور ، فالنبى يجلس إلى كبار صحابته ، من أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ويعرض عليهم الموضوع ، ويأخذ رأيهم فيه ، فما اتفقت عليه الأغلبية أخذ به ونفذه ، وذلك لأن المجتمع المسلم كان حينئذ مجتمعاً صغيراً ، يعد بالعشرات ، أو بالمئات ، أو بالألوف .

وأحياناً كان الرسول عليه الصلاة والسلام يستشير مجموعة من أهل الاختصاص ، ويسمون « أهل الحل والعقد » ، أو يرجع النبى إلى من يعرف الرأى فى الموضوع المعروض عليه ، وقد أشار القرآن إلى نحو هذا حينما قال فى مشاورة أهل الرأى فى سورة النساء : (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا).

والآن تعد المجتمعات بعشرات الملايين ، أومئات الملايين ،ومن هنا كان لابد من التطور والتجديد فى وسائل تطبيق نظام الشورى ، ولذلك أنشئت مجالس النواب ، ومجالس الشيوخ ومجالس الشعب ، والجمعيات الوطنية ، والهيئات النيابية المختلفة فى المجتمعات الحديثة .

وظهر فيها الانتخاب المباشر ، والانتخاب غير المباشر ، إما على درجة واحدة أو على درجتين أو على أكثر من ذلك .

والمهم كل الأهمية هو أن يكون هناك شورى بين الجماعة ، وسواء أكانت هناك طريقة لذلك أو أكثر ، فلا عبرة بالأسلوب ، وإنما العبرة بالنتيجة المطلوبة وهى أن يكون هناك تمثيل صادق لرأى الأمة ، وأخذ حقيقى

برأيها . عن طريق نوابها وممثليها فى المشكلات والأحداث ، وكلما جدت طريقة حديثة لتمثيل الأمة وتحقيق النيابة عنها ، فلا بأس فى الإسلام إذا أخذنا بها ، أو لجأنا إليها ، مادامت أحسن وأسلم وأسهل .

ورضوان الله تبارك وتعالى على أبى بكر الصديق يوم قال مشيراً إلى أهمية الشورى فى أول خطبة له ، وهى التى يقول فيها :

« أيها الناس إنى وليت عليكم . ولست بخيركم . فإن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فقومونى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم . القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له ... أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

وهكذا جمع نظام الشورى بين الثبات فى أصله . والتطور فى تطبيقه ، ليكون شاهداً على أن الإسلام هو دين الحق والعدل والإنصاف ..

* * *

ومظاهر التطور والتجدد فى حمى شريعة الإسلام واسعة النطاق فسيحة المدى . فكل مايخضع لسنة التغيير والتطوير بسبب تغير الإنسان أو الزمان أو المكان ، فالإسلام لايقف عقبة فى طريقه . بل يمهد له السبيل حتى يأخذ مجراه الطبيعى . وحتى لايصادم الإسلام السنن الكونية والأوضاع الطبيعية التى تنظم بها الحياة وتتسع . بشرط ألا يحرم ذلك حلالا . أو يحلل حراماً .

ونأخذ بعض الأمثلة على ذلك . ففى مجال البناء مثلا لا يقف الإسلام حجر عثرة أمام تشييد الأنواع المختلفة والأبنية المتعددة التى يتفنن فيها الإنسان . وقد أشار القرآن إلى فنون البناء والعمارة فى أكثر من آية . ولم يضع قيداً على عقل الإنسان أو صنعته فى هذا المجال .

وهاهوذا القرآن يقول فى سورة الشعراء : (وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين) .

وفى مجال وسائل الانتقال لم يمنع الإسلام الإنسان من اتخاذ ما يستطيع من وسائل المواصلات وإذا كان الإنسان بفضل الله وسبحانه قد توصل مثلا إلى اختراع السيارة ، والقطار ، والطائرة ، والمنطاد ، وسفينة الفضاء ، وغير ذلك فإن القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً قد أشار إلى هذا التطور والتنوع حين قال فى سورة النحل : (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون) ... فعبارة : (ويخلق مالا تعلمون) تشير إلى أن فضل الله سيتسع حتى يهتدى الإنسان إلى أنواع لاتحصى من وسائل الركوب والانتقال ، وكذلك يقول القرآن الكريم فى سورة يس : (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) .

وفى مجال الأطعمة لم يمنع الإسلام الإنسان أن يتخذ أنواعاً وألوناً من الأطعمة ، وأباح الإسلام كل حلال طيب لذيذ ، والإسلام لم يمنع إلا الأطعمة الضارة ، ولذلك يقول القرآن فى سورة الأنعام : « قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير ، فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم) .

وفيما يتعلق بالثياب أباح الإسلام كل ما يستر العورة ويزين الإنسان ، ولم يحرم الإسلام إلا ثياب الحرير بالنسبة للرجال فقط ، والقرآن يقول فى سورة الأعراف : (يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سؤاتكم وريشاً ، ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون) .

بل استنكر الإسلام الذين يحاربون تمتع الإنسان بألوان الزينة ، فقال

فى سورة الأعراف: (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعملون * قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق . وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) .

وفيما يتعلق بطلب العلوم والمعارف فتح الإسلام الباب على سعته . ولم يمنع الإنسان من أن يطلب الأنواع المختلفة من العلوم التى تفيد الأفراد والشعوب والأمم .

وهكذا نرى الإسلام يحتفظ لشريعته بعنصر الدوام والبقاء . عن طريق الأصول الثابتة والأركان المستقرة . وفى الوقت نفسه . أعطى شريعته صبغة الحيوية والتطور فيما يقبل التجديد والاتساع . وبهذا يمتاز الإسلام ويبقى ويدوم : (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون) .

* * *

العلاقات الدولية فى الإسلام

السؤال :

ما طبيعة العلاقات الدولية فى الإسلام؟

الجواب :

لعل طبيعة الإسلام جعلته يسبق إلى الحديث عن العلاقات الدولية والإنسانية . ولا عجب فى ذلك فهو الدين الذى جاء يحدث البشر بأنهم جميعاً من أصل واحد . من أب واحد وأم واحدة . فبينهم جميعاً هذه الرحم الإنسانية التى ينبغى لهم أن يرعوها حق رعايتها ، فهو القائل فى مفتتح سورة

النساء : (يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به الأرحام إن الله كان عليكم رقيباً) . وقال الرسول ﷺ : « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

وحدثهم الإسلام بأن الرب واحد هو الله تبارك وتعالى ، وأن النهاية واحدة هى الموت : (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) . وأن العاقبة هى البعث بعد الممات : (وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) . وأن الدار الآخرة أساسها الحساب والجزاء : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وأن الحياة الآخرة باقية دائماً كما فى الحديث : « وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً » .

والخطاب الإلهى فى القرآن موجه إلى الناس كافة على اختلاف شعوبهم وأممهم ، ولذلك تكرر فى كتاب الله تعالى قوله : (يأيها الناس) (يا بنى آدم) . وذلك بخلاف اليهود الذين يزعمون أن أمة إسرائيل هى وحدها المستأثرة بتلقى خطاب الله دون سائر الأمم .

وأرسى الإسلام القواعد الدولية على أسس ومبادئ رئيسية ، منها أنه رفع الإنسان إلى مرتبة التكريم ، فجعله خليفة فى الأرض ، وعلمه ما لا يعلمه غيره ، وسخر له ما فى الكون جميعاً ، وأعلى منزلته ، حتى قال القرآن : (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) .

وقرر المساواة بين الإنسانية كلها على اختلاف أجناسها وألوانها ، لأنهم جميعاً إخوة فى الآدمية .

وقرر هذا فى محكم التنزيل فقال القرآن : (يأيها الناس إنا خلقناكم من

ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . وينبغى أن يكون هذا التعارف مثمراً محققاً لروابط الإنسانية ووشائج الأخوة البشرية . فالتعارف كما يقول بعض العلماء ليس هو المعرفة المجردة ، بل المعرفة المثمرة التى تتلاقى فيها كل القوى لخير الإنسانية ، وهذا يتحقق على وجهه إذا أسهم كل إقليم بما لديه من الخيرات والثمرات لخير الجميع ، وبذلك ينتفع أهل الأرض بخيراتها حينما يتبادلونها بينهم ، وقد أشار القرآن إلى أن هذا التعارف المؤدى إلى التعاون هو الأصل ، ولكن الناس اختلفوا وانحرفوا وتنازعوا ، فذلك حيث يقول القرآن : (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) .

ولتوثيق الإسلام علاقات الإنسانية بين البشر جميعاً حارب الألوان ، وجعل أساس التكريم بالسعى الكريم والعمل الصالح والتقوى الصادقة ، فقال القرآن : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال الرسول ﷺ : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » . كما قال : « ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح » .

وأكد الإسلام مبدأ المساواة بين الناس ، وجعلها الطريق السوى إلى التعاون والتآخى ، فقال رسول الله ﷺ : « أحب لأخيك ما تحب لنفسك ، واكره له ما تكرهه لها » .

ولتوطيد هذا الأساس جعل الإسلام السلام بين الناس هو الشعار الذى الذى ينضمون تحت لوائه ، فما دام هناك وسيلة ممكنة أو باب مفتوح للسلام ، فالواجب أن يهرع إليه الجميع ، ولذلك جاء فى سورة الأنفال قوله تعالى :

(وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) وجاء فى سورة النساء قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة) ويقول العقاد : « العلاقة بين الناس فى دستور الإسلام علاقة سلم حتى يضطروا إلى الحرب دفاعاً عن أنفسهم ، أو اتقاء لهجوم تكون المبادرة فيه نوعاً من الدفاع ، فالحرب يومئذ واجبة على المسلم وجوباً لا هوادة فيه ، وهو مع وجوبها مأمور بأن يكتفى من الحرب بالقدر الذى يكفل له رفع الأذى ، ومأمور بتأخيرها ما بقيت له وسيلة إلى الصبر والمسالمة ، ويتكرر هذا الأمر كلما تكرر الإذن بالقتال والتحريض عليه ، وكل تحريض أمر به ولى الأمر فى القرآن فهو التحريض على تجنيد الجند وحض العزائم على حرب لم يبق له محيد عنها ، ولا غرض له منها إلا أن يكف بأس المعتدين عليه وعلى قومه ، ثم لا إكراه له فى هذه الحرب على متطوع لقتال أو نجدة » .

ومن هذا نفهم أن الحرب ضرورة فى الإسلام ، وليست أمراً يأتى به صاحبه كلما أراد له الهوى أو دفعه إليه دافع من دوافع البغى أو السيطرة على الناس .

وأهم ما ينبغى أن نتأكد منه هنا أن الإسلام لم يشرع الحرب للإرغام على الدين أو الإكراه على اعتقاد معين ، وكيف وأساس الدعوة فى الدين هو قوله تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) . وقال التنزيل المجيد : (لا إكراه فى الدين) وقال : (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) . ولذلك لم يجعل الإسلام الاختلاف فى الدين داعياً من دواعى الفرقة أو جفاف المعاملة أو قطع الصلات أو نسيان المودة الإنسانية ، بل نجد الإسلام يذكر أهليه بحسن المعاملة والمودة حتى مع المخالفين فى العقيدة والدين ، ما داموا لا يعتدون ولا يبغون ، فنحن نجد فى سورة الممتحنة قوله

تعالى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين • إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) .

ولم يكتف الإسلام فى توطيد العلاقات الدولية برفض الإكراه فى الدين والنهى عن الإرغام فى الاعتقاد ، بل احترم شعائر الأديان الأخرى التى يدين بها أهل الكتاب . وضمن لهم حقهم فى القيام بعباداتهم على حسب دينهم ، وأعطى أماكن عبادتهم صيانة تتأبى على العدوان والتطاول وخير مثل يحضر فى الذهن ما فعله عمر حين زار كنيسة القيامة فى القدس وحضرته الصلاة ، وليس هناك ما يمنع من أدائها فى مكان خال بالكنيسة ، بل عرض أهل الكنيسة على عمر أن يصلى فيها . ولكنه أبى ذلك ، وصرح بأنه يخشى إذا فعل ذلك أن يأتى الناس من بعده ويقولون : هنا صلى عمر فلنصل حيث صلى .

وخرج عمر من الكنيسة وعلى مسافة منها أدى الصلاة . وجاء الناس وبنوا فى المكان مسجداً سموه مسجد عمر . ليقوم شاهداً على هذه الروح المثالية التى ترعى الروابط والعلاقات بين أهل الأديان المختلفة .

وعمر نفسه هو الذى يعطينا مثلا ثانياً فى حُسْنِ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين فهو الذى أعطى أهل إيلياء عهده المشهور . وقد جاء فيه : « إنه أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها . وأنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صلبهم ولا من شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار على أحد منهم . . . » .

• • •

ومما يذكر للإسلام بالخير فى مجال العلاقات بين الناس أنه حارب العصبية والتعصب فقال رسول الله ﷺ : « ليس منا من دعا إلى عصبية » . وقد يفهم بعض الناس أن محاربة الإسلام العصبية يتعارض مع حب الإنسان لقومه ووطنه ، مع أن الإنسان يستطيع أن يحب وطنه وقومه ، ويخلص الخدمة لها دون أن يتعصب أو يظلم . ولذلك سئل الرسول ﷺ : أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ؟ قال : « لا ، ولكن العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم » .

ومن المبادئ السامية التى وطدها الإسلام فى العلاقات الدولية أنه أمر بالوفاء بالعهد ، والحفظ للوعد ، ولو مع الأعداء أو المخالفين فى الدين ، وقد جاء فى سورة النحل قوله تعالى : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون * ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) .

والوفاء بالعهد ينبع من ينبوع واحد مع العدالة ، لأن المفطور على العدالة يستنكر من أخلاقه ونفسه أن يكون ظالماً بنقض العهد أو خلف الوعد ، والعدالة ركن ركين فى الإسلام ، ولا يتحقق مجتمع مسلم دون أن يكون مجتمعاً قائماً على العدل ، ولذلك جاءت فى كتاب الله تعالى هذه الآيات الكريمات .

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) .

(وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعماً يعظكم به)

والعدل مأمور به فى الإسلام حتى ولو كانت تبعته ستكلف الإنسان نفسه تعباً أو مشقة : (يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً) .

وإيفاء العدالة واجب فى الإسلام حتى مع ألد الأعداء، فالله يقول : ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) .

والرائع هنا أن هذه المبادئ السامية فى تنظيم الإسلام للعلاقات الدولية لم تكن مجرد نظريات أو مبادئ تقال وتحكى ، بل جمع الإسلام هنا بين المبادئ والتطبيق ، فالله سبحانه وتعالى قد شرع ووضع ، والرسول ﷺ قد طبق والتزم ، والصحابة من ورائه قد تابعوا واقتدوا .

ولعل الإسلام كان أسبق الأديان والشرائع إلى تطهير العلاقات الدولية من الخضوع الأعمى للغرائز الحيوانية ، والأهواء الشخصية الجامحة ، بعد أن كانت العلاقات بين البشر لا يسودها ولا يقودها إلا الطغيان ، فالقوى يعدو على الضعيف والقادر يعصف بالعاجز ، دون احتكام إلى قانون أو عدالة ، فجاء الإسلام والناس فوضى ، لا نظام يحكم ، ولا وازع يردعهم ، فأحيا فى صدر الإنسان نزعات الخير ووازع الضمير ونداء الخير والبر .

* * *

وقد سبقت الإشارة إلى أن الحرب فى الإسلام لا تقوم إلا لرد عدوان أو استرداد حق ، أو مقاومة قوة تصد عن الإيمان وتقطع الطريق على الناس ، وتفتنهم عن حرية الاعتقاد : (والفتنة أشد من القتل) . ولذلك يقول القرآن الكريم فى سورة البقرة :

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) .

لقد مكث المسلمون زمناً طويلا فى أول الإسلام وهم يلاقون ألواناً من التعذيب والابتلاء ، ولما طفح الكيل وزاد الويل جاء قوله تعالى : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع صلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) .

وبعد مرحلة أخرى شرع الله لعباده المؤمنين أن يردوا العدوان بمثله فجاء قوله تعالى : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) .

ويقول العقاد : « انقضى عهد النبي ﷺ والمسلمون يعلمون حدودهم فى كل علاقة تعرض لهم بين أنفسهم وبينهم وبين جيرانهم : علاقة المودة والوئام ، وعلاقة الشغب والفتنة ، وعلاقة الحرب أو علاقة التعاهد ، أو علاقة الموادعة والمهادنة ، أو علاقة الأمان والاستئمان — وهذه العناية بإقامة الحدود وبيان واجباتها هى وحدها حجة قائمة للإسلام على خصومه الذين يتهمونه بأنه دين الإكراه الذى لا يعرف غير شريعة السيف ، فما حاجته إلى بيان لكل حالة من حالات السلم والحرب بأحكامها وواجباتها وحدودها وتبعاتها ؟ لا حاجة به إلى حد من هذه الحدود ما دام عزلا من السيف مغلوباً على كل حال ، فإنما يبحث عن تلك الحدود من يضع السيف فى موضعه ، ويأبى أن يضعه فى موضع المسالمة والإقناع ، وكذلك كانت شريعة الإسلام منذ وجب فيه القتال ، ولم يوجبه إلا البغى والقسر والعنت والإخراج من الديار » .

وقد يتصل تنظيم العلاقات الدولية كما وطدها الإسلام أنه إذا حدث نزاع بين شعبين أو دولتين من دول الإسلام ، فإن الإسلام يوجب البدء بالإصلاح بين المتنازعين حتى تنطفئ نار الحرب ويسود السلام ، فإن لم يثمر الإصلاح والتوفيق ، جاءت مقاومة الباغي لقمعه ، لا لتوسيع دائرة الحرب يقول القرآن : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل أو أقسطوا إن الله يحب المقسطين * إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) .

ولقد عرف الإسلام من مبادئ العدالة والسماحة في مجال العلاقات الدولية نظام المستأمن ، وهو – كما يقول الشيخ أبو زهرة – شخص دخل الديار الإسلامية على غير نية الإقامة فيها بل يقيم مدة معلومة لعقد يسمى عقد الأمان ، أو بإذن للإقامة ، وذلك يكون للتجار أو للسياحة أو الزيارة ، وإقامته تكون محدودة بمدة قابلة للتحديد ، وقد سمح الإسلام ففتح أبوابه للمستأمنين ، حتى لو كانوا منتمين لدولة قامت الحرب بينها وبين المسلمين ، وأرواح هؤلاء المستأمنين وأموالهم مصونه لا يعتدى عليها ما داموا مستمسكين بعقد الأمان ، ولهم أن يباشروا نشاطهم التجاري من غير قيد ، وقد قال الإمام ابن قدامة :

« إذا دخل حربي دار الإسلام بأمان فأودع ماله مسلماً أو ذمياً ، أو أقرضهما إياه ، ثم عاد إلى دار الحرب نظرنا ، فإن دخل تاجراً أو رسولا أو متنزهاً أو لحاجة يقضيها ثم يعود إلى دار الإسلام ، فهو على أمان في نفسه وماله ، لأنه لم يخرج بذلك عن نية الإقامة في دار الإسلام ، وإن دخل ذمي دار الحرب مستوطناً بطل الأمان في نفسه ، وبقي في ماله ، لأنه بدخوله دار الإسلام بأمان ثبت الأمان لماله ، فإذا أبطل الأمان في نفسه بدخوله دار الحرب بقي في ماله » .

وقرر فقهاء الإسلام أن المستأمن غير المسلم لو مات فى دار الإسلام يجب أن نرسل ماله لورثته ، ولو كانوا فى الميدان يحاربون المسلمين . وأنه لو مات فى دار الحرب أو قتل فى المعركة الدائرة بين دولته وبين المسلمين ، أرسل ماله لورثته . ولا يصادر مال المستأمن إلا فى حالة واحدة ، وهى إذا كان يحارب المسلمين فى الميدان ، وأصابه الأسر ، وأصبح رقيقاً بمقتضى قانون المعاملة بالمثل ، فإنه بالاسترقاق يكون غير أهل للتملك ، وحينئذ يكون ماله فيئاً للمسلمين .

• • •

والمسلم أين كان جنسه أو إقليمه يعد « رعية إسلامية » فى حماية الدولة ، وكذلك الذمى ، لأن القاعدة هى أن أهل الذمة لهم مالنا وعليهم ما علينا ، ويجب على الدولة المسلمة أن تحمى الذمى ، ولا يجوز الاعتداء عليه ، ودمه معصوم ، وحريته الشخصية مكفولة . وقد جاء فى كتاب الخراج من وصية الإمام أبى يوسف للخليفة هارون الرشيد قوله :

« وقد ينبغى يا أمير المؤمنين — أبرك الله — أن تتقدم بالرفق بأهل ذمة نبينا وابن عمك ﷺ والتفقد لأحوالهم ، حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، ولا يؤخذ شىء من أموالهم إلا بحق يجب عليه ، فقد روى أن رسول الله ﷺ قال : « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة » . وكان مما تكلم به عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند وفاته :

« أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله ﷺ ، أن يوفى لهم بعقدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفهم فوق طاقتهم » .

ولقد روى أن عمر رضى الله عنه مر بباب قوم وعليه سائل يسأل ، وهو شيخ ضرير فقال له عمر : ممن أنت ؟

فقال : من أهل الكتاب .

فقال له عمر : من أى أهل الكتاب أنت ؟

قال الرجل : يهودى .

فقال عمر : وما الذى ألجأك إلى ما أرى ؟ .

فقال الرجل : أسأل الجزية والحاجة والسن .

فأخذه عمر بيده ، وذهب به إلى منزله . وأعطاه شيئاً من المال ، ثم أرسل إلى خازن بيت المال ، وطلب منه أن يجرى على الرجل رزقاً مستمراً من بيت المال ، وقال : انظر إلى هذا وضربائه فوالله ما أنصفنا أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم . ووضع عمر الجزية عن الرجل وعن أمثاله من أهل الذمة .

والعرف الدولى يسير فى العلاقات الدولية على مبدأ المعاملة بالمثل ، ولكن الإسلام لا يأخذ بهذا المبدأ على إطلاقه دون قيد ، لأن الإسلام مقيد بأخلاقه وفضائله ، فلو انتهك العدو مثلا حرمة للمسلمين فإن المسلمين لا يعاملونه بالمثل ولا ينهكون حرمته ، وإذا استباح العدو قتل الذرية فالمسلمون لا يستبيحون قتل الذرية ، ومع ذلك فالمعاملة بالمثل يعرفها الإسلام فى الأمور التى ينبغى فيها هذه المعاملة . ولذلك يقول القرآن الكريم : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) . وقد يجمع الإسلام هنا بين المعاملة بالمثل والتحبيب فى العفو إذا لم يؤد إلى ضرر ، ولذلك يقول القرآن :(وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) .

وتتردد الآن فى مجال العلاقات الدولية كلمة « التعايش السلمى » وقد سبق الإسلام إلى روح هذا التعايش القائم على أن يتبادل الناس الخير ويتعاونون

على إسعاد الجميع ، فالرسول يقول : « خير الناس أنفعهم للناس » ويقول أيضاً : « الناس بخير ما تعاونوا » .

ولكى يحصر الإسلام الحرب عند لزومها فى أضيق نطاق ممكن أنه أوجب ألا يوجه القتال إلا إلى المقاتلين بالفعل ، ووصايا الخلفاء والأمراء وقواد الجيوش فى الإسلام ناطقة بذلك على أوضح صورة ، وهذا هو الخليفة الأول أبو بكر الصديق يقول لجنود الإسلام المجاهدين :

« لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ، ولا تقطعوا شجراً مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم للصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » هذا جانب مما سبق إليه الإسلام العظيم فى تنظيم العلاقات الدولية بين البشر ليسهم هذا التنظيم فى إسعاد البشرية وتخفيف ويلاتها ، ولو أن الإنسانية اهتدت بهدى الإسلام فى هذا الباب لعرفت الطريق القويم إلى ما فيه خير البشرية ورخاء الإنسانية .

• • •

أساتذتى

السؤال :

لكل إنسان ناجح أستاذ تتلمذ عليه فهل نستطيع أن نعرف أساتذة أستاذنا؟

الجواب :

إن أستاذى الأول والأعلى هو القرآن الكريم .

كان القرآن أول كتاب فى الوجود فتق لسانى ، وعلمه كيف ينطق الحرف الصحيح من مخرجه مضبوطاً ، والكلمة الفصيحة محكمة ، والبيان

العربى فى أبهى حلته . وكنت فى أول الأمر أتعلم القرآن على طريقة كتابته فى لوح خشبي مطلى بطلاء أملس أبيض ، فكان ذلك إتقاناً للخط ، وإحكاماً للكتابة فى الوقت نفسه .

وعلمنى القرآن كذلك الطريقة إلى الحفظ . فقد كان مطلوباً منى أن أحفظ القدر الذى كتبته ثم أمحوه من اللوح بعد أن كتبته بالمداد بقلم مأخوذ من القصب الذى كنا نسميه « الغاب » ثم أكتب قسما ثانياً وهكذا ، ثم شغلت بالقرآن بعد ذلك طيلة حياتى ، فهو يغادينى ويراوحنى بلا انقطاع .

وحفظته وأنا فتى صغير ، ثم أجهدنى استبقاؤه فى صدرى بعض الشىء ، ثم طالعتنى أنواره فى شواهد النحو والصرف والبلاغة والأدب ، وفى موضوعات الفقه وغير ذلك من العلوم التى أخذت أتعلمها فى معاهد الأزهر وكلياته . ولما عرضت باب التفسير انفتحت أمامى أبواب واسعة للارتباط بالقرآن فى معانيه ومغازيه ، وظلت صحبتى للقرآن ، أو صحبته لى تضىء مسالك الحياة أمامى .

ولقد مرت على أوقات لزمت فيها الفراش مريضاً . وحالفته مدداً طويلة . أو قصيرة ، وكنت أجد نعم العزاء فى الاستماع إلى المصحف المرتل لبضع ساعات . وأنا أشعر بلذة عجيبة فى أن أصغى إلى النص الحكيم المجيد ، وقد سبق لى مرات ومرات أن قرأت من تفاسيره ، وتدبرت من معانيه بمقدار كبير . ومن عجب أنى لا أعدل بقراءة الترتيل المجردة من التغنى والتلحين أى طريقة أخرى .

وكثيراً ما كنت ألفت أنظار طلابى إلى أن القرآن معجم تكرار يفيد الإنسان كثيراً فى ضبط الكلمات التى تشتبه عليه ، وما زلت أذكر وأنا فى طلبى للعلم أننى كنت أشتبه فى الفعل الماضى « عمل » هل هو بفتح الميم أو بكسرها ،

ثم أتذكر قوله تعالى : (من عمل صالحاً فلنفسه) فأتأكد أنها بكسر الميم كما حفظت ، وهكذا .

ومن الغريب أنك قد تتردد فى ضبط الكلمة من الكلمات . فإذا تلوتها فى النص القرآنى الذى تحفظه ، زال عنك التردد وجئت بها على وجهها الصحيح .

* * *

وقد أستطيع الجرأة فأقول إن على قمة أساتذتى رسول الله ﷺ ، وهو المثل الأعلى للإنسانية ، ورحمة الله للعالمين ، ونبراس الهداية للناس أجمعين .

إن شخصية الرسول الأعظم تأتى آثارها بعد آثار القرآن الكريم وهو فيض الله العلى الكبير ، وقد استحوذت على قلبى شخصية رسول الله ، منذ يفاعتى ، فقد رأيت فى شخصه التطبيق العملى للإسلام ، والتفسير الحى للقرآن ، فشغلتنى سيرته كما شغلنى أثره فى أصحابه ، وأنوار أخلاقه وسنته وهديه ، وظهرت ثمار ذلك فى كثير مما كتبته وألفته وقلته . . ولا يمر على يوم فى حياتى دون أن أرى أمامى أضواء من هذا النور المحمدى المبين .

وعلى الرغم من أنى أحس بضآلتى أمام هذه الشخصية العظيمة ، فإنى فى الوقت نفسه أشعر بمتعة واعتزاز حين أربط سببى بأسباب هذا المثل الأعلى المتجلى فى سيدنا رسول الله ﷺ ، خصوصاً وأن رسول الله هو الشخص الوحيد الذى حفظ لنا التاريخ الأمين كل صغيرة وكبيرة ، وكل شاردة وواردة من أحداث حياته ، وشعاب سلوكه ، وفنون أقواله ، وكل ما يتعلق بحياته وذاته وفيها نعم القدوة والأسوة كما قال رب العالمين : (لقد كان

لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) .

* * *

وأكاد أقول إن عريفى الذى حفظنى القرآن فى طليعة أساتذتى ، والواقع أن هناك شخصين قاما بهذا العمل . أحدهما — ولا داعى لذكر اسمه — كان قاسياً ، وطالما لقى قدماى من عصاه الغليظة — أو بالأصح جريدته الغليظة — ألواناً من الضربات . ورآنى أبى رحمه الله وأنا أتلقى هذه الضربات ذات مرة ، فما كان منه إلا أن قال للعريف : « اضرب واكسر وأنا أداوى » . وكان أبى من غير شك يقول هذه الكلمات باسماً فى الظاهر ، وهو يكاتم مرارة قاسية فى صدره ، وهو يرى ابنه يتلقى هذه الضربات الأليمة ، ومن سوء الحظ أن هذا العريف أساء استغلال هذه التجزئة من أبى ، فزاد فى العقاب والضرب .

ولذلك عشت بين يدى هذا العريف وأنا أخافه وأرتعد منه ، وخاصة إذا حرك جريدته بيده فأتوقع أن يكون جسدى فريسة لهذا الثعبان المارد فى يده ، وكان رجلا عملاقاً مفتول العضلات يرتعد منه حتى أولاده لصلبه .

وأما العريف الآخر — واسمه الشيخ دسوقى درة — فقد كان رجلا كفيف البصر ، نحيل الجسم هادئ الطبع ، لايغضب إلا عند ذكر الموت ، فقد كان يخافه خوفاً شديداً ، ويهرب من مواقفه ما استطاع إليه سبيلا ، وقد حببنى هذا الرجل فى القرآن ، وهون على متاعب حفظه ، ولا زلت أذكر أن الواحد منا إذا جلس بين يديه ، ليتلو عليه ماحفظ ، كان يربت على كتفه ، ويثنى على أبيه وأسرته ، ويشجعه بكلمات مبتسمة ، ويعطيه « حبة كرملة » ليستأنس به ، وفى بعض الأحيان يدخن لفافة ولكنه يخشى أن يتضايق أحدنا

وهو بين يديه من نفث الدخان فى وجهه ، فكان العريف الكفيف إذا أراد أن ينفث الدخان من فمه ، لوى وجهه يميناً أو شمالا ، ووضع راحة يده الأخرى أمام فمه . ونفث الدخان جانباً ، حتى لايتضايق الفتى منه .

ومع ذلك يريد العريف الكفيف أن يطمئن إلى أن الفتى لم يتضايق ، فيسأله هل يصل الدخان إليه ، ويؤكد الفتى أنه غير متضايق ، ومع ذلك يكرر سؤاله مرة أخرى .

وكان هذا العريف رجلا صبوراً ، لاتكل يداه عن ضفر الخوص الأخضر ليصنع منه « المقاطف والقفف » ليستعين بذلك على حياته .

• • •

حول تمحيص التاريخ

السؤال :

ما واجبنا نحو تمحيص التاريخ ؟

الجواب :

إن للتاريخ حرمة يجب أن تصان وترعى ، لأن التاريخ صورة الماضى أمام الحاضر ، فإذا لم تكن روايته دقيقة أمينة ، تبدلت المعالم ، وتشوهت الحقائق ، وجارت أحكام المعاصرين على السابقين . وتزداد حرمة التاريخ جلالا ومكانة ، إذا كان يتعلق برجال ننظر إليهم بعين الإجلال والإكبار ، مثل صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، لأن هؤلاء كانوا النماذج العملية الحية لتطبيق تلك الدعوة الإسلامية الكريمة ، بمعتقداتها ومبادئها وتعاليمها .

ومن واجب أهل الغيرة على الإسلام وتاريخ رجاله أن يسارعوا إلى التصحيح والتمحيص ، كلما رأو خطأ فى التاريخ الإسلامى ، أو تحريفاً لأحداثه

ووقائعه . أو خلطاً بين أخبار أعلامه وأبطاله . وهذا فيما أعتقد فرض كفاية على أبناء الإسلام . إن قام به البعض سقطت التبعة عن الباقين ، وإن لم يتحقق اشترك الجميع فى التبعة والإثم .

أقول هذا لأننى تناولت المجلد الرابع من « دائرة المعارف » التى تصدر فى بيروت بإشراف الأستاذ فؤاد أفرام البستانى ، وقد وجدت فى الصفحة الرابعة والسبعين بعد المائة من هذا المجلد ترجمة تحت عنوان : « أبو إمامة الباهلى » وقد جاءت تحت هذا العنوان ما يلى بالنص :

« أبو إمامة صدى بن عجلان بن ذهب الباهلى الصحابى . من مشهورى الصحابة ، روى له خمسون حديثاً ، روى عنه عدة من العلماء . قيل : وكان ممن بايع تحت الشجرة . وشهد أحداً . وصفين مع على . سكن مصر . ثم حمص . وبها توفى سنة ٨١ هـ (٧٠٠) وقيل سنة ٨٦ . قيل : هو آخر من توفى من الصحابة بالشام . وذكر الهروى قبره فى كفر نفد من قرى حمص ، وقال : والصحيح أن قبره بالبقيع . وهو أول من دفن به ، وقيل عثمان ابن مظعون أول من دفن به ، والله أعلم » اهـ .

ومع أن الواجب فى دوائر المعارف أن تكون دقيقة المعلومات ، لأنها من المراجع الأمهات . ويشترك فى كتابة موادها عشرات من العلماء أصحاب المكانة والشهرة . نلاحظ أن الترجمة المكتوبة قليلة ضئيلة ، وفيها أكثر من خطأ ، وهى فوق هذا خلطت بين ترجمتين لاثنين من أعلام الصحابة ، أولهما أبو إمامة صدى بن عجلان دفين الشام . والآخر أبو إمامة أسعد بن زرارة الأنصارى دفين البقيع . وبين الاثنين مايقرب من ثمانين عاماً فى الوفاة . فأسعد بن زرارة قد توفى فى العام الأول للهجرة . وصدى بن عجلان توفى فى سنة إحدى وثمانين . أو ست وثمانين للهجرة .

وذكرت الترجمة أن صدى بن عجلان روى له خمسون حديثاً ، مع أن النووى فى « تهذيب الأسماء واللغات » أنه روى له عن رسول الله ﷺ مائتا حديث وخمسون حديثاً[1] .

وقالت الترجمة : « روى عنه عدة من العلماء » وكلمة « العلماء » هنا غير دقيقة ، والصواب أن يقال : « روى عنه جماعة من التابعين » كما ذكر ابن عبد البر فى « الاستيعاب »[2] .

وقالت الترجمة : « قيل : وكان ممن بايع تحت الشجرة » . والتعبير بكلمة « قيل » يضعف الخبر ، مع أن ابن حجر قد قرره وذكر سنده وحديثه فى « الإصابة »[3] .

ومن حقنا أن نتساءل : ماسر اقتصار الدائرة على الترجمة لأبى أمامة صدى ابن عجلان وترك غيره ممن عرفهم التاريخ الإسلامى بلقب « أبو إمامة » ، ومنهم :

١ — أبو أمامة أسعد بن زرارة الأنصارى النجارى المتوفى فى شوال على رأس تسعة أشهر من السنة الأولى للهجرة .

٢ — أبو إمامة إياس بن ثعلبة الحارثى الصحابى .

٣ — أبو إمامة أسعد بن سهل بن حنيف ، التابعى المتوفى سنة مائة للهجرة .

٤ — أبو إمامة التيمى التابعى ، الكوفى ، الثقة .

٥ — أبو إمامة الأنصارى ، الذى رآه الرسول فى المسجد ، وعلمه الدعاء المتعلق بقضاء الدين .

* * *

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات ، ج ٢ ص ١٧٦ طبعة المنيرية .

(٢) الاستيعاب على الإصابة ، ج ٢ ص ١٩١ .

(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة ج ٢ ص ١٧٥ .

ومادامت « دائرة المعارف » قد خلطت بين ترجمتي « أسعد بن زرارة » و « صدى بن عجلان » فمن الخير أن نميز بينهما ، عن طريق الترجمة القاصدة القاصدة لكل منهما ، على أن نبدأ بأسعد بن زرارة لأنه أسبق فى الوفاة .

أسعد بن زرارة : هو أول من أقام الجمعة بالمدينة ، الصحابى الجليل أبو إمامة أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن البخارى الأنصارى ، وأمه هى سعاد بنت رافع بن معاوية ، ويقال إنها تسمى « الفريعة »[1]. وكان يقال له : أسعد الخير . وهو أحد الشجعان الأشراف فى الجاهلية والإسلام ، ويروى أنه أول من أسلم من أهل المدينة ، فقد خرج إلى مكة قبل الهجرة ، ومعه ذكوان بن عبد قيس ، ليتفاخرا ويتنافرا ، فلما بلغا مكة سمعا بأمر النبى عليه الصلاة والسلام . فأتياه فعرض عليهما الإسلام ، وقرأ عليهما مما نزل من القرآن ، فأسلما ونسيا المفاخرة والمنافرة ، وعاد أبو إمامة مع صاحبه إلى « المدينة » ، فكانا أول من قدم إليها بالإسلام[2] ، ويقول عمارة بن غزية : « أسعد بن زرارة أول من أسلم من أهل المدينة »[3] .

ولم يكتف أبو إمامة بأن الله قد هداه سواء السبيل ، بل أراد أن يزداد من الخير ، فشارك فى جذب غيره إلى الإسلام ، فكان أحد الستة الذين بايعوا الرسول بيعة العقبة الأولى[4] ، وكان أحد الاثنى عشر رجلا الذين بايعوا النبى بيعة العقبة الثالثة[5]وكان أحد السبعين رجلا الذين بايعوا بيعة العقبة الثالثة[6].

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٣ ص ١٣٨ — القسم الثانى .
(٢) أسد الغابة ، ج ١ ص ٩٤ طبعة التعاون .
(٣) الطبقات ، ج ٣ ص ١٣٩ — القسم الثانى .
(٤) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٢ ص ١٧٧ و ١٧٨ . وأسد الغابة ج ١ ص ٩٥ . وتاريخ الطبرى ج ٢ ص ٣٥٤ .
(٥) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٣٥٥ .
(٦) أسد الغابة ج ١ ص ٩٥ .

وحينما بعث النبى ﷺ أول مبعوث له إلى المدينة ، وهو مصعب بن عمير أنزله أبو أمامة فى بيته ضيفاً عليه ، وأخذ يطوف معه على أهل المدينة يميناً وشمالا ، يعرضان عليهم الإسلام ، ويحدثانهم عن الله تبارك وتعالى ، وظل مصعب فى بيت أبى إمامة حتى لم تبق دار من دور الأنصار – تقريباً إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات[1].

والحادث البارز فى سيرة أسعد بن زرارة هو أنه كان أول من أقام الجمعة فى المدينة ، فى موضع يقال له « نقيع الخضمات » وهو من أودية المدينة ، على عشرين فرسخاً منها ، وكان ذلك قبيل الهجرة ، ويروى أن أبا إمامة اجتمع مع طلائع المسلمين فى المدينة فقالوا : إن لليهود يوماً يجتمعون فيه ،هو يوم السبت ، وللنصارى يوم مثل ذلك ، وهو يوم الأحد ، فلنجتمع ، ونجعل لنا يوماً نذكر الله فيه ونستذكر . فصلى بهم أسعد ابن زرارة صلاة الجمعة ، وكانوا أربعين رجلا[2]، ولعل الرسول ﷺ بعث إلى أبى إمامة فأرشده إلى ذلك قبيل الهجرة[3].

ورضوان الله تبارك وتعالى على الصحابى الجليل كعب من مالك ، فقد كان كلما خرج إلى صلاة الجمعة يترجم على أسعد بن زرارة ، ويدعوله كلما سمع الأذان ، وقد سأله ولده عبد الرحمن عن ذلك فأخبره بأن سر ذلك هو أن أسعد كان أول من أقام الجمعة فى المدينة[4].

ويشاء الحكيم العليم ألا تطول حياة أسعد بن زرارة بعد الهجرة ، فلم

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٣٥٧ و ٣٥٩ .

(٢) كتاب « يسألونك فى الدين والحياة » ص ٦٧ و ٦٨ .

(٣) انظر التحفة اللطيفة للسخاوى ج ١ ص ٢٨٩ . والطبقات ج ٣ ص ١٣٩ – القسم الثانى .

(٤) انظر السيرة النبوية لا بن كثير ، ج ٢ ص ١٨١ .

تمض إلا شهور حتى أصيب بمرض « الذبحة » أو « الشوكة » ، وحاول الرسول أن يعالجه. ولكن قضاء الله نافذ، وفوق تقديرنا لله تقدير ، ففي شهر شوال من السنة الأولى للهجرة ، وعلى حين كان المسلمون يعملون بجد واجتهاد في إقامة مسجد الرسول بالمدينة. لحق أبو إمامة أسعد بن زرارة بربه عز وجل . وأقبل الرسول عليه فغسله وكفنه وصلى عليه ، فكان أول من صلى عليه النبي ، ودفنه في مقبرة « البقيع » ، فكان أول من دفن فيها كما روى الأنصار[1] .

وكان أبو إمامة قد أوصى ببناته إلى الرسول ، فجعلهن بين عياله، يدرن في بيوت نسائه ، وجاءت قبيلة بني النجار إلى رسول الله ﷺ تقول له : يارسول الله ، إن أسعد بن زرارة كان نقيبنا ، وكان منا حيث قد علمت فاجعل منا رجلا مكانه ، يقيم من أمرنا ما كان يقيمه .

فقال لهم : أنتم أخوالي ، وأنا منكم ، وأنا نقيبكم[2] .

فكان هذا منه تكريماً لأسعد بن زرارة ، حيث يخلفه خير الناس رسول الله على قبيلة بني النجار .

* * *

هذا بعض القول عن أبي إمامة أسعد بن زرارة رضي الله عنه .

فماذا عن أبي إمامة صدى بن عجلان رضي الله عنه ؟ .

هو الصحابي المشهور أبو إمامة صدى بن عجلان بن وهب بن والبة بن رياح من الحارث بن معن بن مالك الباهلي السهمي ، وسهم بطن من باهلة ،

---

(١) يروى المهاجرون أن أول من دفن فيها هو عثمان بن مظعون . الطبقات ٣-١٤١ القسم الثاني .

(٢) تاريخ الطبري ، ج ٢ ص ٢٩٨ .

وباهلة هم بنو مالك بن أعصر ، نسبوا إلى أمهم باهلة[1] . يقول عنه النووى إنه من مشهورى الصحابة ، وروى عن رسول الله ﷺ مائتا حديث وخمسون حديثاً ، روى له البخارى منها خمسة . ومسلم ثلاثة . وروى عنه رجاء ابن حيوة ، وخالد بن معدان ، ومحمد بن زياد ، وسليمان بن حبيب ، وسليم ابن عامر ، وشرحبيل بن مسلم ، وشداد أبو عمارة وأبو سلامة ممطور الحبشى ، القاسم أبو عبد الرحمن الدمشقى ، وسالم بن أبى الجعد ، وأبو إدريس الخولانى وغيرهم[2].

وروى أبو أمامة صدى بن عجلان قال : لما نزل قول الله تعالى : (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ...) قلت : يارسول الله ، أنا ممن بايعك تحت الشجرة . فأجابه الرسول قائلا : « أنت منى ، وأنا منك »[3].

وتروى السيرة أن النبى صلوات الله وسلامه عليه أرسل كتيبة لتجاهد فى سبيل الله عز وجل ، وكان فيها أبو إمامة صدى بن عجلان ، فذهب إلى رسول الله وقال له : يارسول الله ، ادع الله لى بالشهادة . فقال الرسول : اللهم سلمهم وغنمهم[4] ! .

من يدرى ، لعل رسول الله ﷺ دعا لأبى إمامة مع رفاقه هذا الدعاء ، ليبقى هذا العمر الطويل المبارك المحشود بالسعى والعمل والنضال ، فإن التاريخ يحدثنا بأن صدى بن عجلان قد عاش مايقارب المائة ، أو يزيد عليها ، وصلوات الله وسلامه على نبيه القائل : « خيركم من طال عمره وحسن عمله » .

---

(١) العقد الفريد ، ج ٣ ص ٣٠٠ طبعة التجارية .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ، ج ٢ ص ١٧٦ .

(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة ، ج ٢ ص ١٧٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

وقد شهد أبو إمامة الباهلى معركة « اليرموك » المشهورة ، مع عبادة بن الصامت [1]. وكذلك وجهه يزيد بن أبى سفيان إلى أرض فلسطين — ردها الله على العرب والمسلمين — ليفض جمع الروم الذى اجتمع فى « العربة » من أرض فلسطين — ردها الله على العرب والمسلمين — فقام أبو إمامة صدى ابن عجلان بذلك[2] .

ومما يدل على مكانة صدى أن سليمان بن حبيب المحاربى قال : دخلت مسجد حمص ، فإذا مكحول وابن أبى زكرياء جالسان ، فقال مكحول : لو قمنا إلى أبى إمامة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأدينا من حقه ، وسمعنا منه . فقمنا جميعاً ، حتى أتيناه ، فسلمنا عليه ، فرد السلام ، ثم قال : إن دخولكم على رحمة ، وحجة عليكم . ولم أر رسول الله ﷺ من شىء أشد خوفاً على هذه الأمة من الكذب والعصبية ، ألا وإياكم والكذب والعصبية ، ألا وإنه أمرنا أن نبلغكم ذلك عنه ، ألا وقد فعلنا ، فأبلغوا عنا ما بلغناكم[3].

ومن الأحاديث التى رواها أبو إمامة صدى بن عجلان مارواه فقال ابن جبيرة — أو فضل بن جبير — قال سمعت أبا إمامة الباهلى يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اكفلوا لى بست أكفل لكم بالجنة : إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا اؤتمن فلا يخن ، وإذا وعد فلا يخلف ، غضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم »[4].

ومن الأحاديث التى رواها صدى أيضاً قول رسول الله عليه الصلاة والسلام « لايعذب الله قلباً وعى القرآن » والمعنى — كما يذكر ابن الأثير فى النهاية —

---

(١) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ص ٤٠١ . وانظر تفاصيل الحديث عن معركة اليرموك فى كتاب « فدائيون فى تاريخ الإسلام » ، ص ٢٥٩ — ٢٦٧ .

(٢) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ص ٤٠٦ .

(٣) أسد الغابة ، المجلد الثالث ، ص ١٦ طبعة دار الشعب .

(٤) المرجع السابق ، المجلد السادس ، ص ١٧ .

اى عقله إيمانا به وعملا بهديه وأمره . وأما من حفظ ألفاظ القرآن ، وضيع حدوده والعمل به ، فإنه لايكون واعياً له كما أراد الحديث الشريف[1] .

وقد سكن صدى فى مصر حيناً من الزمن ، ثم انتقل منها فسكن مدينة حمص من بلاد الشام ، وهناك فى الشام انتشر عمله ، وتلقى عنه أهل الشام مروياته فى الحديث ، وذاعت بينهم . ولذلك يقول صاحب « أسد الغابة » فى ترجمته : « وكان من المكثرين فى الحديث ، وأكثر حديثه عند الشاميين»[2]

وكان أبو إمامة صدى بن عجلان من أنصار الإمام على رضى الله عنه وكرم الله وجهه ، وكان أبو إمامة فى جانب الإمام على فى موقعة صفين التى وقعت أحداثها الدامية سنة ست وثلاثين للهجرة .

وطالت حياة صدى وامتد عمره ، حتى جاوز المائة بست سنوات ، وروى الذهبى مؤرخ الإسلام عن صدى أنه قال : « كنت يوم حجة الوداع ابن ثلاثين سنة » . فيكون عمره مائة وست سنين[3] .

وفى رواية أخرى أنه مات وعمره إحدى وتسعون سنة[4].

وكما اختلفوا فى عمره اختلفوا فى سنة وفاته ، فروى أنه مات سنة إحدى وثمانين ، وهذه رواية « أسد الغابة » ، وروى أنه مات سنة خمس وثمانين ، وتلك رواية « العبر » ، وروى أنه مات ستة وثمانين ، وقد جاء هذا فى « أسد الغابة » وغيره ، وروى أنه مات سنة سبع وثمانين ، وتلك رواية « البداية والنهاية » لابن كثير[5] .

---

(١) النهاية فى غريب الحديث والأثر ، ج ٥ ص ٢٠٨ طبعة الحلبى .
(٢) أسد الغابة ، المجلد السادس ، ص ١٦ طبعة دار الشعب .
(٣) العبر فى أخبار من غبر ، ج ١ ص ١٠١ طبعة الكويت .
(٤) الاستيعاب على الإصابة ، ج ٢ ص ١٩١ .
(٥) انظر أسد الغابة ، المجلد الثالث ، ص ١٠١ . والبداية والنهاية ، ج ٩ ص ٧٣ طبعة السعادة .

وقد رووا أنه كان آخر من توفى بالشام من صحابة رسول الله ﷺ ، ولكنهم اختلفوا فى هذا أيضاً ولذلك يقول صاحب أسد الغابة » عنه : « وهو آخر من مات بالشام من أصحاب النبى ﷺ فى قول بعضهم » ، وإنما قال هذا لأن هناك رواية أخرى تقول إن آخر من مات من صحابة رسول الله فى الشام هو عبد الله بن بسر — أو بشر — رضوان الله على الجميع(١) .

ودفن أبو إمامة صدى بن عجلان الباهلى فى قرية « كفر نفد » وهى من قرى حمص فى بلاد الشام ، رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

* * *

منهج للحياة

السؤال :

ما موقف القرآن من منهج الحياة ؟

الجواب :

كلما أنبهم الطريق ، أو استبد الضيق ، أو غامت الفكرة ، أو طالت الحيرة ، فزع المؤمن إلى مائدة الرحمن ، ومبعث الأمان ، ونور الإنسان ، ألا وهو القرآن ، ليجد فيه الضياء والغذاء ، والدواء والشفاء ، وليزداد إيماناً مع إيمانه بأنه : (ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين) .

وهذه مثلا آية معدودة الكلمات ، عديدة الإشارات ، نطالعها فى ذلك الكتاب الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، ومع قلة كلماتها نراها ترسم المنهاج فى الدين والدنيا ، وتحدد الخطة فى الحرب والسلام ، وتضع العلامات البارزة على طريق المجد والشرف . فيقول فيها

---

(١) الاستيعاب على هامش الإصابة ، ج ٢ ص ١٩١ .

رب العزة فى سورة الحديد : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوى عزيز) .

لقد أرسل الله سبحانه رسله الأخيار الأبرار إلى بنى آدم ، بالحجج الظاهرة ، والمعجزات الباهرة ، وأنزل مع كل منهم كتاباً ينطق بالصدق ، ويدعو إلى الحق . وإمام هذه الكتب جميعها هو القرآن الكريم ، الذى انفرد بالعموم والخلود والبقاء : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

وأنزل معهم الأمر بالتزام الميزان ، والميزان هنا فيه معنى الوزن والضبط والتحديد والعدل ، فهو يشمل كل مايقوم الأشياء ، وكل ما يبين مكانة الأشخاص ، وكل مايحدد الحقوق والواجبات . وكأن الكتاب إشارة إلى توضيح الخطة والمنهج ، والميزان إشارة إلى المتابعة والتقويم ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، ومطالبة كل شخص بأداء ما عليه فى ضبط وقسط . أو إلى المبدأ والتطبيق ، أو إلى الفكرة والتنفيذ ، أو إلى العلم والعمل .

والهدف من وراء ذلك أن يتحقق العدل الكامل ، وأن يسود الإنصاف الشامل : (ليقوم الناس بالقسط) .

وكأن الناس لايحيون الحياة الصحيحة السليمة إلا بالتزام هذا العدل ، ومن هنا أكد القرآن فى مواطن منه الدعوة إلى العدل والإنصاف ، مستخدماً كلمة « الميزان » التى تشمل الوزن الحسى والوزن المعنوى . فقال : (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان) . وقال : (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) . وقال : (والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا فى الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) . وفى هذه الآيات الأخيرة تأكيد لوجوب الحرص على العدل ، والقسطاس بين الناس .

ثم قال تعالى : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) أى أوجد الله الحديد وهيأه لعباده . وليس معنى ذلك أنه قد أنزله إنزالا من السماء ، بل الكلام على حد قوله تعالى : (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) أى أوجدها وهيأها . .

والبأس هو القوة والشدة ، أى جعل الله فى الحديد قوة قوية ، وحصانة معينة ، وذلك لأن آلات الحرب ، وأسلحة الوقاية ، تتخذ من الحديد ومشتقاته ، وهذه إشارة إلى مايجب أن تكون عليه صناعة الأمة فى حالة الحرب ، إذ يلزم أن تكون صناعة حربية قائمة على القوة ، وعلى استخدام الحديد فى توفير هذه القوة . وبعض المفسرين يرى أن البأس هنا هو السلاح نفسه . والمراد على كل حال أن الله تعالى يخبرنا بأنه جعل الحديد سلاحاً رادعاً يجب أن يؤدب به من يأبى الحق ، أو يخرج على الإنصاف ، أو يعتدى على الحرمات ، إذ لابد للحق من قوة ، وكل حق ليست إلى جانبه قوة تحرسه ، وسلاح يصونه ، وجنود يفتدونه ، حق سائر إلى الضياع والهوان .

والكتاب الإلهى الذى يتضمن أسمى المبادئ ، والميزان يرمز إلى العدل يحتاجان إلى الحديد ذى البأس الشديد ، ليبقى المنهج قائماً ورائداً ، والميزان حارساً وضابطاً .

وهذا الحديد القوى الشديد هو الذى يمتن الله على أحد أنبيائه بأنه قد يسره له ، فقال : (وألنا له الحديد) وذلك ليصنع منه مايريد ، وهو الذى جعل الله مادته أساساً لبناء السد الهائل على يد ذى القرنين الذى قال : (آتونى زبر الحديد) أى قطعه . ومن هذه القطع ومستلزماتها نهض سد يأجوج ومأجوج الذى حدثنا عنه القرآن الكريم .

بل إن الله تبارك وتعالى وضع أمامنا إشارة بليغة تعلمنا أن الحديد هو

الوقاية من شر الحديد نفسه ، فقال عن داود أحد أنبيائه : (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) .

وهنا نتذكر المثل الذى يقول : « إن الحديد بالحديد يفلح » أى يشق ويعالج .

وهذا سيدنا رسول الله ﷺ يقول : « الجنة تحت ظلال السيوف » ويقول : « جعل رزقى تحت ظل رمحى » . والسيف والرمح آلتان من الحديد ، ومن هنا نفهم أن القوة تقابل بالقوة ، وأن صيانة المقدسات والحريات لابد لها من عتاد وسلاح .

ثم قالت الآية : (ومنافع للناس) وهذه إشارة بليغة إلى الحياة المدنية السعيدة ، فللناس فى الحديد منافع غير محدودة ، فى معايشهم ومصالحهم ، ولو التفت الإنسان متدبراً إلى جوانب حياته ، لوجد الحديد صاحب شأن كبير وخطير فى هذه الحياة ، من مفتاح الباب إلى الثلاجة والغسالة ، وصنابير المياه ، فالزراعة محتاجة إلى الحديد ، والصناعة والتجارة والعمارة والمواصلات محتاجة إلى الحديد . والحضارة المعاصرة بمدنيتها الحاضرة قائمة على الحديد ، ولذلك استحق الحديد أن يذكره الله تعالى فى كتابه الكريم ، وأن يمن به على عباده ، وأن يسمى سورة من سور القرآن باسمه وهى سورة الحديد ، ويزداد إيماننا بإعجاز القرآن المجيد حين نتذكر أن هذه الإشارة بالحديد تقدمت بقرون على القرن الثامن عشر الذى ظهرت فيه العناية العالمية بالحديد ومشتقاته من الصلب والزهر والصاج والفولاذ : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد) والرازى يقول فى تفسيره إن الحديد لما كانت الحاجة إليه شديدة جعله الله سهل الوجدان كثير الوجود ، بخلاف الذهب فإنه لما قلت الحاجة

إليه جعله الله عزيز الوجود وعند هذا ظهر أثر جود الله تعالى ورحمته على عبيدة ، فإن كل شيء كانت الحاجة إليه أكثر جعل الله وجوده أسهل .

ولذلك قال بعض الحكماء إن أعظم الأمور حاجة عند الإنسان هو الهواء فإنه لو انقطع وصوله إلى القلب لحظة لمات الإنسان فى الحال ، فلهذا جعله الله أسهل الأشياء فى وجدانه ، وهيأ أسباب التنفس وآلاته ، حتى إن الإنسان يتنفس دائماً بمقتضى طبعه ، من غير حاجة فيه إلى تكلف عمل ، وبعد الهواء يأتى الماء ، إلا أنه لما كانت الحاجة إلى الماء أقل من الحاجة إلى الهواء جعل الله تحصيل الماء أشق قليلا من تحصيل الهواء ، وبعد الماء الطعام ، ولما كانت الحاجة إلى الطعام أقل من الحاجة إلى الماء ، جعل الله تحصيل الطعام أشق من تحصيل الماء ، ثم تتفاوت الأطعمة فى درجات الحاجة والندرة ، فكلما كانت الحاجة إلى الشيء أشد كان وجدانه أسهل ، وكلما كان وجدانه أعسر كانت الحاجة إليه أقل .

ولما كانت الجواهر قليلة نادرة كانت الحاجة إليها قليلة جداً ، فعلمنا أن كل شيء كانت الحاجة إليه أكثر كان وجدانه أسهل .

يقول الرازى على سبيل التفنن فى الكلام : ولما كانت الحاجة إلى رحمة الله تعالى أشد من الحاجة إلى كل شيء نرجو من فضله أن يجعلها أسهل الأشياء وجداناً .

وهذه كما نرى آية واحدة فى كلمات معدودة ، تعلمنا الكثير من الأهداف والمبادئ وهى تربنا أن المعاملة إما أن تكون مع الخالق جل جلاله وهذه يبينها الكتاب ، وإما أن تكون مع المسلمين وهذه طريقتها الميزان ، وإما أن تكون مع الأعداء وهذه طريقها الحديد ذى البأس الشديد .

والمناسبة بين الكتاب والميزان والحديد هى أن الكتاب يعلمنا كيف

نستقيم روحياً وعقلياً ونفسياً ، والميزان يعلمنا كيف نستقيم مالياً ومادياً ، والحديد يعلمنا كيف نزجر الظالمين عن الانحراف : « وإن الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن » .

والآية الكريمة التى سبقت توضح لنا عدة مقاصد عند النظر والتأمل ، ومن هذه المقاصد :

١ — تقرير وحدة الدين الإلهى ، والنبوة التى من الله بها علي عباده فى إرسال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب) ولنتأمل كيف جمع النص الكريم بين كلمة الرسل ، فجاء بها جميعاً وقرر أنهم جميعاً قد جاءوا بالبينات من الله عز وجل ، وكيف وحد الكتاب مع أن كلا منهم له كتابه الذى جاء به من عند الله تعالى : وكل منهم يدعو إلى الحق الواحد فى أصله وحقيقته : (وأنزلنا معهم الكتاب)

٢ — فضل الله الواسع حيث من على الإنسانية بكتبه الهادية ، وإرشاده إلى العدل بذكر الميزان ، وإيجاده الحديد للمصالح الحربية والمدنية : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) .

٣ — القوة الماثلة فى الحديد تستخدم فى سبيل الله ، وهو سبيل الحق والعدل والخير .

٤ — الغلبة والنصر للمؤمنين الصالحين ، وهو نصر يمن به الله على من يشاء من عباده : (وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز) .

وقد يكون من حقنا بعد هذا أن نتساءل : هل انتفعت الأمة المؤمنة حقاً بهذا التوجيه القرآنى العظيم ؟ هل درس أبناء المؤمنين دين الله حقاً ليؤمنوا بما فيه من حق وصدق ؟ هل التزموا شريعة العدل ليسود بينهم الحق ؟ هل أعطوا كل ذى حق حقه حتى يقوم الناس بالقسط ؟ هل أعطوا كل ذى حق

حقه حتى يعم الإخاء والمحبة ؟ هل حصنوا أنفسهم باليأس الشديد حتى لايناموا على الدنية ولا يرضوا بالهوان ؟ هل جاهدوا بالإيمان واليقين حق الجهاد فى سبيل الله هذه أسئلة يخشى المؤمن أن تبقى طويلا بلا جواب رشيد .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

المسلمون تحت حكم روسيا ·

السؤال :

كيف عامل الروس المسلمين ؟

الجواب :

يقول الشاعر أحمد شوقى عليه رحمة الله تعالى : « حديث الأفاعى طويل المدى » .

فكيف بالأفاعى إذا كانت حمراء رقطاء ، لاضابط لها ولا ضمان ولا ارعواء ؟

إن الإنسان لايدرى – حين يجيب عن هذا السؤال فى هذا المجال – من أين يبدأ ، ولا كيف يسير ، ولا إلى أين ينتهى !

إن بداية الجرم الروسى ضد الإسلام والمسلمين عميقة الجذور ، طويلة المدى مر عليها قرون وأجيال ، وإن شبح الجريمة مازال قائماً يتشبث بمسيرته الطاغية وزحفه الوبىء ، وإن اختلفت لديه الوسائل والأساليب ، وما أظن هذا الشبح – أو هذا الكابوس – بقابل أن يتخلى عن مكانه ، أو يخفف من بهتانه ؛ وإن النهـــاية غير معروفة الأجــل ، وليس بالهــين أو السهل

آن نتوقع لها حداً تقف عنده راضية ، وإن كنا موقنين بأن الإيمان والعزم من أهل الحق كفيلان بغرض النهاية فى الوقت المناسب : (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء من عباده ، وهو العزيز الرحيم) .

لقد ابتلعت روسيا الصليبية القيصرية ، ثم روسيا الحمراء الملحدة ، بلاداً وأقطاراً إسلامية ، واسعة شاسعة ، ضمتها إلى رقعتها باسم العدوان والتجبر ، وبقوة الحديد والنار ، وهذه الأقطار تزيد فى السعة أضعافاً على مساحة أوربا مجتمعة .

ابتلعت روسيا من بلاد الإسلام دول القرم ، والقوقاز ، والتركستان ، وسيبريا ، والأورال ، وغيرها .

وليتها ابتلعتها وأبقتها بعد ابتلاعها على كيانها وشخصيتها ، بل عملت بكل جشع ، وفى ظل كل الفزع ، على إذابتها أو إبادتها ، وإزهاق روح الإسلام فيها ، وإزالة شخصيتها الاجتماعية والثقافية .

ولقد دخل الإسلام القوقاز ، وانتشر فى التركستان وما حولها منذ صدر الإسلام ، وفى عهد الأمويين ، فالإسلام قديم أصيل فى الأقطار التى ابتلعتها روسيا ، ومسختها مسخاً . ومن بين البلاد التى ابتلعتها « سيبريا » الواسعة التى كانت فى الأصل بلاداً إسلامية ، وكان اسمها قبل هذا الابتلاع هو « صبرى » فحرفه المبتلعون الجشعون إلى « سيبريا » ، وكان يحكمها «المغول» أولئك الذين عادوا الإسلام أولا قدر ما استطاعوا . ثم اجتذبهم الإسلام بروحه ونوره ، فصاروا من أقوى الناس اعتزازاً بالإسلام ، وغيرة عليه ، وجهاداً من أجله .

وكان الأمير « باطو بن جنكيزخان » أول من أقام دولة المغول هذه ، وبلغ من قوته وسيادة دولته ، أن « بارسلوف » دوق روسيا الأعظم كان

مضطراً إلى أن يقسم يمين الولاء أمام الأمير « باطو » تعبيراً عن خضوعه – مع بقية أمراء روسيا – لسلطة ذلك الأمير .

ثم شهدت دولة المغول الإسلامية على يد الابتلاع الروسى مآسى تعز على الوصف والتصوير ، فقد ظلوا يقاومون الدب الروسى الجشع أكثر من نصف قرن ، وكان السلطان « كوجم » آخر من أدار هذه البلاد باسم الإسلام ، وتكالب عليه طغيان الروس ، فكسروه وسلبوه بلاده ؛ ولقد عرضوا لتسويغ طغيانهم وإخفاء جريمتهم ، أن يسكت على احتلالهم لوطنه ، وأن يمشى فى ركابهم تابعاً ، وكان يستطيع – بعد أن فقد الحكم والجيش والوطن – أو يوافق أو يتابع ، ولكنه أبى واستعصم .

وحينما عرضوا عليه ذلك العرض اللئيم الخسيس ، قال للطغاة – وهو محطوم مكسور – : إنى لا أقبل عيش الأسير ، ولا موت الذليل ، وإنى لست حزيناً لفقد أملاكى وأموالى ، بل إن حزنى لهؤلاء التعساء الذين يحيون داخل أغلال الاستعباد الروسى .

ومات ذلك الحاكم المسلم شهيداً .

ونال الشهادة كذلك من ورائه ابنه « على » .

عليهما رضوان الله تعالى .

* * *

وإذا كانت المجزرة الاستعمارية البشعة التى قامت بها روسيا لابتلاع دول إسلامية من حولها ، قد شملت البلاد التى تقع بين حدود « منغوليا » وبحر « قزوين » من ناحية ، و « سيبريا » حتى «أفغانستان» من ناحية أخرى ، فإن

« أفغانستان » المسلمة لم تنج من بغى روسيا وطغيانها عليها ، فقد أخذت تناوشها ، واتفقت فى الوقت نفسه مع « بريطانيا » صاحبة التاريخ الأسود مع العرب والمسلمين — على تقسيم « إيران » الإسلامية منطقتى نفوذ بينهما ، تخص روسيا نفسها بمنطقة فى الشمال ، وتأخذ بريطانيا لنفسها منطقة فى الجنوب ، وللدب الروسى مع السبع البريطانى ، أن يفعلا فى الظلام ما يشاءان وساعدت الظروف روسيا الاستعمارية على المضى — فى توقح — فى ابتلاعها لدول الإسلام بجوارها .

يقول بعض المؤرخين لتلك المآثم :

« وساعد على ذلك أن آسيا الصغرى — سواء من حيث موقعها الجغرافى أو من حيث ظروفها الأخرى — كان يكتنفها ستار من الظلام ، فبدت كما لو كانت جزءاً متمماً لأملاك روسيا الآسيوية التى لم يكن يعرف عامة الأوربيين عنها فى ذلك الوقت إلا القليل .

ومن جهة ثانية فإن الاستعمار عن طريق البر ، أو الاستعمار من الباب للباب ، لم يكن لافتاً للنظر كاستعمار البلاد النائية التى تقع فيما وراء البحار .

ومن جهة ثالثة فإن معظم شعوب آسيا وأفريقية التى كان لها وعى سياسى أو قومى ، كانت الحملات القومية فى هاتين القارتين كلها منصبة على بيان مساوئ الاستعمار الأوربى وحده .

وبينما كانت روسيا تتسلل فى غفلة من الناس إلى البلاد الإسلامية التى تشغل أواسط القارة الآسيوية ، دون أن تلتفت إليها الأنظار .

وهكذا كان من حسن حظ روسيا القيصرية — شأنها فى ذلك شأن روسيا السوفيتية الآن — أنها لم تكن مضطرة إلى ركوب البحر فى توسعها الاستعمارى على خلاف ما كانت عليه حال الدول الاستعمارية الأخرى ، التى كانت

مضطرة بحكم موقعها الجغرافى ، إلى البحث عن مستعمرات لها فيما وراء البحار ، فى بلاد لا تربطها بها روابط الجوار الجغرافى .

لذلك كان توسع الروس فى أواسط آسيا يجرى فى ذلك الوقت بعيداً عن أعين الناس ، برغم أنه كان استعماراً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى .

وأما المسلمون أنفسهم فى سائر بلاد العالم فإنهم لم يشعروا بوطأة هذا الاستعمار الخفى ، ولم يدركوا ما سوف يكون له من أثر فى حياة نيف وأربعين مليوناً من إخوانهم المسلمين ، يعيشون تحت ظل روسيا القيصرية ، لأنهم كانوا فى شغل شاغل بشئونهم الخاصة ، يحاولون استخلاص أنفسهم وحرياتهم من براثن استعمار آخر أكثر وضوحاً ، وأشد نكاية ، ابتلوا به من ناحية الغرب ، ولأن مصائرهم العليا من ناحية أخرى كانت فى يد دولة منهارة ، وخلافة كانت هى نفسها تلفظ آخر أنفاسها ، ولها من مشاغلها السياسية والعسكرية ، ما كان له أثر مدمر على الشعوب الإسلامية عامة ، تلك هى الدولة العثمانية .

ولم تلجأ روسيا فى احتلال البلاد إلى الأساليب الاستعمارية المستحدثة ، بل اعتمدت كل الاعتماد على جحافلها وجيوشها ، وعلى ما تستطيع تلك أن توقعه بالناس من قتل وفتك ، وسلب ونهب.

كان احتلالا يمثل الاستعمار فى أبشع صوره ، وينزع إلى إنزال الشعوب المستعمرة منزلة العبيد .

ولم يستسلم المسلمون فى تلك البلاد لسلطان الروس مع ذلك ، بل جعلوا يقاومون ويستبسلون ، محتملين فى ذلك كل أنواع التضحية ، وهم يحاولون رد هذا الطغيان عن بلادهم وأوطانهم . ففى بلاد الشركس والقوقاز استمر

جهادهم على أشده حتى سنة ١٨٦٤ ، إلى أن وقع زعماؤهم المجاهدون ومن بينهم الإمام (شاول) فى قبضة الروس » .

* * *

وأن الحرب التى دارت واستطالت بين القوقاز الإسلامية وروسيا الاستعمارية ، قد انتزعت من الروس أنفسهم الاعتراف بشجاعة المسلمين المجاهدين من أبناء القوقاز المسلمة ، وثباتهم ثباتاً عجيباً وطويلا أمام الزحف الدموى الروسى ، فهذا « كارل ماركس » بذاته يمجد هذه البطولة على الرغم من أنفه ، فيقول للعالم :

« يا شعوب العالم ، ليكن قتال القوقازيين من أجل حرياتهم درساً لكم ، فتعلموا منهم فن الدفاع عن الحرية والقومية » .

وها هوذا « فاديبف » المؤرخ الروسى يقول مضطراً إلى الاعتراف :

« لولا الحرب القوقازية التى عاقت تقدمنا ، لاستطاعت الجيوش الروسية أن تحتل الشرق بأجمعه ، من مصر إلى اليابان ، وهى تسير على نغمات فرقها الموسيقية » .

ثم يقرر المؤرخ الروسى نفسه ، ويعترف ببشاعة الجرم الروسى فى ساحة الاحتلال والاستعمار ، فيقول :

« ولم يكد يستتب الأمر لروسيا فى منطقة القوقاز ، حتى أخذت تسير جيوشها نحو التركستان وغيرها من البلاد الإسلامية فى أواسط آسيا ، إلى أن تم لها فى النهاية إخضاع المنطقة كلها . ومنذ ذلك الحين أخذت تستخدم أساليبها الاستعمارية التقليدية ، لتقويض كيان تلك البلاد ، فعمدت إلى تقييد الحريات إلى أدنى حد ممكن ، واستغلت كل ما فيها من موارد من القطن والمعادن ، استغلالا سافراً ، لا يمنعها من ذلك مانع » .

وهذه مثلا مدينة « طشقند » الإسلامية التى ابتلعتها روسيا سنة ١٨٦٥ م ، يعترف فاتحها الروسى « تشرنايف » على الرغم منه بشجاعة المجاهدين المسلمين فيها ، فيقول فيما يقول :

« إن المدينة كانت مستعدة بأكياس الرمال فى جميع الشوارع ، وكانت المقاومة عنيفة جداً ، وقد مات كثير من الناس وهم يهاجموننا جماعات أو فرادى ، ولم يستسلم أحد قط ، فقد فضل الكل الموت على أسنة الرماح ، وعانى جنودنا الكثير وهم يجتازون الشوارع فى وجه قتال مر ، ولم نضع أيدينا على مجتمع أو ناد ، إلا بعد أن سبحت جنودنا فى بحار من الدماء » .

هكذا شهد الروس بأنفسهم على أنفسهم .

(وشهد شاهد من أهلها » .

والفضل ما شهدت به الأعداء .

ولقد كان عزيزاً جداً على أبناء الإسلام أن يبتلع الدب الروسى الكاسر الفاجر : بلاد « التركستان » لأن هذه البلاد تدين المسلمين بالكثير العزيز ، فهى — بجوار مفاخرها الأخرى — منبت الأعلام من علماء الإسلام ، فهى بلد : البخارى والترمذى والنسائى ، وبلد الزمخشرى والنسفى ، وبلد الجرجانى والتفتازانى والسكاكى ، وبلد الفارابى وابن سينا ، وبلدالبيرونى والماتريدى والخوارزمى والسرخسى والجوهرى . . . إلخ .

إنها منبت هؤلاء الأعلام الأئمة . . أولئك آبائى ، وهؤلاء إخوتى فى الإسلام ، وإنه لعزيز على نفس المؤمن أن ينتهى هذا المنبت ليكون لقمة سائغة فى أشداق الدب الروسى الغشوم .

• • •

ولقد كانت روسيا الاستعمارية تطمع منذ القديم فى احتلال « الآستانة » وهى دار الخلافة الإسلامية ، حتى تتحكم فى العالم الإسلامى كله ، عن طريق تحكمها وسيطرتها على عاصمة المسلمين جميعاً ، تلك العاصمة التى ينظر إليها أبناء الإسلام كلهم نظرة الإجلال والإكبار ، وكان أكبر مطمع للقيصر أن يستولى على دار الخلافة ، حتى تصير ضمن إمبراطوريته الروسية الكبرى .

ولقد أورد أمير البيان الأمير شكيب أرسلان فى الجزء الثالث من كتاب « حاضر العالم الإسلامى » خلاصة وافية لكتاب «مائة مشروع لتقسيم تركيا » وهو الكتاب الذى ألفه الوزير الرومانى « دجوفارا » ، وجاء فيه أن المشروع الثامن والأربعين من هذه المائة هو المشروع المنسوب إلى بطرس الأكبر الروسى ، وتاريخه سنة ١٧١٠ م .

كما ذكر أن « كاترينا » إمبراطورة روسيا كان لها أكثر من مشروع لتمزيق تركيا وهى زعيمة المسلمين يومئذ ، وكان « فولتير » يوصى فردريك ملك بروسية بعدم معارضة كاترينا فى مشروعاتها المتعلقة بالاستيلاء على القسطنطينية عاصمة تركيا . ولا شك أن تقسيم تركيا هو أخبث خطوة نحو إضعاف المسلمين .

وقد تنبه إلى ذلك الأمير شكيب ، فأورد هذه العبارة فى الجزء الأول من كتاب « حاضر العالم الإسلامى » :

« من المحقق لولا ثقل حمل الروسية على ظهر العثمانيين ، وكونهم أصبحوا من عداوة الروس بحالة لا يملكون معها قبضاً ولا بسطاً ، لما كان يمكن فرنسا الاستيلاء على الجزائر ، ولا على تونس ، ولا إيطالية دخول طرابلس ، ولا إنكلترة احتلال مصر والسودان ، بل كانت الدولة العثمانية بأمنها ناحية

الروسية تقدر على حماية هذه البلدان ، لاسيما فى بداية الأمر ، فالروسية هى التى كانت سبب سقوط الشرق ، وواسطة تقسيمه بين الدول الاستعمارية » .

* * *

ومن مآسى روسيا الاستعمارية فى حق الخلافة الإسلامية وفى حق المسلمين بعامة ، تلك الحرب التى دارت بين روسيا وبين الدولة العثمانية — دولة الخلافة الإسلامية . وتعرف هذه الحرب باسم « حرب القرم » التى كانت بين سنتى ١٨٥٣ و ١٨٥٥ م .

وقد اشترك الجيش المصرى المسلم ، مع الجيش التركى المسلم فى هذه الحرب ، بدافع من الأخوة الإسلامية ، والرابطة التى تجمع بين شعب تركيا وشعب مصر من ناحية الدين ، ولقد كتب الأمير عمر طوسون عن تلك الحرب كتاباً سماه : « الجيش المصرى فى الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم » ، ونشر هذا الكتاب سنة ١٩٣٦ م .

وشبه جزيرة القرم تعد منذ القدم من البلاد الإسلامية ، ويرجع ذلك التاريخ إلى القرن السابع الهجرى [الثالث عشر الميلادى] ، والرابطة بين القرم ومصر القديمة ، ويذكر التاريخ أن الملك المنصور « قلاوون » سلطان مصر ، أرسل إلى القرم سنة ١٢٨٧ هـ مهندساً وألفى دينار لإقامة مسجد هناك .

وعندما بدرت بوادر الطمع الأشعبى عند الدب الروسى فى تركيا ، عن طريق « حرب القرم » طلب السلطان العثمانى عبد المجيد من « عباس الأول » والى مصر أن يرسل نجدة من الجنود المصريين ، فأرسل الوالى أسطولا بقيادة أمير البحر « حسن الإسكندرانى » ، وأرسل كذلك جيشاً بقيادة الفريق « سليم فتحى » وأرسل أموالا ومساعدات أخرى .

وفى سنة ١٢٢٩ هـ (١٨٥٣ م) جهز والى مصر جميع اللوازم لجيش النجدة ، وأخذوا المعدات من « دار الصناعة بالإسكندرية » ، وسميت السفن التى سافرت باسم « سفن الجهادية » نسبة إلى الجهاد الذى يفرضه الدين عند الحاجة . وكانت روسيا قد بدأت بالعدوان ، فاحتلت ولاية « ملدافيا » وولاية « فلاخيا » ، فأعلنت تركيا المسلمة على روسيا فى الرابع من شهر أكتوبر عام ١٨٥٣ م ثم صدر بشأن هذه الحرب « فرمان همايونى » من السلطان العثمانى ، جاء فيه بعد مقدمته التى وردت بصدر الترجمة ، وهو موجه إلى والى مصر :

« إنه كما هو معلوم للجميع ، أن قبول مطلب دولة الروسيا بأكلها ، فيما يختص بمسألة الامتيازات الدينية ، فضلا عن أنه يمس حقوق الحكومة ، واستقلال سلطنتنا السنية ، فإنه سيكون — معاذ الله تعالى — موجباً لأنواع الضرر فى الحال والاستقبال ، ولذلك ، ولأن الدولة المشار إليها قد اتخذت أيضاً تدابير عسكرية الغرض منها التهديد ، فمن جهة دولتنا العالية أيضاً ، أرسلت قوة عسكرية إلى حدودنا الشاهانية ، بجهات الأناضول والروم إيلى من قبيل التحفظ والاحتياط .

مع بذل أكبر مجهود فى سبيل المحافظة على الصلح والسلم اللذين حافظنا عليهما دائماً معززين ومحترمين ، طبقاً لأصول وشعائر الإصلاح ومراعاة العهد من جهة أخرى . ومع أننا اقترحنا مشروع نظام وتعديل هذا الخصوص ، وبذلنا الجهد فى اتخاذ كل الوسائل الكتابية ، فلم يكن لذلك أى تأثير .

وأخيراً قد عبر الجيش الروسى نهر (بروت) الذى هو رأس الحدود ، واحتل مملكتى (الأفلاق) ، و (البغدان) اللذين هما ميراثى الشاهانى ، واستولى عليهما ، ومع كل هذا فإن حكومتنا السنية ، وإن كانت سعت بحسن

النية فى المحافظة على الصلح والسلم ، بقصد إصلاح ذات البين ، إلا أنه لم يمكن ذلك .

ولهذا قد دعى جميع الوكلاء الفخام ، والوزراء العظام ، والصدور الكرام ، والعلماء الأعلام ، والأمراء العسكريين ، وسائر مأمورى سلطنتنا السنية ، إلى بابنا العالى ، وعقد به مجلس عمومى فى اليومين الثانى والعشرين والثالث والعشرين من شهر ذى الحجة الشريفة .

ولما جرى فيه بحث المصلحة بكل أطرافها ، وإبداء الملاحظة فيها ، تبين إنه من حيث إن دولة الروسيا رفضت مشروع النظام الذى وافقت عليه دولتنا العلية ، فإن هذا النزاع لن يمكن حسمه بطريق الصلح ، ولذلك ، ولأن الروسيا نقضت العهد باعتداء جيوشها على ممالكنا المحروسة ، كما هو معلوم للجميع ، وأنه ليس من الموافق أيضاً دوام هذا الحال ، فقد تقرر بإجماع الآراء اختيار جانب الحرب ، واتخاذ التدابير العسكرية ، توكلا واعتماداً على عون الله تعالى وعنايته ، واستناداً لإمداد روحانية الحضرة النبوية ، مستعينين بنصرة الله تعالى .

وصدرت أيضاً فتوى شرعية بذلك من طرف شيخ الإسلام ، ولدى عرض الأمر على ذاتنا الشاهانية والاستئذان قد رأينا من المناسب إجراء المقتضى كذلك بموجب المجلس العمومى والفتوى الشريفة ، وأصدرنا خطنا الهمايونى بذلك .

وبمقتضاه المنيف قد أبلغ الأمر إلى فيالقنا الهمايونية بالروم إيلى والأناضول وإلى جميع ممالكنا المحروسة ، الشاهانية بإذاعة أوامرنا الملوكانية الخاصة ، وبما أن المسئولية فى هذه المادة واقعة كلها على دولة الروسيا ، فقد دعونا وابتهلنا إلى الله تعالى بقلوب مخلصة أن ينصر عساكرنا الشاهانية بحوله وقوته ، وهو خير الناصرين .

فأنت أيها الوالى المشار إليه ، عند وصول فرمانى الملوكى الجليل العنوان ، عليك أن تعلن ذلك لأهالى جميع الجهات الواقعة تحت إدارتك وتذيعه ، وأن تنبه عليهم وتفهمهم بأن يشتغلوا جميعاً بالدعاء بنصرة دولتنا العلية ، كما هو مفروض عليهم ، ويواظبوا على ذلك .

هذا ، وبما أن هذه الحرب ضد دولة أرادت الاعتداء على حقوق دولتنا العلية واستقلالها ، بدون أى حق أو سبب ، ولم يطرأ بسببها أى تغيير على العلاقات الودية التى بين سلطنتنا العلية وبين سائر الدول المتحابة ، فيجب عدم وقوع أى تعرض أو سوء معاملة من أحد التجار ورعايا هذه الدول الموجودين بالممالك المحروسة ، بقصد التجارة والسياحة ، ولكافة رعايانا من مختلفى الأديان ، الذين نعد شرعاً أرواحهم وأعراضهم وأموالهم كأرواحنا وأعراضنا وأموالنا .

وأن يكونوا على الدوام مشمولين بالعدل والأمن والراحة ، طبقاً لأحكام الشريفة المنيفة المطهرة . وحاصل الكلام أنه كما سبق أن أعلنا أنه لا يجوز شرعاً ولا عقلا ، أن يكون رعايا دولتنا العلية الذين لهم علاقة دينية مع دولة الروسيا مسئولين عن أعمال الدولة المشار إليها المعلومة ، لأن دعوى هذه الدولة هى لأجل نفوذها ومصالحها فقط ، وحيث إن الامتيازات الدينية التى منحت من قبل أجدادى العظام لهؤلاء الرعايا قد تقررت وتوسعت تحت حماية دولتنا العلية الخاصة منذ مئات السنين .

وهم أيضاً يعلمون بأن تمسك دولة الروسيا الآن بحق حماية الامتيازات المذكورة سيكون سبباً بضعف عقائدهم الدينية ، وحيث إن من أسباب الانتصار أن يعيش جميع رعايانا على اختلاف أجناسهم مع بعض بحالة حسنة وأن لا يكدر أحدهم صفو الآخر ولا يهينه ولا يضره بأى حال ولا فى أى

مكان ، وأن يبذلوا جميعاً بالاتحاد والاتفاق كل ما فى وسعهم فى خدمة الوطن العامة .

ففهم الجمهور كل ذلك تفصيلا ، وابذل جهدك فى أن لا يحدث من أحد ما يخالف رضانا الهمايونى ، وفهم كل شخص جيداً من الآن ، أنه قد سبق أن قرر المجلس العمومى ، وأيده المجلس العمومى هذه المرة أيضاً ، أن ممن يأتى عملا مغايراً للتنبيهات المشروعة المشروحة ، عن جهل أو غفلة أو لأغراض شخصية ، سيكون مسئولا عن عمله ، ويعاقب عقاباً شديداً ، فليعملوا ذلك ويعملوا بموجبه . وعلى كل حال اهتم واعتن بإجراء ما يلزم لذلك بدرايتكم ورويتكم ، واعلم ذلك واعتمد على علاقتنا الشريفة .

تحريراً فى أوائل شهر محرم الحرام ، سنة سبعين ومائتين وألف » .

* * *

وهذا صحفى إنجليزى محايد ، قد رافق الحملة المصرية الإسلامية التى حاربت الروس البغاة على المسلمين فى أرض الإسلام ، ينقل عن أحد جنود الحملة قوله :

« الحمد لله ، والشكر له جل جلاله . ألم يقل على لسان نبيه عليه السلام : « سلم تسلم » أى توجه إلى الله وحده ، واترك أمر نفسك إليه ، وهو يحميك ، فهو راعى الرعاة وحافظ الحفظة » .

ويقول الصحفى المرافق : إن قوة هؤلاء المجاهدين كامنة فى البعد عن الخمر ، وكل ما حولهم مستقر فى جلدهم على احتمال الشدائد ، وكل سلاحهم إيمان راسخ ، ويقين بالله متين ، يتعصبون لدينهم ، ويغالون بمعتقدهم ، وتعصف بهم العواصف وهم ثابتون ، لأنهم على إله السموات والأرض معتمدون ، وتتزعزع الجبال وهم لا يتزعزعون ، لأنهم برب العالمين مؤمنون ،

لا يرهبون الموت فى الحرب ، بل يرغبون فيه ويقدمون عليه ، لأنه خاتمة المتاعب ، ومفتاح لباب جنة النعيم .

لقد كان المسلمون الذين رزحوا تحت نير الدب الروسى يجاهدون بقوة الإيمان ، ونية الشهادة ، وإخلاص النضال لوجه الله ، وهذا هو الشاعر عبدالله فكرى يقول فى هؤلاء المجاهدين وفى جهودهم :

لقد جاء نصر الله وانشرح القلب ... لأن بفتح « القرم » هان لنا الصعب
وقد ذلت الأعداء فى كل جانب ... وضاق عليهم من فسيح الفضا رحب
بحرب تشيب الطفل من فرط هولها ... يكاد يذوب الصخر والصارم العضب
إذا رعدت فيها المدافع أمطرت ... كئوس منون قصرت دونها السحب
تجرع « آل الأصفر » الموت أحمرا ... وللبيض فى مسودها ما تهم نهب
تراهم سكارى للظبى فى رءوسهم ... غناء ومن صرف المنايا لهم شرب
إذا وقعت ذات البروج وأبصروا ... بها السور يتلو السجدة انفطر القلب
وإن هز لدن الرمح غض قوامه ... فكل دم فيهم إلى قده صب
وما احمر خد السيف إلا وأصبحت ... رقابهم شوقاً لتقبيله تصبو
وقد غرهم من قبل كثرة جيشهم ... فلم يغن عنهم ذلك الجيش والركب
وولوا يجدون الفرار تعسكر ... تحكم فيه القتل والأسر والسلب
وأين يسومون النجاة وخلفهم ... تسابقت الخيل المسومة الشهب
ولو سلموا من مرهف السيف أو خلوا ... بأنفسهم يوماً لأفناهم الرعب
فقد راعهم من آل عثمان دولة ... مجيدية ، دانت لها الترك والعرب
وجاء بشير النصر يشدو مؤرخاً : ... لقد جاء نصر الله وانشرح القلب

وقد نظم الشاعر هذه الأبيات يصف فيها موقعة « سباستبول » من معارك

هذه الحرب ، وقد انتصر فيها الأتراك والمصريون على الروس سنة ١٢٧٢ هـ (١٨٥٥ م) .

• • •

وسارت الثورة الشيوعية الحمراء على سنن أسلافها ، مع مزيد من المخادعة والمداهنة ، ومن كيد الشيطان الخبيث ، ففي أواخر سنة ١٩١٧ — وهي أولى سنوات الثورة الدموية الروسية — أحس قادة تلك الثورة بأنهم في حاجة إلى قوى المسلمين الواقعين تحت استعباد روسيا ، ليسيروا مع الثورة ويؤيدها وإذن فلا بد من مخادعة هؤلاء ، ليفتلوا لهم في الذروة والغارب ، كما يقول المثل القديم .

فأصدر قادة هذه الثورة البلشفية — ومن بينهم لينين وستالين — أصدروا في السابع من ديسمبر سنة ١٩١٧ نداء باسم « مجلس قومسيرى الشعب البلشفي » موجهاً إلى الشعوب الإسلامية في روسيا ، ليساعدوا الثورة ، ويقفوا معها ضد أعدائها في الداخل والخارج .

وما كان هؤلاء القادة البولشفيون بمخلصين لهؤلاء المسلمين فيما يقولون ويوجهون من نداء ورجاء ، ولكنهم عن مصلحتهم يبحثون . ولقد اعترف اعترافاً صريحاً واضحاً بأن أسلافهم —على عهد القياصرة قبل الثورة الحمراء— قد ظلموا المسلمين ، وطغوا عليهم ، وسلبوا خيرهم ، ولكن المسلمين أيضاً قد ذاقوا العذاب ألواناً على أيدى هؤلاء الثوار الحمر ، واشترك الأسلاف والأخلاف متواطئين على حرب الإسلام والتنكيل بالمسلمين ، وقديماً قالوا : لا تلد الحية إلا حية !

وهذا هو النداء المخادع ، بل هذا بعض أو جزء منه :

« أيها المسلمون في روسيا ، أيها التتر على شواطئ الفولجا وفي القرم .

أيها الكرنميز والسارتيون فى سيبيريا والتركستان .

أيها التتر والأتراك فى القوقاز .

أيها التشيشيين . . أيها الجبليون فى أنحاء القوقاز .

أنتم يامن انتهكت حرمات مساجدكم وقبوركم ، واعتدى على عقائدكم وعاداتكم ، وداس القياصرة والطغاة الروس على مقدساتكم .

ستكون حرية عقائدكم وعاداتكم ، وحرية نظمكم القومية ، ومنظماتكم الثقافية مكفولة لكم منذ اليوم ، لايطغى عليها طاغ ، ولا يعتدى عليها معتد .

هبوا إذن فابنوا حياتكم القومية كيف شئتم ، فأنتم أحرار لايحول بينكم وبين ماتشتهون حائل ، إن ذلك من حقكم إن كنتم فاعلين .

واعلموا أن حقوقكم شأنها شأن حقوق سائر أفراد الشعب الروسى ، تحميها الثورة بكل ما أوتيت من عزم وقوة ، ولكل ماتتوافر لها من وسائل : جنداً أشداء ، ومجالس للعمال ، ومندوبين عن الفلاحين .

وإذن فشدوا أزر هذه الثورة ، وخذوا بساعد حكومتها الشرعية .

أيها المسلمون فى الشرق . أيها الفرس والأتراك والعرب والهندوس ، أنتم جميعاً يامن وطئ الأوربيون القراصنة أرضكم ، وتاجروا بأرواحكم وأملاككم وحرياتكم قرناً بعد قرن . أنتم جميعاً يامن يحاول اللصوص الذين يستعبدون أهلكم ، ويستبيحون دماءكم وأرواحكم ، فإن من المستحيل عليكم بعد الآن أن تظلوا قابعين لاتحركون ساكناً فى وقت تهز فيه الحرب عرش النظام القديم ، وتشتعل فيه نفوس العالم كله حنقاً على الغاصبين المستعمرين ، وتمتد فيه شرارة الغضب فتصبح ثورة تأتى على كل شىء .

حذار أن تضيعوا وقتكم دون أن تلقوا عن كاهلكم نير المستبدين

والظالمين الذين استبدوا بكم وبأوطانكم . إياكم أن تدعوهم يسلبونكم ما أوتيتم من خير بعد اليوم . وعليكم من اليوم أن تشيدوا صرح كيانكم بأنفسكم وبطريقتكم الخاصة ، وفق ما تحبون وتختارون ، فإن من حقكم أن تفعلوا ، وإنكم لفاعلون ، وهاهو مستقبلكم فى أيديكم .

أيها الرفاق ، أيها الإخوة : لنتقدم سوياً فى عزم وصلابة نحو سلم عادل ديمقراطى . . .

إن رأيتنا تحمل معها الحرية للشعوب المظلومة فى أرجاء العالم .

أيها المسلمون فى روسيا .. أيها المسلمون فى الشرق .. إننا ونحن نسير فى الطريق الذى يؤدى بالعالم إلى بعث جديد ، نتطلع إليكم لنلتمس عندكم العطف والعون » ! .

ألا ما أعذب الكلام ، وما أمر العمل ... ألا ما أعرض الدعوى ، وما أهول الحقيقة .

إن روسيا الشيوعية التى قالت هذا الكلام الحلو المعسول الخداع ، التى أذاقت المسلمين فى روسيا وفى الشرق صنوف البلايا والنكبات . إن الثورة الحمراء التى وعدت المسلمين فى ظلها جنات النعيم هى ذاتها التى اعتدت فى سنة ١٩١٨ بجبروتها وطغيانها على الولايات الإسلامية الأربع التى يتكون منها القوقاز ، والتى كان يقال لها « بلاد الطاغستان » ، وألحقتها بحكومة موسكو ، وابتلعتها ابتلاعاً ، ناقضة بذلك عهودها ووعودها وأقدمت الجيوش الإسلامية المدربة المزودة بالأسلحة القوية الحديثة من طائرات ودبابات ، ومدافع ومصفحات على احتلال الجيوش الإسلامية المحرومة من السلاح والعتاد ، ويسرد المؤرخ المسلم نور محمد خان جانباً من سلسلة الجرائم الشيوعية فى ابتلاع البلاد الإسلامية . فيذكر أنه فى إبريل سنة ١٩١٨

آصدر «لينين» أمراً بالزحف على البلاد الإسلامية دون إنذار سابق ، فأخذت الدبابات تحصد المدن حصداً ، وتدك الحصون والقلاع ، والطائرات تمطر البلاد سيلا من قنابلها ، دون تمييز بين عسكريين ومدنيين .

وفى نهاية هذا العام كان الروس قد استولوا على جمهورية « ايديل أورال » وشمال القوقاز وحكومة « خوقند » فى تركستان ، وتأخر الاستيلاء على شبه جزيرة القرم لعنف المقاومة فيها .

وفى سنة ١٩١٩ استولت روسيا على جمهورية « ألاش أوردو » .

وفى إبريل سنة ١٩٢٠ انتهت من احتلال القرم ، ثم استأنفت الهجوم على جمهورية أذربيجان ، واستطاعت ، إخضاعها .

ثم حاصرت جمهورية . « خيوه » من ثلاث جهات ، فدافع عنها أهلها التركمان دفاع المستميت ، ولكنها سقطت فى نهاية عام ١٩٢٠ .

وفى سنة ١٩٢١ استأنف الروس الهجوم على «جمهورية بخارى» ،ودار بينهم وبين أهلها قتال مرير ، ودافع أحفاد « البخارى » عن وطنهم بكل ما لديهم من بأس . فلما انهزمت جيوشهم المنظمة شنوا حرب العصابات نحو عشر سنين ، ولكنهم فشلوا فى إحراز النصر لعدم وجود أية مساعدة خارجية من العالم الإسلامى .

وأخذ الشيوعيون يلغون معالم الأقطار الإسلامية بشتى ألوان التعذيب والإرهاب ، من تجويع وتشريد، وتهجير جماعى مفروض بالحديد والنار ، إلى إزهاق الحريات ، إلى كبت للشعور الدينى ، إلى حركة استئصال بشرى ، إلى اغتصاب للحقوق والثروات والخيرات ، إلى استيلاء على المناجم الإسلامية العديدة ، إلى تقسيم للأرض ، وتفتيت للأقطار الإسلامية حتى إن الرفيق « كالينين » كتب تقريراً عن مجاعة القرم ، استشهد به كتاب « الإسلام فى

مواجهة الزحف الأحمر » للأستاذ محمد الغزالى ، وهو كتاب أفادنا كثيراً فى هذا المجال ، وفى هذا التقرير الأعداد الضخمة المرعبة التى تبين عدد الذين ماتوا جوعاً من المسلمين ، ويقول التقرير أيضاً : « إن أكل لحم الإنسان لم يكن من الحوادث التى يستغرب لها ، أو تبدو عجيبة فى بابها » !

وحسبنا أن نعلم أن سكان « القرم » كانوا سنة ١٩١٧ خمسة ملايين مسلم ، فاصبحوا فى سنة ١٩٤٠ أقل من نصف مليون ، أو بتعبير آخر أقل من عشر السكان . والقرم نموذج له أشباه ونظائر .

ولقد تقدمت « جماعة الكفاح الإسلامى » بالقاهرة إلى « مستر تريجفلى » سكرتير هيئة الأمم بشكوى مفزعة مبكية ، ضمنتها قائمة بجانب من المجازر والجرائم التى ارتكبها الشيوعيون ضد المسلمين فى الثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرق ، ونقتطف بعضها ، والبعض بالبعض اكتفى كما يقولون :

١ — قتل الشيوعيون سنة ١٩٣٤ فى التركستان وحدها مائة ألف مسلم من أعضاء الحكومة المحلية والعلماء والمثقفين والتجار والمزارعين .

٢ — ما بين سنتى ١٩٣٢ و ١٩٣٤ مات ثلاثة ملايين تركستانى جوعاً نتيجة لاستيلاء الروس على محصولات البلاد ، وتقديمها إلى الصينيين الذين أدخلوهم إلى تركستان لإضاعة معالم الشعب المسلم .

٣ — فى القرم طمسوا معالم الإسلام بما فيها الجوامع الأثرية فى مدينة « باغجه سراى » عاصمة القرم الجميلة ، مثل « جامع خان » وجامع « طوز يازار » وجامع « اصماقويو » وغيرها .

٤ — هدموا فى مدينة «زغرب» جامعاً عظيماً شيده المسلمون رمزاً لوحدة عنصرى الشعب الكروانى .

٥ ـ أغلقوا فى مدينة « سرايفو » الأكاديمية الإسلامية العليا للشريعة الإسلامية ، وجميع المدارس الدينية ، باستثناء واحدة فقط ، أبقوا عليها للدعاية .

٥ ـ قتلوا رجال الدين ، أو نفوهم ، أو حكموا عليهم بالأشغال الشاقة ، أو منعوهم حقوقهم السياسية والإنسانية ومن رجال الدين الذين قتلوهم قاضى القضاة ، ومفتى بخارى ، والشيخ « عبد المطلب داملا » ، والشيخ « محسوم متولى » والشيخ « عبد الأحد دادخان » ، والشيخ « الحاج ملا يعقوب » ، و « الشيخ ملا عبد الكريم » وغيرهم كثيرون كثيرون .

٦ ـ كانوا يحرقون المصاحف الكريمة فى الميادين العامة سخرية من القرآن المجيد والإسلام الحنيف .

٧ ـ قتلوا كثيراً من الزعماء فى التركستان الشرقية سنة ١٩٣٤ ، فى طليعتهم « الحاج خوجه نياز » رئيس الجمهورية و « مولانا ثابت » رئيس الوزراء ، « وشريف حاج » قائد مقاطعة آلتا ، و « عثمان أوراز » قائد مقاطعة كاشغر . و « يونس بك » وزير الدولة ، و « الحاج أبو الحسن » وزير التجارة ، و « طاهر بك » رئيس مجلس النواب ، و « عبد الله داملا » وزير الأشغال ، وغيرهم كثيرون .

٨ ـ وفى ١٩٢٨ قتلوا فى القرم « ولى إبراهيم » رئيس الجمهورية مع جميع وزرائه . وفى سنة ١٩٣٠ قتلوا «محمد قوباى » رئيس جمهورية القرم مع هيئة وزرائه جميعاً ، وفى سنة ١٩٣٧ قتلوا « إلياس طرخان » رئيس الجمهورية رمياً بالرصاص ، مع أعضاء حكومته .

٩ ـ منعوا المسلمين من التمتع بالنظم الإسلامية فى دائرة الأحوال الشخصية

فى جميع أنحاء الاتحاد السوفيتى . حسبى حسبى ! ... حديث الأفاعى طويل المدى ...

كانت الشكوى دامغة ومفزعة ومرعبة ودامية ، ولكن هيئة الأمم لم تحرك ساكناً ، والكفر كله أمة واحدة ! ...

* * *

ما أشد ألوان العذاب التى لقيها المسلمون داخل الأقطار الإسلامية التى ابتلعتها روسيا القيصرية ، واستمرت فى ابتلاعها – بل أفحشت روسيا الشيوعية .

وإذا كان هؤلاء المسلمون الأشقاء قد ذاقوا الخسف والعسف على أيدى الصليبية الغربية ، فقد ظلوا يذوقون هذا الخسف وذاك العسف على أيدى الشيوعية الملحدة الطاغية التى تزعم أن الله خرافة – تعالى الله عن ذلك الإفك علواً مبيناً ، والتى تزعم أن الدين مخدر الشعوب وأفيون الأمم ، والتى تردد فى شعاراتها أنه لابد من مقاومة الدين ... إلخ .

واليوم ... ما أشبه اليوم بالبارحة ... لقد استحدثت الشيوعية الكافرة للملايين من المسلمين الرازحين تحت جبروتها الأحمر بعض المظاهر الخارجية التى يبدون بها أمام الناظرين غير المتبصرين وكأنهم يتمتعون بحرية دينية فى ممارستهم شعائرهم الإسلامية ، وغاية ذلك أن تمكن أفراداً فيهم من أداء فريضة الحج ، أولا تمنعهم أداء فريضة الصلاة .

ولكنهم مازالوا محرومين من أعز شىء فى حياة الإنسان ، وهو الشعور بالحرية والاستقلال فى بلادهم التى بناها أجدادهم بالدم والعرق والعزم ، على أساس من الإيمان واليقين .

ياطول ما يلقى هؤلاء المؤمنون على أيدى الملحدين . كان الله لهم ومعهم !

المعجزة صنع الله

السؤال :

كيف انشق البحر لموسى ؟

الجواب :

يقول القرآن الكريم فى سورة محمد : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ؟

والكثير من الناس لايتدبرون القرآن ، ولا يقفون أمامه – عند قراءته أو سماعه – وقفة التمهل والتأمل والتأنى ، بل يمرون به سراعاً عجالا . فلا يفقهون عنه مايجب أن يفقهوه ليكون زاداً لعقولهم ، ونوراً لبصائرهم ، وحياة لقلوبهم ، ومن هنا يقعون فى خطأ الفهم وخلل الحكم ، ويخيل إليهم من وراء ذلك – مثلا – أن فى القرآن تعارضاً أو تناقضاً – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – ولو أنهم أوتوا الرشاد والسداد لأصبحوا بمفازة ومنجاة من هذا الاختلال .

إن بعض هؤلاء مثلا يقول : إن فى القرآن تعارضاً لأننا نراه حينا يكيل الثناء كيلا لليهود وبنى إسرائيل . ثم نراه حيناً آخر يكيل لهم الذم ، فكيف يتفق هذا وذاك ؟

والقرآن – حقيقة – قد ذكر الثناء على بنى إسرائيل فى مواضع . وذكر الذم لهم فى مواضع ، ولكن ليس هناك تناقض . فهو قد أثنى عليهم فأطال الثناء حينما استقاموا واستجابوا وآمنوا ، وهو قد ذمهم فأوسع الذم حينما فسدوا وأفسدوا وعتوا عن أمر ربهم جل جلاله .

فقد تفضل الله على بنى إسرائيل بما تفضل وأعطاهم ما أعطاهم . ومكن لهم

وطالبهم بشكر النعمة وأداء الواجب ، وقال لهم – كما فى سورة البقرة : (يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم ، وإياى فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ، ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا وإياى فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) .

ولكن اليهود بطروا النعمة ، وتمردوا على أمر ربهم ، وأعرضوا عنه ، واستوجبوا لأنفسهم النقمة ، فبدأ الجزاء الوفاق العادل يصب عليهم العذاب وكان أشد ألوان التمرد من اليهود الذين كفروا أنهم بغوا فى الأرض ، وطغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد .

وإذا كان هناك من يأسى أو يحزن لما أصاب اليهود فى بعض العصور من عسف وتشريد ، فهم أنفسهم قد أسرفوا على غيرهم – قديماً وحديثاً – فى الطغيان والتقتيل ، وهذا مثلا هو المؤرخ الأوربى المشهور « ديورانت » صاحب موسوعة « قصة الحضارة » يقول عن طغيان اليهود العبرانيين على الكنعانيين :

« كانت هزيمة العبرانيين الكنعانيين مثلا واضحاً لانقضاض جموع جياع على جماعة مستقرين آمنين وقد قتل العبرانيون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم ، وسبوا من بقى من نسائهم ، وجرت دماء القتلى أنهاراً ، وكان هذا القتل – كما تقول نصوص الكتاب المقدس – فريضة الشريعة التى أمر بها الرب موسى ، وزكاة للرب ، ولما استولوا على إحدى المدن قتلوا من أهلها اثنى عشر ألفاً ، وأحرقوها وصلبوا حاكمها ، ولسنا نعرف فى تاريخ الحروب مثل هذا الإسراف فى القتل والاستمتاع به ... وقد أقام يوشع حكمه على قانون الطبيعة الذى يقول . إن أكثر الناس قتلا هو الذى يبقى حياً . وبهذه الطريقة التى لا أثر فيها للعواطف استولى اليهود على الأرض الموعودة » .

لم يكن غريباً وقد فعل اليهود أفاعيلهم أن يبوءوا بغضب الله ، فقد كفروا بآيات الله ، وأكثروا من إحراج نبيهم موسى عليه السلام ، وتعنتوا فى اقتراح المطالب ، مع كثرة ما شاهدوا من العجائب ، وما أظهر لهم الله من الغرائب . ولذلك يقول القرآن المجيد فى سورة البقرة : (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله) ويقول فى سورة آل عمران : (ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ، وباءوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

* * *

وبعض الكاتبين يهرف بما لا يعرف حين يتحدث عن طروء اليهود على مصر وخروجهم منها ، ولو استنبأنا التاريخ الممحص لعرفنا أن أول من دخل أرض مصر من بنى إسرائيل هو يوسف عليه السلام ، وانضم إليه إخوته وأسرته ، ونما نسلهم ، وكانوا يوم خرجوا من مصر ستمائة ألف ، وتم هذا النمو خلال أربعمائة سنة .

وقد تم خروج بنى إسرائيل من مصر بقيادة موسى عليه السلام عن عن طريق معجزة إلهية تحدث عنها القرآن الكريم فى سورة الشعراء فقال : (وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون ٭ فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ٭ إن هؤلاء لشرذمة قليلون ٭ وإنهم لنا لغائظون ٭ وإنا لجميع حاذرون ٭ فاخرجناهم من جنات وعيون ٭ وكنوز ومقام كريم ٭ كذلك وأورثناها بنى إسرائيل ٭ فأتبعوهم مشرقين [وقت الشروق] فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ٭ قال كلا إن معى ربى سيهدين ٭ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود

العظيم . وأزلفنا [قربنا] ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) .

ولا شك أن عبور موسى ومن معه البحر كان صنعاً إلهياً خارقاً للعادة ، فهو معجزة ربانية كما تصرح بذلك الآيات السابقة ، وتعززها آيات كريمة أخرى ، كما جاء فى سورة طه : (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبسا [يابساً جدمداً] . لاتخاف دركاً [لحاقاً] ولا تخشى . فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ماغشيهم . وأضل فرعون قومه وما هدى) .

وكما جاء فى سورة الدخان : (فأسر بعبادى إنكم متبعون . واترك البحر رهواً) [ساكناً] (إنهم جند مغرقون) . ومن العجيب بعد ذلك أن يأتى من يفسر المعجزة الإلهية تفسيراً مادياً يضيع فيه مظهر الصنع الإلهى ، فهذا « أندريه يوشان » يقول : إن حرارة الجو كانت عند العبور شديدة الارتفاع ، وعندما هبطت الحرارة بعد غروب الشمس أحدثت جذباً للهواء القادم من الشرق فولد الهبوب الرملية ، كما أن ظاهرة امتصاص مياه الخليج قد جففت جزءاً من أرض الخليج الذى عبروا منه . ويستمر « أندريه » ومن على مذهبه ليقولوا إنه حدث جزر فى ماء البحر عند عبور موسى وقومه ، ولما اتبعهم فرعون وجنوده كان المد قد زحف فطغى الماء عليهم فغرقوا .

ولما اندفع المصريون بعرباتهم خلف الهاربين ، جاءت مياه المد وغطت العربات ، وأغرقت راكبيها ، ومن بينهم الملك تحتمس ذو اللحية الطويلة والعيون الزرقاء !

وإذا أردنا أن نستمع إلى حديث العقل المتزن لم نجده يأبى حديث المعجزة كما يقررها الدين ، فهذا هو الإمام محمد عبده فى كتابه « رسالة التوحيد »

يتحدث عن المعجزة فيقول : « المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلا ، فإن مخالفة السير الطبيعى المعروف فى الإيجاد مما لم يقم دليل على استحالته ، بل ذلك مما يقع . كما يشاهد فى حالة المريض ، يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات ، مع وجود العلة التى تزيد الضعف ، وتساعد الجوع على الإتلاف .

فإن قيل إن ذلك لابد أن يكون تابعاً لناموس آخر طبيعى ، قلنا إن واضع الناموس هو موجد الكائنات . فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات . غاية مافى الأمر أننا لانعرفها ، ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده . على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار ، يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على أى هيئة وتابعاً لأى سبب ، إذا سبق فى علمه أنه يحدثه كذلك » .

وقد عاد الأستاذ الإمام إلى الحديث عن فلق البحر فى تفسير المنار فقرر أنه كان من معجزات موسى ، وأن الخوارق منها ماهو جائز عقلا ، وهى الخوارق التى ليس فيها اجتماع النقيضين ، ولا ارتفاعهما . فلا مانع من وقوع بعض هذه الخوارق بقدرة الله عز وجل على يد نبى من أنبيائه . ويجب أن نؤمن بها على ظاهرها ، ولا يمنع هذا الإيمان من الاهتداء بسنن الله تعالى فى الخلق . واعتقاد أنها لاتتبدل ، ولا تتحول ، كما ذكر الله فى قرآنه الذى ختم به الوحى ، وعلى لسان نبيه الذى ختم به الأنبياء ، فانتهى بذلك زمن المعجزات ، ودخلت الإنسانية بالدين الإسلامى طور الرشد ، فلم تصبح مدهشات الخوارق هى الجاذبة إلى الإيمان وتقويم مايعرض للفطرة من الميل عن الاعتدال فى الفكر والأخلاق والأعمال ، بل صار استخدام العقل أساساً فى تحصيل الإيمان بالله والوحى ، وإيماننا بما أيد الله تعالى به رسله من معجزات لاينفى أن الإسلام هو دين العقل والفطرة .

فالمعجزة إذن معجزة تتحدى لتظهر عجز المعارضين عن الإتيان بمثلها ، وتفسيرها تفسيراً مادياً كما فعل «أندريه بوشان» وأمثاله يفقدها عنصرها الإلهي ، وصبغتها الربانية التي يعتقدها كل المؤمنين الموقنين من أهل الأديان السماوية الثلاث .

وعلى الرغم من أن الإمام محمد عبده كان مجتهداً ومجدداً وواسع الأفق وكان يعتمد على العقل في أغلب مواطنه من تفسير المنار حتى وصفوا هذا التفسير بأنه « التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور وصريح المعقول » فإنه قد رد رداً قوياً على من يقول بأن انفلاق البحر لموسى وقومه كان بسبب الجزر والمد ، فوصف القائلين بذلك بأنهم من المتهورين ، ونص عبارته : « زعم الذين لايحبون المعجزات من المتهورين أن عبور بني إسرائيل البحر كان في إبان الجزر ، فإن في البحر الأحمر رقائق إذا كان الجزر الذي عهد هناك شديداً ، يتيسر للإنسان أن يعبر ماشياً، ولما اتبعهم فرعون بجنوده. ورآهم قد عبروا البحر ، تأثرهم وكان المد تفيض مياهه عقيب الجزر . فلما نجا بنو إسرائيل كان المد قد طغى وعلا حتى أغرق المصريين ، تحقق إنعام الله على بني إسرائيل ، ويتم بهذا التوفيق لهم والخذلان لعدوهم .

* * *

ونريد أن نؤكد تقرير حقيقة مهمة هي أن اليهود كانوا طارئين على مصر ، مهاجرين إليها ، حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد . وفي سفر التكوين من التوراة نفسها جاء النص التالي يخاطب يوسف : « أبوك وإخوتك جاءوا إليك أرض مصر ، ففي أفضل أرضها أسكن أباك وإخوتك ليكونوا في أرض جاسان [يقال إنها الآن بلدة صفط الجنة في محافظة الشرقية] فأسكن يوسف أباه وإخوته وأعطاها ملكاً في أرض مصر في أفضل الأرض » .

وهذا هو المؤرخ أحمد بدوى يقول فى كتابه : « موكب الشمس » :

« من الثابت فى تاريخ مصر ، بناء على ماجاء فى كتب السماء من ناحية . وما شهدت به آثار الفراعنة من ناحية أخرى . أن العبرانيين قد عرفوا مصر ، منذ أيام الدولة الوسطى على الأقل . يجيئونها أول الأمر لاجئين ، يطلبون الرزق فى أرضها ، ويلتمسون فيها وسائل العيش الناعم ، والحياة السهلة الرخية بين أهلها الكرام ، ثم يجيئونها أسارى فى ركاب فرعون ، كلما عاد من حروبه فى إقليم الشرق ظافراً منصوراً ، فينزلهم حول دور العبادة يخدمون فى أعمال البناء ، ويعبدون أربابهم أحراراً ، لم يكرههم أحد على قبول مذهب أو اعتناق دين ، وتطيب لهم الإقامة فى مصر ، وتستقيم لهم فيها أمور الحياة ، ثم ينزل بالمصريين بعض الشدائد ، وتحل بديارهم بعض المحن والنوائب ، فيتنكر لهم بنو إسرائيل ويتربصون بهم الدوائر ، ويعملون على إفقارهم ، وإضعاف الروح المعنوية بين طبقات الشعب ، ابتغاء السيطرة على وسائل العيش فى هذا القطر ، ليفرضوا عليه سلطانهم تارة عن طريق الضغط الاقتصادى ، وأخرى عن طريق الدين والعقيدة » .

وهذا باحث مسيحى هو «شاهين مكاريوس» يقول فى كتابه : « تاريخ الإسرائليين » : « وقد كان تاريخ اليهود إلى وقت خروجهم من مصر تاريخ أسرة صغيرة ، أخذت تنمو وتزداد ، حتى صارت قبيلة كبيرة ، لاكيان لها ، ولا حكومة منها ، ولا شارع أو وازع فيها ، ينظر فى أمورها » .

ويزعم « أندريه بوشان » أن الذين خرجوا مع موسى من مصر كان عددهم مليوناً من الآدميين.ومثلهم من الحيوانات ، فلا يعقل فى زعمه أن ممراً ضيقاً بين حائطين من المياه ارتفاعهما بضعة أمتار يكفى لمرور مليون من الناس فى غمضة عين ، وفى هذا الزعم أكثر من خطأ ، فالتاريخ يذكر

أن العدد الذى خرج مع موسى ستمائة ألف فقط وليس عددهم بالمليون كما زعم، وقد جاء فى تفسير المنار هذه العبارة : « أول من دخل مصر من بنى إسرائيل هو يوسف عليه السلام وانضم إليه بعد ذلك إخوته ، ونما نسله ونسلهم فيها وكثروا ، حتى قيل إنهم كانوا يوم خرجوا من مصر ستمائة ألف ، وهذا النمو كان فى مدة أربعمائة سنة .

وكان المصريون من آل فرعون لايحبون مساكنة الغرباء ، فلما رأى فرعون نمو شعب إسرائيل خاف مغبة الأمر ، لأنه كان يعلم أنهم إذا كثروا ينبسطون فى الأرض ، ويزاحمون المصريين ، فطفق يستذلهم ويكلفهم الأعمال الشاقة ، كصنع الطوب لبناء الهياكل والبرابى لعلمه بأن الذل يقلل النسل ، ويفضى بالأمة إلى الانقراض ، ولكنهم ظلوا مع الاستذلال يتناسلون ويكثرون .

فلما رآهم الحكام المصريون يزدادون نسلا ، وأنهم مع هذا محافظون على عاداتهم وتقاليدهم ، ولا يمازجون المصريين ، وعندهم الأثرة والإباء ، لاعتقادهم أنهم شعب الله وأفضل خلقه ، خافوا أن يقووا بالكثرة ، فيعدوا عليهم ، ويغلبوهم على بلادهم كلها أو بعضها » .

ويتصور هذا الكاتب أن الممر كان ضيقاً ، وأن حائطيه ارتفعا بضعة أمتار مع أن القرآن الكريم فى تعبيره عن طريق العبور يوحى بضخامة الحائطين ، فهو مثلا يقول : (فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) أى كان كل جانب من الماء المتماسك كالجبل الكبير .

وزعم هذا الزاعم ينسى عنصر الصنع الإلهى فى المعجزة فقد نصت الآية كما رأينا على أن انفلاق البحر كان بسبب أن موسى ضرب فيه بعصاه ، ومع أن النص القرآنى لم يذكر أن ذلك كان فى « غمضة عين » فما المانع من هذا :

أن يكون ذلك كذلك ، فالقرآن يقول : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

ويجزم « أندريه بوشان » بأن خروج اليهود مع موسى كان سنة ثنتين وستين وأربعمائة وألف قبل الميلاد ، فى عهد تحتمس الرابع ، ولكن المؤرخ : « جيمس هنرى برستيد » يقرر أن اليهود خرجوا فى عهد رمسيس الثانى ، والمهم فى نظر العقلاء هو أن تكون المعجزة قد حدثت ، وليس المهم بالمكان الأول أن نطيل الجدل حول وقت حدوثها ، وأندريه بوشان نفسه قد نقل عن المؤرخ « روبير » وجهة نظر أخرى ثم سفه كلام روبير حيث يقول : إن بحث روبير غير معقول وأن كتابه المتعلق بخروج اليهود « ليس إلا هراء ، وهو بلا قيمة تاريخية » .

وقد يكون من قبيل استعراض وجهات النظر فى الموضوع أن نشير إلى أن « سيجموند فرويد » قد قرر أن خروج اليهود من مصر كان سنة ١٣٥٨ـــ١٣٥٠ ق.م. وذلك خلال السنوات الثمانى التى تلت موت إخناتون ، وقد ذكر ذلك فى كتابه المثير : « موسى والتوحيد » . وقد قال علماء الآثار إن خروج الإسرائيليين من مصر كانت فى حكم منبتاح ابن رمسيس الثانى فرعون مصر سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف قبل الميلاد .

* * *

وما يقال عن يوم الخروج يقال مثله عن تحديد المكان الذى بدأ منه العبور ، فإذا كان أندريه بوشان يجزم بأن الخروج كان فى يوم الثانى والعشرين من شهر مارس الموافق لليوم الخامس عشر من شهر برمودة من سنة ثنتين وستين وأربعمائة وألف ق. م ، وقد سبق ذكر ذلك ، وتبين لنا أن تحديد هذا العام معارض بأقوال المؤرخين الأخرى . إذا كان أندريه يجزم بذلك ، فليتنا نستطيع أن نقتنع بقوله لنجزم معه بما قال .

ما يقال عن الزمان يقال مثله عن المكان ، فقد تخبط المؤرخون فى تحديد مكان العبور بالضبط . فمن قائل إن مكان العبور كان عند بحيرة التمساح ، ومن قائل إنه كان عن طريق جبل كاسيوس عند شاطئ البحر فى طريق غزة ، ومن قائل إنه كان جنوب البحيرات المرة فى منطقة الشلوفة ، إلى غير ذلك من الأقوال ، ومرة أخرى نقول إن المهم عندنا حدوث المعجزة وأما التفاصيل الفرعية فهى مسألة ثانوية، وبالمناسبة نذكر أن المصادر الدينية الإسلامية تذكر أن نجاة موسى كانت فى يوم عاشوراء ، وأشار المفسرون إلى أن هذا قول علماء إسرائيل فى القديم ، وقد جاء ذكر نجاة موسى فى صحيحى البخارى ومسلم ، ففى تفسير الجامع للقرطبي أنه جاء فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ ، قدم المدينة ، فوجد اليهود صائمين يوم عاشوراء .

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما هذا اليوم الذى تصومونه ؟

فقالوا : هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه ، وأغرق فرعون وقومه ، فصامه موسى شكراً ، فنحن نصومه .

فقال رسول الله ﷺ : فنحن أحق وأولى بموسى منكم . فصامه وأمر بصيامه ، وأخرج البخارى أيضاً هذا الحديث ، وفى روايته أن النبى ﷺ : قال لأصحابه : أنتم أحق بموسى منهم فصوموا .

أما بعد فالمسيرة فى الموضوع طويلة ، وحسبنا ما تقدم ، وعلى الله قصد السبيل .

• • •

واجبنا نحو الشباب

السؤال :

ما واجبنا نحو الشباب ؟

الجواب :

كلما هممت بالحديث أو الكتابة عن الشباب خطر ببالى ما جاء منسوباً إلى رسول الله ﷺ ، وهو : « أوصيكم بالشباب خيراً ، فإنهم أرق أفئدة ، إن الله تعالى بعثنى بشيراً ونذيراً ، فحالفنى الشباب ، وخالفنى الشيوخ » ثم تلا قوله تعالى : (فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) .

نعم إن الشباب أرق أفئدة وأصلح قلوباً ، إذا وجدوا منذ بداية الطريق من يحسن قيادتهم وسياستهم ، فإن فى الشبيبة معنى العزم والتوقد والإقدام ، وكلمة « الشباب » نفسها فيها معنى الحرارة والنور ، لأنها مأخوذة من قولهم : شب الرجل النار ، إذا أوقدها فتلألأت ضياء ونوراً ، وفيها معنى الطموح والارتفاع والتوفز ، إذ يقال : شب الجواد ، إذا رفع يديه معاً إلى أعلى .

ولا جدال فى أن شبابنا بحاجة إلى تربية وتوجيه ، بل نحن أحوج ما نكون إلى تربية الشباب ، لأن الشباب هم رجال الغد ، وهم الذين ستوكل إليهم مقاليد الأمور عما قريب ، وبمقدار توفيقنا فى إعدادهم وتخريجهم يكون الجيل القادم رشيداً موفق الأعمال مسدد الخطوات .

وبعض المصلحين الاجتماعيين يرى أنه لا وسيلة للنهوض بالمجتمع إلا بتربية جيل من الشباب تربية قويمة سليمة ، تكون فيصلا بين جيل فسدت تربيته فنزلت رتبته ، وأجيال قادمة تكون أنقى وأرقى ، وهذه الأجيال لا تتوالد

إلا من أصل كريم طيب ، هو ذلك الجيل من الشباب الذى نستنفد الجهد صادقين مخلصين فى تعليمه وتقويمه .

ونحن نتطلع فنرى الناس شتى المذاهب فى إعداد أبنائهم وفلذات أكبادهم ، فمنهم من يسرف مع ابنه فى الشدة والضغط والكبت ، فيتولد من ذلك التمرد والانفجار ، وتزهق خصائص شريفة كان من الممكن استغلالها والإفادة منها . وهناك من يسرف فى التدليل وإطلاق سراح الحرية ، فيأتى التحلل والفساد ، وتنماع خصال الخير والقوة فى طوفان من الشر والإثم .

ومنهم من يخبط خبط عشواء فى تربية أبنائه ، فيتبع معهم أساليب « عرفية بدائية » لا نصيب لها من العلم أو الفهم أو التعقيد ، بل هى مواريث فجة من مختلف الأجيال المنحرفة أو الفاسدة .

فكيف السبيل إلى تربية الشباب ؟ من الواجب أن نتذكر أولا أن الشاب عنده مجموعة من الطاقات والغرائز ، إذا لم نحسن امتلاك قيادها والبراعة فى توجيهها ، صارت ناراً ورماداً ، فسن المراهقة عند الشباب تحتاج إلى رعاية ووقاية وإرشاد ، وفترة الشك التى تعرض للشباب لا يجوز بحال من الأحوال أن نتجاهلها أو نعالجها بالقسوة والتهديد والوعيد ، بل علينا أن نتذرع بالحكمة فى إصلاح ما يحتاج إلى إصلاح حتى لا يفلت من أيدينا الزمام .

وإذا كان الحديث الشريف يقول : « لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع للمساكين » . فإن الحديث الشريف أيضاً يطالب بالإحسان ـــ أى الإتقان ـــ فى هذا التأديب ، فيقول : « الزموا أولادكم ، وأحسنوا أدبهم » ، ويقول : ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن » .

ولا ريب فى أن رأس الأدب الحسن هو أن ينشأ الشاب على أساس من

الإيمان بالله والتدين السليم والتمسك بمكارم الأخلاق ، وحينما قال القرآن الكريم : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) جاء الحسن وفسر هذا بقوله : « مروهم بطاعة الله وعلموهم الخير » . وقال ابن عباس : « اعملوا بطاعة الله ، واتقوا معاصى الله ، ومروا أولادكم بامتثال الأوامر واجتناب النواهى ، فذلك وقاية لكم ولهم من النار » .

ولقد سأل كثير بن زياد الحسن عن قوله تعالى : (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً) فقال : يا أبا سعيد ، ما هذه القرة فى الأعين ، أفى الدنيا أم فى الآخرة ؟

فقال : لا والله ، بل فى الدنيا . قال : وما هى ؟ قال : هى والله أن يرى العبد من زوجته ، من أخيه ، من حميمه ، طاعة الله ، لا والله ما شىء أحب إلى المرء المسلم من أن يرى والد ولداً أو حميما أو أخاً مطيعاً لله عز وجل .

ولكن غرس الإيمان والتدين والاستقامة الأخلاقية فى نفس الناشئ لا يتحقق بكثرة الكلام وحده ، ولا بشدة التحذير والإنذار ، وإنما يتحقق إذا كانت هناك أمام الناشئ قدوة عملية سلوكية مؤمنة ، تقرن القول بالعمل ، والناشئ يقلد الكبار الموجودين أمامه ببراعة وإتقان ، فإذا كان الكبار أمثلة طيبة للتدين والاستقامة أثروا تأثير الخير والإصلاح فى الناشئين من حولهم ؛ ولو أن الوالد تذكر على الدوام أن ولده أمامه بين يديه ، وهو مسئول عن هذه الأمانة فى الدنيا والآخرة ، لما ارتضى لنفسه أن يقتصر فى تأديبه لولده على مجرد النصائح والوصايا يسوقها إليه فى ترفع وتعال ، وهذا المعنى يذكرنا بقول سيدنا رسول الله ﷺ : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير راع على الناس ، وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته ، وهو مسئول عن رعيته ، وامرأة الرجل راعية على بيت بعلها وولده ،

وهى مسئولة عنهم ، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه ؛ ألا كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » .

ويقول عبد الله بن عمر : « أدب ابنك ، فإنك مسئول عنه : ما ذا أدبته ، وماذا علمته ؟ وإنه مسئول عن بره لك ، وطواعيته لك » . وكأن ابن عمر أراد أن يشير إلى أمر له منزلته فى تصور العلاقة بين الآباء والأبناء ، إذ يجب أن تقوم هذه العلاقة على تبادل الإحسان بين الطرفين ، فالوالد يبدأ بإحسان تربيته لابنه وتنشئته على الدين والخلق القويم والسلوك الرشيد وحسن الجمع بين القول والعمل ، فإذا صار الفتى رجلا ، ورأى أن أباه قد رباه وقومه ، ورعاه وأكرمه ، حفظ الجميل وصان الصنيع وقابل الإحسان بالإحسان .

وهذا شاب يرى أن أباه قد أهمله وأساء إليه ، ومع ذلك يطالب الوالد ولده بأن يؤدى إليه حق الآباء المكتوب على الأبناء ، فقال الشاب لأبيه : يا أبت ، إن عظيم حقك على لا يذهب صغير حقى عليك ، والذى تمت به إلى أمت به إليك ، ولست أزعم أنا سواء ، ولكنى أقول : لا يحق لك الاعتداء ! .

ولذلك رأينا ابن القيم فى كتابه « تحفة الودود » يقول هذه العبارة : « فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه ، وتركه سدى ، فقد أساء إليه غاية الإساءة ، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم ، وترك تعلمهم فرائض الدين وسننه ، فأضاعوهم صغاراً ، فلم ينتفعوا هم بأنفسهم ، ولم ينفعوا آباءهم كباراً » .

والإشارة فى كلام ابن القيم إلى تضييع الشباب صغاراً يلفت أبصارنا وبصائرنا إلى خطيئة كبرى يقع فيها الآباء بالنسبة إلى تربية الأبناء ، فكثير من هؤلاء الآباء يهملون تنشئة أبنائهم على الدين والاستقامة وهم فى أول الطريق ،

فإذا شب هؤلاء الأبناء ، وخيل إليهم أنهم قد صاروا رجالا ، وأن لهم الحق فى الحرية والانطلاق ، ومضوا فى مسالك الحياة بلا تحفظ أو احتياط ، أخذ الآباء يحاولون تعليم أبنائهم مبادئ الحق والفضيلة ، فيصعب عليهم قياد الأبناء ، فيسخط الآباء على أولادهم ، ويصفونهم بالتمرد والاعتساف ، ولو أنصف الآباء للاموا أنفسهم قبل لومهم أبناءهم ، فهم الذين أهملوا هؤلاء الأبناء حينما كانوا كالعجينة اللينة الطيعة القابلة للتشكيل والتعديل ، ولو تدرج الآباء مع الأبناء فى غرس بذور التدين والاستقامة ، درجة بعد درجة ، ومرحلة وراء مرحلة ، لاعتدل أمر هؤلاء ، وقديماً قال شاعرنا :

وينشأ ناشئ الفتيان منـــا . على ما كان عوده أبوه !

وما أقوى التحذير الذى نلمحه فى تلك العبارة التى قالها — وقد كبر — لأبيه الذى أهمل تربيته فى صغره ، وهى : « يا أبت ، إنك عققتنى [أى أهملتنى] صغيراً ، فعققتك كبيراً ، وأضعتنى طفلا ، فأضعتك شيخاً » .

• • •

والرائع المعجب أن التراث الإسلامى قد عنى بتربية الأبناء والشباب عناية كبيرة ملحوظة ، ولو راجعنا ما كتبه أمثال الغزالى وابن خلدون وابن المقفع وابن سينا وابن جماعة وابن سحنون والماوردى وابن مسكويه، لوجدنا أنهم تعرضوا للجلائل والدقائق فى تربية الأبناء ، ونوهوا بأن العناية بهذه التربية تجلت فى القرآن الكريم والسنة المطهرة وكتب الأخلاق والوصايا وغيرها من مصادر التراث الإسلامى .

وها نحن أولاء نرى السنة النبوية الشريفة تلفتنا إلى العناية بالأبناء ، منذ بداية الطريق ، فيقول الحديث : « من ولد له ولد فليحسن اسمه وأدبه » . . وإذا كانت عناية الإسلام بتربية الأبناء تبدأ من حسن اختيار الاسم ، فإن

ما خلفه المسلمون السابقون من تراث تربوى يرينا كيف اتسعت آفاقهم وتكاثرت وصاياهم فى هذا الباب ، حتى شملت كل ناحية تتعلق بتقويم الناشئة وإعدادهم للحياة العاقلة الفاضلة الواسعة ، فهذا عمر بن الخطاب يكتب إلى سكان الأمصار يقول لهم : « أما بعد ، فعلموا أولادكم السباحة والرمى والفروسية ، ورووهم ماصار من المثل وحسن من الشعر » . وكان ابن التوأم يقول: من تمام ما يجب على الآباء من حفظ الأبناء أن يعلموهم الكتابة والحساب والسباحة .

ولقد قال الحجاج لمؤدب أولاده : « علم أولادى السباحة قبل الكتابة ، فإنهم يجدون من يكتب ، ولا يجدون من يسبح عنهم . وتحدث أبو عقيل بن درست فقال : رأيت أبا هاشم الصوفى مقبلا من جهة النهر ، فقلت : فى أى شىء كنت اليوم ؟ فقال : فى تعلم ما ليس ينسى ، وليس لشىء من الحيوان عنه غنى . قلت : وما ذاك ؟ قال : السباحة .

والإسلام يرى من الواجب على كبار الأمة نحو شبابها أن يوصوهم دائماً بحياة القوة والفتوة والفروسية ، وبالتخفف من الترف والتنعم ، وبتعود الخشونة لأن النعم لا تدوم ، وهذا عمر بن الخطاب يوصى شباب الأمة المؤمنة وصية جليلة تعد نموذجاً باهراً لأدب الفروسية والفتوة ، فيقول لهم : « اتزروا وارتدوا ، وانتعلوا ، وألقوا الخفاف ، وألقوا السراويل ، وعليكم بثياب أبيكم إسماعيل ، وإياكم والتنعم وزى العجم ، وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب ، وتمعددوا واخشوشنوا ، واخلولقوا ، واقطعوا الركب ، وانزوا على الخيل نزواً ، وارتموا الأغراض » .

إنه يقول لهم : « اتزروا وارتدوا » أى اكتفوا بلبس الإزاء والرداء ، وهما ثوبان خفيفان ليس فيهما ثقل ولا ترف ولا إسراف . ويقول لهم : « وانتعلوا » والنعل حذاء خشن فيه شىء من الصلابة والتماسك ، مع قلة ثمنه

وقلة ما يستره من القدمين ، ويقول لهم : « وألقوا الخفاف والسراويل » لأنها لينة طرية قد يتعود الإنسان معها نعومة الأظفار وضعف الاحتمال .

ويقول لهم : « وعليكم بثياب أبيكم إسماعيل » . وإسماعيل هو جد العرب ، وكان فارساً قوياً متماسكاً ، وكانت ثيابه ثياب فروسية ، لأنه يكتفى بالإزار والرداء ولا يلبس ثياب المترفين أو العاطلين من النشاط والعمل .

ويقول لهم : « وإياكم والتنعيم وزى العجم » فهو يحذرهم من التوسع فى التمتع باللذات والشهوات ، ويحذرهم أن يقلدوا العجم فى ثيابهم الناعمة الرخوة التى يألفها أهل التبطل والفراغ من التبعات .

ويقول لهم : « وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب » فهو ينصحهم بالتعرض للشمس ، حتى تصح أبدانهم ، وتقوى عضلاتهم ، ويتعودوا احتمال أشعتها وحرارتها ، وتذيب هذه الشمس من أجسامهم ما فيها من فضلات ورواسب .

ويقول لهم : « وتمعددوا » أى كونوا كأبيكم معد بن عدنان الذى كان ذا فروسية وقوة ، وكان خفيف الثياب ، حسن الأخلاق والأفعال . ويقول لهم : « واخشوشنوا » أى تعودوا الخشونة فى الملبس والمأكل والمركب ونحو ذلك ، حتى لا تضعفوا ولا تتعودوا الرفاهية والكسل ، ولذلك قال عمر فى كلمة أخرى : « اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم » .

ويقول ابن القيم فى كتابه « الفروسية » تعليقاً على هذه العبارة : « وقوله : واخشوشنوا ، أى تعاطوا ما يوجب الخشونة ، ويصلب الجسم ، ويصبره على الحر والبرد والتعب والمشاق ، فإن الرجل قد يحتاج إلى نفسه فيجد عنده خشونة وقوة وصبراً مما لا يجده صاحب التنعم والترفه ، بل يكون العطب إليه أسرع » .

ويقول لهم عمر : « واخلولقوا » أى جهزوا أنفسكم وكونوا على استعداد القيام بما يجب عليكم من تبعات وواجبات ، لأن الكلمة مأخوذة من قولهم : اخلولق السحاب ، أى اجتمع وتهيأ للمطر وصار خليقاً له ، فمعنى « اخلولقوا » ـ كما يعبر ابن القيم نفسه ـ : تهيئوا واستعدوا لما يراد منكم ، وكونوا خلقاء به ، جديرين بفعله ، لا كمن ضيع أسباب فروسيته وقوته عند الحاجة !

ويقول لهم : « واقطعوا الركب ، وانزوا على الخيل نزواً » أى لا تتعودوا ركوب الخيل بوضع أقدامكم فى الركاب ، بل اقطعوا هذا الركاب من سرج الجواد ، وإذا أراد أحدكم أن يعتلى ظهر الجواد ، فليقفز عليه دون الاستعانة بالركاب ، وهذا يستدعى خفة فى الجسم ، ونشاطاً فى الحركة ، ومرونة فى القفز . . .

ويقول لهم أخيراً : « وارتموا الأغراض » : أى اجعلوا همكم عند الرمى هو أن تصيبوا الأهداف ، وإصابة الهدف عند الرمى لا بد له من تمرين وتدريب ودقة رياضية خاصة .

وهكذا طلب عمر إلى الشباب فى وصيته هذا أن يكونوا أمثلة للقوة والفتوة والفروسية ، ولذلك أورد ابن القيم هذه الوصية الغالية وتحدث عنها فى كتابه « الفروسية » وهو كتاب لو كان الأمر بيدى لفرضت دراسته وتفهمه كل شاب نعده فى مجال الجندية أو الفتوة أو الرياضة أو الأخلاق .

كأنما كان الفارق فى وصيته السابقة يريد أن يحقق ما طالب به السلف الصالح حينما قالوا : « طيروا دماء الشباب فى وجوههم » وكأنهم بهذا القول كانوا يطالبون الكبار بأن يجعلوا الشباب دائماً فى حركة ونشاط حتى يظل دم الشباب حاراً جارياً مترقرقاً على صفحات وجوههم

• • •

ومن الطبيعى أن يكون هناك خلاف ما بين الشيوخ والشباب ، أو بين الآباء والأبناء ، أو بين أهل جيل على أهبة الرحيل ، وأهل جيل على أهبة التألق والسطوع ، وإذا لم يفهم الكبار هذه الحقيقة ، فإنهم لن يحسنوا قيادة الشباب ، بل سيوسعون دائرة الخلاف بين الفريقين يوماً بعد يوم .

من واجب الشيوخ نحو الشباب أن يتذكر الشيوخ أن الأجيال يختلف بعضها عن بعض بسبب اختلاف الأحداث والأوضاع والبيئات ، وبسبب التطور الذى يحدث فى أساليب الحياة وشئون الأحياء ، ولعل عمر رضى الله عنه كان يقصد شيئاً قريباً من هذا المعنى حين قال : « الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم » ، وهذه الكلمة ينسبها الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » إلى عروة بن الزبير بن العوام ، وفى موضع آخر من كتابه هذا يقول عنها إنها إحدى ثلاث كلمات « مرسلة » ، وقد رويت لأقوام شتى ، وقد يجوز أن يكونوا حكوها ولم يسندوها[1] .

وكذلك ينسب إلى عمر أنه قال : إن أبناءكم قد خلقوا لجيل غير جيلكم ، وزمان غير زمانكم » .

ومن هنا كان واجباً على الوالد أن يقدر شعور ولده وتفكيره ، ويلاحظ الفرق بين زمنه وزمنه ، وبين تفكيره وتفكيره ، وعلى الأب أن يتعرف ميول ابنه ، وأن يتبين استعداده واتجاهه ، وأن يضعه حيث يريد ، أو حيث يستفيد ويفيد ، فلا يكرهه على لون من الدراسة لا يطيق أو لا يستطيعه ، ولا يرغمه على اتجاه لا يحبه أو حرفة لا يرغب فيها ، ولنذكر الحديث القائل : « كل ميسر لما خلق له » .

ومن باب تقدير الشباب وحسن الإفادة منهم أن نشركهم فى الأمور

---

(١) انظر البيان والتبيين ، ج ٢ ص ٢٣ و ٢٠٢ و ج ٣ ص ٢٩٤ .

ونبادلهم الآراء ، وقديماً قالت العرب : عليكم بمشاورة الشباب ، فإنهم ينتجون رأياً لم ينله القدم ، ولا استولت عليه رطوبة الهرم .

وقال هرم بن قطبة : « عليكم بالحدث السن ، الحديد الذهن » . كما قال الشاعر :

رأيت العقل لم يكن انتهاباً ولم يقسم على عدد السنينا
ولو أن السنين تقاسمته حوى الآباء أنصبة البنينا

ولقد روى البخارى أن عمر بن الخطاب كان يدخل عبد الله بن عباس – وهو شاب – مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد نفسه فقال لعمر : لم تدخل هذا معنا ؟ . فيقول عمر : إنه من حيث علمتم . ودعا عمر ابن عباس ذات يوم مع هؤلاء الأشياخ ليريهم من علمه وحدة ذهنه ، وسألهم عمر عن بعض آيات القرآن الكريم ، فقالوا فيها قولا لم يقتنع به عمر ، ثم سأل عمر ابن عباس فقال فيها رأيه ، فزكى عمر هذا الرأى قائلا : « ما أعلم منها إلا ما تقول » !

ويروى أيضاً – كما جاء فى تفسير الطبرى – أن عمر قرأ قوله تعالى : (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون). ثم سأل عمر عنها من كانوا معه ، فقالوا : الله أعلم . فقال عمر : قولوا نعلم أو لا نعلم .

وكان ابن عباس واقفاً خلفه فى تواضع ، وهو شاب حدث ، فقال لعمر : فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين . فقربه عمر إليه وقال له : قل يا ابن أخى ولا تحقر نفسك . فقال ابن عباس : « هذا مثل ضربه الله فقال : أيود أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير والسعادة ، حتى إذا كان أحوج

ما يكون إلى أن يختم بخير ، حين فنى عمره ، واقترب أجله ، ختم ذلك بعمل من أعمال أهل الشقاء ، فأفسده كله فحرمه أحوج ما يكون إليه » . فأعجب عمر بابن عباس .

* * *

ومن واجبات الآباء نحو الأبناء أن يشعروا هؤلاء الأبناء منذ بداية الطريق بروح الصداقة والمودة ، وعاطفة اللين والمرحمة ، ولقد روى ابن قتيبة فى « عيون الأخبار » أنه جاء فى الحديث : « من كان له صبى فليستصب له »[1] . وكان عروة بن الزبير يقول لأولاده : « يابنى ، العبوا فإن المروءة لاتكون إلا بعد اللعب » . وجاء فى « الجامع الصغير » أن الخطيب روى فى التاريخ عن سهل بن سعد وعن عمر : « التراب ربيع الصبيان » .

وجاء فى حديث أبى رافع : « كنت ألاعب الحسن والحسين بالمداحى » ، وهى أحجار كانوا يحفرون لها حفيرة ، ويدحون — أى يرمون — فيها بتلك الأحجار ، فإن وقع الحجر فى الحفرة فقد غلب صاحبها ، وهى تشبه لعبة « البليارد » المعروفة الآن . ولقد سئل ابن المسيب عن الدحو بالحجارة فقال : لابأس[2] به .

وورد فى الأثر : « لاعب ابنك سبعاً ، ثم أدبه سبعاً ، ثم صاحبه سبعاً . ، ثم دع حبله على غاربه » .

وقديماً قال الأحنف : « أولادنا ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم سماء ظليلة ، وأرض ذليلة فإن غضبوا فأرضهم ، وإن سألوا فأعطهم ، ولا تكن عليهم قفلا فيملوا حياتك ، ويتمنوا موتك » !

---

(١) عيون الأخبار ، ج ٣ ص ٩٥ .
(٢) النهاية لابن الأثير ، ج ٢ ص ١٠٦ . وانظر تفسير المنار ، ج ١ ص ٢٤٨ .

ولكن هذا يجب أن يكون بميزان معتدل ، فالصبي فى صغره لايطيق القسوة أو الخشونة ، كما أنه يتعقد نفسياً لو أنه أحس من أبيه أو مربيه روح التخويف والتعذيب ، وفى هذا الصبي طاقات وإمكانيات وقوى مذخورة ، يمكن إثارتها وتجليتها بروح المودة والتشجيع ، وأسلوب الاستكثار من الخير والحكمة فى معالجة نوازع الشر ولا ينبغى أن يفرض الكبير على نفسه التزام التهديد والإرغاب للصغير ، أو فرض التوقير والاحترام حتى فى مواقف لاتستلزم هذا التوقير أو ذلك الخوف ؛ ولعلنا نتذكر موقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين مر على مجموعة من الصبيان وفيهم عبد الله بن الزبير ، فانصرف الصبيان هيبة من عمر ، ووقف عبد الله ، فقال له عمر فى تودد: مالك لم تفر مع أصحابك ؟ . فأجابه : يا أمير المؤمنين ، لم أذنب فأخافك ، ولم يكن بالطريق ضيق فأوسع لك . فلم يضق عمر بما قاله عبد الله ! ...

ولقد تتوافر عند الصبي طهارة وبراءة وسذاجة ، ثم نسيء به الظن دون موجب ، فنلقى على هذه البراءة سحباً من الشكوك والريب . ونلقى هذه الطهارة بما لايناسبها من العنف والشدة ، فنزهق تلك الروح الطيبة ونوجد مكانها التواء وانحرافاً ، فنكون نحن الجناة ، ويكون الناشئ هو الضحية بين أيدينا دون أن نشعر .

• • •

ومن الواجب على الآباء نحو الأولاد أن يعدلوا بين هؤلاء الأولاد ، ولا يفرقوا بين ابن وابن ، ولا بين بنت وبنت ، ولا بين ابن وبنت ، وقد جاء فى الحديث : « اعدلوا بين أبنائكم ، اعدلوا بين أبنائكم ، اعدلوا بين أبنائكم » . وهذا أمر مؤكد بالتكرار ثلاث مرات لإيضاح الإيجاب وإبرازه .

والمشاهد فى كثير من نواحى المجتمع الإسلامى أن كثيراً من الآباء لايعدلون بين أولادهم ، بل يفرقون بينهم فى المعاملة ، مستجيبين فى ذلك لرغبات بعض الزوجات ، أو خاضعين لبعض التقليد المنحرفة الموروثة التى تؤدى فى كثير من الأحيان إلى حرمان بعض الذرية من الحقوق المشروعة التى قررها الدين .

وتروى السنة أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ يسأله أن يشهد على أنه خص بعض أولاده بشىء من ماله إرضاء لرغبة زوجته ، فسأله الرسول عما إذا قد أعطى كل ولد من أولاده مثل هذا ، فأجاب الرجل بالنفى ، فرفض النبى ﷺ أن يشهد ، وقال : إنى لا أشهد إلا على حق . وفى رواية أنه قال : لاتشهدنى على جور ، إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم . وفى رواية : اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم . وفى رواية : أشهد على هذا غيرى[1] .

ولعل أخطر أنواع التفرقة هنا هو التفرقة بين الذكور والإناث من الأولاد ، فترى الجهلة من الآباء يحرمون بناتهم حقهن فى الميراث ، ويفرقون فى المعاملة بين الأبناء والبنات ، مع أن أنسا رضى الله عنه روى أن رجلا كان جالساً مع النبى ﷺ ، فجاء ابن صغير له فقبله الرجل وأجلسه فى حجره ، ثم جاءت ابنة صغيرة له ، فأجلسها إلى جانبه ، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : ماعدلت بينهما .

وقد أجاد الشاعر حين قال :

لقد زاد الحياة إلىّ حباً ... بناتى أنهن من الضعاف
مخافة أن يرين البؤس بعدى ... وأن يشربن رنقاً بعد صاف

(١) إتحاف الودود لابن القيم ، ص ٧٦ .

وأن يغرين إن كسى الجوارى   فتنبو العين عن كرم عجاف ![1]

إن الأولاد أفلاذ الأكباد من الآباء ، وإن الأولاد أمانة بين أيدى الآباء ، والآباء مسئولون عنهم أمام الله وأمام الناس ، وخير الآباء من صان الأمانة وأدى إليها حقوقها منذ بداية الطريق .

* * *

الحركات التقدمية فى تاريخ الإسلام

السؤال :

نريد أن نعرف شيئاً عن الحركات التقدمية فى تاريخ الإسلام .

الجوب :

إن الإسلام دين يمثل التقدم والتجدد والتطور ، لأنه راعى الظروف المتجددة المتغيرة التى يتعرض لها الإنسان والمكان والزمان ، فأتى بقواعد كلية ومبادئ أساسية ، تصلح لكل الظروف ، ثم ترك الفروع والأجزاء والوسائل ، تكيفها عوامل التغير والتطور ، فى نطاق ماشرع الله الحكيم من أركان ودعائم .

ولعل من أدل الشواهد على أن الإسلام يتسع لصالح التقدم وسليم التطور ونافع التجدد قول الرسول ﷺ : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » .

ولقد قال العلماء فى تفسير هذا الحديث — كما ذكرت فى كتابى : الغزالى والتصوف الإسلامى — إن معنى التجديد هو أن يبين المجدد السنة من البدعة ويؤيد أهل العلم والاتباع ، ويذل أهل الضلال والابتداع .

(١) كرم : بمعنى كريمات ، لأن الكلمة مصدر يلتزم فيه الإفراد والتذكير .

وقد يمكن أن نضيف إلى هذا مايوضحه ويجلوه ، وهو أن المجدد لدين الله يبعث فى الأمة المؤمنة بهذا الدين روحاً جديدة ، تستيقظ بها من سباتها ، وتقوى من ضعفها ، وتعز بعد ذلها ، فتعاود سيرة سلفها ، من التزام الصراط المستقيم ، والاحتكام إلى دين الله عز وجل ، وجعله رائداً فى الحياة يسدد خطاها ، ويحفظ عليها هداها ، ويحسن لها الجمع بين الدين الحق والحياة السعيدة ، ويهبها من سنائه وسناه ما يجعل أهلها يزدادون إيماناً بأن هذا الدين صالح لكل زمان ومكان ، بما فيه من أصول عامة ، ومبادئ كلية ، وأحكام الٰهية، تحدد الأهداف والمقاصد ، وترسم الخطط والمناهج ، وتضع الحدود والضوابط ، ثم تتيح المجال ذاسعة لتطور الحياة والأحياء ، وتطوير الوسائل والأسباب .

وإذا كانت العقائد والمبادئ والأخلاق ثابتة فى نظر الدين ، لاتتغير ولا تتبدل ، فإن أمور الدينا فى الاجتماع والحياة تتجدد وتتبدل ، وتتطور وتتقدم ، والإسلام دين قد جاء لإسعاد الإنسان ، فمن الطبيعى أن يهيئ للإنسان ما يفتح عليه كل حين من بركات ربه وخيرات كونه وأسباب تطوره مايجعله فى تقدم وارتقاء .

والقاعدة الأساسية فى الإسلام أنه دين العقل ، ولذلك قال أحد الأعراب وقد وعى الإسلام : « ما رأيت محمداً يقول فى أمر : افعل ، والعقل يقول : لاتفعل ، وما رأيته يقول فى أمر : لاتفعل ، والعقل يقول : افعل » . وهذا العقل السليم القويم هو الذى يفهم النص الدينى ، ويدرك حكمته ، ويستنبط طريقة تطبيقه أو القياس عليه . وهذا العقل هو الذى يزوده ربه تباعاً بالعلم والمعرفة وسعة الإدراك ، ولعل القرآن يشير إلى ذلك حين يقول : « علم الإنسان ما لم يعلم » . ويقول : (وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) ، ويقول : (وقل رب زدنى علماً) ففى هذه الآيات إشارات

واضحات إلى أن العلم ينمو ويزداد وكلما نما العلم وزاد صحبته مرحلة من مراحل التقدم والتطور .

ولا شك أن المسلمين فى عهد رسول الله ﷺ كانوا محكومين بأمرين لا يحتاجون معهما إلى إرهاق النفوس فى تطلب وسائل التجديد ، وهما القرآن والسنة ، فالدعوة الإلهية ما زالت آياتها تتنزل من لدن الحكيم الخبير ، فيها البيان والعلاج والهداية ، وكلما جدت حادثة أو عرضت مناسبة ، جاءت آيات من القرآن تحكم وتفصل ، والداعية الأول الموحى إليه المعصوم بتأييد ربه — وهو النبي — موجود بين المسلمين ، يفسر لهم ، ويطبق الدعوة أمامهم ، ويترجم لهم القرآن إلى عبادات ومعاملات وسلوك ويقول لمن حوله : « خذوا عنى مناسككم » .

ومع ذلك نلمح باكورة من بواكير الاجتهاد تشرق بشعاع مبشر بما وراءه ، وتتمثل تلك الباكورة فى موقف معاذ بن جبل رضى الله عنه ، حينما اختاره النبي ليكون قاضياً فى اليمن ، فقد سأله النبي فقال له :

بم تقضى يامعاذ ، إن عرض لك قضاء ؟

فأجاب معاذ : أقضى بكتاب الله عز وجل .

فسأله النبي : فإن لم تجد ؟

أجاب : فبسنة رسول الله .

فسأله النبي : فإن لم تجد ؟

أجاب : أجتهد رأيي ولا آلو [أى لا أقصر فى الاجتهاد] .

فأعجب الرسول برده ، وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله .

والاجتهاد هو أن يبذل المجتهد — الذى توافرت له شروط الاجتهاد — ما فى وسعه لاستنباط الأحكام من أدلتها التفصيلية ، ولعل موقف معاذ كان أول موقف يتحمل فيه مسلم تبعة الاجتهاد ، وهو يتولى مهمة الحكم بين الناس والفصل فى قضاياهم باسم الإسلام ، ولذلك لايصعب علينا أن نعد هذا الموقف طليعة مواقف التقدم والتطور فى الإسلام .

ولقد يبدو لنا هذا الموقف اليوم يسيراً محدوداً ، والسبب فى هذا التصور منا هو أننا ننظر إليه بعد أن مضى عليه أربعة عشر قرناً ، وبعد أن عرفنا فى تاريخ الإسلام ما عرفنا من مراحل التقدم والتجدد ، والتطور والاجتهاد ، ولكن لو عدنا إلى الوراء كل هذا الزمن ، وشهدنا المجتمع الإسلامى الأول ، وهو يحتكم فى كل أموره إلى قرآن يتنزل آيات بعد آيات ، وإلى نبى مرسل حمله الله تبعة البيان لهذا القرآن ، لأدركنا أهمية الموقف الذى وقفه معاذ ، وارتضاه الرسول ﷺ .

* * *

وتمضى الأيام ، ويتم نزول القرآن ، ويتردد فى أسماع المسلمين قول ربهم : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً) . وبعد قليل تقع الواقعة ، التى تزلزل الأرض ، وتبلبل العقول فيلحق الرسول بربه ، ويقف جمهور المسلمين باكياً مدهوشاً لايدرى ماذا يصنع بعد أن انقطع نزول الوحى من السماء ،ورحل الموحى إليه إلى عالم البقاء.

وهنا يقف أبو بكر رضى الله عنه وقفة حازمة صارمة مشهورة ، ليصدع أسماع القوم بهذه الصحة :

« من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لايموت ،(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل

انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزى الله الشاكرين) .

إنها وقفة لم تستغرق دقائق ، ولكنها بقيت معلماً بارزاً من معالم المسيرة الراشدة المتقدمة إلى الأمام ، حيث فرقت بين الدعوة الدائمة والداعية الذى يدركه الموت ، وذكرت بأن عبادة الخالق فوق تمجيد القائد ، وأن الأمر كما قال الله لرسوله : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

وبعد قليل يخطو أبو بكر خطوة أخرى لها جلالتها وأهميتها ، فهو يطبق نظام المشاورة فى تنظيم شأن الحكم ، وفى اختيار الخليفة للرسول ويتألق نجمه فى اجتماع « السقيفة » ، وحين يبايعه الناس والياً عليهم ، يقف بينهم ، ولأول مرة فى تاريخ الإسلام يرسم حدوداً وقيوداً للحاكم ، ويبين العلاقة بين الأمة وواليها ، ويضع الضوابط التى يلزم الوالى أن يحتكم إليها ويتقيد بها ، فيقول فى أول خطبة له بعد استخلافه :

« أيها الناس ، إنى وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فقومونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم ، ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه ، أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم » .

ويخطو أبو بكر خطوات أخرى تقدمية . فيجمع القرآن فى مصحف ، وهذا أمر لم يحدث فى عهد الرسول ، ولم يفكر فيه المسلمون من قبل ، بل عارضه بعض المسلمين حين سمع به ، محتجاً بأن هذا لم يحدث فى عهد النبى ، ولكن أبا بكر رآه خيراً فأقدم عليه . بعد أن أقنع الناس بفائدته ، ويطبق

أبو بكر مبدأ أن الأنبياء لا ميراث لهم ، وأن ما تركوه صدقة ، برغم ما لقى أبو بكر فى ذلك من معارضة .

ومع هذه الخطوات لم يفرط أبو بكر فى دينه ، ولذلك وقف موقف الحزم والعزم أمام تمرد المرتدين وقال قولته المشهورة : « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ ، لقاتلتهم عليه حتى يؤدوه » .

ويمضى أبو بكر إلى ربه ويقبل عمر الفاروق .

وتلوح خطوات عمر التقدمية أكثر عدداً وأوسع أثراً ،فهو يجتهد ويقف مواقف تستلفت الأنظار وتثير الأفكار ، فهو مثلا يمنع الزكاة عن المؤلفة قلوبهم ، مع أن ذكرهم قد جاء ضمن مستحقى الزكاة فى آية من القرآن ، ويقول عمر قولته : « إن الله أعز الإسلام وأغنى عنكم ، فإن أتيتم وإلا بيننا وبينكم السيف » .

وهو بهذا لا يعطل نصاً من نصوص القرآن كما قد يفهم بعض الغافلين ولكنه يرى أن العلة الداعية إلى إعطائهم غير موجودة .

وهو لا ينفذ حد القطع فيمن سرق عام المجاعة ، لا على أساس أنه يعطل حكماً ، بل على أساس أن هناك شبهة السرقة للحاجة والجوع ، والرسول ﷺ يقول : « ادرءوا الحدود بالشبهات » . وهو يهدد صاحب العمل الذى سرقه بعض أجرائه ، لأنه لم يقطعهم أجراً موازياً لمجهودهم ، ويقول عمر لهذا الظالم: لئن عدت إلى ظلمك وجئت تشكوهم لأقطعن يدك !

وهو يؤمم الأرض المفتوحة فى سواد العراق وغيره ، حتى يحتفظ بمصدر رزق لبقية الأمة ، ولمن يأتى منها فى المستقبل بوجه خاص ، ولا تزال يقيم الأدلة على صواب ذلك حتى يقتنع برأيه معارضوه ويسلموا له .

وهو يرى أن نصارى تغلب يدفعون الجزية، لأنهم لم يدخلوا فى الإسلام، ولكنهم يأنفون من كلمة « الجزية » ويعرضون على عمر أن يدفعوا ضعف مايطلبه منهم ، على أن يسميها «زكاة» ، فيقتل ذلك دون تعقيد ، فهو لاتعنيه الأسماء . ولكنه يعنيه فائدة المجتمع ومنفعة الناس، فليسمها هؤلاء « زكاة » ، وليضاعفوها، فإنهم على الحالين يدفعون مايكون مقابلا لحماية الدولة الإسلامية لأمنهم والدفاع عنهم .

وهو ... وهو ... وهو . إن خطوات عمر فى الإصلاح والفقه والتقدم بالمجتمع كثيرة وفيرة ، ولو عكف باحث على تحليل هذه الخطوات لرأينا كيف كان الفاروق مجتهداً واسع آفاق الاجتهاد ، دون تضييع لحق الله أو حق الرسول .

* *

ويطلع علينا الثائر الإسلامى أبو ذر الغفارى ، الصحابى المشهور ، الباحث عن الحقيقة . المهتدى إلى الله فى سبق وتبكير ، المدافع عن الإسلام وحرماته بحماس وشجاعة . وأول من حيا رسول الله بتحية السلام ، فقال له حين لقيه : « السلام عليك يارسول الله » ، والذى كلفه الرسول أن يبلغ الإسلام إلى قومه : قبيلة غفار ، ودعا له بالنفع والأجر ، والذى جهر بالإسلام فى أول أمره . فاعتدى عليه المشركون وأوسعوه ضرباً وإيذاء ، وعاد إلى قومه يدعوهم إلى الله وينشر فيهم بالإسلام حتى استجابوا وهاجروا. قال الرسول ﷺ : « غفار غفر الله لها » .

وكان أبو ذر رجلا سابقاً لأوانه — كما نعبر فى عصرنا — فكان قبل أن يسلم يديم النظر فى ملكوت السموات والأرض . ويفكر فى الحياة والأحياء ، وفيما قبل الحياة وفيما بعدها . ويحاول بكل ما استطاع أن يهتدى إلى طريق

الحق ، ولذلك كان يبحث ويتعلم ويتفلسف ، حتى اتسع رصيده فى هذا المجال ، وكانت له أفكار بينة وبين نفسه لايريد أن يعرضها على الناس ، لأنهم لايطيقونها أولا يدركونها ، ولذلك قال عنه الإمام على رضى الله عنه : « وعى أبو ذر علماً عجز الناس عنه ، ثم أوكأ عليه فلم يخرج شيئاً منه » .

وكان صادقاً صريحاً ، مناضلا زاهداً ، قوالا للحق ، مناصراً للعدل ، مقاوماً للباطل ، لاتأخذه فى الله لومة لائم . وعاش فى حياة الرسول ﷺ يرى العدل والقصد وحياة الكفاف ثم عاش فى خلافة أبى بكر يرى قريباً من ذلك ، ثم عاش فى خلافة عمر يرى الخير الكثير الغزير يتوالى على الدولة بسبب الفتوح ، ولكن عمر لايترك طريقاً لانحراف أو اعتساف ، بل هو ساهر دائب يقيم الناس على سواء الطريق .

ثم عاش أبو ذر فى خلافة عثمان ، فرأى ذلك التحول الاقتصادى الذى طرأ على الدولة ، فقد ظهر الثراء والغنى ، وأعطى الخليفة لأقاربه وغيرهم كثيراً من القطائع ، ومدت الدراهم خراطيمها ، وتجلت مظاهر للبذخ والتوسع ، وارتفعت دور قصور ، وقد تكون مصادر هذا كله حلالا أوغير حرام ، ولكن ذلك لايمنع القول بأن تغيراً اقتصادياً واضحاً قد ظهر فى هذا المجتمع الإسلامى .

وارتاع لذلك أبو ذر المسلم الفقير الزاهد ، المناضل المجاهد ، فأخذ يدعو بدعوته الجريئة الصارمة ، وهى أن يكون مال المسلمين لخدمة المسلمين يستأثر به حاكم ولا غنى ، وجعل يردد قول الله تعالى : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) . وقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة »

وكان يقرر أن كل فرد له فى مال المجتمع حقوق تماثل حقوق الآخرين ، وأن واجب المسلم فى ماله لايقتصر على الزكاة ، وأنه لايجوز للمالك أن يدخر شيئاً من ماله ، ولا أن يحتفظ بأكثر من قوت يومه وليلته ، وأن الحاكم لايحق له أن يطلق يده فى أموال المسلمين يتصرف فيها برأيه وهواه .

وأخذ أبو ذر يعرض فكرته ، وينشر دعوته ، ويتوسع فيها ماشاء له زهده وغيرته ، وألمه للفقراء وضيقه بتوسع الأغنياء ، وبلغ الخليفة عثمان مايقوله أبو ذر ، فأحضره وناقشه ، وكان مما قاله له : أرأيتم من زكى ماله ، هل فيه حق لغيره ؟

فتلا أبو ذر قوله تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

فقال له عثمان : أترون بأساً أن نأخذ مالا من بيت مال المسلمين ، فننفقه فيما ينوبنا من أمورنا ، ونعطيكموه ؟ فأجابه أبو ذر بأن ذلك لايحل له ، واشتد النقاش ، وأصر أبو ذر على موقفه وصرامته ، فقال له الخليفة : ما أكثر أذاك لى ، غيب وجهك عنى ، فقد آذيتنا . فخرج أبو ذر إلى الشام .

وفى الشام رأى أبو ذر مازاد قلقه ، وضاعف غضبه ، فاعترض على معاوية الوالى ، متهماً له بأنه يتصرف فى « مال الله والمسلمين » برأيه وحريته وهواه ، وجعل يقول : يامعاوية ، لقد أغنيت الغنى ، وأفقرت الفقير . وطالبه بأن يتقى الله فى أمانة المال لديه .

وأخد أبو ذر يهاجم الأغنياء ، ويطالبهم بترك الكنز والاحتكار ، وجعل يردد : « يامعشر الأغنياء ، واسوا الفقراء » ثم يقول : « بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار ، تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » . وتوسع فى ذلك توسعاً ظاهراً

واستطاع أبو ذر أن يثير فريقاً من الفقراء ضد الأغنياء .

وأقبل معاوية الوالى على أبى ذر يقول له : خير لك أن تنتهى عما أنت فيه ، فيجيبه : والله لا أنتهى حتى توزع المال على الناس كافة . وغضب معاوية ، وأعاد أبا ذر إلى المدينة حيث يوجد الخليفة ، وحاول الخليفة مرة أخرى أن يسترضى أبا ذر ، وأن يصرفه عن اتجاهه ، ولكن أبا ذر أصر وواصل فغضب الخليفة وأمره بالخروج إلى قرية «الربذة» للإقامة فيها بعيداً عن الناس .

وخرج الإمام على ليودع أبا ذر ، ويقول له : « يا أبا ذر ، إنك غضبت لله ، فارج إلى من غضبت له ، إن القوم خافوك على دنياهم ، وخفتهم على دينك ، فاترك فى أيديهم ما خافوك عليه ، واهرب بما خفتهم عليه ، فما أحوجهم إلى مامنعتهم ، وما أغناك عما منعوك ، وستعلم من الرابح غداً ، والأكثر حسداً ، ولو أن السموات والأرض كانتا على عبد رتقاً ، ثم اتقى الله ، لجعل الله له منهما مخرجاً ، لايؤنسنك إلا الحق ، ولا يوحشنك إلا الباطل ، فلو قبلت دنياهم لأحبوك ، ولو قرضت منها لأمنوك » .

وهناك فى « الربذة » قضى أبو ذر سنتين ختم بهما حياته سنة ٣٢ هـ ، وتذكر الناس قول الرسول فيه : « يرحم الله أباذر ، يعيش وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده » ! ...

* * *

ثم أقبل أبو الشهداء الحسين بن على رضوان الله عليهما . ليخطو تلك

الخطوة التقدمية الثائرة المزكاة بالعرق والدم والروح ، يقول العقاد فى كتابه عن الحسين : « وجملة مايقال : إن خروج الحسين من الحجاز إلى العراق كان حركة قوية لها بواعثها النفسية التى تنهض بمثله ، ولا يسهل عليه أن يكتبها ، أو يمتد بها عن مجراها . وأنها قد وصلت إلى نتائجها الفعالة من حيث هى قضية عامة تتجاوز الأفراد إلى الأعقاب والأجيال ، سواء أ كانت هذه القضية نصرة لآل الحسين ، أم حرباً لبنى أمية .

إنما يبدو الخطأ فى هذه الحركة حين تنظر إليها من زاوية واحدة ضيقة المجال قريبة المرمى ، وهى زاوية العمل الفردى الذى يراض بأساليب المعيشة اليومية ، ويدور على النفع العاجل للقائمين به ، والداعين إليه . فحركة الحسين لم تكن مسددة الأسباب لمنفعة الحسين بكل ثمن ، وحيثما كانت الوسيلة .

وعلة ذلك ظاهرة قريبة ، وهى أن الحسين رضى الله عنه طلب الخلافة بشروطها التى ترضاها ، ولم يطلبها غنيمة يحرص عليها مهما تكلفه من ثمن ، ومهما تتطلب من وسيلة .

ولقد قال الباحث الألمانى « ماربين » فى كتابه «السياسة الإسلامية» هذه العبارة : « إن حركة الحسين فى خروجه على يزيد إنما كانت عزمة قلب كبير ، عز عليه الإذعان ، وعز عليه النصر العاجل ، فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذى يبلغ به النصر الآجل بعد موته ، ويحيى به قضية مخذولة ليس لها بغير ذلك حياة » .

ويقدم العقاد لحديثه عن الحسين فيقول هذه الكلمات : « لاتتحقق مصلحة الإنسانية إلا إذا عمل لها كل فرد من أفرادها ، وهانت الشهادة من أجلها على خدامها ، وتقدم الصفوف من يقدم على الاستشهاد ، ومن ورائه من يؤمن بالشهادة والشهداء .

لاعظة ولا نصحية ، ولكنها حقيقة تقرر كما تقرر الحائق الرياضية ، فلا بقاء للإنسانية بغير العمل لها ، ولا عمل لها إن لم ينس الفرد مصلحته ، بل حياته فى سبيلها .

لابقاء للإنسانية بغير الاستشهاد ، وفى هذه الآونة التى تتردد فيها هذه الحقيقة فى كل زاوية من زوايا الأرض ، نلتفت نحن أبناء العربية إلى شهيدها الأكبر ، فنحنى الرءوس إجلالا لأبى الشهداء » !

والحق كما جاء فى المجموعة الثانية من كتاب « بطولات إسلامية وعربية » أن الحسين كان « خير من وقف فى وجه الباطل الباغى المتجبر ، مستهزئاً به ، ثائراً عليه ، متمرداً فى وجهه ، مرغماً لأهليه على الإقرار بعظمة أهل اليقين وأفضل من تحدرت دماؤه الزكية فوق أرض كانت تئن وتتوجع من ضلال سائد ، وظلم فاحش ، وحق مضيع ، لا يسمع له صوت ، ولا يستجاب له نداء » .

• • •

ومضت عشرات من السنين ، ثم أقبل الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه ، وهو الذى نرجع إلى وصفه فى الجزء الأول من كتاب « خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز » فإذا هو الإمام المجدد الأول فى الإسلام ، والمعتصم بالكتاب والسنة ، والقول بالحق ، والناطق بالصدق والمراجع للجائرين والجبارين والطواغيت ، والمنكر على الخلفاء ما أساءوا ، وصاحب الكلمة البليغة ، والعظة الموجعة ، والجواب الرشيد ، والبيان الناصع .

وإذا هو الحاكم الثائر العادل ، فى دنيا شاع فيها الجور والباطل ، والذى أخذ الحقوق من الأغنياء وردها على الفقراء ، فالتقى الجميع على شرعة

سواء ، واشتغل القادر ، وعف الواجد ، وأعطى صاحب الفضل ، واستغنى الضعفاء عن السؤال .

ولذلك يروى عن الإمام العظيم أحمد بن حنبل أنه قال : « يروى فى الحديث أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها ، فنظرنا فى المائة الأولى فإذا هو عمر بن عبد العزيز » .

ولقد خطا عمر بن عبد العزيز خطوات تقدمية إصلاحية جريئة ، فقد كانت هناك وصية من الخليفة السابق له سليمان بن عبد الملك بأن يكون عمر خليفة من بعده ، وبايع الناس على هذا الترشيح ، ولكن عمر تنازل عن هذه البيعة ، وأعفى الناس من تبعتها ، فعادوا إلى مبايعته من جديد ، وبذلك أوجد عمر نظاماً جديداً فيه تصحيح لأمر البيعة التى يعطيها الشعب للخليفة .

وقدموا إليه عقب استخلافه مراكب الخلافة الخاصة ، وفيها الخيول المسرجة المطهمة ، ومعها الدوسان المدربون ، فرفض عمر ذاك وقال : قدموا لى بغلتى . وأحضروا إليه صاحب الشرطة للحراسة ، فقال له : تنح عنى ، مالى ومالك ؟ إنما أنا رجل من المسلمين .

ورأى السرادقات والحجرات والستور والثياب والفرش المخصصة للخليفة ، فأبى ذلك كله ، وقال لتابعه : ضم هذا إلى بيت مال المسلمين . وقدموا إليه الطيب الفاخر والعطور المخصصة للخليفة ، فقال لتابعة : ضم هذا إلى بيت مال المسلمين .

وقال للناس فيما قال : « ألا إنه ليس لأحد أن يطاع فى معصية الله عز وجل ، ألا إنى لست بخيركم ، ولكنى رجل منكم ، غير أن الله جعلنى أثقلكم حملا » .

وأخذ يرد المظالم ، وأمر مناديه ينادى فى الناس : من كانت له مظلمة فليرفعها . وجاء الناس بمظالمهم وجعل الخليفة الثائر على الظلم والجور ،

يصحح الأوضاع ، فلا يدع شيئاً مما كان فى أيدى آخذيه بغير حق إلا رده ، ويبدأ بأهله وقومه ، وأمر زوجته بنت الخلفاء أن ترد إلى بيت المال كل ما أخذته عن طريق أهلها ، حتى ماتتحلى به من جواهر .

وانتزع كل القطائع التى أخذها أهل قرابته ، وردها إلى بيت مال المسلمين ، ومنعهم كل الامتيازات التى أعطاها لهم الخلفاء قبله ، فهاجوا ، ولكنه لم يأبه لهم ، فاستعانوا عليه بالوسطاء والشفعاء فلم يفلحوا . توسطوا لديه ببعض أولاده ، وبعمته ، وبغيرها ؛ ولكن ذلك كله لم يرد خامس الراشدين عما أراد ... لابد من تطهير المجتمع من المظالم والمآثم ، وكذلك كان.

* * *

وهناك من الحركات التقدمية فى تاريخ الإسلام حركة « المعتزلة » ، وقد يبدو فى أول الأمر أن فرقة « المعتزلة » قد اقتصر نشاطها على التفكير الدينى ، وبخاصة مانسميه « علم التوحيد » ، ولكن الواقع أن هذه الطائفة قد امتد نشاطها واتسع ، فصارت له شعب تتصل بالدين وبالمجتمع وبالفلسفة وبالسياسة أيضاً .

نشأت حركة المعتزلة فى العصر الأموى ، واتسع نشاطها فى العصر العباسى ، ويقال إن بدايتها كانت من طائفة من أصحاب الإمام على ، انصرفوا إلى البحث فى العقائد ، واعتزلوا السياسة ؛ ومنهم واصل بن عطاء الذى كان أبرزهم فى الدعوة إلى مذهبهم ، ومن المعتزلة أيضاً الحسن البصرى.

واتجهت هذه الجماعة إلى الأخذ بمنطق الفلاسفة فى بحث الموضوعات ، وكانوا يسمون أنفسهم أهل التوحيد والعدل ، ويصورون العدل بأن الله تعالى لايحب الفساد ، ولا يخلق أفعال العباد ، بل يفعلون ما أمروا به أو نهوا عنه بالقدرة التى جعلها الله لهم وركبها فيهم ، وأن الله لايأمر إلا بما أراد ، ولم ينه إلا عما كره ، وأنه ولى كل حسنة أمر بها ، وبرئ من كل سيئة

نهى عنها ، لأنه يقول فى كتابه : (ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) . وأن الله لم يكلف الناس مالايطيقون ... إلخ .

ونادى المعتزلة بعد تقريرهم هذه الحرية الإنسانية فى التصرف والسلوك ، بأن كل مسلم يجب عليه أن يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ؛ وقاموا بالدفاع عن حقائق الإسلام أمام طوفان الإلحاد والزندقة الذى أخذ يظهر فى بعض جوانب المجتمع الإسلامى ؛ وكانوا يعتمدون على العقل ، ويثقون بتفكيره ، فهم يعرضون كل مسألة على العقل ، فما قبله العقل أقروه ، وما أباه رفضوه ، وكانوا يقولون «المعارف كلها معقولة بالعقل ، واجبة بنظر العقل».

وقد استمد المعتزلة بعض أفكارهم من الفلسفة اليونانية ، لأنهم وجدوا فيها ما يرضى نهمهم العقلى وطموحهم الفكرى ، ولأنهم انتفعوا بطرق الفلسفة فى الرد على الذين هاجموا تعاليم الإسلام ومبادئه ، وكان المعتزلة أقوياء فى هذا الدفاع ، لأنهم تدثروا بفقه المنقول وإدراك المعقول ، وهكذا أخذوا يقرعون الحجة بالحجة ، ويواجهون الدليل بالدليل .

ولقد أيد الخليفة العباسى « المأمون » حركة المعتزلة ، ومن هنا أخذت طريقها إلى مجال السياسة ، وعد المأمون نفسه معتزلياً ، وأسرف حيناً فى تأييد الاعتزال مستغلا سلطته . واكتسب المعتزلة عداوة طائفتين : الأولى منهما هى طائفة الزنادقة ، والأخرى هى طائفة الفقهاء والمحدثين الذى كانوا ينظرون إلى المعتزلة كأنهم قد أحدثوا فى الإسلام خرقاً أو ثلماً ، لأنهم لم يقتصروا فى استقاء الأحكام على القرآن والسنة ، بل احتكموا إلى العقل ، وجعلوه أساس بحثهم . والعقل يخطئ ويصيب ، وفى العقل طموح قد يؤدى به إلى جموح .

وكذلك كره الفقهاء والمحدثون « المعتزلة » لأنهم تأثروا بمذاهب الفلاسفة والزنادقة من وراء اشتغالهم بالرد على هؤلاء ، وهذا الرد يقتضى النظر فى آرائهم وأساليبهم ، وهذا يؤثر بطريق مباشر أو غير مباشر ، ولأن المعتزلة

كانوا يلجئون إلى تأويل النص حتى يتفق مع رأيهم ، وهذا ناشىء عن عن توسعهم فى الثقة بالعقل ، حتى شذ بعضهم فردوا أموراً لا توافق الشرع ، ولأن المعتزلة كانوا يحملون على مخالفيهم من رجال الفقه والحديث حملة شديدة ، فيصفونهم بأنهم عوام مقلدون ... وإلخ .

وزاد موقف المعتزلة حرجاً أنهم استعانوا ببعض رجال السياسة فى العباسى فساعدتهم الدولة بقوتها ضد أعدائهم ، وقد وقع صراع عنيف بين المعتزلة ومخالفيهم من الفقهاء ورجال الحديث ، واتخذ هذا الصراع صورة الاعتساف أو المهاترة أحياناً ، ولكن مهما افترى بعض الناس على المعتزلة من أباطيل أو أقاويل ، فقد كان فى المعتزلة أعلام ضربوا أروع الأمثال فى الدفاع عن الإسلام ومقاومة الزندقة والإلحاد ، والتنزه عن الحرص أو التعرض لجاه الدنيا ، ومع هذا لم يسلم المعتزلة من نواح اعتسفوا فيها أو شذوا ، فلهم نصيبهم من السيئات ، كما أن لهم رصيدهم من الحسنات ، ومن ذا الذى ماساء قط ؟

وإذا كان المعتزلة قد عبوا قدر ما استطاعوا من العلوم الفلسفية ، فينبغى لنا أن نتذكر أن هذه العلوم عرفت طريقها إلى المجتمع الإسلامى بوسيلة الترجمة من اليونانية والفارسية والرومية والهندية ، وهذه الترجمة قد بدأت من عهد المنصور الذى تولى الخلافة سنة ١٣٧ هـ وازدهرت فى عهد المأمون ، وينبغى أن نعد هذه الترجمة من أوسع الحركات التقدمية فى تاريخ الإسلام .

* * *

وممن قاموا بحركة تقدمية فى تاريخ الإسلام « الفارابى » المولود سنة ٢٦٠ هـ والمتوفى سنة ٣٣٩ هـ وهو يعد أول فلاسفة الإسلام ، ويسمى « المعلم الثانى » وأرسطو كان المعلم الأول ؛ وقد استوعب الفارابى علوم الفلسفة اليونانية ، وهضمها وهذبها ، ثم وسع أساس الفلسفة الإسلامية .

وقد خطا الفارابى خطوة تقدمية حين ألف كتابه « المدينة الفاضلة » الذى حاول به إصلاح نظام الحكم بين المسلمين ، وقد تأثر فيه بكتاب « الجمهورية » لأفلاطون ، ولكنه كان صاحب رأى مستقل متميز ، ويقال إن الفارابى قد وضع كتاباً سماه « التعليم الثانى » ولم ينشره على الناس ، وعثر عليه ابن سينا فلخص منه كتابه « الشفاء » .

* * *

ثم يأتى حجة الإسلام أبو حامد الغزالى صاحب كتاب « المنقذ من الضلال » وكتاب « إحياء علوم الدين » ، ويكاد العلماء يجمعون على أن الغزالى هو مجدد القرن الخامس الهجرى ، ولذلك يقول السيوطى فى منظومته عن المجددين :

والخامس الحبر هو الغزالى   وعده مافيه من جدال

ولقد رجا الذين عرفوا الغزالى فى حياته أن يكون مجدد القرن الخامس . والغزالى نفسه — كما ذكرت فى كتاب « الغزالى والتصوف الإسلامى » — كان يأمل أن يكون أحد المجددين فى الدين ، ولذلك نجده عندما يتحدث عن الأسباب التى دعته إلى التدريس بعد انقطاعه عنه يذكر ضمن هذه الأسباب قوله :

« وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد ، قدرها الله سبحانه وتعالى على رأس هذه المائة ، وقد وعد الله سبحانه بإحياء دينه على رأس كل مائة سنة ، فاستحكم الرجاء ، وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات ، ويسر الله الحركة إلى نيسابور للقيام بهذا المهم فى ذى القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة » .

ولا جدال فى أن الغزالى قد أثر فى الحياة العقلية والحياة الروحية فى

الإسلام ، فأحيا دراسة الدين وجدد علومه ، وعاد بالإسلام إلى أصوله الأولى ، وجمع بين روحانية المادية ومادية الروح .

وهناك كثير من المستشرقين يشبهون الغزالى فى تجديده الدينى بمن يعدونه أكبر مجدد فى الدين المسيحى خلال القرون الوسطى ، وهو القديس « أوغسطين » الذى ولد بقرب « قرطاجنة » سنة ٣٥٤ م . وحينما بلغ الثلاثين اتجه إلى روما واعتنق المسيحية ، وقام بالتدريس سنتين فى « ميلان » ، ونشر بحوثاً عن نظام « الاعتراف » فى المسيحية .

ومنهم من يشبه الغزالى المجدد بالثائر الدينى « مارتن لوثر » الألمانى الذى تزهد ، والتحق بالطائفة الأوغسطينية ، وطال تشككه ، ثم ارتاح قلبه ، وبدأ جهاده الدينى التاريخى ، وانتقد المؤسسة البابوية ، ونشر بحوثه الدينية الخطيرة .

وسواء أصح التشبيه هنا من كل الوجوه أو بعضها ، أم لم يصح فى شىء منها ، فلن يعيب الغزالى أن يرد اسمه فى مجال التشبيه بهؤلاء ، مع اختلاف الاعتقاد ، ولن يضيره شىء إذا لم يستقم التشبيه ، فقد استطاع الغزالى أن يفرض اسمه على تاريخ الإصلاح الدينى فى المجتمع الإسلامى بلاجدال .

وحسب الغزالى أنه الذى اتخذ الشك العميق الموغل سبيلا إلى الإيمان واليقين .

* * *

ثم ظهر هنا وهناك أعلام كثيرون قاموا بحركات تقدمية فى تاريخ الإسلام ، ويصعب علينا أن نحصيهم ، فيكفينا أن نشير إلى بعضهم ، فمنهم أبو محمد على بن أحمد بن حزم الأندلسى المولود سنة ٣٨٤ . والذى تثقف ثقافة ، ودرس علوم الدين والفلسفة والأدب والتاريخ ، وكان حاد الذهن

ـط الذكاء ، ولم يتقيد بالمذاهب الفقهية الأربعة المشهورة ، بل أخذ يستنبط الأحكام من القرآن والسنة ، وكان ذلك أساساً لمذهب الظاهرية الذى يمثله كتاب « المحلى » لابن حزم .

وقد هاجم ابن حزم من خالفهم من الفقهاء ، وحمل على آرائهم بأسلوب عنيف حاد ، كما هاجم التصوف وسلبيته ، ولذلك أوذى وتشرد فى البلاد طويلا .

ومنهم الإمام تقى الدين أحمد بن عبد الحليم المشهور بابن تيمية المولود سنة ٦٦١ ه ، وقد درس مذاهب الفقه الإسلامى ، كما برع فى علوم النحو واللغة ، وحينما اشتد ساعده بدأ جهاده فى ميدان الإصلاح ، فجاهد المتصوفة جهاداً عنيفاً ، وتعرض للنفى والحبس بسبب آرائه ودعوته ، وكان ينادى بفتح باب الاجتهاد فى الفقه ، وناضل كثيراً لبث روح الجهاد فى نفوس المسلمين لتحرير الأرض وطرد الغاصبين ، وقد جاء فى كتاب « فدائيون فى تاريخ الإسلام » هذه العبارة عن ابن تيمية :

« وكما كان ابن تيمية مجاهداً فى ميدان السلاح والعتاد ، كان مجاهداً فى ميدان الفقه والعقيدة ، فقد كان يقاوم البدع والخرافات والمنكرات ، ويحاربها حرباً عنيفة لاهوادة فيها ، وكان يجاهد لإحياء السنة المطهرة ، والعودة إلى الأخذ من كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، ولقى فى سبيل ذلك مالقى من العنت والشدة والاضطهاد والافتراء .

ولقد تخالف ابن تيمية فى بعض آرائه ، ولقد نأخذ عليه لوناً من الحدة أو العنف فى نقاشه وهو يدافع عما يراه ويؤمن به ، ولكن هذا لاينفى روعته فى جهاده من أجل اعتقاده . ولقد اشتدت الخصومات بينه وبين طائفة من رجال الدين الذين استعانوا برجال الحكم فى عصره ، فحبسوه أكثر من مرة .

وكانت سنة ٧٠٥ ﻫ هي سنة المحنة بالنسبة إلى ابن تيمية . لأن أعداءه كادوا له عند الحكام ، واستغلوا حدته من ناحية ، وبعض آرائه الدينية من ناحية أخرى ، حتى توصلوا إلى حبسه ، وظل في السجن عاماً وبضعة أشهر ، وحاولوا إخراجه في مقابل أن يتخلى عن بعض آرائه فأبى » .

وكان يقول : « مايصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري ، أين رحت فجنتي معي لاتفارقني ، إن حبسي خلوة ، وإخراجي من بلدي سياحة ، وقتلي شهادة » !

وجاء بعد ابن تيمية ابن القيم الذي كان تلميذاً لابن تيمية ومحباً له ومقلداً ، وقد ذاق السجن معه ، ثم جاء الشوكاني اليمني صاحب « نيل الأوطار » والمولود سنة ١١٧٢ ﻫ والمتوفى سنة ١٢٥٠ ﻫ ، وعلى الرغم من أنه تفقه على مذهب الإمام زيد ، فإنه جنح إلى مدرسة ابن تيمية ، وترك التقليد ، ودخل باب الاجتهاد ، وخطا خطوة تقدمية حينما تحرر من مذهبه الذي نشأ عليه ، وانطلق حراً مجتهداً ...

* * *

وأخيراً جاءت مدرسة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبي وأضرابهم ، وهي مدرسة تمثل حركة تقدمية واسعة النطاق في تاريخ الإسلام ، وقد تعددت مظاهر الحركة التقدمية في هذه المدرسة ، كما طال عنها الحديث من باحثين في الشرق والغرب . فلا علينا إذا لم نطل عنها الحديث في هذا المجال .

* * *

رضينا بالإسلام ديناً

السؤال :

لماذا اخترنا الإسلام ديناً ؟

الجواب :

من الحقائق التى لاتحتاج إلى تدليل على ثبوتها — لأنها ملموسة مشاهدة — أن الغرب الصليبى الاستعمارى قد حرص منذ قرون وقرون على مهاجمة الإسلام ، وتشويه صورته ، وتجريح نبيه عليه الصلاة والسلام ، حتى قال « جون وبستر » الإنجليزى الذى اهتدى إلى الإسلام : « يظهر أن الغرب المسيحى قد تآمر منذ الحروب الصليبية على التزام الصمت تجاه محاسن الإسلام ، وحاول تشويه مبادئه بطريقة متعمدة كلما تحدث عنها » .

ويقول « السير عبد الله ارشبالد هاملتون » الإنجليزى الذى اهتدى إلى الإسلام : « لايوجد دين أسىء فهمه . وكثر الهجوم عليه من الجهلة والمتعصبين مثلما أسىء فهم الإسلام وهوجم » .

ولم يكتف الغربى الصليبى الاستعمارى بتشويه ديننا فى أنظارنا وأنظار سوانا . بل بذل جهوده الظاهرة والباطنة . لكى يخرجنا عن هذا الدين ويسلكنا فى فلك دينه : (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) . وحاول هذا الغرب الصليبى الاستعمارى أن يفرض علينا مدنيته الحديثة غثها قبل سمينها ، ومغارمها قبل مغانمها . وسلك إلى ذلك كل سبيل ، سلك طريق التغرير والتحذير تارة ، وطريق المخادعة والمطاوعة تارة ، وطريق الإرغام والإقحام تارة أخرى . وأوهمنا هذا العدو الماكر أنه ليس فى الإمكان أبدع من حضارته . ولا أروع من مدنيته .

وحين يقول بعض العقلاء البصراء من الشرقيين : إن المدنية الغربية المادية فيها الكثير من البريق الخادع ، والبهرج الزائف ، إلى جوار ما فيها من خير ؛ يقال من أعدائنا إن ذلك القول منا ناشئ عن عجزنا وقصورنا وتخلفنا .

ولكن ها نحن أولاء نقف أمام أشخاص رتعوا فى حقل المدنية الغربية ، وشبوا بين أحضانها ، وبلغوا مراكز عالية ملحوظة بين أهلها ، ومع ذلك ضاقوا بها ، وحملوا عليها ، وفروا منها ومن قيمها حين رأوها تزيد الحس ضراوة وشراسة ، وتزيد الروح فقراً وقلقاً ، وتزيد القلب حيرة واضطرابا ، ثم وجدوا أمنهم واطمئنانهم – بعد طول البحث والتنقيب – فى رحاب الإسلام العظيم .

ولعل من أدق العبارات التى تصور آفة المدنية الغربية تلك العبارة التى جرت على قلم واحد من رجال هذه المدنية ، وهو « اللورد سنل » إذ يقول : « لقد استطعنا بناء هيكل خارجى متكافل الأطراف ، ولكننا أغفلنا العامل الأساسى فى بناء نظام داخلى . لقد وضعنا تصميم الكأس بعناية فائقة ، كما قمنا بزخرفة شكلها الخارجى . ولكن داخل الكأس ملىء بالفضلات والشوائب . لقد استعملنا معرفتنا وما نملك من قدرة بالغة لما فيه صالح الجسد ، ولكننا تركنا الروح تشكو الفقر والحرمان » .

ولقد تنكرت المدنية الغربية المادية لروح الدين الحق . وتنكرت للمسيحية التى تنتسب إليها ، وتستبقى رسومها جسداً لا روح فيه . وأساءت استغلال هذه المسيحية لتخفى من ورائها مطامع أهلها وعدوانهم . فلا هى وفت لعقيدتها ومبادئها ، ولا هى تركت التمسح بالدين جانباً . وواجهت العالم بنزعتها الاستعمارية الباغية ، وهذا هو « السير عبد الله أرشبالد هاملتون » يردد « عبارة صريحة صارخة يقول فيها :

« بينما نجد الإسلام يرشد الإنسانية إلى الحق والصواب فى حياتها اليومية نجد المسيحية المعاصرة تعلم متبعيها بطريق غير مباشر من الناحية النظرية ، وبطريق مباشر من الناحية العملية — أن يصلوا لله يوم الأحد ، وأن يفترسوا عباد الله فى بقية أيام الأسبوع » .

* * *

ولقد سعدت سعادة غامرة حين طالعت هذا الكتاب الذى يحمل عنوان : رضينا بالإسلام ديناً » ، وهو مجموعة فصول لأناس كانوا غير مسلمين ، ثم درسوا الإسلام دراسة موضوعية بصيرة ، فتأثروا به ، واستجابوا له ، ودخلوا فيه ، وأخذوا يدعون الناس إليه . وقد قام الأستاذ خورشيد أحمد بجمع هذه الفصول فى كتاب بالإنجليزية ، وقدم لها ، وطبع الكتاب بالإنجليزية مرتين ، فى سنتى ١٩٦١ و ١٩٦٧ م . ثم ترجمه إلى العربية الدكتور عبد المحسن البيلى مدير المركز الإسلامى بلوس أنجلوس ، بناء على رغبة كريمة من الدكتور على نور الدين العنيزى الذى قرأ الكتاب فى لغته الإنجليزية ، وأعجب به ، ورأى من الخير أن يترجم الكتاب إلى اللغة العربية : لغة القرآن الكريم ، ولغة الإسلام العظيم .

ولعلى لا أعدو الحقيقة حين أقول : كأن هذا الكتاب نوع من التكفير الجزئى عن الجريمة العامة الكبرى التى ارتكبها الغرب الصليبى الاستعمارى ، حيث شوه بها الإسلام فى أنظار أهله ، وفى أنظار غير أهله ، وحمل فيها على الإسلام ونبى الإسلام وأتباع الإسلام حملته الشعواء النكراء .

وعنوان هذا الكتاب : « رضينا بالإسلام ديناً » يذكر الإنسان بالرضا والرضوان ، والأمن والاطمئنان ، ويذكر الإنسان بقول الله جل جلاله : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام

ديناً) . ويذكره بفضل الله تعالى على نبيه ﷺ وعلى أتباعه ، حين يقول له : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) . ويقول له : (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها) .

وحين يقول عن الأخيار الأبرار من عباده المؤمنين : (ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حليم) . ويقول لهم : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) .

وحين يتحدث عن ذلك الرضا المتبادل بين الله تبارك وتعالى وعباده المؤمنين ، فيقول : (قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ، لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم) . ويقول : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه . وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم) .

وحين يشعر النفس المؤمنة الصالحة بأنها ستتمتع بالرضا والرضوان فى أولها وآخرها ، فيقول لها : (يأيتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) . ويقول عن المؤمن الذى يتلقى كتابه بيمينه يوم لقاء ربه ، ويفوز بنعيمه : (فهو فى عيشة راضية * فى جنة عالية * قطوفها دانية * كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية) .

* * *

ومن اللافت للنظر وللفكر معاً أن هؤلاء الذين كانوا على غير الإسلام ، ثم أدركتهم نعمة الله فاهتدوا إليه وسعدوا به ، لم يدخلوا الإسلام اعتباطاً أو

عن جهالة أو بتغرير أو بتأثير ، بل دخلوه على علم به ، وبعد دراسة له وتمحيص ، وكثير منهم ظل حيناً طويلا وهو يدرس ويحاور ، ويشك ويتردد ويجادل وينتقد ، قبل أن يعتنق الإسلام عن إيمان ويقين . وكثير منهم ظل سنوات قضاها فى الدراسة والبحث ، فالحاج لورد هيدلى الفاروق يقرر أن اعتناقه للإسلام كان نتيجة لسنوات طويلة من الدراسة والتفكير ، ومحمد أسد — أو ليوبولد وايز وهو اسمه الأصلى — ظل خمس سنوات يقرأ عن الإسلام حتى تمكن نوره من قلبه .

والدكتور أحمد ماركوس الألمانى ظل سنوات يباحث العارفين بالإسلام قبل أن يرتضى الإسلام لنفسه ديناً ، و « وليام بورشيل بشير بيكارد » ظل كذلك سنوات يدرس ويبحث ، حتى اقتنع بأن الإسلام دين الفطرة والخير ، والسيدة « أمينة موسلر » الألمانية مكثت سنوات عديدة تدرس الإسلام قبل أن تأخذ طريقها إلى الدخول فيه ، وهكذا .

وبعض هؤلاء كان فى أول أمره يهاجم الإسلام ويطعنه . ويقوم بانتقاده وتجريحه على ملأ من الناس ، ويعيب على الإسلام إقراره للرق وتعدد الزوجات والطلاق ، ولكن هذا البعض استطاع بعمق النظر وسعة البحث أن يدرك أن ما فى الإسلام خير ألف مرة مما فى غيره من النظم والشرائع . ومن الأمثلة على ذلك المسلمة الإنجليزية « مانيس. ب . جولى » التى اعترفت بصراحة أنها ظلت مدة طويلة تحقد على الإسلام وتهاجمه وتعيبه . ثم اقتنعت أخيراً بصوابه وسموه ، وأعلنت دخولها فيه ، وهى تقول : « لقد فعلت هذا وأنا أشعر بقدر عظيم من الرضا والارتياح ، لإدراكى التام أن هذا الإيمان لم ينشأ عن نزوة عاطفية عارضة ، بل كان نتيجة لعملية فكرية طويلة . امتدت عامين تم خلالها تأكدى من أصالة الإسلام وروعة تعاليمه . مما جعلنى فى النهاية أعتنقه وأومن به » .

• • •

وأغلب هؤلاء الذين كانوا غير مسلمين ، ثم درسوا الإسلام وآمنوا به ، أناس متعلمون مثقفون ثقافة واسعة ، ففيهم أساتذة جامعات ، وأساتذة قانون ، ورجال سياسة ، ورجال صحافة ، وغير ذلك ، ومعنى هذا أنهم لم يؤمنوا إيمان العجائز ، ولم يتابعوا متابعة العاجزين ، ولم يندفعوا اندفاع الجاهلين ، ولم يقعوا فريسة للتغرير أو التضليل أو الإكراه ، ولم تكن هناك عوامل غير طبيعية لإسلامهم ، كالوقوع فى شرك غرام جامح ، أو طمع مثير ، أو نحو ذلك .

ونلاحظ على بعض هؤلاء ظاهرة الانتقال من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين ، أو من الضد إلى الضد ، وهم فى طريقهم إلى اعتناق الإسلام : الدين السهل السمح الوسط العادل . فبعض هؤلاء قد ضاق ذرعاً بما فى دينه من أمور لم يستسغها ولم يؤمن بها ولم يصبر عليها ، فثار ثورته العارمة ، وانتقل مثلا من الكاثوليكية المتشددة أو الأرثوذكسية المحافظة ، إلى الشيوعية المادية الجامدة ، أو الإلحاد المطلق الكافر بكل دين ، ولعل ذلك الانتقال السريع الواسع كان « رد فعل عنيف » لعدم الرضا أو الاقتناع بالدين الموروث دون دراسة واقتناع ، ثم عاد هؤلاء بعد حين ، ففكروا ودبروا ، ودرسوا الإسلام ، فوجدوا فيه الدواء والشفاء والغذاء والضياء ، فلجئوا إلى رحابه آمنين مطمئنين .

وهذا على سبيل المثال ألمانى مسيحى كاثوليكى متشدد ، هو « سيف الدين ديرك والترموسيج » كان يعد نفسه ليكون قسيساً كاثوليكياً ، ومع ذلك هدته دراسته الدينية المجردة إلى الإسلام . . .

يقول فيما يقول :

« عثرت على ترجمة للقرآن الكريم باللغة الأسبانية ، ولم يعترض والدى على قراءتى لها فى البداية ، حيث كان يظن أنها ربما تساعدنى على توسيع

مداركى ، لا أكثر ولا أقل ، ولم يكن يدرى مدى الأثر العميق لكلمات الله فى عقلى . . .

كنت كاثوليكياً متعصباً عندما بدأت فى قراءة القرآن ، وأصبحت عند انتهائى منه مسلماً على الأصالة ؛ ومن البديهى أن فكرتى عن الإسلام كانت فكرة خاطئة قبل قراءتى للقرآن الكريم ، حيث بدأت أقرأه فى تعجب وسخرية متوقعاً أن أجد بين طياته أخطاء فاحشة ، وأفكاراً كافرة ، وخرافات زائدة ومتناقضات لا يقبلها العقل السليم .

لقد كنت متعصباً وأنا فى هذه السن الصغيرة ، ولكن لحسن حظى لم يكن قلبى قد أصبح صلداً بعد . ولقد بدأت قراءة السور على الرغم منى فى البداية ثم انتهيت وأنا أكثر ما أكون ظمأ لمعرفة الحقيقة .

وفى لحظة من أعظم لحظات عمرى شرح الله صدرى للإسلام ، وهدانى إلى الصراط المستقيم ، وأخرجنى من الظلمات إلى النور ، ومن المسيحية إلى الإسلام . . . » .

• • •

والكثير من هؤلاء الذين اهتدوا إلى الإسلام بعد أن كانوا غير مسلمين ، قد درسوا الأديان الأخرى بتوسع قبل دراستهم الإسلام ، فكانت لديهم الفرص الواسعة للمقارنة بين دين ودين ، ثم ختموا بدراسة الإسلام ، وانتهوا إليه بالدخول فيه والاستقرار عليه . .

لقد درس الكثير من هؤلاء : اليهودية ، والمسيحية ، والبوذية ، والهندوكية ، والشيوعية ، والفاشية ، والمادية ، والتاوية ، والديمقراطية ، والمذاهب الفلسفية ، ومع ذلك لم يقنعوا ولم يشبعوا . . . ثم درسوا الإسلام بعد هذا كله فوجدوا لديه المرفأ الأمين ، والرائد الذى لا يمين .

وأغلب هؤلاء الذين اهتدوا إلى الإسلام كانوا يعتنقون المسيحية قبل إسلامهم ، وقد ضايقهم فى المسيحية المعاصرة أمور لم يستطيعوا هضمها ولا الرضا بها ، ومنها ما يلى :

١ – غموض عقيدة التثليث وتأبيها على التصور العقلى .

٢ – القول بألوهية المسيح ، وأن مريم أم الرب – عليه وعليها السلام – .

٣ – عقيدة الشقاء الأبدى المضروب على بنى البشر ، ونشأة البشر كلهم فى ظل المعصية السوداء ، بسبب خطيئة آدم وحواء – عليهما السلام – وعدم الاقتناع العقلى بوراثة كل البشر خطيئة أبويهم منذ أول الحياة .

٤ – عقيدة الصلب على أساس أن المسيح قد قبل أن يصلب للتكفير عن خطايا الناس وسيئاتهم .

٥ – عقيدة « الاتحاد » عن طريق « الخبز المقدس » الذى يمثل جسد المسيح ، حيث يقال إن قطعة الخبز التى يتناولها الكاثوليكى من يد الكاهن وقت صلاة الاتحاد المقدس يتحول إلى دم المسيح فى صورته اللاهوتية والناسوتية .

٦ – السلطة المخولة لرجال الكنيسة والكهنوت ، والقول بأنهم وسطاء بين البشر وربهم ، وأنهم يملكون حق الغفران ، وأن البابا له سلطة مقدسة ، وأنه لا يخطئ .

٧ – المطالبة بتصديق ما تقرره الكنيسة ، وإن لم يقتنع به العقل . . إلخ.

• • •

وإذا كانت هناك أشياء قد نفرت هؤلاء – كما رأينا – من عقيدتهم

السابقة ، فمن الطبيعى أن تكون هناك فى الإسلام أشياء شدت إليه هؤلاء ؛ وقد تحدثوا عن هذه الأشياء ، ومنها ما يلى :

١ – عقيدة التوحيد : « لا إله إلا الله » ، فالإسلام يقرر وحدة الخالق تبارك وتعالى ، وتنزيهاً عن كل مشابهة لما عداه ومن عداه : (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) . وهذه العقيدة تمتاز بالوضوح واليسر ، والبعد عن التعقيد الغامض الذى نراه فى عقائد أخرى كعقيدة التثليث ، والقرآن يقرر :

(قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد) .

٢ – تقرير الإسلام لوحدة الرسالات الإلهية ، ودعوته إلى الإيمان بجميع رسل الله وكتبه : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله * لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) ، (قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

٣ – كفالة حرية الاعتقاد : (لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى) .

٤ – احتكام الإسلام إلى العقل ، وإيقاظه العقل ليتدبر ويتأمل ويحكم : (قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون) .

٥ – دعوة الإسلام القوية العميقة إلى العلم والازدياد منه : (وقل رب زدنى علماً) .

٦ – ابتعاد الإسلام عن النظم الكهنوتية القائمة على الوساطة المزعومة بين

الله وعباده ، فصلة المسلم بربه صلة مباشرة ، لا تتوقف على وسيط . (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) .

٧ ــ تأكيد الإسلام لحقوق الفرد وحقوق الجماعة ، وربط الأمة برباط الأخوة والمحبة : (إنما المؤمنون إخوة) .

٨ ــ دعوة الإسلام إلى السلام العادل المنصف ، وإفادة كلمة «الإسلام» نفسها معنى السلام ، لأنها تفيد معنى الاستسلام للخالق جل علاه ، وهذا الاستسلام يورث الإنسان خشوعاً لخالقه من ناحية ، وسلاماً مع عباد الله من ناحية أخرى : (والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) ، (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) .

٩ ــ الإسلام دعوة إنسانية عالمية ، تعمق معانى الأخوة والمساواة والحرية بين البشر : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ، (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير) .

١٠ ــ الإسلام عقيدة وعبادة ومعاملة وأخلاق : (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين * ولا تستوى الحسنة ولا السيئة * ادفع بالتى هى أحسن * فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) .

١١ ــ المواءمة من المادة والروح ، وبين أمور الدين وأمور الدنيا ، مع التوسط والاعتدال والتوازن : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا * وأحسن كما أحسن الله إليك * ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين) ، (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) .

١٢ ـ القرآن ـ وهو دستور الإسلام ظل محفوظاً مصوناً كما نزل من عند الله تعالى ، لم يطرأ عليه تغيير أو تحريف كما حدث لغيره : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

* * *

والعجيب أن كثيرين من هؤلاء الذين اهتدوا إلى الإسلام يقررون أنهم اكتشفوا فى أنفسهم ـ بأنفسهم ـ أنهم كانوا مسلمين . قبل أن يتجهوا إلى اعتناق الإسلام ديناً . وقبل أن يقرروا لأنفسهم أن يكونوا من المسلمين : فهذه مثلا هى السيدة « إيفلين زينب كوبولد » الإنجليزية تقول :

« إننى لا أتذكر على وجه التحديد اللحظة التى انجلت فيها حقيقة الإسلام أمام ناظرى . فيبدو أننى كنت مسلمة طوال حياتى . دون أن أتأكد من هذه الحقيقة » .

وهذه السيدة « سيسليا محمودة كانولى » من أستراليا تقول : « إن سبب اعتناقى للإسلام يرجع فى الدرجة الأولى إلى أننى كنت مسلمة فى قرارة نفسى دون أن أكون على شعور تام بهذه الحقيقة » .

إن هذه العبارات الصريحة الواضحة تذكرنا بحقيقة قررها القرآن الكريم ، وأكدتها السنة المطهرة . وهى أن الإسلام دين الفطرة الصافية النقية التى لم يطرأ عليها فساد أو انحراف . والله جل جلاله يقول : (فأقم وجهك للدين حنيفاً . فطرة الله التى فطر الناس عليها . لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . ويقول الرسول ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

* * *

وثمة ملاحظة مهمة لا بد أن نتذكرها دائماً ، وأن نعتبر بها ونتعظ ،

تلك الملاحظة هى أن بعض هؤلاء الذين اهتدوا إلى الإسلام لم يغب عنهم الفرق الواسع الشاسع بين الإسلام والمسلمين . ولا بين روعة مبادئ الإسلام وواقع المسلمين المخجل ؛ فالإسلام غير المسلمين . الإسلام ثابت خالد ، والمسلمون يتغيرون ويتبدلون ، الإسلام باهر رائع ، والمسلمون اليوم لا يعطون صورة صحيحة لهذا الإسلام ، وهم يحيون حياة غير مشرفة للإسلام، ولا يجوز فى شرعة العدل والإنصاف أن نحكم على الإسلام من واقع المسلمين.

ولذلك لم يكن عجيباً أن نسمع « ليوبولد فايز » — أو محمد أسد كما تسمى بعد اهتدائه إلى الإسلام — يقول : « إن واقع المسلمين اليوم لا يعكس المثل الأعلى الذى يمكن أن تحققه تعاليم الإسلام . إن كل ما فى الإسلام من حيوية ودفع وتقدم ، قد تحول على أيدى المسلمين إلى اضمحلال وإهمال وجمود . إن ما فى الإسلام من حث على كرم الطبع والاستعداد وبذل النفس والتضحية وقد تقلص على أيدى المسلمين المعاصرين إلى ضيق فى الأفق ، والتعود على حياة كلها دعة واستكانة » .

ولم يكن عجيباً أن نجد « خديجة فيزوى » الإنجليزية التى اهتدت إلى الإسلام ، تحث المسلمين حثاً قوياً على أن يكونوا عناوين طيبة للإسلام ، وأن يكونوا قدوة كريمة أمام الناس تعبر عن الإسلام تعبيراً صادقاً فى سلوكهم وأعمالهم ، فنقول فيما تقول : « إننى لا أشك لحظة واحدة فى أن الإسلام لا يمكن أن يكون عاملا فعالا لتحقيق الخير والسلام فى العالم ، إذا ما تحقق المسلمون من أن المبادئ الدينية لا تتعارض مع التقدم المادى ، وإذا ما بدءوا فى بناء صرح حضارة قيمة قائمة على تراث ماضيهم المجيد، بدلا من نقلهم الحضارة المادية الغربية ، بما فيها من معايير أخلاقية — منحلة » .

ثم تضيف قولها : « إن كل ما أرجوه أن يضرب المسلمون الذين

يزورون بلادنا المثل الطيب ، حتى يثيروا فى نفوس الإنجليز اهتماماً وشغفاً بالإسلام » ! .

ليت المسلمين يسمعون . . .

وليتهم إذ يسمعون يستجيبون . . .

* * *

أما بعد ، فإذا كان القدماء قد قالوا : « الفضل ما شهدت به الأعداء » ، فإن هذا الكتاب يرينا للإسلام فضلا أعظم وأكبر ، لأنه فضل جعل الأعداء من صميم الأولياء ، ولذلك أحرص على التنويه بهذا الكتاب ، ولفت الأنظار والأفكار إليه فى عالم الإسلام .

وأرى أنه من واجب المسلمين نحو هذا الكتاب — وأمثاله من كتب التعريف بالإسلام ، والحديث عن جماله وجلاله ، وحقه وصدقه — أن تتنافس دول الإسلام الغنية القادرة فى نشرها وتعميمها بمختلف اللغات ، وأخص بالذكر هنا دولا إسلامية آتاها الله واسع نعمته . وعندها الاقتدار والاستعداد لخدمة الإسلام ، وأذكر ليبيا والكويت والسعودية وقطر وأبو ظبى .

إن نشر هذا الكتاب وأمثاله بلغة القرآن وغيرها من اللغات . يعد جزءاً مهماً من الدعوة إلى سبيل الله تبارك وتعالى بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن ، وإذا كان هذا الكتاب قد طبع مرتين باللغة الإنجليزية . وطبع منه ٣٥ ألف نسخة فى الطبعة الأولى سنة ١٩٦١ م ، وطبع منه خمسون ألف نسخة فى الطبعة الثانية سنة ١٩٦٧ . فإنه ينبغى أن تطبع منه مئات الآلاف من النسخ باللغة العربية . وأن يترجم كذلك إلى اللغات الشرقية : الإفريقية والآسيوية ، ويطبع منه مئات الآلاف كذلك بهذه اللغات ، ليقرأ المسلمون بشتى لغاتهم هذا الكتاب . ويزدادوا إيماناً وثقة بدينهم وعقيدتهم ،

وأن يعاد طبعه باللغة الإنجليزية وباللغة الفرنسية وباللغة الألمانية وغيرها ، بعد ترجمته إلى تلك اللغات ، لكى يقرأه غير المسلمين بلغاتهم ، فيثير فى نفوسهم الشوق إلى مطالعة المزيد من تعاليم الإسلام ومبادئه ، فيكون ذلك باباً إلى استضاءتهم بنور الله الذى أشرقت به السموات والأرض ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام * ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه * ويهديهم إلى صراط مستقيم) .

وينبغى كذلك أن يتفرغ بعض المسلمين فى الشرق والغرب ليواصلوا تتبع الظروف والأحوال التى اعتنق فيها الإسلام أناس لم يكونوا مسلمين من قبل ؛ فلقد أعلم أن هناك كثيرين أسلموا وكتبوا عن الدوافع التى دفعتهم إلى الإيمان بالإسلام ، وأن هناك كثيرين قد أسلموا ، ولم يكتبوا عن هذه الدوافع . ويستطيعوا أن يكتبوا إذا سئلوا ذلك .

ولا شك فى أنه من صميم التعريف بالإسلام والدعوة إليه ، أن نضع أمام العالمين التفاصيل الخاصة بهذه الدوافع ، ليزداد المسلمون اعتزازاً بإسلامهم ، ولينجذب غير المسلمين إلى ضوء الإسلام والإيمان .

* * *

إنى أؤكد أنى كنت سعيداً حين طالعت هذا الكتاب ، فقد جعلنى أصحب طائفة من إخوتى فى الإنسانية وفى الإسلام ، وأشهدهم وهم يتحدثون عن خطواتهم التى خطوها ، حين أراد الله تبارك وتعالى لهم أن يتجهوا — بفضله وتوفيقه — من ظلمات الحيرة والضلال فى متاهات الاعتقاد إلى نور الإسلام .

وسأكون أكثر سعادة وغبطة حين أشهد هذا الكتاب وهو يسعى إلى

الملايين من بنى الإنسان . ليحدثهم بشتى اللغات عن دين الإسلام .

إن موضوع هذا الكتاب وأمثاله ليس لفرد دون فرد ، ولا لطائفة دون طائفة ، ولا لجنس دون جنس . إنه موضوع الناس جميعاً ، لأنه موضوع الهداية الربانية التى نريدها ونتمناها للناس جميعاً ، وموضوع الرحمة الإلهية التى يضعها بديع السموات والأرض بين أيدى الناس جميعاً . والله جل جلاله هو القائل لرسوله :

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

* * *

بطولة الكلمة

السؤال :

ما بطولة الكلمة ؟

الجواب :

« البطولة » كما عرفها اللغويون هى الشجاعة الفائقة . والبطل هو الشجاع المقدام ، وسمى بذلك لأن الأشداء يبطلون عنده فلا يغلبونه . أو لأن دماء الأقران تبطل عنده فلا يكون لها ثأر . والبطولة ألوان . فهناك من البطولة شجاعة الميدان والصراع . وشجاعة الإيمان بالمبدأ والثبات عليه . وشجاعة الجهر بالحق والدعوة إليه . وشجاعة النفس والتحكم فى أهوائها . وغير ذلك .

و « الكلمة » هى النطق المفهم . ولذلك قال ابن مالك فى ألفيته : « كلامنا لفظ مفيد . . » وقد تكون الكلمة اسماً أو فعلا أو حرفاً أو جملة أو خطبة أو مقالا أو غير ذلك . ولذلك عاد ابن مالك يقول : « وكلمة بها كلام قد يؤم » .

ولو لم يقل السابقون فى تعريف الإنسان إنه كائن حى ناطق [بمعنى مفكر] لقلت إن الإنسان كائن حى مبين ، ولأغنتنا كلمة « مبين » عن كلمة « ناطق » بمعنى مفكر ، لأن البيان يعد كجزء من ماهية الإنسان وحقيقته والإنسان لا يبين إلا عن شيء قد عرفه وفكر فيه ، فكأن البيان تعبير يستلزم التفكير .

ولقد كانت معرفة اللغة شيئاً خطيراً كل الخطورة فى حياة الإنسان ، وحينما عرف اللسان والبيان أصبح آلة خطيرة وسلاحاً جليلا ، فقد احتدمت فى نفس الإنسان الخواطر والمشاعر ، وثارت فى عقله الأفكار والآراء ، وكان يعيى بحملها أو طيها لولا اللسان الذى جاء معبراً ومصوراً ، ونقل هذه الطاقات الفكرية والشعورية إلى الآخرين عن طريق الكلام والاستماع .

وهذا هو غوستاف لوبون يشير فى كتابه « الآراء والمعتقدات » إلى أن الألفاظ والصيغ الكلامية من أكثر العوامل توليداً للآراء والمعتقدات ، وفيها قدرة رهيبة ناشئة عن أنها توقظ فى الإنسان مشاعر دالة عليها ، وهى من أقوى الوسائل فى سريان الآراء وانتشار الأفكار ، وتكوين الرأى العام الذى طالما صنع البطولات وقام بالعظائم والجلائل حتى قال نابليون : « إن للرأى العام قوة لا تقهر ، ولا يقدر أحد على مقاومتها » .

وقديماً عرف أجدادنا العرب مكانة الكلمة فقالوا – فيما يروى الميدانى فى مجمع الأمثال : « ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة ، أو بهيمة مهملة » . وإنما يندفع الإنسان إلى هذا العمل أو ذاك بإرادة تنبعث فيه ، وهذه الإرادة كما ذكر علماء النفس تنشأ عن حالة وجدانية تثور فيه ، فتهيئ نفسه وحسه للإقبال أو الإدبار ، وللميامنة أو المياسرة ، وهذه الحالة الوجدانية – وخاصة فى البيئة العربية – تحركها وتثيرها الكلمة ، لأن الكلمة تلقى فى الذهن والنفس ارتسامات ذهنية وشعورية تؤثر وتحرك وتدفع .

والإنسان السوى لا يستطيع الاستغناء عن الكلام والبيان والتفسير ، ولذلك كانت الحاجة إلى البيان كالحاجة إلى الاعتقاد ، فهى حاجة تلازم الإنسان من مهده إلى لحده .

وإذا كانت للبطولات ألوان وأنواع كما عرفنا من قبل ، فإن الكلمة فى مجالات البطولة مكانة ومنزلة ، والرسول ﷺ يشير إلى ذلك حين يقول : « المؤمن يجاهد بلسانه وسيفه » وحين يقول : « أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر » ومن أمثال العرب هذه الكلمات النوابغ :

« رب قول أشد من صول » .

« والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر » .

« طعن اللسان كوخز السنان » .

« وجرح اللسان كجرح اليد » .

ومن عجيب الاشتقاق أن مادة « الكلم » بفتح فسكون — تفيد معنى التأثير الواضح ، ثم تشتق منها « الكلمة » ذات التأثير المعنوى ، ويشتق منها لفظ « الكلم » — بفتح فسكون — بمعنى الجراحة التى يظهر أثرها . وإذا كانت الحرب قد تقوم بسبب كلمة ، حتى قال الأولون : « فإن الحرب كلام » فإن الكلمة البطلة قد تشفى جراحاً وتنهى حروباً ، ولذلك ورد فى تعابير العرب قولهم : « جاء بمراهم الكلام من أطايب الكلام » وكلمة « الكلام » الأولى بكسر الكاف أى الجراح ، وكلمة « الكلام » الأخرى بفتح الكاف أى الحديث .

ولقد روى كارليل فى كتابه « الأبطال » أن « ريشتار » قال عن « مارتن لوثر » : « لقد كانت كل كلمة من كلماته موقعة حربية » . ولعل

أبا تمام حبيب بن أوس الطائى قد ترجم عن هذا المعنى من قبل حين تحدث عن تأثير القلم الذى يخط الكلمات وهو بين الأصابع والخمس ، فقال :

إذا ما امتطى الخمس اللطاف ، وأفرغت
عليه شعاب الفكر وهى حوافل

أطاعته أطراف القنا وتقوضت
لنجواه — تقويض الخيام — الجحافل

بل قد تكون بطولة الكلمة أقوى وأبقى من بطولة الحس أو السيف أو الميدان ، لأن بطولة الكلمة تتطلب عقلا وعزماً وإرادة ووفاء بحقها ، على حين لاتحتاج البطولات الحسية إلا صلابة الجسم وجراءة الاندفاع ، والمعنويات والمعقولات أعمق وأبقى من الحسيات ، بل إن الماديات يحسها الإنسان أولا . ثم يتحول الإحساس بها إلى صورة عقلية أو معنوية ، وقد تختفى هذه الماديات وتبقى صورها إلى أمد بعيد . ويمكن نقل صورها من العقل إلى الحس بوساطة الكلمة .

وهذه — مثلا — بطولة عنترة الحسية . لقد انتهت ونحن لانراها الآن ولكن الكلمة مكنت لهذه البطولة ، أو وثقت حبالها ، وأبقت ذكرها ، فنحن نرى بطولة عنترة من خلال كلمة التى بقيت من بعده ، كقوله :

بكرت تخوفنى الحتوف كأننى | أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها : إن المنيــة منهــل | لابد أن أسقى بذاك المنهــل
فاقنى حياءك لا أبالك ، واعلمى | أنى امرؤ سأموت إن لم أقتــل

وقولـه :

ولقد ذكرتك والرماح نواهــل | منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنهــا | لمعت كبارق ثغرك المتبسم !

وسيف الدولة بن حمدان كانت له بطولة ميدان ، ولكنها انتهت من حيث المادة والكيان ، وبقيت مخلدة فى بطولة الكلمة وقوة البيان ، بقيت فى مثل قول المتنبى يخاطب سيف الدولة :

وقفت ومافى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك ضحاك وثغرك باسم

ونحن لايغيب عن أذهاننا بيت الحطيئة فى بنى « أنف الناقة » يمدحهم :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا ؟ !

وقد كان لهذا البيت بطولة مأثورة مشهورة . فقد رفع الحطيئة بهذا البيت بنى أنف الناقة من ذل الخجل والاستحياء من اسمهم . إلى عز الافتخار والازدهاء ، حتى صاروا يتطاولون بهذا الاسم ويملأون أنوفهم به . ويمدون أصواتهم فيه بجهارة . كما فى كتاب « سلاح الشعر » .

وهذا حسان بن ثابت يرينا كيف تكون الكلمة بطلة تنزل الصغار والعار ببنى « عبد المدان » حين يقول ذاماً لهم ولطول قاماتهم التى فاخروا بها :

لابأس بالقوم من طول ومن قصر جسم البغال وأحلام العصافير

فأصابهم بسبب ذلك هم وخزى ، وسعوا إليه يطلبون رضاه . فقال : « سأصلح منكم ما أفسدت » ثم أنشد فيهم قوله :

وقد كنا نقول إذا رأينا لذى جسم يعد وذى بيان :
كأنك أيها المعطى بياناً وجسما من بنى « عبد المدان »

فعاد الذل عزاً . ورجع الخزى فخراً وزهوا[1] .

ومن بطولة الشعر — وعمدته الكلمة — هذه الجاذبية الآسرة فيه لألباب

---

(١) فى كتاب « سلاح الشعر » نماذج كثيرة لبطولات شعرية ، انظر ص ٤٩ — ٦٤ .

الناس ، حتى نرى أبا السائب المخزومى — على شرفه وجلاله وفضله فى الدين والعلم — يقول كما يروى ابن رشيق فى العمدة : « أما والله لوكان الشعر محرماً لوردنا الرحبة كل يوم مراراً » . والرحبة هى الموضع الذى تقام فيه الحدود ، يريد أنه لايستطيع الصبر عن الشعر ، فهو يقام عليه الحدكل يوم مراراً ولايتركه !

ولما فى الشعر من بطولة نرى الزبير بن بكار يقول : سمعت العمرى يقول : « رووا أولادكم الشعر ، فإنه يحل عقدة اللسان ، ويسجع قلب الجبان ، ويطلق يد البخيل ، ويحض على الخلق الجميل » .

ولقد تأثر السابقون بالكلمة البطلة حتى كادوا يستغنون بها عن الطعام والشراب ، وهذا رجل يدخل على هشام بن عبد الملك — كما يروى الحصرى فى زهر الآداب[1] — فيقول له : يا أمير المؤمنين ، احفظ عنى أربع كلمات فيهن صلاح ملكك ، واستقامة رعيتك . قال هشام : وماهن ؟ .

فقال الرجل : لاتعد عدة لاتثق من نفسك بإنجازها ، ولا يغرنك المرتقى وإن كان سهلا ، إذا كان المنحدر وعراً ، واعلم أن للأعمال جزاء فاتق العواقب ، وأن للأمور بغتات فكن منها على حذر .

قال عيسى بن دأب : فحدثت بهذا الحديث « المهدى » ، وفى يده لقمة قد رفعها إلى فيه ، فأمسكها ، وقال : ويحك ، أعد على . فقلت : يا أمير المؤمنين ، أسغ لقمتك . قال : حديثك أحب إلى !

وحينما قال رسول الله ﷺ : « إن من البيان لسحراً » أراد أن ينوه بقوة الكلمة وشجاعتها ، لأن البيان كلام تبنيه كلمة وكلمة ، والسحر هنا هو تلك القوة الخفية التى تؤثر وتسيطر ، وتحرض وتدفع ، ولا يستطيع

---

(١) ج ٤ ص ٧ .

المقهور بها حيلة أمامها ولا وسيلة ، والنبي يشبه الكلام بالسحر لمدة عمل الكلام فى نفس سامعه ، وسرعة قبول القلب له .

* * *

وفى تاريخ البيان العربى كلمات نوابغ توافرت لها صفة البطولة . فكأن كلا منها فارس مقدام كسب حرباً ، أو هزم عدوا . أو حقق نصراً . وفى طليعة هذه الكلمات عبارات نبوية كريمة قامت مقام السلاح والجند . ومنها قوله ﷺ : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى . والقمر فى يسارى . على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .فقد كانت هذه الكلمة صاحبة بطولة فائقة أنهت معركة طال فيها النزاع والصدام . فقد تفنن المشركون فى إيذاء النبى . وعرضوا عليه ما عرضوا من مغريات . ثم أبدوا ما أبدوا من تهديدات . ثم سعوا إلى عمه مرة ومرات . وفى هذه المرة كاد عمه يستجيب لبعض ما أراده المشركون من التضييق على دعوة محمد ويحاور العم ابن أخيه فى ذلك ، لعله يخفف من اجتهاده فى دعوته . فيرسلها محمد كلمة تدوى فى أذن الدنيا ومسامع أهلها ، فإذا هى تنهى الحرب وتحسم النزاع وتكسب النصر .

ويكون العم — وهو على غير دين محمد — أول المأسورين بهذه الكلمة البطلة . فيرجع عما هم به . ويقول للرسول « اذهب يا ابن أخى فقل ماشئت ، وادع ماشئت . فو الله لا أسلمك إليهم أبداً » .

وتحققت بطولة الكلمة ، وظلت على مدى الأيام توحى بمعانى البطولة !

وهذا رسول الله ﷺ يحويه الغار مع صاحبه أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، والمشركون على قدم وساق . يغربلون رمال الصحراء بحثاً عن محمد ، ويبلغون فى تفتيشهم باب الغار . ولو نظر واحد منهم إلى موطىء

قدميه لرأي المهاجرين العظيمين ، ويخاف أبو بكر على الدعوة والداعية ، فيقول لرائده وقائده : يارسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لرآنا . وهنا تنطلق الكلمة البطلة من فم الرسول فيقول : يا أبا بكر ، ماظنك باثنين الله ثالثهما ، يا أبا بكر ، لاتحزن إن الله معنا .

وتعمل الكلمة البطلة عملها ، فيزول الخوف عن أبي بكر ، وتقبل عليه السكينة ، ويزداد الرسول سكينة على سكينته الدائمة ، ويستجيب القدر لهذا الرجاء النبوى البطولى ، ويتنزل النصر الذى كانت هذه الكلمة مفتاحاً له ، أو إشارة إليه ، أو جاء فيه ، ويخلد القرآن الكريم هذا حيث يقول : (إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، إذهما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه : لاتحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم) :

ومن هذا القبيل الجليل الكلمة البطلة التى قالها رسول الله ﷺ ، وقد كان جالساً بين صحابته ، فمرت عليهم جنازة ، فأمرهم بالوقوف لها ، فتمتم بعضهم بأنها جنازة لغير مسلم ، وهنا قال عليه الصلاة والسلام : « أليست نفساً » ؟ ! فكانت الكلمة تكريماً للبشرية ، وتقديراً للإنسانية ، وإعطاء للنفس فى حالة الموت تلك الحرمة المرعية ، وكلما هم باغ أو طاغ أن ينال من هذه الحرمة دوى فى مسمعه قول الرسول العظيم : « أليست نفساً » ! ؟

وقل مثل هذا أو نحوه عن موقف الرسول الرائع النبيل يوم فتح مكة حين قال للمشركين الأعداء الذين فعلوا معه الأفاعيل ، وارتكبوا فى حقه كل تطاول ، وقد أصبح اليوم قادراً عليهم ، متمكناً منهم : ماتظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . فأرسل الرسول كلمته البطلة قائلا : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وكانت هذه الكلمة سبباً قوياً فى دخول الناس فى دين الله أفواجاً . وتحقق النصر ، وتجلى الفوز ، ونزل قول الحق : (إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) .

* * *

ومن وراء الرسول يظهر لنا أبو بكر . ونراه فى أول عهده بالخلافة يشهد أكبر فتنة يتعرض لها المجتمع الإسلامى . وتتمثل فى حركة « الردة » اللعينة . ويعتزم أبو بكر مقاتلة المرتدين لأنهم منعوا الزكاة وهى حق الله . ويخشى كثير من المسلمين التعرض لهذه الحرب . حتى إن عمر بن الخطاب نفسه كان من الذين ترددوا فى قبول فكرة الحرب أول الأمر . ولكن أبا بكر هتف بكلمته البطلة : « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه حتى يؤدوه . ولأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة » .

وفعلت الكلمة البطلة فعلها . وأثرت أثرها . ودار حوار قصير بين أبى بكر وعمر . انشرح عقبه صدر عمر لما انشرح له صدر أبى بكر ، وبدأت حروب الردة . وصدق المسلمون فيها العزم . فقضت على الفتنة . وأعادت للمجتمع الإسلامى السكينة . بفضل الله وحده . ثم بسبب هذه الكلمة البطلة التى صدع بها أبو بكر رضوان الله عليه .

وكأنى ببطولة خالد أو عبقريته فى الميادين قد فجرتها كلمتان بطلتان . إحداهما جرت على لسان النبى حين قال عليه الصلاة والسلام : « خالد سيف من سيوف الله سله على المشركين » والأخرى جرت على لسان صاحبه أبى بكر الصديق حين قال لخالد : « ياخالد ، احرص على الموت توهب لك الحياة » .

وظل خالد سيفاً مسلولا ، يتنقل من ميدان إلى ميدان ، وظل يحرص على طلب الموت فيفر منه ، وتلاحقه الحياة ، ثم يشاء القدر أن يلقى خالد ربه على على الفراش لافى حومة الوغى ، حتى يقول وهو بين الحياة والموت : « لقد شهدت سبعين زحفاً أو زهاءها ، ومافى جسدى شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء » .

ولعمر بن الخطاب كلمة بطلة ، لأنها تذكر سامعها بالعزة والكرامة والإباء ، وتنفره من الذل والهوان ، فهو يقول فيها : « يعجبنى من الرجل إذا سيم خطة خسف أن يقول : (لا) بملء فيه »! . والعجيب أن أكثر من ألف عام تمر بعد عهد عمر بن الخطاب ، ثم يأتى كارليل ليقول فى كتابه « الأبطال» عبارة كأنها متابعة وتقليد لكلمة عمر السابقة ، حيث يقول كارليل : « آية الرجل الشريف أنه إذا سيم الخسف قال : لا ، بملء فيه »[1]

وكيف ننسى بطولة الكلمة الموفقة التى جرت على لسان العباس بن عبد المطلب حينما سئل : أأنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ وكان السائل عن العمر ، فأجاب العباس : « هو أكبر منى وأنا ولدت قبله » !

وما أروعها من كلمة بطلة تلك التى قالتها العربية البليغة حينما قال لها ابنها وهو خارج إلى الجهاد : يا أماه ، إن سيفى قصير ؛ فسارعت تجيبه قائلة : « صله بخطوك » أى اجعله طويلا بإقدامك وقربك من عدوك .

وهذا معاوية تحمله على موقف البطولة كلمة بطلة انطلق بها لسان أحد الشعراء ، فقد حدث معاوية عن نفسه فقال : « لقد رأيتنى ليلة الهرير بصفين،

---

(١) الأبطال ، ج ٢ ص ٣٢ .

وقد أتيت بفرس أغر محجل بعيد البطن من الأرض ، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى ، فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الإطنابة :

أبت لى همتى وأبى بلائى وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإقحامى على المكروه نفسى وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت : مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحات وأحمى بعد عن عرض صحيح

ويروى التاريخ أن امرأة خارجة على الحجاج سيقت إليه ، فقال لأصحابه : ماتقولون فيها ؟ فأجابوا : عاجلها بالقتل أيها الأمير . فاندفعت المرأة تقول : لقد كان وزراء صاحبك خيراً من وزرائك ياحجاج . فقال لها : ومن صاحبى ؟ فأجابت : « صاحبك فرعون ، استشارهم فى موسى فقالوا : « أرجه وأخاه » . فكانت كلمتها ذات بطولة .

ولقد قال الحجاج لامرأة من الخوارج : « والله لأعدنكم عداً ، ولأحصدنكم حصداً » .

فردت عليه المرأة بكلمة بطلة قالت فيها : « الله يزرع وأنت تحصد ، فأين قدرة المخلوق من الخالق » ؟ ! ويقبل الموت على الحجاج ، ويتذكر ما ارتكبه من قسوة ، فيفزع إلى ربه برجاء التوبة والمغفرة ، ويقول فى ذلك عبارة باهرة آسرة ، هى : « اللهم اغفر لى فإن الناس يظنون أنك لاتفعل » .

واشتد إعجاب خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه بهذه العبارة الدعائية من الحجاج ، حتى قيل إنه غبط الحجاج أو حسده عليها ، وقال : « ما أحسب إلا أن الله تعالى قد غفر له بهذه الكلمة » .

ويكفى كلمة الحجاج تمجيداً لها وتنويهاً ببطولتها أن يعلق عليها خامس الراشدين بهذه العبارة .

وليست النماذج التى قدمناها عن بطولة الكلمة هى كل ماحواه أورواه تاريخنا الطويل الحافل . وإنما هى قطرة من بحر خضم . ولوشئنا الآن لتابعنا خطواتنا متنقلين خلال القرون المتوالية فى هذا التاريخ . لنجد أشباها تعد بالعشرات أو المئات . تؤكد لنا أن بطولة الكلمة على ألسنة البلغاء الموفقين من رجالنا وأبطالنا لاتقل عن بطولة الميدان الذى يتصارع فيه الأبطال والأقران بأسنة السيوف،والرماح ؛ ولكن مجال القول هنا له حده وقيده ، فلنقف بعد هذا الشوط . ولعل مجالا ثانيا تهيئه فرصة قابلة يكون متسعاً لمزيد من الحديث عن بطولة الكلمة ! . . .

• • •

تجربتي مع الحياة

السؤال :

ما تجربتك مع الحياة ؟

الجواب :

ماذا يراد منى ؟ ... بل ماذا يراد لى ؟ ... بل ماذا يراد بى ؟ ! ...

يراد منى أن أتحدث عن « تجربتى مع الحياة » . ويراد لى أن أجلس كما يجلس التلميذ فى الامتحان ليكرم أو يهان ، والعيب فى مثل هذا الحديث أنه يلجئ الإنسان إلجاء إلى الحديث عن نفسه بطريق مباشر أو غير مباشر . وذلك لأنها « تجربتى » . ولأنها « حياتى » . وإن شاركنى من حولى . فهل يتاح لحديث الذات فى مثل هذا المجال أن يستقبله سامعه أو قارئه على أنه طريق قد يتعين هنا للموضوعية ؟

ويراد بى أن يفضح الإنسان نفسه بيده ، فما كان من كلمة تدل على

خير أو توفيق أضافوها إلى الإعجاب بالنفس ، والإدعاء للفخر ، والافتراء للكذب ، وما كان من كلمة تدل على نقد للذات طاروا بها فرحاً ، وخصوها بالترديد والنشر .

وأى تجربة هذه التى يراد منى أن أتحدث عنها ، وهناك قطار طويل من التجارب فى الحياة ؟

أأتحدث عن التجارب المشرقة الموفقة ، أم عن التجارب القاتمة المخفقة ؟ أأتحدث عن تجارب الخطأ والألم والعذاب ، أم عن تجارب التوفيق والفوز والنجاح ؟ ... إن كلا من النوعين مر متعب : فالأول مدرجة إلى التشهير بالنفس ، والآخر باب إلى الاغترار بالذات .

والحياة قاعدتها وقوامها هم الأحياء ، فهل يستطيع الإنسان حقاً أن يتحدث صادقاً وصريحاً عن تجاربه مع هؤلاء الأحياء ، فيهم أقرباء ، وفيهم أحباء ، وفيهم أعداء ، وفيهم رؤساء ، وفيهم حلماء ، وفيهم سفهاء ، وفيهم من لا يريد أن يتحدث عنه إنسان ؟ ! ...

ليس إلا أن يتحدث الإنسان عن جزء من هذه التجارب ، وأمره إلى الله .

* * *

لعل أعظم تجربة للإنسان فى حياته هى تجربته مع الله : خالقه ورازقه ، مبدعه وصانعه . وإنى أؤمن هنا أنه كلما استمع الإنسان إلى قلبه كان أقرب إلى ربه ، وكلما أسرف فى الاستناد إلى عقله باعد بينه وبين حمى الله .

لقد كنت فى الريف أرى الله بقلبى فى كل شىء ، وكنت مع عقلى أفسد على نفسى طمأنينتها فى كثير من الأحيان . فى القرية كنت ذلك الفتى الذى يرى فى ساحة المسجد الصغير قطعة من الجنة ، وفى المدينة شغلتنى شواغل

فألهتنى عن تلك البرا- حربه التى كانت لى وأنا هناك فى أحضان ذلك الريف الطهور ، أرى الله فى كل شىء .

وجلست فى مقاعد الدرس والبحث ، وتابعت ما قاله علماء « الكلام » وهو علم التوحيد ، فتعقد ما كان مبسوطاً ، وصعب ما كان سهلا ، فلما عدت إلى الريف وجلست إلى مائدة القرآن ، انفك ما كان معقوداً ، وتيسر ما كان عسيراً ، لأننى قرأت فى كتاب ربى هذه الآيات المقنعات :

(الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها) .

(وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق) .

(وهو الذى ينزل الغيث من بعد ماقنطوا ، وينشر رحمته ، وهو الولى الحميد) .

(هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء) .

(إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) .

(لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) .

(لاتدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير) .

(ما اتخذ الله من ولد ، وماكان معه من إله ، إذن لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون) .

وهكذا تعلمت من تجربتى مع ربى أنه معى ، أراه بقلبى لابعينى ، وأدركه بروحى ولا أحيط به بعقلى ، ومازلت أذكر يوماً وقف فيه طالب يسألنى وسط الغفير من زملائه ، وقال فى هيئة المتمرد : ما الدليل على أن الله موجود ؟

فقلت له أستدرجه : ومن قال لك إن الله موجود ؟ فأخذته المفاجأة ،

وقال بقلبه قبل لسانه : فمن إذن الذى خلقنا ؟ فأجبته : هذا هو جواب سؤالك ! ... واستسلم المتمرد .

وأردت أن أزيده بصراً بالأمر فذكرت أن مدرساً ملحداً وقف بين تلاميذ صغار يقول لهم : هل ترون الله ؟ . فقالوا : لا فقال لهم : فالله إذن غير موجود ، لأن كل مالا نراه غير موجود .

وهناك وقف تلميذ ذكى يسأل رفاقه : أيها الزملاء : هل ترون عقل المدرس . فأجابوا : لا . فقال التلميذ الذكى : إذن عقل المدرس غير موجود وكانت صفعة بهت منها الذى كفر .

* * *

ومن تجربتى مع ربى (الذى خلقنى فهو يهدين ٭ والذى هو يطعمنى ويسقين ٭ وإذا مرضت فهو يشفين ٭ والذى يميتنى ثم يحيين) أننى علمت أن له ميزاناً كبيراً هائلا على الحق ، تتمثل فيه عدالته التى لا تنحرف ، وهذا الميزان تكل عن رؤيته العيون الكليلة القاصرة . ولكن تدركه القلوب الشاعرة الذاكرة .

ومن تجربتى معه جل جلاله أنى قد أطلب منه مطلباً من مطالب الدنيا . أو مطمحاً من مطامح النفس ، وألح فى الطلب حتى يوسوس الشيطان لى أنه لم يسمع منى ، أو أنه معرض عنى ، ثم يأتى قدر ربى على ميعاد ، فيعطينى مالم أطلب ، وأرى كرأى العين أن ما أعطانى خير مما منعنى ، وأن ما آتانى أفضل وأنفع مما صرفه عنى : (وربك يخلق مايشاء ويختار) .

ولقد رأيته — سبحانه — يوصد باباً هنا ليفتح أبواباً هناك ، ويحرم من هنا ليضاعف من هناك ، ويحول دون القريب الدانى ، ويفتح مغاليق البعيد النائى : وفوق تقديرنا لله تقدير .

وعلى سبيل المثال أذكر أننى أحببت معهدى الأكبر : الأزهر . وتغنيت به ، بل لعلى قد تعصبت له ، على أساس أنه حصن الإسلام والعروبة ، ومع ذلك أحسست بين أهله بالغربة والأسى والغبن والتعويق . ولكن ميزان العدالة الإلهية الأكبر كان هناك يعوضنى . فإذا كان حتى يضيع إلا أقله هنا ، فإنى أجد العوض هناك ، وتفصيل ذلك يضيق عنه المقام .

وكم من أشياء حرصت عليها وسعيت إليها . فلما جاءتنى لم أجد لها طعماً . وكم من أشياء تطلعت نحوها ، ولكنها جاءت بعد فوات الأوان . فرددتها فى اعتزاز أحياناً ، وفى ضيق أو ملل أحياناً أخرى . ومن أمثلة ذلك أنى أعرف مجلة حاولت وهى فى سنواتها الأولى أن أنشر بها شيئاً لى . وكنت أحتفل للكتابة إليها . ولكن مصير مقالاتى كان الطى والكتمان ، أو الاستخفاف والهوان ، ثم دارت الأيام فدعيت إلى الكتابة فيها ، ومر بى حين من الزمن كنت أتحكم فيما ينشر فيها ، ولا أذكر أنى احتفلت للكتابة فيها أخيراً بعض
١٠ كنت أحتمله للكتابة إليها أولا ، حين كان جزائى الإهمال ، فضايقنى هذا الإهمال أولا ، وضايقنى عدم الإحساس بالمتعة أخيراً .

وأدركت من تجربتى مع ربى أن إرادته — حقاً وصدقاً — فوق كل إرادة . ومن شواهد ذلك أنى كنت معتقلا فى شبابى ، وكان هناك رفقاء يفرج عنهم من حين إلى حين ، وكان معنا زميل يسيطر عليه الضيق والقلق ، ويلح فى رجاء الإفراج عنه إلحاحاً عنيفاً شديداً ، وذات يوم جلس معنا إلى الطعام عقب أن علمنا بنبأ الإفراج عن مجموعة من الزملاء ، فأخذ هذا الزميل يعاود الترجمة عن ضيقه وقلقه ، ويتساءل فى أسف : متى يأتيه الإفراج كما جاء لهؤلاء ؟ . وكأنه توسم عندى الخير ، فالتفت نحوى وقال : ألا تدعو لى ؟ أرجوك بالله أن تدعو لى الآن وأنت تأكل ، بأن يعجل الله الإفراج عنى .

فتوقفت عن الأكل وقلت له : أقسم لك يافلان أننى أتمنى على الله أن

تكون أولنا إفراجاً ، فأنا ألمس ضيقك ، وأعرف أن لك أعمالا كثيرة معطلة ، وهأنذا أدعو كما شئت : اللهم عجل بالإفراج عن فلان ، واجعله أولنا خروجاً إلى حياة الحرية ...

ولكن . تقدرون فتضحك الأقدار ، وفوق تدبيرنا لله تدبير ، فما كدنا والله نرفع أيدينا من الطعام ، حتى أقبل حارس من إدارة المعتقل ، ونادى على أناس آخرين قد أفرج عنهم ، وكان اسمى فى طليعتهم ، ولم يكن هذا الزميل الحزين فى أولهم ، ولا فى وسطهم ، ولا فى آخرهم ! ! ...

* * *

ولى مع النجاح والفشل أكثر من تجربة .

لعلى نجحت بعض النجاح فى دراستى وقراءتى وكتابتى وخطابتى ، بسبب الصبر والسهر ، والإرادة والعزيمة . ولكنى فشلت فى كثير : فشلت فى إبعاد الذعر عن كيانى وجنانى ، وكم رددت قولى : « إنى أحيا حياة مذعورة ، فكيف السبيل إلى راحة من يعيش وهو مذعور » ؟ ذعر فى النوم ، وذعر فى اليقظة ، وذعر فى السكون ، وذعر فى الحركة ، وذعر فى الطعام والشراب ، وذعر فى المشية ، وذعر فى الكتابة ، وذعر فى القيام بالوجبات ، وذعر من الماضى ، وذعر من الحاضر ، وذعر من المستقبل .

وفشلت فى اختيار مجموعة من الأصدقاء أطمئن إليها ، أو يطمئن إلى ، وفشلت فيما كنت أريده من توسع انتفاعى باللغة الإنجليزية التى تعلمتها فى شبابى ، ولكنى انصرفت عنها فضاع الكثير منها ، وفشلت فى حياتى الوظيفية لأنى لم أتقن صفات معينة هى المعبر السريع لدى غيرى نحو ما يريدون من حل أو حرمة ، وفشلت فى توثيق علاقتى بقريتى وأهل بلدى لأن « القاهرة » قهرتنى على شواغلى عامة استبدت بالحس والنفس ،

وفشلت مع قوم أردت أن أعلمهم الدين فأرادوا أن يعلموني « قلة الدين » . وفشلت في الكتابة عن الناس . في صدر شبابي كنت أسرف في مدح فريق ممن أحبهم ، لأني كنت أنظر إليهم بعين الوهم والخيال ، فلما خبرتهم بعد ذلك تمنيت أن أمحو ما كتبت .

وحينما أردت أن أنقد برفق لم أنل رضاهم ، بل كسبت عداوتهم ، ولذلك صرت أحاذر الكتابة عن الناس ما استطعت إلى ذلك سبيلا . إن أكن قد نجحت في القليل ، فقد فشلت في الكثير .

ويخيل إلى أن الله جل علاه لو أعطى الإنسان مطلق الحرية في أن يصنع نفسه أو حياته كما يشاء ، لقصرت همته عن تحقيق حياة تخلو من الآفات والسيئات والأزمات . فإن الإنسان بعقله المحدود ، ونفسه الأمارة بالسوء ، وعدم قدرته على تحقيق المعادلة الصعبة اللازمة لتنسيق الحياة على طريقها السوى ، عاجز عن تحقيق هذه الحياة . ولعل هذا بعض ما أفهمه من الأثر الحكيم : « لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع » .

وللإنسان سيئات كثيرة ، من الله العلى الكبير بسترها . وله حسنات قليلة لقيت جحود الناس وكفرانهم . ألا يحمد الإنسان ربه . ويقول في نفسه : قد يكون نكران الحسنات القليلة في مقابل كتمان السيئات الكثيرة ! .

وهناك أفراد أحسنوا الظن بالإنسان . وبالغوا في حسن ظنهم إلى درجة البلاهة ، وأفراد أساءوا به الظن ، وبالغوا في سوئه إلى درجة الإسراف الأثيم ؛ وأقصى مايؤلم النفس ويمزق الفؤاد أن يتضاعف حسن الظن من هؤلاء في مواطن يحتاج الإنسان فيها إلى الحساب أو العقاب ، وأن يتضاعف سوء الظن من أولئك في مواطن يستحق الإنسان عندها التعظيم والتكريم .

لقد تبلغ شناعة التخيل في تصور المفارقة بين هؤلاء وأولئك أن يتخيل

الإنسان يداً تحظى بالتقبيل حين تستحق البتر ، ثم تقطع هذه اليد حين تستحق التقبيل ! .

* * *

وأما تجربتى مع المال فإنى لا أذكر أننى قاسيت كثيراً من الأزمات معه ، فالمطامع محدودة ، والرغبات معدودة ، ولم أتعود الاقتراض فى حياتى ، لأنى أعلم أنه هم بالليل وذل بالنهار ، وليس من عادتى أن أشترى شيئاً ليس معى ثمنه ، ولقد نشأت فى وسط كادح ، وكان المال قليلا فى أيدينا ، وكان له بريقه ورنينه فى عيوننا وأسماعنا ، ولكن المال — بعد ذلك — لم يعد له سحره ولا أثره ، فاليد تتلقاه كأنه ثقل ، وتنفقه كأنه عبء . ولعل من سبب هذا أن الإنسان لم يعتد عادة من العادات المسيطرة أو المدمرة التى ترتبط بإنفاق المال .

وإذا كان هناك من قال إن المال هو اللحن الذى يرقص حوله العالم ، فإن هذا اللحن لم يبق له فى النفس وقع أو تأثير ، وليس هذا تهوينا من شأن المال ، ولا تظاهراً بالزهد فيه ، وإنما هو تصوير لحالة نفس رغبت فطلبت ، ثم ضعفت رغباتها فى هذا المجال فزهدت أو انصرفت .

والحياة علمتنى ومازالت تعلمنى أن طلب المال شىء كالغريزة ، وهو فى الوقت نفسه شىء كالضرورة ، فعيشة الإنسان فى مجتمعنا ترتبط بهذا المال ، وإلا فمن أين للإنسان بالغذاء والكساء والدواء ، ومن أين له بمطالب الحياة التى قيل عنها : « وحاجات من عاش لاتنقضى » ؟ ؟

ولكل إنسان حساس شاعر تجربة مع الحب . وإذا كان الناس يقولون إن الحب يطالب لنفسه بالتوحيد فيه ، فلعل هذا راجع إلى المفهوم الخاص الذى يفهمونه للحب ، فقد يتصورونه نوعاً من الاستئثار أو السيطرة أو الشهوة ،

وهذا مفهوم لم تقبله النفس ، ولذلك أحببت أمى وأبى ، وأحببت أهلى وسكنى ، وأحببت قومى ووطنى ، وأحببت أولادى ، وأحببت طلابى ، وأحببت العلم والمعرفة . وأحببت الناس ، ومن فوق هؤلاء جميعاً أحببت ربى وخالقى ، وهذا يذكرنى بقول الصوفى المشهور :

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب دينى وإيمانى

ومن هنا أرانى أميل إلى الهدوء فى المعاملة ، والمسالمة فى السلوك ، والرغبة عن المخاصمة والعداوة ، وكثير من الناس يعدون ذلك عيباً عندى ، ولعل بعض الحق معهم . ولكنى لا أنسى أن هذه الخصلة حفظت على نفسى كثيراً من الجهد والوقت والطاقة أنفقته فيما أعتقد أنه أفادنى أو أفاد غيرى .

وإنى لأتذكر الآن زميلا لى انتقل إلى رحاب الله منذ سنوات طويلة — عليه رحمة الله — وقد شاء قدرى مع هذا الزميل أن أكون بغيضاً إلى نفسه أشد البغض ، مع أنه يلقانى فيحسن لقائى ، وكان الله سبحانه قد بسط له فى لسانه بسطاً رهيباً عجيباً ، فأخذ يقرض لحمى فى كل مجال ، وكان يبلغنى جانب مما يقول فلا أعلق عليه بشىء ، لأنى لا أجد فى وقتى فراغاً أضيعه فى الأحقاد والعداوات ، وكان هذا السكوت أشد مايؤلمه ويغيظه ، بل كان الكثيرون من الناس يعجبون من هذا السكوت ، بل كان منهم من يحرضنى على المبادلة ، وهو يستر د أن يستدفئ بنار العداوة بين اثنين ، وكان منهم من يفرحون لهذا التطاول من ذلك الزميل فى أول الأمر ، ولكنهم بعد حين يضيقون بهذه السلبية من جهتى ، فيفقدون لذة الاستماع إلى حملة الاقتراء الأثيمة ، لأن « الطرف الآخر » ساكت صامت كأبى الهول ، لا يتكلم ولا يجيب .

ثم بلغنى موت هذا الزميل وأنا فى رحلة خارج الوطن ، فارتعبت

وارتعشت ، وبلغ منى التأثر مبلغاً عميقاً ، وقلت كأنى أفيق من إغماء طويل هكذا الحياة ، كلنا للتراب ! وبينما أنا كذلك فى بحران من التفكير ، أقبل نحوى أحد الرفقة يبلغنى النبأ فى صورة من يثير عامل الشماتة عندى ، فانفجرت فيه غاضباً ، وقلت له : إنى أعد حديثك هذا احتقاراً لى ، أتراني لئيما إلى هذا الحد ؟ قال : ولم ؟ فقلت : أو لم تجد غير رذيلة الشماتة فى الموت تلصقها بى وشوقى عليه رحمة الله يقول :

وما أحدثت عند الكرام شماتـــة   صروف المنايا والجدود العواثر

ما أسرع مرور الأيام ، وما أعجل النسيان إلى الإنسان . لقد نسيت حملة الافتراء ونسيت صاحبها ، ونسيت حديث الشماتة والشامتين !

وإذا كان فى الإنسان عيوب كثيرة ينوء بها ويضج منها ، فإن من فضل الله عليه أن آتاه قلباً لا يحمل حقداً على أحد ، ولا حسداً لأحد ، ولقد قلت منذ عهد بعيد : « يظل قلبك شاباً ما لم يعرف الطريق إلى الحقد » ، ويؤثر فى نفسى تأثيراً قوياً عميقاً أمثال ما تحدث به مالك بن دينار قال : سمعت الحجاج يخطب ويقول : رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به ، رحم الله امرأ نظر فى مكياله رحم الله امرأ نظر فى ميزانه . فما زال يقول حتى أبكانى .

ولى مع نفسى عند بداية النوم وقفة صارمة ، إننى أضع جنبى إلى الفراش فأبدأ معها الحديث فى حوار وحساب ، وما أثقل اللحظات الأولى من النوم عندى ، إنها لحظات مراجعة ومحاسبة ومعاتبة ومعاقبة ، ومن النادر أن أستغرق فى نومى قبل « تصفية الحساب » ، حيث يهدأ قلبى ، ويستقر جنبى . وإذا كانت هذه اللحظات مرة ثقيلة ، فإنها مثمرة جليلة .

* * *

ولى مع الكتابة والفكر والأدب تجربة عرفت منها عملياً أن الأديب قراءة موصولة ، وأن هذه القراءة الموصولة تصنع الكثير من الأدباء والمفكرين ، ولقد يبدأ الإنسان محاولته فى الأدب هازلا ثم يجد ، أو حائراً ثم يهتدى ، أو متابعاً ثم يستقل ، أو مقلداً ثم يبتكر ، والمهم هو أن يقرأ ثم يقرأ . والمهم أكثر هو أن تكون القراءة على هدى وبصيرة .

وتعلمت فى هذه التجربة أن الاستجابة الطبيعية من الداخل للموضوع أو البحث خير معوان على الإتقان . وأن التكلف بلا رغبة شر حائل عن الإحسان وبعض كتب الأديب قد يقصد تأليفها قصداً . ويتكلفها تكلفاً . وينفق فيها جهداً وتعباً . ثم تأتى دون ما يهوى . وبعض كتبه قد يشرع فيها بدافع داخلى . وبلا تكلف ظاهرى . فإذا الاستجابة تفضى إلى شىء ممتع رائع .

ومن عقابيل هذه التجربة عندى أنى أصبحت أسيراً للكلمة فى حياتى . ولقد سألنى أحد الصحفيين : أيمكن أن تلخص حياتك فى جملة ؟ فأجبته : حياتى كلمة أقرؤها . وكلمة أكتبها ، وكلمة أقولها . لقد استأثرت بى الكلمة .

والكلمة لا تؤثر ولا تعبر ولا تثمر إلا إذا كانت منحوتة من شغاف القلب . ولقد كتبت منذ أمد بعيد مذكرات عن مرحلة حزينة من مراحل الحياة . فإذا بى أقول فى صدرها إنى فى حاجة إلى محبرة مدادها من دماء النفوس ، وقلم من أجفان الحيارى المشردين فى الأرض ، المعذبين بطغيان الفساد . وأوراق من شغاف الأفئدة ولفائف القلوب ، لأن هذه الأدوات الحية وحدها هى الكفيلة بأن تعيننى على تصور ما رأيت وما أحسست .

حياة الكلمة هى الشرط الأساسى لتأثيرها وتصويرها ، ولذلك قيل لبعض العرب : متى يكون الفتى بليغاً ؟ فقال : إذا وصف هوى حياً . وحياة الكلمة تتطلب أن يكون صاحبها حياً ، وأن يحس بالحياة وتحس به

الحياة . ولقد استطاعت الحياة أن تجذبني إليها ، فأحببت الحياة متجلية فى كتاب الله المنظور ، وهو مجالى الطبيعة ومشاهد الكون العريض الواسع ، ومنذ قرابة ربع قرن رددت ببياني ولساني هذه الكلمات :

« اللهم افتح بصرى على مشاهد جمالك فى كونك ، وآيات جلالك فى خلقك ، ومظاهر كمالك على صنعتك . اللهم املأ بصيرتى بنور التفكر فى ملكوتك ، واغمر روحى بفيض التدبر فى آلائك ، واعمر عقلى بسنا الاهتداء إليك . اللهم وامنح المحروم من التمتع بطيباتك سبيلا إليها ، ليصح ويقوى ، ويعطى ويأخذ ، ويرتفع بمحياه ودنياه ، إنك أنت السميع المجيب » .

وهكذا علمنى كتاب الله المنظور : « مشاهد الكون » أن أكون قوى الالتفات إلى أثر الحياة فى الإنسان ، وأن أؤكد الدعوة إلى الإحساس بالحياة ، حتى هتفت : ما أحوجنا إلى الإحساس بالحياة ، وإلى أن نحيا هذه الحياة ، وإلى أن نحيا فى هذه الحياة ، وإلى أن تحيي فينا وبنا هذه الحياة ، وإلى أن نكون هذه الحياة !

وقد يتصل هذا الإحساس اتصالا وثيقاً بتجربتى مع الدين ، فقد درست الدين منذ عشرات من السنين ، وظللت على دراسته وتدريسه ، وما زلت طالب علم حتى اليوم وإلى الغد ، لأن الإسلام قد علمنى أن طلب العلم من المهد إلى اللحد ، ولكن الشيء الذى سيطر على كيانى وأنا أتحدث إلى الناس عن الدين ، أو أكتب حوله ، هو رغبتى العميقة الملحة فى ربط الدين بالحياة ، ولقد ألححت إلحاحاً واضحاً فى الحديث عن الدين والحياة ، وجعلت كلمتى : « الدين والحياة » فى عنوان أكثر من كتاب ، وفى غضون عشرات من المقالات . لأنى أؤمن بأن الحياة يجب أن تحتكم إلى الدين ، وأن يكون الدين مهيمناً دائماً على الحياة .

ولقد قلت فى أحد كتبى : « توجد فى الإسلام ميزة ، هى أنه يربط بين الدين والحياة ، وينظم شئون الدنيا وشئون الآخرة ، ويوائم بين المادة والروح . ولقد حرصت خلال عهد طويل على تأكيد هذه الميزة والتذكير بها ».

وقلت فى كتاب ثان : الإسلام فيه من أسباب الرفق والقوة ، والمدنية والسعادة والاعتدال . ما يجعله صالحاً كل الصلاح لكى يرتفع بأهليه ، الموفقين فى فهمه . الحكماء فى تطبيقه . المخلصين لمبادئه . إلى حيث يطمحون من قمم العزة والهناءة . فهو — فى إيجاز — دين مع دنيا . وعبادة مع عمل ، وجسم مع روح . وعقل مع قلب . وعلم مع خلق . وتهذيب مع حكم . وقيادة مع سيادة . وهو قد جاء ليطهر النفس . ويسمو بالروح ، ويهذب الغريزة . ويقوم الفرد . وينظم الأسرة . ويسوس الأمة . ويخفف آلام العالم .

وفى كتاب ثالث قلت : من فضل الله تعالى علينا أن أنزل إلينا ديناً قيماً يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم : (ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . فهو دين يعطى المادة حقها من العناية والرعاية . فيدعو إلى السعى والعمل والكسب . والإنتاج والادخار والاقتصاد . ويدعو إلى اتخاذ أسباب القوة فى غير طغيان . وحوافز العزة فى غير عدوان . وروابط التعاون والتكافل والمشاركة فى غير بهتان .

وهو دين يعطى الروح حقها من العناية والرعاية . فيدعو إلى الطهارة والفضيلة والعبادة والخشية ومكارم الأخلاق . وبهذا يوفق بين مطالب الحياة الأولى . ومطالب الحياة الآخرة . ولعل أجمل ما يصور ذلك هو الأثر الإسلامى الحكيم الذى يقول : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً . واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

فى كتاب رابع : **الدين للحياة : هل هنا ما أهتف به وأردده منذ حين**

بعيد المدى ، لأننى أؤمن بأن الله العلى القدير ، لم يشرع دينه لعباده ليكونوا أصحاب سلبية أو انعزالية ، أو حياة ضعيفة هزيلة ، أو أحلام خيالية عليلة ، بل شرعه لهم ليكون نوراً لبصائرهم ، ويقظة لضمائرهم ، وسعة لأفهامهم ، وقوة لأجسامهم ، وسمواً لأخلاقهم ، ورفعة لحياتهم المادية والمعنوية .

هكذا قلت منذ عهد بعيد ، وهكذا أقول الآن ، وهكذا سأظل أقول إلى ما شاء الله ، وأتذكر أن أضخم كتبى حجماً يحمل هذا العنوان : « يسألونك فى الدين والحياة » .

بل إن الكلمات التى تناثرت من الفم والقلم خلال سنوات الكفاح مع الحياة والأحياء ، وسعت إلى الناس على أنها « مبادئ فى كلمات » لم تبعد عن حمى ذلك الهدف الذى هدف إليه الإنسان ، وهو ربط الدين بالحياة ، واحتكام الحياة إلى الدين ، مع إحساس بمطالب المجتمع ممثلا فى الأفراد والجماعات ، ومن بينها هذه الكلمات :

١ — إذا تدين رجل الفن ، وتفنن رجل الدين ، التقيا فى منتصف الطريق ، لخدمة العقيدة الصحيحة والفن السليم .

٢ — ليتنا نعقل الأشياء بقلوبنا ، وليتنا نحب الأحياء بعقولنا ، فلو أننا عقلنا الأشياء بقلوبنا لصار الكون كله حباً ، ولو أحببنا الناس بعقولنا لصار الحب كله نبلا .

٣ — تستطيع المرأة أن تحمل المجتمع على احترامها إذا ظهرت فيه كإنسانة ، لا كأنثى .

٤ — إن الحق لن ينقلب باطلا مهما قل متبعوه ، وإن الباطل لن ينقلب حقاً مهما كثر مشايعوه .

٥ — لأن تبنى كوخاً بيدك خير من أن تفاخر بميراث قصر .

٦ — قد يكون للدمامة جمال يدركه الأخيار من الناس .

٧ — إن للنصرة نشوة قد تكون أضر على صاحبها من قسوة الهزيمة .

٨ — إذا عجزت عن العمل فلا أقل من تزيين نفسك بالإنصاف ، فتشكر العاملين .

٩ — العظيم يقول : الواجبات أكثر من الأوقات ، والحقير تمضى أوقاته بلا واجبات .

١٠ — إن اختلاف العمل عن القول رذيلة ، ولكنه يصبح فضيلة إذا قال الإنسان شراً ، ثم لم يصدقه بعمل من جنسه .

١١ — إذا كان الساكت عن الحق شيطاناً أخرس ، فإن المفترى للباطل شيطان أخبث منه .

١٢ — يا ويلنا من بيئة تهم بوأد نابغيها . كالهرة التى تأكل بنيها .

* * *

وعلمتنى تجاربى فى الحياة أن هناك فرقاً بين الفكرة والواقع . أو بين النظرية والتطبيق . أو بين المبدأ والتقيد به . فقد درست فى شبابى — مثلا — النظريات الكثيرة فى أصول التربية وقواعد التدريس . وحينما مارست التدريس تبين لى أن التطبيق العملى لهذه الأصول والقواعد يحتاج إلى حسن التصرف ، والتعديل فى جانب أو جوانب .

وقد عرفت من الكتب كثيراً من المبادئ والقيم والمثل . وقضيت ردحاً من الزمن وأنا مفتون كل الفتنة بما عرفت واعتقدت . فلما خرجت إلى دنيا الناس ، وبلوت واقعية الحياة ومادية الأحياء . عرفت أن هناك بوناً شاسعاً بين ما آمنت به واعتنقته ، وما يفعله الناس وتجرى به الحياة .

وكان يخيل إلى فى أثناء دراستى وهيامى بما أعرف أو أدرك ، أن تحويل هذه المعارف والمدركات إلى حقائق ماثلة ووقائع محسة ، أمر ميسور المنال ، فلما جاء وقت التنفيذ احتجت إلى تصحيح رأيى ، وتخفيف حدتى ، وتعديل خيالى .

وتعلمت أن الواجب على الإنسان – حين ينتقل من دنيا الفكرة والمثال ، إلى دنيا الواقع والتطبيق ، وحين يشهد مدى الاختلاف بين دنيا ودنيا – أن يتدثر بالصبر والثبات والأمل ، وألا يفتح الباب لليأس والقنوط . وأن يتذكر أن المثل الأعلى يتابع ارتفاعه أمام صاحبه حتى لا ينال كاملا ، وأن الفكرة المثالية لو تحققت كاملة لتغير وجه الحياة تغيراً كاملا ، وإذن فلا مفر من الثبات والمرابطة ، ولا بد من مواصلة الخطوات فى سبيل ما نؤمن به . وما لا ينال اليوم ينال غداً أو بعد غد . والله ولى الصابرين .

ولقد كنت فى صدر شبابى أهتم كثيراً بما يقوله الناس عنى ، وما يبدونه من آراء وأحكام تتعلق بما أقول أو أفعل . وكنت أحرص على أن أرضى هؤلاء الناس ، وأن أنال تأييدهم لما يصدر عنى من قول أو عمل . وكنت أبذل الكثير من جهدى ووقتى وأعصابى ليرضى هذا أو ذاك أو ذلك .

وعلى الرغم من كثرة ما أبذل ، وطول ما أحاول ، كنت لا أبلغ رضا هؤلاء الناس جميعاً ، فقد يرضى هذا بشىء ، ويغضب الآخر منه ، ويستعصى التوفيق بينهما . فكيف يكون الحل ؟

أدركت بعد طول التجارب أن رضا الناس غاية لا تدرك ، وأن الحرص على رضاهم بهذه الصورة يستنفد الجهود دون طائل ، ويوقع الإنسان فى البلبلة والاضطراب ، ويضطره أحياناً إلى الإضناء لنفسه ، أو الالتواء فى طريقه ؛ ولقد يكون للإنسان فى الحياة أصدقاء ومعارف يطلب رضاهم ،

ويرتجى وفاقهم ، ولكن الحق يجب أن يسبق هؤلاء فى درجة الإعزاز والتكريم ، وأن يكون قبلهم فى المكانة والتقدير .

فليتوافر عندنا الإيمان بما نقوله ونفعله أولا وقبل كل شىء ، ثم لنمض فى طريقنا واثقين بأنفسنا ، موقنين بعقيدتنا ، معتزين بإيماننا ، مخلصين ، فى مقاصدنا ، فإن رضى بذلك الناس ، فذلك ما يقتضيه منهم العدل والإنصاف وإن كانت الأخرى فقد جانبهم الصواب ، أو ابتعدوا عنه عامدين .

ومهما حاولنا التوفيق والتقريب بين البشر ، فستظل هناك وجهات للنظر ، وتعدد فى الأفكار والآراء ، وتضارب بين المطالب والمشارب : (وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين) .

امض لما آمنت به ، ووثقت منه ، وخلاك ذم .

* * *

وتعلمت من تجارب الحياة الأمور الآتية :

القليل إلى القليل كثير .

لا يذهب العرف بين الله والناس .

عش فى خطر ، فالحياة شىء تافه دون الإحساس بخطر .

أعداؤك ينفعونك من حيث لا تدرى .

قد يضر الصديق أحياناً أكثر من ضرر العدو .

الزمن خير حلال للمشكلات .

العبادة ترياق ، يلطف الحس ، ويصفى النفس ويهون الشدائد .

* * *

أما بعد ، فقد قال أحد النحاة : « أموت وفى نفسى شىء من حتى »

ولقد أخذت تجارب الحياة تمر على الإنسان ، تجربة بعد تجربة ، دون أن يستكمل الإنسان ما يريد ، وحاجات من عاش لا تنقضى .

تمر التجارب تباعاً والكتاب الذى يتمنى الإنسان تأليفه لم يؤلفه .

وتمر التجارب تباعاً والصديق المثالى الذى يرتجيه لم يجده .

وتمر التجارب تباعاً والمستوى الذى يريد بلوغه لم يبلغه .

وتمر التجارب تباعاً وفى نفس الإنسان « عشرات الأشياء » من أخوات « حتى » هذه التى مات شيخ النحاة وفى نفسه شىء منها .

أو يدعو ذلك إلى التوقف وترك التجربة واستدبار الحياة ؟ لا لا ، فالحياة أقوى من الأحياء ، والحياة آسرة قاهرة ، والتجربة مغرية مؤثرة ، فلنمض مع الحياة ، ولنمض مع التجربة ، فذلك شىء فى فطرتنا ، ونحن نوعون إليه رضينا أم أبينا .

ولأكتف بما سبق من حديث عن تجربتى مع الحياة ، وإن بقيت فى النفس أشياء وأشياء .

* * *

ثورات فكرية فى تاريخ الأزهر

السؤال :

ما مدى دور الأزهر فى الثورات الفكرية ؟

الجواب :

يذكر التاريخ أن الذى بنى الأزهر هو جوهر الصقلى قائد جيش المعز لدين الله الفاطمى ، وقد أتم بناءه سنة إحدى وستين وثلثمائة ، وقد أريد للأزهر فى أول الأمر أن يكون مقراً للدعوة الفاطمية القائمة على المذهب الشيعى الإسماعيلى ، وسموه « الأزهر » نسبة إلى « الزهراء » لقب فاطمة رضى الله

الله عنها التى ينتسب إليها الفاطميون ، ولكن الله تبارك وتعالى أراد للأزهر بعد ذلك أن يكون معقلا للدراسات الإسلامية والعناية بعلوم الدين واللغة .

ويذكر التاريخ أن الوزير يعقوب بن كلس الذى وقف على الأزهر أوقافاً أشار سنة ٣٧٨ هـ على العزيز بالله الخليفة الفاطمى أن يحول الأزهر من مسجد شيعى إلى جامعة لتدريس العلوم الدينية والعقلية ، وكأن هذا الرأى قد كان إيذاناً بحدوث ثورات فكرية كثيرة فى الأزهر ، لا نستطيع هنا أن نرصدها على وجه الإحصاء أو الاستقصاء ، ولكنا نستطيع أن نذكر طائفة منها قد تكون أقوى أثراً من غيرها فى تاريخ هذه الجامعة الإسلامية التليدة :

ولعل صلاح الدين الأيوبى كان أول من قام بثورة فكرية فى الأزهر كان لها أثرها وخطرها ، فقد كان صلاح الدين سنياً ، فعنى بالقضاء على المذهب الشيعى من الأزهر ، ليغرس مكانه المذهب السنى ، ومهد لهذه الثورة بأن أنشأ فى سنة ٥٦٦ هـ المدرسة الناصرية بجوار عمرو لتدريس المذهب الشافعى ، كما أنشأ المدرسة القمحية بجوار المدرسة السابقة لتدريس المذهب المالكى ؛ وعزل صلاح الدين القضاة الشيعيين ، وعين بدلهم قضاة شافعيين ، وكان صلاح الدين شافعياً ، وبعد حين ضعف المذهب الشيعى وتقلص ، ثم انقرض من مصر ، وبعد أن كان اسم الخليفة الفاطمى يذكر على منبر الأزهر صار يذكر اسم الخليفة العباسى .

ولقد كان سقوط بغداد على أيدى التتار سنة ٦٥٦ هـ سبباً فى اتجاه كثير من العلماء والفقهاء إلى مصر ، والاتصال بالأزهر ، والتأثر به أو التأثير فيه ، من أمثال ابن حجر العسقلانى والمقريزى والعينى والبلقينى ، وهم من رجال القرن التاسع الهجرى ، ومن أمثال السخاوى والسيوطى من رجال القرن العاشر . وصار الأزهر — بعد غارات التتار المدمرة — هو الجامع الوحيد الذى يرتفع فيه صوت العلم والدين ، وذلك لأكثر من سبب ، فالتتار قد

خربوا غيره من المساجد والمدارس والمعاهد ، والحضارة العربية قد انقرضت من الأندلس — الفردوس المفقود — والأزهر يوجد فى مصر التى تتوسط العالم الإسلامى، والتى لا تبعد عن الحجاز منزل الوحى، ولها أهميتها الاقتصادية وصبغتها العربية ، وهى مفتاح قارة أفريقية، وفيها بذور من الثقافة العقلية المصرية القديمة .

ويبدو أن الأزهر خلال هذه القرون كان مجتلى الرأى العام فى الشعب ، ولذلك يروى أن قايتباى — وكان أكثر الناس رعاية للأزهر فى القرن التاسع — كان يتخفى فى زى رجل مغربى ، ويذهب إلى الأزهر ويسمع ما يقول الناس فيه .

كما يبدو أن الناس كانوا ينظرون إلى الأزهر منذ القديم نظرة خاصة قائمة على الإحساس العميق برسالة الأزهر وخطير مكانته ، وقد يدل على ذلك أن الأمير بهادر استصدر سنة ٧٨٤ هـ مرسوماً من السلطان برقوق ينص على أن من مات من مجاورى الأزهر عن غير وارث شرعى ، فإن تركته توزع على المجاورين فى الأزهر ، وقد نقش هذا المرسوم ، وعلق على الباب البحرى الكبير للأزهر ، ومن الممكن أن يقول القائل إن هذا الإجراء يعد — بلغة العصر — ثورة اشتراكية ، قد يعزز معناها ما عرفه تاريخ الأزهر — من قبل ومن بعد — من نظام الأروقة والمساكن والجرايات والهبات التى كانت تخصص لأهل الأزهر وطلابه .

* * *

ولقد ظل الأزهر قوى الأثر عميق الخطر فى الحياة الاجتماعية والعقلية حتى الفتح العثمانى لمصر سنة ٩٢٢ هـ ، ثم كان هذا الفتح سبباً فى ضعف الحياة العلمية فى مصر بعامة ، وفى الأزهر بخاصة ، وعلى الرغم من هذا الضعف ظل الأزهر يصارع ويقاوم ، حيث لم يكن هناك معهد علمى سواه ،

وتألقت فى سمائه نجوم رجال أعلام من أمثال زكريا الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٦ هـ . وعبد الوهاب الشعرانى المتوفى سنة ٩٧٣ . وأحمد الدرديرى المتوفى سنة ١٢٠١ هـ .

وإذا كان للحكم العثمانى فى مصر سوآته الكثيرة ، فإن هذا لم يمنع أن نجد أحد الولاة العثمانيين فى مصر ، يفتح الباب أمام ثورة علمية فى الأزهر سنة ١١٦١ هـ ، وذلك الوالى هو « أحمد باشا » المعروف بكورزير ، وكان كما يذكر المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى من أرباب الفضائل ، وله رغبة فى العلوم الرياضية ، وكان الأزهر قد أهمل دراسة العلوم الرياضية ، وكان شيخ الأزهر حينئذ هو الشيخ عبد الله الشبراوى .

فلما وصل ذلك الوالى إلى القاهرة واستقر بالقلعة ، ذهب إليه وفد من علماء الأزهر لتهنئته ، فدار بين الوالى والوفد حوار فى مسائل من العلم ، إلى أن دخل بهم فى مسائل العلوم الرياضية ، فأمسكوا عن الكلام فيها قائلين : نحن لا نعرف هذه العلوم ، فعجب الوالى من ذلك أشد العجب . وكان الشيخ الشبراوى بين ذلك الوفد .

وذات يوم اجتمع الوالى بالشيخ الشبراوى وقال له : المسموع عندنا بالديار الرومية (التركية) أن مصر منبع العلوم والفضائل ، ولقد كنت فى غاية الشوق إلى المجيء إليها ، فلما جئتها وجدتها كما يقول المثل : « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » .

فقال له الشيخ : هى كما سمعتم معدن العلوم والمعارف .

فقال الوالى : وأين هى وأنتم أعظم علمائها ، وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم ، فلم أجد عندكم منها شيئاً ، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول [مثل علم المنطق والتوحيد] والوسائل [مثل علم النحو والصرف] ونبذتم المقاصد [يعنى العلوم الرياضية] ؟

فأجاب الشيخ : نحن لسنا أعظم علمائها ، وإنما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام ، وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية ، إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث ، وذلك من فروض الكفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الباقين .

فقال الوالي : وأين أجد هذا البعض ؟

فأجابه الشيخ : هم موجودون في بيوتهم يسعى إليهم .

ثم دله الشيخ على الشيخ حسن الجبرتي — والد الجبرتي المؤرخ .

فطلبه الوالي وسأله عن تلك العلوم ، فوجده يحسن معرفتها ، فسر به سروراً عظيماً ، وصار يكثر من الاجتماع به ، ليذاكره فيها ، ويناقشه في مسائلها .

ولم يكن الشيخ حسن الجبرتي هو الوحيد من رجال الأزهر الذين استوعبوا العلوم المختلفة ، بل كان هناك مثل الشيخ أحمد الدمنهوري المولود سنة ١١٠١هـ والمتوفى سنة ١١٩٢ والذي تولى مشيخة الأزهر سنة ١١٨٢ وظل فيها ما يقرب من عشر سنوات ، فقد ذكر في سند العلوم التي تلقاها ودرسها أنه درس كتاباً في علوم الحساب والجبر والمقابلة ووضع المزاول ، وأسباب الأمراض وعلاجها ، والحدود والدوائر والفلك ، وعلم الهيئة والهندسة والمساحة والتكعيب ، والممالك الطبيعية : الحيوان والنبات والمعادن ، وعلم استنباط المياه ، وعلم التشريح . . . إلخ .

* * *

ونستطيع أن نقول إن الشيخ عبد الله الشبراوي المتوفى سنة ١١٧١ هـ والذي تولى مشيخة الأزهر عقب وفاة الشيخ الفيومي ، قد أحدث في البيئة

الأزهرية ثورة أدبية فنية عاطفية ، بما نظمه من شعر غزلى عذب قد يستبعد كثير من الناس أن ينسب إلى عالم أزهرى ، فضلا عن عالم جليل يتولى مشيخة الأزهر فى ذلك العهد السابق القديم . وحسبنا أن نذكر هنا أن هذا الشيخ هو صاحب تلك القصيدة التى تتوقد رقة وعذوبة ، وفيها يقول :

وحقك أنت المنى والطلب ... وأنت المراد وأنت الأرب
ولى فيك يا هاجرى صبوة ... تحير فى وصفها كل صب
أبيت أسامر نجم السما ... إذا لاح فى الدجى أو غرب
وأعرض عن عاذلى فى هواك ... إذا نم يا منيتى أو عتب
أمولاى بالله رفقاً بمن ... إليك بذل الغرام انتسب
فإنى حسيبك من ذا الجفا ... ويا سيدى أنت أهل الحسب
ويا هاجرى بعد ذاك الرضا ... بحقك قل لى : لهذا سبب ؟
فإنى محب كما قد عهدت ... ولكن حبك شيء عجب
متى يا جميل المحيا أرى ... رضاك ويذهب هذا الغضب ؟
أشاع العذول بأنى سلوت ... وحقك يا سيدى قد كذب
ومثلك ما ينبغى أن يصد ... ويهجر صباً له قد أحب
أشاهد فيك الجمال البديع ... فيأخذنى عند ذاك الطرب
ويعجبنى منك حسن القوام ... ولين الكلام وفرط الأدب
وحسبك أنك أنت المليح ... الكريم الجدود العريق النسب
أما والذى زان منك الجبين ... وأودع فى اللحظ بنت العنب
وأنبت فى الخد روض الجمال ... ولكن سقاه بماء اللهب
لئن جدت أو جرت أنت المراد ... ومالى سواك مليح يجب !

أمن السهل على الناس اليوم أن يصدقوا أن هذا الشعر الغزلى قد صاغه منذ قرابة ثلاثة قرون عالم كبير تولى مشيخة الأزهر ما يقرب من عشر سنوات ؟ !

* * *

وممن قاموا بثورة فكرية فى الأزهر الشريف الشيخ حسن العطار الذى ولد بالقاهرة سنة ١١٨٠ هـ ، وتعلم فى الأزهر كغيره من الطلاب ، وهام بالسياحة والرحلات شرقاً وغرباً فى البلاد الإسلامية ، وكان يشاهد ويتابع ويحاور ويجمع المعلومات. وحينما جاء الفرنسيون إلى مصر فى حملتهم المشهورة اتصل العطار ببعض أفرادها ، وأخذ يتعلم منهم ، وينقل عنهم ، ويتشبه بهم فى البحث والتنقيب العلمى والأدبى والاجتماعى .

وفى سنة ١٢٤٦ هـ تولى الشيخ العطار مشيخة الأزهر ، فانتهزها فرصة ذهبية ، وأخذ يهز الأزهر هزاً عنيفاً قوياً ليستيقظ ، وتوفى عليه رحمة الله سنة ١٢٥٠ هـ .

عاب العطار على الأزهريين أنهم يعرضون عن كتب المتقدمين وسعة أفقهم ، ولا يستفيدون بتراث السلف القيم العظيم ، فقال :

« إن من تأمل فى علمائنا السابقين يجد أنهم كانوا مع رسوخ قدمهم فى العلوم الشرعية ، لهم اطلاع واسع على غيرها من العلوم والكتب التى ألفت فيها ، حتى كتب المخالفين فى العقائد والفروع ، وأعجب من ذلك تجاوزهم إلى النظر فى كتب غير أهل الإسلام من التوراة وغيرها من الكتب السماوية واليهودية والنصرانية ، ثم هم — مع ذلك — ما أخلوا فى تثقيف ألسنتهم برقائق الأشعار ولطائف المحاضرات .

ومن نظر فى ذلك ، وفيما انتهى إليه الحال فى زمن وقعنا فيه ، علم أنا منهم

بمنزلة عامة أهل زمانهم ، فإن قصارى أمرنا النقل عنهم ، بدون أن نخترع شيئاً من عندنا ، وقد اقتصرنا على النظر فى الكتب محصورة ألفها المتأخرون المستملون من كلامهم ، نكررها طول العمر ، ولا تطمع نفوسنا إلى النظر فى غيرها ، حتى كأن العلم فيها .

فإذا ورد علينا سؤال من علم الكلام لا نجده فيها ، تخلصنا بأن هذا كلام الفلاسفة ، أو مسألة أصولية قلنا : لم نرها فى جمع الجوامع ، فلا أصل لها ، أو نكتة أدبية قلنا : هذا من علوم أهل البطالة ، وهكذا .

فصار العذر أقبح من الذنب ، وحالتنا الآن كما قال ابن الجوزى فى مجلس وعظه ببغداد :

ما فى الديار أخو وجد نطارحه حديث نجد ولا خل نجاريه

وهذه نفثة مصدور ، فنسأل الله السلامة واللطف » .

ويعود الشيخ العطار فى حاشيته على كتاب « جمع الجوامع » فيشيد بأمر الكتب العلمية المترجمة إلى العربية ويوحى بالعناية بها عند علماء الأزهر ، فيقول :

« وقد عربت كتب فى زماننا من كتب الفرنجة ، وفيها أعمال كثيرة وأفعال دقيقة ، اطلعنا على بعضها ، وقد استخرجت تلك الأعمال بواسطة الأصول الهندسية والعلوم الطبيعية ، وفى تلك الكتب تكلم القوم فى الصناعات الحربية والآلات النارية ، ومهدوا فيها قواعد وأصولا ، حتى صار ذلك علماً مستقلا ذا فروع كثيرة ، ومن سمت به همته إلى الاطلاع على غرائب المؤلفات ، ظهرت له حقائق كثيرة من دقائق العلوم ، وتنزهت فكرته إن كانت سليمة فى رياض الفهوم ، فلا تجعل سعيك لغير الحصول على الكمالات العرفانية مصروفاً ، ولا تتخذ غير نفائس الكتب أليفاً ألوفاً :

ولا تك من قوم يدعون سعيهم　　لتحصيل أنواع المآكل والشرب
فهذى إذا عدت طباع بهائم　　وشتان ما بين البهيم وذى اللب

وهذه نفثة مصدور : ولله عاقبة الأمور » .

ولقد تكلم المرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدى عن شخصية الشيخ العطار فى كتابه « تاريخ الإصلاح فى الأزهر » ونقل نصوصاً له ونصوصاً قيلت عنه ، ونوه بشخصيته ، وتوسع الأستاذ محمد عبد الغنى حسن فى كتابه عن الشيخ العطار ، وذكر أنه قد امتاز بقراءته الواسعة العميقة للكتب العربية والمعربة فى زمانه ، ولم يختص بعلم معين ، أو بفن بعينه من الفنون ، ولكنه كان حريصاً على الإفادة من كل علم ، وأنه كان من القلة الأزهرية التى أدركت ضرورة العلوم العقلية والطبيعية لنهوض البلاد ، وكان صاحب فضل فى التنبيه إلى قيمة العلوم الطبيعية ، وإلى ضرورة إدخال العلوم العصرية فى الأزهر ، وإلى ضرورة الأخذ بالعلوم الطبيعية والأصول الهندسية ، بجوار الرسوخ فى العلوم الشرعية والأصول الفقهية ، وأنه لا شك أن تحرر الشيخ العطار الفكرى ، وبعده عن الجمود ، ودعوته إلى الأخذ بالعلوم الحديثة ، مع الاهتمام بالعلوم القديمة ، قد جذب إليه الطلاب من كل فج .

ويقول الباحث المفضال : « إذا كان حسن العطار لم يوفق فى إصلاح الأزهر وبرامجه وخطط الدراسة فيه كما كان يريد ، فإنه قد رزق حظاً كبيراً من التوفيق فى الدعوة إلى إصلاح التعليم بالبلاد كلها ، فالمدارس العالية الفنية التى أنشئت بمصر فى ذلك العهد - كالهندسة والطب والصيدلة والألسن - هى الاستجابة الحقيقية لدعوة حسن العطار وتطلعاته ومناداته بحتمية تغيير الأحوال فى البلاد ، والكتب التى ترجمت بالمئات فى عصر محمد على هى

الصدى المحقق لأمنية حسن العطار حين رأى كتب الفرنسيين فى الرياضة والعلوم والآداب » .

* * *

وتأتى ثورة رفاعة رافع الطهطاوى :

ولد رفاعة فى طهطا سنة ١٢١٦ هـ ، وتعلم بالأزهر حتى تخرج فيه ، ثم اختير ليكون إماماً لأول بعثة مصرية أرسلت إلى فرنسة سنة ١٨٢٥ م ، وهناك تعلم الفرنسية وأجادها ، ودرس كثيراً من العلوم ومنها التاريخ والجغرافية . ثم عاد إلى مصر سنة ١٨٣١ م ، فكان رئيساً لترجمة الكتب إلى العربية ، وألف كتباً فى التربية والأخلاق ، وأنشأجريدة الوقائع المصرية ، وأسس مدرسة الألسن ، وتوفى سنة ١٨٧٣ م — ١٢٩٠ هـ .

ولقد كان الطهطاوى تلميذاً للثائر الأزهرى الشيخ حسن العطار ، وممن لازموه بصفة مستمرة ، وحينما هم رفاعة بالسفر إلى فرنسة ذهب إلى شيخه ليتلقى نصيحته ، فأوصاه بأن يقوم بتدوين كل مايراه فى تلك البلاد العجيبة ، وأن يعنى بدراسة العلوم التى نبغوا فيها ، وكانت سبب قوتهم ونهضتهم ، ليقوم بنقلها إلى اللغة العربية ، فيستفيد أهلها منها ، وينهضوا كما نهض أهل أوربة .

ومن أن الوظائف التى تولاها الطهطاوى بعد عودته من فرنسة كانت خارج الأزهر ، ومع أن صلته الوظيفية أو الرسمية انقطعت عن الأزهر ، لم يترك تحريك عوامل الثورة الفكرية بين أبناء الأزهر ، بل أخذ يتلمس الوسائل إلى بث أفكاره والأخذ بآرائه فى إصلاح الأزهر والنهوض بأهليه ، لأنه لم ينس أنه أحد بنيه ، ولذلك نراه فى كتابه « مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية » يتحدث عن فوائد العلوم الحديثة ، ووجوب

اغتراف الأزهرين من منابعها ، ويقول عن أبناء الأزهر : « إن لهم اليد البيضاء فى إتقان الأحكام الشرعية العملية والاعتقادية ، وما يجب من العلوم الآلية . كعلوم الاثنى عشر ، وكالمنطق والوضع وآداب البحث والمقولات وعلم الأصول المعتبر ؛ ولمثل هذا فليعمل العاملون ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

غير أن هذا وحده لايفى للوطن بقضاء الوطر ، والكامل يقبل الكمال كما هو متعارف عند أهل النظر ، ومدار سلوك جادة الرشاد والإصابة ، منوط – بعد ولى الأمر – بهذه العصابة ، التى ينبغى أن تضيف إلى ما يجب عليها من شر السنة الشريفة ، ورفع أعلام الشريعة المنفية ، معرفة سائر المعارف البشرية المدنية ، التى لها مدخل فى تقيم الوطنية ، من كل مايحمد على تعلمه وتعليمه علماء الأمة المحمدية ، فإنه بانضمامه إلى علوم الشريعة والأحكام ، يكون من الأعمال الباقية على الدوام ، وتقتدى بهم فى اتباعه الخاص والعام .

حتى إذا دخلو فى أمور الدولة ، يحسن كل منهم فى إبداء المحاسن المدنية قوله ، فإن سلوك طريق العلم النافع من حيث هو مستقيم ، ومنهجه الأبهج هو القويم ، يكون بالنسبة للعلماء سلوكه أقوم ، وتلقيه من أفواههم أتم وأنظم ، لاسيما وأن هذه العلوم الحكمية العملية التى يظهر الآن أنها أجنبية ، هى علوم إسلامية ، نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية ، ولم تزل كتبها إلى الآن فى خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة ، بل لازال يتشبث بقراءتها ودراستها من أهل أوربة حكماء الأزمنة الأخيرة » .

ثم يستحث الطهطاوى همم نجباء أهل الأزهر ليتمسكوا بدراسة العلوم العصرية ، ويقر أنهم لو فعلوا ذلك « لفازوا بدرجة الكمال ، وانتظموا فى سلك الأقدمين من فحول الرجال ، وربما يتعللون بالاحتياج إلى مساعدة الحكومة ، والحال أن الحكومة إنما تساعد من يلوح عليه علامات الرغبة

والغيرة والاجتهاد ، فعمل كل من الطرفين متوقف على عمل الآخر ، فترجع المسألة دورية ، والجواب عنها أن الحكومة قد ساعدت بتسهيل الوسائط والوسائل ، ليغتنم فرصة ذلك كل طالب وسائل ، وكل من سار على الدرب وصل ، إنما المكافأة على تمام العمل » .

* * *

وممن يمثلون ثورة فكرية فى تاريخ الأزهر المرحوم الشيخ محمد عياد الطنطاوى الذى ولد سنة ١٨١٠ م وكان أبوه من بلده « محلة مرحوم » فى محافظة الغربية ، وقد حفظ صاحبنا القرآن الكريم فى « الكتاب » ، كما حفظ فيه طائفة من المتون ، وفى الثالثة عشرة من عمره دخل الأزهر ، وتعلم فيه على أيدى الشيخ إبراهيم الباجورى ، والشيخ حسن العطار ، والشيخ حسن السقا ، والشيخ محمد الأشمونى ، واستمر فى الأزهر سنوات ، ثم مات والده ، فأخذ الابن يجمع بين الدراسة والتدريس ، ليستعين بذلك على مطالب الحياة ، ثم حصل على إجازة التدريس فى ٢٠ من المحرم سنة ١٢٤٤ هـ (١٨٢٨ م) وقام بالتدريس فى الأزهر ، حيث درس التفسير والمنطق ، وعنى بالشعر والأدب ، وظل يقوم بالتدريس عشر سنوات ، وتعلم فى أثناء ذلك اللغة الفرنسية ، ولم يقتصر على جوه الأزهرى وبيئته الوطنية ، بل خطا خطوة كان لها أثرها وخطرها فى عهده ، حيث قام بتدريس علوم اللغة العربية فى المدرسة الإنجليزية بالقاهرة ، وقام بتعليم الفرنجة فى بلاده لغة العرب ، واتصل بالجالية الأوربية بالقاهرة وفيها عدد كبير من المهندسين والعسكريين والسياسيين ، فأثر فيهم وتأثر بهم ، وكان أستاذاً فى اللغة العربية للمستشرق الفرنسى (فرنيل) وقرأ معه ديوان الشاعر الشنفرى .

وكان من تلاميذ الشيخ الطنطاوى : الأستاذ يوسف الأسير الذى ترك أثراً فى الأدب العربى والمجتمع العربى ، والأستاذ إبراهيم مرزوق الأديب

الشاعر الذى ترجم « أمثال لافونتين » ، والشيخ عبد الهادى نجا الإبيارى ، والشيخ عبد السلام الحلبى ، وغيرهم من أعلام الأدباء والعلماء . ومما يدل على مدى الثورة الفكرية التى أوقدها الشيخ الطنطاوى فى بيئته أن نراه فى سنة ١٨٢٧ م يقول وهو يدرس فى الأزهر إنه لايعرف أحداً قبله قرأ فى الأزهر ماقرأه من مقامات الحريرى والمعلقات مع شرح الزوزنى .

وكان الطنطاوى هو الأزهرى المصرى الوحيد — كما يقول المستشرق فرنيل — الذى يدرس اللغة العربية بمحبة واهتمام ، ويعنى بكتب الآداب العربية القديمة ، وكان الطنطاوى قد عقد العزم على طبع كتاب « الأغانى » ، بالاشتراك مع « فرنيل » .

وفى سنة ١٨٤٠ دعاه قيصر روسيا ليقوم بتعليم اللغة العربية وآدابها فى القسم التعليمى التابع لوزارة الخارجية بروسيا ، فتعلم الشيخ الطنطاوى اللغة الروسية ، وانتقل إلى هناك ، فكان انتقاله حدثاً خطيراً فى تاريخ الأزهر ، وفى صلة العرب بالروس ، وكان سفره إلى روسيا يوم السبت ٢٤ من المحرم سنة ١٢٥٦ هـ .

وقد وضع المستشرق الروسى « اغناطيوس كراتشوفسكى » كتاباً عن حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى ، وترجمت هذا الكتاب إلى العربية سيدة فلسطينية هى « كلثوم عودة » وراجع الترجمة وعلق عليها الأستاذان عبد الحميد حسن ومحمد عبد الغنى حسن ، ونشر الترجمة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية سنة ١٩٦٤ م . ويقول كراتشوفسكى فى كتابه هذا : « كان رحيل الطنطاوى إلى روسيا حدثاً كبيراً ، ليس فى حياته فحسب ، بل فى الاستشراق الروسى أيضاً ، حتى إن الصحافة الواسعة أولته انتباهاً كبيراً » .

وهذا هو العالم «سافيليف» الذى صار فيما بعد من علماء الأثار المشهورين وأحد مؤسسى جمعية الآثار فى روسيا ، يكتب رسالة إلى أحد أصدقائه فى سنة ١٨٤٠ يصور فيها تأثير الشيخ الطنطاوى فى الجو الروسى وغيره فيقول : « أنت تسألنى : من هذا الرجل الجميل فى لباس شرقى ، وعمامة بيضاء ، وله لحية سوداء كجناح الغراب ، وعينان تشعان بإشعاع غريب ، على وجهه سمة الذكاء ، وقد لفحت الشمس بشرته ، وليست بالطبع شمس بلادنا الشمالية الباردة ؛ لقد رأيته مرتين يسير بخطوات وئيدة على بلاط شارع نفسكى فى جهته المضاءة بالشمس ، ولقد لفت هذا الرجل نظرى ، كما لفت أنظار زائرى هذا الشارع فى أيام الجو الطيب ...

هو ضيف جديد من ضفة النيل . إنه الشيخ فاضل محمد عياد الطنطاوى ، وهذا الاسم معروف لدى كل من يدرس اللغة العربية ، وكل السياح الذين انتفعوا بخدماته ، والمدنيون له بنجاح بحوثهم ، يذكرونه بالشكر ، ويكنون له المودة ، مذيعين شهرته فى أوربة .

فى القاهرة ، وفى الجامع الأزهر ، مدرسة من أحسن المدارس ، إن لم نقل أحسنها ، وهناك عند الأعمدة التى يقوم عليها سقف غرفة كبيرة ، يجلس الأساتذة ، ويجلس تلاميذهم بهيئة نصف حلقة حولهم ، وكنت ترى حول أحد الأساتذة حلقة تتألف من شعوب مختلفة ، وعدد تلاميذها أكثر ممن فى الحلقات الأخرى ، بينهم شباب أوربيون من الذين يريدون دراسة اللغة العربية ، هنا كان كرسى الشيخ محمد عياد الطنطاوى ، من أشهر العلماء الوطنيين وأكثرهم إطلاعاً على الآداب الوطنية والتاريخ ...

وقد أذاع شهرته فى أوربا مستشرقان كانا تلميذيه ، يجلسان عند أعمدة الجامع الأزهر ، ثم اشتهرا بمعرفة اللغة العربية واللهجات ، أحدهما فوجلنس فرنيل القنصل بمدينة جدة فى جزيرة العرب ، وصاحب الرسائل عن تاريخ

العرب قبل الإسلام ، والثانى غوستاف فيل أستاذ هيد لبرج السابق ، ومترجم ألف ليلة وليلة ومؤلف شعر العرب قبل محمد ، والفضل لظهور البحثين عن جزيرة العرب قبل محمد يرجع لمساعدة الشيخ للمؤلفين ، إذ أنه بلا مساعدته ما كان لبحوثهما أن تظهر كما يشهدان » .

ومما يدل على روح الثورة عند الشيخ الطنطاوى أنه فى طريقه إلى روسيا نزل فى إيطاليا ، ولم يتردد — وهو الشيخ المعمم فى ذلك الوقت المبكر الذى تتجلى فيه محافظة الأزهر على العرف والتقليد — أن يزور دار الأوبرا مرتين ، حيث شاهد فى المرة الأولى رواية « السلطان محمد » . وفى المرة الثانية رواية « العاشقين » ، ويذكر الطنطاوى أنه لم يكن هناك معمم من المشاهدين سواه .

وكذلك نزل وهو فى طريقه — مدينة « كييف » ، وحرص على أن يزور دير اللافرا وكنيسة القديسة صوفيا ، وكنيسة القديس أندراوس . وحضر حفل استعراض الجيش يوم الأحد ، وزار مدرسة البنات . وسمع العزف على البيانو وفعل كل هذا وهو بعمامته وثيابه الأزهرية .

وشغل الشيخ الطنطاوى كرسى الآداب الشرقية فى الجامعة الروسية ، وكان يجمع — كما يذكر كراتشوفسكى — بين الطرق النظرية والطرق العملية ، فمن جهة كان يدرس قواعد اللغة ، ويشرح أمثال لقمان ، ويقرأ قطعاً من مؤلفات تاريخية من مجموعة « بولدريف » ومقامات الحريرى ، ومن جهة أخرى كان يدرس الترجمة من اللغة الروسية إلى العربية ، والخطوط الشرقية ، وقراءة المخطوطات ، والمحادثة باللغة العربية ، وزاد على ذلك من سنة ١٨٥٥ تدريس تاريخ العرب ، ونرى من المختصرات المحفوظة بين أوراقه أنه كان يشرح فى محاضراته تاريخ الخلافة حتى عهد فتوحات المغول.

وحاز الشيخ الطنطاوى ألقاباً وأوسمة ومداليات وهدايا من القيصر وولى عهده ، وصادف فى روسيا تقديراً وانتباهاً لا من قبل المستشرقين

وحدهم ، بل وجد منذ وصوله إليها تلاميذ متعطشين لأخذ العلم عنه ، وإن الإعجاب بالشيخ كان يتملك كل من يلتقى به من الواقفين على حقائق الأمور.

وعلى الرغم من النشاط الموصول الذى كان يبذله الطنطاوى فى التدريس والحوار والرحلة فقد ألف مجموعة قيمة من الكتب ، ألف فى النحو والصرف والفلك والجبر والميراث والحساب والعقائد ، والتاريخ والبلاغة والشعر والعروض والتوحيد ، ونظم الشعر ، وكتب الرسائل ، وكتب القصص ، ووضع القواميس .

ولقد استفاد من الشيخ الطنطاوى طائفة كبيرة من المستشرقين ، أمثال نقولا موخين ، وفريس فرانيل ، وبيرون وفيل ، وغيرهم من الفرنسيس والألمان والروس . والذى يزور مقبرة التتر فى قرية « فولكوفا » الروسية يجد فيها قبر الشيخ محمد عياد الطنطاوى المصرى الأزهرى الذى كانت حياته صورة من صور الثورات الفكرية الملحوظة فى تاريخ الأزهر الطويل .

• • •

ثم جاءت فى تاريخ الأزهر ثورة جمال الدين الأفغانى موقظ الشرق الإسلامى من سباته .

لقد ولد جمال الدين الأفغانى فى سنة ١٢٥٤ هـ ، ودرس فى أفغانستان ، وحصل جملة من العلوم فيها الطب والتشريح والفنون الحربية ، ثم درس فى الهند حيث حصل فيها العلوم العصرية وتعلم اللغة الإنجليزية ، مع التركية والفارسية ، وجاء إلى مصر سنة ١٢٨٦ هـ ، وكان فى شرخ شبابه ، فأيقظ سبات الأزهر ، ودعا إلى فتح باب الاجتهاد فى الدين ، ولقى فى سبيل دعوته أهوالا من الأعداء والأولياء ، وعلى سبيل المثال كان الخديو توفيق يؤيد جمال الدين قبل أن يتولى هذا الخديو حكم مصر ، وكان يقول للأفغانى :

«أنت موضع آمالى فى مصر أيها السيد» ولكن الخديو انقلب على جمال الدين بسبب السعايات الأجنبية بينهما ، وكانت النتيجة هى نفى جمال الدين من مصر ، بعد أن بذر فى محيط علماء الأزهر بذور ثورة فكرية واجتماعية واسعة النطاق .

وأصدر جمال الدين مع تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده مجلة « العروة الوثقى » التى كانت أعظم مجلة إسلامية تهز العالم الإسلامى هزاً عنيفاً .

ثم جاء الأستاذ الشيخ محمد عبده فحمل مشعل الإصلاح والثورة الفكرية فى الأزهر ، بعد أن ضاق بنظام الأزهر منذ شبابه ، وأراد إصلاح الإدارة ، وإصلاح التدريس ، وتغيير الكتب ، واستطاع أن تحقق الأمور التالية :

١ - إنشاء مجلس إدارة للازهر سنة ١٣١٢ هـ

٢ - ضبط مرتبات العلماء وطريقة توزيعها .

٣ - ربط المعاهد الدينية فى مصر بالجامع الأزهر .

٤ - إصلاح نظام التدريس .

٥ - وضع نظم للامتحانات .

٦ - إصدار طائفة من القوانين للإصلاح .

ولقد قال الشيخ محمد عبده : « إنى بذرت فى الأزهر بذراً إما أن ينبت ويثمر ويؤتى أكله المغذى للروح والعقل ، فيحيا به الأزهر حياة جديدة ، وإما أن يقضى الله على هذا المكان قضاءه الأخير » . وعاد الأستاذ الإمام فقال : « إننى ألقيت فى الأزهر مشكاة لاتنطفئ ، إن لم تلتهب اليوم أو غداً ، فستلتهب فى ثلاثين عاماً ، وستكون ضراما » وقدحورب الشيخ محمد عبده فى ثورته الفكرية حرباً لاهوادة فيها ، وتفاصيل ثورته كثيرة واسعة تكفلت

ببيانها مصادر ومراجع . ولقد عنيت بالإشارة إلى ذلك فى كتابى « مدرسة الأستاذ الإمام » وكتابى « رشيد رضا صاحب المنار » .

ثم جاءت ثورة فكرية أخرى فى عهد الشيخ محمد مصطفى المراغى ، وهو من تلاميذ الشيخ محمد عبده ، وقد دعا المراغى إلى محاربة الجمود فى الأزهر ، وإلى صلة الأزهريين بالمجتمع وإلى التجديد فى التدريس والتأليف ، وإلى ربط الدين بالحياة ، ووضع فى سنة ١٩٢٨ مذكرته التى توضح ملامح ثورته الفكرية فى الأزهر ، وفيها يقول :

« يجب أن يدرس القرآن دراسة جيدة ، وأن تدرس السنة دراسة جيدة ، وأن يفهما على وفق ماتتطلبه اللغة العربية : فقهها وآدابها من المعانى ، وعلى وفق قواعد العلم الصحيحة ، وأن يبتعد فى تفسيرهما عن كل ما أظهر العلم بطلانه . وعن كل مالا يتفق وقواعد اللغة العربية .

يجب أن تهذب العقائد والعبادات . وتنفى مما جد فيها وابتدع . وتهذب العادات الإسلامية بحيث تتفق وقواعد الإسلام الصحيحة .

يجب أن يدرس الفقه الإسلامى دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب ، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة . وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها فى الكتاب والسنة . والأحكام المجمع عليها ، والنظر فى الأحكام الاجتهادية لجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة ، كما كان يفعل السلف من الفقهاء .

يجب أن تدرس الأديان ليقابل ما فيها من عقائد وعبادات وأحكام بما هو موجود فى الدين الإسلامى ، ليظهر للناس يسره وقدسه وامتيازه عن غيره فى مواطن الاختلاف ، ويجب أن يدرس تاريخ الأديان وفرقها ، وأسباب التفرق ، وتاريخ الفرق الإسلامية على الخصوص وأسباب حدوثها .

يجب أن تدرس أصول المذاهب فى العالم قديمها وحديثها . وكل المسائل العلمية فى النظام الشمسى والمواليد الثلاثة مما يتوقف عليه فهم القرآن الآيات التى أشارت إلى ذلك .

يجب أن تدرس اللغة العربية دراسة جيدة كما درسها الأسلاف ، وأن يضاف إلى هذه الدراسة دراسة أخرى على النحو الحديث فى بحث اللغات وآدابها .

يجب أن توجد كتب قمة فى جميع فروع العلوم الدينية واللغوية على طريقة التأليف الحديثة ، وأن تكون الدراسة جامعة بين الطرق القديمة ــ فى عصور الإسلام الزاهرة ــ والطرق الحديثة المعروفة الآن عند علماء التربية . وعلى الجملة يجب أن يحافظ على جوهر الدين وكل ماهو قطعى فيه محافظة تامة ، وأن تهذب الأساليب ، ويهذب كل ماحدث بالاجتهاد ، بحيث لايبقى منه إلا ما هو صحيح من جهة الدليل ، وكل ماهو موافق لمصلحة العباد » .

• • •

إن فى تاريخ الأزهر الطويل العريض عشرات وعشرات من الثورات الفكرية التى يامنت أو ياسرت أو توسطت ، وقد ذكرت طائفة منها ، دون أن أدخل فى التفاصيل أو إصدار الأحكام على هذه الثورات ، فقد تكون هنا بعض الملاحظ ، وقد تكون هناك بعض المآخذ ، وقد تكون هناك بعض العيوب ، وتبيان ذلك على وجهه الكامل الشامل جهد واسع تضيق به ظروف الزمان والمكان ، ومن حق كل ثورة من هذه الثورات أن تنال حقها المستقل من التحليل والتمحيص ، ولعل ذلك يتيسر لهذا القلم أو ذاك ، وعلى الله قصد السبيل .

• • •

الأزهر بين الأمس واليوم

السؤال :

مادور الأزهر بين الأمس واليوم ؟

الجواب :

لم يبعد عن الحقيقة من قال إن مصر هى بلد الجامعات القديمة .

فى مصر كانت أقدم جامعة للعلم ، وهى جامعة عين شمس .

وفى مصر كانت أقدم جامعة للحضارة ، وهى جامعة الإسكندرية..

وفى مصر كانت أقدم جامعة إسلامية ، وهى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط .

وفى مصر كانت أقدم جامعة إسلامية عربية ، وهى الجامع الأزهر بالقاهرة ...

وقد أنشأ الفاطميون الجامع الأزهر سنة تسع وخمسين وثلثمائة ، بأمر من المعز لدين الله الفاطمى إلى قائده جوهر الصقلى ؛ ولقد كان المراد من الأزهر أن يظل جامعاً شيعياً فاطمياً ، ولكن الأقدار أرادت أن يصير جامعاً إسلامياً عربياً عاماً ، لايتقيد بمذهب ، ولا يقتصر على اتجاه .

وأخذت شهرة الأزهر تتألق وتتسع على أساس أنه المعهد الأكبر القوام على علوم الإسلامية والعربية ، حتى خيل إلى الناس — أو إلى كثير منهم على الأقل — أن أهله مقصورون على الاشتغال بالدين واللغة ، ولا شك أن هذه هى الصبغة الغالبة على الأزهر فى مراحل تاريخه ، فطالما تخرج فى رحابه فحول الشريعة وأقطاب اللغة . ولا شك كذلك أنه كانت هناك محاولات متعددة — بل تكاد تكون موصولة — لإبقاء الأزهر ورجاله محصورين داخل هذا

النطاق المحدود ، لايتجاوزونه إلى ماوراءه من علوم وفنون ، ومعارف وآداب ...

ومع التسليم لحقيقة الناصعة ، وهى أن العلوم الدينية واللغوية ، كان لها الصدارة دائماً فى رحاب الأزهر مثل التفسير والحديث والأصول والفقه والتوحيد ، ومثل النحو والصرف والبلاغة والتاريخ ، فإننا نستطيع أن نتبين – كما يقرر أهل التاريخ ، وكما يظهر من سير علماء الأزهر ومؤلفاتهم – علوماً أخرى كانت تحتل جانباً من هذا الميدان ، مثل الحساب والهندسة والجبر والفلك والميقات ، وقد ظهر منذ بداية تاريخ الأزهر ، وفى عهد الفاطميين الذين أقاموه ، فقد كان لهم شغف ظاهر بالعلوم المختلفة ، وهم الذين أنشأوا فى القاهرة مرصداً وداراً للحكمة ، ومكتبة حافلة تضم مائة ألف كتاب فى مختلف فروع العلم ، وكان منها ستة آلاف كتاب فى الطب وحده ، وكان فى هذه المكتبة كرتان سماويتان إحداهما من الفضة ، يقال إنها من صنع بطليموس ، وكان فيها خريطة – جغرافية دقيقة مرسومة على الحرير ، وفيها صورة لأقاليم الأرض وجبالها وبحارها ، ومدنها وأنهارها .

كما أن ساحة الأزهر فى العهد الفاطمى اتسعت – بجوار العلوم الدينية واللسانية – لكى تدرس فيها على سبيل المثال لا الحصر مؤلفات ابن يونس فى الرياضيات والفلك ، ومؤلفات ابن الهيثم فى الضوء والبصريات .

وفى العصر الأيوبى والمملوكى كانت تدرس كتب البغدادى فى الطب والمنطق والفلسفة . وكذلك مختصر حياة الحيوان للدميرى .

وفى القرن الثامن عشر ، كان يدرس فى الأزهر – بجوار الفقه والأصول

والتفسير والحديث والتوحيد والنحو والبلاغة – علم الحساب والجبر والمقابلة والفلك والهيئة ، كما تدرس الهندسة والموسيقى والفلسفة .

وحينما نرجع إلى السند العلمى الذى ذكر فيه الشيخ أحمد الدمنهورى العلوم التى تلقاها فى حى الأزهر الشريف نجد أنه تلقى أصنافاً كثيرة من العلوم غير علوم الدين واللغة ، والشيخ الدمنهورى تولى مشيخة الأزهر منذ سنة ١١٨٢ هـ – إلى سنة ١١٩٠ هـ . وها هو ذا الشيخ الدمنهورى ، يسرد فى سنده أولا ما تلقاه من علوم دينية . ثم يقول : « أخذت عن أستاذنا الشيخ على الزعترى خاتمة العارفين بعلم الحساب واستخراج المجهولات . وبما توقف عليها كالفرائض والميقات – وسيلة ابن الهائم ومعونته فى الحساب ، والمقنع لابن الهائم ، ومنظومة الياسمينى فى الجبر والمقابلة ودقائق الحقائق فى حساب الدرج ، والدقائق لسبط المارديني فى علم حساب الأرياح ، ورسالتين إحدهما على المقنطرات ، والأخرى على ربع المجيب للشيخ عبد الله المارديني جد السبط ، والمنحرفات للسبط المارديني فى علم وضع المزاول ، وبعض اللمعة فى التقويم .

وأخذت عن سيدى أحمد القرافى الحكيم بدار الشفاء بالقراءة عليه كتاب الموجز واللمحة العفيفية فى أسباب الأمراض وعلاماتها ، وبعضاً من قانون ابن سينا وبعضاً من كامل الصناعة ، وبعضاً من منظومة ابن سينا الكبرى والجميع فى الطب .

وقرأت على أستاذنا الشيخ عبد الفتاح الدمياطى كتاب لفظ الجواهر فى معرفة الحدود والدوائر للسبط المارديني فى الهيئة السماوية ، ورسالة قسطا ابن لوقا فى العمل بالكرة ، وكيفية أخذ الوقت منها ، والدرر لابن المجدى فى علم الزيج .

وقرأت على أستاذنا الشيخ سلامه الفيومى أشكال التأسيس فى الهندسة ، وبعضاً من الجغمينى فى علم الهيئة ، وبعضاً من رفع الإشكال عن مساحة الأشكال فى علم المساحة .

وقرأت على شيخنا الشيخ عبد الجواد المرحومى جملة كتب ، منها رسالة فى علم الارثماطيقى للشيخ سلطان المزاحى .

وقرأت على الشيخ محمد الشهير بالسحيمى منظومة الحكيم درمقاش على علم التكسير ، وعلم الأوفاق ، وعلم الاستنطاقات وعلم التكعيب ، ورسالة أخرى فى رسم ربع المقنطرات والمحنرفات لسبط المارديني ،وعلم المزاول، ومنظومة فى علم الأعمال الرصدية وروضة العلوم وبهجة المنطوق والمفهوم لمحمد بن مساعد الأنصارى ، وهى كتاب يشتمل على سبعة وسبعين علماً أولها علم الحرف ، وآخرها علم الطلاسم ، ورسالة للإسرائيلى ، ورسالة للسيد الطحان كلاهما فى علم الطالع ، ورسالة المخازن فى علم المواليد ، أغنى الممالك الطبيعية ، وهى الحيوانات والنباتات والمعادن .

وأخذت عن شيخنا الشيخ حسام الدين الهندى شرح الهداية فى علم الحكمة ومتن الجغمينى فى علم الهيئة .

وأخذت عن سيدى أحمد الشرفى — شيخ المغاربة بالجامع الأزهر — كتاب « اللمعة فى تقويم الكواكب السبعة » .

وبعد أن يسرد الدمنهورى كل هذه الكتب ، فى كل هذه العلوم والفنون ، عن كل هؤلاء الشيوخ ، يشرع فى ذكر العلوم والكتب التى اطلع عليها بنفسه ، دون أن يرجع فيها إلى شيخ أو أستاذ ! ! ...

* * *

وينبغى أن نتذكر أن دخول العلوم المادية والدينوية والطبيعية إلى حمى

الأزهر لم يكن أمراً سهلا ولا ميسوراً بل كانت نقاله معارضة فى أكثر الأحيان ، وكان هناك من يعتقدون أن دراسة هذا العلوم لاتجوز ولا تليق بعلماء الدين والشريعة ، ولذلك رأينا بصراء العلماء منذ وقت سابق يطالبون بتدريس هذه العلوم ، فيلقون معارضة ومقاومة ، ومن السابقين إلى الدعوة لإدخال العلوم المختلفة إلى الأزهر الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى. فقد عاب على محمد على الكبير أنه أهمل إدخال هذه العلوم إلى الأزهر ، فيقول عنه فيما يقول :

« ولو أنه أعلى منار الوطن ورقاه ، لم يستطع إلى الآن أن يعمم أنوار هذه المعارف المتنوعة بالجامع الأزهر الأنور ، ولم يجذب طلابه إلى تكميل عقولهم بالعلوم الحكيمة التى كبير نفعها فى الوطن ليس ينكر .

نعم إن لهم اليد البيضاء فى إتقان الأحكام الشرعية العملية والاعتقادية ، ومايجب من العلوم الآلية كعلوم العربية الاثنى عشر ، وكالمنطق والوضع وآداب البحث والمقولات وعلم الأصول .

غير أن هذه وحده لايفى للوطن بقضاء الوطر ، والكامل يقبل الكمال كما هو متعارف عند أهل النظر » .

ولقد تألقت فى تاريخ الأزهر الشريف أسماء شخصيات علمية أتقنت العلوم الإسلامية والعلوم اللغوية ، ثم أضافت إلى ذلك رصيداً ضخماً إلى رأس مالها العلمى فى مختلف العلوم والفنون .

ومن هؤلاء اللامعين المتألقين أبو على الحسن بن الحسن بن الهيثم المولود سنة ٣٥٥ هـ والمتوفى سنة ٤٣٠ هـ . وقد كان علامة فى الهندسة والطبيعة والرياضة والطب والفلسفة ، وقد كلفه الحاكم بأمر الله أن يدرس أحوال النيل ، وبعد وفاة الحاكم استوطن ابن الهيثم قبة على باب الأزهر ، واشتغل بالعلم والتصنيف وأجرى تجارب على انكسار الأشعة الضوئية المارة فى

أوساط شفافة كالماء والهواء . وله مؤلفات كثيرة يعتز بها أهل الشرق والغرب ، ومنها :

١ ــ كتاب المناظر ، فى الضوء والبصريات .

٢ ــ رسالة عن ظواهر الشفق .

٣ ــ رسالة عن مؤلفات أرسطو فى الطبيعة .

٤ ــ رسالة فى الضوء .

٥ ــ رسالة عن ألوان الطيف والهالة والظل والكسوف والخسوف .

٦ ــ رسالة عن مؤلفات إقليدس وبطليموس فى الضوء .

٧ ــ رسالة عن المرايا المحرقة .

٨ ــ رسالة فى تربيع الدائرة .

ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر المعروف بالقضاعى الذى عاش فى القرن الخامس الهجرى ، وكان له شغف بالتاريخ والأدب والعلوم الأخرى ، فوق علوم الشريعة واللغة . وقد توفى هذا العالم الجليل الواسع الأفق سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، ومن كتبه كتاب « عيون المعارف » وكتاب « المختار فى ذكر الخطط والآثار » .

ومن الأعلام الذين تألقوا فى سماء الأزهر موفق الدين عبد اللطيف ابن محمد البغدادى المعروف بابن اللباد . وقد ولد سنة سبع وخمسين وخمسمائة للهجرة . وقد نشأ محباً للعلم ، منكباً على البحث ، وألم بأكثر علوم عصره ، وقال عنه الإمام السبكى : إنه نحوى لغوى متكلم ، طبيب خبير بالفلسفة .

وواظب البغدادى على التدريس فى الأزهر الشريف ليلا ونهاراً ، وأعجب به صلاح الدين الأيوبى . وكلفه التدريس فى الجامع الأموى بدمشق.

وعاد إلى الأزهر فقام فيه بتدريس الطب لطلابه ، وظل يخدم العلم حتى لقى ربه سنة تسع وعشرين وستمائة .

ومن هؤلاء الأعلام رفاعة الطهطاوى ، صاحب أول دعوة إلى إصلاح الأزهر ، وزعيم الترجمة للعلوم إلى العربية ، وعين مديراً لمدرسة الألسن ، بعد أن تخرج فى الأزهر ، وعاد من بعثته إلى فرنسة ، وظل مثالا للعالم الباحث الدءوب ، حتى توفى سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة بعد الألف للميلاد .

ومن مؤلفاته ومترجماته مايلى :

١ ــ تخليص الإبريز فى تلخيص باريز .

٢ ــ مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية .

٣ ــ المرشد الأمين للبنات والبنين .

٤ ــ ترجمة قصة « تلماك » الفرنسية .

٥ ــ ترجمة كتاب « بداية القدماء وهو آية الحكماء » .

٦ ــ ترجمة القانون المدنى الفرنسى .

٧ ــ ترجمة كتاب « هندسة سايير » .

* * *

ولما كان إدخال العلوم الحديثة فى الأزهر لم يتم بسهولة ، بل قوبل باعتراضات وتعويقات ، من أمثال المرحوم الشيخ محمد عليش الذى كان يتزعم فى القرن التاسع عشر حركة المقاومة ضد العلوم الحديثة وإدخالها فى الأزهر كان الراغبون فى إدخالها يحتالون على ذلك بشتى الأساليب ، بل لقد اضطرت الحكومة نفسها إلى مثل هذا فى عهد الخديو إسماعيل ، وكان يعاونه فى هذا الاتجاه المرحوم الشيخ محمد العباسى المهدى شيخ الجامع الأزهر حينئذ .

ومن الذرائع التى توسلوا بها أن عالماً تونسياً فاضلا هو الشيخ محمد بيرم أشهر علماء جامع الزيتونة بتونس تقدم باستفتاء إلى الشيخ محمد الإنبابى الذى كان شيخاً للأزهر يومذاك سنة ١٣٠٥ هـ — ١٨٨٧ م يقول له فى هذا الاستفتاء بعد التمهيد :

« ما قولكم رضى الله عنكم : هل يجوز تعلم المسلمين للعلوم الرياضية مثل الهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات وتركيب الأجزاء المعبر عنها بالكيمياء ، وغيرها من سائر المعارف ، لاسيما ما ينبغى عليه منها من زيادة القوة فى الأمة بما تجارى به الأمم المعاصرة لها فى كل ما يشمله الأمر بالاستعداد

بل هل يجب بعض تلك العلوم على طائفة من الأمة بمعنى أن يكون واجباً وجوباً كفائياً على نحو التفصيل الذى ذكره حجة الإسلام الغزالى فى (إحياء العلوم) ، ونقله علماء الحنفية أيضاً وأقروه ؟

وإذا كان الحكم فيها كذلك فهل يجوز قراءة العلوم الآلية من نحو وغيره الرائجة الآن بالجامع الأزهر وجامعة الزيتونة والقرويين ؟

أفيدوا بالجواب ، لازلتم مقصداً لأولى الألباب » .

وأجاب الشيخ الإنبابى بقوله :

« يجوز تعلم العلوم الرياضية مثل الحساب والهندسة والجغرافية ، لأنه لا تعرض فيها لشىء من الأمور الدينية ، بل يجب منها ما تتوقف عليه مصلحة دينية أو دنيوية وجوباً كفائياً ، كما يجب علم الطب لذلك كما أفاده الغزالى فى مواضع من كتابه الإحياء ، وما زاد على الواجب من تلك العلوم مما يحصل به زيادة فى القدر الواجب فتعلمه فضيلة .

ولا يدخل فى علم الهيئة الباحث عن أشكال الأفلاك والكواكب وسيرها

– علم التنجيم المسمى بعلم أحكام النجوم ، وهو الباحث عن الاستدلال بالتشكلات الفلكية على الحوادث السفلية ، فإنه حرام كما قال الغزالى .

وأما الطبيعيات وهى الباحثة عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها كما فى كتاب الإحياء فى الباب الثانى من كتاب العلم . فإن كان ذلك البحث عن طريق أهل الشرع فلا مانع منها كما أفاده العلامة شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمى فى جزء الفتاوى الجامع للمسائل المنتشرة ، بل لها حينئذ أهمية بحسب أهمية ثروتها كالوقوف على خواص المعدن والنبات ، المحصل للتمكن فى علم الطب ، وكمعرفة عمل الآلات النافعة فى مصلحة العباد .

وإن كان على طريقة الفلاسفة فالاشتغال بها حرام ، لأنه يؤدى إلى الوقوع فى العقائد المخالفة للشرع ، كما أفاده العلامة المذكور .

نعم يظهر تجويزه لكامل القريحة الممارس للكتاب والسنة ، للأمن عليه مما ذكرنا ، قياساً على المنطق المختلط بالفلسفة ، على ما هو المعتمد فيه من أقوال ثلاثة ، ثانيها الجواز مطلقاً ، وثالثها المنع مطلقاً . . . » .

* * *

وفى سنة ١٩١١ م صدر قانون يتعلق بتنظيم الجامع الأزهر ، فبعد أن كان التعليم فيه مطلقاً غير مقيد أو محدد ، قسم القانون المذكور الدراسة إلى مراحل ، لكل منها نظام ومواد خاصة ، وأنشئت بمقتضاه هيئة للإشراف على شئون الأزهر تسمى « مجلس الأزهر الأعلى » ، وأنشئت هيئة كبار العلماء ، وأنشئت معاهد دينية جديدة فى بعض عواصم المديريات ، وأضاف هذا القانون إلى مواد الدراسة مواد جديدة هى التاريخ ، والجغرافيا ، والرياضة

ومبادئ الطبيعة والكيمياء ، وصدر قانون آخر سنة ١٩٣٦ ، وهو متمم للقانون السابق .

وينبغى أن نذكر جهود أعلام تعبوا وناضلوا فى سبيل نقل الأزهر من ماضيه المعتم الضيق إلى حاضر مشرق طيب ، ينبغى أن نذكر أمثال الشيخ : محمدالأحمدى الظواهرى ، ومحمد مصطفى المراغى ، وعبد المجيد سليم ، وعلى رأس الجميع الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، رضوان الله على الجميع .

وفى العصر الحديث وضعت قوائم بأسماء الكتب التى يدرسها الطلاب فى الأقسام المختلفة ، فى المواد المختلفة ، فمنها قائمة بكتب الحساب والجبر ، نجد فيها الكتب التالية :

١ — الوسيلة ، لابن الهائم .

٢ — التحفة السنية ، للسبط .

٣ — السخاوية ، للسخاوى .

٤ — الياسمينية ، لابن الهائم .

٥ — منظومة فى الحساب ، لعبد الرحمن الأخضرى .

٦ — نزهة النظار ، لابن الهائم .

٧ — الدرة البيضاء ، للأخضرى .

٨ — الخلاصة ، لبهاء الدين العاملى .

٩ — التلخيص ، للدمياطى .

١٠ — اللمعة فى الحساب ، لابن الهائم .

وهذه قائمة أخرى تتضمن أسماء الكتب فى مادة الميقات والهيئة :

١ — رقائق الحقائق ، للسبط .

٢ ـ خلاصة المختصرات ، لابن عائشة :
٣ ـ المطلب ، للسبط .
٤ ـ رسالة فى العمل بالربع ، للجبرتى .
٥ ـ المقدمة ، لمحمد المجدى .
٦ ـ تحفة الإخوان ، لابن قاسم :
٧ ـ الوضع على الجهات ، للمالكى الأندلسى .
٨ ـ هداية الحائر للسبط .
٩ ـ رسالة فى الوقت والقبلة ، للقليوبى .
١٠ ـ رسالة فى معرفة التواريخ ، لابن مهدى .
١١ ـ دستور علم الميقات ، لرضوان أفندى .
١٢ ـ زاد المسافر ، لأحمد بن المجدى .
١٣ ـ تسهيل الدقائق ، لخليل الفرازى .
١٤ ـ رسالة المنحرفات ، لخليل الفرازى .
١٥ ـ التذكرة ، للطوسى .
١٦ ـ المطلع السعيد ، لحسين زائد .

وهذه قائمة فى مادة الرسم ، نجد فيها :

١ ـ منظومة فى الرسم العثمانى .
٢ ـ منظومة فى الرسم القياسى .

* * *

وكان المألوف أن يفتى رجال الأزهر فى أمور العقائد والعبادات فى الأعم الغالب ، ولم يكونوا يتطرقون إلى موضوعات تتصل بالحياة ومطالبها ،

أو المجتمع ومشكلاته ، ولكن سير الأزهر فى طريق التطور والاتصال بالناس ، دفعه إلى تكوين لجنة فيه للإفتاء على المذاهب الفقهية الأربعة ، وأخذت هذه اللجنة – بجوار إفتائها فى العبادات ، والزواج والطلاق والميراث تفتى فى موضوعات جديدة لها صلتها بالحياة والأحياء .

وهذه فتوى نسوقها نموذجاً للموضوعات الحيوية التى أخذ الأزهر يفتى فيها فى العصر الحديث ، فقد تلقت لجنة الفتوى السؤال التالى :

المعروف أن كليات الطب تشرح جسم الإنسان الميت لدراسته ، وكذلك تشرح الجثة فى الوفاة الجنائية لمعرفة أسباب الوفاة ، فما حكم الشرع فى تشريح الجثث بغية التعليم الطبى لتخريج الأطباء ، وبغية معرفة أسباب الوفاة فى الحالات الجنائية ؟

وأجابت اللجنة بالفتوى التالية :

من مقدمات الطب – بل من مقوماته – تشريح الأجسام ، فلا يمكن للطبيب أن يقوم بطب الأجسام وعلاج الأمراض بأنواعها المختلفة إلا إذا أحاط علماً بتشريح جسم الإنسان علماً وعملا ، وعرف أعضاءه الداخلية ، وأجزاءه المكونة لبنيته ، واتصالاتها ومواضعها وغير ذلك ، فهو من الأمور التى لا بد منها لمن يزاول الطب ، حتى يقوم بما أوجب الله عليه من تطبيب المرضى وعلاج الأمراض ، ولا يمترى فى ذلك أحد : ولا يقال قد كان فيما سلف طب ولم يكن هناك تشريح ، لأنه كان طباً بدائياً لعلل ظاهرة .

وكلامنا فى الطب لشتى الأمراض والعلل ، والعلوم تتزايد ، والوسائل تنمو وتكثر .

وإذا كان التشريح كذلك كان واجباً بالأدلة التى أوجبت تعلم الطب وتعليمه ، وكانت مباشرته واجبة على طائفة من الأمة ، لأنه من القواعد الأصولية أن

الشارع إذا أوجب شيئاً تضمن ذلك إيجاب ما يتوقف عليه ذلك الشيء ، فإذا أوجب الصلاة كان ذلك إيجاباً للطهارة التي تتوقف الصلاة عليها .

وإذا أوجب — بما أومأنا إليه من الأدلة — على فريق تعلم الطب وتعليمه ومباشرته ، فقد أوجب بذلك عليهم علم التشريح وتعليمه ومزاولته عملا .

هذا دليل جواز التشريح من حيث كونه علماً يدرس ، وعملا يمارس ، بل دليل وجوب التخصص في مهنة الطب البشرى وعلاج الأمراض .

أما التشريح لأغراض أخرى ، كتشريح جثث القتلى لمعرفة سبب الوفاة ، وتحقيق ظروفها وملابساتها ، والاستناد إليه في إثبات الجناية على القاتل ، أو في نفيها عنه ، فلا شبهة في جوازه أيضاً إذا توقف عليه الوصول إلى الفصل في أمر الجناية ، للأدلة الدالة على وجوب العدل في الأحكام ، حتى لا يظلم برىء ، ولا يفلت من العقاب مجرم أثيم ، هذا ما تعنى به اللجنة ، والله أعلم .

* * *

ولا شك أن أوسع تطور في الأزهر ، وأبعد نقله له من ماضيه إلى أسلوب الجامعات المادية الحديثة ، هو ما يتمثل في قانون تطور الأزهر ، وهو القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ م بشأن إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التي يشملها .

لقد قال في صدر هذا القانون النص على أن الأزهر هو الهيئة العلمية الإسلامية الكبرى التي تقوم على حفظ التراث الإسلامى ، ودراسته وتجليته ونشره وتحمل أمانة الرسالة الإسلامية إلى كل شعوب ، وتعمل على إظهار حقيقة الإسلام وأثره في تقدم البشر ورقى الحضارة ، وكفالة الأمن والطمأنينة وراحة النفس لكل الناس في الدنيا والآخرة .

كما تهتم ببعث الحضارة العربية والتراث العلمى والفكرى للأمة العربية ، وإظهار أثر العرب فى تطور الإنسانية وتقدمها ، وتعمل على رقى الآداب ، وتقدم العلوم والفنون وخدمة المجتمع والأهداف القومية والإنسانية والقيم الروحية ، وتزويد العالم الإسلامى والوطن العربى بالمختصين وأصحاب الرأى فيما يتصل بالشريعة الإسلامية والثقافة الدينية والعربية ولغة القرآن ، وتخريج علماء عاملين متفقهين فى الدين ، يجمعون إلى الإيمان بالله والثقة بالنفس وقوة الروح ، كفاية علمية وعملية ومهنية ، كتأكيد الصلة بين الدين والحياة ، والربط بين العقيدة والسلوك ، وتأهيل عالم الدين للمشاركة فى كل أسباب النشاط والإنتاج والريادة والقدوة الطيبة ، وعالم الدنيا للمشاركة فى الدين إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما تهتم بتوثيق الروابط الثقافية والعلمية الإسلامية والعربية والأجنبية .

ويشمل الأزهر — بناء على هذا القانون المطور له الهيئات الآتية :

١ — المجلس الأعلى للأزهر .

٢ — مجمع البحوث الإسلامية .

٣ — إدارة الثقافة والبحوث الإسلامية .

٤ — جامعة الأزهر .

٥ — المعاهد الأزهرية .

وتختص جامعة الأزهر بكل ما يتعلق بالتعليم العالى فى الأزهر ، وبالبحوث التى تتصل بهذا التعليم ، أو تترتب عليه ، أو تقوم على حفظ التراث الإسلامى ودراسته وتجليته ونشره .

وبمقتضى هذا القانون أنشئت فى جامعة الأزهر كلية الطب ، وكلية لطب الأسنان ، وكلية للزراعة ، وكلية للتجارة والمعاملات ، ومعهد للغات والترجمة .

ولكى يتجاوب قانون تطوير الأزهر مع المجتمع الإسلامى شمل إنشاء كلية خاصة بالبنات ، روعى فيها أن تنهض برسالة الدين واللغة ، بجوار نهضتها بالعلوم الأخرى ، وهذه الكلية هى كلية البنات الإسلامية التى تهدف إلى تخريج عالمات متفقهات فى الدين ، إلى جانب الثقافات المختلفة من شتى فنون المعرفة .

والمنتظر أن تتطور هذه الكلية إلى جامعة إسلامية للبنات تتحول فيها شعبها إلى كليات جامعية حديثة ، لا يقتصر اهتمامها على تزويد الطالبات بالدراسات الإسلامية الأدبية والتجارية ، كما أريد لها عند إنشائها ، بل تنشأ فيها كليات عملية مختلفة مثل الطب والهندسة والزراعة ، لتتاح الفرصة أمام المرأة المسلمة الراغبة فى الجمع بين الثقافة الدينية الأصيلة والعلوم الحديثة ، سواء أكانت فى مصر أم فى أى قطر من أرجاء العالم الإسلامى .

أما بعد ، فقد انتقل الأزهر بقانون التطوير من « الجامع » إلى « الجامعة » .

ومن نظام « الحلقة » فى ساحة المسجد إلى نظام « المدرج » المنشأ على أحدث طراز .

ومن « شيخ العمود » إلى « الأستاذ الدكتور » .

ومن « صاحب الفضيلة » إلى « فضيلة الدكتور » .

ومن « جامعة إسلامية عربية » إلى « جامعة إسلامية عربية عصرية » .

وليست العبرة بالشكل والمظهر ، بل العبرة بالمضمون والجوهر .

وعلى الرغم من الثغرات التى تبدو من خلال « التطوير » لا تزال القلوب المؤمنة تخفق نبضاتها بخالص الدعاء إلى الله جل جلاله أن يبقى على الأزهر الشريف حصناً حصيناً لركنين أساسيين جليلين ، هما : الإسلام والعروبة .

وعلى الله قصد السبيل .

إحياء علوم الدين للغزالى

السؤال :

نريد تعريفاً بكتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالى .

الجواب :

كان القدر المسعد يريد أن يربط حياتى وفكرى بحجة الإسلام الإمام الغزالى رضى الله عنه ، فقد قرأت له وقرأت عنه وأنا فتى ناشئ فى أول دراستى الأزهرية منذ قرابة نصف قرن ، ثم طالعت كتابه الكبير الخطير « إحياء علوم الدين » ، وانتفعت به كثيراً وطويلا ، فى كتابتى وخطابتى ، ابتداء من عهدى بالجامع الصغير فى قريتى « البجلات » خلال الثلاثينيات من هذا القرن العشرين ، إلى « الجامع الأزهر » فى الخمسينيات ، إلى « جامع الرفاعى » فى الستينات والسبعينيات ، إلى غير ذلك من أماكن الكتابة والمحاضرة .

وفى سنة ١٩٦٦ أخرجت لى دار الهلال كتاباً عنوانه «الغزالى والتصوف الإسلامى » . ولعل الغيب يطوى فى الغد البقية أو بقايا من الحديث .

والغزالى رجل أوسع ألقابه شهرة لقب « حجة الإسلام » ، ثم يليه لقب « مجدد القرن الخامس » فى تاريخ الإسلام ، وهو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسى المشهور بالغزالى ، وقد ولد ببلدة « طوس » سنة خمسين وأربعمائة ، ويقال إنه ولد فى قرية « غزالة » من قرى طوس ، والخطب فى هذا الخلاف يسير .

وقد نشأ فقيراً ، وفقد أباه وهو ما زال فى صباه ، ودخل إحدى المدارس الدينية بطوس ، ثم انتقل إلى جرجان ، حيث درس الفقه ، ورحل

إلى نيسابور من أجل العلم أيضاً ، واتصل بالوزير السلجوقى « نظام الملك » ، وتولى التدريس فى المدرسة النظامية ببغداد .

وفى سنة ثمان وثمانين وأربعمائة تعرض الغزالى لأزمة روحية فكرية استمرت لديه شهوراً ، حيث تعرض للقلق والاضطراب والشك . ثم ارتحل إلى الشام حيث اعتزل الناس قرابة عامين قضاهما فى الاعتكاف والزهد ، ثم رحل إلى بيت المقدس ، حيث بدأ تأليف كتابه الجليل : « إحياء علوم الدين » ، وأتمه فى دمشق .

وحج الغزالى ، وتنقل فى البلاد ، ثم عاد إلى التدريس فى المدرسة النظامية . ثم عاد إلى وطنه ، وقضى فيه أواخر أيامه ، ثم لحق بربه سنة خمس وخمسمائة .

رضوان الله عليه !

هذا تعريف عاجل خاطف لا بد منه بين يدى الحديث عن كتابه « إحياء علوم الدين ». وهو أعظم كتب الغزالى حجماً ومكانة ، وهوأوسعها شهرة . وقد تغنى به كثيرون . وتحامل عليه كثيرون . واعتدل فى نقده كثيرون . واشتط فى ذمه كثيرون .

وقد طبع عدة طبعات . ووضعت له شروح وتلخيصات . وترجم إلى الفارسية والألمانية والتركية والأوردية . وللغزالى كتاب سماه « كيمياء السعادة» ألفه بالفارسية . وهو كتاب كبير . وكأنه ترجمة لكتاب « إحياء علوم الدين » .

ولقد وصفت كتاب إحياء علوم الدين آنفاً — منذ قليل — بأنه كتاب « كبير وخطير » وأنا أعنى مدلول هذين اللفظين على سعته . فكتاب الإحياء أكبر كتب الغزالى حجماً بلا استثناء ، وهو أيضاً أخطر كتبه أثراً ومكانة ،

ولعله لم يحظ كتاب بمثل ما حظى به كتاب الإحياء من الانتشار ، ومن التأييد ، ومن الانتقاد ، فى وقت واحد :

ولذلك قلت عنه فى كتابى « الغزالى والتصوف الإسلامى » :

كتاب إحياء علوم الدين هو أوسع كتب الغزالى شهرة ، وأعلاها مكانة ، وأدلها على طريقته فى المزج بين الفقه والتصوف ، وبين التفكير والتهذيب . وإذا كان هناك من تحامل على هذا الكتاب وطعن فيه ، لأنه يحوى بعض الأحاديث الضعيفة ، أو بعض القصص التى تحتاج إلى نظر ، أو لوناً من المبالغة فى بعض الزهديات أو الأخلاقيات ، فإن كثيرين قد أغرقوا بهذا الكتاب وهاموا به حباً ، حتى كتبوا نسخه بأيديهم ، وتبركوا بهذا الكتاب ، وقالوا فيه من عبارات التمجيد ما يعد نوعاً من المبالغة أو الإسراف فى المدح ، وهذا مثلا النووى يقول : « لو عدمت كتب الإسلام — والعياذ بالله — وبقى الإحياء لأغنى عما ذهب » .

ولم تقتصر العناية الكبيرة بهذا الكتاب على السابقين ، بل نرى المتأخرين من الأئمة والعلماء يواصلون هذه العناية به ، حتى طبع جملة طبعات ، وترجم إلى عدة لغات . وهذا هو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يزوره الشيخ محمد مصطفى المراغى ، وهو يهم بالسفر إلى السودان لتولى القضاء هناك ، ويوصيه الإمام فيكون الكتاب الوحيد الذى يسأل الإمام عنه هو « الإحياء » حيث يقول للشيخ المراغى متأكداً : هل صحبت معك كتاب إحياء علوم الدين للغزالى ؟

والسيد محمد رشيد رضا صاحب « مجلة المنار » و « تفسير المنار » ، والتلميذ الأكبر للأستاذ الإمام ، وخليفته من بعده ، وناشر علمه فى الآفاق ، يؤكد أكثر من مرة أن أعظم كتاب أثر فيه هو « الإحياء » ، ويقول إن هذا

الكتاب هو « أستاذه الأول » . وقد انتفع السيد رشيد انتفاعاً كبيراً بنصوص الإحياء حين تكلم عن الغزالى فى مجلة المنار ، فنقل الكثير من هذه النصوص خلال هذا الحديث ، حتى كان كلام السيد يفرق أحياناً بقلته بين كلام الإحياء بكثرته .

وقد بدأ الغزالى تأليف كتابه فى القدس سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، ويروى أنه كان يؤلفه فى بيت موجود بالجهة الشمالية الشرقية لقبة الصخرة بالقدس ؛ وقد أخذت لهذا المنزل ، وأمامه الأستاذ أمين الريحانى والدكتور إسحق موسى الحسينى ، وقد نشر الأستاذ محمد مصطفى جمعة هذه الصورة فى كتابه : « تاريخ فلاسفة الإسلام » . ثم أتم الغزالى كتابه فى دمشق .

وكثر المختصرون كتاب الإحياء ، والملخصون له والمعلقون عليه ، والباحثون فيه . وأول من اختصره هو شقيق الغزالى : أبو الفتوح أحمد بن محمد الغزالى المتوفى بقزوين سنة عشرين وخمسمائة . وسماه : « لباب الإحياء » ثم اختصره آخرون بعد ذلك . وممن لخصه فى العصر الحديث الشيخ جمال الدين القاسمى فى كتابه : « موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين » . وقد لخصه القاسمى استرشاداً برأى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . إذ قال للقاسمى وهو يزوره : « إن أعظم كتاب للوعظ والإرشاد هو كتاب الإحياء لو جرد واختصر اختصاراً حسناً » . واستجاب القاسمى لاقتراح الإمام . وقام محيى الدين صبرى الكردى بطبعه .

وأول من نعرف من الشارحين لكتاب الإحياء هو السيد محمد بن محمد الحسينى الزبيدى الشهير بمرتضى . حيث شرحه فى كتاب سماه : « إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين » . ويقع فى عشرة أجزاء ضخمة .

* * *

ويتبين لنا الدافع الذى دفع الغزالى إلى تأليفه كتابه من المقدمة التى جاءت فى طبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية سنة ١٣٥٦ هـ . حيث جاء فى تلك المقدمة أنه كان لتعريف الثقافة اليونانية وغيرها من الثقافات الأعجمية فى العصر العباسى أثره الرجعى فى الحركة الفكرية الإسلامية . وزاد الخطر فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، ثم أخذ يزحف بماديته على ما أوجده الإسلام من خلق روحى فاضل ، وآداب اجتماعية سامية .

وما فتح القرن الخامس الهجرى صفحاته . حتى كادت موجة المادية الملحدة تأتى على بنيان الدين الإسلامى من القواعد ، فنى هذا القرن تمكن بعض أعداء الملة الحنيفية السمحة من نفث سمومهم فى تيار الأفكار العامة . مما أخذوا ينشرونه من أفكار خاطئة أثيمة . مهدوا لها تمهيداً باطنياً وضعوا أسسه بتفكير خبيث أضلوا به كثيراً من القائمين بالشئون العلمية . وأوجدوا فى الأوساط المثقفة نوعاً من الجدل السوفسطائى صرف أغلب أهل العلم والرأى عن سبيل الهدى ، وكاد يودى بمجموع الأمة الإسلامية فى مهاوى الهلاك .

فى هذا الظرف العصيب ، وفى وسط تلك الزوبعة المادية وقف الغزالى يناضل عن تعاليم الإسلام فأخذ فى تأليف كتبه ، وفى طليعتها « إحياء علوم الدين » . ولقد ألفه بعد أن نضج عقله واستوى تفكيره وقر قراره ، وبعد أن درس الفلسفة وعرف ما عند أهلها ، وأدرك مواطن نقده لها ، وبعد أن عرف طريق التصوف ، وقرأ كتب المتصوفة من أمثال أبى طالب المكى . والحارث المحاسبى . والجنيد . وأبى يزيد البسطامى . وقد اعتز الغزالى بكتابه وذكر فى طلائعه أنه يمتاز عما كتبه غيره فى هذا المجال بخمسة أمور هى :

١ — حل ما عقدوه . وكشف ما أجملوه .

٢ — ترتيب ما بددوه ، ونظم ما فرقوه .

٣ — إيجاز ما طولوه ، وضبط ما فرقوه .

٤ — حذف ما قرروه ، وإثبات ما حرروه .

٥ — تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام .

ولعل من حق الغزالى أن يفخر بعلمه وبضاعته ، وكيف لا وهذا هو العقاد يتحدث فى كتابه « أنا » عما كتبه ، وعما لم يكتبه ، وعما يريد أن يكتبه فيقول فيما يقول :

« قد ألفت عن ابن سينا وعن ابن رشد ، وهما أكبر فلاسفة اللغة العربية فى المشرق والمغرب ، وبقى كتاب عن الغزالى الفيلسوف الذى يصارع الفلاسفة ، والفقيه الذى يؤدب الفقهاء ، والمتصوف الذى يكشف عن عالم الخفاء ، كما يكشف عن عالم الشهادة .

وليس فى المشرق والمغرب من هو أرجح فكراً ، وأصفى عقلا ، وأقوى دماغاً من هذا الإمام الجليل ، ولولا اتساع الأفق الذى تدفعنا إليه الكتابة عنه ، لبدأت بترجمته ونقده قبل ابن سينا وابن رشد وغيرهما من حكماء المشرق والمغرب » .

* * *

وقد قسم الغزالى كتابه إلى أربعة أرباع :

ربع العبادات ، وفيه يتحدث عن قواعد العقائد ، والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج ، وعن قراءة القرآن الكريم ، والأذكار والدعوات .

وربع العادات ، وفيه يتحدث عن آداب الأكل والزواج والكسب ومعاشرة الناس ، وآداب السفر والسفر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأخلاق النبوة على صاحبها الصلاة والسلام .

وربع المهلكات ، وفيه يتحدث عن النفس والشهوات والآفات .

وربع المنجيات ، وفيه يتحدث عن طائفة من الفضائل ، مثل الصبر ، والشكر ، والرجاء ، والتوكل ، والإخلاص ، والمراقبة ، والتفكر ، وذكر الموت .

ويعلل الغزالى تقسيم كتابه إلى الأرباع الأربعة بقوله :

« وإنما حملنى على تأسيس هذا الكتاب على أربعة أرباع أمران :

أحدهما — وهو الباعث الأصلى — أن هذا الترتيب فى التحقيق والتفهيم كالضرورى ، لأن العلم الذى يتوجه به إلى الآخرة ينقسم إلى علم المعاملة ، وعلم المكاشفة ، وأعنى بعلم المكاشفة ما يطلب منه كشف المعلوم فقط ، وأعنى بعلم المعاملة ما يطلب منه مع الكشف العمل به .

والمقصود من هذا الكتاب علم المعاملة فقط دون علم المكاشفة ، التى لا رخصة فى إيداعها الكتب ، وإن كانت هى غاية مقصد الطالبين ، ومطمح نظر الصديقين ، وعلم المعاملة طريق إليه ، ولكن لم يتكلم الأنبياء صلوات الله عليهم مع الخلق إلا فى علم الطريق والإرشاد إليه .

وأما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه إلا بالرمز والإيماء على سبيل التمثيل والإجمال ، علماً منهم بقصور أفهام الخلق عن الاحتمال . والعلماء ورثة الأنبياء ، فما لهم سبيل إلى العدول عن نهج التأسى والاقتداء .

ثم إن علم المعاملة ينقسم إلى علم ظاهر ، أعنى العلم بأعمال الجوارح . وإلى علم باطن ، أعنى العلم بأعمال القلوب ، والجارى على الجوارح إما عادة وإما عبادة ، والوارد على القلوب التى هى بحكم الاحتجاب عن الحواس من عالم الملكوت ، إما محمود وإما مذموم ، فبالواجب انقسم هذا العلم إلى

شطرين : ظاهر وباطن : والشطر الظاهر المتعلق بالجوارح انقسم إلى عادة وعبادة ، والشطر الباطن المتعلق بأحوال القلب وأخلاق النفس انقسم إلى مذموم ومحمود . فكان المجموع أربعة أقسام : ولا يشذ نظر فى علم المعاملة عن هذه الأقسام .

الباعث الثانى : أنى رأيت الرغبة من طلبة العلم صادقة فى الفقه الذى صلح عند من لا يخاف الله سبحانه وتعالى ، المتدرع به إلى المناجاة والاستظهار بجاهه ومنزلته فى المنافسات ، وهو مرتب على أربعة أرباع ، والمتزيى بزى المحبوب محبوب ، فلم أبعد أن يكون تصوير الكتاب بصورة الفقه تلطفاً فى استدراج القلوب .

* * *

والغزالى — فى العادة — يبدأ الموضوع من موضوعات كتابه بمقدمة فيها تذكير وعظة ، وفيها سجع وصنعة ، فهى شبيهة بمقدمة الخطب المنبرية : فيها حمد وتسبيح ، وثناء على الله عز وجل ، وصلاة وتسليم على رسوله ﷺ ، وفيها إشارات ورموز إلى حقائق الموضوع الذى سيعرضه .

وبعد هذه المقدمة يورد الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع ، ثم يسوق الأحاديث النبوية الواردة فى هذا المجال ، وفى العادة يطلق الغزالى على هذه الأحاديث كلمة « الأخبار » .

ثم ينتقل إلى إيراد الكلمات الواردة فى الموضوع عن الصحابة — وفى طليعتهم الخلفاء الراشدون الأربعة ؛ وينقل كذلك عن التابعين ، وهو يسمى هذه الكلمات باسم « الآثار » .

ثم يفيض فى التحليل والتفصيل ، بروح صوفية مدققة متعمقة ، ويمتد

نفسه فى هذه الناحية حتى تتغلب الصبغة الصوفية على غيرها من الألوان والنزعات .

وهو يسمى أبواب كتابه كتباً ، ويبدأ كل كتاب منها – كما أشرت – بمقدمة كأنها فاتحة خطبة منبرية ، فهو مثلا يفتتح كتاب « قواعد العقائد » بهذه المقدمة :

« الحمد لله المبدئ المعيد ، الفعال لما يريد ، ذى العرش المجيد ، والبطش الشديد ، الهادى صفوة العبيد ، إلى المنهج الرشيد ، والمسلك السديد ، المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم من ظلمات التشكيك والترديد ، السالك بهم إلى اتباع رسوله المصطفى واقتفاء آثار صحبه الأكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد ، المتجلى لهم فى ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التى لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد ، المعرف إياهم أنه فى ذاته واحد لا شريك له ، فرد لا مثيل له ، صمد لا ضد له ، منفرد لا ند له ، وأنه واحد قديم لا أول له ، أزلى لا بداية له ، مستمر الوجود لا آخر له ، أبدى لا نهاية له ، قيوم لا انقطاع له ، دائم لا انصرام له ، لم يزل ولا يزال موصوفاً بنعوت الجلال ، لا يقضى عليه بالانقضاء والانفصال ، بتصرم الآباء وانقراض الآجال ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم » .

وهو يفتتح « كتاب أسرار الطهارة » بقوله :

« الحمد لله الذى تلطف بعباده فتعبدهم بالنظافة ، وأفاض على قلوبهم تزكية لسرائرهم أنواره وألطافه ، وأعد لظواهرهم تطهيراً لها الماء المخصوص بالرقة واللطافة ، وصلى الله على النبى محمد المستغرق بنور الهدى أطراف العالم وأكنافه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين صلاة تنجينا بركاتها يوم المخافة ، وتنتصب جنة بيننا وبين كل آفة » .

وهو يكثر من التشقيقات والتفريعات والتقسيمات ، ويفتن فى ذلك افتناناً عجيباً ، ونحن نراه – على سبيل المثال – يتحدث عن الطهارة ، فيجعلها أربع مراتب :

الأولى – تطهير الظاهر عن الأحداث ، والأخباث ، والفضلات .

الثانية – تطهير الجوارح عن الجرائم ، والآثام .

الثالثة – تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة ، والرذائل الممقوتة .

الرابعة – تطهير السر عما سوى الله تبارك وتعالى .

ثم يشرع بعد ذلك فى تبيان كل مرتبة من هذه المراتب بتفصيل وتحليل .

* * *

وللفقه نصيب فى كتاب « الإحياء » ، والغزالى فقيه شافعى ، ويظهر فقه الشافعى بوضوح فى القسم الأول من كتابه ، عندما يتحدث عن الطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج ، ولكنه يمزج الفقه بالتصوف وبالأخلاق ، ويعنى عناية واضحة باستنباط الأسرار والحكم الموجودة فى كل فريضة أو عبادة .

ولقد أفضت فى الحديث عن هذه الناحية فى كتابى : « الغزالى والتصوف الإسلامى » ومما قلته إن الغزالى حينما يتحدث عن الصلاة – مثلا – يربط بين أحكامها وأعمالها وصبغة التصوف ، فهو يتحدث عن خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ، ويقول إن ذلك مهمل فى كتب الفقه : « ونحن كاشفون من دقائق معانيها الخفية ما لم تجر العادة بذكره فى الفقه » .

وهو يفعل مثل هذا حين يتحدث عن أسرار الصوم وشروطه الباطنة ، فإنه يربط بين عبادة الصوم المفروضة وبين المعانى الصوفية ، فيقول :

« اعلم أن الصوم ثلاث درجات : صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص . أما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة كما سبق تفصيله . وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام . وأما صوم وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية » .

وحينما يبحث الغزالى فريضة الحج يحرص على الخطة نفسها . وهى ربط العبادات المفروضة بالمعانى الصوفية . فثوبا الإحرام فى الحج شبيهان بالكفن ، والخروج من البلد توجه إلى الله . وقطع للعلائق مع الناس ، ودخول الميقات كالخروج إلى ميقات القيامة . والإحرام والتلبية إجابة لنداء الله تعالى ، والطواف بالبيت صلاة وتشبه بالملائكة الحافين من حول العرش . وليس المقصود هنا طواف الجسم . بل المقصود طواف القلب . واستلام الحجر الأسود مبايعة لله تعالى على الطاعة . والسعى بين الصفا والمروة إظهار للإخلاص فى خدمة المولى سبحانه . فالساعى يذهب ويجىء استعداداً لأى خدمة . والوقوف بعرفة كالوقوف فى الحشر يوم القيامة . ورمى الجمار إظهار للرق والعبودية وقهر الشيطان .

وهو يرى أن أول أعمال الحج هو فهم موقع الحج من الدين ، ثم الشوق إليه . ثم العزم عليه ، ثم قطع العلائق المانعة منه . ثم شراء ثوب الإحرام ، ثم شراء الزاد . واكتراء الراحلة . ثم الخروج ، ثم السير فى البادية ، ثم الإحرام من الميقات بالتلبية . ثم دخول مكة . ثم استتمام الأفعال .

وبعد أن يذكر هذه الأعمال يبدأ فى تحليلها وربطها بالمعانى الصوفية ، ففى شرح معنى « النهم » يقول إنه لا وصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا

بالتنزه عن الشهوات ، والكف عن الملذات ، والاقتصار على الضروريات ، والتجرد لله عز شأنه فى جميع الحركات والسكنات .

وفى شرح معنى « العزم » يطالب الحاج بأن يجعل عزمه خالصاً لوجه الله سبحانه ، بعيداً عن شوائب الرياء والسمعة .

وفى شرح معنى « قطع العلائق » يطالب بالتوبة الخالصة لله تعالى ، ورد كل المظالم والحقوق ، وقطع علاقة القلب بالدنيا ، وهكذا . . .

ويظهر أن توسع الغزالى فى عملية الربط بين العبادات والمعانى الصوفية قد بدا فى نظر بعض الباحثين أمراً لم يخل من شطط فى مناصرة التصوف ، وإجحاف بمكانة الفقه ، فقال هذا البعض : « على الرغم من أن الغزالى كان فقيهاً ممتازاً ، وأصولياً مرموق المكانة ، فقد أنزل الفقه من المكانة التى كان يحتلها بين سائر العلوم ، وجعله خادماً للتصوف وتابعاً له » .

وبعض هذا القول قد يحتاج إلى مراجعة ، فإن الغزالى لم يقصد — فيما نفهم — أن يجحف بمكانة الفقه ، بل على العكس قد أراد أن يزيده رفعة وعلواً ، بأن يبعث فيه الروح والحياة ، فهو لم يشأ أن يبقى الفقه مجموعة من الأحكام المتحجرة الجامدة الشكلية الخالية من التأثر والانفعال والحيوية ، فعرض هذه الأحكام محفوفة بأضواء من التصوف الذى لا يقنع بالأشكال والمظاهر فقط ، بل يعنى بالأرواح والبواطن ، ويرى أن كل عمل لا يتحرك فيه القلب مع الجارحة لا يكون عملا كاملا مستحقاً لجزيل الثواب ، وإن أسقط تبعة العقاب عنه لمجرد أدائه أداء شكلياً .

على أن الغزالى قد يفوته التحقيق الفقهى فى بعض ما كتبه فى العبادات ، مثل ما فعله عندما تكلم عن « صلاة رجب » أو « صلاة الرغائب » وهى

صلاة غير ثابتة . والحديث الذى أورده فيها « رزين » فى كتابه حديث موضوع .

ومثل كلامه عن « صلاة ليلة النصف من شعبان » — وتسمى صلاة الخير — فإن الحديث المذكور فيها حديث باطل .

ومثل « صلاة التسابيح » . والصلوات التى ذكرها منسوبة إلى أيام الأسبوع .

ومهما كانت الأخطاء التى نشأت عند الغزالى فى هذا المجال ، فإننا لانستطيع أن ننكر على ابن خلدون ماذكره — وهو يتحدث عن الفقه والتصوف — من أن الغزالى رحمه الله قد جمع فى كتابه « إحياء علوم الدين » بين ذكر الأحكام الفقهية ، وذكر أحكام الورع والاقتداء ، وأنه أوضح آداب المتصوفة وسننهم . وشرح اصطلاحهم فى عباراتهم ، حتى صار « علم التصوف » علماً مدوناً . بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط ، وكانت أحكامها تؤخذ عن صدور الرجال .

* * *

ومن الطرائف فى كتابة الإحياء ما تحدث به الغزالى عن « القصص » ، وهو يرحب بها إذا كانت صادقة واعظة . فيقول : « فإن كانت القصة من قصص الأنبياء عليهم السلام . فيما يتعلق بأمور دينهم . وكان القاص صادقاً صحيح الرواية . فلست أرى به بأساً ، فليحذر الكذب وحكايات أحوال تومئ إلى هفوات . أو مساهلات يقصر فهم العوام عن درك معانيها ، أو عن كونها هفوة نادرة مردفة بتكفيرات متداركة بحسنات تغطى عليها ، فإن العامى يعتصم بذلك فى مساهلاته وهفواته ، ويمهد لنفسه عذراً فيه ، ويحتج بأنه حكى كيت وكيت عن بعض المشايخ وبعض الأكابر ، فكلنا

بصدد المعاصى . فلا غرو إن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو أكبر منى ؛ ويفيده ذلك جراءة على الله تعالى من حيث لايدرى . فبعد الاحتراز عن هذين المحذورين فلا بأس به . وعند ذلك يرجع إلى القصص المحموده ، وإلى ما يشتمل عليه القرآن . ويصح فى الكتب الصحيحة من الأخبار . .

ومن الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة فى الطاعات . ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق . فهذه من نزعات الشيطان . فإن فى الصدق مندوحة عن الكذب . وفيما ذكر الله تعالى ورسوله ﷺ غنية عن الاختراع فى الوعظ » .

ومن الموضوعات التى تعرض لها الغزالى فى كتابه « الإحياء » الشعر ، وهو هنا يقول :

« وأما الأشعار فتكثيرها فى المواعظ مذموم . قال الله تعالى : (والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون) . وقال تعالى : (وما علمناه الشعر وما ينبغى له) . وأكثر ما اعتاده الوعاظ من الأشعار ما يتعلق بالتواصف بالعشق وجمال المعشوق . وروح الوصال وألم الفراق والمجلس لايحوى إلا أحلاف العوام ، ومواطنهم مشحونة بالشهوات ، وقلوبهم غير منفكة عن الالتفات إلى الصور المليحة ، فلا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ما هو مستكن فيها ، فتشتعل فيها نيران الشهوات ، فيزعقون ويتواجدون . وأكثر ذلك أو كله يرجع إلى نوع فساد ، فلا ينبغى أن يستعمل من الشعر إلا مافيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس . وقد قال ﷺ : « إن من الشعر لحكمة » .

ولو حوى المجلس الخواص الذين وقع الاطلاع على استغراق قلوبهم بحب الله تعالى ، ولم يكن معهم غيرهم فإن أولئك لايضر معهم الشعر الذى

يشير ظاهره إلى الخلق ، فإن المستمع ينزل كل مايسمعه على ما يستولى على قلبه » .

ولقد استشهد الغزالى بكثير من الأبيات الشعرية فى كتابه « الإحياء » ولو جمعنا ما فيه من أبيات لتكون منها ديوان لطيف الحجم من الشعر . ومن الأبيات التى استشهد بها :

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها … فكيف إذا الرعاة لها ذئاب ؟

وقول الشاعر :

يامعشر القراء ، ياملح البلد … مايصلح الملح إذا الملح فسد ؟

وقول الشاعر :

ياواعظ الناس قد أصبحت متهماً … إذا عبت منهم أموراً أنت تأتيها
أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهداً … فالموبقات لعمرى أنت جانيها
تعيب دنيا وناساً راغبين لها … وأنت أكثر منهم رغبة فيها !

وقول الشاعر :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

* * *

ولعل أكبر المآخذ التى وجهها الناقدون إلى كتاب « الإحياء » هو عدم تدقيق الغزالى فى رواية الأحاديث النبوية ، وهذا عيب فتح عليه الكثير من الهجوم . وقد قال الإمامان ابن تيمية وتلميذه ابن القيم : « بضاعة الغزالى فى الحديث مزجاة » أى قليلة .

وإذا كان بعض الناقدين أو الحاملين على الغزالى قد توسعوا فى تجسيم هذا العيب ، فإن مما لاشك فيه أن كتاب « الإحياء » تكثر فيه الأحاديث الضعيفة ، وكذلك توجد فيه أحاديث لا أصل لها ، وأحاديث نص علماء الحديث على أنها موضوعة .

ومن العجيب أن أول حديث استشهد به الغزالى فى كتابه « الإحياء » حديث روى بإسناد ضعيف وهو الحديث الذى ذكره فى المقدمة ، وجاء فيه « أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله سبحانه بعلمه » .

ومن الأحاديث الموضوعة فى الكتاب ماروى عن أبى ذر : « حضور مجلس عالم أفضل من صلاة ألف ركعة ، وعيادة ألف مريض ، وشهود ألف جنازة ... » إلخ .

ومن فضل الله على قراء كتاب « الإحياء » أن قيض لهم عالماً جليلا لتمحيص حال الأحاديث النبوية التى استشهد به الغزالى فى كتابه ، ولا يمكن لقارئ « الإحياء » أن يسير على هدى دون أن يستنير بهذا التمحيص .

ذلك العالم الجليل هو زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقى الذى ولد بمصر سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، واشتغل بعلم الحديث النبوى وتبحر فيه ، حتى صار علماً من أعلامه .

وقد ألف كتابه النفيس الذى سماه « المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار ، فى تخريج مافى الإحياء من الأخبار » عزا فيه الأحاديث إلى مخرجيها ، مع الإشارة إلى درجتها وماقيل فيها .

* * *

إن كتاب « إحياء علوم الدين » هو أبرز كتب الغزالى وأدلها على عقليته وشخصيته ، وهو برغم عيوبه والمآخذ عليه ، كنز ثمين ، اختلطت جواهره

ولآلئه ببعض الأوشاب والأخلاط ، وأنت فائز منه بالكثير الغزير ، إذا توقيت مافيه من شطحات فى الأخبار والروايات .

وعلى الله قصد السبيل .

• • •

افتراءات على الإسلام

السؤال :

نريد نماذج من الافتراءات على الإسلام .

الجواب :

لعلّ أصدق دليل على أن الإسلام الحنيف من عند الله تبارك وتعالى وأن يمر عليه أكثر من أربعة عشر قرناً ، وهو يتعرض فى كل حين وأوان لشتى ضروب العداوة والمقاومة والاعتداء والافتراء . ومع ذلك يظل قائماً ثابتاً شامخ الأصول والأركان . يستطيع أى راغب أن يقبل على دراسته فى كتابه « القرآن » وسنة رسوله ﷺ ، وتراثه الفقهى الضخم ، فيجد أن معالم الإسلام بفرائضه وعقائده وواجباته وآدابه واضحة المعالم مما يأخذ بالألباب ويثير العقول . فلم يستطع تطاول الأزمان ولا تعاقب الدهور أن يمحوا سمة من سماته . ولا لوحة من لوحاته . ولعلّ هذا مصداق قوله تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

ولعله ينبغى لنافى مطلع المناقشة لطائفة من هذه المفتريات على الإسلام أن تتذكر أنه دعوة عالمية لاتقتصر على جنس أو لون أو طبقة ، ومما يدل على هذه الصبغة العالمية قول الله تعالى لرسوله فى القرآن :(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

ومن طلائع هذه الافتراءات من أعداء الإسلام عليه وعلى أهله ، قيام كثير من المستشرقين غير المسلمين . ومن رجال الدين الذين يقودهم التعصب والهوى . لا الإنصاف واليقين . بوضع ترجمات للقرآن الكريم فى مختلف العصور . ونحن نجد فى المكتبة الإنسانية عشرات من هذه الترجمات للقرآن بمختلف اللغات . وهى ترجمات مضحكة ومؤسفة فى آن واحد لأن اللغة العربية — وخاصة لغة القرآن . لغة ثرية غنية مليئة بالاستعارات والمجازات والرموز . ولذلك يصعب أن ينقل نص عربى بهذه الصورة ، من لغة الأم ، إلى لغة أخرى ، مع الاحتفاظ بمقومات النص الأصيل ، والذين يشتغلون بالترجمات بين اللغات يعرفون هذا مع أسهل اللهجات وأبسط اللغات . فكيف بلغة الكتاب الإلهى المجيد ، ولذلك أجمع جمهور علماء السلف على أن النص القرآنى لاتجوز ترجمته إلى لغة أخرى لأن ذلك غير ممكن .

وأظن أننا نتفق على أن العصر الحاضر قد شهد كثيراً من العلماء المسلمين المجددين أمثال جمال الدين الأفغانى وشكيب أرسلان ورشيد رضا ومحمد مصطفى المراغى ، ومنذ نصف قرن تقريباً فكر بعض هؤلاء المجددين فى محاولة لترجمة معانى القرآن . وكتب الإمام المراغى بحوثاً عن ذلك . عاونه فيها المرحوم العلامة محمد فريد وجدى ، وقد قال المراغى ووجدى ورفاقهما أن الذى يمكن هو ترجمة تفسير القرآن أو معانى القرآن ، وأما النص القرآنى فغير مستطاع أن ينقل بمضمونه وخصائصه إلى لغة أخرى دون أن يكون هناك قصور أو تقصير .

ومن المؤسف أن جميع الترجمات القرآنية لم ترتفع فى فهم أصحابها ولا فى لغتهم وبيانهم إلى مستوى الفهم لنص القرآن فوقع أصحابها فى مزالق مضحكة يستطيع أن يتأكد منها من يرجع إلى ترجمة من هذه الترجمات .

ولعل هذا هو الذى دفع بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية إلى أن يكلف

عدداً كبيراً من علماء الأزهر الشريف لكى يضعوا تفسيراً موجزاً للقرآن ، وينشر أولا بالعربية ويترجم إلى اللغات الحية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها ثم يطبع ، على أن ينص فى مقدمته على أن هذه ترجمة للمستطاع للبشر من معانى القرآن الكريم ، وأن يطبع معه فوق ذلك النص العربى للقرآن نفسه حتى لاتختلط النص الإلهى بالتفسير المترجم ، وينص مع ذلك أيضاً أن هذا المترجم ليس ماتستطاع المفسر أن يصل إليه من معانى القرآن ، لأن هذه المعانى كالكنز الذى قد نعرف بداياته ولكن لا نستطيع بلوغ نهايته .

ولعل أقرب الترجمات للقرآن إلى روحه ومضمونه هى الترجمة التى وضعها بالإنجليزية العالم الإسلامى الباكستانى الشيخ يوسف على ، ومع ذلك رأى نفسه محتاجاً فى هذه الترجمة إلى أن يضع فى هوامش صفحاتها ما يشير إلى أنه صاحب مجهود بشرى محدود لايستطيع أن يبلغ مدى أن يتطلبه هذا العمل الجليل .

ولقد نشأ عن ترجمات القرآن الخاطئة كثير من الأخطاء والآثار السيئة وقد نشأ بعضها عن سوء النية عند بعض المترجمين ، ونشأ قسم آخر منها عن الجهل والقصور ، وحينما أقبل على هذا الترجمات المسلمون الذين لايعرفون العربية ، أو الذين يريدون أن يتعرفوا للإسلام أخذوا صورة مشوهة عنه ، ووقعوا فى أخطاء عديدة بسبب ما وضعوه بين أيديهم من ترجمات قاصرة ومحرفة .

ومن واجبات المسلمين العرب — وخاصة الذين يملكون الطاقات المادية منهم أن يقوموا بالواجب المفروض عليهم ، وهو التعريف بالإسلام تعريفاً دولياً صحيحاً ، وأن يترجموا تحت إشرافهم الكتب الكفيلة بشرح الإسلام باللغات الحية ، وأن ينشرها فى شتى بقاع الأرض ، وأن يتضامنوا لاستكمال ترجمة تفسير القرآن باللغات الحية ونشرها على نطاق واسع يشمل أولا :

المسلمين الذين لايقرءون العربية ، والذين يفكرون فى دراسة الإسلام ، أو اعتناقه ، والذين يسيئون فهم الإسلام لوجود صور مشوهة عنه بين أيديهم بسبب جهل الجاهلين من المستشرقين وبسبب عداوة أهل الضغينة من غير المسلمين .

* * *

ومن هذه المفتريات التى أثارها أعداء الإسلام أن هذا الدين العظيم قد انتشر بحد السيف وهى فرية قد تناولها بالتنفيد كثير من علماء الإسلام أمثال الإمام محمد عبده . والكاتب العملاق عباس العقاد . ومن أراد تتبع ماقاله هؤلاء فإنه سيجده ميسوراً بين يديه ولكنا نحب أن نؤيد دفع هذه الفرية بشهادات من غير مسلمين ، وقديماً قيل : الفضل ماشهدت به الأعداء ، فهذا مثلا هو توماس كارليل فى كتابه « الأبطال » يتخذ النبى محمداً ﷺ مثلا لبطولة النبوة ويقول عنه : « إن اتهامه بالتعويل على السيف فى حمل الناس على الاستجابة لدعوته . سخف غير مفهوم إذ ليس مما يجوز فى الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس . أو يستجيبوا لدعوته . فإذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم فقد آمنوا به طائعين ومصدقين ، وتعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن يقدروا عليها » .

ويعلق العقاد على ذلك بأن الواقع الثابت فى أخبار الدعوة الإسلامية أن المسلمين كانوا هم ضحايا القسر ، والتعذيب ، قبل أن يقدروا على دفع الأذى . من مشركى قريش فى مكة المكرمة . فتركوا ديارهم مرغمين ، وذاقوا الغربة عن أهليهم حتى بلغوا الحبشة . إذا لم يأمنوا على أنفسهم فى وطنهم ثم هاجروا إلى يثرب « المدينة » وظلوا بها حتى تمكنوا من العودة إلى ديارهم .

والحرب فى الإسلام كما يفهم كل بصير بفقه الإسلام لاتقوم شرعاً

إلا لدفع العدوان ، أو استرداد المغصوب من الأرض ، أو إنقاذ المهضوم من الضعفاء ، أو إزالة عوائق الفساد من الطريق وتحقيق الحرية الدينية لجميع الناس على السواء وهذا هو ما فهمه العلماء من قول الله تعالى : (فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين * فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم * وقاتلوهم حتى لاتكون فتنه ،ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين).

ولقد جاء الإسلام وشعاره الأساسى فى مجال الدعوة هو قول الله تعالى فى سورة النحل : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين) وقوله فى سورة العنكبوت : (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن).

وقد ظل الإسلام فى مكة ثلاثة عشر عاماً ويتلقى أتباعه ألوان العذاب والاضطهاد من الكفار والمشركين ، ولما زاد الويل وكثر العذاب تأذن الله للمستضعفين فى الأرض بأن يدافعوا عن أنفسهم فقال لهم القرآن : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير) ولما تضاعف العذاب مرة أخرى ، نزل قوله تعالى : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم) .

ولقد نسيت ، فبدأت آخذ من الرحيق الذى تعودت الاستقاء منه ، مع أنى أريد أن آخذ نفسى باللجوء إلى شهادات غير المسلمين فى هذا الباب لتكون أقوالهم أدل وأوقع ، فهذا هو السير توماس ارنولد المتوفى سنة ١٩٣١ ، وصاحب كتاب « الدعوة إلى الإسلام » ، والذى يقول عنه المستشرق المشهور « نيكلسون » : «إنه لم يتحدث إليه أحد إلا أحس فيه عقلا على جانب عظيم من الحيوية والقوة » .

إن أرنولد يقول فى كتابه هذا عن الإسلام ، يرجع انتشار هذا الدين

فى تلك الرقعة الفسيحة من الأرض إلى أسباب شتى اجتماعية وسياسية ودينية ، على أن هناك عاملا من أقوى العوامل الفعالة التى أدت إلى هذه النتيجة العظيمة ، تلك هى الأعمال المضطردة ، التى قام بها دعاة من المسلمين وقفوا حياتهم على الدعوة إلى الإسلام ، متخذين من هدى الرسول مثلا أعلى وقدوة صالحة ، والقرآن ، يأمر بالدعوة والإقناع وينهى عن الإكراه ، ولم تجئ مهمة تبليغ الرسالة فى تاريخ الإسلام بعد تريث وتفكير ، ولكنها كانت ملقاة على عاتق المؤمنين منذ البداية ، ونرى ذلك واضحاً فى هذه الآيات القرآنية التى ننقلها هنا مرتبة بحسب تاريخ نزولها .

وأخذ « أرنولد » يسوق عدداً كبيراً من الآيات ،فيها أنصع البراهين ، على أن طريق الدعوة فى الإسلام ، هو طريق الإقناع لا الإكراه ، ويتوسع المستشرق ، غير المسلم ، فيذكر أن الإكراه والاضطهاد والعنف كان من جانب الكفار للمسلمين لا من جانب المسلمين للكفار فقد حاول الكفار مراراً إقناع عم النبى وهو أبو طالب زعيم بنى هاشم الذين ينتسب إليهم محمد ، لمنعه ويصده عن سب آلهتهم وإلا اتخذوا وسائل أشد عنفاً ، وحاول أبو طالب أن يمنع الرسول من الاستمرار فى الدعوة إلى دينه بالحسنى ، فقال كلمته الماجدة الخالدة : « والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ماتركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » . فأثر ذلك فى نفسى أبى طالب وقال له : اذهب يا بن أخى فقل ما أجبت فوالله لاأسلمك إليهم أبداً .

ولما رأى الكفار أن الإسلام يتقدم برغم ميل أهله إلى المسالمة والموادعة ، والمجادلة بالتى هى أحسن ، اتجه الطغاة الكفار ، إلى كل ما أمكن من وسائل الوعيد والتنكيل والاضطهاد .

ويؤكد أرنولد أن القوة لم تكن عاملا للدخول فى الإسلام بدليل من

الواقع التاريخى حين يشير إلى أنه يمكن أن نحكم من الصلات الودية التى قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملا حاسماً فى تحويل الناس إلى الإسلام ، فمحمد نفسه قد عقد مع بعض القبائل المسيحية . وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية . فى إقامة شعائرهم الدينية . كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم فى أمن وطمأنينة .

ونخلص إلى نتيجة يؤكدها . وهى أننا إذا نظرنا إلى التسامح الذى امتد على هذا النحو إلى المسيحيين بين المسلمين فى صدر الحكم الإسلامى ، ظهر لنا أن الفكرة التى شاعت ، بأن السيف كان العامل فى تحويل الناس ، إلى الإسلام بعيدة عن التصديق .

ويأتى المستشرق بكل Buckle الذى يستعين به أرنولد فى بحوثه ، فيقرر أن هناك شواهد كافية ، تدلنا على وجود جهود سليمة فى الدعوة لنشر عقيدة الإسلام . خلال السنوات الستمائة الأخيرة وإن كان السيف كما يقول ، يمتشق أحياناً لمواجهة المتطاولين ، ولكن الدعوة والإقناع وليس القوة والعنف كما يزعم البعض كانا الطابعين الرئيسيين لحركة الدعوة .

وإن النجاح الرائع فى هذا المجال قد أجروه بنوع خاص ، فقد كسبوا الطريق إلى قلوب الناس بتعلم لغتهم ، وتعود عاداتهم ثم أخذوا فى رفق وتدرج ينشرون معارف دينهم ، وهم مثلا قد بدءوا بأن يفتحوا باب الإسلام ، أمام نساء البلاد اللاتى تزوجوا منهن ، والأشخاص الذين ارتبطوا معهم بعلاقات تجارية ووشائج إنسانية ، وبد لا من أن يعتزل هؤلاء التجار الأهل فى أنفة وكبرياء ، امتزجوا بهم شيئاً فشيئاً ، واستخدموا كل مايتميزون به من تفوق فى العقلية والحضارة فى القيام بالدعوة للإسلام وفى الواقع كما يقول بكل Buckle كأن دعاة المسلمين على جانب عظيم من الحكمة والروية .

* * *

ونستطيع هنا أن نتساءل : كيف انتشر الإسلام مثلا فى أفريقيا ،

فى السودان والحبشة وبلاد النوبة ؟ هل انتشر على أيدى المقاتلين المحاربين ، أصحاب السيوف ، أم بأيدى التجار والصوفية ؟ وكيف انتشر الإسلام فى آسيا فى الهند وإندونيسيا والملايو والصين وغيرها هل كان ذلك أيضاً بقوة السيف ، أم كان عن طريق التجار والدعاة المسالمين ، والصوفية الروحانيين ، بل أكثر من ذلك : ماذا كان من أمر المغول والتتار ، الذين أقبلوا على العالم العربى الإسلامى مخربين مدمرين محطمين لدعائم الحضارة العربية والمدنية الإسلامية حتى أسقطوا الخلافة واحتلوا دار السلام « بغداد » وهى عاصمة الدولة الإسلامية العريضة فى ذلك الوقت .

إن هؤلاء الفاتحين المخربين ، قد تحولوا « بقدرة قادر » كما تعبر العامة إلى مسلمين وصار العدد الضخم من جنود هولاكو وجنكيزخان وأتباعهم وأحفادهم ، دعاة مخلصين للإسلام ، فما هو السيف الذى سلطه الإسلام وأهله على هؤلاء الأقوياء والذين استطالوا بقوتهم ضد الإسلام . ثم صاروا من أوفى الأوفياء لدعوة الإسلام ؟ ! (وربك يخلق مايشاء ويختار) . كما يقول القرآن الكريم .

ولو رجعنا إلى القرآن الكريم ، وهو الدستور الأساسى لدعوة الإسلام لوجدنا الله تبارك وتعالى يوجه رسوله ﷺ ، فيقول له فى ختام السورة : (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها ، وله كل شىء وأمرت أكون من المسلمين * وأن أتلو القرآن ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين) .

فالآية الأولى من هاتين الآتيين ، كما يذكر بعض العلماء تشير إلى مضمون دعوة الحق ، وهى الدعوة إلى الله وحده ، والآية الثانية الأسلوب ، الذى ينبغى أن تكون عليه الدعوة ، فتقرر أن واجب الرسول هو أن يتلو القرآن على الناس ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فلها ، ماجاء فى هذه

الرسالة دون أن يكره أحداً أو يلزم بها أحداً . ولا تتفق إطلاقاً طبيعة هذه الدعوة مع أن يكون هناك إكراه من إنسان لآخر على قبولها ، لأن الإكراه فى ذاته لايتفق مع كرامة الإنسان ولا مع حريته الفردية . ولا مع استقلاله فى الرأى .

بل أكثر من ذلك يذكر القرآن أن معارضة المعارضين ، لاتستوجب قتالهم فهو يقول فى سورة الأنعام مخاطباً النبي ﷺ : (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره . وإمّا ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين * وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء ولكن ذكرى لعلهم يتقون) .

فالقرآن لم يطلب من المسلمين إلا أن يغادروا مجالس هؤلاء الضالين سيراجعون أنفسهم ليعودوا إلى الصواب .

* * *

وتأتى فرية أشنع وأفظع وهى تلك الفرية التى طالما لاكها أعداءالإسلام فى الماضى والحاضر وهى أن القرآن كلام محمد . وليس كلام الله ولست أدرى ولا المنجم يدرى : إذا كان القرآن من كلام محمد وهو بهذه الروعة والبيان . فما الذى دعاه إلى أن ينسب القرآن لغيره . ولا ينسبه إلى نفسه ، وقد كان يستطيع أن يكسب بذلك مكانة كبيرة ، وسمواً مرموقاً .

ولقد كتبت عن إعجاز القرآن مئات الكتب ، فى مختلف اللغات ، وبشتى الاتجاهات وإلى اليوم لايزال كثيرون من علماء الإسلام ، وغير الإسلام . يؤلفون حول الموضوع . وتعددت طرقهم ومناهجهم منهم من اتجه إلى الناحية التشريعية . ومنهم من اتجه إلى الناحية البيانية . ومنهم من اتجه إلى الناحية العلمية ، ونحن نشاهد فى عصرنا ، أفراداً كثيرين بلغوا

الغاية في التفكير والبحث يضعون مؤلفات كثيرة عن الإعجاز العلمى فى القرآن ، ويتعرضون للتعليق والتحليل . لمثل قوله تعالى : (وأرسلنا الرياح لواقح) وقوله : (بلى قادرين على أن نسوى بنانه) وقوله : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ، كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) .

ومن أكثر من ألف عام ومؤلفات العباقرة من العلماء تتوالى عن إعجاز القرآن ، فهذا مثلا هو شيخ المؤلفين فى البلاغة، الإمام عبد القاهر الجرجانى يقول عن إعجاز القرآن للعرب وغيرهم من باب أولى : « أعجزتهم مزايا ظهرت لهم فى نظمه ، وخصائص صادفوها فى سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آياته ، ومقاطعها ، ومجارى ألفاظها ، ومواقعها ، وفى مضرب كل مثل وساق كل خبر ، وصورة كل عبرة ، وتنبيه وإعلام وتذكير ، وترغيب وترهيب ، ومع كل حجة وبرهان وصفة وبنيان وبهرهم أنهم تأملوا سورة سورة ، وعشراً عشراً ، وآية آية ، فلم يجدوا فى الجميع كلمة ينبو بها مكانها أو لفظة ينكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أحرى وأخلق ، بل وجدوا أنساقاً بهر العقول وأعجز الجهود ، ونظاماً والتآماً وإتقاناً وإحكاماً » .

هكذا تحدث الإمام عبد القاهر فى كتابه العظيم دلائل الإعجاز ، وهو يشير بهذا إلى تحدى القرآن للناس ، وقد بدأ القرآن تحديه ، بقوله : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) .

وعجز أساطين البلاغة ، وأمراء البيان عن ذلك .

وعاد القرآن يخفف عبء التحدى فطالبهم أن يأتوا بعشر سور من مثل

القرآن فقط . فقال : (أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات . وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) ومرة أخرى عجز أساطين البلاغة وأمراء البيان عن الثبات أمام هذا التحدى ..

وعاد القرآن مرة أخرى يخفف عبء التحدى . فطالبهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثل القرآن فقال : (إن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين)

وعجز أساطين البلاغة وأمراء البيان . فثبت أن القرآن معجز بأنه ليس فى طاقه البشر أن يأتوا بشىء من مثله .

ومنذ السنوات الأولى فى بدء الدعوة وفى حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، كان بلغاء العرب . لايؤمنون بالإسلام . ولا بالرسول .

ومع ذلك يشعرون من أعماقهم بروعة القرآن وجلاله حتى إن أحدهم يسجد له عند سماعه ، وهو غير مؤمن به . ولا بالرسول الذى أوحى إليه من عند الله ، وعندما سئل من رفاقه : لماذا سجدت له . وأنت كافر به ؟

قال : « سجدت لبلاغته » .

وهذا هو الوليد بن المغيرة الذى كان من أعدى الأعداء لرسول الله ﷺ ، وهو الذى هدده القرآن فى سورة المدثر فقال عنه : (ذرنى ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالا ممدوداً . وبنين شهوداً . ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً) .

هذا الوليد الذى عاش كافراً ومات كافراً هو الذى قال لرفاقه من المشركين من أمثاله ، وهو يتحدث عن القرآن : « والله مامنكم رجل أعرف بالشعر منى . ولا أعلم برجزه وقصيده منى والله مايشبه الذى يقوله محمد

شيئاً من هذا والله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة . وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق . وإنه يعلو ولا يعلى عليه » .

فاذا جاء اليوم خفافيش هزيلة ، من أدعياء العلم والمعرفة ليزيدوا فى الافتراء على القرآن . مأثمة جديدة ، فليسوا بأول من نطح الصخرة الشماء أو أنكر الشمس الزهراء ، أو حاول أن يطاول وهو قمىء على سطح الأرض عنان السماء .

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وقديماً قيل لمن يتعرض للعمالقة وهو لايبلغ مستواهم :

هى الشمس مسكنها فى السماء فعز الفؤاد عزاء جميـــلا
فلن تستطيع إليها الصعــود ولن تستطيع إليك النزول

إن آفة هؤلاء المستشرقين العالية هى أنهم أهل حقد وضغينة على الإسلام وكتابه . ونبيه . فهم حين يتحدثون عنه ، فإنما يخضعون لتعصبهم الأعمى الذى لا تتحقق معه موضوعية بحث ، ولا حيدة حكم ، وهم أيضاً يتعرضون لدقائق الموضوعات المتصلة باللغة والبيان والبلاغة . وهم أجهل الناس باللغة العربية . لم يعرفوا منها إلا ألفاظاً يرطنون بها كما يرطن « الخواجة » الدخيل باللغة العربية بين أهلها . ولهم فى ذلك مواقف مبكية ومأس مخزية .

ومن مآخذ بعض الناس فى أمريكا أنهم يسيئون استغلال الإسلام كما يسيئون تصوره . وشواهد ذلك قد يضيق عنها مجال هذا المقال ، ولكن حسبى أن أشير إلى بعض هذه الشواهد .

فنحن مثلا نرحب باتجاه الأمريكيين إلى الإسلام ودراسته . ونرحب مثلا بالسود منهم . لأنهم وجدوا فيه ديناً يدعو إلى الوحدة الإنسانية والأخوة البشرية . ولكن بعضهم أساء استغلال ذلك وفهمه . فأخذوا يذيعون أن الجنة

التى وعد الله بها عباده ، إنما يدخلها السود لا البيض ، وهذا من غير شك افتراء على الإسلام ، باسم الانتساب إلى الإسلام .

حقاً لقد قال رسول الله ﷺ : « ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح » . ولكنه أيضاً قد قال : « ليس منا من دعا إلى عصبية » .

ويحاول بعض البيض فى أمريكا أن يطلقوا لأنفسهم العنان للتحرر فى أمور الدين ، حتى إننى قد سمعت بعض المسلمين هناك يريدون أن يجعلوا صلاة الجمعة يوم الأحد لا يوم الجمعة ، لأن العطلة هناك يوم الأحد ، مع أن القرآن ينص فيقول : (يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) .

وبعد.. فإن افتراءات الجهلة والأعداء من غير المسلمين كثيرة موصولة، وشوقى رحمه الله يقول : « حديث الأفاعى طويل المدى » . ولكننا على ثقة ويقين بأن دعوة الإسلام فى سماحتها وعدالتها ستمضى فى مسيرتها ، وسيهيئ الله لها من أهلها . والمنصفين من غير أهلها إن وجدوا ، ليترجموا عما فيها من حق وصدق .

وعلى الله قصد السبيل .

• • •

الجنة والنار

فى الأحاديث القدسية

السؤال :

كيف ذكرت الأحاديث الجنة والنار ؟

الجواب :

منذ أقدم العصور والإنسانية تتطلع إلى حياة أبقى وأخلد من هذه الحياة التى نحياها فوق الأرض ، ومنذ أقدم العصور الإنسانية العاقلة ترقب فى هذه الحياة الباقية إقامة لموازين الحق ، بيد بارئ الخلق ، كى يكون هناك قصاص عادل ، يردع به الظالم ، وينصف به المظلوم .

ولقد جاءت كتب الله عز وجل تقص علينا من أنباء الحياة الأخرى ، وأهم ما فيها هو الجنة والنار ، وجاء المرسلون يحدثون الناس عن هذه الأنباء . والكلام عن الجنة والنار فى القرآن الكريم واسع فسيح ، حيث توجد عشرات وعشرات من الآيات تدور حول هذا الموضوع ، ولو رجعنا على سبيل المثال إلى كتاب « تفصيل آيات القرآن الحكيم ، لرأينا فيه صفحات كثيرة تضم الآيات المتعلقة بالجنة والنار ، وكذلك الحديث عن هذا الموضوع فى الأحاديث القدسية والنبوية واسع فسيح ، وإذا كان القرآن هو كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فإن عيب كتب الأحاديث أنه أضيف إليها جانب من الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة أو الغريبة أو المنكرة ، وهذا العيب يجعل مهمة الباحث شاقة أو عسيرة ، لأنه يحتاج إلى تمحيص النصوص واستخلاصها ، قبل الاستعانة بها فى إقامة بحثه .

ولعل أول سؤال يثور فى هذا المجال هو : لماذا خلق الله الجنة والنار ؟ .

ويجيب الإمام ابن القيم فى كتابه « طريق الهجرتين » عن هذا السؤال :

« اقتضت حكمته سبحانه أن خلق داراً لطالبى رضاه ، العاملين بطاعته ، المؤثرين لأمره ، القائمين بمحابه . وهى الجنة ، وجعل فيها كل شىء مرضى ، وملأها من كل محبوب ومرغوب ومشتهى ولذيذ ، وجعل الخير بحذافيره فيها . وجعلها محل كل طيب من الذوات والصفات والأقوال .

وخلق داراً أخرى لطالبى أسباب غضبه وسخطه ، المؤثرين لأغراضهم وحظوظهم على مرضاته ، العاملين بأنواع مخالفته ، القائمين بما يكره من الأعمال والأقوال ، الواصفين له بما يليق به ، الجاحدين لما أخبرت به رسله من صفات كماله ونعوت جلاله . وهى جهنم ، وأودعها كل شىء مكروه ، وسجنها ملىء من كل شىء مؤذ ومؤلم . وجعل الشر بحذافيره فيها ، وجعلها محل كل خبيث من الذوات والأقوال والأعمال ؛ فهاتان الداران هما دار القرار » .

* * *

و « الجنة » فى الأصل هى البستان ، أو المكان الذى تظلله الأشجار حتى يستتر الداخل فيه . ثم أطلقت الكلمة فى التعبير الدينى على دار النعيم والثواب وهى الدار الموعود بها المؤمنون فى الحياة الآخرة .

وهناك خلاف طويل بين العلماء حول الجنة والنار : أهما موجودتان الآن أم ستوجدان فى الآخرة ؟ . . أهما فى الأرض أم فى السماء ؟ . . والجنة التى يدخلها المؤمنون : أهى جنة آدم التى تحدث عنها القرآن أم هى هى جنة أخرى غيرها ؟ . . . ولا ينبغى ألا يشغلنا هذا الخلاف طويلا ، فأهل الإيمان يؤمنون بأصل القضية ، وهو أن هناك جنة ينعم فيها المفلحون ، ولا عليهم بعد ذلك أن يدخلوا فى التفاصيل ، ومن صفاتهم الأساسية كما ذكر القرآن : (والذين يؤمنون بالغيب) .

وللجنة ـ كما تحدثنا الأحاديث ـ ثمانية أبواب ، كل باب منها لعمل من الأعمال الصالحة ، وهى منازل أو أقسام أو درجات أو طبقات ، وبملاحظة هذه الأقسام جاز أن يعبر عنها بأنها « جنة » وبأنها « جنتان » وبأنها « جنات » . فهناك جنة عدن ، وجنة المأوى ، وجنة النعيم ، وجنة السلام ، وجنة الفردوس . . . وفى كل جنة من هذه الجنات طبقات ودرجات ، و « الفردوس » هو أعلى المنازل فى هذه الجنات ، وقد يعبر عنه بكلمة « الفردوس الأعلى » .

وتصور لنا الأحاديث بناء الجنة فى صورة باهرة ، جميلة جذابة ، كأن يقول الحديث : « بناء الجنة لبنة من فضة ، ولبنة من ذهب ، وملاطها [أى طينها] المسك الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران من دخلها ينعم ولا يبؤس [لا يحزن] ، ويخلد ولا يموت ، لا تبلى ثيابهم ، ولا يفنى شبابهم » .

وفى الجنة خيام من لؤلؤ ، والخيمة فى الأصل البيت المربع من بيوت الأعراب ، ويقول الحديث لما يروى البخارى ومسلم : « فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلا » .

وتخبرنا الأحاديث القدسية والنبوية بفنون من الأشياء الموجودة فى الجنة ، ففيها الأشجار والأنهار ، والفواكه ولحم الطير ، والحور العين والولدان المخلدون ، والسرر والحرير والإستبرق ، والفضة والذهب .

ولقد سئل رسول الله ﷺ فقيل له : يا رسول الله ، علام نطلع من الجنة ؟ .

فأجاب : « على أنهار من عسل مصفى ، وأنهار من خمر ما بها صداع ولا ندامة ، وأنهار من لبن ما يتغير طعمه ، وماء غير آسن ، وفاكهة » .

وجاء الحديث القدسي يقول : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

وفى هذا المجال ثار خلاف طويل حول نعيم الجنة : أهو مادى أم روحى ولكن الصحيح الذى تدل عليه نصوص القرآن والسنة أن هذا النعيم مادى روحى ، وإن كان يتميز عن نعيم الدنيا فى كثير من الصفات .

* * *

ومما تخبرنا به الأحاديث أن فى الجنة نهراً يسمى « الكوثر » ، ويتحدث عنه النبى ﷺ فيقول : « ذاك نهر أعطانية الله عز وجل ، أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل » . ويقول أيضاً : « بينا أنا أسير فى الجنة [فى ليلة الإسراء والمعراج] إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف . قلت : ما هذا يا جبريل ؟ .

قال : هذا الكوثر الذى أعطاك ربك ؛ فإذا طيبه مسك أذفر [أى شديد الرائحة الحسنة] » .

ولقد تحدث القرآن الكريم عن الكوثر فى سورة وجيزة سميت باسمه ، وهى : (إنا أعطيناك الكوثر ‚ فصل لربك وانحر ‚ إن شانئك هو الأبتر) ، ولكنا هنا نقتصر على الحديث عن الجنة والنار ، كما صورتها الأحاديث القدسية والنبوية .

وإذا كانت الجنة تحوى أفانين من النعيم ، وألواناً من الثواب والتكريم ، فإن الحديث القدسى الذى رواه البخارى يخبرنا بأن رضوان الله الباقى الدائم هو أعظم النعم وأطيب المكارم فى الحديث . يقول الله تعالى لأهل الجنة : يا أهل الجنة ؟

فيقولون : لبيك ربنا وسعديك .

فيقــول : هل رضيتم ؟ .

فيقولون : ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟

فيقــول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك .

فيقولون : يا رب ، وأى شيء أفضل من ذلك ؟

فيقــول : أحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً ! !

نعم إنه رضا الله الكامل الدائم . وليس وراء هذا نعيم . . . ورضوان من الله أكبر .

ولقد سأل بعض الناس رسول الله ﷺ عن أول طعام يأكله أهل الجنة ، فأجاب الرسول — كما روى البخارى — بأنه كبد الحوت ، أو زيادة كبد الحوت ، أى طرف كبده ، وهو أطيب ما يؤكل منه .

* * *

وفى الجنة نساء يشاركن الرجال نعمة التمتع بآلاء الله وخيراته ، ونساء الجنة يسمين « الحور العين » ، أى النساء المشرقات اللون ، الواسعات العيون ، الجميلات الأطراف والأشكال ، وهن نساء طاهرات زكيات ، ليس فيهن ما يعاب من الناحية الجسمية ، ولا من الناحية النفسية . وصحبة هؤلاء فى الجنة أعلى وأكمل من صحبة الدنيا . ولكل رجل فى الجنة زوجتان ، واحدة من نساء الدنيا ، وواحدة من نساء الجنة ، وما ورد فى كثرة ما يكون للرجل من نساء فى الجنة لم يصح منه شيء . وليس فى الجنة بغضاء ولا شحناء ولا غيره .

يقول الحديث النبوى — كما روى البخارى والترمذى — عن نساء الجنة : « لقاب قوس أحدكم أو موضع قدمه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ،

ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض ، لأضاءت ما بينهما ، ولملأت ما بينهما ريحاً ، ولنصيفها – يعنى الخمار – خير من الدنيا وما فيها » .

وقمة الأفضال فى الجنة هى الفوز برؤية الحق جل جلاله فى الجنة ، بالصورة والكيفية اللتين يعلمهما الله جل جلاله ، ولذلك يقول الرسول ﷺ « إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس [يعنى صلاة الفجر] وقبل غروبها [يعنى صلاة العصر] فافعلوا » . ثم قرأ النبى قوله تعالى : (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) .

وأول من يدخل الجنة هو خاتم الأنبياء ﷺ ، ولذلك يقول الحديث الذى رواه مسلم : « أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة ، وأنا أول من يقرع باب الجنة » . ويقول أيضاً : « آتى باب الجنة يوم القيامة فأستفتح ، فيقول الخازن من أنت ؟ فأقول : محمد . فيقول : بك أمرت ، لا أفتح لأحد قبلك » . ويقول كذلك : « أنا أول الناس يشفع فى الجنة » أى فى فتح أبوابها ، وفى إدخال بعض العصاة فيها بمشيئة الله عز شأنه .

ولا شك أن هذا يدل من جهة على مكانة رسول الله عند ربه ، كما يدل على كرامة الأمة الإسلامية التى تنتسب إلى رسولها ، وتستقيم فى أعمالها وأحوالها .

وأهل الجنة يخلقهم ربهم خلقاً جديداً ، ويعودون شباباً ، أبناء ثلاثين ، أو ثلاث وثلاثين سنة ، ويصفهم الحديث – كما فى البخارى – بأن قلوبهم على قلب رجل واحد ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض .

وجاء فى الحديث المتفق عليه ما معناه أن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر فى كمال الصفاء وتمام النور ، والذين يلونهم على أشد

كوكب فى السماء إضاءة ، لايبولون ولا يتغوطون ولا تميخطون ولا يتفلون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرها كالعود الهندى، وأزواجهم الحور العين . أخلاقهم على خلق رجل واحد ، فلا تحاسد ولا تباغض ، بل بينهم تمام المودة والمحبة ، على صورة أبيهم آدم ، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من صفاء جسمها وحسنه وجمال ، وهذا كناية عن كمال الصفاء والجمال ، يسبحون الله بكرة وعشية ، يلهمون التسبيح دائماً من غير تعب أو مشقة .

وهناك طائفة تدخل الجنة بغير حساب ، وقد ذكر النبي ﷺ أنه نظر فرأى سواداً كثيراً . أى جماعة عظيمة ملأت الأفق ، فقال : يا جبريل ، هؤلاء أمتى ؟

قال : لا ، ولكن انظر إلى الأفق الآخر ، فنظر النبي فإذا سواد كثير ، فقال جبريل : هؤلاء أمتك . وهؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب. ولما سأل النبي : ولم ؟ أجابه جبريل : كانوا لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون . وعلى ربهم يتوكلون.

ويقص علينا الحديث نبأ آخر رجل يدخل الجنة ، وذلك حين يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد ، واستقر أهل الجنة فيها ، واستقر أهل النار فيها ، وهذا كناية عن انتهاء أعمال العباد من الموقف ، لأن الله لا يشغله شأن عن شىء سبحانه .

ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار . وهو آخر أهل الجنة دخولا الجنة، فيقول : أى رب اصرف وجهى عن النار ، فإنه قد قشبنى ريحها وأحرقنى ذكاؤها [أى أهلكنى ريحها المنتن ولهبها] . فيدعو الله ما شاء أن يدعوه ليصرف وجهه عن النار .

ثم يقول الله تعالى : هل عسيت إن فعلت ذلك بك أن تسأله غيره .

فيقول : لا أسألك غيره . ويعطى ربه من العهود والمواثيق ما شاء الله .

فيصرف الله وجهه عن النار ، فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت الله ما شاء أن يسكت ، لتحيره من رؤية الجنة دون الجرأة على طلبها ، ثم يقول : أى رب قدمنى إلى باب الجنة .

فيقول الله له : أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألنى غير الذى أعطيتك ؟ ويلك يا ابن آدم ، ما أغدرك . ولا يغضب الله منه لسعة رحمته بعباده .

فيقول العبد : أى رب . ويدعوه ربه أن يقربه من باب الجنة أكثر ، وتنفتح أمامه الجنة فيرى حسنها وجمالها ، فيسكت ما شاء الله أن يسكت ، ثم يقول : أى رب ، أدخلنى الجنة .

فيقول الله تبارك وتعالى : أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك ألا تسأل غيرنا ما أعطيت ؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك !

فيقول العبد : أى رب ، لا أكون أشقى خلقك . فلا يزال يدعو الله حتى يضحك الله تبارك وتعالى منه . والمراد بالضحك هنا لازمه ، وهو الرضا وإرادة الإحسان . ثم يقول لعبده : ادخل الجنة .

فإذا دخلها قال الله له : تمن واطلب ما تشاء . فيسأل ربه ويتمنى ما شاء أن يتمنى ، وهنا يقول الله له : ذلك لك ومثله معه !

* * *

ثم يأتى حديث النار أعاذنا الله منها . وإنما نستعيذ منها . لأنها دار العذاب

والعقاب فى الآخرة ، وكان رسول الله ﷺ يقول : أنذرتكم النار . . . أنذرتكم النار . وكان يستعيذ بالله منها فيقول :

اللهم إنى أعوذ بك من حر جهنم . وقال الرسول لأحد أصحابه : كيف تقول فى التشهد ؟ فقال : أتشهد ثم أقول : اللهم إنى أسألك الجنة ، وأعوذ بك من النار ، فأما دندنتك ودندنة معاذ فلا نحسنها .

فقال الرسول ﷺ : حولها ندندن . أى حول الجنة والنار ندعو ونهمس ، لينقذنا الله من النار ، ويدخلنا الجنة .

ويخبرنا الحديث بأن النار لها خازن ، هو « مالك » ، وله أعوان من الخزنة ، وعددهم تسعة عشر ، ويسمون الزبانية ، أى الغلاظ الشداد .

وللنار أبواب ، كل باب منها لدخول أهل عمل من الأعمال السيئة . فهذا باب لمن سل سيفه على أمة محمد ﷺ ، وهذا باب لمن ارتكب فاحشة الزنى ، وهكذا .

وفى النار دركات ، أى بعضها أسفل من بعض ، فهناك جهنم ، ثم لظى ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية ، ويروى أن الهاوية هى مأوى المنافقين ، والقرآن يقول : (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) .

ونار جهنم أشد من نار الدنيا ، حتى ذكرت الأحاديث أن نار الدنيا جزء من سبعين جزءاً من نار الآخرة وقيل : جزء من مائة جزء . وفى صحيحى البخارى ومسلم حديث يقول : « ناركم هذه التى توقدون عليها جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم » .

والنار عميقة بعيدة الغور . وهناك أحاديث تصور هذا العمق بأنه لو هوى حجر فى النار لظل يهوى سبعين خريفاً ، وإذا كان أهل الأرض يحسون فى

جوانب منها بشدة القيظ فى الصيف ، وشدة البرد فى الشتاء . فإن حديث الصحيحين يقول لنا : « اشتكت النار إلى ربها فقالت : يا رب ، أكل بعضى بعضاً ، فنفسنى . فأذن لها فى نفسين : نفس فى الشتاء ، ونفس فى الصيف . فأشد ما تجدون من الحر من سمومها ، وأشد ما تجدون من البرد من زمهريرها . وكأن هذا تصوير مجازى لشدة حرارة النار من جهة ، وشدة بردها من جهة أخرى .

وللنار — كما فى حديث مسلم — درجات فى العذاب ، فمن أهلها من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه إلى ترقوته . وفى حديث المسند : إن أهون أهل النار عذاباً رجل منتعل بنعلين من نار يغلى بهما دماغه . وفى رواية البخارى : إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل توضع فى إخمص قدميه جمرة يغلى منها دماغه . وفى رواية أخرى : أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل . والصور التعبيرية متعددة ، ولكن المعانى متدانية متقاربة .

* * *

والأشياء التى يعذب الله بها الأشقياء فى النار كثيرة متنوعة . فهناك الزقوم ، وهى شجرة من أخبث الشجر المر ، تنبت فى أصل الجحيم ، ثمرها كرءوس الحيات ، إذا أكل الآكل منها غلى بطنه .

وهناك الغسلين — بكسر فسكون — وهو صديد أهل النار ، أو نوع من الشجر .

وهناك المهل — بضم فسكون — والمهل هو عكر الزيت الأسود الوسخ ، يغلى فى البطون ، وقيل هو النحاس المذاب .

وهناك الضريع ، وهو نوع خبيث من النبات فيه أشواك .

وهناك الحميم . وهو الماء البالغ نهاية الحرارة .

وهناك المقامع من سياط مصنوعة من الحديد .

وهناك الكلاليب وهي قطع الحديد التي يعلق فيها اللحم .

وهناك الغساق ، وهو الماء البارد جداً لا يطاق .

وهناك الصديد ، وهو القيح والدم . . . إلخ .

وهذه الأشياء صورتها السنة والأحاديث تصويراً مروعاً مفزعاً ؛ ليحذرها ويحذر أسبابها من كل له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وعلى سبيل المثال يقول الرسول ﷺ . ولهذا لم يكن عجيباً أن نجد الحديث يقول : « لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معائشهم ، فكيف بمن تكون طعامه » .

وإذن فلا عجب ولا غرابة إذا حرص النبي الذي وصفه القرآن بأنه (رءوف رحيم) على صرف المسلمين عن أسباب الدخول في النار ، فيقول : « إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً . فجعلت الدواب والفراش يقعن فيها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار . وأنتم تقتحمون فيها » . ولا عجب ولا غرابة أن يذكر النبي النار مرتين : فيشيح بوجهه ويتعوذ بها ، ويقول : « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة » .

• • •

وإذا كان كثير من عصاة المسلمين يدخلون النار للتطهير والتأديب إلى أجل معلوم ، فإن الشفاعة تنال بإذن الله تبارك وتعالى كثيرين ، ويكون مقام الشفاعة فضلا من الله وتكريماً لرسوله محمد ﷺ ، وقد جاء في صحيح مسلم أن النبي يشفع فيقبل الله شفاعته ، ويأذن له في إخراج عصاة كثيرين من

النار ، وإدخالهم الجنة ، حتى لا يبقى فى النار إلا من حبسه القرآن المجيد ؛ أى وجب عليه الخلود ، حيث دل القرآن على خلوده فى النار ، وهم الكفار .

وفى أحاديث الشفاعة الكثيرة أن الله عز شأنه يقول للنبي : « يا محمد ، أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب » .

وفى حديث الصحيحين ما يشير إلى سعة رحمة الله التى تدرك كثيراً ممن دخل النار فتنقلهم منها إلى الجنة :

« يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وفى قلبه وزن شعيرة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وفى قلبه وزن برة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وفى قلبه وزن ذرة من خير » ، وكلمات : الشعيرة والبرة والذرة ، إشارة يكنى بها عن العمل القليل الزاد على أصل الإيمان .

يقول حديث البخارى : « حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد ، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار ، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ، ممن أراد الله أن يرحمه ، ممن يشهد أن لا إله إلا الله ،فيعرفونهم فى النار بأثر السجود ،تأكل النار ابن آدم ، إلا أثر السجود ، فيخرجون من النار قد امتحشوا [اسودوا] فيصب عليهم ماء الحياة ، فينبتون تحته ، كما تنبت الحبة فى حميل السيل » [أى كزبرة الصحراء التى تنبت صافية مع جريان السيل] . وهذا تشبيه لها فى سرعة الإنبات وقوة الصفاء .

• • •

ثم تأتى أمور مشتركة بين الجنة والنار تحدثنا عنها الأحاديث القدسية والنبوية .

هناك اشتراك الجنه والنار فى أن كلا منهما لها أبواب ، وإن كانت أبواب النار سبعة ، وأبواب الجنة ثمانية . سئل رسول الله ﷺ : ما الجنة ؟ وما النار ؟

فأجاب : إن النار لها سبعة أبواب ، ما فيها بابان إلا يسير الراكب فيهما سبعين عاماً ، وإن الجنة لها ثمانية أبواب مامنها بابان إلا يسير الراكب فيهما سبعين عاماً .

وهناك الصراط والميزان والصحف ، وهذه الأمور الثلاثة تتعلق بالجنة والنار ، فالصراط يقع بين الجنة والنار ، من ثبت عليه وصل الجنة ، ومن مال به وقع فى النار ، والميزان يوزن به أعمال أهل الجنة ، كما توزن به أعمال أهل النار ، والصحف مشتركة بين أهل الجنة وأهل النار : (فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه * إنى ظننت أنى ملاق حسابيه * فهو فى عيشة راضية * فى جنة عالية * قطوفها دانية * كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية * وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول : ياليتنى لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابية * ياليتها كانت القاضية * ما أغنى عنى ماليه * هلك عنى سلطانية) .

وفى حديث الترمذى : (يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدى ، فآخذ بيمينه ، وآخذ بشماله » .

وفى حديث أبى داود أن السيدة عائشة رضى الله عنها ذكرت النار

فبكت ، فقال لها رسول الله ﷺ : مايبكيك ؟ فقالت : ذكرت النار فبكيت ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة يارسول الله ؟

فقال : أما فى ثلاثة مواطن فلا أجد أحداً : عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانيه أو يثقل ، وعند الكتاب [أى أخذ الصحف] حين يقال : (هاؤم اقرءوا كتابيه) حتى يعلم أين يقع كتابه : أفى يمينه أم فى شماله ، أم من وراء ظهره ، وعند الصراط إذا وضع بين ظهرى جهنم » .

ويقول إمام الحرمين الجوينى فى كتابه « الإرشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد » .

« والصراط ثابت على حسب ما نطق به الحديث ، وهو جسر ممدود على متن جهنم ، يرده الأولون والآخرون ، وإذا توافوا إليه قيل للملائكة (وقفوهم إنهم مسئولون) .

والميزان حق ، وكذلك الحوض والكتب التى يحاسب عليها الخلائق . ولا تحيل العقول شيئاً من ذلك . ودلالة السمع ثابتة على قطع فى جميع ماذكرناه ، فإن أبدوا مراء فى الصراط وقالوا : فى الحديث المشتمل عليه إنه أدق من الشعرة وأحد من السيف ؛ وخطور الخلائق على ماهذه صفته غير ممكن . وربما يجحدون الميزان مصيراً إلى أن الأعمال هى التى يتعلق الثواب والعقاب بها ، وهى أعراض لايتحقق وزنها .

فأما ما ذكروه فى الصراط فلاخفاء بسقوطه ، فإنه لايستحيل الخطور فى الهواء ، والمشى على الماء . وكيف ينكر ذلك من يلزمه الدين — رغماً — الاعتراف بقلب العصا حية ، وفلق البحر ، وإحياء الموتى فى دار الدنيا ؟

والموزون الصحف المشتملة على الأعمال ، والرب تعالى يزنها على أقدار

أجور الأعمال . وما يتعلق بها من ثوابها وعقابها . فهذا القدر كاف فى إرشادكم إلى طريق السمعيات » .

• • •

وتشترك الجنة والنار فى الخلود . والخلود فى اللغة هو طول المكث ، وفى الشريعة هو الدوام الأبدى ، فأهل الجنة لايخرجون منها ، ولا هى تفنى بهم فيزولوا بزوالها ، وإنما هى حياة أبدية لأنهاية لها ، وكذلك أهل النار لايخرجون منها ، ولا تفنى بهم ، وكذلك يقول حديث البخارى : يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقوم مؤذن بينهم : يا أهل الجنة لاموت ، ويا أهل النار لاموت ، خلود ! !

وقد جاءت أحاديث كثيرة ذكرت أن الموت سيذبح حينئذ ، ثم ينادى مناد : يا أهل الجنة ، لاموت ؛ يا أهل النار ، لاموت . فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ؛ ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم .

وذبح الموت هنا كناية عن اليأس من مفارقة الحالتين فى الجنة والنار ، يكون ذلك — كما قال بعض السلف — تمثيلا لما يكون به اليأس من الموت ، ليطمئن أهل الجنة بنعيمهم ، وييأس أهل النار من موتهم أو خروجهم ، لأن الجميع إذا علم وتيقن أن لاموت ، فكأنه رأى ذبح الموت ، وعدم اتصاف أحد به بعد ذلك .

وإذا كان للجنة أوائل عند الدخول ، فللنار كذلك أوائل عند الدخول :

جاء فى مسند أحمد هذا الحديث : « عرض علىّ أول ثلاثة يدخلون الجنة ، وأول ثلاثة يدخلون النار : فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة فالشهيد ، وعبد مملوك لايشغله رق الدنيا عن طاعة ربه ، وفقير متعفف ذوعيال . وأول

ثلاثة يدخلون النار فأمير متسلط [أى ظالم] ، وذو ثروة من مال يمنع حق الله من ماله ، وفقير فخور » ! !

ولقد تحاجت الجنة والنار — كما فى حديث الشيخين البخارى ومسلم — فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين . وقالت الجنة : فمالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم وغرتهم ؟ [وهم الغافلون عن الدنيا ، ولا يأبه الناس بهم] ؟

فقال الله للجنة : إنما أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى . وقال للنار : إنما أنت عذابى أعذب بك من أشاء من عبادى ، ثم قال لهما : لكل واحدة ملؤها ! .

ورضوان الله تبارك وتعالى على شيخ البلغاء بعد رسول الله ﷺ : الإمام على حيث يقول عن الجنة والنار من خطبة له : « فالله الله عباد الله . فإن الدنيا ماضية بكم على سنن . وأنتم والساعة فى قرن ، وكأنها قد جاءت بأشراطها ، وأزفت بأفراطها . ووقفت بكم على صراطها .

وكأنها قد أشرفت بزلازلها ، وأناخت بكلاكلها [صدورها] وانصرمت الدنيا بأهلها ، وأخرجتهم من حضنها . فكانت كيوم مضى ، أو شهر انقضى ؛ وصار جديدها رثاً [بالياً] ، وسمينها غثا [هزيلا] ، فى موقف ضنك المقام ، وأمور مشتبهة عظام .

ونار شديد كلبها [جشعها وأكلها بلا شبع] عال لجبها ، ساطع لهبها ، متغيظ زفيرها ، متأجج سعيرها ، بعيد خمودها ، ذاك وقودها ، مخيف وعيدها ، غم قرارها ، مظلمة أقطارها ، حامية قدورها ، فظيعة أمورها .

وسبق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا : قد أمن العذاب ، وانقطع العتاب ، وزحزحوا عن النار ، واطمأنت بهم الدار ، ورضوا المثوى والقرار ،

الذين كانت أعمالهم فى الدنيا زاكية ، وأعينهم باكية ، وكان ليلهم فى دنياهم نهاراً تخشياً واستغفاراً ، وكان نهارهم ليلا توحشاً وانقطاعاً [لطاعة الله] ، فجعل الله لهم الجنة مآباً ، والجزاء ثواباً ، وكانوا أحق بها وأهلها ، فى ملك دائم ، ونعيم قائم .

فارعوا — عباد الله — ما برعايته يفوز فائزكم ، وبإضاعته يخسر مبطلكم وبادروا آجالكم بأعمالكم ، فإنكم مرتهنون بما أسلفتم ، ومدينون بما قدمتم وكأن قد نزل بكم المخوف ، فلا رجعة تنالون ، ولا عثرة ، استعملنا الله وإياكم بطاعته وطاعة رسوله ، وعفا عنا وعنكم بفضل رحمته » .

أما بعد ، فإن حديث الجنة والنار كما تصوره الأحاديث القدسية والنبوية حديث طويل جميل جليل ، فهناك عشرات وعشرات وعشرات من الأحاديث القصيرة أو الغزيرة ، تناولت تفاصيل كثيرة تتعلق بأمور الجنة والنار ، وما تقدم فى هذا المجال إنما هو عصارة الخلاصة تعطى ملامح أساسية لدار القرار كما وردت فى صحاح الأخبار ، ولو يراد التفصيل أو التحليل لاحتجنا فى ذلك إلى كتاب تتعدد فيه الأبواب .

وعلى الله قصد السبيل .

• • •

الإسلام والمسلمون فى الفلبين

السؤال :

كيف دخل الإسلام الفلبين ؟

الجواب :

الفلبين تقع فى وسط المحيط الهادى . وهى مجموعة جزر تقع جنوبى

شرق آسيا . وعدد سكانها نحو أربعين مليوناً ، منهم خمسة ملايين مسلمون ، والباقون مسيحيون ، والدولة مسيحية ، ورئيسها هو فرديناند ماركوسى ، ويصف المؤرخون جزر الفلبين بأنها أرخبيل من الأوقيانوس الماليزى ، وأشهرها جزيرة لوسون فى الشمال ، وجزر بابوان فى الوسط ، وجزر كالامبان وبالاوان فى الغرب ، وجزيرة ميندانا و فى الجنوب .

وقد سميت الفلبين بهذا الاسم نسبة إلى الملك فيليب الثانى ملك إسبانيا الذى اكتشفت الجزر فى عهده على يد الحملة الاستعمارية الإسبانية سنة١٥٦٨م والاسم الحقيقى الأصلى لشعب الفلبين هو « بانجسامورو » ، وعاصمة الفلبين هى مدينة « مانيلا » . وقد اكتشف جزر الفلبين ماجلان الملاح البرتغالى . وإن كان المحققون من المؤرخين يذهبون إلى أن العرب دخلوا الفلبين قبل ماجلان . فقد قدم العرب إلى جزيرة ماندناو بالفلبين فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى حوالى سنة ١٤٧٥ م . وقد دخل الإسلام أرض الفلبين من شبه جزيرة الملايو . على يد رجل اسمه « شريف كانونجسوان » . ويروى أنه لم ينزل من سفينته إلى الشاطئ إلا بعد أن وعده القوم باعتناق الإسلام . وفى هدوء دخلوا فى دين الإسلام ، واستقر الشريف هناك وتزوج

ومعنى هذا أن الإسلام دخل الفلبين منذ خمسة قرون خلت . وقد شارك فى إدخاله ونشره جمع من التجار المسلمين العرب ، وذاع انتشاره هناك لوضوح مبادئه ويسر أحكامه وسماحة تعاليمه . وكانت مدينة « مانيلا » يحكمها زعيم مسلم اسمه « راجا سليمان » . وكانت مانيلا معقلا حصيناً للإسلام . ولكن الإسلام هناك ضعفت شيعته بسبب الاضطهاد ، وإن بقيت آثار واضحة للإسلام فى العادات والتقاليد . وينبغى أن نلاحظ أن استعمار الإسبان للبلاد ، واتباعهم أساليب القهر والعسف والإكراه ضد الناس عن

الدخول فى الإسلام خوفاً ورهبة ، وبخاصة فى الجزر الشمالية ، حيث تكررت مأساة الأندلس : « الفردوس المفقود » على يد الإسبان .

ولكنهم مع هذا لم يفلحوا بطغيانهم فى صد الناس عن الدين الإسلامى الحنيف فى الجزر الجنوبية ، فبقى الإسلام فيها قوياً عزيز الجانب ، حتى إن المسلمين لا يعترفون بتسميتهم فلبين . بل يصرون على تسميتهم مسلمين .

والإسلام كان أول دين يدخل جزر الفلبين ، حيث سبق دخول المسيحية إليها ، وقامت للمسلمين هناك حكومات إسلامية تطبق الشريعة السمحة ، حتى أقبل وباء الاستعمار البرتغالى الإسبانى ، فقاومه المسلمون زمناً طويلا ، وحينما سقطت العاصمة مانيلا فى براثن الاستعمار تجمع المسلمون كارهين مرغمين فى الجزر الجنوبية . وتكاثر الإسبان واستوطنوا واستأسدوا وتحكموا ، وسموا البلاد باسم الفلبين تخليداً لاسم ملكهم فليب ، ثم جاء الاستعمار الأمريكى فالاستعمار اليابانى ، ثم استقلت الفلبين كما سنعرف .

ولقد تحدث السير توماس أرنولد فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام » عن السر فى انتشار الإسلام فى الفلبين : وتغلبه على المسيحية . فقال :

« يرجع نجاح الإسلام هناك إلى حد بعيد — إذا ووزن بالمسيحية — إلى الصورة المختلفة التى عرضت بها هاتان الديانتان على أهالى هذه البلاد ، وقد انطوى اعتقادهم المسيحية على فقد الحرية السياسية كلها ، والاستقلال القومى ، ومن هنا أصبح الناس ينظرون إليها على أنها رمز العبودية ، وقد قدر للوسائل التى اتخذها الإسبان لنشر دينهم أن تجعل هذا الدين منذ البداية غير محبب لدى الشعب ، وكان عنفهم وتعصبهم على طرفى نقيض مع سلوك التسامح الذى ظهر به دعاة المسلمين ، الذين تعلموا لغة الشعب وانتحلوا عاداته ، وأصهروا إليه ، وبفنائهم فى عامة الشعب لم يدعوا لأنفسهم كافة

الحقوق التى تقتصر على جنس متميز عن سائر الأجناس . ولا رموا الأهالى بأنهم فى مستوى طبقة هدا من جهة ، ومن جهة أخرى . كان الإسبان يجهلون لغة الأهالى وعاداتهم وأحوالهم . وقد أدى فساد أخلاق هؤلاء الإسبان بل شحهم وجشعهم إلى جعل دينهم مبغضاً إلى النفوس ، كما كان المقصود من نشر دينهم استخدامه أداة لتقدمهم السياسى ، لهذا فإنه ليس من العسير أن ندرك المعارضة التى أظهرها الأهالى إزاء دخول المسيحية ، التى لم تصبح فى حقيقة الأمر إلا ديانة الشعب فى تلك الجهات حيث كان السكان من الصنف . أو كانت الجزيرة من الصغر . بحيث مكنوا الإسبان من إخضاع البلاد إخضاعاً تاماً . ولم يكن بد من أن يرغم المسيحيون من الإهالى بعد دخولهم فى المسيحية . على أداء واجباتهم الدينية خوفاً من العقاب . كما أنهم عوملوا معاملة أطفال المدرسة سواء بسواء . وكانت مملكة مندنا و الإسلامية . حتى زمن احتلال الأمريكيين جزائر الفلبين ، ملجأ لهؤلاء الذين رغبوا فى التخلص من الحكومة المسيحية البغيضة . وقد كونت جزيرة سولو كذلك مع أنها دخلت اسمياً فى حوزة الأسبان منذ سنة ١٨٧٨ مركزاً إسلامياً آخر مناهضاً للمسيحية . كما وجد به المرتدون من الذين يتكلمون اللغة الأسبانية»

هذه شهادة السير أرنولد وهو رجل باحث غير مسلم . وقد ذكر أنه حدث فى ماندناو . عند قبائل تاجال التى تسكن فى الشرق أن أراد هؤلاء التاجال أن يتخلصوا من نير السادة الكاثوليك البغيض . فتجمعوا وزاد عددهم يوماً بعد يوم . والتفوا حول رؤساء الأسر الوطنية . وكان هناك أكثر من ثلثمائة وستين ألفاً من المسلمين . يعترفون بأن القرآن دستورهم الوحيد . وقد قدم دعاة المسلمين من الصين والهند رؤساء دينيين ومعلمين للأهالى . بدلا من اليسوعيين الذين طردوا من الجزيرة . ومن الذين يمثلون

الديانة الرسمية . وعلى ذلك جدد هؤلاء المسلمون الدعوة التى بدأها العرب الفاتحون .

ولقد دخل الإسبان الفلبين سنة ١٥٢١ م ، ومنذ اليوم الأول بدأ كفاح المسلمين ضد الغزاة ، وكان زعيم المسلمين هو «لابو لابو» وقد سحق أول حملة إسبانية ، وقتل قائدها : « ماجلان » فى ٢٧ أبريل من العام المذكور ، وأبى أن يسلم جثته بأى ثمن .

وبعد حين طويل ساعدت أمريكا لأسباب مختلفة على التخلص من حكم إسبانيا ، ولكن أهل البلاد وقعوا تحت وطأة النفوذ الأمريكى ، ولم تستقل الفلبين إلا فى سنة ١٩٤٥ م ، ولم يتحسن حال المسلمين باستقلال الفلبين . بل انتقلوا من شر إلى شر ، انتقلوا من عسف الإسبان والبرتغال إلى طغيان المسيحيين هناك . وجاهد المسلمون ضد ثلاثة أعداء هى : المسيحية والشيوعية والصهيونية . وهم الأعداء الذين تعاونوا على حرب المسلمين وإبادتهم .

والمسيحيون فى الفلبين يطالبون بأن تكون الحكومة كاثوليكية خالصة ، وينبغى فى نظرهم العمل على كثلكة المسلمين أو إبادتهم ، حتى لا يبقى منهم فى الفلبين . وقد قدم « الجنرال بالاو » قائد الجيش الفلبينى سابقاً اقتراحاً سنة ١٩٥٦م لتوحيد الدين فى الفلبين . وإرغام المسلمين على اعتناق الكاثوليكية لتحقيق هذه الفكرة ، وقابل المسلمون هذا الاقتراح بثورة عارمة فتظاهر القوم بالعدول عن الاقتراح ، وطووا صدورهم على ما الله به عليم .

وأخذت الأكثرية يطردون المسلمين من أراضيهم ، ويحرقون بيوتهم ومساجدهم ومزارعهم ، ويحرقون نسخ القرآن الكريم ، ويقيمون المذابح للمصلين فى المساجد ، ويمثلون بجثث الموتى الشهداء . وفى سنة ١٩٧١ م قام الكاثوليك بمذبحة رهيبة ، ذبحوا فيها سبعين فلبينياً مسلماً ، فى قرية صغيرة

بجزيرة مينداناوا . وهى إحدى الجزر الجنوبية التى تسكنها أكثرية مسلمة ، ومع شديد الأسى والأسف كانت هذه المذبحة فى أحد المساجد . ومثل هذا حدث فى بلدة « ألامادا » فى منطقة « كوتاباتو » فى أثناء احتفال المسلمين بمولد النبى ﷺ . وكان الشهداء فى هذه المذبحة نحو مائة . وقد ارتكبت هذه المذبحة عصابة آثمة متعصبة ضد الإسلام والمسلمين تسمى « ألا كساس ».

وقد قال أحد المنصفين من الفلبين المسئوليين : إن المذابح التى تعرض لها المسلمون فى جنوب الفلبين كانت وراءها أيد أثيمة أجنبية إسرائيلية . وسبب ذلك هو تأييد المسلمين لإخوتهم العرب فى نزاعهم مع إسرائيل .

وهناك تحيز كاثوليكى سافر ضد المسلمين فى الفلبين . وهناك تفرقة صارخة يصطلى نارها أبناء الإسلام هناك . ويمكن تلخيص ذلك فى الأمور الآتية :

١ ــ إن سبعين فى المائة من المسلمين لايملكون شيئاً من الأراضى كأنهم أجانب تماماً عن هذه البلاد .

٢ ــ إن المسلمين فى الفلبين لايتمتعون كغيرهم بالخدمات الطبية والصحية .

٣ ــ فرص التعليم قليلة جداً بالنسبة للمسلمين ، على العكس من الكاثوليك الذين تقام لهم المدارس بكثرة .

٤ ــ التعمير قليل فى البيئات الريفية التى يسكنها المسلمون ، بعكس البيئات الأخرى التى يسكنها الكاثوليك .

٥ ــ لاتوجد مراكز تدريب للمسلمين . ولكنها توجد بكثرة للكاثوليك .

٦ ــ لايقبل أى مسلم فى الكلية الحربية الفلبينية .

٧ ــ توضع العراقيل أمام ممارسة المسلمين لشعائرهم الدينية . وتهيأ الأسباب المعاونة أمام الكاثوليك .

ومن أقذر الوسائل التى لجأ إليها الطغاة فى ترويع المسلمين ونشر الرعب بينهم . خطابات التهديد والوعيد . التى يرسلها المتعصبون الآثمون إلى المسلمين لتحويلهم إلى الكاثوليكية . ومن أمثلة ذلك خطابهم الذى أرسلوه بإمضاء القائد فى إقليم كوتاباتو إلى السيد « جال آنى » أحد النواب السياسيين ، وفى هذا الخطاب يقولون له :

« علمنا أنك كنت من المناصرين لقضية المسلمين فى جميع خطبك فى المؤتمرات الانتخابية . ولذلك فأنت تشبه كثيراً أخاك كونج آنى الذى يتبنى القضايا العنيفة فى الكونجرس ويجب أن تدان على جميع هذه الأعمال ، إذ أنها تؤدى إلى الانقسام والفرقة بين شعبنا ونحن أمة واحدة . ولذلك يجب أن يكون هناك قانون واحد للجميع .

إن حملتنا الصليبية من أجل توحيد جميع سكان الفلبين لم تصل بعد إلى الإقليم الذى تتبعه . ولكن ليس أمامك وأخيك سبب للابتهاج . لأننا لن نترككما . فسوف نقوم بالهجوم على جميع المناطق الإسلامية . سعياً لتحقيق وحدة شعبنا فى المسيح . كما فعلنا فى لاناو دبانى فى . وكاتاباتو . وزامبوانجاديل سود . وسوف نقوم بطرد الإسلام من هذه الأمة الكاثوليكية . لأن كثيراً مشكلاتنا نجد جذورها فى هذه الديانة العتيقة الرجعية .

لقد كان من الأخطاء التاريخية الجسيمة أن يقاوم المسلمون الصليب حين أتى الإسبان إلى الفلبين لتحويل هذه الأمة إلى الكاثوليكية . وإذا كان المسلمون فقراء ومتخلفين اليوم فإن ذلك يرجع إلى الإسلام . وإذا لم يدرك المسلمون ذلك فإننا سنجعلكم جميعاً تدركون بطريقة أو بأخرى .

إن هذا هو الهدف الأعظم لحملتنا الصليبية ، وهو تحويل المسلمين إلى الكاثوليكية من أجل مصلحتهم الخاصة ، ومن أجل الوحدة والسلام والتقدم.

إننا نطلب إليك باسم المسيح الرب الحقيقى ، أن تؤثر على عقول شعبك . وأن تغير دينهم إلى الكاثوليكية التى تم وضع جذورها الآن فى الإقليم وتخطئ النظر فى أننا سوف لاننال منك ومن أهلك إذا رأينا أنكم ترفضون هذا الطلب » .

وفى الفلبين عصابة مجرمة متخصصة فى الاعتداء على المسلمين ،والتفنن فى إيذائهم ، وتسمى عصابة « إيلاجاس » أى الفئران ، وتتعاون مع إسرائيل والصهيونية ، وهى عصابة مسلحة ، لها ما يشبه الكتائب العسكرية . وهى تدعى حماية المواطنين الكاثوليك فى مينداناو ، مثل جمعية الدفاع المسلح عن الصهيونية فى أمريكا ، وكثرت عمليات السلب والنهب والاعتداء التى تقوم بها هذه العصابة ، وكل ضحاياها من المسلمين فى الفلبين .

وأفراد هذه المنظمة كثيرون ، ولذلك يصل فسادها إلى مناطق مختلفة ، ولديها طاقات مادية كثيرة مما يشير بإصبع الاتهام إلى هذه الجماعة من ورائها جهات مجرمة تعاونها على فسادها . ومن بين الجرائم التى تقوم بها هذه العصابة أعمال الإحراق والقتل ، دون تمييز بين الرجاء والنساء والأطفال ، ومنها الاعتداء على المساكن والمساجد والمدارس الدينية ، وسلب الماشية وأدوات المعيشة ، بصورة وحشية غير إنسانية تنافى قيم الأخلاق والحضارة .

يقول بعض الكاتبين : لايمكن تحديد مدى الأضرار التى أحدثتها هذه الجماعة ، ولا إحصاء عدد ضحاياها التى تجاوزت الألوف ، كما لا يمكن إحصاء عدد المساكن والمساجد والمدارس الدينية التى أصابها التحريق والتدمير والنهب .

ويمكن تلخيص الآثار السيئة التى نالت المسلمين فى الفلبين ، نتيجة لصراعهم مع الاستعمار البغيض المتعدد الوجوه ، وقد أفاض المؤرخون

المعاصرون فى تفضيل القول لتعداد هذه الآثار ، ويمكن أن نلخصها عنهم فى النقاط الآتية :

١ ـ فقدان السيادة الإسلامية التى كانت لها سلاطينها وأمراؤها من حكام المسلمين فى جنوب الفلبين ، وقد ظلت هذه الإمارات حرة مستقلة دون أن تهزمها إسبانيا ولكن وطأة الحكم الأمريكى حطم كيان هذه الإمارات .

٢ ـ فقدان المسلمين لحيازة الأراضى فى البقاع التى كانوا يحكمونها ويسودون فيها ، فإن هذا البقاع كانت واقعة تحت تملك الجماعات الإسلامية ، تماشياً مع مبدأ السيادة التى تتمتع بها . ولكن فقدان السيادة ، مع فقدان الحكم مع سيطرة القانون الأمريكى الخاص بنظام حيازات الأراضى ، جعل هذه الأراضى تضيع من المسلمين ، وتقع فى أيدى الكاثوليك ، فصاروا أكثر ثراء وتمتعاً بعطف الاستعمار الأمريكى .

٣ ـ ضياع التماسك الإسلامى ، أو وحدة الجماعات الإسلامية فى الفلبين ، فقد كان المسلمون هناك قوة يحسب لها الأعداء ألف حساب ، ولكن الاستعمار الخبيث اتبع معهم طريقة « فرق تسد » ، فبعد أن كان المسلمون هناك صفاً واحداً ، وخصوصاً فى حالة الحرب ضد العدو المشترك دب بينهم داء التفرق والتمزق ، فأصبحوا أيدى سبأ ، مما أطمع فيهم أعداءهم للتنكيل بهم .

٤ ـ فقدان الشعور الإسلامى المشترك بين المسلمين ، وكان هذا نتيجة لمخططات القوى الخبيثة المعادية للإسلام ، التى تتربص بالمسلمين الدوائر .

وزاد الطين بلة أن دخلت الصهيونية العالمية إلى ميدان الصراع فى الفلبين ، وكان ذلك نتيجة لما أبداه مسلمو الفلبين من تعاطف مع إخوتهم العرب بشأن القضية الفلسطينية .

وكان المنتظر أن يأتى استقلال الفلبين بتحسين الأحوال فى أوضاع

المسلمين هناك . ولكن هضم حقوق المسلمين استمر يلوح بصورة مؤلمة . وكأنهم استبدلوا استعماراً باستعمار .

٥ ـ استطاع أعـداء الإسلام أن يبسطوا نفوذهم على الأحزاب ، والأجهزة الرئيسية الحساسة ، فبزحزحوا الشخصيات الإسلامية ذات الأثر والتاريخ عن تولى أى منصب مهم فى الدولة . ويبلغ الأسى مداه حين نرى الكاثوليك يتولون أغلبية المناصب الإدارية . حتى فى البيئات التى يمثل فيها المسلمون الأغلبية .

٦ ـ استمر النظام المجحف الجائر الذى يسعى لنزع حيازات الأراضى من المسلمين . واستغل أعداء المسلمين فى ذلك بعض القوانين والتوجيهات السياسية الهادفة . حتى صار المسلمون فى كثير من الأحيان مجرد فعلة وعمال لجلب المياه أو قطع الأخشاب .

٧ ـ الجهود الكاثوليكية الاستعمارية مستمرة لانتزاع المسلمين بعيداً عن ثقافتهم الإسلامية الصحيحة ، وتمزيق الروابط بينهم ، وهذا مسعى خطير تجد فيه المنظمات والإرساليات الكاثوليكية .

٨ ـ نلاحظ فى ميدان التعليم أنه لايعنى بتدريس مبادئ الإسلام ، بل على العكس من ذلك يتوسع فى تلقين الناشئة مسلمين وغير مسلمين ما يشوه صورة الإسلام والمسلمين . وهناك رقابة صارمة على المناهج التعليمية . حتى لايفكر أحد فى تصحيح هذه الأوهام ضد الإسلام .

* * *

ومن دعاة الإسلام فى الفلبين الداعية « وجيه زيد الكيلانى النابلسى » الذى أرسلته أولا المشيخة الإسلامية فى تركية ليكون أشبه بشيخ الإسلام فى الفلبين . وقد جاهد لنشر الإسلام معتمداً على الله تبارك وتعالى . ثم معتمداً على نفسه . حتى أصابه المرض ومات هناك رحمه الله .

ومن الساعين الأوائل لخدمة الإسلام فى الفلبين : الإمام حاجى نورى وعبد المطلب جارسا وأبو طالب لبر ، وعبد الله جونو .

وحاج نورى ماسورى هو قائد ثورة المسلمين فى الفلبين ، درس أولا فى جامعة الفلبين ثم ترك الجامعة إلى الأحراش ، ثائراً ضد الطغيان والبغى . ومن أعلام المسلمين فى الفلبين الدكتور أحمد ألنتو رئيس جمعية أنصار الإسلام وزعيم الجماعة الإسلامية فى الفلبين ، وقائد حركة جبهة الاتحاد بين الهيئات الإسلامية هناك ، وقد ولد سنة ١٩١٤ م ، وأتم دراسته القانونية سنة ١٩٣٨م وعين مساعداً خاصاً لرئيس الجمهورية الفلبينى « جرينو » عام ١٩٤٩ م .

وفى سنة ١٩٥٣ م انتخب عضواً لمجلس النواب عن بلده ، ثم عضواً لمجلس الشيوخ ، وظل محتفظاً بمقعد دائرته ، وقد أوفدته بلاده لتمثلها فى مؤتمر عدم الانحياز فى باندونج .

وفى سنة ١٩٦١ م لستقال الدكتوز التنو من جميع مناصبه الرسمية ليتفرغ لخدمة الحركة الإسلامية ، وقد منحته جامعة الفلبين فى ماندناو درجةالدكتوراه عام ١٩٧٢ م ، ولا عجب فهو صاحب فكرة إنشاء جامعة الفلبين . وقد عانى كثيراً من تحديد الإقامة والاعتقال والسجن بسبب اتجاهه الإسلامى .

وإصبع الاتهام يمتد فى أكثر الأحيان نحو الرئيس فرديناند ماركوسى ، ويقول ناقدوه : إن من أسباب تحيزه هو أنه يتخذ لنفسه مستشاراً يهودياً صهونياً من أصحاب الملايين ، اسمه « مانول أليسالدى » وهو المختص بشئون الأقليات ، ومنهم المسلمون ، كما أنه يوجد لماركوسى مستشار يهودى آخر اسمه « هانز منزى » .

ومطلب المسلمين الأساسى هو الحكم الذاتى فى المناطق التى يسكنونها فى الجنوب ، وكان عيبهم الأكبر فى الماضى هو الاختلاف والتفرق ، فقد

كانوا موزعين بين الحزب القومى وحزب الأحرار فى الفلبين ، ولكنهم توحدوا أخيراً تحت شعار : الوحدة من أجل الإسلام .

والذين أسلموا حديثاً فى الفلبين قد ألفوا جمعية سموها « جمعية معتنقى الإسلام فى الفلبين » . وهدفها الدعوة إلى الإسلام ونشر تعاليمه . وقد طبعت جمعية معتنقى الإسلام بعض الكتب لنشر الدعوة ، ومنها :

١ – محمد خاتم النبيين .

٢ – أى الأديان هو الحق ؟

٣ – الإسلام فى تاريخ الشعب الفلبينى .

وقد بدأت جمعية معتنقى الإسلام جهودها سنة ١٩٥٤ م . ولقيت توفيقاً ونجاحاً كبيراً ، وبينما كان المسلمون هناك لا يجدون مكاناً يضمهم فى صلاة الجمعة ، هيأ الله لهم الدكتور أحمد ألنتو ، فتبرع لهم بساحة ملحقة ببيته . فاتخذوها مسجداً جامعاً لصلاة الجمعة ، التى أقيمت بعد ثلاثة قرون . حيث غزا الإسبان البلاد ، وهدموا فيها المساجد الإسلامية والآثار الإسلامية وبعد عامين وفق الله هؤلاء المسلمين للعثور على مكان أرحب وأوسع بالصلاة فى قلب العاصمة مانيلا .

واشترت الجمعية بعد ذلك مطبعة ، وأنشأوا مركزاً لنشر الدعوة . وقد انتسب إلى الجمعية عشرات الألوف من الأعضاء ، وأنشئ لها عشرات الفروع ، وأصدرت مجلة ظلت تصدر حيناً ثم توقفت لقلة المعاونة .

وفى سنة ١٩٥٥ م انتخب الإمام لوهى ديليون رئيس جمعية معتنقى الإسلام عضواً فى مجلس الإدارة العام للجمعية الإسلامية ، وصار أميناً عاماً للمجلس الذى حرص على الاتصال بالجمعيات والهيئات الإسلامية فى العالم الإسلامى للاستعانة بها فى إنشاء المساجد والمراكز فى مانيلا .

والكنيسة الكاثوليكية غاضبة على جمعية تسمى أيضاً «جمعية معتنقى الإسلام» تأسست على غرار الأولى سنة ١٩٦٧ م ، وذلك لنشاطها وحيويتها ، وبينما الكنيسة فى الفلبين تتلقى المعونات من الحكومة ، كالمال والطعام والكساء والمغريات الكثيرة الأخرى ، نرى الجمعية الإسلامية لاتتلقى إلا النزر اليسير من المسلمين .

ولا يغيب عن البال أن المسلمين فى الفلبين – برغم ظروف نضالهم القاسية– يؤيدون كل القضايا الإسلامية والعربية ، ويطالبون بالتطوع الصادق فى كل معركة تدور بين المسلمين وأعدائهم ، وهم يقاومون الطغيان الإسرائيلى بشتى الوسائل .

وعلى الله قصد السبيل .

• • •

مادة السلام فى القرآن

السؤال :

كيف تحدث القرآن عن السلام؟

الجواب :

مادة السلام لغة فى معظم أحوالها – كما فى مقاييس اللغة لابن فارس – تدل على الصحة والعافية ، والسلامة هى أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى ، والله جل جلاله هو السلام ، بسلامته سبحانه مما يلحق المخلوقين من العيب والنقص والفناء ، والإسلام هو الانقياد ، لأنه يسلم من الإباءة والامتناع ، ويقال سلم من البلاء ومن المرض : برئ وسلمه الله ، والسلام : المسالمة ،

والسلم والإسلام واحد . وسمى الله بالسلام وهو اسم من أسمائه الحسنى . وقد ذكر فى سورة الحشر : (هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يصفون) . وذلك لأنه مصدر السلامة والسلام والأمان . ويأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدخول فى السلام كافة . فيقول فى سورة البقرة : (يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) أى يأيها الذين صدقوا الله ورسوله ادخلوا فى الإسلام والسلام . أى دوموا عليه جميعاً . ولا تتبعوا آثار الشيطان ونزغاته . وهو ظاهر العداوة لكم . ويأمر القرآن بالاستجابة إلى دعوة السلام والأمان . فيقول فى سورة الأنفال : (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم) إن مالوا إلى السلام . وأرادوا المسالمة والمصالحة فمل إلى السلام . واقبل منهم ذلك . وتوكل على الله فإنه كافيك وحده . وقد جاء فى الحديث الشريف : « سيكون بعدى اختلاف فإن استطعت أن يكون السلم فافعل . ويدعو القرآن أهل الكتاب أن يجتمعوا مع المسلمين فى التوحيد والمساواة وعدم الإعراض عن نداء الحق . فإن عارضوا فاستمسكوا بإسلامكم وإيمانكم . فيقول فى سورة آل عمران : (قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) : أى يأهل الكتاب — من اليهود والنصارى — تعالوا إلى كلمة مفيدة عادلة نستوى نحن وأنتم فيها : لانعبد إلا الله وحده ، ولا نعبد وثناً ولا صنماً ولا طاغوتاً . وأى شىء سوى الله الواحد نفرده بالعبادة لاشريك له ، ولا يستطيع بعضنا بعضاً فى عصيان الله . فإن أعرضوا عن هذا الإنصاف وتولوا . فأشهدوهم أنتم على استنظاركم فى الإسلام ، والإسلام مشتق من السلام والمسالمة . والمعنى أسلموا أنفسكم ونفوسكم لله

فى خضوع وانقياد ، وقد أمر الله عباده بأن يحافظوا على هذا الإسلام طيلة حياتهم ، فيكون مصاحباً لهم ماداموا أحياء ، يحيون به ، ويموتون وهم عليه ، فقال فى سورة آل عمران : (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) : أى جاهدوا فى سبيل الله حق جهاده ، ولا تأخذكم فى الله لومة لائم ، وحافظوا على الإسلام دعوة السلام ، فمن شب على شيء شاب عليه . ومن شاب على شيء مات عليه ، ومن مات على شيء بعث عليـــه .

وهذا هو الإسلام يعلم أتباعه بالإعراض عن الباطل فى القول والعمل ، وأن يقابلوا المبطلين واللاغين والجاهلين فى أعمالهم وسلوكهم بالسلام ودعوة السلام فيقول فى سورة القصص : (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين)وقد أمر الحق جل جلاله بأن يجتمع الناس على هدى الله وإسلام النفوس إليه ، فقال فى سورة الأنعام : (قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين) : نخلص له العبادة وحده ، لا شريك له ، وأسلمنا أمرنا إليه . ويقرر لنا كتاب الله أن السلام موقوف على الاتجاه إلى الله ، والاستناد من هداه ، فيقول فى سورة طه : (والسلام على من اتبع الهدى) : أى السلام عليك إن اتبعت هدى الله . ولهذا لما كتب رسول الله إلى هرقل عظيم الروم كتاباً كان أوله : « بسم الله الرحيم الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، فأسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين » .

وكذلك لما كتب مسيلمة الكذاب إلى رسول الله ﷺ كتاباً جاء فيه : « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله : سلام عليك ، أما بعد فإنى قد أشركت فى الأمر معك ، فلك المدر ولى الوبر ، ولكنّ قريشاً قوم

يعتدون » . فكتب إليه رسول الله ﷺ : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

ولهذا قال موسى وهارون عليهما السلام لفرعون : (والسلام على من اتبع الهدى ، إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى : (أى قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحى المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله ، وتولى عن طاعته كما قال الله تعالى : (فأما من طغى ، وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هى المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) .

وقد عنى الإسلام عناية شديدة بأمر السلام . فجعل السلام تحية يلقيها المسلم على من عرف ومن لم يعرف . ومن تعبيرات السنة الرائعة أن السنة تدعو المسلم إلى « بذل السلام للعالم » . ونتذكر هنا قول القرآن الكريم : (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً) . وجعل السلام من المسلم على النبى واجباً . فقال تعالى : (إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً). وجعل من عبارة التشهد فى كل صلاة قول المسلم « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » . كما دعا المسلمين يسلمون على أنفسهم وعلى كل عبد من عباد الله الصالحين . ففى التشهد « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » وجعل ختام الصلاة بالسلام بالتسليم يميناً ويساراً حين ينصرف منها المصلى قائلا : « السلام عليكم ورحمة الله » . وفى السنة أن المصلى يقول بعد السلام داعياً : « اللهم أنت السلام . ومنك السلام وإليك يعود السلام فحينا ربنا بالسلام » . وإذا كان قد حث المسلم على إلقاء السلام . وجعل هذا

الإلقاء سنة . فقد جعل رد السلام ممن ألقى إليه أمراً مفروضاً . ومن العجيب أن كلمة الإسلام وهى أساس العقيدة مشتقة من مادة السلام . وقد ذكر الله تعالى إلقاء السلام على المرسلين . فقال فى سورة الصافات : (سلام على المرسلين) وقال الرسول ﷺ : « إذا سلمتم على فسلموا على المرسلين وقال » وقال فى الصافات أيضاً :(سلام على إبراهيم) وقال أيضا (سلام على نوح : فى العالمين). وقال أيضاً : (سلام على موسى وهارون) وقال : (سلام على إل ياسين) .

وقد جعل الله ميزة ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر ، أنها ليلة سلام . يسلم فيها الملائكة على أهل المساجد حتى يطلع الفجر : (سلام هى حتى مطلع الفجر) .

والإسلام الذى هو إسلام الوجه لله ، والخضوع لأمره ، والانقياد لطاعته . هو صفة أهل الإيمان أينما كانوا . ولذلك قال الله تعالى فى آل عمران : (إن الدين عند الله الإسلام) وقال أيضاً ومن : يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) وقال فى سورة المائدة : (ورضيت لكم الإسلام ديناً) وقال فى سورة الأنعام : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) .

وفى القرآن شواهد كثيرة على أن الإسلام ـ وهو إسلام النفس لخالقها ـ كان دين المؤمنين من فجر التاريخ . فالإسلام كان دعوة سليمان . ولذلك يقول القرآن فى سورة النمل : « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين). أى لا تتجبروا على وائتونى مخلصين مطيعين.

ولقد كان إبراهيم على الإسلام من قديم الزمان . وها هو ذا القرآن فى سورة البقرة يقول عن إبراهيم وإسماعيل : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين

لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) . ثم يتحدث عقب ذلك عن إبراهيم فيقول : (وإذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين • ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون • أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ، قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون) . فأنت ترى هؤلاء أجمعين وذريتهم كانوا مسلمين ، وعاد القرآن إلى تأييد ذلك ، فقال النص الكريم فى سورة البقرة : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) فنحن نرى أن الله تعالى اصطفى إبراهيم ودعاه إلى الإسلام بما أراه من آياته ونصب له من بيناته ، فأجاب إبراهيم الدعوة وقال : (أسلمت لرب العالمين) وقد نشأ إبراهيم فى قوم يعبدون الكواكب ويتخذون الأصنام ، فأراه الله حجته . وأنار بصيرته ، فأدرك أن للكون رباً واحداً منفرداً بالخلق والتدبير . وقد وصى إبراهيم أولاده أن يختاروا الإسلام ، وأن يحافظوا على الإخلاص لله والانقياد إليه . فلا يترك ذلك الإسلام لحظة واحدة ، لئلا يموتوا فيها فيموتوا غير مسلمين ، ومثل ذلك فعل يعقوب مع أولاده ، فقد قال لهم عند موته فقالوا : « نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰها واحداً ونحن له مسلمون) .

وخلاصة وصية إبراهيم ويعقوب هى كما يقول الإمام محمد عبده : عقيدة الوحدانية فى العبادة ، وإسلام القلب لله تعالى والإخلاص له ، وتكرار لفظ الإسلام فى هذه الآيات يراد به تقرير حقيقة الدين ، وقد أبانت الآيات هنا أن دين الله تعالى واحد فى حقيقته ، وروحه التوحيد والاستسلام لله تعالى ،

والخضوع والإذعان لهداية الأنبياء . ولهذا كان يوصى أولئك النبيون أبناءهم وأممهم . فتبين أن دين الله واحد فى كل أمة . وعلى لسان كل نبى . فالتفرق فى الدين ما جاء إلا من الجهل والتعصب للأهواء . والمحافظة على المنافع المتبادلة بين المرءوسين والرؤساء . والقرآن يطالب الجميع بالاتفاق فى الدين والاجتماع على أصله العقلى وهو التوحيد والبراءة من الشرك بأنواعه . وأصله القلبى وهو الإسلام والإخلاص لله فى جميع الأحوال .

وإبراهيم خليل الرحمن هو الذى كان يحرص على وجهة السلام حتى مع مخالفيه فى الدين والعقيدة . وقد قال عنه القرآن فى سورة مريم فى شأن أبيه : (قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفياً) وهذا أمر يوثق روابط إبراهيم بالإسلام الذى يدعو إلى السلام حتى مع المخالفين ، فيقول التنزيل فى سورة الفرقان عن عباد الرحمن : (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) . وإبراهيم نفسه هو الذى تتحدث عنه سورة الحج فيقول القرآن فيها : (وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ، وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس . فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير) .

ونوح كان مسلماً وكان مما قاله لقومه : (فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) أى إن كذبتم وأعرضتم عن الطاعة فإنى لن أطلب منكم على نصحى إياكم شيئاً ، والله وحده هو الذى يعطينى أجرى إن طلبته . وأنا ممتثل ما أمرنى الله به من الإسلام لوجهه عز وجل . والإسلام هو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهجهم كما جاء فى تفسير ابن كثير .

ويوسف عليه السلام طلب من ربه أن يتوفاه على الإسلام . فقال يدعو

ربه : (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين) .

وموسى عليه السلام كان على الإسلام ومذكراً به . فجاء فى سورة يونس : (وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) .

وعيسى عليه السلام كان على الإسلام ونفهم هذا من حوار فى سورة آل عمران : « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله ، قال الحواريون نحن أنصار الله آمنابالله وأشهد بأنا مسلمون) : فلما استشعر عيسى منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال قال : (من أنصارى إلى الله) ؟ من يتبعنى إلى الله ؟ قال الحواريون : — وهم طائفة من بنى إسرائيل كانوا أنصاراً لعيسى — : (نحن أنصار الله — آمنا بالله . وأشهد بأنا مسلمون)

ويعود القرآن إلى تقرير هذا فيقول فى سورة المائدة : (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) .

وأهل الكتاب كان منهم مسلمون . يقول القرآن فى سورة القصص عنهم (وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) ، نزلت هذه الآية كما قيل فى شأن سبعين نصرانياً أرسل بهم النجاشى إلى النبى ﷺ فأسمعهم سورة يس فآمنوا وقالوا : (إننا كنا من قبله مسلمين) أى موحدين مخلصين لله . وفى حديث فى الصحيحين : « أن من الذين يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ، ثم آمن بى » .

ويعمم القرآن الإخبار عن الإسلام بين الناس منذ القديم فيقول فى سورة آل عمران : (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون * قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على

إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) : ينكر الله تعالى على من أراد ديناً سوى دين الله ، الذى أنزل به كتبه وأرسل به رسله وهو عبادته وحده لاشريك له الذى استسلم له من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً ، كما قال تعالى : (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال) ، فالمؤمن مستسلم بقلبة وقالبه لله . والكافر مستسلم لله كرهاً ، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذى لايخالف ولا يمانع .

وهؤلاء سحرة فرعون عصوا فرعون على عهد موسى وقالوا له ، إنا مسلمون ، وسيموتون مسلمين ، فجاء فى سورة الأعراف : (قالوا إنا إلى ربنا منقلبون * وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) .

فالإسلام بمعنى الإسلام لله والانقياد لوجهه معروف مألوف من قديم الزمان وهو الدعوة الحق الذى يجتمع عليه المؤمنون .

ونعود لنرى مزيداً من إفشاء الإسلام لدعوة السلام وتذكير المسلم بها فى كل زمان ، فلم يقتصر القرآن بتحديثنا عن السلام فى دنيانا أو دنيا من سبقونا ، فإذا كان القرآن قد حدثنا عن يحيى فقال : (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً) . وحدثنا عن عيسى أيضاً : فقال على لسانه : (والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) . فإنه قد انتقل إلى الحديث من السلام فى دار الآخرة ، فحدثنا أن دار النعيم وهى الجنة تسمى دار السلام يقول تعالى فى سورة الأنعام : (لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون) ويقول فى سورة يونس : (والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من

يشاء إلى صراط مستقيم) ويتكلم عن أقسام من أهل الجنة فيقول فيما يقول في سورة الواقعة : (وأما إن كان من أصحاب اليمين . فسلام لك من أصحاب اليمين) تبشرهم الملائكة بذلك . تقول لأحدهم : سلام عليك . لابأس عليك . أنت إلى سلامة . أنت من أصحاب اليمين .

وتحية أهل الجنة هي السلام . يقول تعالى في سوة يونس : (دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العلمين) ويقول في سورة الواقعة : (لايسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً . إلا قيلا سلاماً سلاماً) . ويقول في سورة يس : (لهم فيها فاكهة ولهم مايدعون . سلام قولا من رب رحيم) . ويقول في سورة الرعد : (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) .

ويقول في سورة الحجر : (إن المتقين في جنات وعيون . ادخلوها بسلام آمنين) ويقول في سورة النحل : (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) . ويقول في سورة الأحزاب : (تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً) . ويقول في سورة الزمر : (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) . هذا إخبار عن هؤلاء السعداء المؤمنين حيث يساقون إلى الجنة جماعة بعد جماعة . المقربون ثم الأبرار ثم الذين يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم حتى وصلوا إلى أبواب الجنة فتحت لهم.وهنا قال لهم خزنتها سلام عليكم . طابت أعمالكم وأقوالكم . وطاب سعيكم فطاب جزاؤكم . وقد جاء في حديث ابن ماجة : « بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور . فرفعوا رءوسهم . فإذا الرب تعالى قد أشرف من فوقهم فقال السلام عليكم ياأهل الجنة فينظر إليهم

وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ماداموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم .

وخير مثل للسلام وللاستجابة لدعوته هو رسولنا محمد ﷺ الذى خاطبه ربه فقال : (قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) وقال له فى سورة الأنعام : (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) . وهو القائل فى حديثه . « من أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة . فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين) .

• • •

الدعوة إلى الله

السؤال :

ما طريق الدعوة إلى الله ؟

الجواب :

الدين أساسه الدعوة ، لأنه لادين إلا بتكليف . ولا تكليف إلا بتبليغ ، ولا تبليغ إلا بدعوة . والله تعالى يقول لرسوله ﷺ فى سورة المائدة : (يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) .

والله جل جلاله يصف ذاته القدسية قائلا : (والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) . ويقول عن دينه القويم : (له دعوة الحق) . ويقول لرسوله ﷺ : (فلذلك فادع واستقم كما أمرت) .

ويقول لعباده الأخيار : (يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) .

ولذلك كانت الدعوة فى نظر الإسلام أمراً مقدساً . يجب الحفاظ عليه . وتلزم الاستجابة إليه . ولكن الدعوة إلى الله أمانة . وعلم وفن . ولذلك كان القيام بالدعوة على وجهها . مع التزام أصولها وآدابها . غير متيسر لكل من هب ودب . فإنه واجب ثقيل جليل نبيل . ينهض به الأخيار من الرجال والأبرار من الأبطال . المتدرعين بالحكمة . المتدرعين بالصبر . المتضلعين من المعرفة واليقين : (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) .

وقد أوجز القرآن المجيد التصوير لمنهج الداعية إلى الله تعالى فى آيات قليلة العدد . وجيزة الكلمات معجزة البيان . فقال فى سورة فصلت : (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين * ولا تستوى الحسنة ولا السيئة . ادفع بالتى هى أحسن . فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) .

وهذه الآيات الكريمة تشير — أول ماتشير — إلى أن الداعى إلى الله تبارك وتعالى . ينبغى أن يكون كلامه أحسن قول مستطاع فى طاقة البشر . بحيث لا يكون هناك من أحسن كلاماً من الداعية إلى الله تعالى . ولذلك جاء فى الآيات السابقة : (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله) .

والكلمة الطيبة حسنة راجحة فى ميزان الإسلام . ولذلك قال التنزيل المجيد عن الأخيار من العباد (وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد) . وقال : (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) . وقال :

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) .

ويلزم الداعية أيضاً أن تكون دعوته خالصة مخلصة لوجه الله عز وجل ، لايسيرها غرض ولا مرض . ولا يتحكم فيها جاه أو سلطان . ولذلك جاء فى الآيات قوله تعالى : (دعا إلى الله) لا لمعبود سواه ، ولا لكائن ماعلاه .

ويزكى القرآن لزوم هذا الإخلاص بقوله : (قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) . وقوله : (قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب) .

ومما يؤكد وجود هذا الإخلاص أن يؤيد الداعية القول بالعمل ، وألا يكتفى بأن يعمل كيفما اتفق بلا إتقان ولا إحسان . بل لابد أن يكون هذا العمل نقياً طيباً . موافقاً لقوله النقى الطيب ، وعقيدته السليمة الطيبة ؛ ولذلك جاء فى الآيات :(وعمل صالحاً) .

وما أشد استنكار القرآن الحكيم للقول الذى لايؤيده العمل . أليس هو القائل : (يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) .

والعمل الصالح لايكون صالحاً إلا إذا أصاب محله وصادف أهله ، وكان ناشئاً عن اعتقاد وإيمان ؛ ولذلك كرر القرآن قوله : (الذين آمنوا وعملوا الصلحات) عشرات المرات . وإليك جانباً منها :

فى سورة البقرة : (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) .

وفيها أيضاً : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم) .

وفى سورة النساء : (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم)

وفى سورة المائدة : (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم) .

وفى سورة الأعراف : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلف نفساً إلا وسعها) .

(وفى سورة يونس : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم) .

وفى سورة الرعد : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) .

وفى سورة الإسراء (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً) .

وفى سورة الكهف : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا تضيع أجر من أحسن عملا) .

وفيها أيضاً : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) ... إلخ .

• • •

ومن صفات الداعية الأساسية لتكوين شخصيته القويمة : الاعتزاز بالعقيدة . وإعلان كلمتها . وتأكيد الثبات عليها . والافتخار بالانتساب إليها ، والتحدث عنها بلا ريب أو تردد ، ولذلك جاء فى الآيات : (وقال إننى من المسلمين) .

ولذلك جاء في القرآن الحكيم : (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) ، وجاء فيه عن المؤمنين : (ولا يخافون لومة لائم) . وجاء فيه : (إني آمنت بربكم فاسمعون) .

وقديماً قال أحد المعتزين بعقيدتهم وإسلامهم ، في مجتمع كان يفخر كل الفخر بالآباء والأنساب :

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

ومن صفات الداعية تمجيد الشيء الحسن ، والميل إليه بالحسن أو النفس وتقبيح الأمر السيئ والبعد عنه . وكذلك دقة التمييز بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال ، وبين الصواب والخطأ ، ولذلك جاء في الآيات : (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة) . فهناك أولا فرق واضح بين الحسنة والسيئة ، وكذلك هناك بين الحسنة والحسنة تفاوت ودرجات . فهناك حسنة خير من حسنة أو أعلى منها ، وكذلك يوجد بين السيئة والسيئة تفاوت ودرجات ، فهناك سيئة هينة أو محتملة ، وهناك سيئة ثقيلة أو وبيلة . وهكذا .

ومعرفة الفروق بين الحسنات والسيئات ، أو بين الحسنات والحسنات ، أو بين السيئات والسيئات ، تحتاج إلى علم وبصيرة وحكمة . والواجب على الداعية أن يقابل السيئة بالحسنة ، لاجتذاب المدعوين إلى صراط الله العزيز الحميد ، عن طريق احتماله وصبره ، وأن يدفع السوء بالعمل الصالح الطيب ، وأن يقاوم الشر بعوامل الخير ، وأن يزيل الخبث بطهور الإيمان ، وقد جاء في الآيات : (ادفع بالتي هي أحسن) .

والحديث يقول : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » .

فالداعية مطالب بأن يلزم التي هي أحسن : أي أحسن الخصال ، وأحسن الأحوال ، وأحسن الأقوال ، وأحسن الأعمال ، والمقابلة بالتي هي أحسن

إنما تكون عند الإساءة التى تقبل الاحتمال أو الإغفال . ولكن إذا كانت السيئة موجهة إلى العقيدة أو الأمة . أو أخذت صورة البغى والعدوان والطغيان ، فهناك تكون الحسنة نعم الحسنة هى التأديب والردع . ولذلك يقول القرآن الحكيم : (والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون) . ويقول :(ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) . ويقول : (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) .

ومن واجبات الداعية العمل على كسب الأصدقاء والأولياء باسم الله تبارك وتعالى . وباسم الدعوة إلى دين الله عز وجل . وتحويل الأعداء إلى أنصار وأحباب . على أساس من الإيمان واليقين . ببراعة وذكاء . ولذلك جاء فى الآيات : (فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) .

ومن واجبه أيضاً أن يتذكر أن احتمال تبعات الدعوة إلى الله — بما فيها من التزام القول الطيب ، والعمل الصالح ، والجهر بالعقيدة ، ودفع السيئة بالحسنة — أمور تحتاج إلى عزيمة راسخة وإرادة ثابته وصبر جميل ، ولذلك جاء فى الآيات : (وما يلقاها إلا الذين صبروا ومايلقاها إلا ذو حظ عظيم) .

ومن واجب الداعية عدم الاستجابة لهواتف الشك أو التردد . والبعد عن سورة الشيطان أو الاستجابة له فى شئ . والاعتصام بحبل الله القوى المتين أمام إغراء الشيطان ومخادعته . والتحصن بقوة الله العلى الكبير . ولذلك جاء فى الآيات : « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله » .

والقرآن يقول : (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم) .

وأخيراً يجب أن يكون عند الداعية إيمان جازم بأن الله جل جلاله هو المراقب والمشاهد ، وهو المثيب والمجازى . وهو لايضيع أجر العاملين . ولذلك جاء فى الآيات : (إنه هو السميع العليم) .

وهكذا صورت هذه الآيات القليلة الكلمات منهج الداعية إلى الله :
(ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين • ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن . فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم • ومايلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم • وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) .

• • •

والواقع المرير أن المسلمين قد أهملوا فريضة الدعوة إلى الله ، إلا من رحم الله وقليل ماهم ، والشكوى من هذا التفريط قديمة عريقة القدم ، وقد ذكرت فى كتابى « دعوة إلى الإسلام » الذى صدر عام ١٩٧١ سطوراً ذكرتها مجلة « المنار » سنة ١٩١١ عن حالة الدعوة إلى الله جاء فيها :

« الدعوة إلى الإسلام فريضة إذا تركها المسلمون يكونون عصاة لله تعالى مستحقين لعذابه ، وإذا قام بها بعضهم سقط الحرج عن الباقين ، والدفاع عن الإسلام عند ظهور الشبه وإلقاء الشكوك فى عقائده وأصوله فرض أيضاً ، فإذا سكتوا عنه حيث يظهر ، كانوا عصاة لله تعالى ، مستحقين لعذابه ، وإذا قام به بعضهم ، وحصلت بهم الكفاية ، سقط الإثم عن الباقين .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عند الحاجة من فرائض الكفاية أيضاً ، فإذا سكت المسلمون عنه ، حيث يترك المعروف من الفرائض والسنن ، ويظهر المنكر من البدع والمعاصى ، كان جميع المسلمين هناك آثمين ، مستحقين لعذاب الدنيا بذهاب عزهم ومجدهم ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون ، وإذا قام به من تحصل بهم الكفاية سقط الحرج عن الباقين .

هذه مسائل مجملة ، مجمع عليها بين المسلمين الذين يعتد بإسلامهم ،

ولها تفاصيل وجزئيات معروفة فى مواضعها من كتب الدين بشروطها وأدلتها . وقد أهملت هذه الفرائض فى زماننا هذا إهمالا لم يسبق له نظير . كما أن الحاجة إليها قد اشتدت اشتداداً لم يسبق له نظير فى تاريخ الإسلام .

فشا الجهل بين المسلمين ، وكثرت فيهم البدع والخرافات ، وقل الوعظ والمعلمون الذين يتصدون لإرشاد العامة أو فقدوا ، اللهم إلا الدجالين المحتالين على التجارة بدينهم . وانبثت دعاة النصرانية فى جميع شعورهم يشككونهم فى دين الإسلام ، ويطعنون فى كتابه المنزل وفى نبيه المرسل . ويبثون مطاعنهم بالخطب فى المحافل العامة ، والتعليم فى المدارس الخاصة ، والوعظ فى الملاجئ والمستشفيات ، وبكتب ورسائل يطبعونها وينشرونها فى الناس . واكثر المسلمين عوام أميون ، لايميزون بين الحق والباطل ، ولابين الصادق والكاذب مما يعزى إلى دينهم وإلى علمائهم . ووراء ذلك أموال تبذل للمرتدين ، تغر الطامعين الجاهلين .

فصار من الواجب المحتم عليهم فى كل البلاد أن يقاوموا هذه الشكوك والشبهات دفاعاً عن دينهم ، وألا يكتفوا بالدفاع كما هو شأن الضعيف ، بل يزيدوا عليه تعليم عامة المسلمين حقيقة دينهم ، ويدعوا غير المسلمين ولا سيما الوثنيين إلى هذا الدين القويم : دين العقل والفطرة ، المصدق لجميع الرسل ، الجامع بين مصالح الروح والجسد ، المؤدى إلى سعادة الدنيا والآخرة » .

هذا كلام قيل عن الأمة الإسلامية سنة ١٩١١ ، وقد يكون هناك تغيير أو تبديل حدث فى بعض الملامح الخارجية أو الأشكال الظاهرية ، أو الأمور الجزئية ، ولكن القضية مازالت هى القضية ، وهى أن أبناء الإسلام فى أرجاء البلاد لايحسنون الدعوة إليه ، ولا يحسنون الدفاع عنه . ولايحسنون الترغيب فيه ، ولا ينهضون بتبعات التبشير به .

ليت القادرين من أبناء الإسلام يلبون نداء ربهم حين يحثهم على القيام بالدعوة إلى دينه وسبيله ، متجملين بآداب الدعوة ، مقتدين فى ذلك بإمام الدعاة رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وعلى الله قصد السبيل .

• • •

القصة فى القرآن الكريم

السؤال :

ما منهج القرآن فى القصة ؟

الجواب :

تقول اللغة : قص الإنسان الكلام أو الأخبار ونحوها : تتبعها فرواها . وقص الإنسان الأثر : تتبعه ، ومنه قوله القرآن المجيد : (وقالت لأخته قصيه) أى تتبعيه لتعرفى أخباره . وقوله : (ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً) أى رجعا متتبعين آثارهما فى الطريق الذى أتيا منه .

ونحن الآن بسبيلنا إلى أن نتعرف إلى القصة فى القرآن الكريم ، والقصة القرآنية ذات ملامح وخصائص وسمات تمتاز بها عن سواها ، ولها فى المعنى والتعبير ، والتصوير والتأثير ، أنماط من التوجيه والتربية ، ومن الإيحاء والتعليم ، وهى تأتى فى صور رائعة دائمة التجدد ، عمادها عمق العظة وقوة العبرة ، وصدق الحق تعالى إذ يقول فى آخر سورة يوسف : (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) .

ويراد بالقصة القرآنية غالباً الدعوة والتربية والتهذيب ، والتذكير بعبر

الإنسانية . واستعراض مثلات الدهر . ولذلك يذكر الإمام محمد عبده أن المراد بهذه القصص هو الاعتبار والعظة . ببيان النعم متصلة بأسبابها للسعى نحو طلبها . وبيان النقم بعللها حتى تجتنب جهتها . ولذلك وجب أن يكون إيراد الوقائع فيها على النحو الذى يكون أبلغ فى التذكير . وأدعى إلى التأثير . وقد رجع الباحثون فى التاريخ إلى مثل هذا الأسلوب ، وذكروا أنه سيأتى على الناس زمان يصعب عليهم فيه ترتيب الأحداث بحسب تواريخها . لتباعد الزمن وتعدد النقل . وذكروا أن المستحسن هنا هو النظر فى كل حادثة مع بيان أسبابها ونتائجها من غير تفصيل للجزئيات . لأن ترتيب الوقائع هو من الزينة فى وضع التأليف . فلا يتوقف عليه الاعتبار ، وقد يصد عنه بما يكلف الذهن من ملاحظته وحفظه ، فهذا ضرب من ضروب الإصلاح العلمى جاء به القرآن الكريم ، وأيده سير الاجتماع فى الإنسان .

ولذلك لم تلتزم قصص القرآن ترتيب بعض المؤرخين ، ولا طريقة الكاتبين فى تنسيق الكلام وترتيبه ، وإنما يساق بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب . ويحرك الفكر إلى النظر تحريكاً ، ويهز النفوس للاعتبار هزاً .

ولا يراد بالقصة القرآنية إرضاء الخيال ، أو التحليل الأدبى ، أو التصوير البيانى ، أو المتعة الفنية . أو التسلية الوقتية . أو مجرد المفاجأة بالأحداث والوقائع .

والمشاهد أن القصص القرآنية موزعة فى تضاعيف القرآن المجيد ، ملتحمة بالموضوعات الأخرى ، ولعل ذلك قد حدث ليكون القرآن كلا مجتمعاً متمازجاً متماوجاً ، يرتبط بعضه ببعض . ولم يأت أجزاء منفصلة منعزلة ، يستقل بعضها عن بعض .

وينبغى أن نعلم أن القصة القرآنية تتخذ مساراً متميزاً من حيث الطول والتوسط والقصر .

وهي فى اتخاذها مسارها المحدد المعين تسير على حسب خطة مرسومة وهدف مقصود. وليس بصحيح ما يحسبه أهل النظر العابر والتفكير القاصر، من أن القصة فى القرآن تتكرر أو تعاد، بل هى تتناثر خلال روضة القرآن كتناثر اللآلئ المفردات. فتساق جوانب من القصة هنا وهناك وهنالك، وفى كل موطن تتركز العناية والاهتمام على عنصر خاص، أو عناصر بعينها، يراد تجليتها والتركيز عليها، لمناسبة من المناسبات، أو حكمة من الحكم، أو سبب من الأسباب، ولذلك نجد تفسير «فى ظلال القرآن» يقول هذه العبارة: «يرد القصص فى القرآن فى مواضع ومناسبات، وهذه المناسبات التى يساق القصص من أجلها هى التى تحدد مساق القصة، والحلقة التى تعرض منها والصورة التى تأتى عليها، والطريقة التى تؤدى بها. تنسيقاً للجو الروحى والفكرى والفنى الذى تعرض فيه. وبذلك تؤدى دورها الموضوعى، وتحقق غايتها النفسية، وتلقى إيقاعها المطلوب. ويحسب أناس أن هناك تكراراً فى القصص القرآنى، لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها فى سور شتى. ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة، أو حلقة من قصة قد تكررت فى سورة واحدة، من ناحية القدر الذى يساق، وطريقة الأداء فى السياق، وأنه حيثما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه، ينفى حقيقة التكرار، ويزيغ أناس فيزعمون أن هنالك خلقاً للحوادث أو تصرفاً فيها، يقصد به إلى مجرد الفن — بمعنى التزويق الذى لا يتقيد بواقع — ولكن الحق الذى يلمسه كل من ينظر فى هذا القرآن، وهو مستقيم الفطرة، مفتوح البصيرة، هو أن المناسبة الموضوعية هى التى تحدد القدر الذى يعرض من القصة فى كل موضع، كما تحدد طريقة العرض وخصائص الأداء، والقرآن كتاب دعوة، ودستور نظام، ومنهج حياة، لا كتاب رواية ولا تسلية ولا تاريخ، وفى سياق الدعوة يجىء القصص المختار، بالقدر وبالطريقة التى

تناسب الجو والسياق . وتحقق الجمال الفنى الصادق . الذى لا يعتمد على الخلق والتزويق . ولكن يعتمد على إبداع العرض وقوة الحق وجمال الأداء».

وقصص القرآن قائمة على الحق . والعلم ، والعبرة . وهى أحسن القصص وقد أكد القرآن المجيد ذلك أكثر من مرة فقال فى سورة آل عمران : « إن هذا لهو القصص الحق » وقال فى سورة الكهف : (نحن نقص عليك نبأهم بالحق (وقال فى سورة الأعراف :(فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) وقال فى سورة يوسف : (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) وقال فى السورة نفسها : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) .

والقصة القرآنية قد تتراوح بين الأطناب المناسب والتوسط والإيجاز ، وقد يأتى ذلك فى قصة بعينها ، يذكر القرآن منها نمطاً فيه تفصيل . ونمطاً آخر فيه توسط ، ونمطاً ثالثاً فيه إيجاز ، وكل نمط من هذه الأنماط يتعاون مع بقية الأنماط . دون تكرار ممل . أو خلل معيب . وأظهر مثل ذلك قصة موسى عليه السلام . فقد أطنب القرآن بذكر جوانب مبسوطة منها فى سورتى « الأعراف » و « طه » . وذكر جوانب منها متوسطة الطول فى سورة الشعراء . وعرضها موجزة مركزة فى سورة « النازعات » حيث قال سبحانه : (هل أتاك حديث موسى * إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى * إذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى * فأراه الآية الكبرى * فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى * إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) .

ومن القصص التى سيقت فى القرآن المجيد بتوسط أقرب إلى القصر ما ورد

فى سورة الكهف . وهى سورة متوسطة الطول . مجموع آياتها مائة وعشر آيات . وقد ورد فيها ثلاث قصص هى : قصة أهل الكهف . وقصة موسى مع فتاه والعبد الصالح . وقصة ذى القرنين . ونحب أن نشير إلى القصة الثانية من هذه المجموعة القصصية . ونؤكد أنها نموذج للقصة القصيرة الرائعة التى تحتشد بالحركة والصراع والمفاجآت والإيحاء . وهى تشغل أقل من صفحتين من صفحات المصحف الشريف . وهذه القصة كما جاء فى كتاب « القصص الهادف » هى قصة الرحلة فى طلب العلم . والاجتهاد فى كشف الحقائق والأسرار . وهى قصة الموازنة بين ما نعلم وما لا نعلم . وما ندرك من الأسباب الظاهرة . وما يغيب عنا من الأسباب الخفية . وهى فى الحقيقة قصة الحياة ومن فى الحياة . فكم من حادث تقع فى هذا الكون لا نعرف أسبابه . ولا نعرف منطقه ولا حسابه . فيأخذنا العجب . وربما ثرنا كما ثار موسى حين رأى خرق السفينة . وقتل الغلام ، وإقامة الجدار . ولو كشف الله لنا عن جانب من حكمته . وآتانا من عنده رحمة . وعلمنا من لدنه علماً . كهذا العبد الصالح الذى صحبه موسى . لذقنا من لذة العرفان ما ذاق ، ومن ذاق عرف . ومن عرف لزم .

وربما سأل سائل فقال : ولكن سورة بأكملها إلا قليلا منها ، قد خصصها القرآن لا يراد قصة واحدة . مع أن آياتها تزيد على المائة ، وهى قصة يوسف عليه السلام . ونستطيع أن نفهم — وفوق كل ذى علم عليم — أن السر فى هذا الإطناب يرجع إلى أن القصة تتعلق بالعفة والأمانة والأخلاق ، ولأنها نموذج رائع للإنسانية المتحصنة بالصيانة والسمو والتأبى أمام سعار الشهوة . وثورة الجنس . ولذلك رأى القرآن أن يجعلها درساً أخلاقياً باقياً لا يهمه فيه سرد الأحداث بل يهمه أولا وقبل كل شىء ضرب القدوة العليا

فى التعفف والتصون : (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) .

والقرآن الكريم قد أحسن صنعاً حين استخدم القصة وسيلة مشوقة جذابة لشرح عقيدة التوحيد ، التى ينهض على أساسها عماد الإسلام ، لأن الإسلام قد جاء ليدعو الناس إلى أمرين مهمين هما كلمة التوحيد : « لا إله إلا الله » ، وتوحيد الكلمة : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) .

ولهذا استخدم القرآن القصة القصيرة الموجزة فى رسم الطريق للاهتداء إلى الله ، والتعرف إلى الباب المفتوح على رحاب الربوبية الحقة الجديرة بالعبادة ، فانظر إلى القرآن حيث يقول فى سورة الأنعام عن إبراهيم أبى الأنبياء : (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، قال هذا ربى . فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لإن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين * وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً ، وسع ربى كل شىء علماً أفلا تتذكرون » .

ويعود القرآن إلى استخدام القصة القصيرة وسيلة إلى تبيان قدرة الله على الخلق والرزق ، وعلى الإحياء والإماتة ، وعلى البعث بعد الموت ، فيقول فى سورة البقرة : (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك . إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت ، قال أنا أحيى وأميت . قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين * أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ،

قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، قال كم لبثت ، قال لبثت يوماً أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً ، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير) .

واستخدم القرآن أسلوب القصة لبيان العبادات ، والتنفير من السيئات والتحريض على المكرمات ، فهذه مثلا هى الزكوات والصدقات وتأدية حقوق الله فى المال والكسب ، يريد القرآن ليثبتها فى النفوس والقلوب عن طريق القصة الواعظة الرادعة ، فيقول فى سورة القلم : (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين * ولا يستثنون * فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم * فتنادوا مصبحين * أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين * فانطلقوا وهم يتخافتون * أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين * وغدوا على حرد قادرين * فلما رأوها قالوا إنا لضالون * بل نحن محرومون * قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون * قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين * فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون * قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين * عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون * كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) .

* * *

ونرى القرآن المجيد تارة يجعل طرفى القصة فيه — أو بطليها بتعبير العصر — الأب وابنه ، ويجعل الأب صالحاً والابن طالحاً ، كما فى قصة نوح وابنه التى ذكرها القرآن فى إيجاز ضمن قصة الطوفان التى أوردها فى سورة هود ، وفيها يقول : (ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن

مع الكافرين * قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين * وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين * ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين * قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ، فلا تسألنى ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين * قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين * قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم * تلك من أبناء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) .

وتارة يأتى القرآن فى القصة بالصورة المقابلة للصورة السالفة ، فيكون الطرفان — أو البطلان — هما الأب والابن ، ولكن الأب فى هذه المرة هو الفاسد ، والابن هو الصالح ، وفى ذلك من التلوين والتنويع ، وإظهار المقابلات ما فيه . يقول الله تعالى فى سورة مريم : (واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً * إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً * يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً * يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً * يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً * قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى ملياً * قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفياً * وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً * فلما اعتزلهم

وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً . ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً) .

واستخدم القرآن الكريم القصة القصيرة فى تثبيت روابط الأسرة ، والتنفير من التمرد على الوالدين ، ومخالفتهما فى طريق الهداية والحق . وقد مهد لهذه القصة الموجزة جداً بمقدمة زاجرة واعظة . فيها تذكير بحق الوالدين على الولد ، وواجبه فى شكر نعمة الله ، وإحسان المعاملة لوالديه . فقال فى سورة الأحقاف : (ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين . أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون . والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين . أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين . ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون) .

* * *

ولقد عنى القرآن الكريم أول ما عنى فى قصصه بأنباء رسل الله وأنبيائه ، تثبيتاً لفؤاد الرسول ﷺ ، وتسلية لقلبه ، وتذكيراً بما حدث لهم مع أقوامهم من صراع أو حوار أو وفاق أو شقاق . وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى أكثر من موطن . فقال فى سورة النساء مثلا : (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً) . وقال فى سورة هود : (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه

الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) . وكذلك عنى القرآن بقصص السابقين الأولين ، لما فى ذلك من تذكر للماضى ، واستحضار لدروس الأيام الخوالى ، فقال فى سورة الأعراف : (تلك القرى نقص عليك من أنبائها) . وقال في سورة هود : (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد) . وقال فى سورة طه : (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً) .

والقصة كما يحدثنا القرآن كانت طريفة معروفة عند الرسل حتى قبل تكليفهم بالرسالات ، وهذا هو القرآن يحدثنا فى سورة القصص عن موسى قبل بعثته ومحاورته مع شعيب فيقول : (فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) .

* * *

والقصة فى القرآن المجيد لا تغفل شخصية المرأة ، ولا تغفل ناحية الحب ، ولكن القرآن لا يذكر هذا العنصر للمتعة أو الشهوة أو الإثارة أو الجنس ، بل يذكره للعبرة والعظة . فقد يجعل المرأة فى قصة يوسف امرأة هلوكاً ، مترامية فى شهواتها إلى حد بعيد ، على حين يجعل أمامها العفة المقاومة والفضيلة المحصنة . وقد تحدثت بتوسع عن هذه القصة فى باب عنوانه : « من قصص الحب فى القرآن » من كتابى « من أدب القرآن » وهناك قلت فيما قلت : « لكن هناك فى القرآن المجيد قصة حب عجيبة رائعة : هى قصة حب امرأة العزيز ليوسف عليه السلام . وقد صدر كتاب الله العلى الأعلى قصة يوسف بآية تدل على روعتها ، يقول فيها الحق جل جلاله : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) وقصة يوسف — فوق ما فيها من العبرة والعظة والتوجيه — يجتمع فيها الخصائص

الفنية للقصة كما يعبرون ـ فهى حافلة بالحركة ، والصراع ، والأحداث ، وفيها عناصر الانفعال ، والتشويق ، والمفاجأة . . . إلخ » .

وإما أن يجعل القرآن المرأة فى بعض قصصه مثلا سامياً فى التصون والتعفف ، والرمز الكريم إلى تقدير الرجولة المستقيمة ، كما فى قصة موسى مع ابنة شعيب ، ويوجز القرآن تصوير موقف لها من قصة معها بهذه الآية من سورة القصص : (قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) . وقد يجعل القرآن المرأة فى القصة عنواناً للأمومة الحانية كما جاء فى سورة القصص عن أم موسى : (وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين * وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ؛ وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون * فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون) .

وأحياناً يجعل القرآن المرأة فى القصة عنواناً يمثل النذر الخالص بالذرية لوجه الله تعالى : (إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى إنك أنت السميع العليم * فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) .

وأحياناً يجعل القرآن المرأة فى قصته تمثل الطهر والصفاء فيقول فى سورة التحريم : (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) .

وتارة يجعل القرآن المرأة مثلا فى احتمال الأذى من أجل العقيدة والإيمان ، كما تحدث عن امرأة فرعون فقال : (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة

فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين) .

ومن قبل ذلك لم يغفل القرآن ضرب مثل قصصى زاجر لامرأة السوء حينما تنحرف ، فقال : (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين) .

أما بعد فهذا طرف من الحديث عن القصة فى كتاب الله العزيز ، ولها بعد ذلك أطراف وأطراف ، والحديث فى هذا المجال ذو شجون ، تتوارد فيه خواطر وشئون ، ولكنا لا يصعب علينا إدراك التوجيه القرآنى إلى مكانة القصة ، وأثرها فى القلوب والنفوس ، ولن يصعب علينا أن نفهم هذا ضمن ما نفهمه من قول الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ : (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) .

وعلى الله قصد السبيل .

* * *

أضواء من القرآن الكريم أمام حياتنا المعاصرة

السؤال :

كيف ينير القرآن طريق الحياة ؟

الجواب :

(إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) .

هكذا عبر القرآن عن القرآن ، وما أبلغه من تعبير .

ولم يكن عبثاً أن وصف الحق جل جلاله كتابه المجيد بأنه نور ، وأنه روح ، وأنه بصائر ، وأنه كما عبر أصدق القائلين . (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) .

فالقرآن هو القائد ، وهو الرائد ، وهو العائد على الإنسانية بالفضل العظيم ، والخير العميم .

والقرآن هو الذى سما بمكانة الإنسانية ، وعلا بالمرتبة البشرية ، وحسبنا أنه الذى يقرر عن رب العزة الخالق البارئ المصور : (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) .

ومن مظاهر هذا التكريم الربانى القرآنى أنه وثق أعمق الروابط والوشائج بين أفراد الإنسان ، وجعل هذه الروابط متنوعة شاملة ، فهى إما قرابة نسب ومصاهرة ، أو قرابة نسب ودم ، أو قرابة دين وعقيدة ، أو قرابة إنسانية وآدمية . وجعل لكل رابطة من هذه الروابط حقوقاً وتبعات ، إذا قام بها صاحبها على الوجه السليم زادت الإنسانية كرامة وعزة ، .

وقرابة النسب والمصاهرة هى القرابة التى تنشأ عن الزواج ، فهذا ذكر وأنثى ، يلتقيان فيتعارفان فيتآلفان ، فيرتبطان باسم الله واسم دينه ، ارتباطاً زوجياً له حرمته ومكانته ، فإذا حقوق وواجبات يتبادلها الطرفان فى محبة وإخلاص .

ويصور القرآن الكريم ذلك بقوله : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) . بل أشار القرآن المجيد إلى أن هذه المشاركة العاطفية والمادية بين

الزوج وزوجته كانت منذ بدء الخليقة . وينبغي أن تستمر إلى نهايتها : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة . وكلا منها رغداً حيث شئتما) . وكرر القرآن ذكر هذا المعنى فى عدة مواطن . كما قرر أن الزوجة خلقت من الزوج عدة مرات . وأبان أن عماد الحياة هو « الزوجية » فقال : (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) .

فإذا انتقلنا إلى قرابة النسب والدم التى تقوم على الأمومة والأبوة والبنوة وجدنا الإسلام يحكم الروابط بين الأصول . وهم الآباء والأجداد ، والفروع وهم الأولاد والأحفاد . وما حول هؤلاء من قربات ، وهو يرفع مكانة « الوالدين » إلى القمة ، فيجعلها عقب مكانة العبادة لله : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) .

ويقرر القاعدة الأصيلة الجليلة : الأقربون أولى بالمعروف . فيقول القرآن الحكيم : (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) . ويأمر المؤمنين بأن يحرصوا على صيانة أسرهم وعائلاتهم . ورعاية أقاربهم وأهليهم فيقول التنزيل :

(يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) . ويقول رسول الله ﷺ عن الأقارب وذوى الأرحام فى الحديث القدسى الذى يرويه عن ربه تبارك وتعالى : (أنا الرحمن . وهذه الرحم . شققت لها اسماً من اسمى ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته) .

وصب القرآن اللعنة على من يقطع رحمه . ويهمل أقاربه ، فقال : (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) .

ثم تأتى قرابة الدين والعقيدة ، فنجد الإسلام يعطى هذه القرابة أشرف

الأماكن وأسمى المنازل ، بل يعطيها أروع صورة من صور التطبيق التضامنى فى تاريخ الإسلام الطويل ، حيث كانت المؤاخاة البنوية بين المهاجرين والأنصار عقب الهجرة مثلا خالداً على الدهر للوفاء بحقوق القرابة فى الإيمان واليقين : (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) .

ويزكى القرآن المجيد هذه القرابة الإيمانية فى أكثر من موطن ، فيقول :

(إنما المؤمنون إخوة) .

(فأصبحتم بنعمته إخواناً) .

(إن هذه أمتكم أمة واحدة) .

(فأصلحوا بين أخويكم) .

(فإن تابوا وأقاموا الصلاة فإخوانكم فى الدين) .

ويأتى الرسول ﷺ فيزيد هذه القرابة تكريماً وتأييداً ، فيقول : « المسلم أخو المسلم . لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يسلمه » . ويقول : « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » .

ويقبل البصراء من أبناء الإسلام ليظهروا افتخارهم واعتزازهم المتين بهذه القرابة ، فيقول قائلهم :

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

ويقول الآخر مفضلا نعمة الإسلام على كل شىء :

ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى

وكان سلمان الفارسى – رضى الله عنه – يعتز بنعمة الإسلام كل الاعتزاز ، حتى يجعله والده وأباه ، فيقول :

« أنا سلمان ابن الإسلام » ! ! . . .

وقرابة الإيمان هذه هى التى جعلت أخت عمر بن الخطاب تفضل زوجها المؤمن على أخيها المشرك حينئذ ، وتقول لأخيها إنه بإشراكه نجس ، وكان من فضل الله عليه أن أسلم وتطهر ، فصار لديها عزيزاً كريماً .

وقرابة الإيمان هى التى جعلت « أم حبيبة » زوجة الرسول ﷺ تمنع والدها أبا سفيان أن يجلس على فراش النبى الطهور ، لأن والدها كانت فيه نجاسة الشرك حينئذ .

وقرابة الإيمان هى التى جعلت « عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول » يعرض على الرسول أن يقطع بيده رأس والده المنافق ، ويقدمه بنفسه إلى الرسول ﷺ .

وقد فضل القرآن علاقة الدين والإيمان على علاقة الأبوة والبنوة والمصاهرة فقال : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين) .

وقد ذكر القرآن أن الصداقة القائمة على الاتفاق فى الإيمان والتقوى هى أبقى الصداقات وأزكاها : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين * يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) .

والتنزيل الحكيم بعد هذا ومعه يقرر الأصل الوطيد للارتباط عن طريق

الإيمان والعقيدة بقوله : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم) .

ثم تأتى أخيراً قرابة الآدمية والإنسانية ، فإذا القرآن المجيد يعلم البشرية أن كل إنسان بينه وبين أخيه الإنسان رابطة قرابة من ناحية الأصل الواحد ، والأب الأول الواحد وهو آدم ، والأم الواحدة الأولى هى حواء ، فيقول كتاب الله تعالى فى مفتتح سورة من أطول سور القرآن ، وهى سورة النساء : (يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً) .

ويأتى أستاذ الإنسانية ومعلم البشرية محمد ﷺ ، فيحث المسلم على أن يصون حقوق هذه الأخوة الإنسانية الشاملة ، فيقول : « خير الناس أنفعهم للناس » .

ويقول : « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

ويعلمه أيضاً أن هذه النفس البشرية لها حقها وحرمتها — حية أو ميتة — فقد أدب الإسلام المسلم بأن يقف للميت إذا مرت عليه جنازة ، حتى ولو كانت لإنسان غير مسلم . ولقد حدث أن وقف سيدنا رسول الله ﷺ لجنازة شخص غير مسلم مرت عليه ، فقالوا له : يا رسول الله ، إنها لغير مسلم .

فاستنكر الاعتراض ، وقال : أليست نفساً .

وهكذا يقيم الإسلام أكرم العلاقات وأوثق الروابط بين الإنسان والإنسان. سواء أكانت بين الاثنين قرابة بالسبب والمصاهرة كالزواج ، أو بالنسب والدم كالأصول والفروع ، أو بالعقيدة والدين، أو برابطة الآدمية والإنسانية

والإسلام يطالب المسلم بأن يكون مصدراً لكل هؤلاء الأقارب على اختلاف درجاتهم ومستوياتهم فى القرابة .

يطالبه بذلك الحق لنفسه وأهله أولا ، فيقول الحديث الشريف : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » .

يطالبه بذلك لجيرانه ، فالحديث يقول : « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

يطالبه بذلك لأهل دينه ، فالحديث يقول : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » .

يطالبه بذلك للإنسانية المستحقة للمعاونة ، فالحديث يقول : « تصدقوا على أهل الأديان كلها » .

* * *

وهذا المنهج الربانى . أو ذلك التخطيط القرآنى . يودعه الحق سبحانه أمانة غالية بين أيدى الأمة المؤمنة . التى يطالبها ربها بأن تكون أول مجموعة من البشر . تعى هذا المنهج وتؤمن به . وتقبل على تنفيذه وتطبيقه ، حتى تكون بهذا الالتزام التطبيقى قدوة عملية لغيرها من الأمم ، وشاهدة على سواها من الشعوب .

ومنها خاطب الله تبارك وتعالى أمة الإيمان والإحسان بقوله لها :

(وكذلك جعلنا كم أمة وسطاً لتكونو اشهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً)

و « الأمة » — كما يقول المفسرون — هى الجماعة التى تؤم . أى تقصد جهة معينة . فتكون موحدة الصف موحدة الهدف ، موحدة المسيرة ،

فوحدة الوسيلة. و «الوسط» هو العدل والخير، لأن وسط الشيء هو خياره، ووسط الوادى هو خير موضع فيه، وأكثره ماء ونباتاً، وواسطة العقد هى خير جوهرة فيه، والرسول أوسط قريش نسباً، أى خيرهم، والقرآن يقول: (قال أوسطهم) أى أعدلهم وأفضلهم، والرسول يقول: « خير الأمور أوساطها ».

والوسط فى الحقيقة هو البعد عن الطرفين بعداً متساوياً، والطرفان هما الإفراط والتفريط، فالإنسان الوسط يبعد عن الإسراف بعداً مساوياً تماماً لبعده عن التقصير.

فكأن الوسط يوجد فيه معنى الانضباط، والاستقامة، والاستواء على الصراط المستقيم، والمؤمن الحقيقى هو الذى يمضى فى طريقه على خط معتدل لا يميل عنه ولا يضل فيه، فلا هو يغلو ويسرف، ولا هو يقصر أو يجحف.

ولذلك علم الله عباده أن يدعوه كل يوم عدة مرات قائلين فى الصلوات: (اهدنا الصراط المستقيم • صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين).

وحين قال الحق تعالى لأمة الإيمان: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) كأنه يقول لأبنائها — وهو أعلم بمراده —: لقد أردتكم خياراً عدولا، يزكيكم العلم والعمل، وتجمعكم كلمة التوحيد، ويعزكم توحيد الكلمة، وتزينكم خصالكم الحميدة التى تضبط خطوات أصحابها، فتجعلكم فى الوسط الصحيح السليم القويم، فهم ينهضون بكل الواجبات، وهم يحذرون كل المنهيات، والله من وراء الجمع مرشد ومعين.

ثم قال الحق تعالى لأبناء الإسلام: (لتكونوا شهداء على الناس).

والشهادة درجة خطيرة ومنزلة جليلة، فيها يقبل حكم الإنسان على غيره

فى دينه وعمله ، والرسول ﷺ يقول : « من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ، ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النار . أنتم شهداء الله فى الأرض . أنتم شهداء الله فى الأرض ، أنتم شهداء الله فى الأرض » !

ثم تلا قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً . لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً) .

وهذه الشهادة تقتضى أن يكون الشاهد صالحاً لها ، جديراً بها . قادراً عليها ، فيكون فاضلا عادلا ، له شمائل ينفرد فيها ، وفضائل يتحلى بها . حتى تكون له مزية على غيره . فيصلح لإبداء الشهادة على سواه .

وشهادة الأمة الإسلامية على غيرها من الأمم . فيها معنى الإشراف والتوجيه والقيادة ؛ فلا بد لها من منهج وخطة . ولا بد أن يكون لديها قيم وموازين ، فهى الأمة الحاكمة الفاصلة ، التى تقضى بين الأمم . وتقوم اعوجاجها ، وفاقد الشىء لا يعطيه ، ولن يستقيم الظل والعود أعوج .

فإذا كانت هذه الأمة مسئولة عن تقويم غيرها . فلا بد أن تكون قويمة فى نفسها . وأن تكون كما أراد لها خالقها . أمة وسطاً . أى معتدلة فى أمورها مستقيمة فى اعتقادها . وتفكيرها ، وتصرفها ، فقد هيأ الله لها أسباب « الوسيطة » فى كل شىء . حتى فى مكانها وموقعها من العالم ، فجعلها وسطاً بين الشرق والغرب ؛ لتكون بعقلها . وفضلها . وعملها ، الصمام ، والزمام ، والإمام لمن فى الشرق ومن فى الغرب ، وتلك مكانة عليا ، مرهقة متعبة ، لها تبعاتها ومشقاتها وواجباتها : « إن العظائم كفؤها العظماء » ! .

وإذا كانت هذه الأمة الإسلامية مطالبة بأن تكون شاهدة على الناس ، فإنها فى الوقت نفسه مشهود عليها ، وهى مشهود عليها من أكرم شاهد ، وأكمل نموذج للإنسانية الطاهرة الفاضلة : إن الشاهد عليها هو الصادق

المصدوق بسيدنا رسول الله ﷺ : (ويكون الرسول عليكم شهيداً) .

فالرسول يشهد لهم أو عليهم ، ومكانته فوق مكانتهم ، وفضائله أكثر من فضائلهم ، ولذلك صلح للشهادة عليهم.. وهو يشهد بأنه قد بلغهم الرسالة ، وأدى الأمانة ، ولعل هذا هو بعض السر فى تكرير الرسول قوله : « ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد » !

وهو كذلك يشهد بالإيمان لمن صدق واستجاب ، واهتدى واستقام ؛ ليكون ذلك تزكية للمتقين عند ربهم ، والأمر من بعد هذا ، ومن قبله ، بيد الله وحده ، يفعل ما يشاء ويختار : (له الحكم وإليه ترجعون) .

ورسول الله الشاهد على أمته ، هو الذى يقول لها :

« أنا فرطكم على الحوض ، من مر على شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً ، وليردن على أقوام أعرفهم ويعرفوننى ، ثم يحال بينى وبينهم ، فأقول : يا رب ، إنهم منى [أى يقولون إنهم من أمتى] .

فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك ، فأقول : سحقاً سحقاً لمن غير بعدى » !

وهو الذى يقول لأمته : « خيركم قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون [لا يدعون للشهادة لعدم أهليتهم لها] ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يفون ، ويظهر فيهم السمن » ! .

وما أشد الموقف ، وأعظم الهول ، حينما تقف الأمة أمام رسولها ، ليشهد عليها عند ربها : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) ؟ !

جاء فى السنة أن رسول الله ﷺ ، أمر عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، أن يقرأ عليه من القرآن ، فقال بن مسعود كالمتعجب : أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ !

قال الرسول : إنى أحب أن أسمعه من غيرى .

فشرع ابن مسعود يقرأ من سورة النساء ، حتى إذا بلغ قوله تعالى : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) قال له الرسول : أمسك .

فرفع ابن مسعود رأسه فرأى دموع النبي تسيل .

قال العلماء : بكاء النبى ﷺ إنما كان لعظم ما تضمنته هذه الآية من هول المطلع وشدة الأمر ، إذ يؤتى بالأنبياء شهداء على أممهم بالتصديق والتكذيب ، ويؤتى به ﷺ يوم القيامة شهيداً ! !

* * *

ومن المعروف فى فقه الإسلام أن الإنسان لا يصلح للشهادة فى الأمور القضائية الدنيوية بمجرد كونه مسلماً ، أو لقوله أنا مسلم ، بل لا بد أن يكون مرضياً فى أخلاقه وسلوكه ، وأن يكون عادلا منصفاً ، لأن الله تبارك وتعالى يقول فى وصف الشهداء : (ممن ترضون من الشهداء) . ويقول : (وأشهدوا ذوى عدل منكم) .

والعدل هنا — كما قال المفسرون — هى صفاء السريرة ، واستقامة السيرة ، وتجنب الكبائر ، والتزام الفضائل .

فكيف — إذن — بشهادة أمة على غيرها من الأمم ؟ وهل تجرؤ هذه الأمة حقاً على أن تقف موقف الشهادة على سواها ، قبل أن تسائل نفسها :

أتستحق أن تكون شاهدة أم لا ؟ وهلا يكون من العدل – إن كان لا بد لها من شهادة – أن تشهد على نفسها ، قبل أن تحاول التعرض للحكم على من عداها ؟

* * *

ولو أننا استضأنا بأضواء القرآن الكريم لفهمنا أن الإيمان فى تعبير القرآن يقترن به العمل الصالح ، حتى تكررت عبارة : (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) عشرات المرات . ومعنى هذا أنه لا يكفى أن نضع المنهج ، ونرسم الخطة ، بل لا بد من العمل والتطبيق ، ولا بد من وجود نوع خاص من العاملين ، تتوافر فيهم الصفات التى تؤهلهم من النهوض السليم بتنفيذ المنهج والخطة .

ولذلك نرى من أهم واجبات المجتمع الفاضل أن يدقق فى اختيار طوائف العاملين فى مختلف المجالات والقطاعات حتى يضمن بذلك حسن الأداء للواجبات ، وبراعة الإتقان للأعمال ، ولذلك نجد من المألوف أن كل قطاع من قطاعات العمل يضع شروطاً معينة ، وصفات محددة ، لمن يريد هم من العاملين فى نطاقه ، وقد نبدع فى وضع الشروط وتعداد الصفات ، ولكننا عند التطبيق وتحكم الهوى ، قد نغمض العين عن قليل أو كثير من هذه الأمور !

ولو رجعنا إلى القرآن لنستبصر بأضوائه ، لوجدناه يركز الصفات الحسنة للعامل الممتاز فى أمرين أساسين ، هما عماد كل خير يرجى من وراء جهد العامل . هذان الأمران هما : القوة ، والأمانة .

ولذلك يقول القرآن الحكيم عن بنت شعيب عليه السلام ، حينما خاطبت أباها فى شأن موسى عليه السلام :

(قالت إحداهما يا أبت استأجره، إن خير من استأجرت القوى الأمين) :

والمراد بالقوة هنا ــ والله أعلم بمراده ــ ما تشمل القوة الحسية البدنية ، لأن المريض أو الضعيف أو الناقص حسياً ، لا يجيد أداء الواجب على الوجه المنشود . ويشمل القوة الذهنية ، لأن هناك أعمالا تتطلب طاقة عقلية أو فكرية خاصة ، ويشمل قوة الملاحظة والمراقبة والانتباه ، لأن بعض الواجبات يستلزم انتباهاً ويقظة .

وكذلك كل لون من ألوان القوة المتعددة الأشكال والأنواع ، بقدر تعدد الواجبات وتنوع الأعمال ، ولذلك قال الإمام بن تيمية : « القوة فى كل ولاية بحسبها » . والمراد بالولاية هنا العمل الذى يتولى الإنسان أداءه .

وأما الأمانة فيقصد بها الإخلاص فى العمل ، مع الحصانة فى الأخلاق ، مع الصيانة للتبعات ، ومراقبة الله تعالى فى كل الأمور ، لأن هذه الأمانة هى التى تحقق مرتبة « الإحسان » الذى يصفه سيدنا رسول الله ﷺ بقوله : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وعندما تعرضت فى كتابى « أخلاق القرآن » لتفسير قوله تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا) قلت إن «الأمانة بمعناها الأخلاقى شعور بالتبعة ، واحتكام إلى الضمير اليقظ ، ونهوض بالرعاية لكل ما فى عهدة الإنسان من شىء حسى أو معنوى ، وكأن الحديث النبوى يرمز إلى هذا المعنى حين يقول : « كلكم راع ، وكل راع مسئول عن رعيته » .

وقد عبر يوسف عليه السلام عن هذين الشرطين اللازمين لمن ينهض بعمل له قيمته ومكانته : القوة والأمانة ، فقال لحاكم مصر على عهده :

(اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم) . والحفظ للشيء يتحقق عن طريق الاقتدار عليه ، والاقتدار يستلزم القوة ، والعلم الصادق الناشيء عن المعرفة المستقيمة يؤدى إلى الإخلاص والأمانة والتقدير الواعي للواجبات.

ولقد اضطر يوسف عليه السلام إلى أن يقول هذا عن نفسه ، حينما رأى الموقف يستلزم وجود مثله على هذه الخزائن ، لاليستغل وظيفته ، ولا ليخون أمانته ، ولا ليبتز عن طريقها أموال غيره ، بل للخير والإصلاح .

ولعله علم — كما يذكر بعض المفسرين — أنه لا أحد يقوم مقامه فى العدل والإنصاف ، فرأى ذلك متعيناً عليه ، فليس ذلك تزكية للنفس ، أو حباً للذات ، ولكنه التطلب للإتقان ، والرغبة فى الإصلاح والإحسان !

وإذا تدبرنا الأمر وجدنا أن « القوة » فى العامل ، لا تغنى عن « الأمانة » كما أن « الأمانة » لاتغنى عن « القوة » . فكم من قوى يقتدر حسياً على كثير من الأعمال . ولكنه بخيانته يسيء ويفسد ، فيكون ضرره بخيانته أكثر من فائدته بقوته ، وكم من أمين فى العمل ، ولكنه جاهل أو عاجز عن إتقانه ، أو قليل التجربة فيه والتدرب عليه .

ولذلك كان عمر الفاروق رضى الله عنه يتألم حين يرى رجلا أميناً ولكنه ضعيف . وبجواره شخص قوى غير أمين ، فيدعو ربه قائلا : « اللهم إنى أشكو إليك ضعف الأمين وقوة الخائن » ! ويالها من كلمة ! .

ولقد تعب عمر رضوان الله عليه فى اختيار العمال الأقوياء الصالحين فى بعض البلاد ، كالكوفة مثلا . حتى قال : « أعيانى أهل الكوفة ، إن استعملت عليهم ليناً استضعفوه ، وإن استعملت عليهم شديداً شكوه . ولوددت أنى وجدت رجلا قوياً أميناً مسلماً أستعمله عليهم » !

ولا شك أن اختيار العامل للعمل تبعة يحاسب عليها القائم بها من شعبه

ومن ربه ، فمن واجب الذى يختار أن يكون أميناً دقيقاً فى الاختيار لايخضع لغرض أو مرض أو هوى ، ولا يدع الضعيف العاجز يتمكن من مجال العمل فيفسده ويتلفه ، وخاصة إذا كان العمل له خطورته وأهميته .

ولقد سأل بعض الصحابة رسول الله — ﷺ — أن يوليه عملا فى ولاية ، فرفض النبي ذلك ، لعدم صلاحية الرجل ، وقال له النبى : « إنك ضعيف ، وإنها [أى الوظيفة أو العمل] أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذى عليه فيها » !

ولو أننا أبعدنا (القوى الأمين) عما يمهره من عمل أو واجب ، وأعطيناه من هو أضعف منه قوة ، أوخلقاً ، أو إنتاجاً ، أو صبراً على بذل الجهد ، لكان ذلك لوناً صارخاً من الانحراف والخيانة ، ولذلك يقول سيدنا رسول الله : « من ولى من أمر المسلمين شيئاً . فولى رجلا ، وهو يجد من هو أصلح للمسلمين ، فقد خان الله ورسوله » !

بل عد الرسول إسناد الأعمال لمن لايحسنونها ، وإهمال من يمهرونها ، دليلا على قرب نهاية الدنيا ، لاضطراب الموازين ، واختلال الأوضاع ، فقال : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة . قيل : يارسول الله، وما إضاعتها؟ فقال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله [الجديرين به] فانتظر الساعة » .

ولذلك لايجوز شرعاً أن تكون هناك « محسوبية » ، أو مراعاة للقرابة أو الموادة فى اختيار العاملين لمختلف الأعمال ، لأن ذلك يؤدى إلى الفساد والضياع ، ولذلك قال عمر : « من استعمل رجلا [أى ولاه عملا] لمودة أو قرابة — لايستعمله إلا لذلك — فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » .

ويجب أن نطيل التفكير والتدبر فى قول عمر : « لايستعمله إلا لذلك » ، لأنه ليس هناك مايمنع من تولية القريب أو الصديق ، إذا ماتوافرت فيه

صفات العامل الصالح للعمل ، القادر على الصبر فى الإنتاج وأداء الواجب ؛ والرقيب هنا هو الله جل جلاله ، الذى يعلم السر والنجوى .

وكذلك نلاحظ أن الإسلام منذ عهد الخلفاء الراشدين قد عرف نظام « التكليف بالعمل » ، حيث يرغم العامل القوى الأمين على أن يؤدى الواجب القادر عليه ، إذا احتاج المجتمع إليه ، وإذا لم يوجد غيره يسد مسده ؛ أو يؤدى الواجب مكانه .

ومن قواعد الإسلام أنه تعين شخص لأداء مهمة لازمة للمسلمين ، كان مفروضاً عليه أن يقوم بهذه المهمة .

ولقد كان عمر يكلف بعض المسلمين بأعمال صالحين لها ، وقادرين عليها ، فكانوا لا يرغبون فيها خوفاً من المغريات ، التى يحسبون أنهم قد يتعرضون لها ، فكان يرغمهم على ذلك بقوة السلطان ، ويقول لهم :

« والله لا أدعكم ، جعلتموها [يعنى الخلافة] فى عنقى ، ثم تتخلفون عنى » ؟ !

أما بعد ، فإن الأضواء التى يشعها القرآن الكريم كثيرة غزيرة ، يضيق عنها : مجال مهما امتد ، أو مقال مهما طال ، فإلى لقاء ...

وعلى الله قصد السبيل .

• • •

الكعبة فى التاريخ

السؤال :

كيف أنشئت الكعبة ؟

الجواب :

مكة المكرمة ... المسجد الحرام ... الكعبة المشرفة ... إنها ثلاث حلقات تتلألأ بالسنا والنور ، أوسعها نطاقاً مكة ، البلد الطيب المبارك ، وفى وسطها المسجد الحرام الأمين ، وفى وسطه الكعبة المشرفة التى جعلها الله جل علاه قياماً للناس ، وجعلها مركز الدائرة داخل المسجد الحرام الذى يأمن فيه الخائف ، ويهدأ الفازع ، ويستقر اللهفان .

وقد ذكر القرآن المجيد لمكة المكرمة أربعة أسماء ، سماها أولا مكة فى قوله فى سورة الفتح : (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة) ؛ وسماها بكة فى قوله من سورة آل عمران : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة) . وسماها أم القرى بقوله فى سورة الأنعام : (ولتنذر أم القرى ومن حولها) . وسماها البلد الأمين بقوله فى سورة التين : (وهذا البلد الأمين) . وأقسم بها فى قوله فى أول سورة البلد : (لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد) .

ومجد القرآن ذكر الكعبة ، حين جعلها قبلة العالمين من المؤمنين فقال فى سورة البقرة : (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) وجعل البيت الحرام مرجعاً للناس وموضع ثواب فقال : (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا) ، وجعله عتيقاً أى متقدما فى الرتبة كريم الشأن ، فقال : (وليطوفوا بالبيت العتيق) . ونسبه إلى الرب سبحانه وتعالى :

(فليعبدوا رب هذا البيت) . وهذا وغيره يدل على مكانة هذا البيت ومنزلته.

ويذكر التاريخ فى سبب بناء الكعبة أن أبا الأنبياء وخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ضاق بما كان فيه قومه – ومعهم أبوه – من وثنية وشرك ؛ فهيأ الله له من الأسباب ما يحمله على أن يخرج مهاجراً مع زوجته هاجر ووليده الذبيح إسماعيل إلى واد غير ذى زرع ، ليرفعا فيما بعد القواعد من البيت الذى يراد له من الله جل جلاله أن يكون رمز التوحيد لا الوثنية ، وأن يكون نقطة الاجتماع والالتقاء على تجريد العبادة لله وحده ، حيث تهرع إليه الجموع كل عام ملبية داعية ، وحيث تتجه إليه الملايين كل يوم عدة مرات فى صلاتها وضراعتها لله عز شأنه .

ويترك إبراهيم – بأمر الله – زوجته وولده فى هذا المكان . ويشتد وقع هذا على الزوجة ، ولكنها تفهم منه أن هذه هى مشيئة الله فتستسلم لذلك قائلة : « إذا كان هذا أمراً من الله ، فإنه لن يضيعنا » .

وينفد الماء من الأم ووليدها الذى يطلب الماء مرات . فتذهب أمه لتبحث عن الماء غادية رائحة ، وتعود بعد طول مسعى ، وفجأة تجد الماء وقد تفجر على مقربة من وليدها نعمة من الله الرحمن الرحيم ، وكانت « زمزم » .

ويشب إسماعيل وينمو ، وتأتى قبيلة « جرهم » فتقيم بقرب البئر المباركة ، ويكثر الزرع والضرع ، ويتزوج إسماعيل – جد العرب – ويأتى أبوه فيراه قد صار رجلا علماً ، فيفرح الوالد ويدعو ربه بمزيد من التوفيق .

ويشرع الوالد فى بناء الكعبة ، وهو يردد بلسانه وجنانه ماحكاه القرآن فى قوله : (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات ، من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ، وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت

وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) .

وينهض البناء شامخاً . ويكون له أي شأن . وتاريخ أيّ تاريخ ويقول فيه التاريخ : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعلمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً . ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) .

وحول البادئ ببناء الكعبة تدور مع الزمان روايات وأخبار . قيل الملائكة ، أو آدم ، أو شيث بن آدم ، أو إدريس ، والأقرب إلى القبول هو أن إبراهيم وإسماعيل هما اللذان قاما ببناء الكعبة . وقد قرر ذلك « تفسير المنار » ونفى الأساطير التى ترددت حول هذا الأمر . فقال فيما قال :

«ولكن القصاصين ، ومن تبعهم من المفسرين ، جاءونا من ذلك بغير ماقصه الله تعالى علينا ، وتفننوا فى رواياتهم عن قدم البيت ، وعن حج آدم ومن بعده من الأنبياء إليه ، وعن ارتفاعه إلى السماء فى وقت الطوفان ، ثم نزوله مرة أخرى ، وهذه الروايات يناقض — أو يعارض — بعضها بعضاً ، فهى فاسدة فى تناقضها وتعارضها ، وفاسدة فى عدم صحة أسانيدها ، وفاسدة فى مخالفتها لظاهر القرآن ، ولم يستح بعض الناس من إدخالها فى تفسير القرآن ، وإلصاقها به ، وهو برىء منها .

ومن ذلك زعمهم أن الكعبة نزلت من السماء فى زمن آدم ، ووصفهم حج آدم إليها ، وتعارفه بحواء فى عرفة ، بعد أن كانت قد ضلت عنه بعد هبوطهما من الجنة ، وحاولوا تأكيد ذلك بتزوير قبر لها فى جدة ؛ وزعمهم

أنها هبطت مرة أخرى إلى الأرض بعد ارتفاعها بسبب الطوفان ، وحليت بالحجر الأسود ، وأن هذا الحجر كان ياقوته بيضاء — وقيل زمردة — من يواقيت الجنة أو زمردها ، وأنها كانت مودعة فى باطن جبل أبى قبيس ، فتمخض الجبل فولدها .

وأن الحجر إنما أسود لملامسة النساء الحيض له ، وقيل لاستلام المذنبين إياه .

وكل هذه الروايات خرافات إسرائيلية بثها زنادقة اليهود فى المسلمين ، ليشوهوا عليهم دينهم ، وينفروا أهل الكتاب منه » .

ومما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده : لوكان أولئك القصاصون يعرفون الماس ، لقالوا إن الحجر الأسود منه ، لأنه أبهج الجواهر منظراً وأكثرها بهاء ، وقد أراد هؤلاء أن يزينوا الدين ويرقشوه برواياتهم هذه ، ولكنها إذا راقت للبله من العامة فإنها لاتروق لأهل العقل والعلم الذين يعلمون أن الشريف هذا الضرب من الشرف المعنوى هو ماشرفه الله تعالى ؛ فشرف هذا البيت إنما هو بتسمية الله تعالى إياه بيته ، وجعله موضعاً لضروب من عبادته لاتكون فى غيره ، لابكون أحجاره تفضل سائر الأحجار ، ولا بكون موقعه يفضل سائر المواقع ، ولا بكونه من السماء ، ولا بأنه من عالم الضياء ...

وحينما بنى إبراهيم مع ولده الكعبة جعل علوها سبعة أذرع وطولها فى الأرض ثلاثين ذراعاً . وعرضها اثنين وعشرين ذراعاً .

وحينما جددت قريش بناء الكعبة جعلت طولها ثمانى عشرة ذراعاً فى السماء ، ولما بناها عبد الله بن الزبير جعل طولها فى السماء سبعاً وعشرين ذراعاً ، ثم بناها كذلك عبد الملك بن مروان ، وهى الآن بناء مربع ارتفاعه

نحو خمسة وعشرين متراً ، وطول كل ضلع منها نحو عشرة أمتار ، إلا الضلع الغربي فهو اثنا عشر متراً .

ويقال إن أول من كسا الكعبة بكساء هو الملك « تبع » بعد رؤيا رآها ، ثم تنافس خلفاء المسلمين وسلاطينهم في كسوة الكعبة بمختلف أنواع الكساء ، وهي الآن تكسى بالحرير الأسود المطرز بالذهب ، وقد ظلت مصر عهداً طويلا تتولى أمر هذه الكسوة ، ثم أنشئت في المملكة العربية السعودية دار تتولى أمر هذه الكسوة .

* * *

وفي بناء الكعبة يوجد الحجر الأسود ، الذي جعله الإسلام علامة لبدء أشواط الطواف حول الكعبة ، وميزته أنه حجر وضعه إمام الموحدين إبراهيم عليه السلام ، وجعله في مكانه من البناء ليكون مبدأ الطواف ، يعرفه الحجاج بمجرد النظر إليه ، فيصير الطواف بنظام لا يضطرب فيه الطائفون ، وليس هناك في الإسلام أي عبادة أو تقديس لهذا الحجر كما يفترى المفترون على الدين ، وحسبنا العبارة التي اشتهرت نسبتها إلى عمر الفاروق رضوان الله عليه ، حينما استلم الحجر ، ورفع صوته يقول : « إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ،ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ماقبلتك » .

وليس عمر وحده هو الذي قال ذلك ، بل قاله أيضاً أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، حيث حج ووقف عند الحجر وقال : « إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ماقبلتك » . بل قاله قبلهما رسول الله ﷺ ، فقد روى أنه وقف عند الحجر ثم قال : « إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع » .

وإنما تعود الناس أن يستشهدوا بعبارة عمر الماضية ، لأنها اشتهرت بينهم أكثر من عبارة أبي بكر وعبارة الحديث . والحديث يرشدنا — كما يصور الأستاذ الإمام — إلى أن الحجر الأسود لامزية له فى ذاته، فهو كسائر الأحجار وإنما استلامه المشروع فى أعمال الحج أمر تعبدى فى معنى استقبال الكعبة وجعل التوجه إليها توجهاً إلى الله الذى لا يحده مكان، ولاتحصره جهة من الجهات .

وعلى أنه قد عزز فى طبائع البشر تكريم البيوت والمعاهد ، والآثار والمشاهد ، التى تنسب للأحياء ، أو تضاف إلى العظماء ، والشاعر يقول :

أمر على الديار ديار ليـــلى   أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى   ولكن حب من سكن الديارا

وإنما يكون التعظيم والتكريم للديار ، فى حالة غيبة الساكن والديار ، لأن النفس إذا حرمت من المشاهدة التى تذكى نار الحب وتهيج الإحساس والشعور بلذة القرب ، تحاول أن تذكى تلك النار ، بالتعليل بالأطلال والآثار .

ولا يقال : لماذا خصص الحجر الأسود بالتقبيل، فإن كل مشعر من تلك المشاعر قد خص بمزيه تثير شعوراً دينياً خاصاً يليق به . فلا يقال : لماذا كان الوقوف والاجتماع ، وتعارف أهل الآفاق والأصقاع ، بمعرفة دون غيرها من البقاع ، ولهذه المشاعر والشعائر معان وأسرار أخرى عند بعض الخواص، لايطيق فهمها عامة الناس .

وقد جهل القصاص تلك الأحاديث والآثار ، وهذه المعانى والأسرار ، وجعلوا مزية البيت الحرام ومشاعره وحجره المكرم ، محصورة فى مخالفتها لسائر الحجارة وكون أصلها من جواهر الجنة التى هى من معالم الغيب ،

ولو كان ذلك صحيحاً لبقيت حجارتها كما كانت عند تزولها من الجنة كما يزعمون .

وللكعبة المشرفة مع هذا خصائص منها : أن تحية المساجد تكون بالصلاة ، وتحية الكعبة بالطواف ، وأن الدعاء عند رؤيتها مستجاب ، وأن النظر إليها طاعة لها ثواب . وأن الغسل يستحب عند دخولها .

وقد قيل إن اليهود قالوا : إن بيت المقدس أعظم من الكعبة ، لأنه مهاجر الأنبياء ، ولأنه فى الأرض المقدسة ، فقال المسلمون : بل الكعبة أعظم ، فنزل قول الله تعالى : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة) إلى قوله سبحانه : (فيه آيات بينات مقام إبراهيم) وليس ذلك فى بيت المقدس ، (ومن دخله كان آمناً) وليس ذلك فى بيت المقدس ، (ولله على الناس حج البيت) وليس ذلك فى بيت المقدس .

* * *

وينبغى أن نلاحظ أن الكعبة بناء ، وأن المسجد الحرام من حوله فناء .

ولقد كان المسجد الحرام يحيط بالكعبة دون سور له فى أول الأمر ، وفى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : إن الكعبة بيت الله ، ولابد للبيت من فناء . واشترى عمر ما حول الكعبة من بيوت وهدمها وبنى المسجد المحيط بالكعبة ، وجعل له سوراً .

وقد عنى التاريخ الإسلامى بتتبع المرات التى تم فيها توسعه أو إصلاح لبناء الكعبة . فذكر المؤرخون أنه فى السنة السابعة عشر للهجرة اشترى عمر رضى الله عنه دوراً وسع المسجد الحرام بها وأبى بعضهم أن يأخذ الثمن وامتنع عن البيع . فوضع عمر أثمانها فى خزانة الكعبة فأخذوها ، وقال لهم : إنما نزلتم على الكعبة . ثم جعل عمر على المسجد جداراً قصيراً دون القامة .

وفى السنة السادسة والعشرين اشترى عثمان رضى الله عنه دوراً وسع بها المسجد ، وأرغم البعض على هذا الشراء وجعل للمسجد أروقه [وهى البواكى] .

وفى السنة الرابعة والستين اشترى عبد الله بن الزبير دوراً وسع بها المسجد من جانبيه الشرقى والجنوبى موسعة كبيرة .

وفى السنة الخامسة والسبعين حج عبد الملك بن مروان فأمر برفع جدار المسجد ، وسقفه بالساج .

ثم وسعه ابنه الوليد ، وسقفه بالساج المزخرف ، وأزره من داخله بالرخام ، وجعل له شرفات .

وفى السنة السابعة والثلاثين بعد المائة وسع زياد بن عبد الله الحاثى المسجد بأمر من أبى جعفر المنصور ، فزاده ضعف ماكان عليه ، وكانت التوسعة من الجانبين الشمالى والغربى .

وفى السنة المائة والأربعين حج أبو جعفر المنصور ، فرأى حجارة من حجر إسماعيل بادية ، فأمر عامله زياد بن عبد الله بتغطيتها بالرخام ليلا ، فنفذ أمره .

وفى السنة الحادية والستين بعد المائة وسع المهدى بن المنصور المسجد من الجانب الجنوبى والجانب الغربى .

وفى السنة الإحدى والثمانين بعد المائتين أمر المعتضد العباسى بجعل مابقى من دار الندوة موصولا بالمسجد الحرام ، وفتح بين المسجد والدار اثنى عشر باباً .

وفى سنة ست وثلثمائة وصلت هذه الزياده بالمسجد وصولا أكمل من الأول ، حتى صار من بها يرى الكعبة كلها .

وفى سنة ست وسبعين وثلثمائة أمر المقتدر بالله أن يبنى فى الجهة الغربية من المسجد مسجد يوصل به ، وتسمى هذه الزيادة زيادة باب إبراهيم .

واستمر السلاطين والأمراء يتنافسون فى العناية بالكعبة والمسجد الحرام ، وفى سنة تسع وسبعين وتسعمائة أمر السلطان سليم ببناء المسجد الحرام على أكمل درجات الإتقان ، وأن يجدد السقف .

وفى عهد الملك سعود بن عبد العزيز تمت توسعه كبيرة للمسجد الحرام .

* * *

ولقد تحدث كتاب الله الحكيم عن المسجد الحرام حديثاً فيه من التكريم ونلمح منه بعض الأحكام المتعلقة به .

ففى سورة البقرة جاء قوله تعالى : (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) .

وفى السورة نفسها جاء قوله تعالى : (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين) .

وفى سورة التوبة : (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ، إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين) .

وفى السورة نفسها : (يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عليه فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم) .

وفى سورة الإسراء : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) .

وفى سورة الحج : (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) .

وفى سورة الفتح : (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لاتخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) .

ومن خصائص المسجد الحرام أن الصلاة فيه أفضل من الصلاة فى غيره بمائة ألف صلاة . وأن الله تبارك وتعالى يضاعف الثواب على الطاعات فيه ، وأنه لايدخله كافر ، وأنه لايؤخذ فيه ثأر ولا يتعدى على إنسان ، وأن حمامه لايصاد ..

* * *

وتتعلق بالكعبة وبالمسجد الحرام فريضة دينية . وقاعدة من قواعد الإسلام الخمس ، وهى قاعدة الحج الذى فرضه الله على عباده بقوله : (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) وعن هذه الفريضة يقول القرآن المجيد : (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق) .

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « يأيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا » .

ويقول : « تعجلوا الحج فإن أحدكم لايدرى مايعرض له » .

ويقول : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » .

ويقول : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » .

ويقول : « الحجاج والعمار وفد الله ، إن دعوه أجابهم ، وإن استغفروه غفر لهم » .

والحج كان أمراً مشروعاً قبل الإسلام ، وأول من حج البيت الحرام هو إبراهيم عليه السلام ، وقد يدل على ذلك قول القرآن : (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود) .

ولقد حج مع إبراهيم جمع من المؤمنين شاركوه ترديد التلبية : لبيك اللهم لبيك لاشريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك . ولقد طاف إبراهيم حول الكعبة سبعة أشواط ، وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، ثم اتجه إلى عرفات فوقف عليها ، ثم أفاض منها إلى المزدلفة ، ثم إلى منى . وتمم مناسكه لربه .

ومن هنا نستطيع أن نعرف الحج فنقول : إنه قصد بيت الله الحرام للطواف والسعى والوقوف بعرفة وأداء بقية المناسك، وهو فرض مرة واحدة فى العمر . على المسلم البالغ العاقل الحر القادر ، ذكراً كان أو أنثى ، وقد فرض فى السنة التاسعة من الهجرة ، فكان تتمة لقواعد الإسلام التى ذكرها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى قوله : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا » .

ويمكن تلخيص أعمال الحج فيما يلى : النية مع الإحرام والتلبية ، على أن يكون ذلك فى شهور الحج المعلومات ، وهى شوال وذو القعدة والعشر الأولى

من ذى الحجة ، ثم الطواف حول الكعبة طواف القدوم ، وهو سبعة أشواط ، ثم السعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، ثم الوقوف بعرفة يوم التاسع من شهر ذى الحجة ، ثم الإفاضة من عرفات ، ثم الوقوف بالمزدلفة ، ثم الإقامة بمنى يوم النحر — وهو اليوم العاشر من ذى الحجة — والاستقرار بها يومين أو ثلاثة عقب ذلك ترمى فيها الجمرات ، ثم طواف الإفاضة حول الكعبة ، ويتم الحج بذلك .

* * *

والحج بصفة عامة أكثر من حكمة ، فهناك تعود الطاعة لله واستجابة أمره وتنفيذ حكمه حتى ولو لم نستطع إدراك حكمته ، ومن حكمة الحج تهيئة ذلك المؤتمر الإسلامى السنوى الأعظم ، حيث يجتمع المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها ، يؤكدون تعاونهم ، ويتشاورون فى أمورهم ، ويقوون وحدتهم وائتلافهم تحت لواء الإسلام .

ومن حكمة الحج رؤية الأماكن المقدسة والبقاع الكريمة التى نزل فيها الوحى ، وأشرقت عليها شمس الإسلام وكانت موطناً للرسول ﷺ وأهله وصحابته الأكرمين رضوان الله عليهم أجمعين .

ومن حكمه الحج الارتباط الروحى المباشر بمكة المكرمة ، والكعبة المشرفة ، والمسجد الحرام الذى يتجه إليه المسلم بأمر ربه كلما بدأ الصلاة لله : (فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) .

ومن حكمة الحج تذوق روح المساواة والأخوة عملياً ، فالحجاج كلهم فى ثياب موحدة ، هى ثياب الإحرام ، ونشيدهم موحد ، هو كلمات التلبية ، واحدة . هى ضيافة الرحمن .

ومن حكمة الحج تذوق متاعب الانتقال والسفر ، للتعود على الاحتمال والنهوض بالتبعات .

هذه جوانب من حكمة الحج بصفة عامة .

ولقد تحدث العلماء بعد هذا عن حكمة كل عمل من أعمال الحج ، فقالوا فى حكمة ذبح الأضاحى فقالوا — كما يذكر السيد رشيد رضا — إن الحكمة هى طاعة الله تعالى وتقواه ، وإظهار نعمته بتوسعة المسلمين على أنفسهم وعلى الفقراء والمساكين فى أيام العيد التى هى أيام ضيافة الله للمؤمنين ، وهى أيضاً إحياء لسنة إبراهيم عليه السلام ، وتذكر لنعمة الله عليه وعلى الناس بفداء ولده إسماعيل من الذبح الذى ابتلاه الله به ، لتظهر قوة إيمانه بالله تعالى وإيثاره لرضاه ، ونعمة الله بذلك على الناس كافة إنما هى من حيث إن إسماعيل هو جد محمد عليه الصلاة والسلام ، الذى أرسله الله تعالى ، خاتماً لرسله ، وهادياً للناس كافة ؛ ولذلك قال القرآن عن هذه الذبائح : (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) . وقال : (والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون) .

وتحدث العلماء عن حكمة رمى الجمرات فقالوا إنه الانقياد والتعبد لله تعالى وحده ، بما لاحظ للنفس فيه ، اقتداء بسيدنا إبراهيم عليه السلام ، فقد جاء فى السنة المطهرة أنه لما أتى إبراهيم عليه السلام المناسك عرض له الشيطان عند جمرة العقبة ، فرماه بسبع حصيات حتى ساخ فى الأرض ، ثم عرض له عند الجمرة الثانية ، فرماه بسبع حصيات حتى ساخ فى الأرض ، ثم عرض له فى الثالثة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ فى الأرض .

ومن هنا قال ابن عباس عن حكمة الرمى : « الشيطان ترجمون ، وملة أبيكم تتبعون » .

فالحكمة فى رمى الجمار هى إظهار العبودية لله سبحانه ، وامتثال أوامره ، وإظهار الأسف على ما ارتكبه الإنسان من الخطايا ، وإظهار التغيظ من الشيطان الذى يتمثله الحاج فى موضع الجمرات .

ويقول السيد محمد رشيد رضا فى ذلك : أقل ما يتبادر إلى الذهن من منشأ هذه العبادة أن هذه المواضع التى سمى الجمرات كانت من معاهد إبراهيم وإسماعيل ، فشرع لنا أن نقف عند كل واحدة منها نكبر الله سبع تكبيرات ، نرمى عند كل تكبيرة حصاة صغيرة بين أصابعنا نعد بها التكبير ؛ والعد بالحصى - ومثله النوى فى مثل الحجاز - من الأمور المعهودة عند الذين يعيشون عيشة السذاجة ، فنجمع بهذا الذكر على هذه الصورة بين إحياء سنة إبراهيم الذى أقام الدين الحق فى هذه المعاهد ، وبين التعبد لله تعالى بما لا حظ للنفس ولا محل للهوى فيه .

* * *

هذا ولقد روى ابن حبان فى صحيحه حديثاً رائعاً يدل على الثواب العظيم الذى يتفضل به العلى الكبير على من حج البيت بصدق وإخلاص :

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال :

كنت جالساً مع النبى ﷺ فى مسجد منى ، فأتاه رجل من الأنصار ، ورجل من ثقيف .

فسلما ثم قالا : يارسول الله ، جئنا نسألك .

فقال : إن شئتما أخبرتكما بما جئتما تسألانى عنه ، فعلت ، وإن شئتما أن أمسك وتسألانى فعلت .

فقالا : أخبرنا يارسول الله .

فقال الثقفى للأنصارى : سل .

فقال : أخبرني يارسول الله .

فقال : جئتنى تسألنى عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام ، ومالك فيه .

وعن ركعتيك بعد الطواف ، ومالك فيهما .

وعن طوافك بين الصفا والمروة ، ومالك فيه .

وعن وقوفك عشية عرفة ، ومالك فيه .

وعن رميك الجمار ، ومالك فيه .

وعن نحرك ، ومالك فيه .

وعن حلقك رأسك ، ومالك فيه .

وعن طوافك بالبيت بعد ذلك ، ومالك فيه مع الإفاضة .

فقال الرجل : والذى بعثك بالحق لعن هذا جئت أسألك .

قال رسول الله ﷺ : فإنك إذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام . لاتضع ناقتك خفاً ولا ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة ، ومحا عنك خطيئة .

وأما ركعتاك بعد الطواف فكعتق رقبة من بنى إسماعيل .

وأما طوافك بالصفا والمروة بعد ذلك فكعتق سبعين رقبة .

وأما وقوفك عشية عرفة فإن الله تعالى يهبط إلى سماء الدنيا فيباهى بكم الملائكة ، يقول : عبادى جاءونى شعثاً من كل فج عميق ، يرجون جنتى ، فلو كانت ذنوبهم كعدد الرمل ، أو كقطر المطر ، أو كزبد البحر ، لغفرتها . أفيضوا عبادى مغفوراً لكم ، ولمن شفعتم له .

وأما رميك الجمار فلك بكل حصاة رميتها تكفير كبيرة من الموبقات .

وأما نحرك فمدخور لك عند ربك .

وأما حلقك رأسك فلك بكل شعرة حلقتها حسنة ، وتمحى عنك بها خطيئة.

وأما طوافك بالبيت بعد ذلك فإنك تطوف ولا ذنب لك ، يأتى ملك حتى يضع يديه بين كتفيك فيقول : اعمل فيما يستقبل ، فقد غفر لك مامضى.

* * *

ومن صميم الخير هنا أن نستعرض الصورة التى حج عليها رسول الله ﷺ سنة عشر ، وهى الحجة التى يقال لها حجة الوداع . وإنما سميت حجة الوداع لأن الرسول ودع الناس فيها قائلا : « لتأخذوا عنى مناسككم ، فإنى لا أدرى ، لعلى لا أحج بعد حجتى هذه » !

خرج رسول الله ﷺ حاجاً فى السنة العاشرة للهجرة ، ومعه خلق كثير ، كل منهم يلتمس أن يأتم ويقتدى بالنبى ، فلما بلغ الركب « ذا الحليفة » — وهو موضع — ولدت أسماء بنت عميس ولدها محمد بن أبى بكر ، فأرسلت إلى النبى تسأله ، كيف أصنع ؟

فأمرها بأن تغتسل وتشد على وسطها حزاماً ، وتجعل خرقة عريضة على موضع الدم ، وتشدها من أمام ومن خلف بهذا الحزام ، ثم تحرم.

ثم صلى رسول الله فى المسجد ، ثم ركب ناقته « القصواء » ، حتى إذا استوت به على البيداء ، كان حول النبى عدد كبير من الناس ، بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وشماله ، وهو بين أظهرهم ، عليه ينزل القرآن ، وهو يعلم تأويله ، وما عمل به من شىء عمل الناس به.

وأهل الرسول بالتوحيد قائلا : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك . . .

وأهل الناس بمازاد على التلبية ، كقول عمر : لبيك ذا النعماء والفضل الحسن ، لبيك مرهوباً منك ومرغوباً إليك . وقول ابن عمر : لبيك وسعديك والخير بيديك ، والرغباء إليك والعمل . وقول أنس : لبيك حقاً تعبداً ورقاً ...

فلم يرد ﷺ عليهم شيئاً ، ولزم تلبيته .

وكان الذين معه لاينوون إلا الحج ، ولا يعرفون العمرة ، حتى إذا أتى القوم البيت مع النبي استلم الركن ، فأسرع المشى ثلاثاً ، ومشى أربعاً ، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم عليه السلام ؛ فقرأ قوله تعالى : (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) ، فجعل المقام بينه وبين الكعبة ، وصلى ركعتين ، قرأ فى الأولى بعد الفاتحة سورة : (قل يأيها الكافرون) . وقرأ فى الركعة الثانية : (قل هو الله أحد) .

ثم رجع إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من الباب إلى الصفا ، فلما قرب من الصفا قرأ قول الله تعالى : (إن الصفا والمروة من شعائر الله) ثم قال : نبدأ بما بدأ الله به . فرقى عليه حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة ، فوحد الله وكبّره ، ثم قال : لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير . لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزام وحده ، ثم دعا بين ذلك ، وقال مثل هذا ثلاث مرات .

ثم نزل إلى المروة ، فمشى حتى إذا نصبت قدماه فى بطن الوادى ، سعى ، حتى إذا صعدتا مشى ، حتى أتى المروة ، ففعل عليها مثل مافعل على الصفا ، حتى إذا كان آخر طوافه على المروة قال : لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت [أى لو علمت قبل ماعلمته الآن من جواز العمرة فى أشهر الحج لمن لم يسق الهدى] لم أسق الهدى ولجعلتها عمرة فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل وليجعلها عمرة ،

فحل الناس كلهم وقصروا ، إلا النبي ﷺ ، ومن كان معه هدى .

وهنا قام سراقة بن مالك فقال : يارسول الله . ألعامنا هذا أم للابد ؟

فشبك الرسول أصابع يديه ، وقال : دخلت العمرة فى الحج هكذا [قالها مرتين] لا بل لأبد الآبد .

وجاء على بن أبى طالب من اليمن ومعه إبل الرسول للهدى ، فوجد زوجته فاطمة قد حلت من إحرامها ، ولبست ثياباً مصبوغة واكتحلت ، فأنكر عليها ذلك ، وذهب يشكوها إلى الرسول ، ويخبره أنها قالت : إن أبى أمرنى بهذا .

فقال النبي لعلى : صدقت صدقت . ثم سأله : ماذا قلت حين فرضت الحج [أى نويت أداءه] ؟

فأجاب على : قلت : اللهم إنى أهل بما أهل به رسولك .

فقال النبي : فإن معى الهدى فلا تحل .

فلما كان يوم التروية ــ وهو الثامن ذى الحجة ــ توجهوا إلى منى ، وأهلوا بالحج ، وركب النبي فصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ، ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس ، وأمر بخيمة تقام له فى « نمرة » وسار حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له فى « نمرة » ، فنزل بها حتى زاغت الشمس ، مركب ناقته « القصوا » وأتى « بطن الوادى » فخطب فيهم خطبته البليغة الواعظة ، وفيها يقول :

« الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ؛ من يهدى الله فلا فضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، أن محمداً عبده ورسوله .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله . وأحثكم على طاعته . وأستفتح بالذى هو خير . أما بعد ، أيها الناس ، اسمعوا منى أبين لكم ، فإنى لا أدرى لعلى لاألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا .

أيها الناس . إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم . إلى أن تلقوا ربكم . كحرمة يومكم هذا . فى شهركم هذا . فى بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول رباً أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب . وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب . وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السدانة والسقاية . والعمد قود [أى قصاص] . وشبه العمد ماقتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير . فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه . ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك ، مما تحقرون من أعمالكم . أيها الناس ، إنما النسيء زيادة فى الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً . ليواطئوا عدة ماحرم الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله . يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم . ثلاثة متواليات . وواحد فرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهن حق ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة . فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن [والعضل : الحبس والتضييق] . وتهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرح ،

فإن انتهين وآطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان [أسيرات] لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس ، إنما المؤمنون إخوة ، ولا لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .فلا ترجعُن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده . كتاب الله . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس ، ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى إلا بالتقوى ؟ ألا هل بلغت ؟ . اللهم فاشهد .

أيها الناس : إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، ولا يجوز لوارث وصية ، ولا يجوز وصية فى أكثر من الثلث ، والولد للفراش ، وللعاهر الحجر ، من ادعى إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لايقبل منه صرف ولا عدل [توبة ولا فدية] والسلام عليكم ورحمة الله » .

وبعد هذه الخطبة الرائعة الجامعة النافعه ، صلى النبى الظهر ، ثم صلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئاً ، ثم ركب ناقته حتى أتى الموقف واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلا ، وأردف خلفه أسامة ، وسار وهو يقول للناس أيها الناس السكينة السكينة : حتى أتى المزدلفة ، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حين تبين له الصبح ، ثم ركب وأتى « المشعر الحرام » ، فاستقبل القبلة ، فحمد الله وكبره ، وهلله ووحده ودعاه

ثم دفع قبل أن تطلع الشمس ، وأرق خلفه الفضل بن عباس ، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة ، فرماها بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة منها ، ثم انصرف إلى المنحر ، فنحر بيده ثلاثاً وستين ناقة ، ثم أمر علياً بنحر الباقى ، وأشركه فى هديه ، ثم أمر بأخذ قطعة من لحم من كل ناقة ، فطبخوها فى قدر ، وأكلا من لحمها وشربا من مرقها .

ثم ركب النبي صلى الله عليه وسلم فأفاض إلى الكعبة ، فصلى بمكة الظهر ، ثم أتى بنى عبد المطلب ، وهم يسقون على زمزم ، فقال : انزعوا بنى عبد المطلب ، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم . وناولوه دلواً فشرب منه عليه الصلاة والسلام !

لئن طال الحديث إن النفس لظامئة إلى مزيد من فيض هذه الحلقات الثلاث المشعة بالسنا والنور : مكة المكرمة ... المسجد الحرام ... الكعبة المشرفة ، فحسبنا أن يكون هذا الحديث محاولة لتقريب البعيد ، وإيجاز الواسع العميق ، ولله المثل الأعلى ، فقد تقرب لأفهامنا القاصرة ما تطيق من حديث نوره الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة (الله نور السموات والأرض ۝ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ۝ المصباح فى زجاجة ۝ الزجاجة كأنها كوكب درى ۝ يوقد من شجرة مباركة زيتونة ۝ لاشرقية ولا غربية ۝ يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ۝ نور على نور ۝ يهدى الله لنوره من يشاء ۝ ويضرب الله الأمثال للناس ۝ والله بكل شىء عليم)

وعلى الله قصد السبيل .

* * *

مكة والمدينة

السؤال :

ما تاريخ مكة والمدينة ؟

الجواب :

أى جلال يثيره هذا الاسم الكريم العظيم ؟ ... أى ذكريات ترتبط بهذا البلد الجليل ، وتتصل هذه الذكريات بالعقيدة ، والقرآن والرسول والإسلام والتاريخ ؟

مكة مولد الرسول وموطنه ، منزل الوحى وآيات القرآن ، مشرق الإيمان والدين ، مبدأ الدعوة ومفتتح التبشير ، بلد الكعبة البيت الحرام ، والمسجد الحرام ، وملتقى الحجيج فى كل عام .

إن مكة هى المركز الروحى الأول للعالم الإسلامى كله ، وأتباع الإسلام جميعهم ، وهى مكة المشرفة التى تدعو لها ملايين المسلمين بأن يزيدها الله شرفاً وفضلا ، وهى أشرف بقاع الأرض ، لما اشتملت عليه من بيت الله الحرام ومسجد الله الحرام .

وهى البلد الأمين الذى سعت إليه الملايين بعد الملايين ، ولا تزال تسعى إليه الملايين بعد الملايين ، وستظل تسعى إليه – بإذن الله – الملايين بعد الملايين ، حاجة معتمرة زائرة ... والبلد الذى يتسع – بقدر القادر سبحانه – لمئات الألوف تسعى إليه فى موسم الحج الأكبر ، فيخيل للإنسان أن البلدة المحدودة تتسع وتنفسح ، وتطول وتستعرض ، فتسع هذا الحجم الغفير من الناس ، ويعجب المرء كيف ضمت مكة وتضم هذه العدد الهائل من البشر ... ولكن الله على كل شىء قدير .

ولو أن أهل الأرض أقاموا موازينهم الحسية ومقاييسهم المادية بين البلدان والمدن ، لما كان لمكة بحجمها ودورها مكان الصدر فى هذه الموازنة فهى لاتفخر بناطحات سحاب ، ولا بعمائر ذات شرفات وأطناب ، ولا بمظاهر للمدينة المادية تبهر البصر وتروعه .

ولكن مكة تسبق وتبرز على الجميع بمكانتها المتصلة الأسباب بالقلب والروح وجذور الإيمان ، وهاهو ذا الفاسى يقول فى كتابه « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » :

« مكة المشرفة بلدة مستطيلة كبيرة ، تسع من الخلائق مالا يحصيهم ، إلا الله عز وجل فى بطن واد مقدس ، والجبال محدقة بها ، كالسور لها » .

ويقول الفاسى هذا وهو من رجال القرن التاسع الهجرى ، وقد مضت على وفاته قرون وقرون ، وتضاعف ضم مكة للملايين ، وهى هى ، البلدة التى تبدو للعين محدودة ، ولكن عناية الله تلاحظها فإذا هى البلدة المبارك الأمين ! ...

* * *

ومن شرف مكة المتعلق بالمظهر كثيرة أسمائها ، فلها جملة من الأسماء ، والنووى يقول : « واعلم أن كثرة الأسماء تدل على عظم المسمى ، كما فى أسماء الله تعالى ، وأسماء رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا تعلم بلدا أكثر أسماء من مكة والمدينة ، لكونهما أفضل الأرض ؛ وذلك لكثرة الصفات المقتضية للتسمية » .

فهى « مكة » . قيل : لأنها تمك الجبارين ، أى تقهرهم وتذهب نخوتهم ، أو تمك الفاجر أى تخرجه .

وهى « بكة » بالباء بدل الميم ، وقد جاء هذا الاسم فى القرآن الكريم .

وسميت بكة لازدحام الناس بها . يقال : يبك الناس بعضهم بعضاً ، أى يدفعه في الزحام ، وذلك فى زحمة الطواف .

وقيل إن « مكة » يراد بها البلدة نفسها ، أو الحرم كله ، و « بكة » يراد بها موضع البيت أو مابين الجبلين حول المسجد الحرام، أو المسجد نفسه.

وهى « أم القرى » . وفى القرآن قوله : (لتنذر أم القرى ومن حولها) . لأنها قبلة تؤمها جموع المسلمين .

وهى « البلد » ، وفى ذلك يقول القرآن : (لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد) .

وهى « البلد الأمين » ، وفى القرآن نجد قوله تعالى : (والتين والزيتون وطورسينين * وهذا البلد الأمين) .

وهى « القرية » . ويروى أنها المقصودة فى قوله سبحانه : (ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان) . وفى هذا نظر .

وهى « البلدة » . وقد جاء فى القرآن : (إنما أمرت أن أعبد رب هذه القرية) .

وهى : البلد الحرام ، والعذراء ، والمقدسة ، وحرم الله ، والعروض ، والبينة ، والمعاد ، ومخرج صدق ، والرأس ... إلخ .

• • •

ولقد عطر الحق جل جلاله ذكر مكة فى كتابه، فقال فى سورة إبراهيم : (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام) . ثم قال : (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ،

ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) .

وقال فى سورة القصص : (أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شىء ، رزقاً من لدنا ، ولكن أكثرهم لايعلمون) .

وقال فى سورة العنكبوت : (أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم) .

ويقبل الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ليؤكد هذا الحديث القرآنى العاطر الباهر عن « مكة » ، فيخاطبها قائلا لها : « ما أطيبك من بلد ، وأحبك إلى ، ولولا أن قومى أخرجونى منك ماسكنت غيرك » . وفى رواية أخرى يقول : « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى ، ولولا أنى أخرجت منك ماخرجت » .

ومن هنا ذهب كثير من الأئمة إلى أن مكة أفضل من جميع البلاد ، وقال بعضهم : حسبك بفضل مكة أن فيها بيت الله الذى رضى بحط الأوزار عن العباد بقصدهم إياه فى العمر مرة ، ولم يقبل من واحد منهم صلاته إلا باستقبال جهته إن قدر على التوجه إليها ، وهى قبلة المسلمين أحياء وأمواتاً .

ولا يعكر على هذا الحكم ماقيل إن الرسول قال : « المدينة خير من مكة » لأن هذا الحديث ضعيف الإسناد ، ولا يحتج به ، وقيل إنه موضوع ، وقد ذكره الذهبى فى فضل البلدان ، وقال عنه : حديث واه منكر الحديث .

ولذلك الفضل العظيم لمكة أعطاها الله حرمة ، وجعلها بلداً حراماً ، يراعى الناس حرمته وكرامته ، ويحيطونه بهيبة وتوقير ، طاعة لأمر الله ، وإجلالا لبلد بيت الله ، وقد جاء فى الصحيحين أن الرسول ﷺ قال عن

مكة : « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة » .

وقال أيضاً : « إن الله عز وجل حبس عن مكة الفيل [الذى جىء به لهدم الكعبة] ، وسلط عليها رسوله والمؤمنين [فى فتح مكة] ، ألا وإنها لم تحل لأحد قبلى . ولن تحل لأحد بعدى . ألا وإنها أحلت لى ساعة من النهار ، ألا وإنها ساعتى هذه حرم : لا يخبط شوكها ، ولا يعضد [لايقطع] شجرها ولا ينفر صيدها ، ولا تلتقط لقطتها إلا لمنشد » أى لمن يعرفها .

وزاد الأمر توضيحاً وتأكيداً حين قال :

« إن الله سبحانه حرم مكة ولم يحرمها الناس ، ولا يحل لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ، ولا يعضد بها شجراً ، فإن ارتخص أحد فقال : أحلت لرسول الله ﷺ فإن الله سبحانه أحلها لى ، ولم يحلها للناس ، وإنما أحلت لى ساعة من نهار ، ثم هى حرام كحرمتها بالأمس » .

وبهذه الحرمة التى كسبتها مكة صار لها « حرم » والحرم هنا هو ما أحاط بمكة . وأطاف بها من جوانبها ، وصار له حرمه كحرمتها ، تشريفاً لها وله . وكأن الله جل جلاله أراد أن يخص هذه البلدة بهذه الحرمة لتكون للناس ملتقى يهرعون إليها ، فيأمنون عندها .

ولحدود الحرم علامات ظاهرة ، هى أنصاب مبنية فى جوانبه ، ويقال إن أول من نصبها هو إبراهيم عليه السلام، ثم حرص كثير من الخلفاء والأمراء على تجديد هذه العلامات ، وقد نظم بعض الشعراء حدود الحرم فى أبيات من الشعر ، فقال :

وللحرم التحديد من أرض طيبة ثلاثة أميال إذا رمت إتقانه
وسبعة أميال عراق وطائف وجدة عشر ، ثم تسع جعرانه

ومن يمن سبع بتقديم سينهـا — فسل ربك الوهاب يرزقك غفرانه
وقد زيد فى حد لطائف أربع — ولم يرض جمهور لذا القول رجحانه

ولقد توسع الحافظ تقى الدين الناسى فى الحديث عن هذه الحدود فى كتابه « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » ، واقترحت اللجنة التى قامت بتحقيق أصول الكتاب الاقتراح التالى :

« بمناسبة هذا السرد الطويل الذى سرده المؤلف ، من الاختلاف الذى وقع فيه أسلافنا رحمهم الله ، فى تحديد الحرم ، وتغير المقاسات واختلافها ، وجهل أهل عصرنا بذلك ، نرى أن تشكل لجنة من أهل الخبرة والعلم ، تقوم بضبط المقاسات ، وتحقيق حدود الحرم ضبطاً وتحقيقاً علمياً ، وتذكر المسافات بالكيلو مترات ، من جميع الجهات ، وتكتب محضراً بذلك ، وتصدق عليه المحكمة الشرعية ، أو رئاسة القضاء الشرعى ؛ ويستحسن إضافة بعض أعلام العلماء من كافة الأمم الإسلامية للاشتراك فى تحقيق أرض الحرم ، والتوقيع على المحضر .

ويستحسن إضافة ذكر تاريخ الأنصاب المقامة فى كل من الجهات ، ويطبع كل ذلك فى كتاب يحفظ فى مكتبه المكى الشريف ، وتوزع منه نسخ على المعاهد الإسلامية فى كل البلاد ، فإن فى ذلك خدمة إسلامية كبرى. وأثراً من الآثار النافعة ، ومرجعاً من المراجع الموثوق بها إذا ما استدعى الأمر ذلك » .

* * *

ومن أجل هذه الحرمة لمكة المكرمة صار لها خصائص وأحكام تتعلق بها ، منها :

١ — لايجوز قتال من كان حاضراً فيها .

٢ ـ القاتل إذا لجأ إلى الحرم لايقتل فيه ، بل يضطر إلى الخروج ، ثم يقام عليه الحد ، وكذلك من كان عليه حد من الحدود . وعن ابن جريج : كان الرجل يلقى قاتل أخيه أو ابنه فى الكعبة أو فى الحرم أو فى الشهر الحرام . فلا يعرض له .

٣ ـ لايحل حمل السلاح فى مكة لغير ضرورة . والحديث يقول : « لايحل لأحدكم أن يحمل السلاح فى مكة » .

٤ ـ يحرم دفن المشرك بالله فيها .

٥ ـ يحرم إخراج ترابها وأحجارها .

٦ ـ لايجوز تنفير صيدها ولا طيرها .

٧ ـ الصلاة فيها تضاعف فى الثواب زيادة على الصلوات فى غيرها .

٨ ـ يضاعف ثواب الطاعات فيها . ويضاعف عقاب السيئة فيها .

٩ ـ يؤاخذ الإنسان على الهم بالسيئة فيها . والله يقول : (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب السعير) .

١٠ ـ لايجوز دخولها إلا بإحرام ، على تفصيل مذكور فى كتب الفقه .

والمجاورة بمكة مستحبة يتقرب بها الإنسان إلى الله ، وكانت الصديقة عائشة رضى الله عنها تقول : « لولا الهجرة لسكنت مكة ، إنى لم أر السماء بمكان أقرب إلى الأرض منها بمكة ، ولم يطمئن قلبى ببلد قط ما اطمأن بمكة ، ولم أر القمر بمكان قط أحسن منه بمكة » .

وهى عبارة تدل على حياة قلب ويقظة مشاعر

* * *

وواسطة عقد مكة هو المسجد الحرام .

وواسطة عقد المسجد الحرام ، هى الكعبة ، أو البيت الحرام .

إن القرآن الحكيم يقطر ذكر المسجد الحرام حين يقول : (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) .

ويقول : (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام . وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) .

ويقول : (يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) .

وكما عطر الذكر الحكيم الحديث عن المسجد الحرام بعطره عن الكعبة بيت الله الحرام ، فقال : (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس) أى سبباً لإصلاحهم ديناً ودنيا . ويقول :(وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً) . ويقول : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) . ويقول : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً) ولنلاحظ أن كلمة « البيت » قد تطلق على الكعبة وحدها . وقد تطلق على الكعبة وما حولها من المسجد الحرام .

وقد أخبرنا الصادق المصدوق رسول الله ﷺ بفضل الصلاة فى المسجد الحرام . فقال : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام . وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من صلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة » .

وقد تكرر بناء الكعبة خلال عصور التاريخ الطويلة . ولذلك حديثه

المفصل فى الكتب الموضوعة عن مكة أو الكعبة أو المسجد الحرام ، وقد جمع بعض الشعراء من بنى الكعبة المشرفة ، فقال :

بنى الكعبة الغراء عشر ذكرتهم ... ورتبتهم حسب الذى أخبر الثقه
ملائكة الرحمن آدم وابنـــه ... كذاك خليل الله ثم العمالقه
وجرهم يتلوهم قصى قريشهم ... كذا ابن زبير ثم حجاج لاحقه

والظاهر الذى تميل إليه النفس أن الذى بنى البيت أولا هو إبراهيم ومعه ابنه إسماعيل ، وقوله تعالى :(وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) ظاهر – كما ذكر تفسير المنار – فى أنهما هما اللذان بنيا هذا البيت لعبادة الله تعالى فى تلك البلاد الوثنية .

ولكن القصاصين ومن تبعهم من المفسرين جاءونا فى ذلك بغير ماقصه الله تعالى علينا ، وتفننوا فى رواياتهم عن قدم البيت ، وعن حج آدم ومن بعده من الأنبياء إليه ، وعن ارتفاعه إلى السماء فى وقت الطوفان ، ثم نزوله مرة أخرى . وهذه الروايات يناقض – أو يعارض – بعضها بعضاً ، فهى فاسدة فى تناقضها وتعارضها ، وفاسدة فى عدم صحة أسانيدها ، وفاسدة فى مخالفتها لظاهر القرآن الكريم .

* * *

وكم لمكة وللكعبة ولمواسم الحج فيها من ذكريات كثيرة غزيرة ، ومن الذكريات المطوية التى تستحق أن تروى وتستحق أن تعرض بأسلوب تحليلى تصويرى فى قصة أو مسرحية أو نحو ذلك ، أنه فى سنة ست وستين وثلثمائة حجت « جميلة » بنت الملك ناصر الدولة : أبى محمد الحسن بن عبد الله ابن حمدان ، وصار هذا الحج يضرب به الناس مثلا فى التجمل وأعمال الخير والبر.

فقد حجت « جميلة » ومعها أربعمائة محمل على لون واحد ، ولا يدرى

فى أى محمل منها كانت « جميلة » لكونهن جميعاً فى الحسن والزينة سواء . وحج معها من أقطار الأرض ، حتى روى أنه كان معها عشرة آلاف جمل ، وعشرة آلاف عجوز . ولم تحوج الناس إلى مأكول أو مشروب .

وحينما شاهدت « جميلة » الكعبة المشرفة نثرت عليها عشرة آلاف دينار من ضرب أبيها . وأغنت المجاورين وكستهم ، وزوجت الموجودين بمكة من العلويين والعلويات ، وأنفقت بمكة عشرين ألف دينار ، وأنفقت بالمدينة مثلها ، وكانت هذه المرأة الجليلة من أزهد الناس وأعبدهم ، وأجراهم دمعة ، فكانت تقوم نافلة الليل ، وتسمع العظات ، وتكثر الصدقات .

ومن سوء حظها العاثر أنها لما رجعت إلى بغداد صادرها « عضد الدولة ابن بويه » واستصفى أموالها ، ثم أمر بحملها إليه عنوة ، فتظاهرت بالموافقة ، وخرجت مع رسله ، وخافت على نفسها فاحتلت فى الطريق حتى رمت نفسها فى نهر دجلة ، فغرقت !

ليت القلم يتفرغ حينا من وقته ، فيصوغ حول هذه المرأة قصة أو مسرحية ، تتناول حياتها ونهايتها بالتحليل والتفصيل .

وكم فى مكة وفيما حولها من مشاعر وآثار تستحق الحديث والتنويه ، فمقام إبراهيم ، وزمزم ، وعرفات ، والمشعر الحرام ومنى ، والمزدلفة ، والحجون ، وغيرها ... كل هذه مواطن جديرة بأن يدور حولها الحديث ولكن المجال محدود ، فليفزع الراغب فى مزيد من العلم إلى ما كتبه المؤرخون حول مكة والمسجد الحرام والكعبة الحرام ، وهو كثير غزير ، منه المصادر التالية :

١ - العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، لتقى الدين الفاسى المكى .

٢ - شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، للفاسى أيضاً .

٣ ــ الجامع اللطيف ، فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ، تأليف محمد بن عبد الله بن ظهيرة القرشى .

٤ ــ أخبار مكة وماجاء فيها من الآثار ، لأبى الوليد الأزرقى .

٥ ــ تاريخ مكة ، لأبى عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهى .

٦ ــ كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام . لقطب الدين الحنفى .

٧ ــ تاريخ الكعبة المعظمة . لحسين عبد الله سلامة .

٨ ــ تاريخ مكة . لأحمد السباعى ... إلخ .

* * *

هذا بعض الحديث عن مكة ..

ثم تأتى المدينة المنورة .

بلد الرسول ومثواه . دار الهجرة والنصرة ، مركز القيادة ومنطلق السيادة .

مجتمع المهاجرين والأنصار ، بلد المؤاخاة فى الله ...

المدينة التى ذكرها القرآن المجيد بما يشعر أن الله عز شأنه يريد لها التطهير من الشرك والنفاق ، فيقول فى سورة الأحزاب : (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ، ثم لايجاورونك فيها إلا قليلا) .

وكأن الله جل جلاله قد قضى بأن تكون الهجرة إلى « المدينة » ، وأن يحيا المهاجرون والأنصار فى « المدينة » ، وأن يتحقق النصر والفتح من « المدينة » ، وأن يثوى جسد الرسول الطهور فى « المدينة » وأن يكون نزول

الوحى مشتركاً بين « مكة والمدينة » ، لترتبط المدينة بمكة ، ولتكون البلدتان العظيمتان شريكتين فى اكتساب الفضل الإلهى العظيم ، ولتكون هناك مشابه بينهما فى مجالات الرفعة والمجد ، فإذا كان فى مكة المسجد الحرام إمام المساجد ففى المدينة مسجد الرسول أحد المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال بنية العبادة لله .

وإذا كانت لمكة طائفة من الأسماء فلمدينة الرسول طائفة من الأسماء ، فهى « طابة » . قيل : سميت بذلك من الطيب، وهى الرائحة الحسنة، والطيب والطاب نعتان بمعنى واحد ، وقيل إن الكلمة مأخوذة من الطيب ، وهو الطاهر ، لخلوصها من الشرك وطهارتها منه ، وقيل لطيبها لساكنها ، لأمنهم ودعتهم ، وفى صحيح مسلم : « إن الله تعالى سمى المدينة طابة » .

وهى « طيبة » ، و « جابرة » و « المجبورة » ، و « المحرومة » . و « العذراء » ، و « المحبوبة ، » .

وهى « مدخل صدق » ، والقرآن يقول : (وقل رب أدخلنى مدخل صدق * وأخرجنى مخرج صدق * واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيرا) . مدخل صدق هو المدينة ، ومخرج صدق هو مكة .

وإذا كانت مكة لها فضلها وسبقها ، فللمدينة قدرها وذكرها .

يقول رسول الله ﷺ فيما يرويه مسلم : « يأتى على الناس زمان يدعو الرجل لابن عمه وقريبه : هلم إلى الرخاء ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون . والذى نفسى بيده لايخرج أحد رغبة عنها ، إلا خلف فيها خير منه ، ألا إن المدينة كالكير يخرج الخبيث . لاتقوم الساعة حتى تنفى المدينة شراراً كما ينفى الكير خبث الحديد » .

وفى رواية : « إن المدينة كالكير ، تنفى خبثها ، وينصع طيبها » .

ويقول : « إن الإيمان ليأرز [يجتمع] إلى المدينة ، كما تأرز الحية إلى جحرها » .

ويتوسع الرسول صلى الله عليه وسلم توسعاً كريماً نبيلا فى الدعاء وحسن الرجاء للمدينة ، فيدعو ربه قائلا : « اللهم بارك لنا فى مدينتنا » كما يقول : « اللهم اجعل بالمدينة ضعفى ما جعلت بمكة من البركة » .

ويؤكد ذلك فيقول داعياً ربه : « اللهم إن إبراهيم كان عبدك وخليلك ، دعاك لأهل مكة بالبركة وأنا محمد عبدك ورسولك ، أدعوك لأهل المدينة : أن تبارك لهم فى مدهم وصاعهم ، مثل ما باركت لأهل مكة ، مع البركة بركتين » .

وكأن هذا الدعاء بالبركة كان رمزاً إلى ما ينبغى أن يكون عليه أهل المدينة من مشاركة وتكافل وتضامن ، فى أيام الرخاء والسراء ، وأيام الشدة والضراء ، وهذا ماوجه النبى إليه أهل المدينة حين قال لهم :

« اصبروا يا أهل المدينة وبشروا ، فإنى باركت على صاعكم ومدكم كلوا جميعاً ولا تفرقوا ، فإن طعام الرجل يكفى لاثنين ، فمن صبر على لأوائها وشدتها كنت له شفيعاً ، وكنت له شهيداً يوم القيامة ، ومن خرج عنها رغبة عما فيها ، أبدل الله عز وجل فيها من هو خير منه ، ومن بغاها أو كادها بسوء ، أذابه الله تعالى كما يذوب الملح فى الماء » .

وترمز الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبى بكر رضوان الله عليهما إلى محمدة تتفرد بها المدينة المنورة ، فتلك حيث تقول : « كل البلاد افتتحت بالسيف ، وافتتحت المدينة بالقرآن » .

وذلك أن النبى ﷺ كان يعض نفسه فى كل موسم على قبائل العرب ويقول : « ألا رجل يحملنى إلى قومه ، فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ كلام ربى » .

حتى لقى فى بعض السنين عند العقبة نفراً من الأوس والخزرج — أهل

المدينة — فتعرف إليهم وقال لهم : أفلا تجلسون أكلمكم ! قالوا : بلى . فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن . فقال بعضهم لبعض : ياقوم . تعلموا والله إنه للنبي الذى يوعدكم به اليهود .. فلا يسبقنكم إليه ، فاغتنموه وآمنوا به .

فأجابوه وصدقوه . وقالو : إنا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة والشر مابينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين . فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك .

ثم عادوا إلى المدينة ، وذكروا لقومهم حديث النبي ودعوهم إلى الإسلام . ففشا فيهم حتى لم يبق بيت ولا دار من دور الأنصار إلا ولرسول الله ﷺ فيها ذكر .

وتكررت البيعة . وبعث رسول الله مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين . وهكذا صدقت عائشة فى قولها : « كل البلاد افتتحت بالسيف . وافتتحت المدينة بالقرآن » ! ... ويالها من محمدة !

* * *

وإذا كانت مكة بلداً حراماً ، حرمها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، فإن المدينة بلد حرام كذلك ، حرمها خاتم الأنبياء محمد ﷺ . يقول : « إن إبراهيم حرم مكة ، ودعا لأهلها ، وإنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة » .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « إن المدينة حرم مابين عير إلى ثور [هما جبلان] ، فمن أحدث فيها حدثاً ، أو آوى محدثاً ، فعليه لعنة الله

والملائكة والناس أجمعين ، لايقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلا ، وذمة المسلمين واحدة ، يسعى بها أدناهم » .

وأكثر خصائص مكة مشتركة بينها وبين المدينة ، فلا موجب لتكرار سردها . وكتب الفقه تتكفل بالتفصيل .

ويقول النبي الكريم : « مابين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » . والمعنى كما يقول الأئمة : من لزم طاعة الله تعالى فى هذه البقعة التى به الطاعة إلى روضة من رياض الجنة . وبعض الأئمة يرى أن هذه البقعة نفسها ستكون روضة من رياض الجنة يوم القيامة ، وسواء أكان هذا هو المعنى أو ذاك ، فالحديث يدل على تنويه وتكريم وتفضيل .

وفى المدينة لذة الزيارة المستحبة لرسول الله ﷺ ، فكل مسلم سوى يحس بالشوق العميق الوثيق لهذه الزيارة التى تجدد الذكرى وتثير المشاعر .

ولقد روى محمد بن حرب الهلالى أنه شاهد أعرابياً زار رسول ، ثم قال يخاطبه : ياخير المرسلين ، إن الله عز وجل أنزل كتاباً عليك صادقاً قال فيه : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما) ، وإنى جئتك مستغفراً إلى ربى من ذنوبى ، مستشفعاً بك .

ثم بكى وأنشأ يقول :

يا خير من دفنت فى القاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم
أنت النبي الذى ترجى شفاعته ... عند الصراط إذا مازلت القدم !

* * *

وكم فى المدينة وحولها من آثار ، وكم تثير من ذكريات .

إن الوقوف أمام الرسول فى مسجده يبعث ذكرى أبى بكر جاره فى

مثواه ، وذكرى عمر الفاروق جار أبى بكر ، وعمر هو الذى كان يدعو فيقول : اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك ، واجعل موتى فى بلد رسولك ﷺ.

وفى حمى المدينة يوجد جبل أحد ، الذى قال فيه رسول الله : « أحد جبل يحبنا ونحبه » ، والذى كانت إلى جواره غزوة سقط فيها سبعون شهيداً من خيار المجاهدين ، وهم يستحقون أن يفردهم باحث بكتاب مستقل يمكن أن نسميه مثلا « شهداء أحد » ، ليكون سجلا من سجلات الحديث عن الفداء والوفاء .

وفى المدينة تثور ذكرى « الخندق » الذى حفره المسلمون فى غزوة الأحزاب ، وكان الرسول إذا رآهم يجدون فى العمل ، شجعهم بقوله الوعد المساجد :

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر اللهم للأنصار والمهاجرة

فأجابوه قائلين فى عزم وإيمان :

نحن الذين بايعوا محمـــدا على الجهاد ما بقينا أبدا

ثم يرددون نشيدهم الباقى :

والله لولا الله ما اهتدينـــا ولا تصدقنا ولا صلينـــا
فأنزلن ســكينة علينـــا وثبت الأقدام إن لاقينـــا
إن الألى قد بغوا علينـــا إذا أرادوا فتنة أبينـــا

ويردد النبى رافعاً صوته : « أبينا ... أبينا ... » .

وبقرب المدينة مسجد « قباء » أول مسجد أسس فى الإسلام ، والذى قال فيه القرآن : (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) .

وروت السيرة أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكباً وماشيا . وكان عبد الله بن عمر يأتى قباء كل سبت ، ويقول : رأيت رسول الله ﷺ يأتيه كل سبت .

وكان عمر يأتى مسجد قباء كل اثنين وخميس ، ويقول : والذى نفسى بيده لقدرأيتنا رسول الله ﷺ وأبا بكر فى أصحابه ، ننقل حجارته على بطوننا ، ويؤسسه رسول الله ﷺ ، وجبريل عليه السلام .

ومن آثار المدينة الخالدة مسجد القبلتين الذى صلى فيه الرسول صلاة الظهر ، فلما أدى ركعتين إلى بيت المقدس جاءه الوحى فأمره أن يتجه إلى الكعبة فاستدار فى صلاته واستدار الناس معه ، فسمى المسجد مسجد القبلتين . والمسجد على مسافة من المدينة .

ومن آثار المدينة « مسجد الفتح » فوق جبل سلع ، وفيه دعا الرسول على الأحزاب الباغية المشركة — فى غزوة الخندق — فاستجاب الله دعاءه ، وهزم الأحزاب ! ...

ومن آثار المدينة كثير وكثير ، ومن أراد المزيد فلديه الكثير من الكتب والمراجع عن المدينة وآثارها ، ومن بينها :

١ — كتاب الدرة الثمينة فى تاريخ المدينة ، للحافظ محمد بن محمود النجار .

٢ — تاريخ المدينة لابن زبالة .

٣ — آثار المدينة ، لعبد القدوس الأنصارى ... إلخ .

* * *

مكة والمدينة .

كلمتان ما أخفهما على اللسان ، وما أوسع رحابهما فى العقل والجنان .

إحداهما بلد الله : مكة ...

والأخرى بلد رسول الله : المدينة ...

ومنهما أشرقت كلمة التوحيد بين عباد الله فى بلاد الله .

لا إلـه إلا الله ، محمـــد رسول الله ...

المسجد الأقصى

السؤال :

نريد تعريفاً بالمسجد الأقصى ؟

الجواب :

« فلسطين » عزيزة غالية عند المسلمين ، وأعز مافيها على نفوسهم هو « المسجد الأقصى » : أولى القبلتين وثالث الحرمين ، ومسرى الرسول محمـــد ﷺ .

والمسجد الأقصى هو — كما يحدثنا التاريخ الدينى — ثانى مسجد بنى فى الأرض ، بعد المسجد الحرام فى مكة ، فقد روى الإمامان البخارى ومسلم فى صحيحهما أن أبا ذر الغفارى رضى الله تبارك وتعالى عنه قال :

سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع فى الأرض .

فقال : المسجد الحرام .

قلت : ثم أى ؟ .

قال : المسجد الأقصى .

قلت : وكم بينهما ؟ .

قال : أربعون عاماً ، ثم الأرض لك مسجد . فحيثما أدركتك الصلاة فصل .

والمسجد الأقصى يقع من المدينة فى الطرف الشرقى نحو القبلة . وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما :

البيت المقدس بنته الأنبياء ، وسكنته الأنبياء ، مافيه موضع شبر إلا وقد صلى فيه نبى ، أو أقام فيه ملك .

وابن عباس يريد بالبيت المقدس الأقصى ، لأن هذا المسجد العظيم ، قد أطلق عليه التاريخ عدة أسماء ، فسمى المسجد الأقصى ، وسمى كذلك لأنه أبعد المساجد التى تشد إليها لتزار ، ويبتغى المؤمنون بذلك الثواب والأجر ، وقيل : لبعده عن الأقذار والخبائث ، وسمى كذلك مسجد إيلياء ، وهى كلمة معناها بيت الرب أو بيت الله ، وقد كسره كعب أن يسمى مسجد إيلياء ، وقال إن اسم إيلياء اسم امرأة بنت المدينة ، ذكر ذلك ياقوت الحموى فى كتابه « معجم البلدان » ، والزركشى فى كتابه : « إعلام الساجد بأحكام المساجد » .

ومن أسماء الأقصى « بيت المقدس » أى البيت المطهر ، الذى يتطهر به من الذنوب ، أو المبارك ، وأطلق الاسم على المدينة كلها .

ومن أسمائه : « بيت القدس » .

ومن أسمائه : « بيت السلام » لكثرة سلام الملائكة .

والمسجد الأقصى هو أحد مسجدين اثنين ذكرهما الله صراحة فى القرآن فقد نص التنزيل الحكيم على اسميهما صراحة ، فى فاتحة سورة الإسراء حيث يقول :

(سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) . وهذا تشريف ، أى تشريف ، وتكريم أى تكريم .

والحديث الشريف الصحيح الذى رواه الإمام البخارى : «لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى ، وهذه ضميمة مهمة تضاف إلى قائمة التشريف للمسجد الأقصى ، فالنص النبوى يتحدث عن المساجد الثلاثة ذات المكانة والحرمة فى نظر الإسلام والمسلمين أجمعين ، وهى المسجد الحرام . وواسطة عقده هى الكعبة المشرفة ، والمسجد النبوى بالمدينة ، وهو الذى قال فيه رسول الله عليه الصلاة والسلام : « مابين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة » ، والمسجد الأقصى ، وفى حماه الصخرة المشرفة ، ومن حوله ذكريات الإسلام وحرمات المسلمين.

والآية التى افتتحت بها سورة الإسراء — وقد سبق ذكرها — تذكرنا بميزة قد كتبها الله تبارك وتعالى للمسجد الأقصى وبلده وهى القدس ، فقد جعل الله عز شأنه هذا — بمنه وفضله — نهاية لرحلة الإسراء فى الأرض ، وبداية لرحلة المعراج فى الملا الأعلى .

ثم جعله مرة ثانية نهاية لرحلة العودة من المعراج ، وبداية لرحلة العودة من الإسراء .

وكأن الله جل جلاله قد فعل ذلك لحكمة نستنبطها — والله أعلم بمراده — فنقول :

كأن الله تبارك وتعالى يريد أن يقول لعباده : أتباع القرآن وأبناء الإسلام : إن هذه البقعة التى يوجد بها المسجد الأقصى والقدس وما حولهما من أرض فلسطين ، هى أرض من صميم وطن المؤمنين ، فلا يجوز لهم بحال

من الأحوال أن يتهاونوا فى أمرها . أو يستخفوا بمكانتها ، أو يتركوها لدخيل يعتدى عليها أو يستبد بأمرها ، فذلك خرط القتاد كما عبر الأولون .

والمسجد الأقصى هو القبلة الأولى فى الإسلام ، ولذلك اشتهر بين المسلمين من قديم الزمن وصف المسجد الأقصى بأنه « أولى القبلتين » . كما اشتهر وصفه بأنه « ثالث الحرمين » بعد مكة والمدينة ، وبأنه « موطن الإسراء والمعراج » .

ولقد ظل سيدنا وقائدنا ورائدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه — يصلى ومعه المسلمون ، متجهين إلى بيت المقدس ، إلى ناحية المسجد الأقصى . أكثر من عام ، حتى نزل قول الله تبارك وتعالى فى القرآن الكريم : (قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعلمون) .

* * *

ولقد صلى رسول الله ﷺ فى المسجد الأقصى — كما جاءت الرواية بذلك عن شداد بن أوس — وفيها يقول النبى ﷺ : « فصليت من المسجد حيثما شاء الله » .

بل قصت علينا قصة الإسراء أن الله تبارك وتعالى جمع لرسوله محمد حوته من الأنبياء والمرسلين ، فصلى بهم إماماً ، وكأن هذه الصلاة بيعة من الرسل ، بأن مواريث النبوات والرسالات قد انتهت إلى خاتم الأنبياء محمد صلوات الله وسلامه عليه . ويصور أمير الشعراء أحمد شوقى فيقول مخاطباً إمام الرسل :

أسرى بك الله ليلا إذ ملائكته   والرسل فى المسجد الأقصى على قدم

لمـــا خطرت به التفوا بسيدهم ... كالشهب بالبدر أو كالجند بالعلم

صلى وراءك منهم كل ذى خطر ... ومن يفز بحبيب الله يأتمم

ويعلق المقرى فى كتابه « نفح الطيب » على هذه الإمامة المحمدية لكل الرسل فى المسجد الأقصى ، فيقول عن زيارته للأقصى فيما يقول : «وشاهدت محلا أم فيه ﷺ الرسل الكرام الهداة ، وكان من حقى أن أنشد هنا لك ماقاله بعض الموفقين ، وهو مما ينبغى أن تزمزم به الحداة :

إن كنت تسأل أين قدر ... محمـــد بين الأنام

فأصغ إلى آياتـــــه ... تظفر بريك فى الأوام

أكرم بعبـــد سلمت ... تقديمـــه الرســـل الكرام

فى حضرة القـــدس ... وافاهـــا بعز واحـــترام

صـــفوا وصـــلوا خلفه ... إن الجمـــاعة بالإمـــام

للشهـــب نور بـــين ... والفضـــل للقمر التمـــام

ســـلك النبوة باهـــر ... وبأحمـــد ختـــم النظام

هـــذى الكتاب دلالـــة ... تبـــقى إلى يوم القيـــام

شهـــدت له من بعد عجز ... ألسن اللـــد الخصـــام

خـــير الورى وأجـــل ... آيات له خير الكلام

فعليـــه من رب الـــورى ... أزكى صـــلاة مع سلام

كذلك أخبار فضل الصلاة فى المسجد الأقصى كثيرة ، فقد أخبر النبى أن الصلاة فيه لها فضل كبير على الصلاة فى غيره من المساجد ، باستثناء المسجد الحرام والمسجد النبوى .

سألت أم المؤمنين ميمونة رضى الله عنها بأن قالت لرسول الله ﷺ :

يارسول الله ، أفتنا فى بيت المقدس .

فقال : أرض المحشر والمنشر ، ائتوه فصلوا فيه ، فإن صلاة فيه كألف صلاة فى غيره ، وفى رواية أن الصلاة فيه تعدل خمسمائة صلاة .

وهذا الحديث يؤكد الاستنباط الذى سبق أن استنبطناه من حديث : « لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا [بالمدينة] ، والمسجد الأقصى » .

ومن فضائل المسجد الأقصى – كما ذكر العلماء – استحباب ختم القرآن المجيد فيه ، والمجاورة عنده ، للتعبد أو لطلب العلم ، والصوم فيه ، والإهداء إليه ، كالزيت والقناديل والفرش ونحوه ، والإحرام بالحج والعمرة منه ، وغير ذلك .

كما قال العلماء إن السيئات فيه تزداد فحشاً وقبحاً ، لأن المعاصى فى المكان الشريف تكون أشد اجتراء على الله سبحانه ، وأقل خوفاً منه ، وقد بسطت الكلام فى مثل هذا وغيره فى كتابى : « توجيه الرسول للحياة والأحياء » . وقد أمد بالكثير من المعلومات فى هذا المجال .

وروى أبو هريرة رضوان الله عليه أن النبى صلوات الله وسلامه عليه قال : « لاتزال عصابة من أمتى يقاتلون على أبواب دمشق ، وعلى أبواب بيت المقدس وما حوله ، لايضيرهم خذلان من خذلهم ، ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة » .

وما أعمق الإشارة التى ينطوى عليها هذا الحديث ، والتى تحث على صدق الجهاد ومداومة النضال والرباط والأهبة والحذر ، من أجل هذه المقدسات الإسلامية العالية التى لا يجوز بحال من الأحوال أن تذل أو تهون .

وقد روى فى الخبر : « من مات فى بيت المقدس فكأنما مات فى السماء ». وكأن هذا قيل فى شأن من يموت موفياً بعهده ، صادقاً فى وعده . محتسباً لربه ، طاهراً فى قلبه ، مستقيماً على طريقته ، مخلصاً فى طاعته .

وقال مكحول بن أنس : « إن الجنة تحن شوقاً إلى بيت المقدس ، وصخرة بيت المقدس من جنة الفردوس ، وهى صرة الأرض » . ولعل هذا تصوير على سبيل المجاز ، أو التشبيه الذى يفيد التمجيد والتقدير .

وذكر المفسر القرطبى فى كتابه : « الجامع لأحكام القرآن » أن من نذر صلاة فى مسجد لايصل إلا برحلة وراحلة ، فلا يفعل ، بل يصلى فى مسجده المعتاد ، اللهم إلا فى المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال : المسجد الحرام ، ومسجد المدينة ، والمسجد الأقصى ، فإن الصلاة فيها أفضل ، والرحلة إليها مشروعة .

* * *

وينبغى أن نلتفت إلى حقيقة مكانية تتعلق بأصل المسجد الأقصى ، فهو فى أصله هو كل ما داخل السور الواسع الرحيب ، وما زال هذا السور قائماً ، وإن تآكلت بعض أجزائه بسبب الإهمال أو العدوان . وفى داخل هذا السور توجد قبة الصخرة ، وعلى مقربة منها يوجد مسجد يسمى مسجد عمر بن الخطاب ، وهو المسجد الذى نؤدى فيه الصلوات والجماعات والجمعة ويطلق عليه اسم المسجد الأقصى ، من باب إطلاق اسم الجزء على الكل ، وهذا الجزء هو الذى أصابه الاحتراق سنة ١٩٦٩ م والذى ارتكبته يد أثيمة .

وما دامت قبة الصخرة جزء من المسجد الأقصى على أساسه الأول فلامانع من معرفة لمحة عن هذه القبة وعن الصخرة التى فيها .

فقد بنيت قبة الصخرة فى أوائل العصر الأموى الذى مر على القدس .

وقد عزم على بناء هذه القبة عبد الملك بن مروان فى السنة الثانية من خلافته ، واستمر بناؤها سبع سنوات ، ويروى صاحب كتاب : « الأنس الجليل فى أخبار القدس والخليل » قصة بناء هذا البناء الإسلامى الذى استغرق حوالى سبع سنوات فيقول: «إن عبد الملك بن مروان حين حضر إلى بيت المقدس، وأحر ببناء القبة على الصخر الشريفة ، بعث الكتب إلى جميع عماله ، وإلى سائر الأمصار ، إن عبد الملك قد أراد أن يبنى قبة على صخرة بيت المقدس ، تقى المسلمين من الحر والبرد ، وأن يبنى المسجد .

وكره أن يفعل ذلك دون رأى رعيته ، فلتكتب الرعية إليه برأيهم وماهم عليه ، فوردت الكتب عليه من سائر عمال الأنصار ، ترى رأى أمير المؤمنين موفقاً رشيداً ، وإن شاء الله يتم له مانوى من بناء بيته وصخرته ومسجده ، ويجرى ذلك على يديه ، ويجعله تذكره له ولمن مضى من سلفه .

فجمع الصناع لعمله ، وأرصد للعمارة مالا كثيراً ، يقال إنه خراج مصر سبع سنين ، ووضعه بالقبة الكائنة أمام الصخرة من جهة الشرق ، بعد أن أمر ببنائها ، وهى من جهة الزيتون ، وجعلها حاصلا ، وشحنها بالأموال ووكل على صرف المال فى عمارة المسجد والقبة أبا المقدام رجاء بن حيوة ابن جود الكندى ، وكان من العلماء الأعلام ، ومن جلساء عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وضم إليه رجلا يدعى يزيد بن سلام مولى عبد الملك بن مروان من أهل بيت المقدس وولديه .

ويقال إن عبد الملك وصف مايختاره من عمارة القبة وتكوينها للصناع ، فصنعوا له وهو ببيت المقدس القبة الصغيرة التى هى شرقى قبة الصخرة ، التى يقال لها السلسلة ، فأعجبته تكوينها ، وأمر ببنائها كهيئتها ، وأمر رجاء ويزيد بالنفقة عليها والقيام بأمرها ، وأن يفرغ المال عليها إفراغاً دون أن ينفقاه إنفاقاً .

وأخذوا فى البناء والعمارة عند القبة ، من شرقى المسجد إلى غربيه ، حتى أكملوا العمل وفرغ البناء ، فكتب رجاء ويزيد إلى عبد الملك بدمشق : أن قد أتم الله ما أمر به أمير المؤمنين ، من بناء قبة صخرة بيت المقدس والمسجد الأقصى ، ولم يبق لمتكلم فيه كلام ، وقد بقى مما أمر به أمير المؤمنين من النفقة عليه بعد أن فرغ البناء وأحكم ، مائة ألف دينار ، فيصرفها أمير المؤمنين فيما أحب .

فكتب إليها أمير المؤمنين أن قد أمرت بها لكما جائزة ، لما وليتما من عمارة البيت الشريف المبارك ، فكتبا إليه : نحن أولى أن نزيده من حلى نسائنا فضلا عن أموالنا ، فأصرفها فى أحب الأشياء إليك ، فكتب إليهما : بأن تسبك وتفرغ على القبة ، فسبكت وأفرغت عليها ، فما كان أحد يقدر أن يتأملها مما عليها من الذهب .

ثم بعد انتقال الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك انهدم شرقى المسجد ، ولم يكن فى بيت المال حاصل ، فأمر بضرب السبائك وإنفاقها على ماانهدم منه ، وكان الفراغ من عمارة قبة الصخرة والمسجد الأقصى سنة ثلاث وسبعين من الهجرة الشريفة » .

* * *

والمسجد الأقصى قد قرئت فى ساحته الألوف المؤلفة من الدروس وحلقات العلم ومجالس العلماء وإذا كان الأزهر الشريف قد اشتهر بأعمدته التى عقد حولها الكثير من مجالس العلم وحلقاته ، فإن المسجد الأقصى ينافس الأزهر فى ذلك ويباريه ، وهاهو ذا على سبيل المثال الحافظ أبو بكر ابن العربى يقول :

تذاكرت بالمسجد الأقصى مع شيخنا أبى بكر الفهرى الطرطوشى فى

حديث أبي ثعلبة المرفوع : «إن من ورائكم أيا ما للعامل فيها أجر خمسين منكم» فقالوا : بل منهم ، فقال : « بل منكم ، لأنكم تجدون على الخير أعوانا ، وهم لا يجدون عليه أعواناً » .

وتفاوضنا كيف يكون أجر من يأتى من الأمة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم قد أسسوا الإسلام ، وعضدوا الدين ، وأقاموا المنار ، وافتتحوا الأمصار ، وحموا البيضة ، ومهدوا الملة ، وقد قال ، ﷺ ، فى الصحيح : « لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد ذهباً مابلغ مد أحدهم ولا نصيفه » ، فتراجعنا القول .

وتحصل ما أو ضحناه فى شرح الصحيح ، وخلاصته : أن الصحابة كانت لهم أعمال كثيرة لايلحقهم فيها أحد ، ولا يدانيهم فيها بشر ، وأعمال سواها من فروع الدين يساويهم فيها فى الأجر من أخلص إخلاصهم ، وخلصها من شوائب البدع والرياء بعدهم ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين والإسلام ، وهو أيضاً انتهاؤه ، وقد كان قليلا فى ابتداء الإسلام ، صعب المرام ، لغلبة الكفار على الحق ، وفى آخر الزمان أيضاً يعود كذلك ، لوعد الصادق ، ﷺ بفساد الزمان ، وظهور الفتن ، وغلبة باطل ، واستيلاء التبديل والتغيير على الحق من الخلق ، وركوب من يأتى سنين من مضى من أهل الكتاب ، كما قال ، ﷺ : « لتركبن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا حجر ضب خرب لدخلتموه » وقال ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ » .

فلا بد ، والله تعالى أعلم بحكم هذا الوعد الصادق ، أن يرجع الإسلام إلى واحد ، كما بدأ من واحد ، ويضعف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى إذا قام به قائم مع احتواشه بالمخاوف ، وباع نفسه من الله تعالى فى الدعاء إليه ، كان له من الأجر أضعاف ما كان لمن كان متمكناً منه معانا عليه

بكثرة الدعاة إلى الله تعالى ، وذلك قوله : « لأنكم تجدون على الخير أعواناً وهم لا يجدون عليه أعواناً » حتى ينقطع ذلك انقطاعاً باتاً لضعف اليقين وقلة الدين ، كما قال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض الله الله » .

هذا وقد تفنن العلماء والحكماء من قديم الزمان فى وصف الحنين إلى بلد المسجد الأقصى الذى هو البيت المقدس ، ومن ذلك قول حافظ الحفاظ ابن حجر العسقلانى شارح صحيح البخارى فى الحنين إلى المسجد الأقصى :

إلى البيت المقدس جئت أرجو جنان الخلد نزلا من كريم
قطعنـــا فى مســـافته عقابا وما بعد العقاب سوى النعيم .

ولقد قال أحد الشيوخ : تجلى الله تبارك وتعالى على المسجد الحرام بالجلال ، وعلى المسجد الأقصى بالجمال ، وعلى مسجد الرسول ﷺ بالكمال فالمسجد الحرام يملأ الخواطر ، والمسجد الأقصى يوقف النواظر ، ومسجد الرسول يفتح البصائر .

أما بعد فتحية وسلام على المسجد الأقصى ومن حوله ، وما حوله . تحية وسلام من كل مكان يتلى فيه قول الله تبارك وتعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من أياتنا إنه هو السميع البصير) .

وعلى الله قصد السبيل .

الإسلام والاشتراكية الديمقراطية

السؤال :

ما العلاقة بين الإسلام والاشتراكية الديمقراطية ؟

الجواب :

« لله فى خلقه شئون » .

يالها من كلمة فيها عبرة وحكمة . كلما تناولت القلم لأكتب شيئاً يتعلق بالسياسة وأهلها ، أو الحكم وذويه ، خفت وتهيبت ، لأنى أحسب حينئذ أن بعض الناس — أو الكثير منهم أحياناً — سيطلقون ألسنتهم الحداد بتهمة المحاملة والمراءاة والمنافقة ، ولا يتوقعون أن يستمسك الكاتب بالحقيقة ، أو يستعصم بالصدق ، ولذلك يذهبون عامدين متعمدين إلى التماس العيب ، أو تجسيم النبوة اليسيرة . وهذه علة موروثة من قديم ، لطول ماخب أهل النفاق فى الباطل ، ومردوا على الاختلاق .

ونسأل الله جل جلاله أن يقينا الزلل فيما نقول ، ويأخذ بنواصينا إلى ركن الحق وشاطئ النجاة من أهل قالة السوء ، وأن يشملنا بالنجاة من الذين لايستجيبون للحق ، والذين لايقنعون به .

أريد لأتكلم عن « الإسلام والاشتراكية الديمقراطية » وإذا قلنا كلمة « الإسلام » ، وأردنا تحديد موقفه وكلمته فى قضية من القضايا أو موضوع من الموضوعات ، فلسنا ندعى العصمة من الخطأ ، فما منا من أحد إلا وهو يؤخذ منه ويرد عليه ، ماعدا المعصوم من الله وهو رسول الله « ﷺ » ، ولسنا نزعم لأنفسنا أننا سنأتى بفصل الخطاب ، أو قول جهيزة الذى لايعارض وفوق كل ذى علم عليم ، وللدين رب أنزله على علم ، وشرعه على بصيرة ، وهو أعلم من الجميع لكل أموره وحقائقه .

وإنما نتكلم عن الإسلام حينما نفهم . ورحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا ، كما قال الأول . ولذلك جرى العرف بين البصراء من الفقهاء — إذا جالوا وصالوا فى ميدان الإفتاء — أن يختموا كلامهم بعبارة موروثة مأثورة ، هى قولهم ، والله تبارك وتعالى أعلم .

إن كلمة « الاشتراكية » حديثة الاستعمال فى دنيا السياسة والحكم . ولكنها قديمة أصيلة فى لغة العرب . فالاشتراكية تدل على الاشتراك ، ومن قديم نجد فى الفقة الإسلامى كلمة « الشركة » ، وما يتصل بها من أحكام ، ونحن نتذكر فى هذا المقام قول الرسول ﷺ : « الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والكلا والنار . وفى بعض الروايات : « والملح » .

وكلمة « الديمقراطية » قديمة الاستعمال فى دنيا السياسة والحكم ، لأنها منقولة معربة عن اللاتينية . ونحن نعبر عنها فى لغة العرب والإسلام بكلمة « الشورى » . أى الاشتراك فى إبداء الرأى وصنع القرار ، والاشتراك فى التنفيذ ، وحمل التبعة ، والإسهام فى الحق والواجب .

وقد فسروا « الديمقراطية » بأنها حكم الشعب بوساطة الشعب لصالح الشعب ، وهو تفسير موروث قديم ، يراد منه فى أيسر معانيه أن يشترك الشعب أو نواب عنه فى إدارة حكم المجتمع بالاشتراك ، وتجنبه ويلات الفردية والاستبداد ، وتنفيذ هذا على أحسن مستوياته هو المراد من « الشورى » والشورى هى أساس الحكم فى الإسلام فى كل عصر وأوان ، لأن القرآن الحكيم قد نص عليها ودعا إليها فقال فى سورة الشورى : (وأمرهم شورى بينهم) ، وقال مخاطباً النبى فى سورة آل عمران (وشاورهم فى الأمر) .

ومقتضى الشورى الصادقة أن نستمع إلى الرأى الآخر ونعطيه قيمته ومكانته ، بشرط أن يكون ذلك الرأى الآخر للصالح العام والنفع المشترك .

لا أن يكون ذلك الرأى الآخر لشهوة الاعتراض ، أو لحب التظاهر ، أو للغرض يحرك الهوى ، أو يميل بالموقف ، وقد عرف المجتمع الإسلامى كيف يستمع للرأى الآخر ويستجيب له ، وهذا هو عمر الفاروق الذى يقال له من أحد أفراد الرعية ، والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بالسيف ياعمر . ويكون رد عمر على ذلك : الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد من يقوم أعوجاج عمر بالسيف .

وهذا عمر يقال له : اتق الله ياعمر ، فيفرح عمر بذلك ويستزيد منه ، ويقول : لاخير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نسمعها .

وينبغى دائماً أن يكون الرأى الحاسم الأخير للشعب أو للأمة ، لأن اجتماع الكثرة على رأى يكون دليلا أى دليل على أن الخير مع هذا الرأى الجماعى المشترك ، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) ويقول الرسول ﷺ ، « لاتجتمع أمتى على ضلالة » ويقول : « يد الله مع الجماعة » ويقول : « لاتزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين ، لايضرهم من خالفهم ، إلى يوم القيامة » .

وأساس الديمقراطية الحقة أن تتوافر للأمة الاعتزار بشخصيتها وتوطيد الثقة بنفسها . وارتكانها على أسس مكينة من ذاتها ومقوماتها ، والإسلام العظيم يحرص دائماً على أن يعطى الأمة المؤمنة ثقتها بنفسها واعتزازها بذاتها ، ومن ذلك أن يقول للأمة فى كتابها وهو قرآنها الأقدس : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) ، ويقول فى سورة البقرة : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) كما يقول أيضاً فى سورة . آل عمران : (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) .

والحاكم فى الإسلام يخضع للشورى ويأخذ بها ويدعوا إليها ، ولا يتعالى على النقد أو المعارضة أو المراجعة ، بل يصل فى ذلك أن يخلع نفسه بنفسه إذا انحرف به الطريق أو مال إلى الباطل ، أو لم يعد أهلا للقيادة والتوجيه ، فهذا أبو بكر رضى الله عنه يلقى خطبته الأولى فى أول حكمه فيقول: «إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فقومونى ، القوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

والأمم اليوم لاتعيش بغير حضارة موروثة نعتز بها وتستند إلى مقوماتها ، والحضارة الإسلامية العربية التى نؤمن بها ونستقى منها حضارة إنسانية عالمية ، لاتعرف الطريق إلى التعصب أو العنصرية أو العصبية ، بل من أهم مبادئها عموم الخطاب فيها إلى الناس جميعاً ، وقيام مبدأ الاختيار والتفاضل فيها على أساس التقديم للأصلح والأفضل ، ويكفينا هنا قول القرآن : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) .

ونحن الآن نتواصى بأن يقيم دولة العلم والإيمان ، ونجعل بنيان هذه الدولة قائماً على الاشتراكية الديمقراطية القائمة على الشورى والتواصى بالحق والعدل ، والعلم هو طريق الحقائق والدقائق فى الكون كتاب الله المنظور ، كما أن العلم الحق هو الذى يفتح أبواب الإيمان بالله جل جلاله ، ولذلك يجعل القرآن ثمرة العلم هى الخشية لله تعالى فيقول :) إنما يخشى الله من عباده العلماء) ، وقد قلت فى كتابى « مع كتاب الله » ، إن بعض الناس قد يفهم من مادة « الخشية » هنا معنى الفزع والرعب والقلق والاضطراب . وهذا الفهم لايسهل تقبله ، لأن العلم لايورث القلق ، وإنما يورث المعرفة ، ولا يورث الفزع . وإنما يورث الطمأنينة .

ولكى نفهم معنى الخشية ، هنا ينبغى أن نتذكر أن المراد بالعلماء هنا هم العلماء المتدبرون المؤمنون الناظرون فى ملكوت السماوات والأرض ، الذين يستنبطون ويتعرفون إلى أسرار الطبيعة وخصائص الأشياء وسنن الكون ، لأن الآية الكريمة : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) تتحدث عن السماء وماء المطر وخروج النبات من الأرض ، وتعدد ألوان الثمرات وأنواع . وتتحدث عن الجبال وما فيها من طرائق مختلفة الألوان وتتحدث عن قدرة الله فى إبداعه فى خلق السموات والأرض والإنسان والحيوان وكل من دب على الأرض ثم تشير إلى أن العلماء هم الذين يستطيعون أن يدركوا قيمة هذه الأمور ، فيعرفوا عن طريقها عظمة الله عز وجل ، لقد جاء فى سورة فاطر : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها * ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور) .

وسواء أكنا نقول : العلم والإيمان ، لأن العلم هو الذى يهدى إلى الدين أم نقول : الإيمان والعلم لأن الإيمان نور من الله . ونور الله يهدى إلى العلم ، فالواجب أن نجمع بين إيمان العلم وعلم المؤمنين ، فنكون فى مجتمعنا مؤمنين علماء أو علماء مؤمنين .

ومجتمع الاشتراكية الديمقراطية يتواصى أهلوه بالتزام الوسطة والتوازن بين المادة والروح ، وبين الدنيا والآخرة ، وبين الإيمان والتفكير ، وبين المصلحة الفردية أو المصلحة الجماعية ، وبين ما لك وماعليك ، وهكذا يدعونا الإسلام ويأمرنا ، فالقرآن الكريم يقول : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين) ، فهذه الآية الكريمة تحث الإنسان على أن يحسن الجمع بين مطالب الدنيا والآخرة ، وتأمره بعدم الإفساد فى الأرض ،

وتنهاه عن الإضرار بالغير وتحرضه على حسن المواءمة بين حقه وحقوق غيره ، وتدعوه إلى التعاون مع الناس فيما هو خير وبر ، فيقول القرآن ، (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان و اتقوا الله إن الله شديد العقاب) ، وقد صور الرسول ﷺ التوازن الواجب بين مصلحة الإنسان ومصلحة سواه فرسم لذلك صورة قوم اشتركوا فى ركوب سفينة وقسموها بينهم ، فأقام بعضهم فى أسفل السفينة وبعضهم فى أعلاها ، فكان الذين فى أسفلها يمرون بالماء على الذين هم فوقها ، فتأذوا من ذلك ، فأخذ بعض الموجودين فى أسفلها فأساً وأخذ ينقر فى أسفل السفينة ، فسألوه فقال : مالك ؟ فأجاب بقوله : لقد تأذيتم منى ولابد لى من الماء ، فعلموا العاقبة الوخيمة لو أنهم تركوا من يريد نقر أسفل السفينة كما شاء ، فإن أخذوا على يديه أنجوا أنفسهم وأنجوه معهم ، وإن تركوه يفعل مايشاء هلكوا وأهلكوه معهم . ويعنى هذا أنه لابد من التوفيق بين مصالح الفرد ومصالح الجماعة .

وهذا المجتمع المراد إنشاؤه لابد وأن يكون مستقلا دون انحياز إلى هذا الفريق أو ذاك ، وهو ما نعبر عنه الآن بعبارة عدم الانحياز والقرآن يزكى هذا الاستقلال فيقول : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) .

وقد أبان رسول الله عملياً هذا الاستقلال وعدم الانحياز ، فعن عبد الله ابن مسعود قال ، خط رسول الله ﷺ خطاً بيده ، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، وخط عن يمينه وشماله ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه . ثم قرأ . (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) . وروى عن جابر أنه قال . كنا جلوساً جلوساً عند النبى ﷺ ، فخط خطاً هكذا أمامه ، فقال . هذه سبيل الله .

وخطين عن يمينه ، وخطين عن شماله ، وقال ، هذه سبيل الشيطان، ثم وضع يده فى الخط الأوسط ، ثم تلا هذه الآية : (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) .

وعن رسول الله ﷺ قال : « ضرب الله مثلا صراطاً مستقيماً . وعن جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : أيها الناس ، ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً ولا تتفرقوا ، وداع يدعو من جوف الصراط ، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب . قال ويحك لاتفتحه ، فإنك إن تفتحه تلجه ، فالصراط الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم .

وقد سجل المجتمع الجديد فى الدستور وشروحه عبارة « الشريعة الإسلامية مصدر أساسى للتشريع » هكذا عبروا وقالوا ، ونحن نطمح إلى أن تكون الشريعة هى المصدر الأساسى الذى يرجع إليه ، وتعتمد بعد الله عليه عند التقنين والتشريع ، لأن هذا حكم الله ودعوته .

وحين تلتزم الاشتراكية الديمقراطية وتلزم نفسها بالتزامها اتخاذ الشريعة الإسلامية المصدر للتشريع والتقنين فلا تأخذ عن غيرها أى وضع يعارض أصلا من أصولها ، أو مبدأ من مبادئها تكون قد استجابت فعلا بمشاعر الشعب المؤمن المتمسك بدينه منذ القدم ، وصدقت الانتساب إلى العروبة المؤمنة وعملت على صيانة الأسرة القائمة على الدين والأخلاق الوطنية ، والتربية الدينية البصيرة ، والعدالة الاجتماعية التى تظل الأمة المؤمنة بالرعاية والخدمات وبذلك تكون الأمة قد ولت وجهها شطر حمى ربها لتستعين به ، وتتوكل وتؤكد مارضيه من أسس ، ليحقق لها ما نرجوه من عزة وكرامة وتوفيق .

ونحن نردد منذ عشرات من السنين قولنا : « العروبة وعاء الإسلام والإسلام روح العروبة» ومن قبل ذلك زكى تبينا اعتزاز الإنسان فى غير بغى ولا باطل بوطنه ولغته وقوميته ودفاعه العادل عن حماه وقومه ، وقال فيما قال عن اللغة وليست العروبة من أحدكم بدم ولا جنس ، وإنما هى العربية ، فمن تكلم بالعربية فهو عربى .

والإسلام يزكى الاعتزاز القويم بالوحدة الوطنية ، حيث يكون لكل فرد حريته فى الاعتقاد والعبادة ، على أن يكون على كل فرد واجب الاحترام للغير فى حدود القانون والعدالة ، ومن فضل الله علينا أن الإسلام يزكى العلاقات الطيبة بين عنصرى الأمة ، ونحن مثلا حرية العقيدة مكفولة فى الإسلام بصورة طيبة مرضية ، فالقرآن يقول :(لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) ويقول : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ويقول (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) .

واعتزازنا بقوميتنا ووطنيتنا لايتعارض مع روحنا الإنسانية العالية ، فقد حثنا رسولنا على بذل السلام للعالم وعلى عدم الاعتداء على من يسالمنا أيا كان : (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) .

ومن واجبنا أن نحرص على تحررنا من الاستعمار والنفوذ الأجنبى بأية صورة كان هذا النفوذ ، لأن الإسلام العظيم يأمرنا أن نكون أحرارا لاندين بأى لون من ألوان العبودية إلا لمن أنشأنا وخلقنا ، فالله تعالى يقول لنا فى سورة التوبة : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم) ، ويقول : (لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله

فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاه ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير) ويقول: (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين) .

ولكى تكون الاشتراكية ديمقراطية ، وتستقيم فى طريقها ، وتثمر أطيب الثمرات فى نضالها ، ونبعد عن حماها الظنون والشكوك ، يجب لها ويجب عليها باسم عقيدتها ووطنها أن تقضى على مخلفات الاستعمار ، تلك المخلفات التى عملت على مسخ الأمة ، وتمييع شخصيتها التى ورثتها من عقيدتها وإيمانها وأخلاقها ، والتى تعمل على تفتيت معنويات الأمة وقيمتها .

ويجب على هذه الاشتراكية الديمقراطية أن تكون مفهومة واضحة ، محددة الملامح ، تحسن الجمع بين حق الفرد وحق الجماعة ، وتوائم بين الرعاة والرعية . حتى تصلح الأمة — بعد استكمال تحريرها وتطهيرها — للنهوض فى البناء والتعمير والتثمير .

ولا ينبغى الجمود أو القبوع فى موروث لاحركة فيه ، ولا تطور فى نواحيه ، كما لا ينبغى الانبهار غير المدروس بجديد خادع ، بل الخير كل الخير فى الاعتزاز بالماضى الكريم والتراث الأصيل ، والقرآن الحكيم يقول فى الحث على الاستناد إلى كرم المبادئ والمثل : (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) والحديث النبوى الشريف يدعو إلى الانفتاح على كل خير يكون هنا أو هناك فيقول : « الحكمة ضالة المؤمنين رأها أنى وجدها ، فهو أحق الناس بها » .

والمبادئ ثابتة باقية ، والوسائل هى التى تتطلب التحديد الملائم للزمان والمكان والإنسان .

والاصلاح المنشود ينشأ عن طريق الاحتياج إليه ، وينبع من صميم

المجتمع المتطلع إليه . وإلا كان غريباً عن الأمة دخيلا عليها ، فلا تظهر لها فيه شخصية ولا يكون لها تميز أو استقلال . وشتان بين المستعير والأصيل ، وشتان بين استمرار الشعب محالة من واقع ملموس . واقتراضه لخليط غير مستقيم . فنحن بعون ربنا تستمسك بقيمنا الحضارية المتفقة مع روح العصر ، وننتفع بتجاربنا السابقة . لكى نحرص على النافع والصالح . وننفى عنا الفاسد والضار . وفى أثناء ذلك نتعرف جيداً إلى الدنيا من حولنا . لنأخذ أهلها ما يتفق مع قيمنا وعقائدنا . ومبادئنا .

ويجب أن نوطد فى مجتمعنا شرعة الجزاء والحساب . ومبدأ الثواب والعقاب ، فذلك أمر بارئنا ، ومما تحتمه عقيدتنا وإيماننا . فالقرآن يقول : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » وقال : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وأن نذكر الناس دائماً بالتوازن المطلوب بين المادة والروح أو بين الدنيا والآخرة . فربنا هو القائل : (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) وفى الحديث النبوى الشريف : «ليس خيركم من عمل لدنياه وترك آخرته . ولا من عمل لآخرته وترك دنياه — ولكن خيركم من عمل لدنياه وآخرته » وجاء فى الأثر الأثر الشريف : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

وينبغى أن نكون صادقين فى الحض على العمل والاكتساب بالطرق المشروعة . وأن يكون جادين فى مقاومة الكسب غير المشروع . وعمادنا فى ذلك قول الله : (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) وقول الرسول : « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » وقول القرآن : (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) وقوله : (فإذا

قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) .

وينبغى أن نجعل هدفنا بذل جهودنا حتى يتحقق بيننا الكفاية فى الإنتاج والعدالة فى التوزيع بأن نحسن التخطيط والتنفيذ والعدل فى التوزيع ، فيكون لكل فرد بحسب خدمتة ، أو على قدر عمله ، والقرآن يقول : (وأن ليس للإنسان إلا ماسعى) وعلينا أن نقف فى وجه أى احتكار من القلة لثروة المجتمع ، فالقرآن يحارب هذا الانفراد بالثروة فيقول القرآن : (كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم) كما يحارب الدين كنز الثروة فيقول القرآن : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم • يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) ، ويحكم على الاحتكار بأنه خطأ ، وأن السعى والتمهيد لجلب أرزاق الشعب خير . فيقول الحديث : «المحتكر خاطئ والجالب مرزوق» ويجعل الزكاة فرضاً محتوماً معلوماً فيقول القرآن : (والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) .

والاشتراكية الديمقراطية تدعو إلى نشر التضامن الاجتماعى ، وحماية المجتمع للفرد ، وتكليف الفرد بواجباته نحو المجتمع فالله يقول : (إنما المؤمنون إخوة) ويقول : (وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) ويقول الرسول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وهذا يستلزم رعاية الأسرة والطفولة والمرأه ، ورعاية المجتمع للأخلاق وحمايتها ومراعاة المستوى الرفيع للتربية الدينية والقيم الروحية والخلقية والآداب العامة والتمكن لصالح التقاليد .

وقد قلت فى كتابى « الإسلام والاقتصاد » عن التأمين الاجتماعى هذه الكلمات « المفهوم العام للتأمين الاجتماعى هو أن تراعى الظروف الخاصة

التى تعرض لطوائف من الناس فتحول بينهم وبين التمتع بالمستوى اللائق بهم فى المجتمع المتكافل المتضامن ، وأن تعالج هذه الظروف بما يناسبها ، وبما يؤمن صاحبها من التأثر بها تأثيراً يتبعه فى حياته . أو تعلقه فى مجتمعه .

ولقد اتخذ المجتمع المعاصر عدة قوانين للتأمين الاجتماعى ضد الفقر والعجز والمرض والشيخوخة وعد هذهالقوانين مفخرة من مفاخرة الاجتماعية والاقتصادية .

ولو رجعنا إلى الإسلام لوجدناه قد سبق إلى مبادئ التأمين الاجتماعى فدعا إليها ، وحث عليها ، بل لقد وضع أسساً لألوان من التأمين الاجتماعى لم تألفها المجتمعات المعاصرة حتى الآن .

وينهض التأمين الاجتماعى فى الإسلام على قاعدة أن الأمة كلها كحلقة واحدة ، وأنها يجتمع أفرادها ورعاتها ورعاياهامتكافلة متضامنة ، فالمؤمنون إخوة ، وهم أمة واحدة ، وواجبهم أن يعتصموا جميعاً بحبل الله القوى المتين ، ومثلهم كمثل البنيان يشد بعضه بعضاً ، والحديث النبوى يقول : « الضعيف أمير الركب » ، ومفهوم الحديث أنه يجب أن يحسب حساب الضعيف مهما كان ضعفه ، فلا نترك الأقوياء يعصفون به أو يسحقونه

وكذلك من أصول الإسلام أن الدولة مسئولة عن أبنائها ، وراعية لجميع أفرادها ، فمن عجز منهم أو احتاج بلا تقصير منه أو ذنب صدر عنه كان على الدولة أن ترعاه وتؤمن له حياته ، وهذا عمر بن بن الخطاب يقول : « لو عثرت دابة بشط الفرات لخشيت أن أسأل عنها يوم القيامة ، لماذا لم أمهد لها الطريق » ؟

وقد بكى عمر بن عبد العزيز يوماً وهو خليفة فسألته زوجته عن سبب بكائه فقال : إنى نظرت إلى نفسى فوجدتنى قد وليت أمر هذه الأمة ،

صغيرها وكبيرها وأسودها وأحمرها . ثم ذكرت الغريب الضائع . والفقير المحتاج والأسير المفقود ، وأشباههم فى أقاصى البلاد وأطراف الأرض ، فعلمت أن الله تعالى سائلى عنهم ، وأن محمداً ﷺ حجيجى فيهم ، فخفت ألا يثبت لى عند الله عذر ولاتقوم لى مع رسول الله حجة ، فحنت على نفسى .

والإسلام قد عرف التأمين الاجتماعى للطفولة ، فقال رسول الله : « أنا أولى الناس بكل مسلم ومسلمة ، فمن ترك مالا فلورثته ، ومن ترك دنيا أو أولاداً فقراء فليأتنى » .

وكان الفاروق عمر يفرض لكل مولود مائة درهم من بيت المال إذا افطمته أمة وانتهى رضاعه . وحدث أن عرف أن امرأة ترغم ابنها على الفطام قبل الأوان ، حتى يستحق هذا القدر من بيت المال ، فحزن عمر لذلك ونادى فى الناس ، لاتعجلوا صبيانكم على الفطام فإنا نفرض لكل مولود فى الإسلام .

وعلى الله قصد السبيل .

فهرس الكتاب